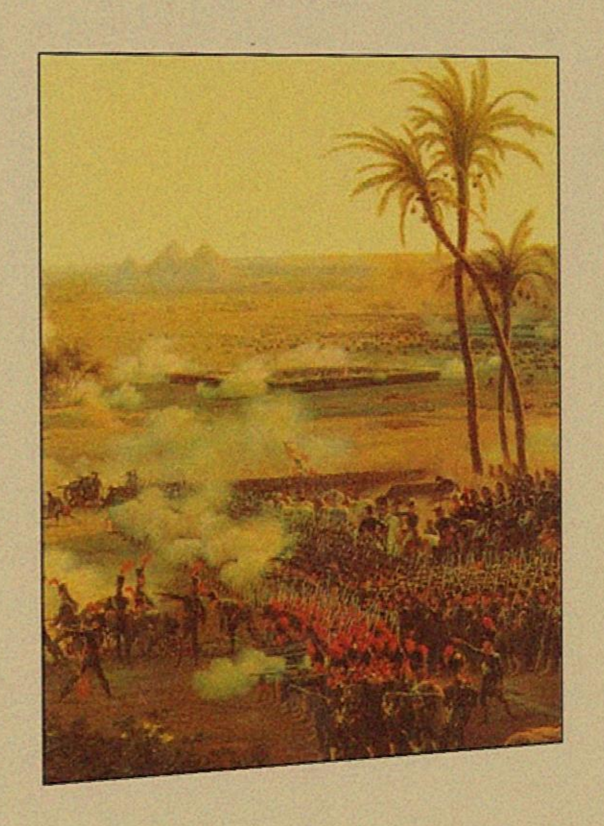
جيلبرت سينويه

المصرية

رواية



منشورات الجمل

جيلبرت سينويه

المصرية

رواية

ترجمة: محمد بنعبود

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة سنة ١٩٤٧، تابع دروسه الأولى بإحدى مدارس اليسوعيين بمصر. ثم انتقل الى معهد الموسيقى بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. يهتمّ أيضاً بكتابة الحوار والسيناريو للسينما والتلفزيون. من رواياته: **ابنةُ النيل** (١٩٩٣)، (تصدر ترجمتها العربية قريباً)؛ **الفرعون الأخير** (١٩٩٩)؛ **كتاب الفيروز** (١٩٩٦)، (تصدر ترجمتها العربية قريباً). صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق الى اصفهان** (١٩٩٩).

ولد **محمد بنعبود** عام ١٩٥٧ بالمغرب. كاتب ومترجم، نشر العديد من الترجمات الأدبية في الجرائد والمجلات. صدر له عن منشورات الجمل: غابريللي: **دفاعاً عن الاستشراق** (ترجمة بالاشتراك).

جيلبرت سينويه: **المصرية**، رواية، ترجمة: محمد بنعبود

Gilbert Sinoué: *L'Egytienne*

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

هذا الكتاب مهدى الى أم. بي.

لن أنسى...

يولد المصري وفي قلبه ورقة بردي مكتوب عليها بحروف ذهبية، أن السخرية هي المنقذ من اليأس...

أس. سي

هذا البونابرت ترك لنا سراويله مليئة بالخـ...!
سنعود الى أوروبا ونلقمه إياها.

جان-بابتيست كليبر

مصر سنة ١٧٩٠

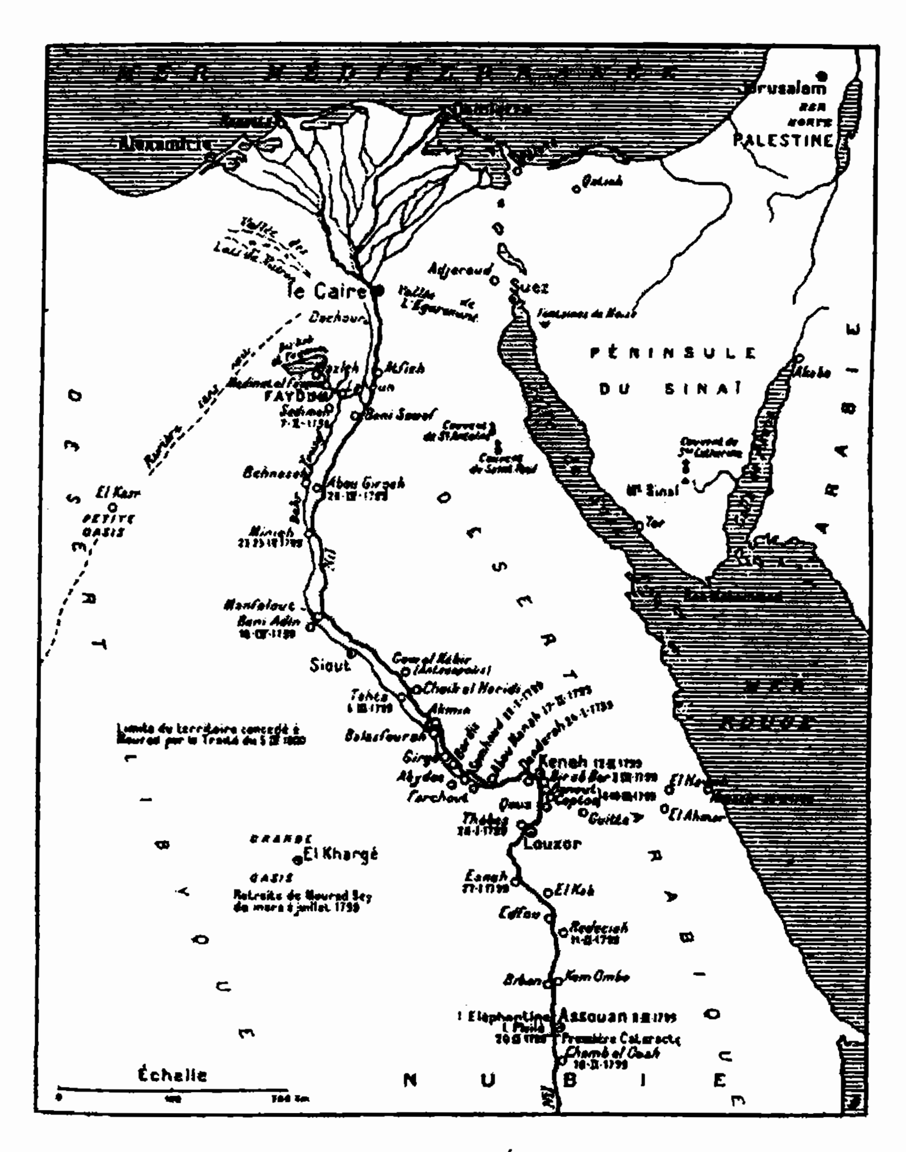
في القرن السابع، اجتاح الفتحُ العربي أرضَ الفراعنة القديمة، فاسترقَّ البلد.

وفي القرن الثالث عشر، صدر عن الجنرال الكردي صلاح الدين، بطل مقاومة الصليبيين، وبالخصوص عن السلطان الأيوبي، تهورُ إدخال اثني عشر ألفاً من الرقيق الجيورجيين أو الشركسيين، لمصر. كان هؤلاء الأشخاص يدعون المماليك، وأصبحوا سادة وادي النيل فأنشأوا سلالتهم الحاكمة الخاصة بهم.

ثم كان الانحلال الذي لا مناص منه.

وفي بداية القرن السابع عشر، اجتاح الباب، أي الأتراك، مصر، لكنهم، مع ذلك، تركوا للمماليك جزءاً من سلطتهم. كما أن قوادهم، الذين كان يصل عددهم إلى عشرين قائداً، استمروا في تسيير الأقاليم بلقب البكوات، بشرط وحيد متمثّل في تأدية جزية سنوية لاسطنبول.

في الوقت الذي تبتدئ فيه هذه الحكاية، تكون سلطة الباب قد ضعفت منذ نصف قرن، ويظل المماليك - من عشرة إلى اثني عشر ألف نفر - هم السادة الحقيقيون للبلد.



Moyenne et Haute-Égypte.

الجـزء الأول

الفصل الأول

أغسطس ١٧٩٠

أغمضت الفتاة عينيها، مستلقية على ظهرها، مأخوذة بمظهر الغسق الأزرق. في مثل هذه اللحظات لا يعود للزمن أي سلطان عليها. كانت تودّ لو غاصت في دفء الرمال، لو ولجتها وذابت كما يذوب الليل في بطون الآبار الواهنة.

لمست شفتان جبهتها الندية، فكانت رغبتها في فتح عينيها كبيرة، لكنها أرغمت نفسها على البقاء بغير حراك.

- كريم. . .؟

لم يُجِب المراهق المحني فوقها. كان يبدو أكبر من سنواته السبع عشرة؛ مفتول العضلات، أسود الشعر، عيناه داكنتان. وبحركة حيوية تمدد فوقها.

- كريم، توقف.

- لن تستطيعي شيئاً ضد قوة الأسد. . .

حاولت، مهتاجة، أن تتخلص من هذا الجسد الملقى فوقها، لكن سدىً. رفست، بشراسة، وصارعت فنجحت في أن تنقلب على جنبها ساحبة المراهق معها في دحرجة، مما جعل جسديهما المشتبكين يتمرغان بالغبار والرمال.

أثناء العراك، ودون أن تدري كيف، وجدت كف كريم قريبة من فمها، فأطبقت أسنانها دفعة واحدة على الجلد الكامد. أطلق الفتى صرخة ألم أجابها صدى ضحكة شهرزاد المنتصرة. قالت بزهو:

- حتى الذبابة يمكنها أن تخز عين الأسد!

ارتمى فوقها من جديد، غاضباً، مكتّفاً ذراعيها، ومفرجهما في شكل صليب.

- والآن. . . يا أميرة، قولي من المنتصر؟

أطبقت شفتيها، وقد استشرت نظرة الاستفزاز التي هي جبلة في عينيها.

تابع بهدوء، وهو يدني وجهه من وجهها:

- اطمئني. صلاح الدين رجل شريف. لا غالب ولا مغلوب.

هل طريقته أم، فقط، رنة صوته الحادة هي ما كدرها فجأة؟ بحثت عن تعقيب حاسم، لكن حنجرتها كانت متشنجة، وكان قلبها يحلّق نحو سماء الجيزة الزرقاء. كانت تحس بنفس كريم على وجنتها، وببشرته، تحت الجلابية، دافئة وطرية، مبللة من العرق.

موزعة بين الثورة والخضوع، تململت، دون وعي منها تقريباً، تحته. بنصف وعي بحث أسفلُ بطنها عن أسفل بطنه، والتصقت به تاركة نفسها لتُجتاح بالراحة اللذيذة الصاعدة من الأعصاب الأكثر سرية في جسدها. كانت تتمنى، كما فعلت قبل قليل أثناء ملامستها الأرض، أن تنصهر في كريم، أن تضيع فيه.

تكلم من جديد، لكن نبرته هذه المرة لم تكن هي نفسها:

- هل فقدت النطق، يا أميرة؟

- لست سوى فلاح فظ. . لم تُلقَّن بأن على الرجل ألا يضرب امرأة أبداً. وبالأحرى أميرة. . .

- أميرة. . .لست أميرة إلا لأنني أنا قد قررت أن تكوني كذلك. ولو شئت لعدت مجرد فتاة من الشعب؛ لعدت مسكينة.

- مسكينة، أنا؟ لقد أحالتك الشمس، بالتأكيد مجنوناً! ولو شئتُ لأرسلك أبي، من هذا المساء، إلى روث بعيرك.

- فليحاول. بانصرافي، لن يصبح قصر الصباح هذا إلا مقبرة. ستموت ورودكم وستصاب أشجاركم بالطاعون، فليحاول إذن!

- ألأنك تعتبر نفسك، الآن، بستانياً؟

- ماذا أنا إذن؟

- لا شيء. سبق أن قلت لك: روث بعير. سليمان أبوك هو من جعل

من الحديقة ما هي. أنت لست قادراً حتى على التمييز بين ياسمينة ونخلة.
أبدت حركة سخرية:
- انهض. أنت أثقل من فرس نهر.
نفذ ما أمر به بغير رضاً، وشرع يراقبها وهي تحاول أن ترتب شعرها الأسود الطويل:
- أتدرين كم أنت جميلة يا شهرزاد؟
مع اكتمال سنواتها الثلاث عشرة، أنار شعاع سعادة عيني الفتاة.
- نعم، أعلم. أنا جميلة. جميلة كبدر في تمامه، كأجمل وردة في الصباح.
صمتت للحظة قبل أن تتابع حريصة على الفصل بين الكلمات:
- أما بالنسبة إليك، أنت يا ابن سليمان البستاني، أتعلم بأنك ستتزوجني ذات يوم؟
خالت أنها لمحت على شفتيه شبح ابتسامة.
- هذا كل ما تركه كلامي فيك من أثر؟
أصبحت الابتسامة واضحة. فاغتاظت من ذلك.
- أعود إلى البيت، هم ينتظرونني للعشاء.
- أنت غاضبة؟ أنا متأكد من ذلك.
لم تُجِبْ، بل نفضت بضربة خفيفة تنورتها التي من ثوب موصلي وانطلقت نحو المنزل.
أجيبي على الأقل!
سار في أعقابها، وهي تمشي بسرعة كأنها تعدو.
- مسكينة، هذه هي حقيقتك يا شهرزاد!
عقبت دون أن تكلف نفسها أن تلتفت:
- وأنت... أنت يا كريم يا ولد سليمان، يا ملك الروث، ذات يوم ستتزوجني رغم كل شيء!

* * *

عندما اكتشفت نادية شديد منظر ابنتها المسودة من الغبار وهي تسير مسرعة في غرفة الطعام، ابتدأت بإشهاد الله.
ماذا جنيت حتى أستحق مثل هذه الذرية. يا الله، لقد منحتني ثلاثة

أطفال، لكن، اغفر لي، إن أحدهم هو مجرد خطأ.

تابعت، لكن هذه المرة موجهة الكلام ليوسف، زوجها:

- أترى في أية حالة تعود ابنتك؟

توجه الرجل ببطء إلى المائدة المرتبة، وتهالك على كرسي ببسمة لامبالية.

كان يوسف شديد، بقامته المتوسطة وبسنواته الستين وجبهته التي انحسر عنها الشعر والمشرفة على شارب أسود مفتول بأبهة من طرفيه، شخصية خادعة. تعود أصوله لدمياط، المدينة المتواضعة الواقعة على الدلتا، حيث يضيع النيل في البحر. وبما أنه مسيحي، فإنه كان يعتبر من قبيل الفخر أن يذكُر بانتمائه إلى الأقلية اليونانية الكاثوليكية. كانت هذه الأقلية قد تشكلت منذ حوالى قرن من الزمن، متأصلة من مسيحيين أرثوذكسيين راغبين في تأكيد استقلالهم عن طريق معارضة كنيسة يونانية، كانوا يعتبرونها تغالي في تبعيتها لاسطنبول. في ذلك الزمن، وحتى اليوم، كانت تركيا تمثل رمز العدو والمحتل.

كان المهاجرون الأوائل قد استقروا بدمياط ورشيد، قبل الانتقال للقاهرة حيث أضحوا إحدى القوى الصاعدة في المجتمع.

وكان يوسف قد بدأ باقتفاء آثار أبيه، مجدي، أحد المصريين الأوائل الذين اتجهوا للمتاجرة في مُنتج كان آنذاك شديد الرواج؛ وهو قهوة اليمن. سنوات بعد ذلك، توفي مجدي وتغيرت الأمور. والواقع أن قهوة جديدة قادمة من جزر الأنتيل (مُنتج أرخص وبجودة عالية) كان قد تدفق على الإمبراطورية العثمانية، مرغماً يوسف على البحث عن أنشطة تجارية أخرى. وبعد فترة من التردد، انطلق في عمليات تجارية كبرى في التوابل والبهارات وأنقذ بحكم عناده ميراث أبيه، فأصبح أحد الرجالات البارزين في القاهرة. وإقامة الصباح هذه، الغنية بفدادينها السبعة، هي رمز هذا النجاح.

قطع بيده كسرة خبز ساخن، وقال بصيغة قدرية:

- من لم يشف غليله من اللوز، عليه أن يقنع بالقشور؛ لن تكون شهرزاد أبداً سوى فتاة مزعجة بلا تربية. ليس لنا للأسف خيار، أو إذا. . .ربما نبيعها لأول تاجر زرابي يمر.

قهقهت شهرزاد:

- أن أُباع أنا؟ أمُ من يستطيع أن يؤدي الثمن لم تولد بعد!

اقترح نبيل، أخوها:

- إذا قررت، يا أبي، فيجب إذن بيعها لعدو. سيكون ذلك أحسن انتقام. وتركي أو مملوك قد يقوم بالدور كما ينبغي.

رمته الفتاة بنظرة نارية. كان يفصل بينهما إحدى عشرة سنة. وليس ما يقتضيه هذا الفارق في العمر من احترام هو ما منعها من الرد، وإنما ذكريات تأديب مشهودة. بدت متفكرة، ثم اقتربت ببطء من والدها وهي تقول بصوت ملائكي:

- أبي... أنت لا تريد، بالفعل، أن تبيعني... أليس كذلك؟

كانت قد تحدثت بصوت رقيق مدله، وبنبرة مترعة أنوثة.

مال يوسف جانباً ورفعها إلى مستوى فمه:

- لا يا روحي، لن أبيعك. لقد قلتها بنفسك: ليس لك ثمن.

رفعت نادية ذراعيها باتجاه السماء:

- أنت تفسدها!

حاولت شهرزاد، وهي ما تزال بين ذراعي أبيها، أن تصل إلى قطعة خبز. لكن لم يسعفها الوقت.

صاحت نادية وهي تشدها من أذنها:

- حمقاء!. أتظنين بأننا نلطخ نعمة الله بهذه الطريقة...

فأشارت إلى الباب:

- تذهبين أولاً للتخلص من قذارتك. هيا!

وتنهدت.

- لم أكن أنتظرها. عندما كان بطني شرع يستدير للمرة الثالثة، كان عمر نبيل أحد عشر عاماً وسميرة تسعة أعوام. أتساءل أحيانا عما إذا...

عنّف يوسف زوجته:

- كفى يا امرأة، أنت تجدفين. الطفل، مهما تكن عيوبه، هو دائماً، نعمة من الله.

وعلق نبيل:

- وأكثر من ذلك، لم تجدا أي اسم آخر أحسن تسميانها به. اسم ليس حتى مصرياً.

أبدى يوسف دهشته:

- كنت أعتقد أنك تعرف أصله. ألم تقرأ يوماً ألف ليلة وليلة؟

- بلى. كانت شهرزاد أميرة، أليس ذلك؟

- ليس تماماً. كانت محظية أحد السلاطين. وبما أن سيدها كان قد حكم عليها بالموت، فإنها قد قررت، كحيلة، أن تحكي له حكايات حتى تعمل على تأخير اللحظة المحتومة. وقد كانت تلك الحكايات من الروعة بحيث لم يكف الأمير عن الاستزادة منها، ناسياً، في الآن نفسه، تطبيق العقوبة المنتظرة.

- لا أرى لذلك علاقة بأختي.

فتل يوسف طرفي شاربه وقال لزوجته:

- احكي له.

شرعت نادية في الحكي بعبارة ملطفة:

- أما بالنسبة إليك وإلى سميرة، فإنه لم يكن ثمة أي مشكلة، وأما ولادة شهرزاد فقد كانت محنة مرعبة. لقد تألمت طوال ليلة حتى خلت أنني سأموت. وقد كدت، بالفعل. وإذن، فخلال المدة التي استغرقها ألمي، قام أبوك تماماً بما قامت به شهرزاد ألف ليلة وليلة. شرع يحكي لي حكايات. صحيح أن حكاياته لم تكن لها دائماً نهايات، وأنها كانت تفتقر في الغالب إلى منطق، لكنه كان يتقن الحكي إلى درجة أن ذلك قد ساعدني قليلاً على تحمّل ألمي. وعند الفجر ولدت أختك، ففرض اسمها نفسه عليّ بتلقائية.

قال نبيل وهو يرسم إشارة الصليب:

- ليحفظنا الله، إنها تعتبر نفسها الوحيدة. هذا الاسم لم يطلق ليحل المشاكل.

فصححت نادية متفلسفة:

- سيحفظنا الله يا ولدي، لكن ما يجب تمنيه هو أن يحفظ شهرزادنا من السلاطين الصم!

قال يوسف:

- أنا جائع، ثم صاح:

- شهرزاد!

أجاب صوت بعيد:

- أنا قادمة.

قال يوسف:

- قدّمي الطعام. ولتأكل هي الفضلات.

- و... سميرة؟ ألا تريد أن تنتظرها؟

- قدّمي الطعام.

مستسلمة، صفقت بكفيها:

- عائشة!

كما لو بفعل السحر، مرقت خادمة آل شديد، وهي سودانية مدورة بدينة، حاملة صينية بين يديها. فبدأت بأن وضعت على المائدة صحناً كبيراً من الفول المسلوق المزين بقطع صغيرة من البيض، ثم صففت صحوناً صغيرة مزينة بالجبن الأبيض والليمون الأخضر والفلفل الأسود والملح والفلفل الحلو المنقوع في الخل.

اضطُرّت إلى إعادة التسخين مرتين، دمدمت وهي تقدم الطعام.

- لن يكون ذلك إلا جيداً.

- نعم، لكنني مع ذلك اضطررت إلى التسخين مرتين.

- ست عائشة، ارحمي إذن رجلاً عجوزاً.

أشارت الخادمة إلى المكانين الفارغين:

- ألن تأكل الآنستان؟

- لا. فأنت تعلمين أن مرة واحدة في الأسبوع تكفيهما.

ثم أشار إلى الطعام:

- والبصل؟ منذ متى نقدم فولاً دون بصل؟

- كان عليَّ أن أعيد التسخين مرتين، وإذن...

في الوقت الذي كانت تغادر فيه الغرفة، ظهرت فتاة شابة على العتبة؛ فتاة طويلة، في الثالثة والعشرين، من الأشكال البارزة، شعرها أشقر ووجهها مدور. كانت ذات مظهر شبقي نهم، يؤجّج بفمها المكتنز، وبنظرتها المكشوفة قليلاً، والتي كانت تبديها بمظهر خاص جداً في مراقبة الناس، فلا نستطيع تأكيد ما إذا كان الأمر يتعلق بفضول أم برغبة إرادية في الإغواء. إنها سميرة ابنة آل شديد الثانية.

أجابت بخفوت تحية السودانية، والتحقت بالمائدة:

- مساء الخير.

أجاب الأب بحركة من رأسه، وتظاهر نبيل بتجاهل حضورها.

آخذتها نادية:

- تأخرت.

- تعرفين زبيدة... عندما تشرع في الحديث، لا تنتهي أبداً. ثم لزمني أن أعثر على عربة يجرها حمار. هل ستصدقونني لو قلت بأنه لم يكن بباب النصر ولا عربة واحدة! وإذا كان صحيحاً أن في المدينة أكثر من ثلاثين ألف عربة، فإن هذه الندرة تعتبر غير مفهومة!

تناولت حبة زيتون، وهي تتابع بتقطع:

- كانت هناك أيضاً مظاهرات أمام الأزهر...

رفع يوسف أحد حاجبيه:

- مظاهرات أمام الأزهر؟

- آه! لم تكن من العنف في شيء. النزاعات العادية بين أصحاب الدكاكين والجنود.

كرر نبيل بنبرة سخرية:

- لم تكن من العنف في شيء،. ليس (من العنف في شيء) أن يعصر المماليك والأتراك الشعب المسكين مثل ليمونة. لقد نسيت قلاقل الجوع التي حدثت، بالكاد، منذ أسبوعين في حي الحسينية والأحداث الدامية التي وقعت بين البكوات والشعب.

أطبقت سميرة شفتيها واحتفظت بتعليقها.

قالت نادية مقترحة وقد بدا القلق عليها فجأة:

- إنني أتساءل عما إذا لم يكن من باب الحذر أن تتجنبوا ارتياد القاهرة لمدة من الزمن. سيكون الأمر، بالتأكيد، مقلقاً بالنسبة لنبيل الذي قد يخلف دروسه بالأزهر، لكن بالنسبة إليك أنت يا سميرة، فإن ذلك لن يكون ذا أهمية. سيكون بإمكانك أن تلتقي بزبيدتك العزيزة عندما تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي.

أرادت الفتاة أن تبدو مطمئنة:

- لكن لا، ليس هناك ما يخشى. هذا أمر عابر. وعلى أي حال. . .

ظلت جملتها معلقة. كانت شهرزاد قد التحقت بهم. قالت وهي تضع قبلة خاطفة على وجنة أختها الكبرى:

- أهلاً، أتيت في الوقت المناسب، وقال يوسف متهكماً:

- كنا على وشك الاحتفال بعيد الفصح.

تجاهلت شهرزاد الملاحظة، وشرعت تغرف لنفسها متهيجة:

- أنا جائعة جداً. . .سآكل بقرة بكاملها.

قالت سميرة:

- قدرتك على الأكل لا تصدَّق.

عقبت الفتاة بفمها المملوء:

- أعوذ بالله من شر حاسد إذا حسد.

كانت عائشة قد بدت لتوها. قالت مقطبة:

- البصل.

وعندما انتهت من تقديم كل الصحون، سألت:

- ألم أنس شيئاً هذه المرة؟

قال يوسف على الفور:

- بلى، البصل.

بدت السودانية البدينة وكأنها سيغشى عليها.

- لكن، لكن. . .تمتمت وهي تشير بسبابتها إلى أحد الصحون الصغيرة. ها هو.

قال يوسف هادئاً:

- أعلم، وبعد؟

- كيف وبعد؟

- وماذا لو كان يعجبني أن أكرر، يا ست عائشة؟

رفعت الخادمة كتفيها وانصرفت محركة رأسها. قالت نادية متنهدة:

- ستفقدها صوابها. ستتركنا يوماً ما.

- هذا لن يحدث، بعد خمس وعشرين سنة من الخدمة. لا يمكن لعائشة أن تعيش من دوننا. والشيء نفسه بالنسبة إلينا.

تابع، وقد أصبح فجأة جاداً:

- أعتقد أن أمك على صواب. لن تذهبي إلى القاهرة قبل أن أتأكد من أنه ليس هناك خطر.

قالت الفتاة محتجة:

- لكن يا أبي، لم يكن ذلك بشيء! مجرد شجار صغير... وقد تدخّل شيخ الحرفيين وعاد كل شيء إلى مجراه.

صاح نبيل:

- أنا أعرف هذا الثعلب العجوز، لطفي. لقد عين في هذا المنصب من طرف الأتراك أنفسهم... إنه مجرد خائن! كما هو الشأن بالنسبة لغالبية المصريين المتعاونين مع المحتلين. خائن!

- لكن هذا لا يمنع من أن كل شيء قد عاد إلى مجراه.

- يا أختي العزيزة، كيف يكون الأمر بشكل آخر، من وجهة نظرك؟ هل تفرقين فقط بين مملوك وتركي ومصري؟ أنت يكفيك أن يكون متصابياً.

ثبتت الفتاة نظرها على أبيها، واجتاح امتقاع مفاجئ ملامحها.

تدخلت نادية بصيغة سلطوية:

- لا أسمح لكم بالتشاجر ونحن على المائدة.

- لا تقلقي يا أماه، فأختي لا تستحق. إنها تتحدث عما تجهل. شجار.. لم يكن من العنف في شيء. هل تعلمين فقط المأساة التي تعيشها البلد.

سألت الفتاة بمرارة:

- عمَّ تبحث؟ عن درس في التاريخ؟ ليس من أحد يهتم في هذه العائلة بالسياسة سواك. كما لو أن بإمكانك أن تغير العالم. لقد احتلّنا المماليك منذ قرون، وقد قام الأتراك مقامهم. وماذا بعد؟

ثبت نبيل ناظريه على أخته مرتاباً:

- وماذا بعد؟ قرون من القمع. بكوات مستبدون يسلبون البلد أمام أنظار حكومة دمية مَقودَة من طرف اسطنبول.

قالت شهرزاد محتجة:

- هيه! أنتما الاثنان! لقد آلمتما أذنيَّ!

تجاهل نبيل الفتاة، وقال في النهاية محتقراً:

- أنت تثيرين فيّ التقزز.

قالت نادية محذرة:

- نبيل! ليست هذه طريقة تحادث بها أختك!

- سامحيني يا أماه، لكن ما تقوله لا يغتفر. إن شعبنا يحتضر، وهي لا تهتم بذلك على الإطلاق.

بدت على شفتي سميرة ابتسامة سخرية:

- الشعب يحتضر... حسب علمي، فإن شعبك لم ينتفض كثيراً عبر تاريخه. إنه لم يكن جيداً إلا في أن يتقوس وفي أن يئن. لا يا عزيزي. إن السؤال الحقيقي الوحيد الذي يجب عليك أن تهتم به هو هذا: عندما يلعق المصري الأحذية، فماذا يفضل، الجلد المملوكي أم النعل التركي؟

كان نبيل على وشك تفجير غضبه، غير أن ضربة قبضة يد على المائدة جعلته يحجم عن ذلك.

كان يوسف، بعينيه السوداوين، قد انتصب واقفاً وهيمن على عالمه:

- هذا يكفي. لقد سمعت ما فيه الكفاية. كلمة أخرى... واحدة فقط، وسأحبسكما لأسبوع بدورتي مفتاح في غرفتكما مع ماء وخبز يابس. هل هذا واضح؟

وتابع، بعد أن ران الصمت:

- ليس هذا كل شيء. بعد ثلاثة أيام أعتزم إقامة حفل استقبال على شرف مراد وإبراهيم بك.

تأمل نبيل وجه أبيه باندهاش كامل. استطرد يوسف قائلاً:

- نعم، لقد قلت: مراد وإبراهيم بك. وكل من في القاهرة من رجال مؤثرين، سيكونون حاضرين في هذه الأمسية. ولتعلموا، أيضاً، بأنني لن أسمح بأي شكل من الأشكال، ولأي كان - عندئذ ثبت بصره بالخصوص على ابنه البكر - قلت، لأي كان بأن يطرق أي موضوع سياسي. وإذا ما حصل شيء من ذلك، فإن الشخص المسؤول سيكون ملعوناً من اليوم الذي ولد فيه.

ساد جو مثلج في غرفة الطعام. تابع الأب تفحص أولاده للحظات، ثم عاد للجلوس.

- هل يمكنني الحصول على كفتة أخرى...

قالت شهرزاد بهدوء: إنني جائعة جداً...

* * *

في تلك الظهيرة، ومن قلب الأزبكية إلى أبواب مسجد الزهور، تعالى صوت الأذان. تردد صدى صوت المؤذنين الأغن محدثا تموجات في سماء القاهرة المنصورة، وتبدو السماء فوق المدينة وكأنها ترتفع لتفسح مكاناً للكلمات المقدسة.

كان كريم قد وصل لتوه إلى حيث تبدو جزيرة الروضة الظليلة؛ التي هي عبارة عن مربع متواضع من الأرض غاص بالنخيل وبأشجار الجميز، وسط النهر. لقد أرادت الأسطورة أن يكون هذا المكان هو الذي عثرت فيه ابنة الفرعون على مهد موسى.

على بعد خطوات انساب النيل متعاظماً، وجوانبه مثقلة بالطمي الذي جعل من شواطئه المحدودة بالصحراء، أرضاً من بين الأراضي الأكثر خصوبة في العالم. تهادت بعض المراكب على السطح الصقيل، واكتفى بعضها الآخر بذرع الشاطئ الشرقي، على امتداد القصر المنيف للألفي بك، قبل الانعطاف حول الرأس الجنوبي للجزيرة حيث نصب المقياس الذي صلُح، منذ عهد الأمويين، لقياس علو ماء النيل. وغير بعيد، يمكن رؤية ما شكل قصراً للسلطان سليم الأول، المنتصر على المماليك، مع المسجد الذي عمل على بنائه حتى يكون قريباً من الله.

توجه كريم، مفتوناً كعادته في كل مرة يزور فيها هذه الأمكنة، للجلوس على حافة الجرف بنوع من الاحترام ومن الخشية؛ خشية أن تفسد حركة منه غير مضبوطة سحر المنظر. إنه مستعد لتقديم أي شيء كي يكون في مكان هؤلاء الرجال الذين يقودون المراكب، وكي يحصل على ما لهم من سلطة.

ترك نفسه تهيم، عيناه نصف مغلقتين، في تخيل مياه أكثر شساعة من النيل. آلاف وآلاف من المسافات البحرية الصامتة، حيث لا ينتهي عبور المياه إلا عند الأفق، وحيث تصبح المراكب الصغيرة بواخر، ويصبح البحارة الجدد برتبة قبطان يذرعون سطوح بواخر أوسع من ممرات قصر الصباح.

لم يلاحظ، مأخوذاً برؤاه، أن زورقاً قد رسا. شيء رطب وخشن صفع محياه.

الحبل! أمسك الحبل!

صاح بحار، وهو يقف على سطح الزورق، مشيراً إلى مكان عند قدمي كريم. وعندما نكس الفتى بصره، لمح حبلاً ينفسخ بين نعليه. ودون تردد أخذه وشرع يسحب الزورق. وفي لحظة، كان الرجل إلى جانبه، فأخذ الحبل وربطه بسرعة إلى جذع شجرة كافور، وسأل مع ابتسامة مشرقة:

- على الأقل لم أصبك بأذىً ؟

سأله بصيغة قاطعة.

قال الفتى مشدوهاً: لا. . .

لم يكن الرجل، الذي يبدو في الثلاثين من عمره، أطول من كريم. كان وجهه مستدقاً، ومزيناً بأنف معقوف، وتحت لفح الشمس، يمكننا تخمين جلد أبيض، هو جلد رجل رومي.

عاد نحو الزورق، الذي كان، دون أدنى شك، أجمل زورق سبق لكريم أن شاهده. أعلام صغيرة مستطيلة ومتعددة الألوان، ترفرف على طول الصاري، والهيكل أبيض ناصع، مزين برسومات بنفسجية وبيضاء. لكن ما جعله يختلف كلية عن باقي المراكب، هو المدافع الصغيرة الثلاثة، التي وضع أحدها على اليسار والثاني على اليمين، والآخر في المقدمة.

جثا البحار المسلح بآلة في مؤخرة المركب.

واقترب الفتى، دون وعي منه، وأصبح على بعد ستة أقدام من المركب.

- Ela pedimou, plissiasse

انتفض كريم. فالرجل قد تحدث بلغة أجنبية لم يفهم منها كلمة خسيسة واحدة، فكاد، مشوشاً، يعود على عقبيه، فقال الآخر مغتاظاً:

- تعال أو انصرف، لكن لا تظل مسمراً هناك، فذلك يثير أعصابي.

لم يتردد كريم.

وما إن وجد نفسه على السطح، حتى استشعر جسده مجتاحاً بذبذبات سحرية.

- هذه لغة يونانية.

- ماذا؟

- يونانية. Ela pedimou, plissiasse تعني (اقترب يا صغيري).

رد كريم:
- آه. . .
تشجع، وخطا خطوة أخرى.
ساد صمت لا تشوبه سوى أصوات خفقان الأعلام وبقبقة الماء.
- من أين أنت. . . يا صغيري؟
- من هنا. . . أعني من الجيزة.
سأل كريماً مازحاً، وهو يمسح بظهر كفه العرق الذي يبرق على جبهته:
- تبدو كما لو كنت سمكة ميتة، هل كل شيء على ما يرام؟
- لا. . .لكن. . .
- لكن ماذا؟
- أنا. . .أصعد لأول مرة على ظهر زورق.
- وماذا في الأمر؟ هذه ليست نهاية العالم.
صمت الفتى لمدة قبل أن يجيب:
- بالنسبة إلي. . .نعم.
ابتسم الرجل الابتسامة المشرقة نفسها التي أبداها قبل قليل.
- أصبت. ليس ثمة سوى أمرين يشابهان نهاية العالم: الحب والبحر.
أمسك ذقن كريم بأصابعه وسحبه نحوه.
- ما اسمك؟
- كريم. كريم بن سليمان.
- واسمي هو باباس أوغلو. نيكولاس باباس أوغلو. نيكوس بالنسبة لأصدقائي.
استرخى في مقعد في مؤخرة المركب وأشار إلى الزورق:
- هل أعجبك؟
- إنه أجمل الزوارق.
- (بوبي). . . هكذا سميته.
- بوبي؟ هل هذه لغة يونانية أيضاً؟
- هذا اسم شخص. اسم امرأة.
لمعت عيناه، وهو يقول ذلك.

- إنها فتاة من تشيسم، قريباً من سميرنا، حيث وُلدتُ. كان لها أجمل ردفين، ومزاج يبز مزاج الباناجيا.

- الباناجيا؟

- أعني العذراء.. .لكنك لا تفهم شيئاً، طبعاً، من رطانتي. أنت أصغر من أن تفهم هذا. كم عمرك؟

- ست عشرة سنة. . .ونصف. . .

- أنت تبالغ في التدقيق، في هذا العمر، الأنصاف لا تحسب.

أشار كريم بسبابته إلى أحد المدافع:

- هذا كي تدافع به عن نفسك؟

جعل اليوناني يضحك.

- كلا. قبضة يدي تكفيني. هذا الزورق ينتمي إلى الأسطول الصغير لمراد بك. وأنا قائده.

- قائد؟

تفحص كريم محادثه بإعجاب متزايد.

- تلك حكاية طويلة. . . فقبل أن آتي إلى مصر، سافرت كثيراً في بحر الأرخبيل، وكنت أملك بعض المراكب التي أستغلها في نقل الزروع. ومنذ حوالى أربع سنوات، وجدت نفسي متورطاً بشكل مباشر في نزاع سياسي تواجه فيه شخصية تركية مرموقة؛ هي حسن باشا، والمماليك. وقد استطاع الباشا أن يأخذ حوالى عشرة من البكوات كرهائن، وأودعهم سجناً باسطنبول. وقد كان هؤلاء الرجال أصدقائي. وضعت خطة جريئة، وطلبت الإذن بزيارتهم في زنزانتهم، وهناك، وعلى مرأى من الأتراك ومسمعهم، رتبت لجعلهم يفرون من إحدى نوافذ السجن.

ثم لخص اليوناني وهو يفرج ذراعيه:

- وكجزاء عن هذا النجاح، عينني مراد بك قائداً لأسطوله الصغير. وقد نظمت هذا الأسطول بشكل كامل، ويتكون الطاقم، في غالبيته العظمى، من يونانيين.

رفع كفه وجعلها في مواجهة الشمس:

- مخلصون ومتعاونون مثل أصابع هذه اليد.

أبدى كريم اندهاشه:

- هل يخدمونك أنت أم مراد بك؟

- أنا أخدم مراد بك، ورجالي يخدمونني.

صمت للحظة قبل أن يتابع:

- يبدو أنك تحب النهر.

- نعم، بشدة.

- يروقك أن نقوم بجولة؟

- تريد أن تقول...

- أريد أن أقول ما سمعت. أيعجبك ذلك؟

- سيكون...سيكون أسعد أيام حياتي.

- هيا، انطلقنا! اذهب وافسخ الحبل وابحث لك عن مكان للجلوس.

تابع بسرعة وبشيء من المبالغة:

- يا ابن سليمان، ستعرف نهاية العالم!

الفصل الثاني

شربت نادية شديد دفعة واحدة آخر قطرة من القهوة التركية ووضعت الفنجان، برقة، على الصحن الصغير، قعره للأعلى. ووفق طقس أصبح مألوفاً، أدارت الفنجان ثلاث مرات حولها وقالت لإحدى السيدتين؛ الأكبر سناً، التي كانت تجلس غير بعيد عنها:

- ست نفيسة، هذه المرة لن تفلتي. عليك بقراءة مستقبلي.

امتعضت السيدة، وهي مائلة على كمية من الأقمشة الحريرية:

- لماذا نسعى، يا عزيزتي، إلى معرفة قدرنا، ما دمنا، على أي حال، لا نستطيع أن نغير منه شيئاً؟ وفضلاً عن ذلك، أعترف لك بأنني لم أعد أقرأ الفنجان منذ أن أعلنت لزوجي بأنه سيفشل، عندما كان قد قرر أن يستولي على قلعة القاهرة. لكنه لم ينصت إليّ، للأسف...

وبما أن نادية كانت على وشك أن تحتج، فإنها قد تابعت مسرعة:

- لكنك لا تمسكين بقدري بين يديك. كما أنني سأشكل استثناء؛ أنا صبورة مع ذلك. أما الآن، فعليّ أن أقرر. هذا القماش رائع، لكن هل يناسبني لونه؟

أمسكت بالثوب وسحبت منه جزءاً ألصقته بخدها.

- ما رأيك؟ ألا يتنافر هذا مع بشرتي الحليبية؟

ودون أن تنتظر رأي صديقتها، وضعت الثوب على الأريكة، وقالت مستاءة:

يا إلهي كم أكره نفسي!

والحق أن جسد نفيسة، إذا لم يكن يستجيب للمقاييس المعتادة للجمال،

فإن ذلك لا يعني البتة أنها لم تكن تملك جاذبية وشخصية استثنائيتين. كان الجميع يعرف نفيسة خاتون باسم الست نفيسة، أو البيضاء، بسبب أصولها القوقازية. فبوصفها أمَةً قديمة، كانت قد تزوجت في قران أول رجلاً لعب دوراً بارزاً في تاريخ مصر؛ وهو علي بك الكبير، الذي توفي منذ بضع سنوات. وهي اليوم زوجة أحد أسياد مصر الكبار، المملوك مراد بك. وقد نشأت علاقات صداقة جادة بينها وبين نادية شديد، يسَّرتها علاقة الجيرة التي تجمعهما.

– ست نفيسة؛ أنت تقسين على نفسك. إنني أعرف عدداً كبيراً من النساء يتمنين لو كان لهن لون بهذه النصاعة.

ألقت البيضاء بنظرة عتاب على التي تدخلت لتوها:

– أنت تعلمين، يا فرانسواز، بأنني أكره المديح الكاذب.

– ومع ذلك، فإنني أصر على أنك تملكين بشرة رائعة.

كان لفرانسواز مغيان، السمراء ذات الأربعين ربيعاً، مظهر بشوش ولطيف. كانت قد تزوجت من مندوب لدار بارضون، منحدر من مدينة مارسيليا، وهو شارل مغيان، الذي أصبح منذ زمن قريب نائباً للأمة الفرنسية.

وبانضمامها إلى زوجها، كانت تبيع بمصر الشارات والأوسمة والأقمشة النادرة المصنوعة بمعامل ليون. وقد استطاعت، بفضل حذقها في إشباع دلال زبائنها، أن تنال في الأوساط النسائية مرتبة فريدة، سمحت لها بأن تدخل بحرية إلى الحريم وإلى نساء السراة؛ مما مكن شارل مغيان من أن يُعفى من طرف السلطات الفرنسية من المنع الذي كان يحول دون أن يصحب التجار معهم أبناءهم وزوجاتهم.

عقبت نادية:

– أنا أيضاً أرى أن صديقتنا قد صدقت. لكن هذا لا يهم. هذه الياقوتة الزرقاء تناسبك بروعة.

دسّت الست نفيسة يدها في شعرها المجعد المنسدل على كتفيها.

– طيب. أنتما أقوى مني. لكنني مع ذلك ألح على فرانسواز أن تجعل الأثمان مناسبة. ألستُ، بعد كل شيء، زبونتها الأشد إخلاصاً؟

لم تُبدِ فرانسواز مغيان – التي جعلها وجودها بمصر لسنوات تألف كل

أنواع المساومات - أي اندهاش من هذا الالتماس؛ بل على العكس، أجابت بابتسامتها اللطيفة:

- المال، يا ست نفيسة، ليست له أية أهمية. يمكنك أن تدفعي ما تريدين. ولا تدفعي شيئاً إذا كان ذلك يروقك.

- إحذري من أنني قد أفعل ما تقولين، وستندمين. لكن لنكن جادات، إنني أجد أثوابك تزداد غلاءً. ماذا يحدث إذن؟ هل يكون الأتراك قد أعلنوا حصاراً على الأثواب؟

بدت الفرنسية منزعجة:

- هل يمكنني أن أكون صريحة؟ إن زوجك، سعادة مراد بك، وصديقه إبراهيم هما اللذان يجب أن يُسألا. هما المسؤولان الرئيسان عن هذا التضخم.

- إذا ما فهمت جيداً، فإن الأمر يتعلق دائماً بالمشكلة نفسها.

- للأسف، نعم. لقد أُنزلت بالتجار الفرنسيين كل أنواع الإهانات. أغلبها، كي لا أقول كلها، لا مبرر له. إن الدُور: فارسي دي روسيط ونيدورف وكافي وبودوف، على سبيل المثال لا الحصر، توجد على حافة الهاوية.

قطبت الست نفيسة حاجبيها:

- يشهد العلي القدير أنني، مع ذلك، قد قمت بالضروري لدى مراد.

- إننا، شارل وأنا، ممتنان لك، ما دامت الضغوط قد خفت. لكن شهرين انصرما منذ تدخلك الأخير. ومنذ أيام...

قاطعتها نفيسة:

- عاد كل شيء كما كان. طيب. بمجرد ما تسنح الفرصة سأحادث مراداً.

- ألف شكر. وآمل، على أي حال، ألا تغضبي من صراحتي الكاملة. للأسف، ليس إلا أنت القادرة على إسماع صوت الحق لسعادته.

- قلت لك إنني سأقوم بما أستطيع. ولتعلمي، مع ذلك، بأن سلطة الزوجة لها حدود، وحالات غضب مراد مرعبة.

تدخلت نادية شديد، التي ظلت صامتة حتى هذه اللحظة، في الحوار:

- بالمناسبة، لم تنسوا بأن الحفل سيكون مساء الغد؟ آمل أن يكون شارل من بين ضيوفنا.

- طبعاً. لقد عاد من باريس منذ مدة قصيرة. وأعلم أن رؤيته إياكم ستسعده. وأنت، يا ست نفيسة، ستأتين، أليس كذلك؟

أجابت البيضاء بالإيجاب، مشغولة الذهن:

- قولا لي بصراحة.. .هل تريان أن هذا الأزرق السماوي يناسب سحنتي؟

* * *

مئات من المشاعل الكبيرة تلقي بأضوائها المترنحة على قصر الصباح، وموكب الضيوف لا يكف عن الظهور الخافت على طول الممرات وسط الثرثرات والضحكات.

نصبت موائد طويلة تراكم عليها عدد كبير من الصحون التي كانت تعطر الجو برائحة الكمون واليانسون: أوراق الدالية المحشوة، والكبيبه المحشو بنويات الصنوبر، سلطات متعددة الألوان، فواكه مجففة وحلويات غارقة في العسل. فضلاً عن الخرفان المسفدة المضمخة في روائح الزيت المغلي والبهارات.

نصبت خيمات مربعة في زاوية من الحديقة كي تقي الضيوف من رطوبة الليل. فرق من السُفْرجية - سودانيين في غالبيتهم - بجلابيبهم الناصعة البياض والفضفاضة، يجدّون في تلبية أمنيات المدعوين ورغباتهم. ومن مكان ما خلف سُتر من النخيل، كانت تصعد أصداء عزف عود وطبل.

كل من كان في القاهرة من شخصيات، كان حاضراً هنا هذا المساء. علماء معممون ورؤساء أديرة أقباط ومماليك وموظفون عثمانيون سامون، من بينهم أبو بكر حاكم القاهرة؛ الباشا ذو الشهب التسعة[1]، والشخصيات اللامعة المكرشة التي تتحرك تحت سماء مزينة بالنجوم وكأنها متعبة من حمل أرفع الرتب التشريفية التركية.

والحق أن هذه الكوكبة من الشخصيات المختلطة لم تكن تلمع إلا بفضل حضور شخصين؛ هما ضيفا شرف آل شديد. شخصان بمصيرين نادرين

---

(١) وسام تركي.

يجسدان في ذاتهما قوة مصر ومجدها، ضعفها وبؤسها: مراد زوج الست نفيسة، وإبراهيم بك. وهما معاً مملوكان. هما معاً عبدان قديمان، وهما اليوم، رغم الوجود العثماني، سيدا البلد الحقيقيان.

وتحت مظاهر الأخوة، كان هذان الشخصان غريمين في مطامحهما، كما كانا نهمين للسلطة المطلقة. كان بينهما تناوب مستمر للأزمات وللتصالح، الذي كان الشعب، دائماً، هو من يؤدي ثمنه. ذلك أن الشيء الوحيد الذي كان هذان الشخصان يتفقان عليه كلية، هو نظام السلب والغصب الذي كانا يتنافسان به في سحق البلد.

كان مراد بك، في الخيمة الوسطى، شبه ممدد على الأريكة الشرفية. في الخمسين من عمره، أصهب، قصير وبدين، ملامحه معتمة من اللحية الكثيفة التي تحجب جزئياً جرح السيف الطويل؛ الناتج عن معاركه المتعددة. كان يفضل عادةً على الملابس الفاخرة والثقيلة، بساطة جلابية كان يلبس فوقها قفطاناً أسود؛ لونه المفضل. لكنه هذا المساء، ولأجل هذه المناسبة من غير شك، كان قد لبس قميصاً من حرير محشور في سروال فضفاض مثير للضحك. وغطت سترة صوفية صدره الملفوف في عباءة من فرو السمور.

مال على مضيفه:

- أمسية رائعة يا صديقي. أهنئك. هنا توِّجت سمعتك كرجل ذي ذوق.

قال يوسف بتواضع:

- حضورك وحضور ضيوفي هو وحده ما يبهج هذا الحفل، يا مراد بك. كل الفضل لكم.

التفت المملوك نحو إبراهيم بك:

- وأكثر من ذلك، يملك مضيفنا ثراء الكلمات.

أقر إبراهيم كلامه، دون أن يكف عن قضم حبات العنب ومضغها رامياً بذورها على الأرض. ورفع رأسه بالكاد عندما أزيحت ستارة الباب، كي يدخل رجل ظاهر الوقار، متبوعاً بشارل مغيان.

وبالمقابل، التمعت عينا مراد:

- كارلو روزيتي! صديقي! فلينورك الله! أنا سعيد برؤيتك.

أبدى الرجل حركة انحناء، مشيراً لدى المملوك عبارة مؤثرة:

- لا شيء من هذا بيننا يا كارلو. هل أصبحت إذن غريباً عنك؟
وساق روزيتي نحو الأريكة متجاهلاً عمداً حضور مغيان.
- تعال وخذ مكانك إلى جانبنا.
أشار الفينيسي إلى شارل وقال:
- سعادتك، أنت بالتأكيد تعرف...
حرك مراد رأسه لا مبالياً:
- أجل، أجل. طبعاً. ممثل الأمة الفرنسية... لكن هل تعرف أنت يا كارلو - مشيراً إلى يوسف - مضيفنا؟
- بكل تأكيد، بل أكثر من ذلك، نحن من الدم نفسه تقريباً، ما دامت زوجتي أيضاً يونانية كاثوليكية.
فحياه روزيتي باحترام.
- حفل الاستقبال هذا تشريف لنا، يا يوسف أفندي.
كان الفينيسي ممسكاً بذراع مغيان وهو يتحدث، ثم همس مع ابتسامة متكلفة:
- أعتقد أن السيد النائب ليس غريباً عنك أيضاً. رد يوسف وهو يمد كفه بحرارة للفرنسي:
- بالطبع لا. إن زوجتك تُلبس زوجتي أجمل الأثواب الحريرية. تعال. تفضل بالجلوس.
جلس مغيان تحت النظرة الحانقة لمراد بك. وبنوع من الغلظة، وضع المملوك كفه بتباه على كتف روزيتي وقال للحضور:
- أتعلمون بأنني أعرف كارلو منذ سبع سنوات؟
صحح روزيتي: ست سنوات.
- ليكن ما دمت ترى ذلك. كان ذلك بالإسكندرية. لم يكن، طبعاً، قد أصبح بعدُ قنصلاً للنمسا، وإنما بائعاً بسيطاً للأقمشة. كان يحط الرحال عندي محملاً بأثواب حرير الهند أو لا أدري أي بلد آخر. وأسارع فأقول لكم بأنني لم أكن أنوي، آنذاك، ابتياع أي شيء، مهما يكن بخساً. هذا إضافة إلى الجاذبية الإيطالية.
صحح من جديد روزيتي بلباقة: الفينيسية!

- آه! أنا أعرف هذا النوع من العزّة! أم أن الأمر يتعلق بحب للدقة؟

استغرق المملوك في ضحكة تفاخر، وهو يوجه سبابة متعالمة للحضور:

- يجب عدم الخلط أبداً بين فينيسي وإيطالي. ها هو ذا أحد الأشياء التي علمني إياها صديقي. . . .للأسف، وكما تلاحظون، فإنني قد أكون تلميذاً غير نجيب، أو أنني لم تعد لي أية ذاكرة.

اعترض يوسف:

- لا يا مراد بك لأي شيء تصلح الذاكرة بدون غريزة الإقدام وذهنيته؟ وهما خصلتان تتحكم فيهما أكثر من أي كان. - أتسمع يا كارلو؟ ها هو ذا رجل يعرف كيف يتكلم. ها هي ذي كلمات لها طعم العسل في قلبي.

قطب حاجبيه، وهو يتفحص الفرنسي بمرارة:

- في هذا الجانب، لا يمكننا أن نقول بأن البعض قد أصبح ثرياً من العسل. أليس كذلك يا سيد مغيان؟

- سعادتك، لا تحتاج لأن تعرف أن النحل هو الذي يصنع العسل. وأن النحل يفتقر باستمرار إلى الدبلوماسية عندما يشعر بعدوان.

آتى مراد قهقهة صغيرة:

- أنا آسف، لكنني لم أفهم شيئاً. أأكون مفتقراً إلى الحذق؟

وتابع غاضباً:

- ماذا تريدون؟ أنا لست سوى مملوك صغير، وتعوزني الرقة الغربية.

سرت بعض الضحكات المتكلفة بين الحضور.

- كيفما كان الحال، فأنا أكره النحل، أحتقره.

- تماماً كما تحتقرون الشعب يا سيدي.

- الشعب؟ ألا تدرون بأن الشعب يجب أن يعامل كما يعامل السمسم؛ الذي يجب وطؤه وسحقه ليستخلص منه الزيت!

ساد الخيمة جو من التوتر المفاجئ. ألقى يوسف، ممتقعاً، نظرة يأس تجاه زوجته، التي أمسكت قلقة، وبآلية، كف الست نفيسة.

بدا المملوك للحظة، حانقاً.

سعل أحدهم بخفوت. حاول روزيتي أن يهدئ من روع مغيان، لكن هذا كان يبدو خارجاً عن طوره.

وقف النائب متثاقلاً، شفتاه ترتعشان، وتوجه لمضيفه:

- سامحني، لكن الوقت متأخر والطريق إلى القاهرة طويل.

- أفهم، رد يوسف بتسرع متهافت.

توجه الفرنسي بعد ذلك نحو مراد، مزدرياً، قبل أن يغالب ذلك بلباقة مصطنعة:

- أسعد الله مساءك، سعادتك.

وبمجرد أن توارى، أطلق المملوك العنان لغضبه:

- لقد تعبت من تحمل أناس من هذا النوع! تعبت! لا يصلح هذا الجنس من التجار إلا لأن يئن وأن يئن من جديد! لكن ماذا يريدون؟ إذا لم يرقهم، فلينصرفوا! البحر شاسع، والعالم لا نهاية له. وسأكون أول من يوفر لهم مركباً! غداً أو حتى هذا المساء! الله يشهد أنهم قد استنفدوا صبري.

ارتفعت أصوات موافقة.

وجه سبابته نحو المدخل وضاعف حنقه:

- ثمة حدود يجب ألا تتجاوز، وإلا فإن غضب السماء سيصب على رؤوسهم! أنت يا كارلو، أنت، هل يمكن أن تفسر لي سبب هذه العدوانية المستمرة. لماذا؟

تنهد القنصل تنهيدة قصيرة:

- مراد بك، أنت تعلم قصده. فالتجار الفرنسيون يشعرون بأنهم مهددون في ممتلكاتهم وحتى في سلامتهم الشخصية.

- يكفي! لا أريد ان أستمر في الاستماع لهذه الترهات! ليس أمام الجالية الغربية إلا أن تشكو أمرها للسلطات العثمانية باسطنبول. لا دخل لي في كل هذا!

- لكن يا مراد بك، أنا لا أتحدث إلا عن مصلحتك. فقد حدثني مغيان لتوه عن هذه الضرائب الجديدة التي يراد فرضها عليهم، و...

- هراء! يا كارلو. خنازير.

ثم اتخذ من إبراهيم بك شاهداً:

- هل سبق لك أن سمعت مثل هذه الحماقات؟

ودفعة واحدة، اتخذ شريكه مظهراً هجومياً.

ومع ذلك، ألح روزيتي قائلاً: المشكلة تبقى قائمة.

أصبحت لهجة مراد بك أكثر قسوة:

- هؤلاء، حسب علمي، لا يتاجرون لحسابهم الخاص! فهم ليسوا هنا إلا بصفتهم ممثلين لتجار مارسيليا الكبار، أولئك الذين نسميهم (العظام)، أليس هذا صحيحاً؟

قال إبراهيم بدوره:

- إنهم يكسبون من ورائنا كنوزاً حقيقية! فقط من خلال تجارة الأثواب. هل يمكنك أن تنكر هذا يا روزيتي؟

- سعادة البك المحترم، نحن نعلم بأن الأثواب هي التجارة الأساسية في هذا البلد، ويمكننا أن نقول بأنها المصدر الوحيد الذي تبقّى للمؤسسات الفرنسية. وأكثر من ذلك، أقِروا بأن الجودة. . .

- لنتحدث عن الجودة! التجار يخدعوننا كلما أمكنهم ذلك. فهم عندما يضغطون الخيوط قليلاً، يبيعون الأثواب على أنها أثواب إنجليزية. أليس هذا سلوكاً يستحق كل الازدراء؟ ومن جهة أخرى، عندما يتعلق الأمر ببيعنا إياهم البخور أو المر المكاوي، يعبسون ويأبون أن يؤدوا الثمن المعتاد. وحتى السّنا يُشترى منا بحفنة تمر.

أبدى القنصل رخاوة:

- ليس ذنب المستوردين أن لم يعد الأطباء يصفونه للمرضى، وبالنتيجة كف الصيادلة عن السعي إلى اقتنائه.

أطلق مراد ضحكة ساخرة:

- بالفعل، إذا كانت الأمور الآن، على غير ما يرام، فإن الصيادلة هم المسؤولون. . . كلام عجيب!

ثم بحث مرة أخرى عن دعم إبراهيم. ويمكننا أن نقول بأن الرجلين كانا قد أصبحا مثل توأمين.

مر وقت بدا، في نهايته، أن أسارير المملوك قد أضحت مسترخية، فتهالك بتثاقل بين الوسائد.

- أنت تتعبني يا روزيتي أفندي، لماذا؟ من أجل خمسين من التجار؟

سنتحدث من جديد عن هذا في مرة قادمة. أتسمح؟ لكن في هذا المساء اتركني، وحق النبي، أستمتع بسعادتي.

وبالنسبة لمن ليس لهم علم بالصداقة التي تجمع بين الرجلين، قد يؤخذ تراجع المملوك على أنه ضعف.

حرك الفينيسي رأسه متظاهراً بمظهر المهزوم:

- لا أريد بأي شكل من الأشكال أن أنغص عليك. كما تشاء يا مراد.

لكن تضحية القنصل أتت متأخرة. فالجو لم يعد جو احتفال.

* * *

كانت شهرزاد، وهي متكئة على نافذة غرفتها، تراقب كل مظاهر الفرحة. ومأخوذة، كانت تتملى تفاصيل كل لباس وحركات الجلابيات وبالخصوص مظهر الفساتين الغربية وسحر الحلي.

كان من المفروض أن تكون قد نامت في هذه الساعة، لكنها لا تبالي. لماذا حُرمت من الانضمام إلى هؤلاء الناس؟ فلو كان لها الخيار، كما كان الأمر بالنسبة لأخيها، ما كانت لتتردد لحظة. بيد أنها قد اندهشت تماماً من أن نبيل قد رفض الحضور رفضاً باتاً. وعندما سألته اكتفى بأن أجابها باحتقار لا يصدق: (أنت يا شهرزاد لا تعرفين شيئاً عن الحياة. أنت لست أكثر من سطل صغير، لا تنظرين إلى أبعد من مقدمة حذائك.) وعندما ألحت أجاب أيضاً بكبرياء: (أبونا يحيا راكعاً، أما أنا فسأعيش مرفوع الرأس. لا شيء يجمعني بهذا الحمأة الدنيئة).

أما سميرة، من جهتها، وعلى العكس من أخيها، فإنها لم تحتج إلى توسل. وقد غبطتها الفتاة، عندما كانت تتنقل من فستان إلى آخر، وتجرب مستحضرات التجميل أو تتراقص أمام مرآتها مثل فراشة محمومة.

مالت شهرزاد، أكثر فأكثر، نحو الأمام، محاولة أن تعثر على أختها بين المدعوين. فحصت أشباح المدعوين الواحد بعد الآخر، مجهدة نفسها في التعرف على فستان الأورغاندي لسميرة، وسط هذا الكم الهائل من الألوان الخافتة من جراء الإنارة الباهتة للشمعدانات. أين اختفت إذن؟ هي مع ذلك متأكدة من أنها قد رأتها في مكان ما قبل دقائق وهي تتحادث مع زوجين

غربيين. أتكون عادت لغرفتها؟ سيكون ذلك غريباً، فهي تعرف أختها معرفة جيدة، تسمح لها بأن تؤكد أنها ما كانت لتغادر أمسية مثل هذه قبل أن تستنفد كل متعها.

لكن أليست هي التي تبتعد بخطوات وئيدة نحو الأشجار الكثيفة، وهي تختلس النظرات من على كتفها؟ أي مكر تؤتيه؟ كانت تبتعد أكثر فأكثر. إنها توشك أن تختفي عن أنظار الجميع.

آخر شيء رأته شهرزاد هو فستان الأورغاندي الذي كان يبدو معتملاً بالريح قبل أن يختفي وقد ابتلعه الظلام.

* * *

- خلت أنك لن تأتي. همس الرجل، عندما رأى سميرة قادمة إليه.

- لم يكن ذلك سهلاً، أبواي... وكل هؤلاء الناس. لكنني كنت وعدت. أنسيت أنني دائماً أفي بوعودي؟

كانت تتراقص حول نفسها بدلال:

- هل أروقك؟

- كالعادة.

سعى إلى تناول قبضتها بين كفيه، لكنها تخلصت منه باستدارة جديدة.

- لماذا؟ ليس لنا إلا وقت قصير. لن تتخيلي أبداً الحيل التي اخترعتها حتى أكون حاضراً هنا هذا المساء.

- أنت شخصية هامة على أي حال.

قالت ذلك متساءلة.

- طبعاً. ماذا تتصورين؟ أنا مهاب الجانب ومحترم!

- هذا جيد. فأنا لن أتحمل إلا بصعوبة أن يكون عشيقي بلا قيمة. سعى إلى احتضانها إلا أنها انفكت منه.

سألته مع ابتسامة غامضة:

- هل أنت متأكد من أنك تحبني؟

- أموت حباً فيك.

- صحيح؟

قطب حاجبيه، مأخوذاً بشيء من حنق.

- لكن يا سميرة، أية لعبة تلعبين الآن؟ نحن نلتقي منذ ثلاثة أشهر، ألم أعطك الدليل مائة مرة على حبي؟

- ربما. لكن، منذ ثلاثة أشهر، يا حبيبي، ألم تفهم بأنني كنت شرابة؟ نهمة.

- شرابة...، كرر مرتبكاً. نعم أدركت ذلك.

اجتاحت فجأة ملامحه رغبة حيوانية. أخذ يتأملها، لكنه هذه المرة لم يحاول أن يسحبها نحوه.

هي التي تقدمت.

وببطء مدروس، شرعت تفك الأزرار العليا الثلاثة لبدلته، وعرّت صدره جزئياً.

- أحب بشرتك...

لم يعترض، وتركها تدس أناملها تحت الثوب الموشى.

كانت تلامسه برقة. وكانت راحتها باردة، وإنما ناعمة.

ضغطت بجسدها على جسده. احتفظا معاً بذراعيهما منسدلين لصق جسديهما؛ كما في لعبة؛ ليقيما الدليل على مقدار مقاومتهما. ببراءة، تسللت كفها خفية نحو ما بين فخذي الرجل حيث تجمدت.

- شرابة...، قالت مع تنفسها. لا تعلم كم أ...

لم يتركها تنهي جملتها. بحركة مندفعة أخذ شفتيها وقبّلها بلوعة، في الوقت نفسه تقريباً الذي كانت كفاه تضغط وسطها، وتنزل إلى أسفل وركيها، رافعة بهمّة فستانها حتى يحس بشكل أحسن بملامسة فخذيها، وبتقوس كليتيها والأجزاء الأكثر حيمية من جسدها. تركته الفتاة يفعل، مجلوبة بنداء أخرس كان يجتث فيها كل مقاومة، وهي تقبض بكفيها على كتفي عشيقها. قالت بصوت غير مسموع تقريباً:

- أنت جميل، مثل شمس.

كرع ثانية من شفتيها.

وحقاً كان التركي علي الترجمان، ببذلة جندي الانكشارية من السرية السادسة التي يرتديها، يبدو مثل نصف إله.

الفصل الثالث

كان كريم جالساً على درجات المدخل الرئيس وهو يراقب أباه يشذب إحدى الشجيرات المزهرة حول القصر. ورغم أن التاريخ كان هو فاتح نوفمبر، فإن الصيف لم يكن قد سلم سلاحه بعد.

- إنني أقدرك يا أبي. فأنت تستطيع أن تشتغل لساعات دون أن تتعب.

تنهد سليمان.

- آه لو كان بإمكانك أن تفعل مثلي!

- مهما فعلت، فأنت تعلم أنني لن أكون بمثل قدرتك.

- هذا رغم أنني قد علمتك كل ما أعلم. منذ وفاة أمك، وكنت تعلمت بالكاد أن تمشي، أريتك كل وردة، وعلمتك الأسماء والأشكال والألوان. بماذا تحتفظ الآن وأنت مقبل على ولوج سنتك السابعة عشرة؟ لا شيء تقريباً. هل تدري كم تحتاج النخلة من الماء؟ في أي فترة يمكننا أن نغير الأصيص؟ هل تفرق بين عطر الفل وعطر الياسمين؟

- هل هو ذنبي أنني كلما اقتربت من النباتات ذوت كما لو أن فمي ينفخ رياح الخماسين. الحقيقة هي أن الورود لا تحبني.

- ألم تحادث نفسك يوماً بأن العكس قد يكون هو الصحيح؟

شهر سليمان المقص أمام أنف الفتى.

- اعلم يا ولد أنك إذا لم تعقل، ستنتهي بأن تجد نفسك تتسول عند أبواب المساجد، أو في أحسن الحالات حمالاً على رصيف بولاق.

ثم سأل فجأة وكأن السؤال قد انبثق لتوه في دماغه:

- بالمناسبة، أين كنت أمس صباحاً؟ بحثت عنك في كل مكان.

ازدرد كريم ريقه:
- أنا. . .كنت. . .
- على شاطئ القناة. أليس كذلك؟
- أجل، أجل، على شاطئ القناة.
ألح سليمان في سؤال ابنه:
- صحيح ما تقول؟
لم يجب كريم.
- فليرحمك الله. . .
تنهد وتابع بشفقة حزينة:
- أنت عملياً، حالة ميؤوس منها. . .لم تكن في القناة، بل في النهر، أليس كذلك؟
قرّب، في حركة تهديدية، المقص من أنف كريم.
- انتبه! هذه المرة أحذرك، ومن مصلحتك أن تدير لسانك في فمك سبع مرات قبل أن تنطق بكذبة أخرى.
- أجل يا أبي. صحيح. لقد ذهبت حتى جزيرة الروضة.
بدا سليمان متوتراً.
- ليحفظك رب العالمين برحمته. لكن ماذا عساك كنت تفعل هناك لساعات؟ قل؟ أجبني؟ عم تبحث في ماء النيل؟ أتظن أنك ستغير مجرى النهر، فقط بالنظر إليه؟ أتعتبر نفسك نبياً؟
- أحب مشاهدة إبحار الزوارق. هذا كل ما في الأمر.
- هذا كل ما في الأمر! وتجد هذا أمراً عاديا؟ اسمعني جيداً يا ولدي. أنا لست خالداً. اليوم الذي سأغادر فيه هذه الدنيا ستجد نفسك وحيداً فيها. عائلة شديد طيبة وكريمة، لكن حدائق الصباح تحتاج إلى أن تصان من قبل شخص مؤهل وجاد. ومهما يكن قلب سيدنا رحيماً، فإنه سيطردك إذا أخللت بواجباتك. وسيكون ذلك عدلاً. أتفهم؟
- نعم يا أبي.
- هذا ليس جواباً.
- أعدك بأن أبذل مجهوداً.

تفحص سليمان ولده وهو يضرب راحة يده بالمقص بانفعال.

- ولن تعود للعاصمة أبداً. على الإطلاق.

اهتز كريم.

- ماذا؟

- لقد سمعتني جيداً. لا أريد أن أراك تضيع حياتك.

قال الفتى بتوسّل:

- لا يا أبي، إلا هذا.

- هذا قراري يا كريم. ولن أتراجع فيه أبداً.

- لكن إذا التزمت؛ إذا لم يعد لك شيء تؤاخذني به؟ أرجوك.

- أقول لك ثانية: لا مجال!

تغممت عينا كريم بالدموع.

أن لا يعود أبداً لرؤية النهر. أن لا يعود أبداً لرؤية الزوارق وهي تسري على الماء. وباباس أوغلو... منذ لقائهما الأول، منذ أربعة أشهر، لم يتخلف أبداً عن أي من مواعيدهما. وأكثر من ذلك، كان اليوناني قد شرع يعامله كندّ له، وكانت صداقة حقيقية قد شرعت تنشأ بينهما. وقرر أن يعلمه سر الزوارق الصغيرة، وطريقة تشغيل المدافع. وقد وصل به الأمر حد أن تركه يقود (بوبي)، لساعة من الزمن. ماذا سيظن به إن اختفى دون إخطار؟

* * *

كان قد اجتاز نصف الحديقة، الكتفان منكستان، مثل سائر أثناء النوم، قدماً، دون أن يدري إلى أين المسير. انهار عالم أمام عينيه ، والنيل تجاوز ضفتيه وأغرق كل أفكاره.

في نوع من الضباب، تعرف على صوت شهرزاد الرنان.

- كريم!

سمع صوت خطوات متسارعة، وأقبلت الفتاة لتقف أمامه.

- هل قطعوا لسانك؟ ما هذه التصرفات؟

أزاحها بحركة عنيفة من طريقه، وانطلق مسرعاً في خطوه.

سارعت في أثره وهي تقول مستاءة:

- هل أذابت الشمس دماغك؟ ما هذه الوقاحة؟

- اتركيني وشأني يا شهرزاد! لا رغبة لي في اللعب.
كان قد ثبت في مكانه وأخذت شفتاه ترتعشان قليلاً.
آنذاك فقط انتبهت إلى أن عيني الفتى كانتا محمرتين من الدموع.
غمغمت:
- لكن. . ما. . . ماذا حصل؟
كان قد انطلق من جديد.
مرتبكة بما خالت أنها قد فهمته من حالته، لم تعد لتجرؤ على مضايقته، واكتفت بوضع خطواتها في خطواته.
وسرعان ما بدت مقدمات الصحراء. وفي الأفق بدا الخيال المشوَّش لأبي الهول وللأهرام الثلاثة.
عندما أدرك كريم قمة مرتفع توقف أخيراً وتهالك على الرمل.
كانت في البداية قد همت بالجلوس إلى جانبه، لكنها أحجمت وجلست بعيداً عنه.
كان هو من كسر الصمت:
- ألا تحترمين شيئاً البتة؟
سألت بهدوء دون أن ترفع رأسها:
- ما معنى الاحترام؟
- هو أن نترك الآخرين وشأنهم عندما يطلبون ذلك.
- أفهم. . .
- تفهمين؟ ماذا تفعلين هنا إذن؟
- وأنت؟
- أنا من يسأل!
أخذ كمشة رمال ورماها في اتجاهها.
ساد الصمت من جديد، وبالكاد كان يكسر بنشيد الرياح.
تمتمت شهرزاد:
- هل لاحظت؟
- ماذا؟
- الصمت في الصحراء يحدث صخباً كالبحر.

ضحك ساخراً.

- وكأنك سبق لك أن كنت على شاطئ البحر.

- طبعا.

- ومتى كان هذا يا أميرة؟

منذ بضع سنوات. ثلاث أو أربع ربما. كنا نقضي عطلتنا بالإسكندرية.

أشرقت التماعة شك في عينيه:

- تهزئين بي؟

- أبداً. ليس لك إلا أن تسأل أبوي!

- ألا تكذبين؟ قولي. رأيت البحر فعلاً؟

- لكن؟ ما الغريب في ذلك؟ أجل، أكررها؛ لقد سبق لي أن رأيت البحر. وإذا أردت سأريك المحارات التي أتيت بها من هناك. أملك العشرات وبكل الألوان...

- كيف هو؟ قولي!

- أنا لا أفهم.

- احكي! البحر، كيف هو؟

بدت متفكرة.

- إنه شاسع...

وأشارت بإصبعها إلى شساعة الرمال.

- هو شاسع مثل هذه.

سأل من جديد:

- وهو جميل جداً، أليس كذلك؟

هزت كتفيها دون اكتراث.

- لماذا كل هذه الأسئلة، ألم يسبق لك أن شاهدت البحر؟

رق كلام كريم. كان يتأمل الكثبان الرملية بتمعن، إلى درجة يُخال معها وكأنه يبحث فيها عن أثر الزبد:

- لا يريد أبي أن أذهب إلى النهر. أبداً.

ثم حكى لها عن باباس أوغلو، وعن الزورق ذي المدافع.

- أمن أجل هذا كنت حزيناً؟

أجاب بالإيجاب، وتكدر نظره من جديد.

توقفت عن الحديث خشية أن تخون نبرات صوتها إحساسها، أو مخافة أن تنخرط هي بدورها في البكاء. انتصبت أخيراً وأتت لتجلس بجانبه. وبحركة محتشمة، بدأت بوضع كفها على خد الفتى. لم يبد أي رد فعل. تجرأت، فاقتربت منه أكثر، في حركة مستغرَبَة من امرأة، وعملت على احتضانه بين ذراعيها وضغطه إلى جسدها. ومن الغريب أنه لم يمنعها من ذلك، ولم يبد أي مقاومة ولم يعرب حتى عن استغرابه بينما كانت هي تجني عبرات بسبابتها، لتحملها بعد ذلك لشفتيها.

- أتدري، ليس هذا بالأمر الخطير.

- ليس خطيراً؟

انفَكَّ منها مذهولاً:

- كيف أمكنك أن تقولي أمراً كهذا؟

- لأنه صحيح. إذا كنت متشبثاً بجولاتك على شاطئ النهر، فإنني لا أرى ما يمنعك من ذلك.

- ألم تفهمي إذن، أي شيء؟ لقد جعلني أبي أقدم وعداً! قال: أبداً!

بحركة لامبالية، أخذت بعض الرمل جاعلة إياه ينساب من بين أصابعها.

- النهر مهم بالنسبة إليك؟

- إنه حياتي.

ألحت:

- هو مهم جداً بالفعل؟

- أكثر من أي شيء آخر في الدنيا.

- في هذه الحالة ستذهب رغم كل شيء.

- أكذب على أبي؟

- هو ليس بالضرورة أن يعرف.

- والكذب، ألا تأبهين به؟

- لقد قلت لي بأن الذهاب إلى شاطئ النهر هو سعادتك الكبرى. ولا شيء في الدنيا يمكنه أن يمنعك من أن تحيا سعادتك الكبرى.

حائرا، لم يعرف بما يجيب. كان ما قالته لتوها منطقياً للغاية. ومن جهة أخرى...

- لماذا يشكل النهر بالنسبة إليك كل هذه الأهمية؟

أجاب بكبرياء زائدة:

- لأنني سأكون ذات يوم أميرالاً كبيراً.

جحظت عينا شهرزاد:

- أميرال كبير؟

- تماماً.

لكن مصر صحراء!

- لا تكوني غبية. نملك البحر أيضاً. لقد سبق لك أن شاهدته أليس كذلك؟

- لكن الأميرال يحتاج إلى مراكب، أليس كذلك؟

- سيكون لي مركب.

- أجل، ستذهب لتبتاعه بأجرك كبستاني.

انتصب دفعة واحدة.

- أنت غبية. هيا بنا.

- لكن لا، انتظر قليلاً. فسر لي.

ومع ذلك فالأمر واضح، أليس كذلك. عندما سأكبر سأصبح القبطان باشا. هذا كل ما في الأمر.

انتصبت بدورها، وقالت متكبرة:

- وإذن، فأنا أيضاً.

حرك كتفيه:

- أنت تعلمين جيداً بأن ذلك مستحيل. والآن تعالي. سيظن أبي أنني قد ذهبت من جديد إلى العاصمة.

سألته وهي تقتفي أثره:

- الأميرال، هل يسافر بعيداً؟

- إلى نهاية الدنيا.

- لمدة طويلة؟

- لأشهر.

أمسكته من كم جلابيته:

- وأنا؟

- أنت، ماذا؟

- ماذا سيحل بي أثناء هذا الغياب؟

- كيف؟

- عندما سترحل لآخر الدنيا، ماذا سيحل بي أنا؟ هل فكرت في ذلك؟

- ماذا تقولين؟ لك أسرتك أليس كذلك؟

ضغطت قبضتيها.

- أنت تكرر بلا توقف بأنني غبية، لكن ليس ثمة على وجه الأرض أغبى منك!

- أتفقدين صوابك أم ماذا؟

لم يتبادلا بنت شفة. وفقط عندما أصبحا على مرآى من القصر، قالت شهرزاد متعجبة:

- لقد فكرت.

نظر إليها من فوق كتفيه، حائراً برنة صوتها الواثق.

- لقد فكرت، تابعت، لن أكون قبطان باشا. سأكون ملكة كل الإمبراطورية.

أطلق قهقهة عالية.

- ألم يعد، إذن، يكفيك لقب الأميرة؟

- الملكة تملك سلطة أوسع.

تساءل ساخراً:

- وماذا ستفعل ملكتي بسلطتها؟

وبما أنها لم تجب، كرر السؤال.

نظرت إليه مطولاً:

- ستأمر الملكة بأن لا يغادر أي مركب الميناء أبداً.

* * *

رغم الوقت المتأخر، كان حي ما بين القصرين يعج بالناس. إنه القلب النابض للقاهرة. تمتد القصبة من شماله إلى جنوبه، إذ تعتبر بمثابة العمود الفقري للمدينة منذ التأسيس الفاطمي. هنا يتموج الهواء دون توقف، محملاً بالضجيج وبالروائح. كانت تروج إشاعات حمقاء حول هذا الحي. يتحدثون عن رجال يتبعون غلماناً ونساء. يؤكدون بأن رجالاً ونساء كانوا يسمحون بعضهم لبعض، وهم يمشون، بملامسات شهوانية دون أن ينتبه لذلك أحد بسبب كثافة الجموع. وسواء صدقنا أو لم نصدق هذه الحكايات، فإنه لا بد من القول بأن زحاماً مثل هذا ينبئ بأن كل شيء يمكن أن يحدث.

في اللحظة نفسها التي كان خلالها نبيل شديد يعبر القصبة، كان بإمكاننا أن نعد أكثر من خمسة آلاف شخص. كانت هذه الحشود تمشي، وتحتك فيما بينها، وتعتمل على البغال، مأخوذة بدوامة، يصم آذانها صراخ أصحاب العربات المجرورة بالحمير وأصوات المتسولين. تسير بضع نساء شعبيات، متشحات بالسواد، وحاجبات وجوههن بطيلسانهن عبر الحواري في تململ وسأم. وفي أحيان نادرة، كان يمكن التعرف من خلال اللباس المبالغ في تطريزه وتذهيبه، أو من خلال الكاشمير اللامع، على الزوجة التائهة لموظف سام.

كان الفتى يتابع طريقه بصعوبة، محاذراً من أن يطأ صبياً أو من أن يخض أعمى، وسط هذه الجمهرة التي تتداعك وتتكادم كل حين.

أخيراً أفلح في أن يدلف إلى شارع صغير أقل ارتياداً ممتد وسط بنايات خربة. انعطف إلى اليسار وعبر بيت القاضي، مركز العدالة، حيث توجد هناك السلطات المشرفة على طوائف الحرف والأسواق. وسرعان ما بدت أولى حوانيت خان الخليلي، هذا الملتقى الأخرق، الذي جعله مدخلاه الوحيدان معزولاً نسبياً.

انسدلت أثواب مخططة أمام الطريق الرئيسة المنقوعة في العرق والمغطوسة في أضواء قوية. بين شارع المعز وجامع سيدنا الحسين تتزاحم عشرات الحوانيت الصغيرة، ولا تتجاوز مساحة بعضها مساحة غرفة ضيقة. إن هذه السوق المنشأة منذ خمسة قرون خلت من طرف السلطان المملوكي خليل بن قلاوون، لم تكن تزداد إلا اتساعاً أمام النظرة المسطولة لمدخني النرجيلة. وفيه

كان يتجمع أيضاً التجار الأجانب والمسافرون العابرون - وأغلبهم من الأتراك- إذ كانوا يجدون هنا إسطبلات لحيوانات نقلهم، وخزائن لبضاعتهم ومآوي لهم هم أنفسهم. وكما كان الشأن في عصر السلطان، تختلط روائح العطور الحادة بالروائح العفنة، وتنافس رائحة العنبر رائحة البخور، ويختلط النحاس بالذهب في مزيج من الغبار وأدخنة المقليات.

شق نبيل شديد لنفسه ممراً وسط هذا الخليط حيث اصطف، دون نظام، بائعو الشموع والصرافون الجالسون أمام عملاتهم والأطفال الحفاة الملطخة وجوههم بالقاذورات والضحكات. ووسط هذه الجلبة الجحيمية كان يعلو صوت بائعي الماء على كل الأصوات، وقد لبسوا جلداً وأحذية عالية.

ومع هذه الجلبة التي لا تنتهي كان الإنكشارية يراقبون، مذكرين، من خلال حضورهم، بالنظام العثماني.

سيف معلق للحزام أو بندقية معلقة على الكتف، كانوا يمشون لامبالين، مندسين في جلابيبهم، على رؤوسهم قبعات لبدية مزخرفة بنسيج موصلي. كان الإنكشارية هم الأقوى من بين كل الميلشيات المكلفة من طرف الأتراك بمراقبة العاصمة. كان هؤلاء في الأصل منحدرين من أقوام مسيحيين أُخضعوا خلال الفتوحات. فبعد أن انتزعوا من أهاليهم، وهم بعدُ أطفال، جعلوهم يعتنقون الإسلام ورُبوا في مدارس خاصة بحرفة السلاح.

عندما أدركهم نبيل شديد، شرع قلبه يدق بعنف. هل كان بإمكانه أن يشك يوماً في أن الآغا، العقيد النشيط الذي كان يقودهم، لم يكن إلا علي الترجمان عشيق شقيقته؟

برغبته في إسراع خطوه اصطدم بامرأة بدينة، اختفى رأسها تحت ربطة عظيمة وظلت المرأة رغم ذلك ثابتة في توازن لا يصدق. تمتم ببعض كلمات اعتذار وتابع طريقه.

بعد ذلك بلحظات وصل أمام بناية صغيرة وسخة. وبعد أن تأكد من أنه غير مراقب من طرف المللشيات، دفع الباب ودلف إلى الداخل بسرعة.

انتصب أمامه سلم متداع. ودون تردد تسلق الدرجات واحدة واحدة إلى أن وصل إلى الطابق الثاني فوقف أمام عتبة الشقة الوحيدة. طرق ثلاث طرقات

جافة، ثم توقف لبرهة. ثم ثلاث طرقات. سمع صوت خطو. أزيح الرتاج فبدا شاب يبدو من سنه نفسها.

- بطرس يا صديقي، السلام عليك. . .

- وعليك السلام. . . أدخل بسرعة. الجميع هنا.

- كانت الحجرة التي اقتيد إليها مليئة بالقفاف وبأشياء غريبة. النافذة الوحيدة كانت محجوبة بستار من الكتان أغرق المكان في الظلال. ومن خلال العطر الجاف والشعاع الرفيع المغمم الذي كان يحلق أفقياً فوق حزم القش، كان يبدو أن أحدهم قد أحرق بخوراً في الغرفة. جلس ثلاثة أشخاص على البساط المفروش للمناسبة.

قام الشاب الذي استقبل نبيل بتقديم الأشخاص الثلاثة:

- صلاح وعثمان وشريف. وباستثناء صلاح الذي يشتغل مع والده، فإن الاثنين الآخرين هما مثلنا طالبان في الأزهر.

سلم نبيل عليهم بحرارة، بينما واصل بطرس قائلاً:

- اعذروني على استقبالكم في زحمة مثل هذه، لكننا هنا في مستودع والدي الذي له، كما تعلمون، دكان في شارع المعز. ليس بالمكان شيء من أبهة ديوان، لكن هذا كل ما استطعت أن أوفره لكم.

قال عثمان:

- هذا ممتاز، . المكان لا يهم. ما يهم هو نوعية الاجتماع.

أومأ الجميع بالموافقة على ملاحظته.

- أذكركم أننا نجتمع بإلحاح من أخينا نبيل. لقد تداولت معه حول هذه الفكرة منذ زمن. وأعترف أنني قد ترددت في البداية لأنني كنت أعتبر الخطوة خطيرة. ونبيل يعرف هذا فقد تحادثنا فيه مطولاً.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة متواطئة.

- وهو ما يفسر نتائجنا الضعيفة في نهاية السنة.

ثم جاداً من جديد:

- لكنني غيرت رأيي أخيراً، فطردتْ رغبتي في خدمة القضية كل مخاوفي. لكنني أظل مع ذلك مقتنعاً بأن الحيطة يجب أن تبقى كلمة تنظيمنا. يجب أن يظل الأمر سراً بيننا. أي بوح أو كلمة في غير موضعها وتكون

النهاية. تعلمون مثلي أي خطر يواجهنا إن تناهى كلامنا، لا قدر الله، إلى أسماع السلطات، ومع ذلك فإن على لقاءاتنا أن تستمر. لكنني أريد، في هذه النقطة، أن أترك الكلمة لنبيل.

اعتدل ابن يوسف شديد وسط حزم القش وقال:

- أنا يوناني كاثوليكي، وبطرس قبطي، وعثمان وصلاح وشريف مسلمون. وإذا كنا هنا مجتمعين فلأن ثمة قضية تجمعنا، بعيداً عن معتقداتنا الدينية، وهي حبنا لبلدنا. هل أخطأت؟

صادقوا جميعاً على كلامه.

- لم تعد مصر سوى ضيعة جبائية، قدرها الوحيد هو إيصال إتاواتها السنوية للباب العالي. لقد جردونا من كل شيء. وحيثما ألتفت لا أرى إلا تواطؤاً وجبناً. الكبار يحيون عبيداً، مساندين للقمع، ذاهبين حتى إلى دعمه كلما رأوا أنهم يجنون المنافع من وراء ذلك. وفي الجامع أساتذتنا صامتون. حتى الشيخ الرئيس، العالم الجليل، السادات، الذي اعتاد مع ذلك أن يعامل الناس بتعال، ينثني مثلما انثنى أمام السلطات العثمانية. الأتراك يحتلون أرضنا منذ ما يقارب قرنين من الزمان؛ والمماليك يجنون من وراء ذلك كل المنافع. ما الذي سنصيره في ظل هذه الشروط؟ وما الذي سيكونه مصير مصر إذا لم نبدِ نحن، دماءها الجديدة، أي رد فعل؟

صمت نبيل ليرصد وقع كلماته على رفاقه. وعندما أحس بالرضا، واصل:

- أعتقد أن وقت بدء حركة المقاومة قد حان. آن أوان وضع حد لقرون من الخضوع. إن على ثروات مصر أن تعود إلى مصر.

وقعت حيرة خفيفة بين الشباب. فتساءل صلاح، أصغرهم:

- وضع حد لقرون من الخضوع، هذا مؤكد، لكن كيف؟

وتابع عثمان:

- لا تظن أننا نحن الخمسة يمكننا أن ندحر الجيش العثماني وخيالة المماليك.

- سيأكلوننا نيئين، علق بطرس.

وزايد شريف بإهاب مرح:

- سيصنعون منا كفتة أو . . .

فقاطعه ابن شديد:

- استمعوا إلي. نحن اليوم خمسة، لكننا غداً سنكون عشرة، ثم مائة، ثم آلافاً. خذوا اجتماعنا هذا مثلاً. لقد أقنعت صديقي بطرس، وقد التقى هو بشريف وعثمان، اللذين استقدما بدورهما صلاح. يكفي أن نستمر على النهج نفسه، أن نستمر في استقطاب شباب آخرين يقاسموننا المبادئ نفسها. وأقسم لكم بحياتي، إن يوماً سيأتي وقد أصبحنا من الكثرة بحيث يمكننا أن ننتقل إلى مرحلة التنفيذ.

- قد يأخذ هذا شهوراً، لاحظ القبطي، وربما سنوات.

ظل نبيل هادئاً:

- إننا نمتلك قوة لستم واعين بها، قوة تعادل كل قوى الإمبراطورية.

- عن أية قوة تتحدث؟

- أقصد شبابنا! أنا أسنكم، ولي بالكاد خمس وعشرون سنة. ألا ترون بأن هذا يفسح لنا متسعاً من الوقت؟ كما أن لنا عاملاً آخر بأهمية شبابنا نفسها. لا أريد هنا أن أعطيكم دروساً في التاريخ، فأساتذتنا في الأزهر ما يزالون يحتفظون ببعض الكفاءة، غير أنه من غير المحتمل جريان شفاههم بهذا النوع من الخطاب.

صادق الشبان على كلامه بابتسامة ساخرة.

فتابع نبيل:

- لم يكف المماليك والعثمانيون، منذ عهد سليم الأول، عن التطاحن. واليوم، يبقى الباب العالي دائماً بالعجز نفسه أمام مراد وإبراهيم. لقد بالغت اسطنبول في إغراق مصر بالفرق العسكرية، والحيَّتان تحكم بحقد كبير.

قال بطرس بنفاد صبر:

- ماذا تريد أن تقوله لنا؟

- ببساطة، إن الخصومة بين الأتراك والمماليك ستكون في النهاية في صالحنا. فبسعيهم إلى تدمير بعضهم بعضاً لن يزدادوا إلا ضعفاً وخواراً، وسيكونون مضطرين، عاجلاً أم آجلاً، إلى إرخاء قبضتهم عن مصر. وفي هذا اليوم علينا أن نكون على أهبة الاستعداد.

- ومن هنا ملاحظتك السابقة، لاحظ صلاح.

- تماماً. يجب أن تُنجَز عملية الاستقطاب بهمّة. علينا أن نختار أشخاصاً مصممين، ونزهاء ولا أريد أن ألح إلا على هذه النقطة - شباباً من سننا نفسها. أما الكبار فقد فسدوا.

- لنتصور أن عددنا يوماً سيصبح كبيراً. وبعد؟ لا سلاح لنا ولا خيل. لا شيء غير أيدينا الحافية. ومهما يكن ضعف المماليك والأتراك فإنهم سيظلون قوة عظمى. فهم يملكون سيوفاً وخيلاً هي الأجود في العالم. وإذن؟

شارك بطرس صديقه رأيه:

- هذا صحيح. صديقنا على حق، سنكون دائماً ضعافاً.

حرك نبيل رأسه دليل عدم موافقة:

- سامحوني، لكن يبدو أنكم لا تدرون ما معنى أن يتحرك شعب. إنه أقوى من أية عاصفة أكثر قوة من ألف ريح من رياح الخماسين.

انتصب واقفاً وخطا بضع خطوات في اتجاه ستارة الكتان التي أزاحها تلقائياً.

- هل سمعتم ببلد من الغرب اسمه فرنسا؟

بدا الشباب وكأنهم يتشاورون فيما بينهم. التفت نبيل نحوهم وقال بنبرة افتتان:

- في هذا البلد، ومنذ سنة تقريباً، كان أفراد الشعب هم من وضع حداً لقرون من الظلم ومن القمع. لا أحد آخر غير أفراد الشعب. لقد طردوا المغتصبين الذين كانوا يحكمونهم، وحرروا المساجين وسيطروا على السلطة. إن الأيدي الحافية هي التي أفلحت في ثورتها.

ومن خلال التعابير الآسرة التي اجتاحت ملامح الشبان الأربعة، كان بالإمكان التخمين بأن كلمات نبيل الأخيرة قد أزاحت شكهم.

- هذا البلد الذي تتحدث عنه... هل يوجد بالفعل؟ وهذه الأحداث هل جرت فعلاً كما تقول؟

- أقسم بالله... لا أقول إلا ما جرى.

قال بطرس بحماس مفاجئ:

- في هذه الحالة، لم يبق لنا إلا أن نطلق اسماً على حركتنا. ماذا تقترحون؟

فاقترح صلاح بسرعة:

- بما أن الشعب الفرنسي هو الذي صلُح لنا كقدوة، فلم لا نسمي حركتنا (فرنسا)؟

انفجر الشبان ضاحكين.

ثم قال بطرس:

- أليس لك يا صلاح، شيئاً أحسن من هذا تقترحه من أجل حركة ثورية مصرية؟

أشار شريف إلى نبيل:

- الخطأ خطؤك... فهل غرضنا هو أن نحكي حكايات لأطفال؟

رد صلاح :

- معذرة، لم أفكر في ذلك جدياً.

- أي شهر هذا؟ تساءل عثمان فجأة.

أجاب شريف:

- سبتمبر.

- في هذه الحالة، لماذا لا نطلق على أنفسنا، ببساطة، اسم هذا الشهر؟

ارتسمت على الملامح عبارات عدم اقتناع.

- ماذا؟ وما المشين في ذلك؟ هذا أفضل على أي حال من (فرنسا) أليس كذلك؟

- آه... لم لا؟ لاحظ نبيل.

اسم حركة يجب أن يكون ذا اعتبار خاص، علق شريف.

وقطب وجهه.

- سبتمبر...

- لقد وجدت الاسم! قال صلاح.

فصاحوا جميعاً:

- آه! ارحمنا. لا تتلفظ بمزحة أخرى من مزحك!

- لا! الأمر جاد... استمعوا... دم النيل...

ران صمت عقب اقتراح الشاب. تشاورت المجموعة بالعيون. وأخيراً تمتم أحدهم بإجلال:

- يجب أن نؤدي القسم الآن. ولتعش دم النيل!

* * *

في حجرة صغيرة تقع بضع منازل إلى الأسفل، وتحديداً عند زاوية شارع المعز، كان الآغا علي الترجمان يتدحرج فوق جسد سميرة العاري.

نصف ساعة قبل ذلك، كان قد تحرر من سَريَّته فأسند القيادة إلى نائبه: فواجبات مهمته كانت تستدعيه لمكان آخر.

كان العرق يجتاح أعضاءه، ونفسه متسارع.

شق شعاع ضوءِ العتمة واندلق على ذراعه، سامحاً برؤية وشم يمثل هلالاً. هكذا كان الإنكشارية ينقشون شعار سريتهم.

بحركة مترعة بالحسية ذَرَعَت سميرة بلسانها الوشم، وعندما ألقت برأسها على المخدة، تمتمت بصوت أجش:

- تعالَ... تعالَ يا حبيبي.

بحركة عنيفة من كليتيه، كان علي يلجها. كانت تتقلص برشاقة. وفخذاها يطبقان في شكل مقص على فخذي عشيقها، وهي تطلق أنّات متعة...

الفصل الرابع

كانت أغصان الشجر مزينة بأشرطة ذات ألوان فاقعة. كانوا قد أقاموا الزينة من الممرات حتى قمم النخيل.

وكانت نادية، التي تلبس كسوة غربية فاتنة اقتنتها أمس من مدام مغيان، تضع اللمسات الأخيرة على الاستعدادات. لقد قررت أن يكون الاحتفال برأس هذه السنة هو الأنجح، وبالخصوص لأن هذا اليوم يصادف عيد زواجها من يوسف. كان يطيب لها أن تقول بأن خمساً وعشرين سنة قد مرت على زواجها، لكن، بالنسبة إليها، كما لو كانت قد تزوجت بالأمس.

٣١ ديسمبر ١٧٦٥... في دمياط. منزل الأهل... كانت قد أدركت لتوها السادسة عشرة عندما أقبل يوسف طالباً يدها. ستتذكر ما عاشت الشعور الذي انتابها، عندما قام من سيصبح رفيق حياتها بإمساك إصبعها ليدخل فيها بعناية ورفق خاتم الزوجية المرصع بالبرلنت.

٣١ ديسمبر ١٧٩٠... ساعات ويفرد المغيب ظلاله على سهل الجيزة، فيقبل الليل ساحباً معه فجر السنة الجديدة.

نزلت من فوق الكرسي الصغير الذي استخدمته لتعليق أشرطة متعددة الألوان على المدخل، وعادت نحو قاعة الأكل. تأكدت للمرة الأخيرة من أن عائشة لم تنس شيئاً، وعدلت سلة الورد الموضوعة وسط الطاولة. أعادت عَدَّ عدة الأكل... المخصصة لأحد عشر فرداً. لقد دعت جارتها السيدة نفيسة، زوجة مراد بك؛ والفرنسية مدام مغيان التي ستحضر دون زوجها، حيث اضطر النائب أن يعود لفرنسا لأسابيع، والسيد والسيدة شلهوب المصحوبين بابنهما الوحيد ميشيل. وعندما وقع بصرها على طاولة، لم تستطع منع نفسها

من أن تقطب؛ فهي مخصصة لزبيدة، أفضل صديقات ابنتها البكر. لم تكن تحب هذه الفتاة كثيراً. لا لأنها تؤاخذها على سلوك غير مناسب، لكنها كانت تجد في مظهرها شيئاً مبهماً يثير النفور. تلك الطريقة في التزيُّن... وإضافة إلى ذلك، من أية عائلة تنحدر؟ أمها توفيت، وكان أبوها، على ما يبدو، صاحب حمام بلدي. لكن اليوم يوم احتفال، وسميرة أفرطت في الإلحاح.

- لكن أين اختفت شهرزاد؟

* * *

كانت شهرزاد - وهي تجلس غير مستريحة على عنق الفرس، وساقاها الرخوتان ملتصقتان بجانبي الدابة المنطلقة عبر التلال - تُذكر بدمية مفككة المفاصل. عند كل قفزة مفاجئة للفرس كان يُجن جنونها وتصطك أسنانها. ورغم مجهودها البطولي، كانت تنزلق بتثاقل إلى مؤخرته.

غير بعيد خلفها، كان كريم يتعقبها. ودون أن تكون مضطرة إلى الالتفات (هي على أي حال قد حاولت، لكنها لم تفلح)، كانت تعلم أنه يعدو خلفها مطمئناً، معتزاً بنفسه في منأىً عن أي خطر. كانت هذه الصورة تجعلها في غاية الغضب. وماذا لو كان أيضاً قد اكتفى بأن يتبعها في صمت ... لا، ثمة أيضاً هذه الضحكات العالية التي كانت تضاعف حنقها. لقد حاولت ما أمكنها أن تطبق النصائح التي قدمها لها، لكن سدىً؛ إذْ لم تستطع في أية لحظة فرض سيطرتها على الدابة.

سفير - وهو اسم مطيتها- يخفف بشكل ملموس من سيره. قلّت قفزاته المفاجئة. وأصبحت ركبتاها لا تحتكّان إلا قليلاً بجانبي الحيوان. لكنها لم تبد، مع ذلك، أي ارتياح. فهي تعلم أن الهدوء لن يستمر إلا للحظات. فبعد قليل، وبفعل تحريض ابن سليمان، سينطلق سفير ثانية، أسرع من الريح. كانت شهرزاد مقتنعة بأن الفتى قد يكون ساحراً، وإلا فكيف يمكن تفسير أنه، دون أن يلمس الحيوان، كان يكفيه أن يطلق صوتاً بسيطاً، صوتاً يذكر بصياح ضفدعة، لتطلق الدابة قوائمها للريح.

لم يتأخر صوت الضفدعة.

اصطكت أسنان شهرزاد. وانطلقت مطيتها بسرعة فائقة في الصحراء الشاسعة.

استمرت هذه اللعبة الصغيرة إلى أن قرر كريم وضع نهاية لها. أدرك سفير وأطبق على الزمام فأوقفه.

- ما رأيك، سأل مع ابتسامة خبيثة، دائماً الرغبة نفسها في تعلم الركوب؟

لم تجب على الفور. كانت تود أن تصيح، أن تقفز عليه، أن تخدش وجنتيه. هل سبق لها أن كرهته بهذه الدرجة؟ ومع ذلك وهبته بسمتها الجميلة.

- هذا رائع.

قطب جبهته:

- أحببت هذا فعلاً؟

- لم أسرّ بشيء في الدنيا مثلما سررت بعدونا اليوم. نعيد الكرة غداً؟

بدا حائراً.

- أجل... طبعاً، إذا كنت تصرين...

- ممتاز. علي الآن أن أعود إلى البيت لأساعد أمي.

وافق كريم فوراً. أطلق صوتاً جديداً - صوت فرقعة اللسان ضد الحنك - فأخذ فرس شهرزاد يتحرك على الفور، لكن هذه المرة في خبب طيِّع.

قال وهو يمتطي الفرس إلى جانب الفتاة:

- ستحتفلون هذا المساء بالسنة الجديدة؟

- نعم. ألن تفعل أنت؟

- أنسيت؟ أنا مسلم. الاحتفال الكبير بالنسبة إلينا يكون في العيد الكبير.

آتت شهرزاد حركة تفهم. هي لم تفهم شيئاً على الإطلاق في هذه الاختلافات. ففضلت تغيير الموضوع.

- كيف حال صديقك باباس أوغلو؟

- تركني، أمس، أبحر بمفردي. كان ينبغي أن تكوني حاضرة. كان الأمر رائعاً.

- لو كنت تقود الزورق بإصدار الجلبة الغريبة نفسها التي تصدرها عندما تركب الفرس...

جعل كريم يضحك.

- للأسف، ليس للزورق آذان.

ثم تابع الفتى، جاداً:

- أخشى ما أخشاه أن يكتشف أبي أنني لم ألتزم بوعدي.

- أتعتقد أنه يشك في شيء؟

- لا أدري. آمل أن لا.

ران صمت للحظة قصيرة. غيرت شهرزاد الموضوع بانتقال متصنع:

- قل لي، لماذا يستجيب سفير لأصواتك؟

- لأنني كبرت معه. ولأن كل أطفال الصحراء يجيدون الحديث إلى الخيل.

- تريد أن تقول بأنني لن أستطيع ذلك أبداً؟

- أنت أميرة يا شهرزاد. ابنة غني معتادة على العيش في بيت من حجر.

رمته بنظرة محتقرة.

- وتظن أن سفير يعرف ذلك؟

* * *

جمعت فرانسواز مغيان كفيها بانفعال، بينما كانت السيدة نفيسة تعمل جاهدة على طمأنتها.

- سأقوم بما أستطيع. أعدك أنني من غدٍ سأحادث مراداً.

قالت زوجة النائب الفرنسي بعجلة:

- اعلمي أنني ما كنت لأحرجك أبداً لو لم يكن السيد مور، قنصل فرنسا، قد قال لزوجي بأنه لم يعد يستطيع مواجهة الوضع.

- أنا أفهم يا فرانسواز. أنا أفهم. لا تخشي شيئاً، سأقوم بالواجب. وعلى أي حال...

صمتت الست نفيسة للحظة وهي تجيل بصرها في صديقاتها.

- نحن النساء نملك سلطة قوية. أليس كذلك؟

صادقت على قولها نادية وأميرة شلهوب.

كان العشاء قد انتهى منذ ساعة. وكانت شهرزاد وباقي الشباب قد تفرقوا في القصر، وكان الراشدون قد التحقوا بقاعة الاستقبال الكبيرة.

كان الليل قد حل، وكانت الثريات والمصابيح الزجاجية قد أوقدت وحط

الضوء الدافئ على موزاييك العاج والصدف الذي يغشي خشب الأبنوس للأبواب، وعلى مرمر النافورة التي تتوسط القاعة.

تحدث جورج شلهوب مهموماً إلى فرانسواز:

- الأمر إذن بهذه الخطورة؟

بدت المرأة الشابة قلقة:

- علينا أن لا نهول، لكن مع ذلك، فإن مقادير الغرامات المفروضة على التجار الأجانب، رهيبة. كل يوم يتحمل مواطني هنا إهانات جديدة. وسيصبحون بعد حين عاجزين عن الأداء. ومراد بك...

قاطعتها الست نفيسة وهي تضرب الهواء بحركة غيظ:

- مراد بك فقد صوابه! لا يصلح إلا للصراخ: إلي أيها المماليك، إلي يا جماعة محمد! هو والآخرون يعتقدون أن بإمكانهم أن يستخرجوا الماء من البئر كل حين دون أن تجف. آه! فقط لو كان المرحوم زوجي، علي بك - ليرحمه الله - ما يزال على قيد الحياة. يمكنني أن أؤكد لكم بأن لا شيء من هذه المبالغات كان يمكن أن يحصل.

التفتت إلى مضيفها:

- أنت الذي عرفته، ألا ترى بأنني محقة؟

وضع يوسف بلطف (التعميرة) على نار النرجيلة:

- دون شك يا ست نفيسة. لقد كان المرحوم علي بك رجلاً عظيماً.

عب من التبغ، مُغْملاً الماء، في الآن نفسه وسأل فرانسواز مغيان:

- هل صحيح أن القنصلية الفرنسية ستظل، بسبب انعدام الأمن في العاصمة، بالإسكندرية؟

- أعتقد ذلك. لقد نُقلت إلى الإسكندرية منذ ما يقارب أربعة عشر عاماً، وليس هناك تفكير الآن في إعادتها للقاهرة. لاحظ أن ذلك يكاد لا يغير من الأمر شيئاً... فالأحوال في الاسكندرية ليست أحسن البتة.

ثم قالت نفيسة:

- عندما أتذكر بأنه قد هدد بتدمير كنائسكم... لقد نسي زوجي أن كل الديانات المذكورة في الكتاب مقدسة!

ومع ذلك، لاحظ يوسف وهو يمد كفه إلى صحن فستق، أن البيهين قد

وقعا منذ خمس سنوات مع رجل يدعى - بدا وكأنه يبحث عن الاسم - تروغي، على ما أعتقد، عقداً يسمح للفرنسيين بالإبحار في البحر الأحمر. وقد ساهم زوج مدام مغيان مساهمة كبيرة في هذه القضية. لماذا إذن هذا التحول. سيكون الأمر أكثر بساطة لو. . .

- آه! لقد أخذ هذا الأمر يُغيظني! قالت نفيسة وهي ترتب ثنيات كسوتها التي من حرير طبيعي، كما لو أن زوجي لم يكن له مع الأتراك ما يكفي من المشاكل كي يُخاصم القوى الغربية! إن ذهن الرجل، عملياً، لهشّ.

لنهدأ، قالت نادية. ستعود المياه إلى مجاريها. . . هذا المساء مساء احتفال. لنترك الأمور السيئة جانباً، أتريدون؟ وخصوصاً. . .

صمتت قبل أن توشوش بنبرة بوح:

- ها قد مر اليوم على زواجي من يوسف شديد خمس وعشرون سنة.

بعد أن مرت لحظة المفاجأة الأولى، سارعت النسوة الثلاث إلى نادية مهنئات ومعربات عن أمنياتهن المختلفة لها بالسعادة.

قال يوسف بغضب متصنع:

- أين الخاتم! لماذا لا ترين صديقاتك ما كلفتنيه هذه السنوات!

- الخاتم؟ سألت نفيسة وفرانسواز مغيان بتلقائية .

- أين هو؟ لماذا لست تضعينه؟ سألت أميرة شلهوب وهي في غاية الإثارة.

أوضحت نادية بسخرية خفيفة:

- لأنه، وبعد خمس وعشرين سنة من الزواج، زوجي اللطيف لم تستوعب ذاكرته بعدُ رقَّة أصابعي. علي إذن أن أضيق من سعة الخاتم إن لم أكن أريد أن أضعه في إبهامي. تعالين، هو في الطابق العلوي.

- ليمنحك الله ألف سنة أخرى من السعادة! صاح جورج شلهوب عندما كانت النسوة الثلاث يختفين باتجاه الطابق العلوي.

ثم قال موجهاً حديثه ليوسف:

- الأزواج السعداء نادرون.

- وما العجب في ذلك؟ أليس الرجل والمرأة مختلفين؟ وإذا كانا ينتميان إلى الأصل نفسه فإنهما معاً يعزفان على وترين مختلفين، وإذن. . .

أزاح جورج مقعداً واقترب قليلاً من مضيفه.

- بما أننا نتحدث عن سعادة الزوجين، فإن هناك موضوعاً أريد أن أحادثك فيه. يتعلق الأمر بمستقبل أبنائنا. أقصد ابنتك شهرزاد وولدي ميشيل.

سحب يوسف نفساً طويلاً احمرت منه جمرات النرجيلة المتوقدة، فأغمض عينيه مُلتَذّاً، تاركاً الآخر يتابع:

- ابنتك كائن من طينة رفيعة. هي جميلة مثل بدر في تمامه، وبعد سنوات ستغدو أكثر جمالاً.

- أشكرك يا جورج، لكنني أقول فوراً فيما يتعلق بالطينة الرفيعة بأن ولدك ليس أقل من ذلك. إنه فتىً جذاب. حسن التربية. وفي سنه... بالمناسبة، في أي عمر هو بالضبط؟

أجاب جورج بسرعة حتى لا يفقد خيط أفكاره:

- هو يلج سنواته الاثنتين والعشرين... وفضلاً عن ذلك، فنحن اليونانيين الكاثوليك لسنا بشيء أمام الأقباط وهذا الإسلام المهيمن.

- هذا صحيح. لسنا أكثر من أربعة آلاف في مصر كلها... حبات أرز في مزرعة أرز.

وقد فكرت أيضاً...

- في ارتباط ولدينا. لقد فكرت في ذلك أنا أيضاً، وأستعجل القول بأن الفكرة تستهويني. غير أن لهذا الأمر عائقاً. فشهرزاد ليست طفلتي الوحيدة. إن لها أختاً. أختاً كبرى لم تتزوج بعد.

- بالطبع.

- ومن جهة أخرى، فهي تتم بالكاد سنواتها الثلاث عشرة. ونحن لن نقلد، على أي حال، الأميين الذين يدفعون بأطفالهم للزواج منذ مراهقتهم. أليس كذلك؟

- طبعاً يا يوسف. هذه الفكرة بعيدة عن ذهني. لكنني اعتقدت أنه من المهم أن أتحدث عنها لأنني أعرف مدى تقدير ميشيل لابنتك. وأجرؤ حتى على القول بأنه يجلها كثيراً.

- لقد انتبهت لذلك. يكفي أن تلاحظ الطريقة التي يحدب بها عليها، كي لا يبقى لديك شك حول مشاعره نحوها.

مد يوسف لصديقه ليَّ النرجيلة المغشى بالجلد الأرجواني وقد انضم نشيد صراصير الليل إلى صوت النرجيلة.

- إذا كنت تريد رأيي الجدي، فإنها مجرد وقحة.

- ككل أطفال هذا العمر. ميشيل نفسه عاش هذه اللحظات.

- أفق. إن شهرزاد ليست كمثل باقي الأطفال. ستستحق أكثر من مرة بيت الطاعة.

بدا محادثه مصدوماً.

- يوسف، يا صديقى، ألقِ بهذه الكلمات من فمك! إنها طفلة محبوبة. وستكون يوماً زوجة لا مثيل لها.

- ليسمع الله منك، يا صديقي. لنترك هذا للزمن. واعلم أنه بمجرد أن تتزوج سميرة، سيسعدني أن أقبل زواج شهرزاد من ولدك.

إن شاء الله، قال جورج بهدوء.

* * *

تدحرجت حبات النرد بتصويت قوي على طاولة اللعب قبل أن تستقر على ستة- مزدوجة.

- اللعنة! صاحت شهرزاد بغضب. ليلعن الله الشيطان. أكرهك!

- شهرزاد! صاح ميشيل شلهوب مصدوماً. كيف أمكنك السب بهذه الطريقة؟ أتعلمين بأن هذا خطير؟

- أربع ستات- مزدوجة في جولة واحدة! عليك أن تخجل من نفسك!

أزاح ميشيل كفيه علامة عجز.

- هذا ليس خطئي، إنها الصدفة. أنا...

- لا أحب الصدفة. وهذه اللعبة ليست قائمة إلا على الصدفة!

- استمعي، أعتقد أنك تبالغين بعض الشيء. هذه اللعبة تتطلب مع ذلك نوعاً من الاستراتيجية. إننا لا نفوز ثلاث مرات متواليات بالحظ وحده.

- آه! طبعاً! وهذا هو الدليل!

- على أي حال! لقد وضعت نصف بيادقي، لكنك...

- أربع ستات- مزدوجة! أترى؟ ما كان بإمكانك أن تربح بطريقة أخرى.

متعباً من الحرب، دون شك، ولكن بالأخص من قبيل الشهامة، اختار الفتى أن يتنحى.

- ربما كنت محقة. لقد حالفني كثير من الحظ.

- أوه! دون شفقة من فضلك! أنا أعلم جيداً أنك تقول هذا لتسعدني!

- أبداً. أنا جاد في كلامي.

ابتعد قليلاً وقال ثانية:

- هذا لا يعني أنني لست لاعباً أمهر منك.

تحولت عينا شهرزاد السوداوان إلى لون بنفسجي. وضعت كفيها على وركيها وأمالت رأسها قليلاً إلى الخلف.

- في هذه الحالة سأريك الفرق بين فوز تحقق بالصدفة وآخر بواسطة الذكاء.

أمام نظرة ميشيل المتسائلة، دلفت إلى داخل البيت وعادت حاملة رقعة ضامة وعلبة بيادق. وضعت الكل على الأرض وأشارت إلى العلبة:

- هنا لا مكان للحظ.

- ماذا تريدين أن نلعب؟

- الضامة.

ارتجف الفتى.

- ليرحمك الله! هذه هي لعبتي المفضلة. أبي بطل حقيقي، وهو الذي علمني.

- طيب. ممتاز. سنرى ما إذا كنت تلميذاً نجيباً.

دون أن تنتظر، أفرغت الفتاة القطع الأربعين على الأرض وشرعت تنظمها.

* * *

في الطابق الثاني، كانت زبيدة الجالسة على سرير سميرة تضرب الأرض برجلها بانفعال.

كانت الفتاة من السن نفسها تماماً، لكن لم تكن هذه نقطة التقائهما المشتركة الوحيدة؛ فكلتاهما تنبعث منهما الشهوة الحسية الضافية نفسها.

- لا أستطيع أن أصدق.

بدت صديقتها مسلاةً.

- عودي لنفسك. تبدين على وشك أن يغشى عليك.

- أواعية أنت بالأمر؟ أحد الإنكشارية! أنت وعلي الترجمان... هذا لا يصدق.

- لِمَ؟ هو يحبني... وأنا... يمكنك أن تقولي بأنني أحبه جداً.

- لنقل بأنك تقدرين فيه بالخصوص إمكانياته - عَلَتْها صبغة ماجنة - العسكرية.

- بمعنىً من المعاني، قالت سميرة، وهي تزين وجهها بالأصباغ لها، صورة رجل ببدلة كانت دائماً ترجفني. أليس الأمر كذلك بالنسبة إليك؟

- آه! بلى!

بدت متفكرة وهي تعبر بأصابعها طول شعرها المضفور في جدائل تتخللها خيوط حرير سوداء رفيعة.

- آه! فقط لو كان بالإمكان أن تحدث لي مثل هذه الحكايات! أحد الإنكشارية... أتدري بأن عليه أن يكون شديد الثراء؟

استقبلت سميرة الخبر دون همة.

- الحمّام الذي يديره أبي يرتاده الجنود بكثرة. لقد سمعته يقول مراراً بأن الإنكشارية، هم الأحسن دخلاً من بين هيئات الجيش التركي.

- وماذا بعد؟ ألا تعتقدين أن أسرتي غنية بما فيه الكفاية. لكني أفضل أكثر امتيازاتها الأخرى.

قهقهت زبيدة من جديد:

- ماذا دهاك... أقرّي أنه ليس سيئاً الزواجُ من رجل غني. وعلى أي حال فأنا لا أطلب أمراً آخر أحسن. بالمناسبة... أبوك... هل تفكرين في محادثته؟

- هذا لا يبهجني، لكنني مرغمة عليه...

بدت زبيدة مندهشة.

- أنا أنتظر مولوداً.

أعربت عن ذلك بصوت محايد، خال من المشاعر.

- ماذا؟ أنت متأكدة؟

- كل التأكد.

- لكن...

- لقد طلب مني الترجمان الاقتران به.

كانت المفاجأة فوق طاقة الفتاة، فانتفضت فاقدة السيطرة على نفسها كلية:

- هل عليّ ان أبكي أم أن أضحك؟

- معاً، ربما.

- طفل... هذا رائع...

هزت سميرة كتفيها.

- للأسف، أنا لا أشاطرك، حماسك.

مسدت على بطنها.

- مشوهة لتسعة أشهر... قربة مترعة... لو كان مرد الأمر إلي فقط لتخليت عنه بسهولة.

- ألا ترين بأنك تبالغين بعض الشيء؟

- على أي حال، ليست هذه هي المشكلة. إن ما أخشاه هو محادثة والدي. أنت تعلمين جيداً بأن النبأ لن يسعده.

- صحيح، يا إلهي، كم يكون مرعباً إذا علم يوسف شديد المقدام أن ابنته أكثر خبرة بفك أزرار بدلة من أي شيء آخر...

- أنا على أي حال على علم بأمر: أن علي الترجمان هو فرصتي الوحيد كي أغادر هذا البيت الذي أختنق فيه منذ ثلاث وعشرين سنة. بين أخي العزيز الذي لا يكف عن نصحي و...

ظل باقي جملتها معلقاً؛ إذ دوّت صرخة منبعثةٌ من الساحة.

- ما... هذا، تمتمت زبيدة واضعة كفها على قلبها.

- آه! لا شيء. هذه شهرزاد. قد تكون ربحت من جديد في لعبة الضامة.

* * *

الكف الصغيرة تستولي على بيدق أسود تضعه على آخر وتنقله بسرعة فائقة على طول الخط المائل للضامة، فـ«تأكل» البيادق الثلاثة الأخيرة لخصمها.

- هيه! قالت مبتهجة، وهكذا ينتصر الذكاء على الحظ!

وعكس ما كان منتظراً، أعرب ميشيل شلهوب عن ابتسامة فصيحة.

فاندهشت:

- لكن... ألم يجن جنونك؟

ولماذا يجن جنوني؟

- لقد انهزمت لتوك أربع مرات متواليات!

- أجل، وماذا بعد؟

- عندما ننهزم، يجن جنوننا، أليس كذلك؟

- الآخرون ربما، لكن ليس أنا... أنا أسعد عندما أرى سعادتك وأنت تفوزين.

تفحصت الفتاة، شاكّة، ملامح شريكها، فلم تكتشف فيها أي اعتكار. كان يبدو جاداً بالفعل.

- ألن تكون أحمق قليلاً؟

- أبداً. نحن لا نلعب دائماً كي نربح.

- ولماذا نلعب إذن؟

- فقط من أجل متعة اللعب.

أطبقت على جفنيها علامة حيرة. كان يبدو أن المنطق خانها.

- أتقوم بأشياء كثيرة من أجل المتعة؟

لم يجب. فقط نظر إليها بحنو.

الفصل الخامس

- لن يحصل هذا أبداً! أتسمعين! أبداً.

كانت سميرة، عابسة، تسمع صوت أبيها الذي يُصدي كما لو كان من خلال الضباب. أدارت رأسها نحو نادية فأدركت من ملامح أمها أنها عاجزة مثلها.

بذلت مجهوداً كبيراً كي تحد من اضطراب كفيها وقالت بصوت متقطع:

- أرجوك يا أبي... الله يشهد أنني أحبه... أنـ...

- تحبينه، يا شقية! ألا ترين بأن هذا عذر أقبح من ذنب؟!

ضرب الطاولة بقبضة يده وتابع غاضباً:

- أكرر ثانية؛ لا مجال لزواجك من علي الترجمان هذا!

- لأنه من الإنكشارية، أليس كذلك! ابنة آل شديد لا تتزوج أحد الإنكشارية. يمكن لأبي أن يصادق كل سراة المدينة، أتراكاً ومماليك، لكن ذلك محظور على عائلته!

ولأول مرة خاطرت نادية بالتدخل:

- يا ابنتي، المشكلة لا تكمن هنا؛ لا تكمن في أن يكون هذا الرجل من الإنكشارية أو لا يكون، فهذا لا يجعل الأمر مختلفاً. الأمر متعلق بشيء آخر.

- لماذا إذن؟ قولا لماذا؟

- لأنه ليس من دمنا! صاح يوسف. أنت مسيحية، إغريقية كاثوليكية. وهو مسلم.

- وأي أهمية لذلك!

- أليس لك إذن أي مبدأ؟ أتنسين أنك بقبولك الاقتران بهذا الرجل ستكونين مضطرة إلى لارتداد عن دينك لتسلمي؟

ثم أفرد نحوها سبابته مهدداً:

- خذي حذرك يا سميرة؛ فغضب الله رهيب تجاه من يخونونه!

مدت الفتاة كفها في الفراغ كما لو كانت تبحث عن مسند في مكان ما.

- أستحلفك الله يا أبي...

- كوني عاقلة. ما تزالين صغيرة، ومع كر السنين ستدركين بأن الزمن يُشفي من كل شيء... حتى من الحب.

- لكن، يا أبي، ألا تفهم؟ أنا لا أريد أن أشفى. أريد أن أحيا حياتي مع علي.

نظر يوسف إليها بغضب شديد وهو يفتل أحد طرفي شاربيه بالسبابة والإبهام.

- تعالي، أمر زوجته، انتهت المناقشة.

- لبت نادية مرغمة. وإذْ أدركا العتبة، قالت سميرة بنبرة حادة:

- ومع ذلك سأتزوجه!

ثم تابعت:

- لا شيء في الدنيا، أتسمعان، لا شيء سيحول بيني وبين مغادرة بيت الخونة هذا وأن أكون زوجة علي الترجمان!

التفت يوسف:

- هلا كررت ما قلته يا سميرة؟

- سأتزوج علي الترجمان. شئتم أم أبيتم.

- قلت بيت الخونة هذا...

ما عاد نظر يوسف شديد يرى ابنته سوى عبر ستارة من غمام.

- اسأل ابنك. هو سيعرف كيف يشرح لك أحسن مني.

- طيب. ما دام هذا خيارك، فلتكوني إذن زوجة علي. لكنك لن تضعي قدميك بعد الآن تحت هذا السقف. فهو ما عاد في مستواك. سأحرمك من الإرث، وستغادرين قصر الصباح منذ الغد.

أصدرت نادية صيحة رعب صغيرة:

- لا يا يوسف. إنها ابنتنا! هي طفلتك!
- كانت ابنتنا.
- ارحمها، حرام. هذه المرة أنا التي أتوسّلك. كن رحيماً. فهي ما تزال في حاجة إلينا.

ودون أن تنتبه كانت قد أطبقت أصابعها على ذراع زوجها فانغرست أظافرها في جلده.

ساعدي ابنتك يا امرأة على إعداد حقائبها.

* * *

لم تغادر سميرة لا في الغد ولا في الأيام الموالية. هل حبها لأمها هو ما منعها أم خشية الإقدام على خطوة ستقلب حياتها وتنفيها بعيداً عن ذويها. وعلى أي حال فإن نهاية يناير قد أدركتها، وهي ما تزال في قصر الصباح. في هذه اللحظة بالذات اتضحت الأفكار في ذهنها. أصبحت ثيابها تضيق أكثر فأكثر عليها، وأصبح ضيقها أكثر تواتراً. كان يكفيها، وهي وحيدة في الظلام، أن تمسد بطنها لتدرك استدارتها الأولى. صباح ٢ فبراير ودعت عائلتها دون مشاعر. لا توجد كلمات تستطيع أن تترجم مدى تمزق نادية شديد. رافقت ابنتها، لابسة السواد، إلى عربة الخيل التي تنتظر في مدخل القصر. دارى نبيل اضطرابه. وتابع يوسف، من جهته، انطلاق العربة عبر شباك المشربية. وعندما اختفت في نهاية الطريق، امتطى سفير وانطلق مسرعاً نحو الصحراء. أما شهرزاد، فقد بدت، عندما احتضنتها أختها، غير فاهمة. الشيء الوحيد الذي صدمها والذي قد يكون نغص عليها لياليها، هو هذه الجملة التي سمعتها: مسيحية لا تتزوج مسلماً. لم تستطع عدم التفكير في كريم بن سليمان. هل يمكن للاختلافات أن تكون مرادفة للشقاء؟

بعد مغادرة سميرة، سيطرت على قصر الصباح أجواء ثقيلة. فقد فاجأت الفتاة أمها وهي تبكي مرات عدّة. وانغلق يوسف على نفسه وحذَّرَ أن يشير أحد إلى ذكرى المغادرة. كانوا كثيراً ما يصادفونه جالساً في الخارج تحت الكرمة يدخن نرجيلته متفكراً وعيناه غارقتان في دوائر من دخان. تطرقت شهرزاد يوماً إلى الموضوع المحذور، محاولة منها لإذهاب كآبة والدها. فقد كانت الوحيدة، من بينهم جميعاً، التي جرؤت.

- لا تسألي القبور عن الأسرار التي تواريها. . . كان هو التعقيب الوحيد للرجل العجوز.

علموا في الأيام الموالية بأن سميرة قد اقترنت بعلي الترجمان. كانت، على ما يبدو، حفلة زواج كبيرة، أحييت وفق الشعائر الإسلامية، وأعقبت باحتفال لم ينقصه شيء.

حلت بعد ذلك أيام الربيع الأولى فعادت رائحة الياسمين، وأعلن الصيف عن نفسه أسخن من العادة. وعرف باعة مستخلصات الخروب وعرق السوس موسماً مباركاً. وأجزل الميسورون لأنفسهم من شراب البنفسج.

في الخامس من يوليو تقريباً ولدت سميرة طفلاً أسمته علي، على اسم زوجها.

وفي الغد سمعت شهرزاد، لأول مرة، عن مزرعة الزهور.

- انهضي يا حبيبتي سننصرف. . .

كانت أشعة الشمس قد تسللت لتوها عبر خشب النافذة المغلق. فتحت شهرزاد جفنيها ووقفت فوق الفراش.

- ماذا يحدث؟

- أمك تعد لك بعض الأشياء. سأصحبك معي.

- لكن إلى أين؟ لماذا؟

- سترين.

بعد ذلك بقليل، ودون أن تدري ما يحصل لها، وجدت نفسها داخل العربة العائلية. نشر يوسف الغطاء وأخذ مكانه بدوره. فرقع وقع السوط على مؤخرتي الفرسين وانطلق الركب في اتجاه الجنوب.

دام السفر ثلاثة أيام تعرفت الفتاة خلالها على مصر التي كانت تجهلها حتى تلك اللحظة. ذرعوا شواطئ النيل المتربة حيث تجثم منازل طينية وأشجار صفصاف وافرة الأوراق، وأخشاب نخيل مبعثرة في الأوحال. بين الفينة والأخرى كان ينبعث في طريقهم أطفال حفاة سود من الغبار، فيؤتون إشارات كبيرة ويسيرون في أعقاب العربة. وعلى جنبات القرى الصغيرة كانت تبدو نساء ملتحفات في أردية سوداء على طول الوادي، حاملات جراراً، فيذكرن

بمشيتهن بتأرجح أشجار السرو. وعندما حل الليل ناما في العراء. حدثها يوسف طبعاً عن مزرعة الزهور، التي سميت كذلك بسبب افتتان الجد شديد بتلك التي كان يسميها «ملكة الورود»، أي الزهور المتوحشة؛ الزهور الحمراء أو التي بلون الشاي. فحيثما انتقلت حول المنزل لم تكن تشتم، على ما يبدو، سوى أريجها الكثيف الذي يجتاح الفضاء بعطره الرائق، والمميز من بين كل العطور.

تجاوزا قرية «كفر»دهشور» عند الأهرام الخمسة المبنية من الحجر واللَّبِن، والتي تعد بمثابة بصمات لفراعنة ضاربين في الزمن، وعبرا الريف المخضر بشكل مدهش في ضواحي مدينة النزلة حتى أدركا جرف بركة الفيوم. وغير بعيد عن البركة انتصبت القريةة واقفة.

كانت الشمس قد مالت للمغيب عندما أوقف يوسف الحصانين. أخذ شهرزاد من وسطها ورفعها عالياً حتى تستطيع أن ترى أكبر جزء من المنظر الطبيعي.

- انظري يا بنيتي. . . هنا ترقد جذورنا. هذا المكان كان هو أولى ثروات والدي.

بما أنها خمنت، دون وضوح كامل، مقدار أهمية هذا المكان بالنسبة ليوسف، فإنها قد نظرت بملء عينيها. لكن سرعان ما حلت خيبة الأمل. هذه إذن هي مزرعة الزهور؟ منزل الخشب المنخور هذا، الذي قد يتداعى من هبّة ريح، وفدانان أو ثلاثة مهملة مطوقة بسياج مرقع وأشجار متعبة. صحيح أن الموقع كان جميلاً، إذ على اليسار كان بالإمكان مشاهدة الضوء الفضي للغسق ينطفئ على لجين ماء بركة الفيوم، لكن المتعة كانت تنتهي عند هذا الحد.

وعندما كان الأب يعيد الفتاة إلى مكانها، بذلت مجهوداً كي تقَنِّع خيبتها.

- أليس المكان رائعاً؟

أجابت بأن نعم وهي تنكس بصرها.

- ما بك؟ يبدو أنك غير مقتنعة.

- بلى، بلى، هذا جميلٌ جداً.

فرقع يوسف السوط. وهمس لها بثقة:

- سترين، إنه مكان ساحر.

شرعت العربة تتحرك، وانبعث أريج خفي خفيف، مماثل لألوان نهاية هذا اليوم. لم يتبادلا كلمة حتى أدركا مدخل المزرعة. كان حاجز منخور يحول دون المرور. قفز يوسف إلى الأرض. أزاح قضبان الحاجز التي أصدرت صريراً مرعباً. وفي هذه اللحظة انبعثت في الفضاء موسيقى خفيفة لناي، قادمة من حيث لا يدري أحد.

اندهشت شهرزاد:

- ما هذا؟

أصاخ يوسف السمع:

- لا شيء... إنه الريح.

- الريح؟ أبداً، استمع...

رفعت سبابتها في الهواء منتبهة.

- واصل النشيد، خفيفاً.

- هذا أحدهم يعزف على الناي.

نظرت من خلال الأشجار، لكنها لم تر شيئاً.

أراد يوسف أن يحرك الحصانين من جديد.

- انتظر! ألا تريد أن تعرف من...

هذا مستحيل يا ابنتي. الواقع أن هذه الموسيقى تعزف منذ سنوات عدّة دون أن يدرك أحد مصدرها.

- لكن هذا غير ممكن! الذي يعزفها يختفي في مكان ما.

- من غير شك، لكنني أكرر أن لا أحد يعرف أين. يمكنني أن أؤكد لك بأنهم قد بحثوا عنه، وأن هذا يحدث دائماً عند الغسق.

بينما كانت العربة تدرج نحو المزرعة، كانت شهرزاد معتملة تنظر في كل الاتجاهات، محاولة تحديد المكان الذي يمكن لعازف الناي الغامض أن يكون كامناً فيه.

- هذا أمر لا يصدق على أي حال... كررت مرات عدّة، مفتونة.

- ومع ذلك فقد قلت لكِ وأنت لا تصدقينني على ما يبدو. إن مزرعة الزهور ساحرة...

طفقت الألحان تنبعث في الهواء أطول من السابق، حتى بعد أن أنزلا أمتعتهما.

* * *

وعلى عكس أي توقع، كانت ليلتها الأولى بمزرعة الزهور ممتعة.

بمجرد أن استقر بهما المقام، عمل يوسف على تنظيف مقلاة صدئة، ثم انطلقا، راجلين هذه المرة، إلى ضيعة النزلة على ضفة بركة الفيوم. أدركاها في الوقت المناسب ليحضرا عودة الصيادين. استُقبلا بحرارة فائقة، زغاريد وسلام وترحيب. بعض قدامى الضيعة حاولوا حتى أن يقبلوا كف يوسف مما صدم شهرزاد وأشعرها، في الوقت نفسه، بالفخر. تحلقوا حولهما وتدافعوا كي يروهما بوضوح. سألوا يوسف عن غيابه الطويل وأطرت النسوة على جمال شهرزاد. سألوه عن مستقبل مزرعة الزهور وعما إذا كان سيعيد إليها الحياة، وعما إذا كانت الأسرة ستعود للعيش فيها كما كان الحال في زمن الجد شديد المهيب.

أجاب شديد عن كل هذه الأسئلة بطريقة مواربة. بعد ذلك وزع بعض القطع النقدية مما سبب، طبعاً، بعض التزاحم. تنازع صيادون شرفَ منحه أجود صيدهم. أجزلوا لهما من التمر والعنب والشمام، وحملوا لهما كل ذلك للمزرعة. حتى الأشد عوزاً ألحوا على أن يسلموهما ولو أرغفة. لم يكن هناك من شك، بالنسبة لشهرزاد، في أن كرم هؤلاء الفقراء كان يساوي أضعاف القطع النقدية القليلة التي وزعها أبوها. لقد فهمت، هذا اليوم، بأن هذا الشعب المصري الصغير كان يحمل مكان القلب قطعة خبز بيضاء.

كانت مفاجأة أجمل ربما تنتظرها. بعد عشائهما شرع أبوها يعد غرفة نوم.

- هل هناك فراش آخر؟ تساءلت شهرزاد.

- لِمَ؟ أجاب يوسف.

ففهمت أنهما سيනامان في الفراش نفسه.

* * *

كان نشيد الناي يصعد نحو السماء، بينما كانت الشمس تنسكب من جديد على البركة.

كان مرفقا شهرزاد، المتقرفصة خلف الدغل، قد تسلخا من فرط ما زحفت على الحصى. كانت عيناها موجهتين نحو الظل الذي يتحرك بين الأوراق الكثيفة. إن الصبر الذي أظهرته أثناء الأيام الثلاثة الأخيرة، سيحقق أخيراً مناله.

كانت الموسيقى تحلق دائماً، ونَفَس الألحان شبه واضحة.

اقتربت، منبطحة، من المكان الذي يوجد به الشبح.

- هش! هش! فلفلة!

- ما هذه الصيحة؟

أرادت، مرعوبة، أن تطلق ساقيها للريح، لكن الوقت لم يسعفها.

- هش! هش!

شعرت فجأة أن شيئاً ما يلتصق بكتفيها، فتجمد دمها في عروقها.

- هش! فلفلة!

أصدرت صرخة رعب وهي تحاول التخلص من هذا الشيء الذي شرع الآن يلتوي حول جيدها. قذف ذراعاها الهواء. من المؤكد أن قلبها سينفطر بين جوانحها.

قريباً من وجنتها، رأت بوضوح وجهاً أسمر ومُشْعَراً بفم واسع، الشفتان منفرجتان تسمحان برؤية سلسلة أسنان نابتة على لثة موردة. وأسفل جبهة، تكاد تكون منعدمة، ثمة حدقتان يتراوح لونهما بين الأخضر والأزرق، في مقلة معروقة ومحمرة من الدم.

صاحت من جديد وهي تحاول التخلص من الشيء:

- اتركيها، يا فلفلة!

دوى الأمر، فقفز الشيء فوراً إلى الأرض واختفى خلف الدغل. وفي الوقت نفسه انبثق شخص؛ شخص بوجه مزوّىً ببسمة ماكرة. شعرت بنوع من الطمأنينة إذْ لاحظت أن للغريب إهاباً إنسانياً. كانت قمة رأسه مختفية في عمامة، محاطة بدورها بشال. كان وجهه كأنه مقسم بشفرات دقيقة، وجلده مشقوق بما لا يعدُّ من الأخاديد. يمكن ان يكون من العمر في الثلاثين أو في الألف.

- أهلاً وسهلاً يا عروسة.

تكلم بصوت جهوري، مع نبرة ساخرة، مما أرعب الفتاة. في أي ظرف غير هذا، كان ردها سيكون قاسياً، لكن الرعب الذي عاشته لتوها تركها خرساء.

فتابع:

- فلفلة هي التي أخافتك إلى هذه الدرجة؟

حاولت أن تقول شيئاً لكن الكلمات ظلت حبيسة حنجرتها.

سأل ساخراً:

- ألم تسبق لك رؤية قردة؟

- قردة؟

قد يكون لاحظ دهشتها، لأنه صاح فوراً:

- فلفلة! تعالي!

بسرعة البرق، حضر الشيء الذي أرعبها إلى تلك الدرجة. قفزت شهرزاد إلى الخلف، بينما انفجر الرجل ضاحكاً.

- لا تخشي شيئاً. لم يسبق لها أن أكلت أحداً.

تفرست شهرزاد متوجسة الحيوان الصغير الذي كان يتحرك بشدة، واثباً في مكانه وهو يصدر صرخات صغيرة مبحوحة.

عادت لنفسها قليلاً، فنجحت في أن تقول بصوت خافت:

- هي التي هاجمتني؟

- إنها... لقد قلت لك إنها قردة. بالله عليك يا عروسة! إنها لم تهاجمك، أرادت فقط أن تتسلق كتفيك.

وبعد أن اطمأنت، استرجعت بعض كبريائها:

كان بإمكانها أن تقتلني! سأحكي كل شيء لأبي.

ضحك الرجل ملء فيه.

- ماذا تقولين يا عروسة! فلفلة أودع من حمل وأطوع من كلب وفيّ. انظري، سأعطيك الدليل فوراً.

وربطاً للقول بالعمل، استل من جيب جلابيته الناي الذي حمله لشفتيه وشرع يعزف ألحاناً. على الفور كف الحيوان عن الحركة وتجمد في مكانه. عزف ألحاناً أخرى فأنجزت فلفلة دحرجات ووقفت على قائمتيها وبدت وكأنها

تنتظر أوامر أخرى. نفخ الرجل في نايه من جديد، وانخرط الحيوان في سلسلة من الحركات البهلوانية، كل حركة فيها أمهر من سابقتها. مدهوشة، تفرجت شهرزاد بافتتان تزايد بانتقال أنثى القرد، المثارة بالألحان، من حركة إلى أخرى. كانت مؤخرة فلفلة المكتنزة والمحمرة تدور في جو الغروب متبوعة بذيلها المتقطب. صدر مقطع موسيقي أخير، لحن، واحد فقط، فعاد الحيوان إلى ثباته.

- لم أكذب عليك، أليس كذلك؟

حركت الفتاة، التي ما تزال تحت وقع الفتنة، رأسها بلطف.

أدخل كفه في جيب جلابيته وأخرج حفنة من حبات الفول السوداني.

- لكل عمل جزاء، قال وهو يفرغ بسخاء قبضته أمام أنف فلفلة.

اهتبلت شهرزاد الفرصة وتفحصت الشخصية بدقة أكبر. شيء ما في ملامحه صدمها: عينه اليمنى كانت بيضاء، مطفأة.

- أنت من يعزف الناي دائماً عند المغيب؟

صادق على قولها.

- قال أبي إنهم قد حاولوا من سنوات أن يعثروا عليك.

- ربما... كيف يمكنني أن أعلم ما دام أحد لم يعثر علي؟

- لكن لماذا تختفي؟

تقرفص على الأرض وشرع يحرك رأسه بمأساوية.

- عندما تصبحين متقدمة في السن، قد لا تنتظرين أنت أيضاً شيئاً من الناس.

لامس عينه اليسرى:

- نصف بصري غارق في الظلام. الناس قساة. وحده العلي القدير رحيم.

سألت مشدوهة:

- من فعل بك هذا؟

- مملوك، تركي، مصري، أية أهمية.

غير الموضوع:

- أنت ابنة يوسف شديد.

أجابت بالإيجاب.
- إنني أتذكر الزمن الذي كانت فيه مزرعة الزهور قطعة من الجنة.
- أجل، عندما كان يسكنها جدي.
- مجدي شديد. رجل حكيم وطيب. ليرحمه الله.
وقف بصعوبة وعدل العمامة فوق رأسه.
- هيا يا فلفلة، سننصرف. عليك السلام يا طفلة شديد الصغيرة.
فسارعت بالسؤال:
- هل يمكنني أن أعود لرؤيتك؟
- لم لا؟
- هنا في المكان نفسه الذي وجدتك فيه؟
افترت شفتاه عن بسمة متسامحة.
- لنقل... حيث عثر أحدنا على الآخر.
- ستعلمني كيف أُرْقِص فلفلة؟ أتدري أن بإمكاني أن أعطيك نقوداً. لوالدي منها الكثير.
لم يعلق، فقط قال:
- سأعلمك إرقاص فلفلة...
وعندما كان يهم بالاختفاء خلف الأشجار، سمعته يقول:
- يوماً، يا عروسة، عندما تتعبين أنت أيضاً من الناس، تذكري مزرعة الزهور. إنها قطعة من عدن.

* * *

عندما حكت لأبيها قصة عازف الناي، أنصت باهتمام، رغم ذلك فقد كانت على يقين أنه يعرف كل شيء. عندما أنهت قصتها صرح لها:
- إذا كانت رقصة القردة ومعزوفة الناي قد ساهمتا في جعلك تقدرين مزرعة جدك، فإنني سأكون أسعد الناس على الأرض.
- لكن، إذا كنت تحب هذا المكان إلى هذه الدرجة، فلماذا لا يهتم به أحد، لماذا أهملته؟
- كانت علة وجود هذه المزرعة هي الفلاحة. بعد ذلك انخرط جدك في تجارة القهوة، ففقدت المزرعةُ، بالتدريج، علة وجودها. أصبحت مجرد مكان

للراحة نقصده في الأعياد. بعد حوالى عشر سنوات من وفاة مجدي شديد، كنت قد بنيت قصر الصباح، فقدرت إذن أنه لا جدوى، ومن المكلف الاحتفاظ بإقامة ثانية. وهكذا التهم قصر الصباح مزرعة الزهور.

- لكنك استمررت في ارتيادها، أليس كذلك؟

- كلما أحسست بحزن شديد.

- لم تأت إذن باستمرار.

مسد يوسف بحنو شعر شهرزاد.

- ربما، لكنني ما عدت أتذكر. لم تعد في ذهني سوى الأيام السعيدة.

- أبي، لماذا طردت سميرة؟

كانت قد وضعت سؤالها دفعة واحدة دون تفكير.

وكما كان منتظراً، رد يوسف على الفور:

- أنا لم أطردها. هي التي غادرتنا. لقد اختارت بين حبي وحب رجل لا يستحق.

- أنا أيضاً، قد تطردني يوماً؟

- كيف أمكنك أن تقولي شيئاً مثل هذا؟

مد لها ذراعيه بتلقائية وأخذها في حضنه.

- أنت يا شهرزاد الوحيدة، من بين الجميع، التي لست قادرة على إحزان أبيك. أنا أعلم أنك عندما ستتزوجين، ستتزوجين من رجل مناسب. رجل من دمنا.

بينما كان أبوها مسترسلاً في كلامه، أغمضت جفنيها على صورة كريم.

الفصل السادس

- الحمد لله، ها أنتما تعودان! قالت نادية متعجبة.

من نبرة صوتها، أدرك يوسف أن أمراً خطيراً ما قد يكون طرأ أثناء غيابه.

قفز إلى الأرض وسار نحوها.

- ماذا وراءك؟

تظاهرت بعدم سماعها للسؤال وأخذت شهرزاد في أحضانها.

- هيه! قالت وهي تفصل ابنتها بحنو عن صدرها، أحببت المزرعة؟

- كثيراً. علينا أن نعود إليها جميعاً.

- اذهبي وسلمي على أخيك. لقد استبطأ عودتك. بعد ذلك سأهتم بك.

- أريد أن أتحدث قبل ذلك إلى كريم. هل يمكنني؟

توترت نادية.

- كريم... ليس هنا...

حيّرتها نبرة كلام أمها المترددة.

- أين هو؟ أليس...

بدا طيف كريم لتوه. أدار لهم ظهره وتوجه نحو عمق الحديقة.

صاحت بتلقائية:

- كريم!

أرادت أن تعدو في اتجاهه، لكن نادية منعتها.

- لا يا شهرزاد، ليس الآن.

ما الذي يعنيه هذا؟ لماذا؟

أرادت أن تدافع عن موقفها.

- لا! أكرر لك أن لا، ليس الوقت مناسباً. ستسلمين عليه لاحقاً. هو في حاجة الآن لأن يبقى بمفرده.

هذه المرة شعر يوسف فعلاً بالقلق:

- لكن، ما الذي يحدث يا امرأة؟

ضغطت نادية شهرزاد في حضنها وقالت بصوت أجش:

- سليمان... لقد توفي سليمان.

ارتعشت الفتاة مذعورة.

- أبو كريم!

بدا يوسف بدوره متأثراً:

- متى حدث هذا؟

- في مساء يوم مغادرتكما. فحسب كريم، قد يكون اشتكى ليلاً من آلام في الصدر. حتى قبل أن يخطرني الفتى، كان المسكين قد انهار. وعندما أتيت كان الأمر قد قُضي. كان فارق الحياة.

- كريم... قالت شهرزاد بخفوت...

انفجرت باكية ووجها مدفون في كسوة أمها، وكل جسدها يرتعش.

- اهدئي يا بنيتي. هذا مراد الله. إن ما خلعه من حياة سليمان سيودعه مضاعفاً في ولده. اهدئي.

سأذهب لمحادثته، قرر يوسف مصمماً.

- لا يريد أن يرى أحداً. حتى إني دعوته إلى بيتنا. لا يريد أن يسمع شيئاً.

- أنا، قالت شهرزاد بين شهقتين، أنا سأحادثه.

أمر يوسف بقوة:

- أنت ستدخلين إلى البيت مع أمك. سترين كريم لاحقاً.

من تشوش ذهنها لم تستطع المقاومة، وانقادت طائعة إلى البيت.

* * *

كان الليل يلف قاعة الأكل. وكانت دوائر مصابيح الزيت تنير بشعاع مبيض وجهي نادية وزوجها. تنحنح نبيل وصب لنفسه كوباً من الخشاف قبل أن يمد القنينة لأبيه.

ردها يوسف.

- أين يمكن أن يكون قد مضى؟ أنا لا أفهم. من المفروض أن ليس معه مال، على الأقل ليس معه ما يكفي للذهاب بعيداً.

عقبت نادية:

- قد يكون عاد إلى البيت، ولم نسمعه.

ثم سألت نبيل:

هل تأكدت من أنه ليس في الإسطبل؟

- جئت منه للتو.

مد يوسف كوبه.

- آخذ، أخيراً، قليلاً منه.

سأل نبيل وهو يصب له:

- أتعتقد أنه غير قادر على أن يعود للإقامة هنا؟

- لا أرى لذلك سبباً. وعلى أي حال فقد عاملنا كريم دائماً على أنه أحد أفراد العائلة. لا... أعتقد أن الحزن قد أفقده صوابه. سيعود. بالتأكيد سيعود.

كرع في جرعة واحدة مشروبه وتابع موجهاً حديثه لنادية:

- هل نامت شهرزاد؟

- تغلب تعب الرحلة على دموعها. لكن... يا إلهي كم هي حزينة!

- هذا طبيعي. فقد ترعرعت مع ابن سليمان، وهي تشعر بنفسها قريبة منه بقدر قربها مني، أنا أخوها.

شهرزاد ليست إلا طفلة. وهذه هي المرة الأولى التي تتواجه فيها مع الموت. أعتقد أن هذا بالخصوص هو ما جعلها في تلك الحالة. في غضون أيام سيجعلها الزمن تنسى، إن شاء الله.

* * *

أزاحت شهرزاد رتاج باب الغرفة بحيطة حتى لا تحدث صوتاً، ونزلت، على أطراف أصابعها، درجات السلم واحدة واحدة نحو الأسفل.

توقفت وأصاخت السمع. كانت أصوات العائلة ما تزال تنبعث من غرفة الطعام. فدلفت إلى الممر الذي يقود نحو المخرج.

تسلل برد المساء تحت منامتها فأرجفها. غشي البدر يجعل المكان بنور عاجي، مكّنها من أن ترى إلى مسافة بعيدة أمامها. ودون تردد توجهت نحو الإسطبل. وعندما وصلت، وقفت منتظرة.

سمعت خطو قبقاب، ثم ران الصمت من جديد.

بعد ذلك، توجهت نحو مربط سفير الذي أرجف خطمه بانفعال فور رؤيتها. أزاحت بهدوء الحاجز الخشبي الصغير. لم يبد الفرس اعتراضاً. فقط ضرب الأرض بقائمته مرة أو مرتين. أزاحت شهرزاد الفرس بهدوء وتقدمت خطوة. كان كريم مقرفصاً في زاوية، صدره على ركبتيه المثنيتين.

استسلمت لرغبتها فانطلقت نحو الفتى واحتضنته بقوة.

- لقد عثرتِ عليَّ يا أميرة... كيف فعلت؟

- لم يكن بإمكانك أن تكون إلا هنا، أو على شاطئ النهر.

أرغم نفسه على ابتسامة.

- والآن؟

- أردت فقط أن أراك.

سأل بصوت كأنه قادم من بعيد:

- أحببتِ مزرعة الزهور؟

أومأت بالإيجاب.

لامس منامتها الرقيقة.

- ستصابين بنزلة برد.

- لا، لا أشعر بشيء.

كان صوت صراصير الليل ينبعث من الخارج، وأصدر سفير حمحمة معتملاً قليلاً.

- هيا، قال كريم، نحن نزعجه. فهذه ساعة النوم بالنسبة إليه.

غادرا الإسطبل واستقرا على قدم جذع نخلة، حيث لا يُرون من المنزل.

- أنا متأسفة، قالت شهرزاد بعد لحظة.

ثم تابعت بصوت غير مسموع تقريباً:

- من أجل سليمان.

- من سيهتم الآن بكل هذه الأمور؟

- أنت طبعاً، وليس أي أحد آخر.

انفرجت شفتاه بابتسامة حزينة.

- هل نسيت ما قلته لي منذ أشهر قليلة؟ إن سليمان أباك هو من جعل من هذه الحديقة ما هي عليه. أنت لست قادراً حتى على التمييز بين الياسمين والنخيل. أتذكرين؟

- كنت امزح يا كريم، قلت ذلك فقط كي أعاكسك، لكن...

- لا. لقد صدقت. أنا لا أعرف شيئاً في الورود. والورود لا تحبني.

أرادت أن تحتج، غير أنه تابع:

- هذا القصر في حاجة إلى شخص كفؤ. وإذا ما تكلفت بها، فإن قصر الصباح سيصبح أرضاً جرداء. سأنصرف.

- تنصرف؟ لكن إلى أين؟

- للبحث عن اليوناني.

- باباس أوغلو؟

- نعم، فقد قال لي دائماً بأنني إن أردت يوماً أن أشتغل معه، فما علي إلا أن أطرق بابه.

- أما يزال قائداً لأسطول مراد بك؟

- منذ أسبوع كان ما يزال كذلك.

- لا يمكنك يا كريم أن تقوم بشيء مثل هذا، هذه عائلتك. قال أبي إنه مستعد لأن يؤويك في بيتنا. لن تحتاج إلى شيء.

- لا يا أميرة، عليَّ أن أذهب للنهر. هل عليَّ أن أذكّرك أيضاً بكلماتك؟ ألست أنت من قال: لا شيء في الدنيا يستطيع أن يحول بينك وبين سعادة كبرى؟

عضت شفتها غاضبة من نفسها. وغاضبة أيضاً من أن تكون له ذاكرة بهذه القوة.

- لا يمكنك الرحيل. أرجوك. ابق من أجلي.

- سعادتي التي تريدين يا شهرزاد أم سعادتك؟

- لا أدري، لكنني لا أرى فارقاً.

تركت يده وقالت غاضبة:
- إذا انصرفت سأموت.
- وإذا بقيتُ... سأموت أيضاً. ألا تستطيعين فهم هذا؟
قالت وكأنها تلتجئ لسنَد أخير:
- ما كان أبوك ليحبذ هذا.
التفت نحوها مهتاجاً:
- لا أسمح لك! بأي حق ت...
- سامحني... لم أقصد.
وأمسكت وجهها بين كفيها.
- لكن ما الذي تريدينه مني؟ صاح بحنق. أنت لك حياتك، ولك أسرتك. أنت غنية وأنا فقير. أنا لست سوى فلاح، وقد قلت ذلك مراراً، وأنت ابنة وجيه. ألا ترين أن كل شيء يفرق بيننا؟ لن أستطيع أبداً أن أوفر لك الحياة التي تستحقين، والتي يتمناها لك أبواك. افتحي عينيك إذن، وكفي عن أن تتصرفي كطفلة يا شهرزاد. اتركيني أنصرف.
وقفت وقالت متحدية:
- يا ابن سليمان، إذا انصرفت سأتزوج من ميشيل شلهوب.
كسا وجهه احتقار:
- تتزوجين من تشائين يا أميرة. هذه ليست مشكلتي.
أمالت رأسها إلى الخلف وظلت صامتة للحظة.
- طيب، قالت أخيراً، لكن قدِّم لي على الأقل خدمة.
- أي خدمة؟
- عيد ميلادي سيكون بعد أسبوع. يوم ٢٧. على الأقل انتظر حتى يحين.
بدا متفكراً.
- موافق. لكنني سأغادر صباح اليوم الموالي.
صدقت على قوله، وقالت بصوت جاف:
- آمل ألا يكون هذا وعد فلاح.

* * *

رفع نبيل عالياً كأس الجعة وقال بفخر:

- على نخب دم النيل!

قلّده زملاؤه:

- على نخب دم النيل!

كان نبيل قد دعا إلى حفل عيد ميلاد شهرزاد كلاً من صلاح وعثمان وشريف وبطرس.

قال الفتى:

- أترون، من أشهر قليلة كنتم تجدون صعوبة في إخفاء تشكّككم. لم نكن آنذاك إلا خمسة. وها نحن اليوم حوالى عشرين. وأعيد طرح السؤال: أما تزالون تشكون في أن حركتنا تستطيع أن تصبح يوماً قوة حقيقية؟

- لم نشكّ في ذلك البتة!

وقال شريف متعجباً:

- لطالما آمنت بذلك!

- خصوصاً عندما حدثتنا عن الثورة الأخرى! لاحظ عثمان.

انفجر أحدهم ضاحكاً وهو يشير إلى صلاح بإصبعه.

- وهو الذي كان يريد أن يسمي حركتنا «فرنسا»!

- نعم، استهزئ. لكن ذلك لن يمنع من أنني أنا، على أي حال، من وجد الاسم أخيراً.

ثم قال نبيل بحماس:

- بمناسبة ذكر الفرنسيين، أتدرون ما أقدم عليه بعض التجار بشجاعة؟ لقد غرسوا شجرة سمّوها شجرة الحرية. لقد لمحتموها بالتأكيد. أليس كذلك؟

- نعم! لقد رأيتها في مدخل سوق باب الشاعرية.

- هل قرأت المكتوب المعلق عليها؟

اضطر بطرس، هذه المرة، إلى الإجابة بالسلب.

- «الموت للطغاة، لكل الطغاة!»

عبرت تمتمة إعجاب كل المجموعة.

- عظيم! صاح عثمان، هذه هي الشجاعة! هؤلاء الناس يقدمون لنا درساً في العزة.

قال صلاح:
- فقط لو كانت لنا الجرأة نفسها.
- باثني عشر فرداً ضد المدفعية العثمانية والمملوكية؟ قال بطرس ساخراً.
ورد صلاح بفخر طفولي:
- يجب أن تقف أم العواجز السيدة زينب إلى جانبنا!
- أفضل أن أموت عارياً، لكن بكرامة، على أن أعيش مكتسياً، لكن ذليلاً.
- لنكن جادين، قال نبيل.
ثم خفض صوته قليلاً، وتابع بنبرة بوح:
- الطريق طويل. لم نقم بشيء بعد. وإذاً فمن اللازم أن نستمر في الاستقطاب دون كلل، فإن على هذه الخطوة ألا تكون غاية في ذاتها. وأعتقد أن الساعة قد أزفت لنضع تصوراً لأول شكل من أشكال الفعل.
- من الآن؟
اعترض شريف:
- ليس واضحاً بالنسبة إلي ما الذي يمكننا القيام به في الحالة الراهنة. نحن ربما أكثر عدداً، وماذا بعد؟
وأمام محيا صديقه الهادئ، أضاف:
- أفترض أن لديك فكرة.
- أنصتوا لي جيداً. ابتداءً من هذا المساء، كل واحد منا سيكون مكلفاً بمهمة. مهمة محددة جداً، ستساعدنا إن نفذت على خير وجه في أنشطتنا المستقبلية. طبعاً! أطمئنكم! لا يتعلق الأمر بمهاجمة القلعة أو محاصرة قصر البكوات أو اغتيال الباشا. لا، يتعلق الأمر بخطوة أكثر حذقاً ألخصها في الآتي: أن نرى وأن نسمع وأن نختزن في الذاكرة.
تبادل الجمع الصغير نظرات مشككة.
وضّح نبيل:
- ضمن أسرنا، في الجامعة، في الشارع، كل مرة تحين فيها فرصة الحصول على معلومة سياسية أو عسكرية، علينا أن نغتنمها. سنصبح عيون مصر وآذانها.

- نوع من التجسس؟

- ولِمَ لا؟ نعم. تجسس. علينا ألا نهمل أي شيء. كلمة، جملة. قد تكون معلومة، بلا قيمة، أساسية في الموالي من الأحداث. ومن يعلم؟ من أجل استمرارية مجموعتنا.

- كلام مفيد، قال صلاح. أنا أوافق على الفكرة.

- وأنا أيضاً، قال بطرس، متحمساً، متبوعاً، على الفور، بالآخرَيْن.

كان نبيل على وشك أن يتابع كلامه، لكنه أحجم وهو يرى أباه يظهر.

- أنتم، عملياً، ميؤوس منكم! لم تغادروا هذه الغرفة منذ بداية الحفل. أنا أعلم أنها الأجمل في البيت، لكن مع ذلك...

تابع مخاطباً ولده:

- عليك ألا تنسى أن هذا حفل أختك. لا ننتظرك إلا أنت كي نطفئ الشموع. ستتابعون أحاديثكم المشبوهة لاحقاً.

* * *

كانت شهرزاد، بفستانها الحريري الأبيض وبشعرها الأسود الطويل المشدود بمقبضين قرمزيين، وبخفيها الصغيرين المزينين من الحواشي بخيط فضي، محط أنظار الجميع، وبالخصوص ميشيل شلهوب.

وقفت ببطء من على مقعدها ومالت على الحلوى الضخمة التي كتب عليها اسمها منارأ بأربع عشرة شمعة.

جال بصرها بين الوجوه حتى توقف على وجه كريم. كان الفتى متنحياً جانباً، ويبدو كأنه مزحوماً بين نادية وفرانسواز ومغيان والمهيبة الست نفيسة. رفع يده خفية وأرسل إليها إشارة تشجيع.

نكست بصرها وهي تحاول التركيز على الشموع.

- هيا يا أميرة! أطفئيها من نفخة واحدة.

لم تكن في حاجة إلى رفع بصرها كي تعلم بأنه هو من تكلم. مختلجة بخليط من المشاعر، نفخت بكل قوتها. خفتت الشعلات الاثنتا عشرة وانطفأت في الوقت نفسه تقريباً.

الفصل السابع

٢٦ يوليو ١٧٩٧

ست سنوات... تمتمت بارتياب. ست سنوات...

حفلا عيد ميلاد سيظلان مطبوعين في ذاكرتها. حفل الأربع عشرة سنة وحفل الأمس؛ حفل العشرين.

عارية، مررت للمرة الأخيرة المشط في خصلاتها السوداء وعملت على جمعها في جديلة. عندما انتهت، عبرت الغرفة المنارة بثريا فضية وذهبت للوقوف أمام المرآة المعلقة على الجدار. وضعت يديها على ردفيها وتأملت خطوط جسدها الصافي. كانت ساقاها جميلتين ممشوقتين عاليتين تظهر عضلاتهما بالكاد. وكان ثدياها قد نضجا في تناغم رائع، مستديرين، صلبين، صاعدين قليلاً. استدارت ببطء، ونظرت إلى نفسها في المرآة من البروفيل. وسرعان ما بدا على محياها عدم رضاً: هذا الانحناء الذي قد تحسدها عليه أخريات، رأت هي أنه مفرط. حركت كتفيها ونقلت اهتمامها لنهديها. وبحركة طبيعية سجنت أحدهما في راحتها وداعبت حواشيه ملامسة بالكاد حلمتها، شاعرة بلذة ممتعة.

انتقل كفها أسفل نطاقها، منزلقة بالرقة نفسها إلى أن أدركت أسفل بطنها. أبدت تردداً شديد الشبه بالرغبات المقموعة، قبل أن تنزل أسفل وأن تستقر في هذا الدفء الذي كان يدوخها أحيانا ويبلبلها. بمداعبة مشكوك في براءتها، ضغطت كفها على الزغب موقظة دبدبة لذةٍ عبرت جسدها كله. كان دفء هذا الجزء السري منها ينتشر عبر كل كيانها.

كانت تحب جسد المرأة فيها. وخلال هذه السنوات الست الأخيرة، تابعت

تحولاته من خلال نظرات الرجال التي مكنتها يوماً بعد يوم من تأكيد جمالها.

- شهرزاد! ستتأخر!

أخرجها صوت أبيها المرعد من أحلام يقظتها النرجسية، وأسرعت بارتداء ملابسها التي كانت عائشة قد صفتها على طرف السرير.

* * *

عندما بدت في القاعة، لم يستطع ميشيل شلهوب أن يخفي إعجابه.

طافت شهرزاد حوله بلطف، محاذرة من أن تفسد وضع الخمار الذي يحيط بشعرها.

- سامحني إن جعلتك تنتظر، قالت ذلك بابتسامة فاتنة. هل أروقك؟

أجاب ميشيل على الفور:

- لقد عثر الشمس والقمر على غريمهما.

والحق أنها كانت تتألق في عباءتها الحريرية ذات الخطوط المذهبة. وكان الطيلسان القشيب يؤطر محياها مبيناً بوضوح عينيها المكحلتين وبشرتها ذات اللون البرونزي الطبيعي. فمنذ سنتين ما عادت تلبس إلا اللباس العربي، مفضلة بكثير الملابس المصرية على ثقل الملابس الغربية لمدام مغيان.

قال يوسف الجالس إلى جانب زوجته ونبيل:

- احذر يا ميشيل، إن ثناءً مثل هذا قد يكون يوماً سبب خسارتك. يجب ألا نبالغ في الإطراء على الجنس اللطيف.

فكرر نبيل بسخرية:

- لقد عثر الشمس والقمر على غريمهما... وأنا من سيسألني عن قبح الليل والنهار؟

مطت شهرزاد شفتيها بتعال وهي تقول لأخيها:

- أنت على أي حال لا تفهم شيئاً في النساء.

- إذا كنت تقصدين بأنني لا أعرف كيف أدغدغ غرورهن، فأنت على حق. فأنا أجهل كل شيء عن النساء. والدليل أنني اليوم، وبعد ثلاثين سنة مضت، لم أعثر ولو على واحدة تقبلني.

سارعت نادية إلى طمأنة ولدها:

- سيحقق الله بغيتك يا ولدي. لكن أختك محقَّة. عليك ربما عليك أن تُظهر بعض اللطف تجاه الفتيات.

- أنا، يا أمي، كما أنا.

فاحتجت شهرزاد:

- الأمر سهل! لا يكلفك شيئاً أن تتلفظ بكلمة لطيفة. عليك أن تعلم أن أكثر الرجال تفاهة - ثم خصّته بالكلام - أنت مثلاً، بمجرد أن يعرب عن إطراءه لفتاة، يتحول في التو إلى كائن جذاب. لكن كيف تتصرف أنت؟ على النقيض من ذلك تماماً. تزجر أصدقاءك القلائل وتضايقهم.

رفع نبيل كفه دليل مهادنة.

- كفى! رأفة بأخيك المسكين. لا تجعليني أندم على أنني من أقاربك، وإلا...

استسلمت شهرزاد على الفور أمام التهديد. ورغم أنه كان بإمكانها هذا المساء - ما دام يوسف موجوداً - أن تتخلى عن رفقة أخيها، فإنها تعلم أنه ما كان بإمكانها أن تذهب إلى حفلاتها التي تعشقها، دون أن يقبل نبيل القيام بدور الوصيف.

أنا موافقة تماماً، قالت على الفور. غير أن الوقت حان كي نذهب، أتأتي يا أبي؟

انتصب يوسف مرغماً.

- ألم تغيري رأيك؟ قال لزوجته. ألا تريدين الالتحاق بنا؟ أتدرين، سيأسف مراد بك على غيابك.

- لا، جدياً. وأعترف لك بصراحة بأن السيدة نفيسة، رغم لطفها، تتعبني قليلاً.

- ستحضر مدام مغيان أيضاً، ذكَّرت شهرزاد.

- فرنسواز الغالية... منذ أن سمي زوجها قنصلاً عاماً للجمهورية الفرنسية، أضحى أنفها في السماء.

والحقيقة أن شهرزاد كانت تعلم أن خلف هذه الرغبة في العزلة أمراً آخر. نادية لا تنسى. فذكرى ابنتها البكر ستبقى دائماً حية في ذاكرتها. ورغم أنها آلت على نفسها أن لا تتطرق إلى الموضوع أمام زوجها، فإن اسم سميرة كان

يتردد بمجرد أن تجد نادية نفسها بمفردها مع شهرزاد.

- طيب، قال يوسف متنهداً وهو يعدل من وضع طربوشه، فهمت، ليست لك رغبة في الخروج، انتهينا.

رسم قبلة على جبين زوجته وأعطى إشارة الانطلاق.

* * *

لم يكن قصر مراد بك يبعد عن قصر الصباح إلا بضعة فراسخ، في حي القصون.

- هذا قصر حقيقي... لاحظ ميشيل شلهوب وهو يرى البناية.

- بل قلعة بالأحرى، صوَّب نبيل.

لم يكن الشاب مفرطاً في المبالغة.

- أبواب القصر مسلحة بزخارف حديدية صلبة. محاطة بجدران سميكة بها مساكن عساكر المماليك التابعين للبك، مع تحصينات أقامها ليكون في مأمن من هجوم مفاجئ أو من حركة مناهضة. الإقامة المركزية مبنية من اللبِن والحجارة، بطابقين ومغطاة بسقيفة شاسعة. وكانت الساحة شديدة الاتساع حتى ليتمكن حوالى خمسين فارساً بخيلهم وبجملين أو ثلاثة، أن يتحركوا ضمنها دون صعوبة.

كان نبيل يلاحظ أدق التفاصيل في الديكور باهتمام خاص تماماً.

وعندما فرض، من ست سنوات خلت، على دم النيل مهمتها الأولى، أجهد نفسه ليشرف دوره كرئيس. لقد أصبح التجسس طبيعته الثانية. وحتى الآن، يمكن القول بأن المعلومات المجمعة لم تكن لها أية أهمية خاصة. وبالمقابل، فإن الذين كانوا يشكلون العقل المدبر - والذين يشكل نبيل ضمنهم حجر الزاوية - ، كانوا، أثناء محادثاتهم وقراءاتهم، يفسرون الرهانات الحالية والتعقيد الخارق للعادة لعالم السياسة الذي يحيط بهم، بصورة أفضل.

رحّب خادم بهم، ورجاهم أن يتبعوه إلى القاعة التي كان يتم فيها الاستقبال. عبر الأربعة حديقة مزروعة بكل أنواع الأشجار المثمرة، ومشوا في ممر مؤثث بأرائك من خشب الأرز حيث أوضح الخادم أن مراد بك وأصدقاءه يستريحون هناك عندما يدخنون. أما الآن، فقد كان المكان مشغولاً بعصبة من المماليك المدججين بالسلاح.

- قصر مدهش، لكنه يصيب الظهر بالبرد.

- ثكنة تحت أشجار موز، تمتمت شهرزاد بجفاء. لا أحب ذلك.

كانت انتقادات الأب والابنة حادة جدا لكنهما لم يجهلا بأن الأقوياء يحتفظون بكل الفخامة في الداخل.

قاعة أولى تعقبها أخرى مكسوة بالمرمر الملون. والجدران مغطاة بمناظر طبيعية مرسومة. وكذلك كانت السقوف مجهزة بعوارض مزينة بالرسوم.

وأخيراً أدرك المدعوون الأربعة قاعة الاستقبال، المملوءة عن آخرها بالمدعوين، حيث لا يبدو، هنا أيضاً، إلا الثراء والإفراط في الزينة. على طول الحائط أفاريز، ويمكن أن نقرأ في أحدها، وهو منقوش بحروف من ذهب: (شُيد هذا القصر المبارك، بفضل العلي القدير من أجل مراد بك سنة ١١٣٠ هجرية).

مشدوهة، استغرقت شهرزاد بعض الوقت لتنتبه إلى أن رب البيت كان يسلم عليها.

- عفواً، يا سيد مراد، لكنني كنت تحت تأثير سحر كل هذه الروائع.

تبنى المملوك عبارة متواضعة:

- إن الأشياء الجميلة في هذا البيت لتبدو باهتة أمامك، يا ابنة شديد العزيزة. وعلى أي حال، اعلمي أن كل شيء هنا هو ملكك. يكفي أن تصدري أمرك.

استقبلت شهرزاد بغموض تباهي البك، وهي تفكر في أعماقها في أن مضيفها سينزعج إذا ما قررت أن تأخذ بكلامه حرفياً.

سلّم مراد بك بعد ذلك على يوسف الذي عانقه وميشيل شلهوب، وفي الأخير نبيل.

- يا ابن شديد! آخر مرة رأيتك فيها لم تكن أطول من نبتة صغيرة. وها أنتذا سنديانة حقيقية.

شكره نبيل بمسحة سخرية مضمرة:

- رغم مجهوداتي الكبيرة، لم أستطع، للأسف، أن أكبر بالسرعة نفسها التي كبرت بها، فخامتك.

أطلق المملوك قهقهة:

- عظيم. . . إنني أرى أن الابن لا يقل عن الأب شيئاً في بلاغته.
التفت إلى يوسف:
- لك يا صديقي أن تكون فخوراً. لقد أنجبت أبناء رائعين. ليحفظهم الله وليطل أعمارهم بألف سنة. تذوقوا متع هذه الأمسية، البيت هو بيتكم.
ثم لشهرزاد:
- اسمحي لي، يا ابنة شديد أن أقول لك من جديد إن هذا المكان لم يشهد في حياته جمالاً مثل جمالك.
وأضاف، لكن بصوت خافت:
- لكن للأسف، الدمامة موجودة أيضاً بين ضيوفي، وواجبي كمضيف يحتم عليَّ أن أهتم بها أيضاً. سامحيني إذن. . .
قالت وهي تنظر إلى المملوك يبتعد:
- حقاً، يا له من شخص! شكله ثقيل الظل ومتبجح.
- نسر. . .، قال نبيل هامساً، ليس سوى نسر.
صاح يوسف:
- هل عليَّ أن أذكركما بأنه ليس لا مكان ولا زمان مثل . . .
- عفوك يا أبي. . . نسينا.
حوَّل ميشيل شلهوب، بدبلوماسيته المعروفة، مجرى الحديث:
- انظروا. إبراهيم بك والألفي بك اللذين لا يفترقان، وهذا هو اللورد بالدوين قنصل إنجلترا، وسعيد أبو بكر حاكمنا، والجمركي الكبير يوسف قصاب. . .
عقب نبيل:
- محافظ ومراقب وبالخصوص مستشار جيد للتجار الفرنسيين. صحيح، يا له من عالم جميل!. . .
قال يوسف:
- على أي حال، أريد أن أتحدث مع الجمركي. منذ أكثر من أسبوع لدي ثلاث حمولات من الأثواب محتجزة ببولاق. هل ترافقينني يا شهرزاد؟
وبمجرد ابتعاد يوسف وابنته، همس نبيل:
- قل لي يا ميشيل، ألا يصدمك أن تكون هنا بين هذه الجيف؟

- لم تراودني قط، يا صديقي، فكرة أن أغير العالم. العالم هو العالم.

- لاحظ إذن. فرنسيون، إنجليز، نمساويون، فينيسيون.... لا أحد من بينهم لم يتمن أو لا يتمنى الاستيلاء على قطعة من مصر أو على مصر برمّتها. حتى روسيا...

- أكرر لك، إنها السياسة. وهي مادة أجهلها ولا أهتم بها البتة.

تابع نبيل منتقداً:

- منذ عشر سنوات بالكاد، انتدبت كاترين الثانية لمصر شخصاً يدعى البارون دي طونوس ليقوم بمهمة تقديم المشورة للبيهين بالاستقلال عن الباب العالي والخضوع لحماية العاهلة الروسية. قدم المبعوث طبعاً وعوداً لمراد وإبراهيم. وإذا كان الأول قد عارض استقباله، فإن الثاني - أمام وعد ترؤسه للحكومة المحتملة - لم يستبعد الدخول في هذا المشروع... مصر روسية... أي تهريج...

- وكيف كانت نهاية هذا البارون المسكين؟ سأل ميشيل دون اهتمام، إذْ كان انشغاله الأوحد هو أن لا تغيب شهرزاد عن بصره.

- مسجوناً ومشنوقاً في زنزانة بالقلعة.

- نهاية محزنة...

كان نبيل على وشك الانخراط في خطاب آخر عندما لمح كارلوس روزيتي يصل متأخراً. وعلى الفور شغله سلوك القنصل. كان يتحرك بانفعال وملامحه متوترة باحثاً، بالتأكيد، عن إثارة انتباه شخص ما. انتصب نبيل على أطراف أصابعه لمحاولة اكتشاف الشخص الذي كانت تُرسل إليه تلك الإشارات. لم يتأخر في اكتشاف أن الأمر يتعلق بشارل مغيان. انتهى قنصل فرنسا، أخيراً، إلى الانتباه لنداءات الفينيسي الخرساء، ورأى نبيل الرجلين يتجهان نحو الباب.

- أعتقد أن شهرزاد في حاجة إليك، قال بحماس لميشيل.

بدا الشاب متفاجئاً.

- لا، لا...

أخذ عاشقَ أخته من ذراعه وشجعه:

- التحق بها، سأتبعك.

* * *

- لكن هذا خطير للغاية، قال روزيتي مذعوراً. أنت على علم بما يعنيه ذلك، أليس كذلك؟

أجاب مغيان بالإيجاب دون مبالاة.

- البهوات لن ينالوا إلا ما يستحقونه. إن إطالة هذه الوضعية الفاضحة سيكون أمراً مشيناً بالنسبة لجمهورية تقدم قوانين لأوروبا عنوانها هو دحر الطغاة.

- مع ذلك يا شارل... هل يستحق هذا حرباً؟

بدا القنصل مصدوماً.

- لكن ألا تعي ما نقاسيه منذ عشر سنوات؟ هل عليَّ أن أعدّ لك لائحة الإهانات التي كالها لنا هذان المستبدان؛ مراد وإبراهيم؟

- أعلم كل ذلك...

- لقد حدد نظام الامتيازات الأجنبية أن تكون الجمارك ثلاثة بالمائة. الشهر الفائت، ورغم تدخل يوسف قصاب، رُفعت قيمة جمارك القاهرة ثانية اعتماداً على جمهرة من الجباة الوحشيين الذين ليس لهم مثيل سوى في هذا البلد! كل مرة يحتاج فيها البيهان إلى المال، يدقون أبواب التجار ويطلبون ما بين خمسة عشر وعشرين ألف قرش باعتبارها قرضاً. وأؤكد لك أن أي من هذه الديون لم ترد.

- نعم، كرر، أعلم.

- كما أنني لم أكف عن الصياح في بلادي: إما أن يسحب منا لقب مواطن فرنسي، أو أن يحددوا لنا حقوقنا!

- أعتقد أنك قد أوصلت كل هذا إلى مجلسكم التشريعي.

- ولبرتراند موليفيل وزير الملاحة ولفيرنيناك مبعوث الجمهورية لدى اسطنبول.

- إنني أحفظ عن ظهر قلب مضمون تلك الرسالة: (إن الجمهورية لهي من القوة بحيث تستطيع أن تعيد الرشد لبعض الأشخاص الذين لا يتقاسمون سوى التباهي وليس البتة قوة حقيقية... إنني لأرجوك، أيها المواطن، بأن لا تهمل وسائل منح مصر لفرنسا. سيكون ذلك أجمل الهدايا التي يمكنك أن تقدمها. وسيعثر الشعب الفرنسي في هذا الكسب على موارد ضخمة.) غير

أنني ألح على أن اجتياح مصر من طرف القوات الفرنسية ستكون له عواقب غير محسوبة على باقي العالم، دون أن نُدخل في الاعتبار رد فعل اسطنبول. هل نسيت أن فرنسا حليفة للإمبراطورية العثمانية؟ هل تعتقد أن الأتراك سيبقون مكتوفي الأيدي أمام إلحاق أحد أهم أقاليمهم؟

– سيكون الباب العالي على العكس من ذلك سعيد بتخليصه من هؤلاء الأوباش المتمثلين في المماليك والبكوات.

– وهل تعتقد أنهم سيهملون خيرات مصر، عرفاناً بفضلكم ؟ اسمح لي بأن أشك في ذلك كلية.

– وهل سيكون لهم الخيار؟

قام القنصل بمحاولة جديدة:

– إنني أخاطب تعقلك: عليك أن تجعل حكامكم يحجمون عن ولوج مشروع مثل هذا.

فأسرّ شارل مغيان بصوت محايد:

– أعتزم لقاء السيد دي طالايراند وزيرنا في العلاقات الخارجية وأن أسلمه رسالة مفصلة حول الوضع. وسيكون بيده أمر التدخل أو عدم التدخل عند حكومة التدبير. غير أنني، وكي لا تخيب آمالك، على علم مسبق بأن لنا الرؤية نفسها للأمور.

– من أي شيء تستمد هذا التأكد؟

– لقد علمت أن السيد دي طالايراند قد تطرق من حوالى سنة أمام مجلس المنتخبين، في جلسة عمومية بالمعهد الوطني للعلوم والفنون، إلى فكرة إرسال بعثة لمصر. وهي فكرة مماثلة لفكرتي.

تمتم روزيتي مذهولاً:

– قُضي الأمر إذن. فإذا كان السيد طالايراند مقتنعاً بجدوى عملية مثل هذه، فإن أحداً لن يستطيع معارضته. بل إنه بالأحرى، سيقنع فرنسا برمتها.

– أنت تعلم مثلي، بأن أي شيء، في السياسة، لا يُقضى مسبقاً. والشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أن الضرر الذي لحق بالفرنسيين، يجب أن يصلح.

انفجر الفينيسي فجأة:

- انتظر يا صديقي. . . انتظر. . . تمالك نفسك! وضعية التجار تشكل مشكلاً حقيقيا، لكن لا تعتقد بأنكم قد وجدتم هنا مبرراً مناسباً كي تصلوا إلى غاياتكم. الحقيقة أن شرف فرنسا المخدوش ليس هو ما يشغلكم لهذه الدرجة، أنتم تعلمون ذلك جيداً. الأمر متعلق بشيء آخر تماماً.

توقف واسترجع أنفاسه:

- لقد تناهت إليَّ رسالة تعود إلى سنة خلت تقريباً؛ كي نكون دقيقين، إلى ١٨ أغسطس. لقد أُرسلت إلى حكومة التدبير، وهي موقعة من طرف جنرالكم الصغير بونابرت. . . وتبدو لي جملة فيها أساسية، هل تريد أن أذكّرك بها؟

تجاهل روزيتي رفض الفرنسي وتابع ضاغطاً على الكلمات:

- لقد تغير الزمن الذي كنا نشعر فيه بأننا، كي نحطم إنجلترا، علينا أن نستولي على مصر.

ثم استخلص الدبلوماسي بجفاء:

- إنجلترا، يا شارل، إنجلترا وطريق الهند. بلاد الهند هي أساس القوة الإنجليزية. والاستيلاء على الهند يعني تركيع إنجلترا. هذه هي الحقيقة الوحيدة، الرهان الوحيد.

صمت وثبت بصره بحدة في وجه مغيان، ثم تابع:

- ثمة عامل آخر، بالأهمية نفسها.

- صحيح؟

- لقد أصبح بونابرت محزوناً منذ أن عاد من إيطاليا. والحال أنه ليس ثمة أخطر من أن يوجد بطل في حالة بطالة. حكومة التدبير تعرف هذا، وترتعش خوفاً من أن يحتل مكانها. يُراد له دوماً أن يكون في مكان آخر. لا يهم أين، لكن أن لا يكون بالخصوص في باريس. وإلا فلم سُلمت له قيادة الجيش الموجه إلى إنجلترا؟ كما لو أن اجتياحاً للجزر البريطانية ليس طوباويا كبيرة. جنرالكم قد يكون طاغية قوياً، لكنه ليس بليداً بالتأكيد.

حاول مغيان مقاطعته، لكن الفينيسي تجاهله من جديد:

- لقد تظاهر بأنه يحمس هذا الجيش الموجه للنزول بالسواحل الإنجليزية، لكن، في العمق، كانت مصر هي المستهدفة: (كل شيء يتآكل، هنا، ما عدت أحصل على أمجاد. هذه القارة الأوروبية الصغيرة لا تمنح منه ما يكفي. عليَّ

بالذهاب إلى الشرق: كل الأمجاد العظيمة تأتي من هناك) أليست هذه كلماته؟ كن لطيفاً إذن، ولنكف عن التباكي على مصير أربعين من التجار. لقد عثر الإسكندر الأعظم، منذ قليل، على قرين كورسيكي له.

أصدر مغيان ضحكة صغيرة هازئة:

- أي حقد على هذا الجنرال الصغير! صحيح أنه يحصل لي أن أنسى أحياناً أنك رغم كونك فينيسياً، فإنك في الوقت نفسه قنصل النمسا. وتبقى (الكامبوس فورميو) ذكرى مريرة بالنسبة لخاصتك.

توقف للحظة، ثم قال أيضاً:

- لكنك تروقني يا روزيتي. طيب، لنلعب هذه اللعبة. كان هذا أيضاً هو الأساس في بريدي الذي أرسلته لوزارة الملاحة. فبغض النظر عن قيمة مصر الجوهرية، فإنها قد تصلح بالفعل مكاناً للجيش الفرنسي الذي، بانطلاقه من السويس، يصل إلى الهند في خمسة وأربعين يوماً. عشرة آلاف فرنسي قد يطردون الإنجليز من البنغال. إن امتلاك مصر سيكون بالنسبة لفرنسا بمثابة أهم ما يمكننا الحصول عليه، وسيمكنها من امتيازات، يصعب التكهن بكل ما سينتج عنها.

- ها نحن إذن متفقان!

بدا متفكراً قليلاً ثم سأل:

- ماذا لو حاولت أن أشرح الوضعية لمراد بك؟ ربما يكون حل. . . .

- هل فقدت عقلك، أم تريد أن تفقدني عقلي؟ لقد وثقت بك باسم صداقتنا القديمة. هذا الكلام يجب أن يبقى سرّاً.

- أفهم. . .

- لن تقول شيئاً يا روزيتي؟

حرك القنصل رأسه.

- باسم صداقتنا القديمة كما تقول. . .

وفي اللحظة التي هَمّا فيها بالافتراق، لاحظ الفينيسي ساخراً:

- منذ خمس سنوات، وعندما أنزلتك سفينة (البرق) بالإسكندرية، وكنت قد عينت لتوك قنصلاً عاماً للجمهورية الفرنسية، كان مراد وإبراهيم قد خصصا لك استقبالاً حارّاً، أليس كذلك؟

صادق مغيان على كلامه:

- لو كنت مكانك لما احتفظت بفرو القاقُم الذي أهدياه إليك، ولكنت أعدته قبل أن تظهر في الأفق سفن الأسطول الأولى... فالمماليك، والعرب خاصة، لهم حساسية خاصة تجاه المصير الذي نعده لمستقبلهم...

* * *

تساءل نبيل، مشدوهاً، عما إذا لم يكن يحلم. هل هذا ممكن؟ أتعتزم فرنسا احتلال مصر؟ هل سينضاف إلى المماليك والأتراك محتل آخر؟ وأي محتل... جنود قادمون من ذاك البلد الذي اتخذه حتى هذا اليوم رمزاً.

وماذا لو سمينا حركتنا «فرنسا»...

لم يسبق قط لاقتراح صلاح المسكين أن كان بهذا القبح.

عليه أن يخطر أصدقاءه بهذا في أقرب وقت. وقسماً بالله ليؤدي المجتاح الثمن بالدم المُراق. فهُم ما عادوا عشرين وإنما أربعمائة وخمسون.

* * *

كان دخان البخور يطبع الغرفة بجو أزرق شاحب. وكان مراد بك وآخر ضيوفه قد تحلقوا حول طاولة نحاسية وضعت عليها كمية من الحلويات، بالقدر الذي تتطلبه النرجيلة.

سحب إبراهيم بك نفساً وأطلقه بتلذذ نحو أفاريز السقف. وهمس:

- أنت يا ابنة شديد، تدهشينني. كيف تعلمين كل هذه التفاصيل عن البحرية النهرية لصديقنا مراد؟ عدد الزوارق التي تحويها وأصول المدافع. هذا مدهش.

ألقى مراد بك بنظرة مريبة على يوسف شديد:

- ألا تكون ابنتك قد أصبحت جاسوسة للباب العالي؟

- هذا شيء مستبعد يا سيدي؛ فهي لم تهتم يوماً بالسياسة.

فاحتجت الست نفيسة:

- قل دون تردد يا شديد أفندي بأن النساء بليدات!

- لا تخامرني هذه الفكرة. لكنني ألح مع ذلك: ابنتي لا تعرف شيئاً في هذه المادة.

- لكنها تهتم، على أي حال، بأسطولي، عارض مراد بك بخبث.

تابعت شهرزاد ببراءة، وهي سعيدة على ما يبدو بالبلبلة التي أحدثتها في ذهن المملوك:

- ألا تكون قد التجأت، كي تتزود بالمدفعية، ليونانيين من (زانت)؟ فهم على ما يبدو من نظم أفران صناعة المدافع التي نشاهدها غير بعيد عن قصرك.

- رائع بالفعل!

- أما بالنسبة لعدد البحارة الذين يشكلون طواقم البحرية النهرية، فليس بعيداً عن الثلاثمائة. يونانيون في غالبيتهم، يقودهم شخص يسمى نيكوس. أليس كذلك؟

جحظت عينا مراد بك.

- تعرفين أيضاً صديقنا باباس أوغلو؟

- إنني أعرف كل شيء، معاليك، كل شيء...

ثم صمتت قبل أن تصحح:

- كل شيء إلا أمراً واحداً...

أطلق مراد بك تنهيدة ارتياح.

- أخيراً.

- أجهل أين ترسو قواربك.

أصدر المملوك ضحكة خفيفة:

- من يفرط في البحث في تفاصيل الجدارية، يفقد النظرة للكل. ألا تعرفين فعلاً أين يُرسي باباس أوغلو قواربنا؟ ومع ذلك، فإن هذا هو أسهل ما يمكن اكتشافه. في حين أن معرفة عدد بحارتي وخصوصية مدفعيتي...

قال ميشيل مدهوشاً:

- لم أكن أعرف، يا شهرزاد، أنك مفتونة إلى هذه الدرجة بأمور البحرية. كنت أعتقد أن ما يحظى باهتمامك هو الفروسية ولعبة الضامة لا غير.

- لعبة الضامة؟ صاح مراد بك.

ثم تفحص الفتاة باهتمام جديد:

- تعرفين فعلاً لعبها؟

- أتعرفها؟ قال نبيل متهكماً. أنا أشك في أنها تخترعتها. مع كل الاحترام الذي أكنه لك، فخامتك، فإنك ستكون لقمة سائغة لها.

صفق المملوك بيديه:

- رقعة ضامة! أنا أستعجل مقارنة نفسي بندّي.

وفي الوقت الذي كان فيه خادم ينفذ الأمر، قالت شهرزاد:

- انتظر يا مراد بك! ثمة أمر عليك أن تعرفه.

- أنا أستمع إليك.

- أنا لا ألعب أبداً من أجل لا شيء.

تلألأت حدقتا مراد:

- هذا جيد. وأنا أيضاً. علامَ يكون رهاننا؟

- المكان الذي يرسو فيه أسطولك النهري.

أفكارها مترابطة! قالت الست نفيسة مسرورة.

- ألا ترين بأنك تبالغين في استغلال تسامح مضيفنا ولطفه، قال يوسف موبخاً، مبدياً تضايقاً.

ثم خاطب المملوك:

- اغفر لها. فهي في العشرين من عمرها، لكنها تتصرف كطفلة.

- أبداً. أنا أقبل هذا النوع من التحدي.

غطس مراد بك بعينين مفترستين في عيني الفتاة.

- الرهان مثل قطعة نقود، له وجهان. آخذ الوجه، فما يكون القفا؟

- أنا اقترحت. أوْجِبْ.

مسد المملوك لحيته الكثة متأملاً:

- قال شلهوب أفندي بأنك أيضاً فارسة بارعة. إذا ما ربحت الدور، فهل تأتين للعدو معي في الصحراء؟

هذا ليس رهاناً يا مراد بك، ولكنه شرف لي.

- هذا المساء، أكد المملوك.

كاد يوسف شديد يختنق.

أنهى مراد كلامه وعيناه مثبتتان في عيني الفتاة:

- هذا المساء ذاته...

بعد توقف قصير، أكد:

- حتى الصباح.

أعقب هذه الكلمات الأخيرة صمت لم ينكسر قليلاً إلا بخشخشة ثوب فستان الست نفيسة. تمتمت البيضاء مع ابتسامة متكلفة:

- أنت تمزح يا مراد؟

- أبداً، يا حبيبتي. لكن من البديهي، طبعاً، أن بإمكان ابنة شديد أن تلغي هذا الرهان.

كان الخادم قد وضع لتوه رقعة الضامة على الطاولة النحاسية.

- البيضاء أم السوداء؟ سألت شهرزاد.

الفصل الثامن

صاح يوسف:

- هذا لا يغتفر!

كانوا قد عادوا لحظات من قبل إلى الصباح، ولم يستطع لا الأب ولا الابن أن يسيطرا على غضبيهما.

قال نبيل متأججاً:

- أتدرين، على الأقل، الوضعية التي كنت ستضعيننا فيها لو خسرت؟ هل فكرت فيها؟ أجيبي!

بحثت شهرزاد، سدىً، عن سند عند ميشيل شلهوب.

- هذا صحيح يا شهرزاد، فقد لعبت بالنار. عندما ضامَ للمرة الثانية، اعتقدت أنك قد خسرت.

- أنا أيضاً.

قال يوسف محمراً:

- أتقبلين. أجيبي عن سؤال واحد: لو كان مراد بك قد فاز بالجولة الثالثة، ماذا كنت ستفعلين؟

قالت الفتاة مستسلمة:

- لكنت التزمت.

- ابنتي ومراد بك في الصحراء، حتى الصباح. . . أتتصورين أنني كنت سأسمح بأمر مثل هذا، في الوقت الذي من المشكوك فيه أن يكتفي المملوك بمجرد رحلة! واجبي كأب، وشرف الأسرة، يقتضيان أن أعارض عاراً مثل هذا!

ثم استخلص، وجفونه منكسة:

- وأكثر من ذلك، تجرأت وطلبت منا الالتحاق فوراً بأعالي قصر الجيزة.

- لقد أكد أن قواربه ترسو هناك، على بعد ستة فراسخ. ومن يمكنه أن يثق بمملوك؟

نهض يوسف بصعوبة.

- سأذهب كي أنام، ذلك أحسن لأننا قد نؤذي بعضنا بعضاً بالكلمات. لكن قبل ذلك، احتفظي يا شهرزاد بالآتي: في المرة المقبلة، إن كان من حظك التعس أن تكون هناك مرة أخرى، فإن الرهان سيكون على رأسك الذي سأقطعه بيدي!

وعبر الغرفة محدودب الظهر، وقد صار عمره مائة سنة في ساعات.

وما إن خرج الأب حتى واصل نبيل سبابه:

- أترين في أي حال جعلت هذا الرجل المسكين؟ أنت متوحشة!

ولم تفعل الفتاة شيئاً سوى أنها أمسكت بسبحة عنبر وشرعت في فرطها بانفعال.

- أتكون ذاكرتك بهذه المحدودية، حتى تنسين ما ترتب عن افتقار سميرة إلى الأخلاق؟

- ما هذا؟ أنت دنيء! كيف أمكنك أن تقارن بين ما حصل هذا المساء وموقف أختي؟

- الأمر سيان! إننا لا نمزح مع التقاليد ومع الاحترام. وبالخصوص مع الوالد. ألا ترين أنه قد عانى ما يكفي؟

- زنْ كلماتك يا نبيل. أنت حتى اليوم، وحسب علمي، لم تخص الوالد باحترام كبير. ولم يمر وقت طويل على اتهامك له بأنه يحيا خانعاً. . . وإذن، فلست أنا من تقدم لها دروساً في الأخلاق!

اهتاج نبيل، وارتفعت كفه جاهزة كي تخبط على خد أخته.

فاعترض ميشيل، محتدّاً:

- هدوء من فضلكم. لا مراد بك ولا أيٌّ كان يستحق أن تتخاصما إلى هذه الدرجة. من فضلكم.

ظلت الكف معلقة في الهواء، ثم نزلت.

قال نبيل:
- ليلة سعيدة.
فوقف متبوعاً على الفور بميشيل:
- سأعود أنا أيضاً إلى البيت، فالوقت متأخر.
فهدّأ الآخر من روعه، بحركة وِدّية.
- يمكنك أن تبقى قليلاً... هذا طبعاً إذا كانت لديك سعة الصدر لتحمل هذه المخلوقة الشيطانية.

* * *

- لنخرج، إنني اختنق...
تبعها حتى الحديقة. كان الهواء عليلاً ومعطراً.
- أنا لست امرأة ككل النساء...
فأجابها ميشيل بطيبة:
- لا أعتقد يا شهرزاد. أظن فقط أنك متهورة بشكل لا يسمح لك بقياس عواقب تصرفاتك.
- ما قمت به، إذن، هذا المساء كان على هذه الدرجة من الخطورة؟
- قد أغيظك، لكنني أقول بأن نعم.
- لكنها لعبة، لا شيء آخر غير لعبة!
- ثمة لعب تحرق يا شهرزاد. تفصل بيننا تسع سنوات؛ وهو ما يسمح لي بأن أقدم لك هذه النصيحة: العبي ما دام اللعب وطعم التحدي يعتبران جبلة فيك، لكن قبل ذلك تأكدي من أنك وحدك ستؤدين الثمن.
بدت الفتاة مسترخية. لم تكن السبحة قد فارقت يديها. كانت، وهي تمشي، تمسد حباتها بحركات متقطعة.
اغتنم ميشيل فرصة عبورهما للحديقة فتأملها خلسة.
لماذا تبدو له كل رفرفة جفن وكأنها شيء جديد؟ وهذا العطر، واعتمال الخمار على كتفها، هذه الطريقة في التنفس وفي الحركة التي لا تنتمي إلا إليها. حتى تلهفها والتفاتاتها، حتى لامبالاتها بالحب الذي يكنه لها. ذلك أنه يحبها، آه كم يحبها. أن يعترف لها؟ أن يسر لها بما يحمله بين جوانحه منذ زمن؟ ستهزأ به بالتأكيد، ستضحك منه. وعندما يحدث له أن يفكر بأن هذا الضحك

نفسه قد يحرك مشاعره، أو أفظع، قد يحيله أكثر رقة، فإنه يولد فيه اليقين المرعب بأن الحب قد يدفع فعلاً إلى الجنون.

كانت قد قالت كلاماً لتوها، لكنه، لشروده بأفكاره، لم يسمعها. فكررت السؤال:

- أتعتقد فعلاً بأن أسطول مراد بك يوجد في أعالي القصر؟

* * *

كان النهار قد طلع منذ لحظات.

امتطت سفير وانطلقت على الطريق المؤدية إلى القاهرة. كان هذا الاختيار قد فرض عليها بسبب الحيطة. فإذا قرر أحد أن يتبعها، سيكون بإمكانها بسهولة أن تُضيعه في متاهات الطرق الضيقة.

بعد برهة انبثقت المآذنُ، وظهرت، عبر أولى غمام الحرارة، خاصرةُ المقطم والظل المهيب لقلعة الجبل، القلعة التي أنشأها من حوالى سبعمائة سنة صلاح الدين العظيم. لقد كانت بالأمس قصراً للسلاطين الذين حكموا مصر، وها هي اليوم مأوىً للإنكشارية.

سارت شهرزاد على طول سور المقطم في قلب حارة الفسطاط، المكان الذي بدأ منه كل شيء؛ المكان الذي - حسب الأسطورة - نصب فيه عمرو بن العاص، القائد الفذ لجيوش عُمَر، خيمته قبل أن يشرع في الاستيلاء على مصر.

كانت المدينة تفيق ببطء على وقع الغبار الكثيف والصيحات الحادة. وبين مطاحن الحبوب والحنفيات الفاترة، كان ثمة عميان يجرُّون خطاهم، وأطفال لابسين أسمالاً، وغير عابئين بأسراب الذباب التي تحط على عيونهم.

كان المارة الشُعْثُ ينتبهون بالكاد لهذا الفارس الذي يحاول أن يتجنبهم في مروره السريع. كانت الأمور ستجري مجرىً آخر، لو كان أحدهم قد تصور بأن الأمر يتعلق بامرأة. لكن الخمار الذي كان يغطي كل شعرها، والآخر الذي كان يحجب أسفل وجهها، كانا قد حولا شهرزاد إلى شبح مخنث.

عندما اطمأنت إلى أن لا أحد يسير في أعقابها، عادت على عقبيها وسارت في الاتجاه المعاكس إلى أن وجدت نفسها أمام النيل، في المكان الذي دلها عليه مراد بك. المملوك لم يكذب.

وعندما رأت الزوارق مصطفة مثنى مثنى، تسارعت دقات قلبها. ظلت والزمام معقود حول قبضتها شبه مشدوهة أمام البحارة المنهمكين في عملهم.

- هيه! انصرف يا ابن الكلب! اغرب بوجهك فوراً!

شرعت، وهي مصدومة، تبحث عمن هاجمها بكل هذه الوقاحة.

- أمصاب أنت بالصمم أم ماذا؟ اذهب وإلا لقّناك أنا وأصدقائي درساً!

- لكن ما هذا الكلام؟

كان للشخص العملاق الذي يقارب طوله المترين رأس غريب. رأس مجرم بعينين جاحظتين وفكه ممدود إلى الأمام وخداه غائران. وعلى يمين شفته السفلى ظهرت شامة كبيرة، حبة زيتون لا تعدل شيئاً من قناعه المشوه. يحيط بجبهته رباط أسود؛ وتعلق خنجر طويل بنطاقه. كان يرتدي قميصاً بأكمام قصيرة مفتوحاً على صدره، وحذاء برقبةٍ تفوح منه رائحة جلد نتنة.

لم يكن وحده؛ فقد أحاطت به عصابة من الرُّعن، الذين لا يطمئن منظرهم أيضاً.

بذلت شهرزاد جهداً غير عادي حتى لا تطلق قوائم مطيتها للريح هرباً؛ وقالت بصوت آمر، وقد أغلظت صوتها:

- من أنت لتسن القوانين؟ بأي حق تسمح لنفسك بأن تسب الناس؟

انفجر العملاق في ضحكة مُرعدة.

- من أنا؟ وأنت... من أي جحيم نزلت حتى تجهل بارتليمي سيرا، المشهور باسم حب الرمان؟

- أنا لا أعرف لا بارتليمي ولا حب الرمان. ولا أفهم شيئاً من رطانتك. والآن اتركني وشأني.

تقدم الرجل خطوة، واستل خنجره الذي أصدر بريقاً تحت الشمس.

- سأعلمك إذن، وسأخلصك من جهلك، يا أخي. سيسيل الدم من كل ثقوب جسدك.

ربت على عنق الفرس.

- دابة جميلة. أنا أعرف...

وعندما خطا خطوة أخرى، سحبت شهرزاد الزمام بقوة وهي تضرب

بمقدم كعبها على خاصرة سفير. فوقف الفرس على قائمتيه، دون أن يسقط العملاق.

صاحت الفتاة:

- ليمزقك الله!. أكرر لك، دعني وشأني!

نسيت من غضبها أن تخفي صوتها.

تسمر حب الرمان في مكانه، جاحظاً عينيه.

- هل أنا مخطئ، أم أننا أمام امرأة؟

انهمرت مزح جنسية، وعلت ضحكات مصحوبة بإشارات فاحشة.

وبحركة مستفزة، أزاحت شهرزاد خمارها.

- والآن، لتكونوا شجعاناً أنت وأصدقاؤك.

وكي تؤكد تصميمها، قفزت إلى الأرض، رافعة رأسها أمام خصمها.

لم يقلق ملمح الجراءة لديها البتة حب الرمان. وقف قريباً منها، أنفه شبه ملتصق بأنفها. كان بإمكانها أن تشم أنفاسه الفاسدة، والرائحة العفنة التي تصعد من مسامه عبر القميص المفتوح.

بابتسامة هازئة، استل خنجره وضغطه على عنق الفتاة.

- قد تكون هامتك مرفوعة، لكن هذا لا يدهشني. ليس هناك نساء شجاعات، مجرد دمىً، وسأثبت لك ذلك.

عندما نطق بعبارته المجنونة، تيقنت شهرزاد من أنه سينفذ تهديده. وانتظرت مقطوعة الأنفاس.

- يكفي، يا بارتليمي! اتركها.

كان صوت جديد قد جلجل، جافاً. حيّاه حب الرمان قائلاً:

- أهلاً، هل تعرفها؟

أكد القادم الجديد بأن نعم.

- إنها قريبة، هي ابنة شديد.

جحظت عينا شهرزاد. كيف يعرف هذا الشخص اسمها؟

فتوجه إليها بارتليمي بالكلام:

- شديد؟ نصرانية إذن؟

أجابت بالإيجاب، مفترضة أنه يعني بـ(النصرانية) (المسيحية).

عندئذ قال بارتليمي في صيغة احترام غير مناسبة: أنا أعتذر، يا سيدتي. أنا نصراني أيضاً، وأعرف الرأفة.

كادت شهرزاد تسأله عن معنى (الرأفة) عنده، لكنها أحجمت. وعلى أي حال فما عاد لها غرض بهذا الأحمق. لقد أُنقِذَت.

تفرقت العصابة، بإشارة من قائدها. وفي الوقت الذي اقترب فيه حب الرمان من المتدخِّل، أرسل إليه غمزة عين متواطئة.

Félicitates... La ragazza é la piu bella dei mounares

(العبارة هي من الوقاحة بحيث لا يسمح الكاتب لنفسه بأن يترجمها).

أبدى الرجل المجهول علامة موافقة، واختفت العصابة.

وبمجرد أن بقيا وحدهما، شبك (منقذ) شهرزاد ذراعيه وتحدث إليها مباشرة:

- لقد أصاب ابن سليمان. أنت جميلة جداً.
- أنت تعرف كريم إذن؟
- أعرفه. . .؟ إنه ولدي بالتبني، أو شيء من هذا القبيل. أقدم نفسي: أنا نيكولاس باباس أوغلو. نيكوس بالنسبة لأصدقائي.
- بالفعل. . . لقد سمعت عنك كثيراً. لكن كيف تعرفت علي؟
- كنتِ أمس عند مراد بك، أليس كذلك؟
- بلى.
- كنت حاضراً أيضاً.
- أنت؟ لكن. . .
- آه! اطمئني، أنا لم أكن ضمن ضيوف الشرف. لمساعدي مراد بك الحق في حفل أكثر تواضعاً.
- هذا لا يفسر لي شيئاً.
- لقد قيل لي إن ابنة يوسف شديد تهتم أكثر فأكثر بأسطول فخامته. فالتحقت إذن بالغرفة وراقبتك خفية.
- وبهذا يكون البك قد اعتقد فعلاً بأنني قد أكون جاسوسة للباب؟
- أنت تعرفين، يا سيدتي، أننا نعيش لحظات حرجة. لا أحد يعرف مَن يتكلم.

- مثل هذا الأحمق الذي كاد أن يقطع رأسي، من هو بالمناسبة؟

يقول البعض إنه كان رجل مدفعية الألفي بك؛ ويقول آخرون إنه كان مروض خيل مراد. والمؤكد هو أنه اليوم حر طليق، مكلف من طرف فخامته بحماية أسطوله النهري.

- لكنه قاتل!

رفع أوغلو ذراعيه علامة نفاد صبره.

- من النوع الأسوأ. أنا أعرف. قلتها لك. إننا نعيش لحظات حرجة.

مرت لحظة فسأل باباس أوغلو:

- أفترض أنك تريدين مقابلة ابن سليمان؟

نكست شهرزاد بصرها.

- هل كلمك عني؟

- طبعاً. وأمر ما يجعلني أعتقد بأنه يحبك كثيراً... لكن ما العمل، بين مرضين، ألا يكون الإنسان مضطراً إلى اختيار الأقل إيلاماً؟ هيا. أعتقد أنه سيسعد برؤيتك.

* * *

- كدت تموتين إذن يا أميرة...

أرادت أن تجيب، لكنها اكتفت بأن قالت نعم برأسها.

كان هذا الشعور الذي طالما انتابها يعود من جديد عبر موجات. لقد أقسمت، مع ذلك، على أن تتمالك نفسها؛ كانت تكره نفسها بسبب ضعفها. حالات التلاقي هذه، عاشتها وحددت نظامها وزمنها وحتى الكلمات التي تتلفظ بها وتلك التي تحذرها.

خطا خطوة نحوها. هو أيضاً قد تغير. شبحه الطفولي ترك مكانه لتمثال رجل. زاد اشتداد عضلاته دون إفراط وبتناغم، واتسع صدره، أما ملامحه فقد تحررت من هلامية المراهقة. قال أيضاً مبتسماً برقة:

- إنني أخمن ما قد تكونين استشعرته أمام الأحمق بارتليمي.

كانت مستمرة في صمتها. كانت مستعدة لأن تقدم كل شيء مقابل أن يفعل مثلها، وأن يرتمي على عنقها، وأن يضم إليه جسدها، وأن يتمدد فوقها،

حتى وإن لم يكن ذلك سوى لعبة، فيقول لها وشفتاه على أذنها: لن تستطيعي شيئاً ضد قوة الأسد....

عندما همّ بالجلوس بلا مبالاة على أحد الصناديق المرتبة على طول الرصيف، تمزقت الصورة التي حلمت بها دفعة واحدة، فاستندت إلى ردف سفير.

- كيف حال عائلتك؟ وكيف حال أبيك؟

تنهدت بعمق:

- بخير، وسميرة تزوجت.

- تزوجت؟ متى حدث ذلك؟

- بعد رحيلك عن الصباح بزمن قليل.

- زيجة جيدة؟

قالت بتلقائية: نعم.

- هذا أمر جيد، وأنت؟ قريباً؟

هل تستطيع خنقه؟ اندلع الغضب في رأسها. ألا يراها إذن؟ هل سيبقى دائماً بهذه البلادة وبهذا العمى حتى لا يستشف شيئاً من رغبتها، ولا يسمع شيئاً من الجلبة التي تدوي من كل كيانها؟

أمام غياب أي رد فعل من جانبها، أضاف وهو يشير إلى الزوارق:

- إنها جميلة، أليس كذلك؟

أجابت باقتضاب وهي تمسد عرف سفير:

- أجل. ويمكن لمراد بك أن يفتخر بها.

أقبل بائع عصير الخروب في اتجاههما وهو يحدث صوتاً بين يديه بصنج فضي اللون.

فاقترح كريم:

- أتشعرين بالعطش؟

كان فمها أكثر جفافاً من رياح الخماسين، لكنها لم تكن لتسمح بفكرةٍ أن يعمل أحد على تكدير هشاشة حوارهما. فأجابت بأن لا.

نادى على البائع.

تمايلت آنية من زجاج مرصعة بالنحاس على ظهره، وبمهارة طبيعية أخذ

قدحاً ووضعه أسفل، قريباً من الصنبور الصغير في قاعدة الآنية، وأرسل قذفة طويلة من عصير الخروب.

- أنت متأكدة؟ سأل كريم وهو يمد لها القدح. ألا تريدينه فعلاً؟

حركت رأسها. كانت تكرهه.

أخذ الرجل الثمن وانطلق من جديد مصلصلاً.

سألته:

- هل أنت سعيد هنا؟

- لا بأس. الهدوء جيد.

- لقد حققت إذن حلمك. ها أنت قد أصبحت بحاراً.

- جزء من حلمي فقط. أنا أطمح لشيء آخر. أنا...

فقاطعته:

- أجل أعلم. قبطان باشا... الأميرال الكبير.

ثم دققت بسخرية شبه مكشوفة:

- أترى... إنني لم أنس شيئاً.

نهض من فوق الصندوق الذي كان يجلس عليه ومشى في اتجاهها.

التصقت بسفير.

الآن هو قريب جداً منها. امتدت يده. أمسكت نفسها.

لم يزد على أن وضع أصابعه على منخر سفير.

اختلج سفير وشرع يضرب الرصيف بحافره.

- وهو أيضاً لم ينس، لاحظ ضاحكاً.

كانت أصابعه تتجول على زغب الدابة.

- تعتنين به جيداً؟

ماذا لو أرسلته الآن ليلتحق بزوارقه ومدافعه وسمك النيل، وأن لا يعود أبداً إلى الطفو، وأن يختفي عن بصرها، مأخوذاً إلى الأبد، مسحوقاً بجريان المياه.

- أذهب الآن، قالت بصوت لم تتعرف عليه هي نفسها.

- لا يزال الوقت باكراً.

- الوقت متأخر، وأبي لا يعلم أنني هنا.

- آه. . . أفهم.

يفهم. . . . هل فهم شيئاً في حياته؟

كانت تشعر بنفسها مهانة، مسحوقة الذات.

قفزت على ظهر سفير وأمسكت بالزمام بصرامة.

- أتمنى لك، يا ابن سليمان، حظاً سعيداً. السلام عليك.

لو أرادت أن تقول له «اذهب إلى الجحيم» لقالتها له بنبرة أقل صرامة من نبرتها تلك.

فتفرس وجهها مشدوهاً.

- ماذا هناك؟ هل قلت شيئاً؟

- أنت؟ لا تعرف حتى كيف تفكر؟

حرك رأسه باستسلام.

- دائماً السب على حافة الشفتين. عملياً، أنت لم تتغيري يا أميرة.

- وأنت أيضاً يا ابن سليمان: أنت ما تزال ذاك الفلاح الذي عرفته.

ثم صمتت قبل أن تكمل:

- يوم ١٥ فبراير، سيشهد قصر الصباح حفلاً كبيراً. ونحن نعوّل على حضورك.

سحبت العنان بقوة مرغمة سفير على تغيير اتجاهه.

أبدى كريم اندهاشاً:

- ١٥فبراير؟ لكنه يوم عيد ميلادي!

- ربما، لكنه بالخصوص يوم اقتراني بميشيل شلهوب! وداعاً يا ابن سليمان!

وضربت ردف سفير الذي انطلق جارياً.

الفصل التاسع

أنارت الزغاريد أجواء الليل واختلطت بأصوات الدفوف. شكّل عشرات من حاملي المشاعل المنارة المصطفين على جهتي الممر الرئيس جداراً مشتعلاً يمتد حتى عتبة البيت.

تجاوز آخر المدعوين مدخل الصباح. أبناء عمومة وأقارب يمتون بعلاقة قريبة أو بعيدة. وبالخصوص من عائلات الأعمام والخالات.

كان الجميع ينتظرون الزوجين الشابين.

في هذا الصباح رأى كل من شهرزاد وميشيل شلهوب مصيرهما يتشكل. اجتازت شهرزاد وهي تلبس فستان الدانتيلا الجميل وكفها في ذراع أبيها، العتبة الأخيرة للكنيسة اليونانية الكاثوليكية. عبروا جميعاً المسافة التي تؤدي إلى قدم المذبح. هنا ترددت شهرزاد لبعض الوقت قبل أن تفارق ذراع أبيها إلى ذراع ميشيل.

كانت نضرة الوجه، رغم بعض الامتقاع الذي يبدو من تحت الأصباغ. وقد أظهرت للجميع صورة سعادة حقيقية. لكن دقيق الملاحظة وحده هو الذي كان بإمكانه أن يرصد في قسمات وجهها حنيناً لذكرى ما.

أما ميشيل من جهته، فقد بدا رائقاً وغمره إيمان تام بأن الحب سيأتي مع انصرام الزمن الصدى.

كان الزوجان قد ظهرا لتوهما في مدخل القصر. كانا يتقدمان في ظُلّة نسيج أرجواني مخملي. علت الموسيقى موارية صيحات الفرح والتصفيقات المدوية. تصاعدت الزغاريد، وشرعت تويجات الورد وقطع الذهب تتناثر على الزوجين، بينما كان وجهاهما يتلألآن بفعل المشاعل الراقصة.

وحولهما كانت العوالم يغنين، وقد عقدن شعرهن في ضفائر طويلة مكسوة بقطع ذهبية غير حقيقية في غالبيتها. أما الراقصة التي وضعت حلقة في أنفها، وجهها مكسو باللونين الأحمر والأزرق، فكانت تفسح لهما الطريق، مموجة جسدها بفجور أحياناً.

وكان صف طويل من الخدم يتبع الجميع، محملين بصناديق وسلال مترعة بالهدايا التي قدمها العريس وعائلته.

- مبروك، ألف مبروك، قالت السيدة نفيسة لأم شهرزاد المشدوهة كلية.

نظرت هذه لزوجها. ففهمت، تواً ودون أن يحتاج أحدهما إلى الكلام، أن قلبه كان مسكوناً بالشعور نفسه. هذا المساء، إذا كانا يعيشان من جديد، بواسطة بهجة الألوان والضحكات، عرسهما، فإن حفل زفاف آخر كان قد انبثق من الماضي القريب: زفاف سميرة وعلي الترجمان. ما الذي حل إذن بابنتهما البكر، وأين هي الآن؟

كانت شهرزاد تتقدم دائماً وسط صيحات التهاني. وبين الفينة والأخرى، كانت تحيي برأسها أحداً من العائلة، وتبدي ابتسامة، وتشكر بإشارة صغيرة من يعربون عن تمنيات من كل الأنواع. كان مطر التويجات والقطع الذهبية قد شكل بساطاً تحت أقدامهما، وكان إيقاع الدفوف المستعر يسرع أكثر فأكثر مدوياً في الجو الليلي.

وبحركة أخوية، وضع نبيل ذراعه على كتف كريم:

- لا أستطيع أن أصدق. لم أتصور أبداً أن أرى أختي المزعجة تتزوج يوماً. كنت مقتنعاً بأن طبعها قد يجعل أصدق محبيها المفترضين يفر.

لم يُبدِ ابن سليمان أي تعليق، فتابع نبيل:

- يجب الاعتراف أن ميشيل رجل شريف. أنت تعرف ما يقال في هذه الحال: «وجدت الآنية غطاءها»

أعرب عن ضحكة قصيرة:

- لو كانت تسمعني...

مط كريم شفتيه، لكنه ظل صامتاً.

كان نبيل وكريم يقفان في مدخل الإقامة خلف آخر حاملي المشاعل. وبعد لحظات سيكون الزوجان قريبين جداً منهما.

- فعلت خيراً بمجيئك، ستسعد برؤيتك. أتدري بأنها كانت تحبك لـمّا كنت صغيراً؟ وأعتقد حتى بأن لها ضعفاً صغيراً تجاهك... لكن ما الذي يحصل؟ هل فقدت لسانك؟

حاول ابن سليمان أن يرد، لكن لم تتبادر إلى ذهنه أية كلمات. ما الذي يحدث له؟ استشعر نفسه مدعاة للسخرية. ما سبب هذا الضيق الذي يشعر به؟ كما لو أن كفاً قد قبضت على قلبه واعتصرته حتى منعته من أن يخفق.

إنها لا تنتمي إلى عالمه، وهو يعرف ذلك، فأحلامها لم تكن تلتقي أبداً مع أحلامه. لم تكن من عالمه. مع ذلك، فإن شيئاً ما، هذا المساء، يتحرك في أعماقه ولا يفهمه.

تقول دائماً بأنني بليدة، لكن ليس هناك أبلد منك....

وفجأة وجد في أصوات الدفوف ترجيعاً حنينياً، بارداً؛ وذكرته الدفوف بقرع الطبول الذي نسمعه أحياناً في مراسم تشييع علية القوم.

إنها مشعة....

رفع بصره. كانت شهرزاد شديدة القرب منه. ثوب الدانتيلا يكاد يلامسه، وسرى الهواء بعطرها إلى أنفه فأشعره بالدوار. ظن أنها تبطئ الخطو، لكن ذلك لم يكن إلا من فعل خياله. تابعت طريقها. كان، مع ذلك، متأكداً من أنها قد لمحته. لم يستطع الاحتجاب عن نظرها. ولجت البيت متبوعة بحشد الضيوف غير المنظم. دلف المد خلفها ماسحاً كل شيء في طريقه.

* * *

أخذ يوسف يد صهره وشد عليها بقوة:

- أنا فخور بك يا ولدي. اعمل على إسعادها.

- هذه هي رغبتي الوحيدة. لا أرجو شيئاً آخر في الدنيا غير أن أهب شهرزاد قليلاً من السعادة التي أجدت أنت إعطاءها إياها.

وقال أبو ميشيل:

- وأنجبا لنا وريثاً! ذكراً قوياً وشجاعاً.

- لماذا ذكر؟ احتجت السيدة نفيسة وهي تنكش كنافة مترعة فستقاً. ألن تكفوا، معشر الرجال، عن التفكير في أن ولادة طفلة هو إهانة لرجولتكم؟ هذا أمر لا يصدق على أي حال.

أصر ميشيل شلهوب بزهو:

- ذكر في البداية ، وبعد ذلك نرى.

- الرجال عنيدون. علقت زوجته.

قالت بغير قليل من الحيوية فرانسواز مغيان:

- المغنية! ماذا لو طلبنا رأي المغنية؟

كانت الفرنسية التي أتت برفقة زوجها تبدو ثملة بعض الشيء.

قالت شهرزاد بلا اهتمام:

- أعتقد أنني أفضّل ذكراً.

صفق جورج شلهوب بتلقائية، متبوعاً بكل الرجال الجالسين إلى المائدة.

- برافو يا بنيتي! برافو... أنت أجدر أبناء شديد.

- ليكن، قال ميشيل وهو يرفع كأسه، ما دامت هذه هي رغبة الأميرة، فسيكون لنا إذن طفل ذكر.

اعتقد كريم، الجالس إلى رأس المائدة، أن شفرة حادة لامست جسده. كانت هذه الكلمة التي نطقها اسم آخر تبدو بمثابة سلب، كأن حديقة الصباح تُنهب. أميرة... ألم يكن هو الوحيد ولا أحد آخر غيره، الذي له الحق في أن يناديها كذلك؟ ثبت نظره بقوة على الفتاة آملاً أن تبدي رد فعل، ولو برفرفة بسيطة لأهدابها.

فرآها ترفع قدحها بدورها.

- في صحة الوريث! قالت بصوت قوي، وهي تلامس بخفة بكأسها كأس زوجها.

ودعت الجمع إلى أن يحذو حذوها.

وبعد أن أفرغت كأسها من جرعة واحدة، وضعته أمامها وشرعت، دون سبب ظاهر، تضحك بصوت عال.

- ماذا يا كريم! ألا تشرب في صحة الطفل القادم؟ قالت أميرة شلهوب متعجبة.

ارتعش ابن سليمان وقد أُخِذ على حين غرة.

- بلى، بلى، شربت...، رد بطريقة متكلفة.

- فأنت إذن إنما خدعت شفتيك، لاحظ نبيل وهو يشير بطريقة ماكرة إلى كأس كريم التي ما تزال مليئة.

وبسوء نية ظاهرة، كرر الشاب:

- بلى... بلى... شربت.

قال شارل مغيان، ضاحكاً:

- ألا يكون صديقنا الشاب، ربما، واحداً من الصوفية؟

أخذ أحد يقهقه. شعر بأن كل الرؤوس تلتفت نحوه. تمنى أن لو انشقت الأرض. لم يكن يحب هؤلاء الأشخاص، لم يكن يجمعهم به شيء. إنهم يستمدون تطوسهم من المال والقوة. خطرت له فكرة الوقوف ومغادرة المائدة.، لا، سيأتي يوم يكون فيه هو أيضاً كبيراً، قريباً من النجوم، وسيعامل ابن سليمان آنذاك برهبة وباحترام.

- عفواً، لكن هناك أمراً يبدو أنكم نسيتموه، كريم مُسْلِم.

تعرّف على صوت شهرزاد التي قالت مستخلصة:

- المؤمن لا يشرب الخمر.

كانت قد تكلمت بحماس جعل نوعاً من القلق يسود التجمع الصغير.

اعتبر يوسف شديد أنه من المناسب أن يتدخل بدوره:

- فلتتركوا هذا الشاب هانئاً! إذا فضّل الماء على الخمر، فمن حقه.

ثم قال بطيبة:

- هو بحار، علينا ألا ننسى ذلك!

- في خدمة مراد بك، أكدت السيدة نفيسة بتباه.

قالت شهرزاد من جديد، بالنبرة نفسها التي تحدثت بها قبل قليل:

- وفي يوم، سيصبح قبطان باشا.

ركز كريم بصره على وجهها. كان ينتظر أن يعثر في عينيها على سخرية، لكنه فوجئ من أنه لم ير غير الجدية، بل حتى شعاع تأثر.

- لكن، يا بنيتي، ليس لمصر قوات بحرية.

قالت أميرة شلهوب مشككة:

- شهرزاد تبالغ بعض الشيء، أميرال...

- أو ربما، قالت فرانسواز مغيان، أميرالاً لقطيع من الجِمال. ألا تسمى هذه الدواب، على أي حال «سفن الصحراء»؟

مزهوة على ما يبدو بكلمتها الجميلة، طفقت تضحك بصوت عال مرتج.

رماها نبيل بنظرة محتقرة.

تساءل شارل مغيان بسمت متكلف:

- ربما كان صديقنا يتكلم عن البحرية الفرنسية أو التركية! على أي حال. . .

انتصب نبيل من على مقعده.

- لا يا سيدي القنصل! مصرية! بحرية وأميرالات مصريون! هذا ما يقصده كريم.

أخذ بحماس قنينة، وأفرغ لنفسه منها، فرفع كأسه أمام كريم.

- يا صديقي. . . من أجلك. . . ومن أجل مصر، من أجل بحريتها ومن أجل أول قبطان!

وقف كريم، متأثراً برد فعل الشاب، وقال بصوت قوي:

- من أجل شهرزاد!

* * *

وصل مراد بك متأخراً.

كان أغلب المدعوين قد عادوا إلى القاهرة. كان شارل مغيان، عملياً، قد حمل زوجته غارقة تماماً في غمام الكحول؛ وغداً سيسافران إلى الإسكندرية. وكان كريم قد اختفى فور انتهاء الزوجين الشابين من قطع حلوى الزواج التقليدية. فلم يبق في الصباح سوى المقربين جداً.

قدمت لمراد بك نرجيلة شرع يسحب منها أنفاساً بانفعال منذ وصوله. كان من غير المناسب سؤاله عن مزاجه. كانت حركاته المنفعلة وجبهته المهمومة تترجم باستفاضة حالته النفسية. لم يأت بمفرده؛ صحبه مملوك آخر: الألفي بك. في الأربعين من عمره تماماً، بدين ومدور، كان عبداً لمراد، فأعتقه مقابل ألف إردب من الحبوب، ومن ثم لقبه «الألفي». وقد استطاع هذا العبد، بمجرد عتقه، أن يرتقي في المناصب بشكل باهر. والدليل على ذلك، القصر

العظيم الذي بناه أشهراً قليلة بعد ذلك على شاطئ الأزبكية الغربي والذي يقال بأنه كان ينافس في عظمته قصر السلطان سليم الثالث.

عمل يوسف على أن يخفف من التوتر.

- ماذا يا مراد بك! هل ستقود القافلة هذه السنة؟

رد البيه متذمراً:

- إثنا عشر مليونَ بارة تنفق على هذا النفاق. أربعون ألف شخص، ألف من الجنود، وكل ذلك لحمل كساء إلى الكعبة.

بدا يوسف مذهولاً، فهذه هي المرة الأولى التي يستمع فيها إلى نقد مثل هذا للمراسم المقدسة، وأمام الملأ؛ وأفدح من ذلك، من فم مسلم بمثل قيمة مراد بك.

- إن بلادة المتدينين تقود لكل شيء، أضاف المملوك. وسأقضي يوماً على هؤلاء العلماء.

- العلماء؟ لكن ما الذي جنوه، سعادتك، قال نبيل قلقاً باهتمام مفاجئ. أؤكد لك أن مقامهم معتبر، لكن، مع ذلك، هم ليسوا سوى موظفين بسطاء.

- ذاك هو! قال الألفي بك ساخراً، وهو يزدرد فستقاً. موظفون بسطاء يتحكمون في الوَقْف، ويشكلون جزءاً من الذين يستفيدون من استثمار الالتزامات، ويتحالفون مع كبار التجار - وحتى مع بعض منا للأسف، فأنا أعترف بذلك - قصد تكوين طبقة موجهة حقيقية! إنهم ليسوا بأفضل حال من الكلاب الأتراك!

قال نبيل مخاطراً:

- ومع ذلك، فهم يتمتعون بسمعة جيدة. ألا يُقال بأننا مدينون لهم بانبعاث ثقافي؟ ألم تعد الثقافة الإسلامية القديمة إلى قيمتها بفضلهم؟ أليس بعض منهم علماء؟

علق مراد بك، الذي كان يهم بأخذ نفس من النرجيلة، حركته.

- إنني لأتعجب، يا ابن شديد، من كلامك. أتجهل أن هؤلاء العلماء، من حوالى خمس سنوات، قد استنهضوا ضدي القرويين، وأنني اضطررت إلى مواجهة تمردهم؟ فتحت نافذتي فوجدتهم على باب إقامتي يتقافزون مثل القردة ويصيحون:

وتلا:

«طبقاً لإرادة سادتنا العلماء، كل المظالم والضرائب المفروضة، ملغاة في مملكة أراضي مصر!» هذا ما فُرض على أذني أن تسمعاه بسبب هؤلاء العلماء!

- اهدأ يا مراد بك، قالت نادية شديد قلقة. أنت تحرق دمك بلا فائدة.

- أمي محقة، أكدت شهرزاد. عليك، بالأحرى، أن تحتفظ بطاقتك للحظات أروع... لأشواط من الضامة مثلاً.

طرف المملوك، وانطلقت أساريره.

- أشواط ضامة. بالتأكيد. لكنني أنا الذي سأنتصر فيها. وهو ما سيكون أروع أكثر.

فمال إلى الأمام قليلاً محاولاً أن يلمس كف شهرزاد.

كان ميشيل شلهوب الأسرع.

- أخشى أن نخيب أملكم أيها السادة، لكننا نجد أنفسنا مضطرين إلى الانسحاب.

- ما يزال الوقت باكراً. لكننا وصلنا لتونا. ألا تعتقدون أن...

فقاطعته شهرزاد:

- سعادتك... هذه ليلة زفافنا، أتكون قد نسيت؟

رفع مراد بك يده في الهواء وغادر أريكته.

- لا يغتفر! ليعاقبني الله. كيف لم أعقِل ذلك! ليلة زفافكما...

وثبت ناظريه على شهرزاد.

- ألتمس حِلمَك.

- نلته، يا مراد بك.

- أتمنحينني لحظة؟ لحظة وجيزة؟

بدت شهرزاد مترددة.

- أريد أن أقدم لك هدية متواضعة.

ألقت على ميشيل بنظرة متسائلة، فأتى حركة موافقة.

- ما دامت تلك رغبتك، قالت بهدوء.

وبمجرد ما نطقت بجملتها دلف المملوك داخل المنزل. وعندما عاد

للظهور، كان مرفوقاً بعدد كبير من الجنود. كان اثنان منهما يترنحان بفعل ثقل صندوق الأبنوس. وكان ثالث يحمل ميزاناً من حجم ضخم.

فدوت أوامر. عندما وضع الميزان، أخذ مراد كف شهرزاد، وغير مبال باحتجاجاتها، دعاها للجلوس في إحدى الكفتين.

صفق بيديه. رفع أحد الجنديين غطاء الصندوق ضاجاً، فبدت أمام الأنظار المشدوهة الالتماعات الأخاذة لآلاف الأحجار الكريمة.

- وزنك من الأحجار الكريمة! صاح المملوك بنبرة فخامة.

فأمر أحد الجنديين:

- أفرغ! أفرغ حتى تستوي الكفتان.

نفذ الرجل فوراً. كان يدخل يده في الصندوق فيخرجها مترعة بالجواهر والقطع النقدية والزمرد، فيتدحرج كل ذلك بهسهسة خافتة في الكفة الفارغة.

- مراد بك، هذا جنون! صاحت في الوقت نفسه تقريباً، كل من أميرة شلهوب ونادية.

- الألفي بك، بدوره، كان يبدو، عيناه نصف مفتوحتين، غائباً كلية. أما يوسف، فقد اكتفى بملاحظة المشهد بفضول مرح.

أخذ الميزان، تحت أول تأثيرات الوزن المضاد، يتأرجح رويداً رويداً. وبعد زمن قليل، وتحت الأضواء المصفرة للمصابيح، كان الزبرجد واللازورد والسفير والفيروز، قد شكل هرماً براقاً، ذا لمعان شبيه بلمعان الشمس، ملقياً بأنوار على ركن الصالون.

لزم كثير من الوقت حتى استقر الميزان في خط مستقيم. آنذاك فقط، أمر مراد بك بالتوقف.

اقترب المملوك من صندوق الأبنوس. كانت ثلاثة أرباعه قد أفرغت. ارتسمت على محياه علامة خيبة.

- فقط؟ يا شهرزاد العزيزة، أنت هزيلة جداً. الألفي بك كان يجب أن يأخذ مكانك. وما دام الأمر كذلك، فإننا سنعمل على معالجته.

مد كفه للفتاة، وساعدها في النزول من الكفة.

- انظري. لقد بقي تماماً ما يعادل وزن مولود جديد. أنا لا أعرف ما الذي يخبئه لي المستقبل. اسمحي لي أيضاً أن أستبق الأحداث. باقي الأحجار

الكريمة، هو من نصيب مولودك القادم. وليمنحه رب العالمين السعادة والعافية.

وصباح الغد، كان يوسف - الذي لم يكن في أية لحظة مغفلاً - هو من أوكلت إليه الحظوة الحزينة بأن يعلن للعائلة بأن الكنز الرائع الذي أهداه المملوك لم يكن يساوي شيئاً أكثر من جواهر زجاجية مبتذلة. وقد لزم ميشيل كثيراً من الصبر والدبلوماسية ليخفف من حالة الغضب الكبيرة التي انتابت شهرزاد. ولو لم يتم منعها، لكانت أسرعت إلى المملوك وجعلته يأكل أحجاره واحداً بعد الآخر.

في الساعات الأولى من شهر أبريل، علمت أنها حامل. ارتعبت من ذلك، بقدر ما دهشت. ستكبر حياة وترتعش في عمقها، ستسيل في شكل هلامي غير مرئي وستبرز يوماً من بطنها تامة التشكل، والتي لن تكون أي شيء آخر أقل من جزء منها، هي شهرزاد.

وكما كان منتظراً أقام ميشيل شلهوب بالصباح. وفي اليوم نفسه استقدم يوسف كاتباً، وعند مقدم الليل، كان القصر قد أصبح ملكاً لصهره وابنته. أما مزرعة الورود فأصبحت مُلكاً لنبيل.

- آمل أن تحسن استغلال هذه الأرض، قال يوسف. لا أحب بعد موتي - بعد عمر طويل إن شاء الله - أن يذبل قصر الصباح وأن يفقد جماله. حافظوا، وبعناية فائقة، على هذا القصر. حافظوا عليه مهما يكن الأمر. الذهب والمال والأحجار - فافترت شفتاه عن بسمة ساخرة - خصوصاً أحجار مراد بك، يمكنها أن تفقد قيمتها. والمجد ظرفي، ويمكنه أن يختفي مع أول غروب. أما الأرض فتواجه وتصمد في وجه كل شيء.

أقبل الربيع، ودخلت شهرزاد في شهرها الثالث. إذا مر كل شيء بشكل جيد، فإنها ستلد حوالى شهر ديسمبر. وربما أيضاً في أعياد الميلاد. وكانت هذه الفكرة تسعدها.

أحياناً، وعندما كان المساء ينصهر بين النخلات القديمة بالإقامة، كانت تجلس على درجات المدخل وترخي العنان لذهنها كي يتيه في تلك التحولات المصيرية التي دفعتها لتربط وجودها بوجود ميشيل.

هو كائن رائع. ليس في روحه مكان إلا للتسامح والطيبوبة. إنه،

بالتأكيد، كائن نادر. لكن، يا الله، لماذا لا تستطيع أن تحبه بالقوة نفسها التي يحبها بها، أو على الأقل أن تقترب من منتصف المسافة إلى حبه. لماذا لا تملك تلك القدرة التي كانت له على العطاء بكثافة ودون حدود. ومع انصرام الشهور، استشعرت من نفسها عدم قدرتها على الاهتزاز لأي شخص كان سوى كريم. كرهت نفسها من أجل ذلك. كانت تكره نفسها بالخصوص بسبب عجزها عن معرفة كيف تخنق كل تلك الذكريات المبهمة التي تزعج قلبها. كانت مع ذلك تقاوم. كانت تقاوم بكل ما أوتيت من قوة.

وفي اليوم الأول من مايو، استولى عليها الضيق، فخافوا على الجنين. أمر طبيب، نودي عليه على عجل، بالراحة التامة. منذئذ لزمت الفراش ولم تعد تغادر غرفتها إلا لماماً.

وبطبيعة الحال، فإن وحدتها في الفراش لم تعمل إلا على إحياء تفكيرها. كانت الصور الأولى هي صور ليلة زفافها التي عادت إلى ذهنها متقطعة. جسد ميشيل على جسدها. لفت رطوبة الجو الغرفة التي يمنحها شمعدان ضوء شحيح. وهذا الفم الذي لثم فمها، صحيح أنه لدن، لكن لم يحدث لديها لا انزعاجاً ولا ارتياحاً. فتحت فخذيها قليلاً بحركة طبيعية، كتلك الحركة التي قامت بها في بعض الأماسي وهي وحيدة، والتي كانت تدفعها بقوة إلى ملامسة النبع الذي تصعد منه كل المتع.

أثناء ملامساتها في وحدتها كانت دائماً تستشعر فقداً عزيزاً على الوصف. رؤية سفينة شراعية تبحر دون شراع، ولا يمكن أن يعوضه إلا رجل.

ولجها ميشيل. لم تعرب عن شيء. لا ألم ولا ارتياح. فقط حرقة وجيزة. سمعته يقول لها بأنه يحبها، وأنها وردته، ومعبودته. تمايلت شعلات الشمعدان المصفرة بفعل أنفاسه. انفصل عنها. عندما انتصبت واقفة، كان الإزار ملطخاً بقطرات من دم. لماذا تفكر في هذه اللحظة بالذات في مزرعة الورود؟

مالت، وهي ممددة على فراشها، على جنبها باحثة مرة أخرى عن أن تجعل الفراغ يحتل ذهنها.

ماذا لو لم تجد هذه المقاومة نفعاً؟ ماذا لو كان يوجد في ركن سري ما من دماغها أمر مَرَضي يشجعها على أن تتشبث إلى الأبد بالذكرى؛ كما لو أن حياتها، إن ألغيت هذه الذكرى، ليست سوى بيداء شاسعة.

كان اليوم هو ١٩ مايو، وبالنسبة للبعض ٣٠ فلوريال.

استطاع النوم أخيراً أن ينتصر على المعارك الدائرة في ذهن شهرزاد. ففرت في اتجاه فجر أكثر اطمئناناً.

وفي اللحظة نفسها، وعلى بعد آلاف الآلاف من ليل الصباح، كان أسطول بحري يغادر ميناء تولوز. كان طاقمه الأساسي فيه مكون من ١٣ سفينة و٧ فرقاطات و٨ قلعية وسميرية و٦ طرطن مدفعي و٤ منجنيقات. كان عدد السفن يقارب المائتين.

وعلى رأس هذه السفن، سفينة «الشرق» المسلحة بـ ١١٨ مدفعاً؛ وعلى متنها جندي متواضع يدعى فرانسوا مارتان نويل بيرنويي، قائد ورشة الإلباس في الجيش المتجه إلى مصر، فضلاً عن جنرال هو بونابرت.

عند مرورهم، لم يكن بالإمكان مشاهدة البحر، فقط السفن والسماء.

أربعون ألف رجل كانوا في طريقهم حاملين النار والدم إلى أرض الفرعون.

الجزء الثاني

الفصل العاشر

«بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه»

« من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر، أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض، كلها فأما رب العالمين القادر على كل شيء، فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فهذا كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا لهم أيضا إن الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا فيها بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب

المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيديرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها».

عند هذه النقطة من البلاغ، سأل الجندي المتواضع فرانسوا بيرنويي بأدب، الجنرال:

- ألا تعتقد بأن كل هذا ديماغوجي بعض الشيء؟

- لا يا صديقي. هذا دجل! يجب أن نكون دجالين! بهذه الطريقة ننجح!... أتابع:

«وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك. أيها المشايخ والقضاة والأئمة والشوربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام لله ملكه، ومع ذلك فإن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره، فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم، طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم، طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين إلى أحد الفريقين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر منها عسكر الفرنساوية، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية التي تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد لئلا يضيع شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالي البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً وتكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية». (*)

* * *

انتزع مراد بك البلاغ من يد روزيتي ومزقه جزءين، وقذف بالأوراق التي حلقت عبر الغرفة.

– هراء! هذه الكلمات ليست سوى هباء!

– لكن، سيدي، قال روزيتي بخفوت، لقد سقطت مالطة. وفي أيام سيكون الأسطول الفرنسي قبالة الأسكندرية. محمد كُريّم حاكم الإسكندرية يطلب المساعدة. يجب التصرف.

– هل فقدت صوابك يا كارلو! مالطة سقطت لأسباب يفهمها أي طفل صغير. عدد الجيوش المكلفة بحراسة الجزيرة لم تتجاوز يوماً ١٥٠٠ رجل. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الجيوش، كما هو معلوم للجميع، لم تكن لها أدنى تجربة عسكرية. ثم، وهو تفصيل ضروري، غالبية (حراس السيد العظيم) المشاهير هؤلاء، كانوا من أصول فرنسية ولم تكن لهم بالتأكيد نية المحاربة. أؤكد لك أنني، أنا بمفردي، مسلح ببندقية بدائية، أقدر على القيام بأكثر مما قام به فرنسيوك.

– مصر، سعادتك...

– وبالمقابل، ما الذي تريدنا أن نخشاه من هؤلاء الناس، خصوصاً وأنهم على صورة هؤلاء الخواجات الذين نجدهم هنا؟ عندما سينزل منهم ألف، يكفيني أن أرسل للقائهم تلاميذ المماليك الشباب، الذين سيقطعون رؤوسهم!

(*) الترجمة الأصلية للمنشور الفرنسي عن «عجائب الآثار» للجبرتي.

سنكسرهم بأسهل مما ينكسر به زجاج أوروبا.

- أنت مخطئ، يا مراد بك... أرجوك، استجب لطلب كُريّم. لا تستخف بنيران الفرنسيين.

استمر مراد في عناده وتابع دون أن يأخذ نَفَساً:

- واسطنبول؟ أتعتقد بأن الأتراك سيسمحون بهذا الإنزال؟ فحسب علمي، ما تزال مصر ولاية من ولايات الإمبراطورية.

- لا أعرف عن ذلك شيئاً، سعادتك. لقد قرأتَ البلاغ. فهذا الجنرال يراهن على اختلافكم. فهو بتأكيده على أنه لم يأت غازياً وإنما بوصفه صديقاً للسلطان، يعول على حياد الباب العالي. إن القضاء عليكم هو ما يعلن عنه وليس القضاء على العثمانيين.

- أكرر لك بأن ليس لي ما أخشاه من هؤلاء الناس. وإذا كان الموت هو ما يبحثون عنه فإنني أؤكد لك أنني سأجعله في متناولهم. والآن اتركني، فلدي ما أفعله. في هذه اللحظة، ليست السفن الفرنسية هي التي تؤرقني، وإنما العلماء.

استسلم القنصل:

- كما تشاء يا مراد. لكنني أنصحك، ابتداءً من هذه اللحظة، أن تصلّي بخشوع المؤمن الحقيقي. صدقت أم لم تصدق، فإن علم العدو سيرفرف على مدينة الإسكندرية ، يوم ١٠ يوليو.

* * *

لم يكن كارلو روزيتي قد أخطأ كثيراً في تقديراته؛ إذ ليس في يوم ١٠ يوليو، وإنما يوم فاتح يوليو صباحاً، أخذت السفن الفرنسية موضعها في الثغر، غرب الإسكندرية.

ففي الساعة ١١ مساءً، تماماً، أخذت القوارب الفرنسية تُنزَل إلى الماء وشرعت الجيوش تنزل بواسطتها. كان البحر هائجاً، فانقلبت كثير من الحمولات على الصخور. وفي الساعة الواحدة صباحاً خطا الجنرال بونابرت على الأرض المصرية. وفي الساعة الثالثة استعرض خمسة آلاف جندي ذوي معنويات منحطة. وفي الساعة الثالثة ونصف ولت الجيوش وجهها شطر الإسكندرية.

سارت فرقة (مينو) على الكثبان المجاورة للبحر، وسارت فرقة (بون) على حافة بركة مريوط، ومشت فرقة (كليبر) في الوسط. لم يكن قد أُنزل أي فرس. سار الجنرال القائد راجلاً، مثل قواده العسكريين. وكان الجنرال كفاريلي دي فالغا يتقدم على ساقه الخشبية.

قبل الفجر، ضايق بعض البدويين الجيش، والشيء نفسه قامت به فرقة من الخيالة قادمة من الإسكندرية بقيادة كشاف المنطقة. أُسر بعض من تأخر، ثم أُخلي سبيلهم بعد أن اغتصبوا. وعند انبثاق الصباح، وعلى رأس حوالى عشرين من المماليك، أغار حاكم الإسكندرية على فرقة الرماة المتقدمة، وقطع رأس قائدها وأخذه، ثم أجاله بشوارع المدينة تحميساً للجماهير.

تأمل الجنرال بونابرت مطولاً هذا المنظر الذي كان يتجزأ في ضوء الفجر المحمر. كانت المآذن والقباب تتكاثر خلف الأسوار. وقد يكون بونابرت قد قال لنفسه بأن شبح الإسكندر الأعظم قد بارك لتوه شبحه.

وعندما أدرك السور المسمى سور العرب، حاول أن يخطب في الناس؛ لكن الجماهير المتجمعة على الأسوار دعت إلى المقاومة. وبفعل ثلاث هجمات متزامنة، تداعت الحصون.

مع بداية الظهيرة، حدث تراشق قوي بالنيران في المدينة نفسها؛ فقد كانت الجماهير ما تزال تحاول أن تقاوم.

وعند المغيب، قرر السكان يقودهم الأعيان، أن يسلموا أنفسهم، مخذولين بقلة العدد والعتاد. وكان كُريّم آخر من أُسر.

أصيب كليبر في رأسه، أما إصابة مينو فكانت أقل خطورة.

وخلال الساعات التي أعقبت احتلال الإسكندرية، وبأمر من بونابرت، أخطر السكان بضرورة رفع العلم ذي الألوان الثلاثة.

* * *

- والآن يا مراد بك؟... سأل روزيتي ممتقعاً.

- اعلم أولاً أنني أرفض أي تعليق! وإذا كنت قد استقدمتك، فمن أجل إشراكك في بعض القرارات. لقد استدعيت الديوان. وسينعقد في أقل من ساعة. سيشارك فيه كل من الأمراء ورجال الدين الرئيسون والأعيان والحاكم العثماني بكر باشا.

- هذه خطوة حكيمة، لكن، وللأسف، فإنني لا أعتقد ان بإمكانها ان تفضي إلى شيء ذي بال. كان يجب التصرف قبل الآن. ومع كامل احترامي ف...

قاطعه المملوك بجفاء:

- ومن جهة أخرى، فإنني سأكتب لجنرال الجيوش الفرنسية.

- لأي هدف؟

- سأنذرهم بضرورة جمع أمورهم والانصراف فوراً من الإسكندرية.

حسِبَ روزيتي أن السمع خانه.

- أجل. سأمنحهم أربعاً وعشرين ساعة كي يجمعوا أمرهم ويعودوا إلى ديارهم.

- سعادتك! كيف يمكنك أن تعتقد للحظة بإمكانية إقناعهم بشيء مثل هذا! فهم لم يأتوا إلى هنا كي ينسحبوا من أول طلب!

ضغط مراد بك كفه وأشار بها نحو السماء.

- لكن، ما الذي يريده هؤلاء الكفار، هؤلاء الموتى جوعاً؟ أرسلوا إليهم بعض المال، وليرحلوا عن مصر!

- اسمح لي بأن أشير إلى أن هذا المبلغ لا يساوي حتى قيمة شحن سفينة صغيرة من السفن التي حملتهم.

- لم تجبني. ماذا يريدون؟ قد لا أكون مالكاً ربما لرقة الغرب، لكن لا أحد يستطيع أن يقنعني بأن كل هؤلاء الرجال قد تنقلوا من أجل قضية سوق وتجار!

ثبت روزيتي بصره بقسوة في وجه المملوك:

- لقد طرحت لتوك المشكلة الأساسية. إن هذا النقل للقوات يستهدف إنجلترا في إمبراطوريتها الهندية. مصر هي التي ستؤدي ثمن ذلك. لا، سعادتك. أكرر لك أن عليك أن تستعد للدفاع.

قطب مراد بك وجهه، منزعجاً، على ما يبدو، من نبرة صديقه.

- تعال، قال بصوت قاتم. ستنتظرني عند انفضاض الديوان.

كان أعضاء الديوان الجالسون على بساط سميك من الصوف، والذين دعوا

للاجتماع كلهم، يبدون مقطبين بفعل هذه الأيام القبيحة. كانت بقايا صبر تستنزف في مجمرة العطور. ومن بين الاثني عشر شخصاً الحاضرين، أمسك عشرة بمسبحاتهم وشرعوا يمررون الحبات بين السبابة والإبهام بفنّية وحذق. ومن بين كل هذه الشخصيات المهيبة، كان الشيخ السادات عميد جامعة الأزهر، يبدو أكثرهم تأثراً.

وجّه سبابته متّهِماً نحو مراد بك.

- أنت تتحمل كامل المسؤولية في الخطر الذي يتهددنا! فلو لم يكن جشعك قد قادك إلى توجيه هذه الإهانات المتكررة للتجار، لما كنا في هذا الموقف! أنت وأتباعك؛ إبراهيم والألفي والبرديسي والآخرون! سامحكم الله.

وبدلاً من أن يرد، مسد المملوك لحيته بعصبية. فقد كان على علم بسمعة الشيخ، كما كان على علم بقوته. فلم يجب بشيء.

استغل السادات ذلك فتابع بالحدّة نفسها:

- هل يمكنك أن تنفي أنك، من أسبوعين، قد أمرت أيضاً مغيان بتسليم ثلاثين حزمة من الأقمشة؟

سأل مراد ببراءة:

- ثلاثون حزمة؟ ماذا عساني أفعل بها؟

- أنت تعلم ذلك جيداً. كانت منذورة لتزيين إقامتك.

- ربما، فأنا ما عدت أذكر من ذلك شيئاً... وعلى أي حال، لكنت أديت الثمن. كما فعلت دائماً، على أي حال.

شرع السادات يستهزئ:

- لكنت أديت.... طبعاً. ولهذا السبب قلت لمغيان بأنك لا تملك فلساً واحداً.

- خطأ، يا شيخ السادات. لقد وعدت بتسديد ديوني بعد انطلاق القافلة إلى مكة.

- أعطيت كلمتك... قال السادات ساخراً... ونحن على علم بما تعنيه.

زم مراد شفتيه. سيؤدي الشيخ يوماً ثمن جرأته.

ثم هاجمه عالِم آخر بدوره:

- ثمة ما هو أفظع أيضاً من قضية الإهانات هذه! أنتم المماليك، لم تفكروا أبداً في حماية موانئنا. لقد تركتموها دائماً خالية من التحصين ومن المدفعية والرجال. بمثل عراء أعشاش العصافير. ولا يمكننا اليوم إلا أن نشهد نتائج إهمالكم.

ضم السادات مرارته لمرارة العالِم:

- عندما أفكر في الشجاعة التي أعرب عنها الشيخ كُريّم المسكين، مقاوماً مع أشد أهله حزماً في منارة الإسكندرية، وإلى آخر لحظة، أقول لنفسي إن هذه المجازفة لا وجود لها في ضمير مملوك.

- يكفي!

كان الألفي بك قد انتصب واقفاً محمر العينين.

- أيها الشقي! كيف تجرؤ على مؤاخذتنا بعدم تحصين موانئنا! فلو كنا فكرنا في ذلك فقط لكان هؤلاء - وأشار إلى العلماء باحتقار - قد اتهمونا بأننا نهيئ لتمرد ضد السلطان!

توقف لبرهة ثم انطلق نحو الحاكم العثماني.

- الواقع أن المسؤول الحقيقي عن مآسينا هو هذا! ما كان بإمكان الفرنسيين أن يأتوا إلى هذا البلد لولا مباركة الباب العالي، وبالضرورة أنت، بوصفك ممثلاً لاسطنبول. من المفروض أنك كنت على علم بمشاريعهم.

- بكل تأكيد! قال باقي المماليك على الفور. ليس في ذلك شك؛ هم هنا بمباركة من السلطان.

- عار! احتج بكر باشا.

وانتصب واقفاً معطياً الانطباع بأنه سيمزق ثيابه.

- ليس لكم الحق في أن تتحدثوا بمثل هذا الكلام! ما كان للباب العالي أن يسمح للفرنسيين باجتياح بلد إسلامي أبداً.

- يمكنك أن تقول ما تشاء، أصر إبراهيم بك، واعلم فقط أن القدر سيساعدنا ضدكم وضدهم.

تظاهر الحاكم بمظهر المجروح المحطم.

- اسحب مثل هذا الكلام يا إبراهيم. فهو ليس جدير بك.

صمت، ثم تابع بصوت بدا جاداً:

- وكي أثبت لكم أن العثمانيين لا دخل لهم في هذا الاجتياح، فإنني سأكتب للباب وأطلب باستعجال عون سيدنا. أما بالنسبة إليكم، فإنني أدعوكم، عوض أن تتطاحنوا فيما بينكم، أن تثبتوا بأنكم شجعان. انهضوا بإقدام كعهدي بكم، واستعدوا للقتال وللمقاومة بالقوة، ثم سلموا أمركم لله.

أعقب كلام الحاكم بصمت طويل. لم يعد يسمع سوى انسياب حبات السبحات. وبدا أن لا أحد يعرف كيف يتصرف.

اغتنم الباشا الفرصة كي يتابع بنبرة أقل حماساً لكن حاسمة:

- إذا قبلتم نصائحي، اسمحوا لي بأن أشير إلى تفصيل أكثر جدية من هذه الادعاءات المغرضة.

- تفصيل، همهم السادات، نحن محاصرون بالتفاصيل.

- أنا متأكد أن هذا التفصيل سيحظى باهتمامكم الكامل. يتعلق الأمر بمصير المسيحيين والأوروبيين الذين يقطنون القاهرة. إذا تركنا هؤلاء الناس أحراراً، فإنهم سيشكلون تهديداً داخل العاصمة.

- بكر باشا محقّ! نطق أحدهم وكان قد لاذ بالصمت حتى اللحظة، إنه عمر مكرم نقيب الشرفاء، ثم تابع: قد يكلفنا غالياً أن نترك المسيحيين والأوروبيين أحراراً. وفي النهاية، أليس من احتلوا أرضنا ينتمون إلى الدم نفسه؟

- ممتاز! أكد أحد العلماء. علينا أن نتخلص منهم في أقرب الآجال.

فاقترح الألفي بك ببرود:

- لنجتثهم إذن.

- عظيم! أكدت غالبية الديوان المجتمع بتعالُم. هذا سيشحذ سيوفنا.

سرى بين الحاضرين اعتمال ظاهر، لسماعهم الفكرة - وإن لم يكن الهدف المقصود يشكل العدو الحقيقي. فتعاقبت الاقتراحات الأشد حمقاً حول وسائل تنفيذ القضاء على أكبر عدد من الكفار في أوجز وقت. وقد لزمت كل دبلوماسية بكر باشا - التي أتت خلاف التوقعات - وتصميم مراد بك وإبراهيم، كي تعاد الأذهان الساخنة إلى صوابها.

- انسوا هذا المشروع، ألح بكر باشا للمرة الأخيرة. فهو يعارض كل المبادئ الأساسية للسياسة العثمانية. فهؤلاء المسيحيون هم قبل أي شيء، رعايا عاهلنا مولانا السلطان، صاحب المجد والعظمة. وعلى أي حال، فإن هؤلاء الناس يمثلون عدداً لا قيمة له. ثمانون على الأكثر. خمس عائلات فينيسية وليفورنية واثنتان أو ثلاث إنجليزية.

- حسناً، قال ممثل الشرفاء متأسفاً، ماذا تقترحون إذن؟ فنحن، على أي حال، لن نترك هؤلاء الأشخاص يطعنوننا من الخلف ونحن نقاتل.

- القلعة، اقترح بكر. سنُدخل إليها أكثر الأوروبيين بروزاً، وكذلك وجهاء المسيحيين. فبحبسهم خلف حواجز، لن يكون بإمكانهم فعل شيء ضدنا.

بعد أن لقي اقتراح الباشا بعض الانتقادات في البداية، انتهى بأن تمت الموافقة عليه بالإجماع.

- لقد حُلّت إذن مشكلة الأوروبيين، قال الشيخ السادات. والمحتل، من سيتكفل بوقف زحفه؟

وضع مراد بك سبحته ذات حبات الجوهر في تجويف راحته وانتصب واقفاً.

- أنا، أنا وأسطولي. سأعطي الأوامر فوراً لبحارتي بأن يصعدوا الوادي. وإذا قرر جيش العدو أن يزحف على القاهرة، فإنه لن يستطيع تحاشي قرية شبرا. هناك توجد عقفة. وهناك سأواجههم.

- في النهر؟ سأل السادات قلقاً.

- نعم أيها الشيخ الجليل، أكد مراد بحقد مكين، في النهر. المشاة الفرنسيون - وأنت تجهل ذلك بالتأكيد - سيكونون مؤازرين بزوارق مدفعية. هذه هي التي سأقضي عليها في البداية. هذا - وفصل بين حروف الكلمات الأخيرة - رغم أن همتي كمملوك مجردة من الجرأة.

أتى دور الباشا ليندهش.

- ستة زوارق؟ لكن، سعادتك، كيف أمكنك أن تكون متاكداً من العدد إلى هذه الدرجة؟

تقمص مراد إهاباً متعاظماً.

- اعلم أن لا ورقة تسقط من شجرة في مصر دون أن يكون لي علم بها.

مال في اتجاه السادات وتابع بمكر:

- لحسن الحظ، تبقى لنا الحيلة في غياب الشجاعة.

كان روزيتي، كما هو منتظر، ينتظره عند خروجه من الديوان.

- ماذا؟ سأل القنصل بلهفة.

- كلهم ثعالب... ويوماً سأصفي معهم الحساب. في اللحظة الراهنة، أهم شيء: ابتداءً من هذه اللحظة، سيُسْجَن الأوروبيون والمسيحيون الأكثر بروزاً في القلعة.

جحظت عينا روزيتي:

- ماذا؟ لكن هذا غير معقول!

وضع مراد كفه على كتف الفينيسي.

- كارلو. إما الحجز أو القتل بالنسبة إليكم جميعاً.

* * *

- لا مجال لأن يغادر أي فرد من أفراد عائلتي قصر الصباح. لا مجال!

وكي يؤكد يوسف على تصميمه، ضرب بقبضة يده على المائدة النحاسية.

كان ميشيل وشهرزاد ونادية ينظرون إلى روزيتي بريبة متزايدة. نبيل وحده كان يبدو متحكماً في نفسه.

- لقد جازفت كي آتي أخبركم، ألح القنصل. كونوا عاقلين، أرجوكم. إذا مكثتم في الصباح، كل شيء يمكن أن يحدث. ففي الأيام القادمة ستكونون أول من يعاني من خلط المسلمين.

- هذا مستحيل! صاح يوسف. مسيحيون أو مسلمون، كلهم أبناء مصر! الشعب لا يتحرك إلا إذا أثيرت كراهيته. لقد عشنا دائماً في وئام كامل. كل هذا ليس إلا من فعل الأتراك والمماليك الكلاب.

- سامحني، لكنك تنحرف عن الموضوع. نحن في حالة حرب. لقد استولى الفرنسيون على الإسكندرية. وحصن أبو قير قد احتل. وقبل أقل من ساعة، وبينما كنت في طريقي إلى الجيزة، أُخطرت بسقوط رشيد. طريق النيل من الآن فصاعداً تحت تصرف بونابرت. وأمام هذا التدفق - وكي أستعمل

كلماتك - ليس أمامنا سوى هؤلاء (المماليك الكلاب) ليحمونا. لقد وقف مراد بك في المقدمة. إن أسطوله يتجه الآن أثناء حديثي معكم إلى شبرا. هل هذا واضح؟

- الأسطول؟ قالت شهرزاد مدهوشة.

- أجل. فالبك سيحاول أن يوقف تقدم العدو.

- الأسطول... كررت الشابة بصوت غير مسموع.

وتصورت، في ذهنها، الصراخ والعنف، وابن سليمان.

الفصل الحادي عشر

تأمل الفرنسي بيرنويي شساعة الصحراء. على مدى البصر، لم يكن ثمة سوى جدب وتيبس. ولا مكان للاستظلال. سهل شاسع من الرمال اليابسة.

الجثة المشوهة لجندي دراكون فرنسي قتله البدويون ممددة أمامه. لم تبد عليه المفاجأة. فقد أصبح هذا أمراً معتاداً منذ أن غادر الإسكندرية. وسَّع من خطوه. ودون أن يعلم لذلك سبباً، شرعت تعاوده كلمات من الخطاب الذي ألقاه الجنرال بونابرت قبل انطلاقهم من تولون: إنني أعد كل جندي بأنه سيكون في ملكه، عند عودة البعثة، ما يستطيع أن يشتري به ستة فدادين.

كانت رئتاه متيبستين من جراء ثلاثة أيام من المشي، مسحوقاً من العطش والتعب. تشبث فرانسوا بتلك الفكرة؛ فكرة زوجته التي تنتظره بمنزلهما الهادئ بأفينيون، المحفوف بأناشيد زيز الحصاد والصنوبر الظليل.

كان الجيش يتقدم منتظماً في صفين، دون مؤونة تقريباً.

كانت الحمير في الخلف تتابع المشي بصعوبة. ومن الغريب أن هذا الوصف لم يكن ينطبق على الدواب بل على المدنيين الذين كانوا يرافقون الجنود. فلسبب لم يكن بيرنويي قد تمثله بعدُ، كان الجنرال القائد قد استقدم معه ثلة من العلماء ينضوون تحت نعت (بعثة علمية). كان ضمنها أكاديميون ومهندسون وعلماء طبيعة ورياضيون، وكانت غالبيتهم آتية من مدرسة البوليتكنيك حديثة النشأة. لقد كانت البعثة مشكلة من تلك الأدمغة الأشد نباهة، والذين أطلق عليهم الجنود اسم أبلد الحيوانات من ذوات الأربع. إذ عندما لاحظ الجنود أنه حيثما كان هؤلاء الأشخاص يلاقون المآثر القديمة، كانوا يتوقفون لفحصها بعناية، استنتجوا بأنهم قد يكونون وراء هذه البعثة، وأنهم، بالنتيجة،

مسؤولون عن الشرور التي يعانونها؛ أصبح هؤلاء العلماء، من لحظتئذ، حميراً، وأصبح اسم الحمير الحقيقيين علماء.

أثارت انتفاضة في صفوف الجنود اهتمام بيرنويي. ومع مطلع الشمس انبثقت مجموعة من الخيالة مشكلة من البدويين. تجمع الصف. تُركوا يقتربون حتى أصبحوا في متناول المدفعية، ثم أُطلقت النار. ومع أول طلقة، تفرقوا. عادوا بعد لحظات، وبلغت بهم الجرأة حد إحداث بلبلة في الصفوف. ومن جديد، أرغمتهم المدفعية على التفرق.

تابع بيرنويي المشي. كانت ركبتاه ترتعشان من الخور. بحث عن القنينة الصغيرة المربوطة إلى حزامه، وأمال رأسه إلى الخلف مستدراً آخر قطرات الماء. لقد كان على علم، مع ذلك، بأن القنينة كانت فارغة منذ ست ساعات مضت.

أمس، كانوا قد توقفوا قرب بئرين كان الجنرال دوزيكس قد نظفهما. استنزف البئران بسرعة فائقة. وفي تدافع فظيع، كان الجنود قد تزاحموا كي ينزلوا إلى قعر البئرين؛ فمات غالبيتهم خنقاً، وسَحقاً. وآخرون أيضاً، انتحروا من يأسهم من الحصول على ماء.

خار الجندي الذي كان يمشي إلى جانبه، غير قادر على المقاومة، على شفتيه رغوة كثيفة.

* * *

قرية تعقب أخرى. ولكون هذه القرى تعيش حالة رثة من الفقر والفاقة، فإنها لم تكن تمكن من أي حظ في التبضع، إذ كانت من الإملاق بحيث لم تكن تستطيع أن توفر حتى حاجة نفسها. حدثت حالات سلب أمام أنظار الضباط العاجزين. كانوا يحطمون ويسلبون. وفر القرويون في مجموعات إلى مناطق مجهولة في الصحراء.

قُتل مرافق لأنه تقدم أكثر مما يجب. امرأة، حاملة طفلاً بين ذراعيها، هي التي سملت عينيه بسكين كبيرة، فأُطلقت عليها النار فوراً.

كانوا قد غادروا الإسكندرية يوم ٤ يوليو فجراً. وكان اليوم هو ١٠ يوليو. حوالى الثانية بعد الزوال، حصل لفرنسوا الانطباع بأنه فريسة هلوسة،

فريسة سراب آخر: كان الشريط اللامع للنيل يمتد مستقيماً أمامه. وعلى إحدى ضفتيه، كان ممكناً مشاهدة الضواحي البائسة لقرية الرحمانية.

صعدت صيحات نساء نحو السماء. وفر السكان مثيرين وراءهم سحباً من الغبار.

عندما ولج الجيش البلدة، وجدها خالية تماماً، مجردة من أية مؤونة. إذن، وفي مثل هذه الحركات التي لا يمكن إلا للغضب والعنف أن يفسراها، يتم الانتقام بإضرام النيران في المساكن. بعد حوالى ساعتين تحولت الرحمانية إلى أطلال.

مع ذلك خيم الجنود فيها.

تنقل فرانسوا بيرنويي عبر الخرائب برفقة بعض الضباط من اللواء الخفيف ٢٢ وكأنه كلب صيد. وعلى سطح منزل نجا من النار، عثر على نصف كيس من القمح، فأخذ يطحنه بالحجارة مع رفاقه، ثم عجنه على صفيحة . فصنعوا قطعاً صغيرة من الخبز طهوها على الجمر، فلم يبد له المثل (ما حك جلدك مثل ظفرك) أكثر صدقا من هذه اللحظة.

بعد ذلك بحوالى عشرين ساعة التحق بهم، على النهر، الأسطول المشكل من زورقين حربيين ومن سفينتين شراعيتين حربيتين صغيرتين ومن حوالى عشرين سفينة شحن معبأة بالمواد الغذائية. وكان الأسطول بقيادة ربان السفينة بيري.

* * *

خطب بونابرت ثانية. الشيء الوحيد الذي احتفظ به فرانسوا من كلماته النارية، هو أن معاناتهم ليست على وشك الانتهاء، وأن هناك معارك أخرى يجب خوضها، وصحاريَ عليهم عبورها. لكن، بمجرد وصولهم إلى القاهرة، سيعثرون أخيراً على كل الخبز الذي يحتاجون إليه. ففكر فرانسوا - ببعض السذاجة من غير شك - في أنه كان ممكناً إجابة الجنرال القائد بأنه لم يكن ثمة من داعٍ لأخذهم حتى إفريقيا ليتزودوا بما تمنحه أوروبا بوفرة. تخلى عن غيظه، وذهبَ ليتقرفص على ضفة النيل، فرشّ الماء على نفسه بقبضتيه المترعتين مرات عديدة.

وفي هذه اللحظة بالذات، قيل له إن الآمر قد وضعه على لائحة أولئك

الذين سيستقلون الأسطول. غمره هذا النبأ سعادة، لأنه لن يمشي بعد الآن على قدميه ولن يحمل همّ قوته.

ركبوا، في اليوم الموالي، مع مطلع النهار، وشرعوا يصعدون النيل. وسرعان ما هبت رياح مواتية جعلتهم يتجاوزون الجنود المشاة. فوجد الأسطول نفسه وحيداً دون حماية.

* * *

في ظل قرية شبرا، مقرفصاً خلف أحد مدافع زورق المقدمة، كان كريم يرصد بنفاد صبر أسطول العدو. كان يبلع بصعوبة ريقه، وقد تيبست شفتاه. كان يشعر بفمه مغموراً رماداً. ربما كان ذاك هو طعم الخوف.

- Ti kaniss pedimou? (هل كلّ شيء على ما يرام، يا صغيري؟)

رفع كريم بصره إلى باباس أوغلو. كان الإغريقي في حال رائق؛ هادئ بشكل غريب، حتى لتخاله غير ذاهب لمواجهة الموت.

- كل شيء على ما يرام، يا نيكوس. فقط أجد مرور الوقت بطيئاً.

- لست الوحيد. لكنني أعتقد أن كل شيء سيمر بسرعة الآن. الفرنسيون ما عادوا بعيدين. نحن في انتظار إشارة مراد.

فرفع يده تجاه جانب من الجرف.

- أنظر... أليسوا رائعين؟

كان ألف فارس من المماليك، متألقين تحت الشمس الحارقة، بقيادة مراد، ينتظرون أمام القرية. كانوا، بملابسهم متعددة الألوان، وبأسلحتهم البراقة، يشكلون منظراً هائلاً. كانت أسلحة هؤلاء الرجال المكونة من طبنجة وقربينة ومسدسين، واحد بقربوس السرج والآخر على الصدر، وحسام قاطع، تجعل منهم ترسانة حقيقية متحركة. وعند قدم كل واحد منهم، كان يقف مساعد مستعد لإعادة تعبئة أسلحة سيده لتمكينه من أن يعاود الهجوم بيسر.

إن ما كان لافتاً في مجمل جياد هؤلاء الفرسان هو بالخصوص الطريقة التي أعدت بها. جياد رقيقة، رشيقة، نبيلة، ذات إهاب رائع.

من السرج إلى الركاب، لم يكن شيئاً عادياً؛ القربوس الخلفي أعلى من المعتاد، فكان الفارس نتيجة لذلك مشدوداً، مسنوداً من كل جانب، مما كان يمكنه من تحاشي السقوط في حال الإصابة.

كان الرِّكاب مشكلاً من صفيحة نحاسية أطول وأعرض من القدم. وحواشيه المنتصبة تخز خاصرة الدابة مثل مهماز، ويمكنها أثناء المعركة أن تصيب العدو وفرسه.

اللجام بدوره كان غير عاديّ؛ فقد صنع الخطام بحيث إن الفرس، بمجرد أن يرفع المملوك العنان، يشعر بألم قوي، فيقف على الفور. وبذلك يكون خضوع المطية للفارس خضوعاً تاماً.

يُضاف إلى كل ما سبق، رفاه غير مسبوق: السرج واللجام مغلف بالفضة، والركاب مذهب، والمسدسات والسيوف مُدَمْشَقة. كان لمعان الذهب والفضة يصدر من كل جانب من جوانب طواقم الجياد، حتى لَيَخلبَ الأبصار.

- صحيح، أكد كريم بإعجاب. إنهم متفردون. منظرهم وحده يكفي ليتقهقر الفرنسيون، دون أن ننسى هذا...

وأشار إلى سرية المدفعية المتمركزة على الضفة اليمنى التي تغطي النهر لفراسخ عدة.

كان باباس أوغلو على وشك أن يجيب، عندما دوى صوت مراد بك:

- إنهم آتون يا نيكوس!

* * *

ظن فرانسوا أن طوفاناً من نار يتساقط من السماء.

حتى تلك اللحظة، كان كل اهتمامهم منصباً على هذه الخيالة المملوكية التي كانت منتشرة على طول النهر، والتي لم يحملها أحد محمل الجد. وكان أكثرهم استخفافاً بها هو الجنرال ياونسكي الذي كان يقود سفينة المدفعية والذي كان يستهزئ بكل تلك الحركة. «انتظروا، كان قد قال، حتى يصبحوا في متناول مدافعنا وسنتسلى بمفاجأتهم. سيكتشف هؤلاء الهمج المدفعية».

لم يقترب المماليك. والمدفعية التي كانت تجلجل، كانت مدفعية العدو.

اجتاحت رياح الرعب الأسطول. تسارع البحارة الترك المحتجزون بالإسكندرية إلى النهر، الواحد تلو الآخر، مفضلين أن يصبحوا فريسة للماء على أن يكونوا فريسة للمماليك.

كانت الدهشة قد عقدت لسان الجنرال ياونسكي.

على بعد قوسين كانت سفينة قادس صغيرة قد هوجمت لتوها، فضربت أعناق طاقمها فوراً، وعرضت الرؤوس المدماة على أطراف الرماح. وبالمقابل كان سنبك قبطان البحرية بيري، يقاوم ببسالة.

وعبر ستار من دخان، لمح فرانسوا زورقاً عدواً يستعد لإطلاق النار. وكان زورق مدفعيته هو المستهدف.

واقفاً أمام مدفع الميمنة، استطاع أن يميز بوضوح الرجل الذي كان يستعد لإشعال الفتيل. عربي، طويل القامة، في الخامسة والعشرين من عمره على أكبر تقدير. جسد ممتد ومفتول العضلات. وفي لمح البصر، تقاطعت نظرة الشاب مع نظرة بيرنويي. وفي الوقت نفسه انطلقت قنبلة أصابت المركب الفرنسي من أدناه إلى أقصاه.

ارتطم ماء النهر بجلبة على ظهر المركب. فتخلص فرانسوا من جزمته دون تردد وغطس في النيل. وفي تلك اللحظة تذكر بأنه لم يسبق له أن سبح. لكن في مثل هذه الحالات، تمكن غريزة الحياة الإنسان من كل القدرات.

أدرك مركباً من مراكب بني جلدته وطلب أن يساعدوه على الصعود على متنه؛ لكن طلبه قوبل بالرفض بدعوى أن الحمولة زائدة. فتم صده دون شفقة. ومع فقده الأمل تشبث بحبل القلوس، لكن سرعان ما خارت قواه فأوشك أن يترك الحبل. كان الرعب حوله عاماً. كانت تسمع أصوات احتضار رجال أسرهم العدو، فذبحوا بلا رأفة. كان رجال السفن يسقطون تباعاً في يد الخصم.

بأي مصير سعيد أنقذ بيرنويي؟ ليس باستطاعته أن يصف ذلك. انتشلته يد وجرّته حتى الشاطئ حيث أوقف على قدميه.

كان قائد خيالة قد اتخذ مبادرة انتشال من ما يزالون على قيد الحياة. ربما كان يأمل من ذلك دفع هجوم جديد، أو الحيلولة دون إنزال جديد. مع ذلك، وبالرغم من البسالة التي أبداها هذا القائد غير المنتظر، فإن فرانسوا ظل متيقناً من أن نهايته باتت قريبة. فخلف التلال، كانت فرقة خيالة المماليك الضخمة تستعد للانقضاض.

كان الجنرال ياونسكي القريب جداً منه، ما يزال متجاوزاً بما يحصل. كان مسدسان معلقين إلى حزامه. أمسك فرانسوا بأحدهما دون تردد. كان قد اتخذ

قراره. في اللحظة التي تهجم فيها فرقة الخيالة، سيطلق النار على رأسه.
وإذن، فقد حصلت المعجزة.
من الاتجاه المقابل، كانت قد بدت طلائع الجيش الذي يقوده الجنرال القائد. ثم ظهرت خمس فرق في المجموع بين الكثبان.
وأمام النظر الزائغ لفرانسوا بيرنويي، انتظمت الفرق في شكل مربع، المدافع في الزوايا، ورجال السفن والخيالة محميون في الوسط.
انتقل بصره، بالطبع، في اتجاه المماليك فعجب من أن رأى أنهم، عوض أن يفروا أمام أعداد مخيفة مثل هذه، تراجعوا، مستعدين للانطلاق بأقصى سرعة، والرماح في أيديهم.
وهذا ما فعلوه.
في خضم زوبعة رملية، انقذف الفرسان، على رأسهم قائدهم، على المربعات آملين من غير شك أن يكسروها بفعل الصدمة. شُبِّه لبيرنويي أنه سمع شخصاً يقسم بأنه لم ير قط خلال كل مساره العسكري هجمة بهذه الصلابة.
دوت طلقة مدفعية أولى مع طلقات بنادق متزامنة، في اتجاه أمواج المماليك. ، تابع الذين أخطأهم الرصاص منهم عدوهم وأقبلوا ليقتلوا أمام الحواجز الصلبة للحراب. منذ تلك اللحظة، ما عادت مجموعة الخيالة المعتدة بنفسها تشكل لحمة متجانسة؛ شرعت تتخبط مترددة حول تشكيلة المربعات. وعمل بعضهم على الالتفاف حولها على أمل أن يعثر فيها على نقطة ضعف، لكن سدىً. وكانت نيران الفرق العسكرية المتقاطعة تحصدهم دون هوادة.
مع ذلك، وببطولة نادرة، كانوا يعودون للهجوم، كرة بعد كرة. ورغم أن بعضهم قد أصيب إصابات قاتلة، كان يجد القوة حتى ليزحف على صفوف العدو في محاولة للفوز بضربة سيف أو خنجر أخيرة.
وعندما انتهت المعركة، خلف المماليك وراءهم ثلاثمائة من فرسانهم الشجعان. وللمرة الأولى جابهم جنود الإنكشارية بهجماتهم القوية بلا هوادة.
عند مقدم الظلام، كان الجندي بيرنويي، ملفوفاً في معطفه، ينام وقد تخفف قلبه من ضغطه.

* * *

قضى الجيش الفرنسي يوم ١٤ يوليو ليلته في شادور. وفي اليوم الموالي اتخذ طريق القاهرة.

كانوا يسرعون الخطو تحت الشمس المحرقة. أبادوا بلا رحمة قرى بأكملها ليضربوا مثلاً مرعباً لهذا البلد نصف المتوحش والبربري.

وصلوا يوم يوليو ١٩ إلى وردان.

سمع فرانسوا بيرنويي الوسن في زاوية من المخيم جلبة أصوات، ميز منها على الفور صوت الجنرال القائد. كان محاطاً بجونو وبرتيي ومرافقه جوليان.

رآه يلتفت فجأة نحو خيالٍ ظلٍّ متأخراً، تعرف فيه على بورين.

- لست مرتبطاً بي البتة. النساء!... جوزفين!... لو كنت مرتبطاً بي لكنت أخطرتني بكل ما علمت به لتوي من طرف جونو: ها هو ذا صديق حقيقي. جوزفين!... وأنا على بعد ستمائة فرسخ... كان عليك أن تعلمني بذلك!... جوزفين، قد خانتني!... هي!... الويل لهم!... سأجتث هذا العرق من الحقراء والمخنثين!... أما بالنسبة إليها! فالطلاق! أجل، الطلاق! طلاق عمومي، مدوي!... علي أن اكتب! أعرف كل شيء!... هذا خطؤك، يا بورين، كان عليك أن تعلمني بذلك!

وقال فرانسوا لنفسه إن للجنرال القائد في هذه اللحظات اهتمامات غريبة جداً.

* * *

تاه كريم الذي تمدد في مؤخرة الزورق بأفكاره مع النجوم. كانت ثيابه قد أضحت أسمالاً. تنبعث رائحة البارود من يديه ومن شعره. منذ فراره من شبرا وهو يستعيد في ذهنه مشاهد المعركة. رأى بوضوح كامل الرعب المرتسم على محيا ذلك الجندي الفرنسي، في اللحظة التي كان سيطلق فيها النار. كان مركب العدو قد تناثر أشلاءً. وكان الجندي قد قفز إلى الماء.

لا يهم ما إذا كان مراد بك قد خسر معركة شبرا.

القوات البحرية، من جهتها، نالت نصرها.

الفصل الثاني عشر

- كريم حي، قال يوسف، وهو يلج غرفة النوم.

كانت شهرزاد، التي بدت متعبة، ممددة على الفراش، وقد جلس زوجها قريباً منها. أطلقت تنهيدة ارتياح وهي تلامس بلطف كتفه.

مثل كل سكان القاهرة، كانت شهرزاد قد علمت بخبر هزيمة شبرا واندحار مراد بك. من لحظتئذ عاشت لحظات غير عادية وقد تشوش بالها بالخوف من فقدان الابن الذي في بطنها، مرددة بأن مكروهاً ما قد يكون أصاب كريم. تنهدت ثانية، وقد تخلص صدرها جزئياً ممّا به.

أوضح يوسف:

- أخذت معلوماتي مباشرة من فم الألفي بك. لقد أكد لي أن غالبية بحارة الأسطول سالمون. لكنه لا يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الخيالة. يتحدثون عن ثلاثمائة قتيل.

سأل ميشيل:

- أبواي، هل تمكنت من الاتصال بهما؟

- اطمئن. سيكونان بيننا بدءاً من هذا المساء. لقد وجدت، مع ذلك، صعوبة بالغة في إقناعهما، وكانت لديهما نية للذهاب إلى المنيا، إلى منزل عمك.

- الحمد لله. لك كل الشكر يا أبي.

سألت شهرزاد بصوت ضعيف:

- ما الذي سيحدث الآن؟

- لا علم لي يا بنيتي. أخشى ما أخشاه أن تكون الأيام القادمة محملة بالأحزان.

- سيقاتلون، على أي حال. فهم لن يتركوا القاهرة تسقط مثل ثمرة ناضجة!

- يجب أن أقول إن غموضاً كبيراً يسود الآن. نحن نعلم أن العدو اتخذ طريقه، لكننا نجهل من أي جانب من النهر سيأتي. وأعتقد أنني قد فهمت أن المماليك قد قرروا إحداث مقاطعات على الضفتين، أمام القاهرة. سيتكفل إبراهيم بالضفة اليمنى ومراد بالضفة اليسرى. وكل الناس...

- مراد؟ قاطعته شهرزاد. مما يعني أن الأسطول سيقاتل من جديد؟

- لقد تصرف، على ما يبدو، بشكل جيد في شبرا. ولا أرى كيف يمكن لمراد بك أن يحرم نفسه منه.

- بالتأكيد، قالت شهرزاد، وعيناها تنظران إلى الفراغ.

رماها ميشيل بنظرة غريبة.

ها هي قد عادت من جديد قضية الأسطول هذه. لكن، بحق الشيطان، في أي شيء يهمها هؤلاء الشبراويون؟ وأقسم أن يسألها عن ذلك بمجرد ما تحين الفرصة.

- كيف هو رد فعل الشعب؟ سأل وقد عاد إلى نفسه.

- الأسواق مقفلة، وأكثر الإشاعات حمقاً تشيع بين الناس. وقد صعد نقيب الشرفاء إلى القلعة، وتفقد سرادقها الضخم. توجه بعد ذلك إلى بولاق، محاطاً بآلاف من الرجال المسلحين بالعصي والهراوات، وهم يرددون دعوات ويناشدون الله بأن يتم تحقيق النصر على الفرنسيين.

اعتدلت شهرزاد، منهوكة القوى، وتهالكت على رأس السرير.

- والمسيحيون؟ الأوروبيون الذين تحدث عنهم روزيتي؟ هل تعرضوا لهجمات؟

- لا علم لي. غالبية الغربيين محتجزون الآن في القلعة. والآخرون، وهذا هو المدهش ربما، قد لاقوا الحماية في إقامة الست نفيسة.

- أوروبيون في بيت الست نفيسة؟ سأل ميشيل مدهوشاً. هذا لم أسمع به من قبل. ليس من بينهم فرنسيون على أي حال!

- لا تتوهم. لقد فتحت بيتها للجميع. والفرنسيون من بينهم.
- لأي سبب فعلت ذلك؟ أليس زوجها آخذاً في محاربة هؤلاء؟
علقت شهرزاد:
- يا ميشيل، أنت لم تعرف البيضاء بما فيه الكفاية. إنها شخصية متميزة. أعتقد أنها إن كانت قد قررت مساعدة الأجانب، فلأنها قد قدرت بأنه ليس على المدنيين أن يعانوا من نتائج حرب قررها الأقوياء. وفضلاً عن ذلك، فإن الجميع يعلم أنها تحمل قلباً من ذهب. وعليك أن ترى عدد المرات التي تدخلت فيها لصالح شارل مغيان.
- هذا لا يمنع... إذا علم مراد بك بذلك، فإنني أتساءل كيف سيكون رد فعله.
قال يوسف:
- كما كان دائماً، سيصرخ، وسيكثر من الحركات، وسينتهي للخضوع لتفسيرات محظيته.
- ونحن، يا أبي؟ قالت شهرزاد قلقة. ألا نخاطر بالبقاء هنا؟
- لن نغادر قصر الصباح. كان هذا هو الجواب الوحيد للعجوز.
ران صمت قصير.
سألت ثانية:
- في أي يوم نحن؟
- ٢٠ يوليو. لماذا؟
مررت المرأة الشابة راحتها على بطنها.
- بعد ثمانية أيام، سألج شهري الرابع...

* * *

كان يوم ٢١، أكثر لطفاً من سابقيه. للمرة الأولى، منذ أسابيع، استفاقت شهرزاد وهي تشعر بجوع حاد. كانت حالة القلق التي لم تكد تفارقها مؤخراً، قد انقشعت فاستعادت ألوانها.
غادرت الفراش وسحبت الستائر المخملية.
كان قصر الصباح يتألق أمام بصرها تحت شمس رائعة. كانت جداثل

شجر النخيل ترتعش ارتعاشة خفيفة، وكان سرب حمام محلق يخط سطراً في السماء شديدة الزرقة.

فتحت النافذة على مصراعيها، واستنشقت ملء رئتيها رائحة الأرض المثملة. لف سكون نادر المنظر أمامها، وأبرز شعور بالأمان الحضورَ البعيد لكن المطمئنَ للأهرام.

الناس يخشون الزمن، والزمن يخشى الأهرام.

كانت هذه الجملة تروقها دائماً، وعليها أن تعثر يوماً على أصلها.

لم يكن لفكرة الحرب أي أثر على هذا المنظر الرائق. أبوها محق. لا منفذ للموت هنا في الصباح. كان قصر الصباح الواحة الأكثر حظوة.

تابعت للحظة تأمل المنظر. وفي اللحظة التي رامت مفارقته، أثار فضولها أمر ما. عنصر جديد أقبل ليرتسم في الأفق. سحابة رمل كثيفة ارتفعت شمال الصرح الصخري الرهيب. لا بد لهذه الزوبعة الرملية أن تكون كبيرة وإلا لما أمكن رؤيتها من هنا.

فركت عينيها. هل هي عودة للخمسين؟ سيكون أمراً غريباً. لقد هبت طوال شهر يونيو. تأملت الأشجار. كان النسيم يهب، لكن ليس بتلك القوة حتى يثير كل هذا النقع. هل هي قافلة ربما... بدو؟

ارتدت جلابية وخفين، ونزلت إلى المطبخ.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحاً.

* * *

تحت سحابة الرمال التي رمقتها شهرزاد قريباً من قرية إمبابة، كان الكولونيل شالبراند يقسم بأنه قد سمع:

«من أعلى هذه الأهرامات، أربعون قرناً تتأملكم، وستصفق لنصركم».

ويؤكد كروازيي بأن الجزء الأول من الجملة فقط، هو الذي نُطق.

بوهارني: «هيا، وفكروا في أن أربعين قرناً تنظر إلينا من أعلى هذه الآثار»

أما بيرنويي، من جهته، فلم يسمع شيئاً لأنه كان بعيداً جداً عن المشهد.

وعلى أي حال، فحتى لو كان قريباً من الجنرال القائد، فإن ذلك ما كان

ليغير في الأمر شيئاً. كان ذهنه شارداً، مفتوناً بخط الذهب والفولاذ الذي سطره رجال مراد بك الستة آلاف.

* * *

التهمت شهرزاد لقمة أخيرة من الفول والبيض، وتناولت شريحة أخيرة من خبز السرايا.

تمطت من جديد، وقالت لنفسها إن الوقت قد حان كي تلتحق بباقي العائلة في الحديقة.

كان يوسف وميشيل، تحت ظل سقف الكرمة، منهمكين في لعبة الطاولة. وكان نبيل جالساً بين الرجلين، وهو على ما يبدو، يعد النقط. وكانت نادية تمازح أميرة وجورج شلهوب اللذين أتيا أمس، كما كان منتظراً.

وقفت نادية بتلقائية وهي تنظر إلى ابنتها.

- حياتي... لماذا غادرت مكانك؟ ألا ترين بأن ذلك خطر عليك؟

- اتركيها! قال يوسف متذمراً. إذا كانت قد أتت فلأن قوتها مكنتها من ذلك. شيء من الهواء المنعش لن يضرها.

- تعالي اجلسي إلى جانبنا، قال ميشيل وهو يفسح لها.

تمطت، وهي تسبل جفنيها، مثل قطة كسولة:

- أشعر أنني أعود للحياة من جديد.

ثم أشارت إلى ميشيل بإصبع آمرة:

- إنني أخطرك، علينا أن ننتظر على الأقل عامين حتى يأتي الطفل الثاني.

مسّد على جبهتها بلطف.

- سنراهن على ذلك في لعبة الضامة. المنتصر هو الذي يقرر.

فعقبت على الفور:

- في هذه الحال، الأمر مؤكد. سننتظر عامين.

- يا بنت!..عنّف يوسف. ليس من شأنك أن تقرري في مثل هذه الأمور! احترمي زوجك كما يجب!

- كف عن مضايقتها، قال جورج معترضاً. أنت تعلم جيداً بأنها تمزح.

حركت شهرزاد كتفيها وأطبقت جفنيها.

* * *

كان كريم يتساءل عما إذا كانت القوات البحرية ستنتصر هذه المرة أيضاً. ومنذ أن اتخذت مراكب باباس أوغلو مواقعها جنب قرية إمبابة، استولى عليه قلق غير مبرر.

ومع ذلك، فقد كان من شأنه أن يطمئن؛ فعلى الضفة اليمنى للنهر، كان يوجد إبراهيم بك مع ألفين من المماليك. وعلى اليُسرى مراد ورجاله. وكان الباشا أبو بكر واثنا عشر ألفاً من المشاة يغطون أسوار القاهرة. وكان ثمة بالخصوص الأربعون قطعة من المدفعية المصطفة على طول الجرف.

لم تستطع، مع ذلك، كل هذه القوة أن تفك العقدة التي تشكلت في بطنه. ألم يظهر الفرنسيون، حتى الآن، أكثر قوة؟ ودون أن يعلم لذلك سبباً، اتجه تفكيره نحو شهرزاد. ماذا عساها تكون تفعل الآن؟ أما تزال بالصباح؟ أم تكون قد التجأت مع ذويها إلى القلعة؟

مرر كفيه معاً على المدفع، فوجد البرونز أبرد من أي وقت مضى.

* * *

قالت شهرزاد متنهدة: عملياً، هذا ما قلته: عودة الخماسين.

نظرت المجموعة الصغيرة نحو الشمال، حيث كانت السماء رمادية غامقة.

- صحيح، أكدت نادية. يبدو كأن الرياح تهب.

- الخماسين في هذا الوقت من السنة؟ تساءل نبيل متعجباً. ذلك أمر غريب. أليس كذلك؟

- ربما قد تكون عاصفة رملية عادية، قال ميشيل.

ودون أن يعود إلى التفكير في ذلك، قذف قطع النرد.

سألت شهرزاد:

- أليس لدى أحدكم أخبار طازجة من القاهرة؟

حرك يوسف، المشغول بنقل بيادقه، رأسه.

قال نبيل ساخراً:

- لقد غرق الفرنسيون جميعاً في النهر.

- أو أن أبا الهول قد التهمهم جميعاً، قالت أميرة شلهوب.

أعقب كلامَهم قصفُ رعد.

تجمدوا جميعهم.
لم تكن الساعة بعيدة عن الثالثة بعد الظهر.

* * *

- إلى صفوفكم!

صاح الضباط مذكرين الرجال الذين كانوا قد انتشروا في حدائق البشتيل ليجنوا عنباً ورماناً.

في دقائق كانت مجموعتا رينيي ودوزيكس قد شكلتا مربعيهما من ستة صفوف عمقاً.

كان بيرنويي، وعيناه موجهتان دائماً نحو فرسان مراد الملتمعين، مقتنعاً بأن العدو سيغير خطته بعد تجربة شبرا. لكن، وأمام اندهاشه الكبير، لم يحصل شيء من ذلك.

شرع الستة آلاف مملوك يعدون نحو الموت.

* * *

دوّت صيحة حادة بالمنزل.

كانت الشمس تميل للمغيب. وكانت العائلة بكاملها قد دخلت إلى البيت وتستعد للعشاء.

شعرت شهرزاد، التي كانت قد التحقت بغرفة الأكل، بالدم يتجمد في عروقها. صاحت أمها:

- هذه عائشة! الخادمة.

ألقى يوسف بليّ النرجيلة.

- يا إلهي! ما الذي يحدث!

تسارع نبيل وميشيل في الوقت نفسه تقريباً، وكادا يُسقِطان في عدوهما السودانية التي كانت مقبلة في اتجاههما.

سقطت في ذراعيهما متمتمة بكلمات غير كاملة.

قال ميشيل معنّفاً إياها:

- عائشة! تماسكي!

وبما أنها قد بدت وكأنها لا تسمعه، فقد جرها بمساعدة نبيل إلى أريكة حيث تهالكت بكل ثقلها.

عادت نادية من المطبخ، وفي يدها كأس بماء الورد. عملت جاهدة على جعل الخادمة تشرب منه بعض القطرات، في الوقت الذي كان فيه نبيل يسعى إلى إعادتها إلى رشدها.

بدت أخيراً وكأنها قد تماسكت قليلاً. ألقت برأسها إلى الخلف وهي ترف جفنيها.

- يا ويلنا! لقد أشعلوا النار في النيل...

- لقد فقدت صوابها، قال جورج شلهوب. ماذا تخرّف. النار في النيل؟

- أقسم لكم إن ذلك صحيح... وحق رب العالمين... النهر ملتهب. رأيتهم... من السطح...

كان نبيل أول من هرع إلى السلم متبوعاً بباقي العائلة.

ظنوا في أول الأمر، أن عائشة المسكينة صادقة. كانت بالفعل نهاية العالم. ألسنة لهب تنبعث من سطح النهر مسرعة نحو السماء. كان الجرف أحمر والأفق متأججاً وكان يمكن القسم بأن النيل، بعيداً عن منبعه، لم يكن يقذف سوى بحمم منصهرة. انعكست ألسنة النار حتى على الأهرام، محولة تلك الصوامع الثلاثمائة إلى أعمدة من سماق.

رسمت أم ميشيل علامة الصليب وهي على وشك الانهيار:

- ليحفظنا الله... كانت عائشة على حق.

- النهر مشتعل فعلاً ناراً، قالت نادية وهي ترسم علامة الصليب بدورها.

رد يوسف معنفاً:

- كفي عن قول سخافات يا امرأة! لا يمكن للنيل أن يشتعل مثل رقٍّ. لا، الأمر يتعلق بشيء آخر.

- تماماً، يا أبي، تمتم نبيل شاحباً، هذه ليست نهاية العالم، إنها نهاية مصر.

- ماذا تقول! صاحت شهرزاد.

ميشيل هو من أجابها:

- أخوك على حق. يبدو أن الفرنسيين قد هجموا. وقد يكون هذا اللهب منبعثاً من ساحة المعركة.

- إذن، تكون قرية إمبابة هي التي تشتعل هكذا؟
- محتمل.

* * *

أخطأ ميشيل.

اجتاحت مجموعتا فيال ورامبون قرية إمبابة، لكنهما لم تحرقاها.

تلك الغمامة التي كانت تلف الشمس الغاربة، كانت أسطول مراد بك المشتعل. كانت الزوارق والسفن الصغرى بما حملت تستهلك في خضم احمرار جحيمي.

بعد حوالى الساعتين، كانت فرق خيالة المماليك المعتزة بنفسها، تتوجه لتكسر على مربعات الرماح المنتصبة، فسقط الرجال بالمئات على أقدام الصفوف الفرنسية.

كانت الجموع الهاربة قد أعادت الهجوم دون كلل من مربع دوزيكس إلى مربع رينيي. وعندما كانت تهم بأن تعود على عقبها، كانت تجد أمامها مجموعة دوغا تقطع عليها الطريق. كل مرة كانوا يعمدون فيها إلى تغيير الاتجاه كانت نيران المدفعية هي التي تلقاهم.

حاول مراد بك، من خلال هجوم أخير، مؤملاً في تسهيل تراجعه، أن يكسر الطوق الذي أحكم حوله، وأن يشق طريقاً للتواصل مع معسكره الذي كان يراقبه الجنرال رامبون وفرقتاه العسكريتان، لكنه لم يفلح. وحوله كان الرجال والخيل ينهارون. أسرع بعضهم إلى النيل في محاولة للوصول إلى الضفة الأخرى سباحة؛ غير أنهم كانوا، بذلك، يضعون أنفسهم في العراء أكثر. ما كان الأمر قد عاد معركة، ولكن مجزرة حقيقية.

وفي هذه اللحظة، أمر مراد بإحراق أسطوله.

الخيرات التي كانت على متن السفن، سيكون أحسن أن تستقر بقعر النهر من أن تقع في يد العدو.

* * *

وعند نزول الظلام، علمت أسرة شديد وأصدقاؤها بالحقيقة.

كانت أولى فلول اللاجئين متناثرة على طريق الجيزة. مشاة وفلاحون ونساء

وأطفال، مترددون بين الشرق وبين الصعيد. وفي تلك الليلة غادرت غالبية السكان العاصمة.

في القاهرة، كانت فرق الباشا أبو بكر قد أخلت الأزقة وفر أفرادها حاملين نساءهم وعبيدهم وكنوزهم. كان إبراهيم بك قد فر هو الآخر، لكن إلى الدلتا. كان قد انسحب دون أن يقاتل، عندما رأى وهو مخيم على الضفة الأخرى، هزيمة مراد.

وعندما بدأت أولى النجوم تزين السماء، كانت القاهرة تفتقر إلى أية سلطة شرعية. وحدها بوادر الخوف والرعب، كانت تتصاعد من عمق المدينة في شكل صراخ وعويل العلماء والصوفية، الذين أوكلوا أمرهم إلى الله.

قالت شهرزاد بصوت خافت:

- كريم... قد يكون ربما جرح، أو...

لم تجرؤ على إنهاء جملتها مخافة أن تجلب الكلمة النحس لابن سليمان إن نطقت بها.

أجهد نبيل نفسه في تهدئتها:

- لا تخشي شيئاً. كريم قوي. لا شك أنه قد نجا.

لم يستطع ميشيل هذه المرة أن يتحمل. قاطع صهره ووجه كلامه لشهرزاد بجفاف مفاجئ:

- هلا استطعت أخيراً، أن تفسري لي دواعي اهتمامك بهذا الرجل؟ حتى لو كان من دمك لما تصرفت بهذه الشاكلة.

أجابت، مشوشة من نبرة حديثه، دون اقتناع وهي تبحث عن الكلمة المناسبة:

- إنه صديق. لقد كان في خدمتنا، في الصباح.

- مع ذلك. إنه ليس أكثر من خادم.

تدخل نبيل محاولاً النجدة:

- عفواً على مخالفتك القول، يا صديقي، لكن كريم لم يكن مجرد خادم. ومن ثمة، اعتبرناه دائماً وكأنه جزء من العائلة.

حرك ميشيل رأسه. بدا وكأن هذا التفسير قد أقنعه بالكاد. لكنه قرر، رغم كل شيء، أن لا يصر.

- يوسف. . . نادت نادية، علينا ربما أن نغادر الصباح. سنكون. . .

- لقد قلتها وكررتها مائة مرة! لن ننتقل من هنا. هذا المكان أرضنا، ولن يخرجنا منه أحد. هل هذا واضح؟ أخذ نفساً عميقاً، ووجه كلامه للزوجين شلهوب:

- أصدقائي، إنني عندما أقول نحن، فإنني أفكر فيكما أيضاً. اللهم إلا إذا كنتما تقدران بأن قراري يفتقر إلى الحكمة، أو كان لكما تصور آخر، فأنتما طبعاً حران في أن تتصرفا بما يمليه عليكما قلبكما.

التفت نحو ميشيل:

- هذا الكلام يهمك أنت أيضاً. أنت زوج ابنتي، لكن منذ أن جمعكما الرباط المقدس للزواج، أصبحت أيضاً سيدها. إذا كنت تظن أنكما ستكونان في مأمن في مكان آخر، فبإمكانكما أنت وشهرزاد أن تغادرا الصباح.

تشاورت أميرة وجورج شهلوب. أما ميشيل، فقد ظل، من جهته، دون حراك.

- ماذا قررتم إذن؟

أجابه جورج شلهوب منزعجاً:

- إن كلامك يريحني. أعترف يا يوسف، بأنني لم أجرؤ على التطرق إلى هذا الموضوع. لا تؤاخذنا على ذلك، يا صديقي، لكنني أعتقد أنه من باب الحذر أن ننصرف. زوجتي وأنا سنغادر حالاً. أمرٌ ما يحدثني بأن ليس هناك وقت نضيعه.

- مغادرة الصباح؟ علقت نادية. لكن أين ستذهبان؟

- يوسف يعرف ذلك. لي أخ يملك مسكناً بالجنوب. بالمنيا. أعتقد أننا سنكون آمنين هناك أكثر.

- المنيا؟ قال نبيل. عليكما أن تقطعا أكثر من مائتي كيلومتر! من يضمن أنكما ستصلان إلى غايتكما سالمين؟ بعد حين، كل مصر لن تكون سوى ساحة معركة. سامحني، لكن أمي على حق. هذا سلوك غير محسوب.

- ربما، يا ولدي. لكن هذا لا يمنع من أن ساحة المعركة، الآن وخلال الأيام القادمة، ستكون هي الشمال. هنا، صدقوني، القاهرة وضواحيها ستعرف اضطرابات كبيرة.

فاستخلص بسرعة:

- وعلى أي حال، فإذا كنتم تريدون الانضمام إلينا، يمكننا. . .

- لك الشكر، قال يوسف مقاطعاً، لكن لا شيء يمكنه أن يغير رأينا. سنظل في الصباح.

- ونحن أيضاً، أعلن ميشيل بجدية.

وقف جورج وأقبل ليقف أمام ولده:

- هل أنت متأكد يا ميشيل؟ أنا متأكد من أننا بالمنيا. . .

- لا يا أبي، سأبقى.

- هناك أمر تنساه يا ولدي. فأنت لا تقرر فقط في مصيركما أنتما الاثنان. هناك حياة أخرى يهمها الأمر.

فردّت شهرزاد على الفور:

- عفواً يا جورج. لكنني سأظل بالصباح. وعلى أي، ففي الحالة التي أنا فيها الآن، لن يستطيع الجنين أن يتحمل مسافة بهذا الطول.

أهمدت هذه الحجة الأخيرة إلحاح جورج.

- هيا يا أميرة. الوقت يكفينا بالكاد لإعداد حقائبنا.

في الوقت الذي انتصب يوسف ليرافقهما، أمسكت نادية بكف شهرزاد ووشوشت لها:

- سميرة. . . أختك، ماذا سيحل بها؟

* * *

ظلت شهرزاد ممددة على سريرها دون أن تستطيع النوم. كانت عيناها مفتوحتين، وهي تراقب الالتماعات المحمرة التي كانت تتوافد بين الفينة والأخرى لتنعكس على السقف. لماذا تشاهد بين هذه الظلال المشعشعة ابن سليمان؟ لماذا تتخيله مضرّجاً بالدماء؟

كان ميشيل ينام قبضتاه مطبقتان.

فأزاحت الغطاء محاذرة.

* * *

كان منخرا سفير يرتعشان وهو يخترق الظلام، تحت قسوة فارسته، بسرعة الريح. وكانت ضواحي النهر مرئية عن قرب، والأكواخ الطينية لإمبابة مضاءة بألسنة اللهب.

وعند مدخل السهل الرملي الذي كان يحيط بالقرية، تجمدت يد شهرزاد بانفعال، على الزمام.

هل هذا ممكن؟ هل كانت هذه هي ساحة المعركة؟

عدلت بكف مرتعشة الخمار الأسود الذي كان يلف شعرها، ولم تستطع أن تفعل أي شيء آخر غير أن تترك نفسها تُجتاح رعباً.

وسط مئات من الأجساد الممزقة والخيل المتحجرة، ببطونها المبقورة وأمعائها المختلطة بالرمل، كان جنود يذهبون ويجيؤون سالبين الجثث ثيابها وأسلحتها وحليها. كان أحدهم يطلب ثمناً وهو يعرض عُدة فرس. وكانت أصوات تعلن بيعاً بالمزاد. تعالت أصوات مزايدة. بيع وشراء. هنا كانت تباع عمامة من الكاشمير ما تزال رطبة من الدم، وهناك أصداف جلباب مذهبة. مقايضة سرج بخنجر؛ وخنجر بطبنجة. وأطرى مقتن جديدٌ على خفة فرسه، وآخر على نقاء حجر كريم. وكان أحدهم قد لبس عباءة مبطنة بالفرو وشرع يخطو خطوات راقصة. أبعد قليلاً كانوا يأكلون ويشربون مقرفصين، وقهقهات منكرة تعلو على حشرجة المحتضرين.

في ليلة الـ ٢١ يوليو ١٧٩٨، وأمام أنظار أبي الهول، كان سهل إمبابة قد صار مكان حفل، وبازاراً في الهواء الطلق.

- هيه! أنت!

لم يكن لشهرزاد ما يكفي من الوقت لتتصرف. أطبقت عليها أكف. وعندما ألقيت على الأرض، شعرت بالمعدن البارد لسلاح يوضع على جبهتها، وبرأس رمح مضغوط على بطنها.

الفصل الثالث عشر

ظن يوسف بشعره الأشعث وبعينيه المثقلتين نوماً، أنه كان ضحية حلم مزعج.

وكي يجيب على الدقات المتتالية على الباب، نزل الدرج المؤدي إلى المدخل وهو مغتاظ من الغريب المسؤول عن هذه البلبلة التي يحدثها في هذه الساعة المتأخرة.

الآن وقد فتح الباب، فإن ما اكتشفه يتجاوز كل ما اعتقده. جنود فرنسيون مغبرون، ببنادقهم، يقفون على العتبة. كانوا ممسكين بفتاة نصف منقبة، وجد يوسف صعوبة في أن يتعرف فيها على ابنته شهرزاد، فاقدة الوعي، على وجهها سحنة الموت. مد نحوها ذراعيه في غاية التأثر، وهو يتمتم بكلمات تتعاقب فيها الفرنسية والعربية.

- أيها المواطن، قال صوت، هذا الشخص هل ينتمي فعلاً إلى أسرتك؟

- أجل. . . أجل، إنها ابنتي، ماذا حصل لها؟

- اطمئن، إنها غير مصابة. فقط مغمىً عليها. يجب أن تمدد.

شرع يوسف الباب على مصراعيه ودعا الجنود ليتبعوه حتى القاعة حيث مددوا الفتاة على إحدى الأرائك.

- ما الذي حصل؟ أرجوكم، أخبروني.

- لقد ارتكبت ابنتك حماقة بالذهاب إلى ساحة المعركة. كان ممكناً أن تُقتل هناك. لقد عثرنا عليها قرب القرية. كانت تمتطي فرساً. لقد احتجزت الدابة.

- ابنتي؟ في إمبابة؟

وجد يوسف صعوبة، مشوش البال، في أن يقنع نفسه بأن هذا الشخص لم يكن لا مجنوناً ولا كذاباً.

- لكن كيف أمكنها أن تكون في مكان بهذا البعد؟ لقد كانت نائمة.

- كانت، على ما يبدو، تبحث عن شخص ما. عن مملوك، كما بدا لنا، عن أحد أقاربكم.

- مملوك؟ لم يكن في عائلتنا أي مملوك في يوم من الأيام. نحن مصريون، مسيحيون. إغريق كاثوليكيون، وأكثر من ذلك...

توقف، ووضع كفه على جبهته.

- يا إلهي. قد تكون ذهبت باحثة عن صديق.

ثم قال وهو يشير إلى ابنته الغائبة عن الوعي:

- لماذا كل هذا... أرجو أن لا تكونوا...؟

ترك من تلقاء نفسه تساؤله معلقاً.

- لا، أيها المواطن، لم يسئ أحد معاملتها بأي شكل من الأشكال. أؤكد لك ذلك. لكنها شعرت بالدوار عندما كان رؤساؤنا يسألونها. ربما التأثر، أو ربما الخوف. ومن لحظة لأخرى، كانت تحدثنا عن مكان سكناكم.

- إنها حامل... هي في شهرها الثالث.

- في هذه الحالة، قد يكون الأمر أكثر خطورة. وسيكون من باب الاحتياط استدعاء طبيب. هل تعرف طبيباً؟

لم يكن ليوسف وقت للإجابة. كانت نادية قد دخلت لتوها إلى الغرفة. وأمام مشهد هؤلاء الرجال المسلحين المحيطين بابنتها، آتت حركة تقهقر قبل أن تسارع نحو الأريكة.

-شهرزاد، حبيبتي، ماذا حصل؟ طفلتي...

- اطمئني، أيتها المواطنة، هي فقط مغشي عليها.

- ماذا فعلتم بها! ماذا فعلتم بابنتي!

فارتمت على الرجل، ضاربة صدره.

تدخل يوسف:

- كفي عن هذا يا امرأة! آمرك، توقفي! ليس لهؤلاء الناس دخل. ابنتنا

هي التي فقدت عقلها. ابنتنا لا غير! لقد ذهبت إلى إمبابة أثناء نومنا! أتفهمين؟
- إمبابة؟
- أيها المواطنة. . . لا بد من طبيب.
- طبيب، قالت نادية بصوت خافت. لكن أين سنعثر على طبيب في مثل هذه الساعة؟ ألسنا في حرب؟ ألا ينتشر الشقاء في كل مكان! بسببكم!
وفي اللحظة التي كان مخاطبها يهم بالحديث، أفرجت شهرزاد عينيها بصعوبة.
- أمي. . . يؤلمني. . .
- لا تنزعجي يا بنيتي، كل شيء سيكون على ما يرام.
كان نبيل وميشيل قد التحقا بهم. وقد احتاجا إلى وقت كي يفهما ما قيل لهما.
- القبطي! اقترح نبيل على الفور. الدكتور شهاب. هو بليد قديم، لكنها فرصتنا الوحيدة. فهو ربما لم يغادر الجيزة.
- هل تريدون أن نرافقكم، اقترح الجندي. قواتنا توجد في الناحية. قد يلقى عليكم القبض.
ألقى عليه نبيل نظرة محتقرة وأسرع نحو الخارج.

* * *

- هذا خطير، تمتم الطبيب العجوز، بسمتٍ قاتم. خطير جداً. لقد وجدت صعوبة بالغة في السيطرة على النزيف. لقد فقدتْ كثيراً من الدم.
- لن تموت، قل. عدني بذلك، أرجوك.
- يا ست شديد، لا يمكنني أن أقول ذلك، للأسف! الحياة بيد الله. هو الوحيد الذي يقرر مصائرنا.
- هذه غباوة، قال ميشيل ثائراً. غباوة! ليس لله دخل في كل هذا. أنت تختبئ وراء القدر لتخفي انعدام كفاءتك. عليك أن تنقذها، يجب أن تنقذها.
- في كل الأحوال، الطفل راح، أتعرف ذلك. . .
- وتريد أن يكون ذلك مصير الأم أيضاً!
- اهدأ يا ميشيل. الدكتور شهاب يقوم بما يستطيع.
- وما يستطيعه ليس كافياً، عقب نبيل.

وسمر نظرة قاسية في وجه الطبيب.
- ورأيك؟
بدا القبطي مضطرباً.
- دعوا الأمر للوقت.
- الوقت؟ قال نبيل صائحاً. منذ متى كان الوقت ينقذ من الموت؟
- هو في الغالب، أحسن بلسم.
- إجراء عملية. هل فكرت في ذلك؟
- هذا محتمل، بالفعل، لكن...
- وأنت بالطبع غير قادر على ذلك.
- أذكرك بأنني لست جراحاً وإنما طبيب عام!
- قل بالأحرى إنك حمار! قال نبيل محتداً.
ثم آتى حركة استخفاف.
- هذا ليس غريباً عنك. فعلى غرار كل الأقباط في هذا البلد، أنتم لا تصلحون إلا للعب دور مديري وخادمي العثمانيين وجباة مكوسهم. أنتم تكدسون ثروات ضخمة بلعقكم لأحذية أسيادكم، لكن لا أحد غيركم أيضاً يعرف كيف يذل ويحتقر الفلاح. للبكوات كل الحق في أن يعتبروكم مهرجيهم! طبعاً، بإمكانكم دائماً أن تدعوا بأنكم ضروريون لمصر. سلالة الفراعنة الشهيرة! لكن بالنسبة للباقي...
- كيف تجرؤ على قول ذلك! لا أسمح لك بالحديث بهذه الطريقة! لن أقبل كلمة واحدة أخرى!
ودون أن ينتظر، وضع أدواته في حقيبة جلدية صغيرة، وتوجه بخطئ واسعة نحو الباب.
قامت نادية بحركة في محاولة لإثنائه عن ذلك.
- دعيه، تمتم يوسف. نبيل على حق. لا كفاءة لهذا الرجل.
انفجرت المرأة باكية.
- والآن، من سينقذ طفلتي؟

* * *

عاد الجندي الفرنسي إلى الصباح حوالى نهاية فترة بعد الظهر. كان هذه

المرة وحيداً. كان أتى يسأل عن حالة شهرزاد - بوصفه جاراً، كما قال - ذلك أن القيادة العامة قد اتخذت، من ساعة بالكاد، قصر مراد بك المهمل، قاعدة لها.

وعندما لاحظ ذعر العائلة، وبالخصوص الحالة التي كانت الفتاة عليها، أفلح في إقناعهم بقبول نجدة أحد الأطباء التابعين للجيش.

عاد مرة ثانية عند مقدم الليل. كان برفقته شخص يدعى ديسجونيت. وأوضح فرانسوا بأنه الطبيب الرئيس للجيش.

ساعات بعد ذلك، وجد الطبيب أنه قادر على أن يعلن بأن السيدة الشابة، إذا لم تحصل تعقيدات، ستُنقذ. انسحب الرجلان وسط دعوات وتشكرات الزوجين. في آخر لحظة، وعندما كان يمتطي فرسه، عنَّ ليوسف أن يسأل الجندي المحسن عن اسمه. ظن أنه سمع شيئاً من مثل بيرنودي أو بيرنويي. فرانسوا.

* * *

كانت الأيام الموالية عصيبة بالنسبة لكل الأسرة.

فمرات عدّة، ظن الناس الذين يحبون شهرزاد أنها ضائعة لا محالة. اجتاحتها حمى قوية بعيْد انصراف الدكتور ديسجونيت. كانت شرعت تهذي، جبهتها ساخنة. جُملٌ بلا معنى تخرج من شفتيها. عرق غزير ينضح من كل أعضائها، ووجنتاها تغوران. قرائن كثيرة كانت تدل على أن الجسد يخور. دامت حالة اللايقين هذه أربعة أيام، ما عادت وجوه ذويها سوى مرايا تعكس تطور حالتها.

- لن يكون لي أطفال البتة...

كان ذلك خلال صباح اليوم الخامس. أخيراً غادرتها الحمى، ورغم أن شحوبها كان قد أضحى أوضح، فإنه كان بالإمكان التنبؤ بأولى ملامح الشفاء.

حرك ميشيل رأسه بقوة.

- لا يا شهرزاد، أنت مخطئة. ليس هذا أبداً ما قاله الدكتور ديسجونيت. بمجرد ما تضعين قدميك على الأرض ستكونين أصح من ذي قبل.

وضع قطعة قماش مبللة على جبهة زوجته، ثم مررها على وجنتيها.

كان النهار، في الخارج، ضحىً، والشمس تصعد نحو كبد السماء.

كانت الصراصير قد عادت لأصواتها، ولم يكن شيء يتحرك في الصباح. كان ممكناً القول بأن ليس ثمة حرب بعيداً عن الأسوار. مأساة إمبابة لم تحصل البتة. لكن هذا الوهم سرعان ما اندحر بمجرد مرور صوت الفرسان الذين يعبرون الطريق. كانت تسمع صلصلة السلاح مصاحبة لخطوات الفرق المتحركة.

- هل ستسامحني يوماً. . .

- شهرزاد. . . لنحاول أن ننسى، أتريدين؟ لا شيء في هذه اللحظة يهم غير صحتك.

أخذت كفه وضغطتها بالقوة القليلة التي ما تزال تمتلكها.

- لا، أرجوك. أريد أن أعلم. لقد أسأت إليك. لقد خنت.

- لقد اقتفيت قلبك. هذا كل ما في الأمر. والعقل غالباً ما يُخاتله القلب.

- إنني حمقاء. لقد قلت لك ذلك يوماً، أنا لست امرأة مثل الآخرين.

- وماذا كنت أجبت آنذاك؟ «شهرزاد، إن اللعب وطعم التحدي جبلتان فيك»

- أنت تنسى الأساسي. لقد قلتَ أيضاً: «العبي، لكن تأكدي من أنك الوحيدة التي ستؤدين الثمن».

وضع سبابته على شفتيها.

- ولقد أديت يا شهرزاد ثمناً غالياً. وربما أغلى ثمن طلب من امرأة أن تؤديه.

- لا. لقد أدينا معاً. فالطفل كان طفلك أيضاً.

ضغطت أكثر قليلاً على أصابعه.

استجاب لضغطتها، لكنه ليس بالإمكان تأكيد ما إذا كان حنانها أم يأسها، هو ما أعرب عنه ضغط الكف هذا.

- علينا أن نتحدث عن ذلك، يا ميشيل. أرجوك. إنني أصر على ذلك.

انتصب فجأة واقفاً، على طريقة من يشعر بالاختناق، وتوجه نحو النافذة.

- أتصرين على ذلك فعلاً؟

ثم أضاف بصوت أجش:

- هل يمكنك إذن أن تقولي ما الذي يشكله كريم بالنسبة إليك؟

ثم استبق جوابها، وهو واقف أمامها:

- لا يا شهرزاد... إنني لا أصدق تفسير أخيك. لم أصدقه بتاتاً. وبالخصوص بعد الذي حصل.

شبكت أصابعها، بطريقة طفل ضبط متلبساً بخطأ.

- لست مرغمة على أن تجيبيني. أقنع بصمتك.

- أحببته...

انبثقت الكلمة المشؤومة من فمها، ضائعة في صوتها، وقد أضحت غير مسموعة تقريباً، خجلاً.

ثم أردفت:

- كما نحب عندما نكون في الثالثة عشرة.

وبمجرد أن نطقت الجملة، نقمت على نفسها. فهذا التأكيد لم يكن سوى بحث يائس عن حِلم ميشيل. وأفظع من ذلك، كان إنكاراً لحبها. دون أن تريد ذلك، كانت قد وضعت لتوها قناعاً على حقائق أخرى، أكثر حميمية.

كان قد عاد إلى قدم السرير.

- وبعدها...

- لا شيء، أقسم لك. لقد غادر الصباح لأكثر من ست سنوات، ثم...

- كان حاضراً في حفل زفافنا.

أولجت أظافرها في راحتها.

- أجل...

- أنت دعوته.

حركت رأسها دلالة موافقة.

- قصر الجيزة... فهناك وجدته.

احتارت ما الذي تفعله. منذ بداية حوارهما، حصل تغير على محيا ميشيل. كانت ارتعاشة خفيفة تهز حواف شفتيه. أضحى أكثر امتقاعاً منها.

وعلى غير المنتظر، اهتز جسده من التشنج، وتهالك على حافة السرير.

- ما الذي يجعل الحب قادراً على أن يصيب بالجنون! قال شبه صارخ.

لماذا؟ يا إلهي، لماذا؟ لماذا يجب دائماً، كي يعيش، أن نرجوه وأن نخشاه؟ لماذا نحاول أن نصفح في الوقت الذي يجب أن ننقم... أن نُبعد الآخر. أستحلفك يا شهرزاد أن تجيبيني، إن استطعت.

أتى ليلقي بجسده قربها، وبحث عن كفها، تحسساً، وكأن الغرفة قد أصبحت غارقة في الظلام.

لم تستطع في حيرتها أن تعرف كيف تتصرف. أمرٌ ما كان يحثها على أن تتحدث، وأن تعمل على تهدئته. أفرجت شفتيها، وهي تدري مسبقاً بأنها لن تعرف ماذا تقول.

- أحبك يا شهرزاد. لقد أحببتك، وأعلم أن الأمر سيكون كذلك دوماً، بلا أمل في التراجع. من المفروض أن كل شيء يدفعني لمغادرة هذا المنزل، يدفعني للانصراف، ومع ذلك فإن ساقيّ ترفضان حملي بعيداً عن عتبة هذه الغرفة. علي أن اتصرف كزوج فخور، غير أن الضعف الذي يسكنني هو ضعف امرأة بلا كرامة أو كبرياء. كان علي أن أصرخ في وجهك بخيبة أملي، وأن أرضيَ قلبك، وأن أعمل على جرحك؛ إلا أن فمي ليس مترعاً إلا بكلمات الحب. وأخيراً فإن الرد الوحيد الذي أستطيع أن أفرضه عليك هو حضوري.

-لا يا ميشيل!

انقذفت بقوة على زوجها، وضغطته بكل قوتها، ساعية إلى خنق معاناتها. نقمت على نفسها للاوعيها ولغباوتها، وتوسلت لكل الآلهة بأن تحرق النارُ التي هبت على إمبابة، وإلى الأبد، ذاكرتها واسم ابن سليمان.

في هذه اللحظة سُمِع طرقٌ على الباب.

- ميشيل؟ شهرزاد؟

تعرفا على صوت نبيل.

أشار ميشيل إلى زوجته بأن تجيب.

كما لو كانت تستشعر مأساة جديدة، ترددت قبل أن تسأل:

- ماذا هناك؟

- كريم. إنه هنا، جريح.

* * *

ظل كريم بالصباح ثلاثة أيام.

كان قد استطاع الفرار من ساحة المعركة ليلة ٢١، ممزق الذراع من إصابة شظية، محترق الجذع باللهب الذي اجتاح الأسطول. كان ينوي في البداية، طبعاً، أن يتوجه إلى الصباح، لكن الفرنسيين كانوا قد شرعوا يتقدمون نحو الجيزة والقاهرة. كانت المنطقة كلها تعج بالجنود. بذل، لحظتئذ، مجهوداً جباراً فمشى حتى أدرك بستان نخيل يبعد ثلاثة فراسخ عن إمبابة. انتظر هناك، مقتصراً في طعامه على التمر، حتى خفت حركة الفرق العسكرية. أسعف بدوي إصابة ذراعه، لكن حروقه لم تكن تندمل، وتؤلمه بشدة.

وبمجيئه المفاجئ، أتى بأخبار جديدة من القاهرة، سمعها في طريقه إلى الصباح.

خلال الليلة التي أعقبت معركة إمبابة، انفجرت قلاقل خطيرة بالعاصمة. فر المماليك والأعيان، أما الشعب، فعندما وجد نفسه بلا سيد، شرع يسلك كل السبل. اجتاح منازل البكوات وقصور المماليك، كما اجتاح مساكن أغنياء التجار من كل الأمم. وكان ممكناً أن تتطور الأمور إلى أفظع، وأن يستمر نهب المدينة، لو لم يكن أحد يدعى مصطفى بك - الموظف العمومي الوحيد الذي ظل حاضراً - قد توجه إلى مقر القيادة العسكرية بالجيزة ليعلن استسلام القاهرة.

ومساء يوم ٢٣، ولجت فرقة عسكرية يقودها قائد لواء لا يذكر كريم اسمه.

في الغد، كان دور الجنرال القائد في الدخول إلى العاصمة مصحوباً بضربات الطبول. ويحكي البعض أنه عند مروره، دوت ولولة نساء الحريم، وأن السماء كانت مكسوة بأعمدة دخان تخرج من نوافذ المنازل المحترقة. وفي آخر الأخبار، ورد أن هذا الجنرال قد اتخذ البيت الفخم للألفي بك والذي يقع في ساحة الازبكية مسكناً له، أما فرقه العسكرية، فقد قطنت في مساكن المماليك. لكن الأغرب بالنسبة لكريم هو أنه قد كان لهذا الجنرال اسم غريب، اسم ذو نبرة إيطالية. نابليوني، نابوليوني بونابرت. وكان الناس يسرون لبعضهم بأنه لم يكن من أصول فرنسية، وإنما توسكانية. ما موقع إيطالي إذن على رأس جيش فرنسي؟ هذا الكشف حير آل شديد كثيراً.

استمر سلب منازل المماليك، رغم أن الفرنسيين كانوا قد ختموها بالشمع. الجنود أنفسهم شاركوا في ذلك بهمة، معبدين الطريق أمام اللصوص المصريين. ولإعادة النظام عيّن الغزاة رجلاً على رأس هيئة المشاة، مكلفاً باستتباب الهدوء. وكان كريم يعرف هذا الشخص معرفة جيدة. عملاق برأس مجرم: بارتليمي سيرا، إنه العملاق نفسه الذي كاد منذ أشهر خلت، أن يقبض روح شهرزاد.

وفي فجر اليوم الرابع، غادر كريم الصباح متجهاً إلى العاصمة بحثاً عن باباس أوغلو.

خلال كل المدة التي استغرقتها إقامة كريم، وحتى لحظة انصرافه، ولأسباب يجهلها الجميع إلا ميشيل، مكثت شهرزاد بالغرفة، وحظرت على نفسها رؤية ابن سليمان.

الفصل الرابع عشر

عزيزي جوزيف؛

لقد كان فتح مصر من القوة بحيث يجدر به أن ينضاف إلى المجد العسكري.

قد أكون في فرنسا في غضون شهرين، وإنني لأكلفك بمصالحي. لدي كثير من المشاكل العائلية، لأن الحجاب قد هتك تماماً. أنت الوحيد الذي فضل لي على الأرض. صداقتك غالية عندي كثيراً. لم يبق لي كي أصبح مبغضاً للبشر إلا أن أفقدك أو أراك تخونني. . . إنه لوضع محزن أن تكون كل أحاسيسك تجاه شخص واحد موضوعة في قلب واحد. . . أتفهم. . . اعمل على أن توفر لي ضيعة بالريف عند وصولي، إما قرب باريس أو ببورغون. أنوي أن أقضي بها فصل الشتاء وأن أنعزل. الطبيعة البشرية تقلقني. إنني في حاجة إلى الوحدة وإلى الانعزال. العظمة تقلقني. جف الشعور، ولا طعم للمجد في التاسعة والعشرين. لقد استنزفت كل شيء: لم يبق لي إلا أن أصبح بالفعل أنانياً. أعتزم الاحتفاظ بمنزلي؛ لن أعطيه أبداً لأي كان. لم يعد لي شيء أعيش من أجله. وداعاً يا صديقي الوحيد. لم أظلمكَ على الإطلاق. أنت مدين لي بهذا العدل. . . أتسمع! قبّل أسرتك وجيروم.

كان ذلك حوالى متم شهر يوليو.

وضع الجنرال القائد توقيعه أسفل الرسالة الموجهة إلى أخيه، وأودعها البريد الذي سينطلق إلى رشيد.

وعندما تغلب على سوداويته اللحظية، حرر عقب ذلك وثيقة أخرى بفحوىً مختلف تماماً - موجهة هذه المرة إلى الجنرال زاجونشيك، الذي كان قد

أضحى منذ ٢٥ يوليو الحاكم الجديد لإقليم منوف.

«. . . قد تكون توصلت أمس بأوامر تنظيم إقليمكم. عليك أن تعامل الأتراك بصرامة شديدة. منذ وصولي أقطع كل يوم هنا ثلاث رؤوس وأجيلها في القاهرة. هذه هي الوسيلة الوحيدة للجم هؤلاء الناس.»

هل عاودته سوداويته من جديد؟ قد تكون عاودته، على أي حال، وبشكل أكثر إظلاماً، ما دام قد ورد في رسالة إلى الجنرال مينو، الذي كان قد استولى منذ عشرة أيام على رشيد، أنه لم يأمر بقطع رؤوس ثلاثة سجناء، وإنما ستة.

«لا ينقاد الأتراك إلا للصرامة الكبيرة. أقطع كل يوم خمسة أو ستة رؤوس في شوارع القاهرة. لقد جاملناهم حتى الآن، محاولين أن نضع حداً لسمعة الرعب التي كانت تسبقنا. أما اليوم فعلى العكس من ذلك، علينا أن نتخذ التدابير اللازمة حتى تُطيعَ الشعوبُ. والطاعة، عندهم، هي الخوف. . .»

والواقع أن التعليمات المقدمة لمينو لم تكن ذات فائدة تذكر. فهذا العسكري كان قد تجاوز منذ زمن طويل رغبات رئيسه: منذ أن شرع في تنظيم رشيد، كانت المدينة تعيش مرتعبة.

وضع الجنرال القائد قلمه للحظة، وفكر فيما بقي عليه أن يقوم به لينهي احتلال مصر.

أخيراً، أربكه هؤلاء المماليك الشياطين. كان مراد بك قد انسحب مع ما تبقى من جيشه إلى أعالي مصر، مقرراً القيام بحرب استنزاف. عبرت ذهن الجنرال فكرة مصالحة، لكن لترجأ إلى ما بعد. أما الآن فيجب التخلص من الآخر: إبراهيم بك. تقول آخر الأخبار إنه قد استقر ببلبيس، على بعد عشرة فراسخ من القاهرة، حيث يسيطر على إقليم الشرقية والدلتا. قوة مثل هذه على هذه المسافة القريبة، تبقى خطراً محدقاً.

يحكم كليبر الإسكندرية، ومينو رشيد، ومورات قليوب، وبيليارد الجيزة. وكان الجنرال زاجونشيك يحتل إقليم منوف، وفيل إقليم المنصورة ودمياط، والمساعد بربيس البحيرة، والجنرال فوجيير مدينة المحلة الكبرى؛ أما هو، الجنرال بونابرت، فقد تكلف شخصياً بتصفية حسابه مع إبراهيم بك.

عندما أنهى تأملاته، أخذ قلمه من جديد.

إخلاصاً لإرادته في تحقيق توافق مع الباب، كتب رسالة مطولة (الثالثة) للباشا أبي بكر، لإقناعه بالعودة إلى القاهرة.

هنا أيضاً، كانت الهموم كثيرة.

حتى تتحقق مشاريعه على خير وجه، لا بد من بقاء اسطنبول محايدة.

لكن ماذا عسى م. دي طاليراند أن يفعل! لا أحد غيره يعرف كيف يداهن السلطان سليم الثالث حتى يبقى بعيداً عن المسألة. بيد أنه، وقد عين منذ شهرين سفيراً باسطنبول، لم يلتحق بعد بمنصبه. غير أنه قد التزم. أعطى كلمته.

أحنقت هذه الأفكار الجنرال، فقذف قلمه الذي تدحرج على الطاولة، وقرر أن يوجه فكره إلى أمور أخرى أقل إثارة للغضب.

استدعى رئيس مشغل ملابس جيش الشرق، الجندي فرانسوا بيرنويي، وطلب منه أن يهيئ بسرعة نماذج مختلفة للباس عسكري، حتى يختار منها واحداً يناسب البلد والمناخ.

بعد ثلاثة أيام، جُمِعَ كل الخياطين الفرنسيين والأتراك، ونظم مشغل بأكثر من ألف عامل، قادرين، حسب رغبة الجنرال، على تهيئة عشرة آلاف بزة في خمسة وثلاثين يوماً.

وعندما شعر الجنرال بالرضا، وصفا ذهنه، عاد إلى غزوه.

شكل ديواناً، غالبيته من العلماء والشيوخ القادمين مما كان يسميه سوربون الشرق؛ أي جامعة الأزهر.

ويوم ٣٠ يوليو، عيّن القبطي جرجس الغواري، المساعد القديم لمراد بك، معتمداً عسكرياً عاماً على كل مصر.

في يوم فاتح أغسطس، فرضت على زوجات المماليك ضرائب قاسية حتى يتمكنّ من الاحتفاظ بأملاك أزواجهن. الست نفيسة وحدها حكم عليها بأداء مبلغ خيالي، يقدر ب: ٠٠٠ ٦٠٠ ليرة.

* * *

- هذه جريمة! قالت البيضاء صائحة. والأفظع من ذلك، هذه خيانة ومثال صارخ على جحودكم! ألم يسبق لي أن حولت ٠٠٠ ١٢٠ ريال، عني وعن باقي نساء المماليك؟ ألم يأت، منذ ثلاثة أيام بالكاد، السيد يوجين

بوهارني، صهر الجنرال القائد شخصياً، ليطمئنني؟ مطرياً علي، وشاكراً لي العون الذي قدمته خلال كل هذه السنوات الصعبة للتجار الفرنسيين - شارل وفرانسوا مغيان، يشهدان على ذلك، وهذه الجوهرة...

رفعت بصرها لتُشهِد السماء.

- هذه الجوهرة التي قدمتها، من سذاجتي، لبوهارني عربون امتناني، والتي - أصرُّ على ذلك - سارع بقبولها! هذه الهدية أليست تعبيراً عن استثنائية علاقاتنا؟ وإلا، فلم احتفظ بها؟ حتى يتقن خدعته، من غير شك! ٦٠٠ ٠٠٠ ليرة؟ لكن من أين أستطيع الحصول عليها؟

لعن الضابط - الذي كلف من طرف القيادة العامة بإبلاغ نبأ فرض الضريبة إلى زوجة مراد بك - في سره من كلفه بهذه المهمة. لحسن حظه، كان القبطي جرجس الغواري يرافقه. فبحكم دمهما المشترك، سيتوافق الشخصان للوصول إلى أرضية تفاهم. ورأى أيضاً أن يكون جوابه على هياج البيضاء، ومن باب الاحتياط، محصوراً في حركة عجز.

فكان القبطي هو من تناول الكلمة.

- الست نفيسة... يبدو أنك غير فاهمة للوضعية. زوجك...

- لا دخل لمراد بك في هذه القضية!

- لكن، كيف يمكنك قول كلام مثل هذا! هو دائماً في حرب مع القوات الفرنسية. وإذا كان قد خسر معركة إمبابة، فهو لم يضع سلاحه، بعد ذلك.

- وبعد؟ يا سيد جرجس! ما الذي تراه غير عاديّ في هذا الموقف، ما العيب فيه؟ أليس المصريون كلهم أقباطاً، أنسيت ذلك؟ ليس بإمكان الجميع أن تكون لهم عقلية التعاون الرائعة هذه التي تحركك!

رفع المعتمد العسكري ذقنه، محتقن الوجه.

تابعت:

- مراد مهاجَم. اجتاح أناس أرضه، وجرد من كل شيء. في أي شيء تعتبر المقاومة عاراً؟ أجبني!

- أكرر لك أن المشكل ليس هو هذا. إضافة إلى أنك لست مرغمة على أداء المبلغ دفعة واحدة. غداً ١٠٠ ٠٠٠ ليرة، و ٥٠ ٠٠٠ في الأيام الموالية.

مدت السيدة نفيسة كفاً مفرجة الأصابع في اتجاه المعتمد العسكري.

- خمسة في عين من لا يصلي على النبي! عار عليك!

وبما أن الغواري كان يبدو تائهاً، فقد قدر الفرنسي بأنه لا يستطيع أن يبقى صامتاً لمدة أطول.

- أيتها المواطنة، إذا أصررت على رفضك، فإن كل عبيدك مع النساء الست والخمسين وخصيانك، فضلاً عن أملاك زوجك ستعتبر أملاكاً وطنية. لا يمكنك الاحتفاظ إلا بأثاثك.

- أكرر لكم. لا أملك هذا القدر!

- أيتها المواطنة، في كل حرب، على المنهزم أن يؤدي. هذا هو القانون، هذه هي فدية الهزيمة.

انتصبت البيضاء، وهي تعدل نقابها، حانقة.

- أليس في قانونكم جزاء منذور للأرواح التي تنقذ؟ هل علي أن أذكركم من جديد بالخدمات التي قدمتها لأمتكم؟ وبالفرنسيين الذين آويتهم في بيتي في اللحظات التي كانوا معرضين خلالها لأكبر الأخطار؟ وتدخلاتي اليومية حتى يحدّ زوجي من الإهانات التي كانت تلحق بالسيدة مغيان. بهذه المناسبة...

قطعت كلامها وفكت، مضطربة اليدين، الساعة الذهبية الصغيرة، التي كانت تحيط بمعصمها وقذفت بها إلى الرجل الفرنسي.

- خذ! أعد هذه لفرانسواز العزيزة، أو أحسن، اقتد بهذا السيد، صهر جنرالكم، احتفظ بها. هذه إحدى شهادات الامتنان التي لن أعرف الاحتفاظ بها طويلاً الآن وقد عرفت التقدير القليل الذي يوليه رؤساؤكم للحركات الرمزية.

لم يتردد الضابط. وقف غير مبال، وقال للمعتمد العسكري إن اللقاء قد انتهى.

ثم قال، وهو ينظر في عيني البيضاء:

- ستدفعين.... يا سيدة نفيسة... بتلك الطريقة، وليس بشكل آخر.

- سيدي، احتفظ جيداً بما سأقوله لك. في هذا البلد هناك شيء غريب وغير عاديّ نسميه العين الشريرة. استغل الوضعية، كما تفعل الآن. إن

إنكارك لكلامك، بالخصوص، لن يأتيك بحسن الطالع. صدقني، أنت وأصحابك سيطولكم الويل والثبور.

كان ذلك يوم ٣١ يوليو ١٧٩٨

* * *

هل كانت البيضاء تملك سلطة شريرة؟

عندما وصل خبر النكبة النكراء التي حلت بالبعثة إلى الضابط الجابي، شُوش الرجل المسكين، إن لم يكن قد آمن بقولها.

حصلت المأساة غداة اللقاء؛ يوم فاتح أغسطس، وتحديداً عند مغيب الشمس. غير أن الجنرال القائد لم يعلم بالأمر إلا بعد ذلك بثلاثة عشر يوماً، إذ كان يوجد بقرية بيلبيس.

فلأكثر من أسبوع، كان قد غادر القاهرة على رأس عشرة آلاف رجل متعقباً إبراهيم بك. يومان قبل ذلك، كان قد هزم المملوك قرب قرية الصالحية. كانت المعركة قاسية، والخسائر هامة. لكن الهدف كان قد تحقق: كان إبراهيم بك في حالة فرار إلى سوريا.

كانوا ينهون غداءهم. وكان الجو هادئاً.

انتزعت الجيوش من المماليك الغنائم التي كانوا قد سلبوها لتوهم من قافلة. وكان الجنرال قد قرر أن الجنود يمكنهم أن يبيعوا البضائع لفائدتهم الشخصية، فور عودتهم إلى القاهرة. ابتسم كل الحاضرين عندما قال الجنرال، أثناء الغداء، بهدوء:

– ممتاز. أنتم مرتاحون في هذا البلد. وهذا أمر جيد لأنه ليس لنا أسطول يعيدنا إلى فرنسا.

صدمت الملاحظة الأشخاص الحاضرين.

– وإذن، تابع الجنرال، ها نحن مضطرون إلى إنجاز أعمال كبيرة! وسنفعل! علينا أن نؤسس امبراطورية عظيمة. وسنؤسسها! هناك أبحُر، لسنا أسيادها، تفصلنا عن الوطن، لكن لا بحر يفصلنا لا عن إفريقيا ولا عن آسيا.

الحدث الذي يلمّح إليه كان قد حصل ثلاثة عشر يوماً قبل ذلك. فقد مرق عميد بحري إنجليزي، في لحظة لم يكن يخطر خلالها على بال أحد مروقه، في مرسى أبو قير، شرق الإسكندرية، حيث كان يرسو الأسطول

الفرنسي بقيادة الأميرال برويس. كان التحري الذي قام به الأميرال - في غياب أية خريطة أو دليل - قد أقنعه باستحالة إدخال (سفينة الشرق) والبوارج ذات الثمانين مدفعاً، إلى الميناء. كان البائس على علم بتعاسة وضعيته، غير أن ما دعا إلى استغرابه وإلى استغراب زميليه مينو وكليبر، هو أنه لم يتوصل بأي خبر عن الجنرال منذ أن وصلت الجيوش إلى مصر.

وجده الإنجليزي إذاً مزجوجاً به في ميناء أبو قير، فكانت المهمة سهلة. وهي أن تسلط النيران على كل بارجة على حدة.

وفي ساعات كانت القيامة.

في نهاية المواجهة التي استمرت إلى يوم ٣ أغسطس، أُغرقت فرقاطتان وبارجتان أو أُحرقت. واستولى العدو على تسع أخريات، وقتل ألف وسبعمائة رجل وجرح ألف وخمسمائة آخرون وأسر الثلثان. الأميرال برويس نفسه سقط آناً على الساعة السابعة والنصف على متن سفينته، مشروخ الفخذ.

وحوالى الساعة التاسعة مساءً، كانت الشرق، السفينة الضخمة التي حملت الجنرال القائد إلى أرض مصر، قد تحولت إلى شعلة ضخمة. وبعد ذلك بساعة وربع، انفجرت في دوي هادر. اهتزت كل السفن الأخرى، ورج الصدى كل مدينة الإسكندرية. وقد أعقب هذا الدوي المرعب عشرون دقيقة من الصمت، كان الجيشان خلالها مشدوهين.

لم ينفجر ولم يحترق أي مركب من مراكب الإنجليز؛ فقد حُصرت خسائرهم في أعطاب كبرى.

أما خسائرهم في الرجال فقد ارتفعت إلى ٢١٨ قتيلاً و ٦٧٧ جريحاً.

وصلت أخبار هذا النصر إلى لندن يوم ٢ أكتوبر ١٧٩٨. وقد ذاعت شهرته عبر كل أوروبا. فأُغْدق على العميد البحري الكثير من الهدايا. أهدته شركة الهند عشرة آلاف جنيه استرليني، وشركة الشرق مزهرية من فضة، وبلدية لندن سيفاً ومائتي جنيه. ولقبه الملك (بارون النيل وبارون برهام طوربي) مع منحة تقدر بألفي جنيه استرليني. وأهداه الفنان بول الأول صورته الزيتية في صندوق يساوي ألفين وخمسمائة جنيه؛ والسلطان سليم الثالث، قُنْزُعَةً من جواهر تساوي ألفي جنيه. وغادر العميد البحري مصر يوم ١٩ أغسطس

١٧٩٨ على متن (الفانغوارد) مخلفاً وراءه ست سفن مهمتها محاصرة الموانئ المصرية؛ فأبحر في اتجاه نابولي حيث كانت تنتظره مخاطر من طبيعة مختلفة.

ومنذ ذلك التاريخ أصبح بونابرت والذين تبعوه في هذه المغامرة سجناء فتحهم.

* * *

امتدت ظلال الأروقة وسط ساحة الأزهر الشاسعة. وأسفل الشرفات المخرمة ولّى مئات المؤمنين وجوههم شطر مكة. خيم صوت على المكان، فأوقف الزمن، فالزمن زمن الله.

أبعد من ذلك، ومن الجهة المقابلة، كان الضوء، الذي قطع لبرهة بسبب الجدار الصخري الرمادي، يعود للظهور في اتجاه الإيوان. هنا يوجد مركز المعرفة بالنسبة للعالم الاسلامي.

كانت الأجواء من ناحية أحياء الطلبة الأجانب مختلفة. سوريون وفرس وأكراد ونوبيون، يناقشون في جلبة مستمرة مواضيعهم المفضلة: الأحكام والجبر والتأويل وبالخصوص الفلسفة؛ المادة المغضوب عليها، مع ذلك، من مدة وجيزة. أحياناً، وعندما كان المدير المكلف بالحراسة يأتي إلى إحدى قاعات الشباب المنهمكين في مناقشة موضوع شكوكي غير محترمين هيبة المكان، كانوا يصمتون ويعودون لسبحاتهم.

كان هؤلاء الطلبة - أكثر من ثلاثة آلاف - القادمون من مناطق مختلفة من الشرق، يعيشون هاهنا متحللين من كل الانشغالات المادية. كانت التغذية مضمونة في حدها الأدنى من خلال التوزيع اليومي لحوالى ثمانية عشر قنطاراً من الخبز. وكانوا يُمنحون أيضاً الغاز الضروري لإنارة المصابيح. أما بالنسبة لمصاريفهم المحتملة، فقد كانت توزع عليهم كل شهر عطايا.

وإذْ كان الأزهر، قبل أي شيء آخر، مركزاً تعليمياً هو الأكثر أهمية في الشرق جميعه، فإنه كان ينال من الإحسان الشيء الكثير.

وفي معزل عن حي الطلبة، كان قد خصص جناح للمعالجة المجانية للمقيمين المصابين بالعمى، العاهة الأكثر انتشاراً بمصر.

وإلى شرق هذا المستشفى كانت توجد البناية الإدارية. في هذه اللحظة، كان الأعضاء الأكثر تأثيراً في دم النيل يعقدون اجتماعاً في غرفة وضعت رهن

إشارتهم. لقد كان انعقاد اجتماع هؤلاء الأشخاص السبعة معجزة؛ فالتلاقي والاتصال والتنقل في قاهرة محاصرة، أضحى مخاطرة.

خيمت العتمة، لكنه لم يكن هناك مجال لإشعال النور.

نشر نبيل خريطة القاهرة على الطاولة الخشبية وأشار بإصبعه إلى المكان الذي توجد به القصبة.

- هنا أرسوا مدفعيتهم. لقد أخلوا قلعة الجبل من سكانها، وسلبوا موقعاً تاريخياً وجعلوا من إقامة السلاطين العتيقة موقعاً محصناً. ومن هناك يمكنهم، في أية لحظة شاؤوا، أن يمطروا العاصمة بطوفان من النار.

ضرب بطرس ببطن كفه على الطاولة:

- ونحن الذين كان وجه المعتدي، بالنسبة إلينا، وحتى هذه اللحظة، وجهاً تركياً أو مملوكياً؛ ووجه المثال الذي نحتذيه فرنسياً! من الآن فصاعداً لن يشكل الوجهان معاً سوى وجه واحد. يا لسخرية القدر. . .

فتابع نبيل:

- كل هذا ناتج عن خطأ هذا القزم الإيطالي.

- أي إيطالي؟ سأل صلاح مذهولاً.

- جنرالهم القائد! اسمه الحقيقي هو بونابرتي. نابليوني بونابرتي.

- هكذا الأمر. . .، تمتم صلاح، مشاركاً باقي المجموعة في مفاجأتها.

هز نبيل كتفيه وكأنه غير مبال:

- كيفما كان الحال، أن يكون إيطالياً أو غير إيطالي، فإنه هو الذي مكننا من الفرصة التي تحيّناها من زمن طويل. خلال كل هذه السنوات عمم المشاة الطمأنينة بالمدينة، في الوقت الذي كان فيه مراد وأتباعه يَثْرَوْن. انتهى كل هذا! سيعمل المستعمر الجديد على تنظيم شرطته وألويته، وسيجدون أنفسهم عاجلاً أم آجلاً عاجزين عن المواجهة. ويعد تحطيم أسطولهم الدليل القاطع على ذلك.

ثم رفع إبهامه هاماً بأن يقوم بجرد الوضعية على أصابعه:

- هناك حرب العصابات التي يشنها عليهم المماليك؛ فإذا كان إبراهيم في حالة فرار، فإن مراد لم يضع السلاح بعد. ثم هناك المناوشات اليومية للبدويين ومهاجمات الفلاحين في القرى المحتلة، والأسطول الإنجليزي يحاصر مراسينا،

نافياً الفرنسيين، بصفة نهائية، في أرض مصر، وهناك، في الأخير، العثمانيون. لأنه لا مناص من تحرك اسطنبول.

استخرج عثمان من جلابيته ورقة مطبوعة، وتابع عقب نبيل:

- فضلاً عن ذلك، وإذا كانت معلوماتي صحيحة، فإن الإيطالي الذي تتحدث عنه يحاول سدىً أن ينال تعاطف جيراننا. فقد وزع على حكام البلدان المجاورة مذكرة تستهدف طبعاً نشر الدعاية الفرنسية، وقد حصلت على نسخة منها أسلمها لكم.

- هذا يؤكد ما قلته، لاحظ نبيل. فهذا البونابرت - وهو يحط على أرض مصر - لم يقم حساباً لعبثية مسعاه. أما بالنسبة إلينا، فإن الوقت ما عاد وقت كلام وإنما عمل.

- لن يكون ذلك سهلاً، لاحظ بطرس. فهم آخذون في وضع نظام دقيق للإنذار. لقد راقبتهم منذ أن دخلوا إلى المدينة. قد تكون الجماهير قد سلمت كل أسلحتها. يلتجئ المحتلون إلى العقاب الجسدي - حدثوني عن مائة جلدة بالعصا - وإذا تعلق الأمر بمدافع أو باحتياطي بارود، فقطع الرأس. وهذا البارتليمي الذي عينوه على رأس شرطتهم، فإنه يبدو لي أحمق أهوج. وليس هذا كل شيء. فقد أمروا بتدمير كل الأبواب التي تغلق الأزقة، حتى يمنعوا حالات التواصل.

أصدر نبيل ابتسامة سخرية خافتة.

- خبر رائع. أتشكون في أن هذا الإجراء الأخير سيراه البسطاء بوصفه اغتصاباً حقيقياً. كان نظام الأبواب هذا، دائماً، يمنح نوعاً من الاستقلال والشعور بالأمان لأحياء المدينة. وإبطاله سيثير بالتأكيد حنق السكان.

وصمت لبرهة قبل أن يتابع:

- أقترح أن نشرع، ابتداءً من الأسبوع المقبل، في الإعداد ليوم العصيان العظيم. ويجب أن تكون هذه الحركة من القوة بحيث تدفع الفرنسيين إلى فقد السيطرة على العاصمة.

ارتسم بعض القلق على الوجوه.

- انتفاضة منتظمة، تمتم عثمان شاكاً. طبعاً. لكن ما السبيل إلى تفعيل هذه العملية؟ لا يمكنها أن تحقق نجاحاً إلا عبر انتفاضة شعبية. وإخبار مئات

من الناس وإعلامهم بيوم وبساعة الانطلاق يبدو لي مستحيلاً!

- ثمة وسيلة. أتدرون كم في القاهرة من المآذن؟

- أكثر من ثلاثمائة، من غير شك، أجاب صوت.

- يمكننا حتى أن نقدر عددها بمائة وخمسين. وإذن فإن هذه المآذن ستكون سلاحنا الخفي. أبراجنا للإخبار. وبين أعضاء حركتنا، هناك عدد كبير من المؤذنين مؤمنين كلية بقضيتنا. وأقترح أن يمرروا، في أوقات الصلاة، للشعب المعلومات التي نزودهم بها. الفرنسيون يجهلون لغتنا، لا يفهمون منها شيئاً، أو أنهم لن يعلموا منها شيئاً إلا بعد فوات الأوان.

- رائع! قال بطرس بحماس.

انتشرت في القاعة حركات تعجب. ونالت، بالتأكيد، فكرة نبيل الإجماع. ثم قال من جديد بصوت هادئ:

- إخواني، الوقت، من الآن فصاعداً، هو وقت فتنة.

- فتنة! تعجب أعضاء المجموعة بصوت واحد.

- الموت للمماليك! الموت للعثمانيين! والموت لنابليون.

* * *

ما كان لنبيل، في حمأة انشغالاته الوطنية، أن يتصور بأن أخته المبعدة من العائلة لما يقارب السبع سنوات، كانت تعيش على بعد خطوات من مكانهم. لقد كانت من القرب من الأزهر بحيث إن سباب دم النيل كان بإمكانه أن يصل إلى أسماعها لو أن أصواتهم كانت أكثر ارتفاعاً.

رفعت سميرة لسان لهب المصباح بدرجة وسحبت الغطاء ببطء على طفلها. كان علي الصغير ينام ضاماً قبضته، غير عالم بالإحساس السوداوي الذي يجتاح أمه.

تأملته محاولة دفع الشعور بالفراغ الذي لم يكف، ممّا يقارب الشهر، عن الضغط على قلبها؛ منذ أن أتوها بجثمان زوجها علي الترجمان الوسيم، مقطوع الرأس. كان بعض الجيران الذين حضروا المأساة هم الذين تكلفوا بهذه المهمة المأساوية. لقد شرحوا لها بأن الرجل قد ضبط بجرم فادح وهو يدعو زبائن إحدى المقاهي، في وضح النهار، إلى الحرب المقدسة. كان يجهل، بالتأكيد، أن رئيس الشرطة المكلف بالقمع، بارتليمي سيرا شخصياً، كان ضمن الرواد. وقد

جز المجرم العملاق بيديه رأس عنصر الإنكشارية المسكين.

فكّرتْ خلال الأيام التي أعقبت المأساة في العودة إلى الصباح. فبعد أن توفي زوجها، لم يعد هناك، على أي حال، ما يعرقل عودتها إلى أحضان الأسرة. لكنها إن أقدمت على ذلك، فإنها ستفقد حريتها. لا. لن تستطيع أبداً تحمّل وجودها في هذا السجن، وإن كان من ذهب.

فكرت من جديد في تلبية دعوة زبيدة، صديقتها الدائمة، التي وجهتها إليها هذا الصباح أيضاً.

«يجب أن تخرجي. أن تري الناس. السواد لا يلائم النساء، وبالخصوص نساء مثلنا.»

كانت زبيدة الجميلة تخالط الفرنسيين، غير عابئة بانتقادات محيطها. ولم تكن تخالط أياً كان، بل ضباطاً ورؤساء ألوية كانوا يعربون عن إعجاب خاص بمفاتنها وعن رقة ما ظنت يوماً أن رجلاً قادر عليها.

«بعد أسبوعين سيحل عيد وفاء النيل... رافقيني. سيحضر عدد كبير من الناس المهمين. سنكون ضمن عِلْيتِهم. تعالي. من أجل طفلك على الأقل. عليك أن تفكري في سعادته.»

غادرت سميرة الفراش دون ضوضاء وذهبت كي تنظر إلى وجهها في المرآة الموضوعة على الصوان.

مررت برقة كفيها على طول خديها، متحسسة خلال ذلك أولى التجاعيد التي رسمتها سنواتها الثلاثون بمكر حول عينيها وعلى جانبي شفتيها.

واحد وثلاثون عاماً مرت.

ضمت نهديها وتأكدت من أنهما ما يزالان صلبين. مؤكد أن شكلهما قد تدوّر مع مرور السنوات، لكن لا يهم! فالشبق الذي طالما انبعث منهما، ما يزال ماثلاً.

فتحت محاذرة درج الصوان واستخرجت منه شالاً حريرياً أحمر، الهدية الأخيرة من الفقيد علي الترجمان. وضعته حول عنقها وتأملت نفسها من جديد في المرآة.

أجل. زبيدة على حق. السواد لا يناسب النساء.

الفصل الخامس عشر

علت زغاريد النساء المتفردة على دق الطبول والصنوج. كان ذلك يوم ١٨ أغسطس. ثلاثة أيام قبل ذلك تم الاحتفال بعيد ميلاد الجنرال القائد، واليوم حل عيد النيل. وهو أحد اكبر الأعياد الوطنية بمصر. يتم الاحتفال اليوم بمد النهر العظيم. باليوم المبارك حيث يعرف النهر أعلى منسوب في مياهه.

الساعة تقارب السادسة صباحاً. وكرة الشمس الضخمة ترتفع ببطء فوق جزيرة الروضة. الأفق أحمر رماني، والهواء ساكن بين شجر الكافور والصفصاف المتهدل. عاجت بعض الخطاطيف في السماء. حافة النهر سوداء من الناس، وشاطئ القناة والخليج الذي يعبر القاهرة مملوءان أيضاً. عبر هذا الخندق ستتدفق، بعد لحظات، المياه المقدسة. ستجتاح جزءاً من المدينة وستأتي بالخصب للأرياف. ومع مرور الأيام سيخصب الطميُ، السمادُ السحري، الأرضَ، وسيعيد الحياة للطين المتيبس.

كان من لم يعد الشعب الصغير يناديه إلا باسم «أبو نبارت»، أو السلطان الكبير، يتقدم، مصحوباً بالجنرالات وبقواد الجيش وبملازم الباشا وآغا المشاة، نحو المنصة بتلك الخطوات الثابتة التي هي من صفات الفاتحين، تحت وابل من التصفيقات.

من كان بإمكانه أن يتخيل بأن القائد العام قد كاد يحضر هذه التظاهرة لابساً مثل شيخ، الهامة مغشاة بعمامة غرست فيها ريشة إوزة، والجسد مدثر في ثوب دمشقي، والقدمان منتعلان بابوجاً. كان بالأمس قد لبس الزي الشرقي، مأخوذاً بفكرته، لكنه عندما قدم أمام قيادة جيشه، استقبل بضحكات عالية مما جعله يعدل عنه على الفور ويعود لزيه العادي.

كانت ظلال الحامية المصطفة على ضفتي القناة تتمدد. وحتى على ماء الوادي نفسه كان الأسطول في أبهى زينته؛ كانت أعلامه الزرقاء البيضاء الحمراء تشكل بقعاً منارة في عمق السماء.

توقف أبو نبارت عند قدم الظلة وأخذ مكانه على سرادق مذهب أعد للمناسبة.

انحنى مسؤول كي يقيس مستوى ارتفاع النهر. وفي انتظار النتيجة ساد صمت متطلع بين الجمهور.

- خمسة وعشرون قدماً!

- خمسة وعشرون قدماً! ردد الجمهور هذا رقم مشجع.

ذلك أن هذا المستوى هو أحسن ما حصلنا عليه منذ قرن. سيكون الفيضان نموذجياً. لا بالقليل ولا بالمفرط.

أطلق الجمهور العنان لسعادته. أبدوا، نحو السماء، إشارات شكر اختلط فيها، بشكل غريب، اسم النبي واسم السلطان الكبير. حتى لقد بدا وكأن حضور القائد العام لم يكن من غير علاقة بمنة السماء هذه.

أعطيت إشارة تحطيم الحاجز الذي كان يحبس الماء. وبمجرد انطلاق أول ضربات المعول، شرع موسيقيون من فرنسا ومن مصر يعزفون بالتناوب مقطوعات شعبية.

كانت شهرزاد وميشيل، الواقفان في عربتهما العائلية، يشاهدان الفرجة. هذه هي المرة الأولى التي يحضران فيها عيد النيل. عندما كان زوجها قد اقترح عليها الحضور، بدأت بالرفض. كانت تخشى تلك الفرحة الشعبية والتجاوزات التي يمكن أن تنتج عنها. غير أنه لم يكن مجال للأخلاق. كان الجرح الناتج عن فقدانها لطفلها ما يزال حياً. والآن، وهما حاضران، ما عادت نادمة على أن استجابت لإلحاح زوجها. كانت تلك الألوان التي تتراقص حولها تخفف بعض الشيء من آلام أيامها الأخيرة. خصوصاً وأن هذا الشعب كان حاضراً؛ هذا الشعب الذي يلبس أسمالاً والذي كان له موعد، منذ غابر الأزمنة، مع البؤس والمرض والجوع والذباب. من أين كان يستقي تلك القدرة على تحمل هذه المآسي القديمة دون أن يعرب البتة عن شكوى؟ دون أن يتخلى يوماً عن بسمته أو أن يسهو عنها؟ أم ربما كان يستقي كل ذلك من سحر النيل؟

وهذا الأبو نبارت الذي كان يقول عنه: لم أرَ قط شعباً أبأس منه ولا أجهل ولا أبله. . . لكن يجب التماس المغفرة لهذا الرومي. كيف كان بإمكانه، هو القادم من عالم آخر، أن يعرف بأن المصري يولد برقٍ بردي في قلبه مكتوب عليه بأحرف من ذهب بأن السخرية تحل محل اليأس.

انقلب الشيوخ، الذين أُكلت وجوههم بلِحىً بيضاء، فجأة إلى فتيان. فاستعادت حدقاتهم التي قرضها الرمد، نورَها. وسمحت النساء لأنفسهن - ومن يدري! - خلف حجابهن، بإيتاء إشارات متهتكة. وتمرغ الأطفال في الوحل وكأنه قد انبثق من أحد القصور. استغرق ذلك حوالى الساعة، لأنها كانت ساعة العيد، ولأنه كان ممنوعاً من قبل الأرباب ومن قبل الله بأن يتم الإفراط في الاستمتاع بهذه اللحظة. وكانت أكثر إدهاشاً أيضاً تلك اللحظةُ التي حيًا فيها طفلٌ باسمٌ سيدَهم الجديد، بالطريقة نفسها التي كانوا يحيون بها، في غابر الأزمان، رمسيس والإسكندر والقيصر وصلاح الدين.

كم هي كثيرة تلك الأشياء التي تضحك المصرين ضحكاً هو كالبكاء.

هتك الحاجز لتوه، فتدفق النيل كالوابل في القناة. دوت المدفعية الفرنسية بقوة حتى تحمل النبأ إلى أبعد مدىً. قذف بتمثال يجسد خطيبة النيل في المياه. فاستقبل ذلك، على الفور بهدير من الأصوات الفرحانة. ارتمى رجال ومراهقون في المياه بثيابهم، ورمت النساء في النهر مِزقاً من شعرهن، وبقطع ثوب ستصلح يوماً، لهن أو لأحد أقاربهن، كفناً. وبالموازاة مع ذلك، انطلقت، من بولاق، مئات المراكب نحو القناة للفوز بالجائزة المخصصة للذي يحصل على الصف الأول. وسيسلم أبو نبارت شخصياً الجائزة.

عندما انتهت المسابقة، وألبس الجنرالُ الموظفَ الذي يرأس توزيع المياه عباءةً من الفرو بيضاء، وأخرى سوداء الرجلَ الذي سيسهر على الحراسة، شرع يوزع بسخاء هبات كثيرة تنازعها الجمهور بشراسة.

أرخى موسيقيو الأمتين العنان لآلاتهم فاختلطت في الهواء جلبة تصم الآذان.

كان الجنرال يرسل التحايا بكفيه، مائلاً بشكل غير متقن، على الطريقة الشرقية، ثم قرر أن يعطي إشارة الانطلاقة. سار قادة الجيش والشيوخ في أعقابه، والوجهة هي ساحة الأزبكية، الإقامة القديمة للألفي بك.

وبفعل الصدفة، وجد فرانسوا بيرنويي نفسه يسير جنباً إلى جنب مع حاكم القاهرة الجديد، الجنرال ديبوي.

لاحظ رئيس ورشة صناعة ملابس جيش الشرق بحماس جادٍّ:

- هذا مفرح، يا سيدي الجنرال. يبدو أن الشعب قد تقبل وجودنا. ويبدو أنه، أكثر من ذلك، يثمنه. ألا تتفق معي؟

- أتفق معك يا صديقي. تماماً. هذا بالضبط هو الهدف المنشود. نحن نخدع المصريين بارتباطنا المتصنع بدينهم الذي لا يؤمن به لا بونابرت ولا نحن. ومع ذلك، ورغم كل ما يقال، فإن هذا البلد سيصبح بالنسبة لفرنسا بلداً بلا قيمة. وسيكون للمعمرين - قبل أن يفيق هذا الشعب الجحود من دهشته - كل الوقت للقيام بعملهم.

بدا بيرنويي متجاوزاً، وواصل الآخر:

- هذا صحيح، فطباع السكان تقسو. إن لطفنا لَيَبدو لهم خارقاً للعادة، وشيئاً فشيئاً، تماماً كما لاحظتَ أنت، سنقلل من قسوتهم، وإن اضطررنا إلى وضعهم في قبضة نظام صارم لإشعارهم بالخوف الضروري، من خلال معاقبة بعضهم من حين لآخر؛ فذلك سيوقفهم عند الحد الذي يجب أن يقفوا عنده.

وبعد أن أبدى ديبوي ارتياحاً لكلامه، انطلق للحديث في موضوع آخر.

لكن فرانسوا ما كان عاد ينصت. كان يقول لنفسه بأن زوجته الحنون التي تنتمي إلى أفينيون، كانت محقة تماماً: يا إلهي! كم يمكنه أن يكون ساذجاً!

- انظري، قال ميشيل وهو يشير إلى الموكب. هذا غريب. كنت أتصور أنه أطول قامة.

- عمن تتحدث؟ سألت شهرزاد، المشغولة البال بأمر آخر.

- أتحدث عن السلطان الكبير! هو لا يتجاوز خمسة أقدام. هذه قامة قصيرة بالنسبة لجنرال، أليس كذلك؟

- ربما، لكن له رأساً ضخماً. هذا يعوض ذاك.

ركزت بصرها كي تفحص، بشكل أحسن، سيد مصر الجديد. لم يبدُ لها محياه وسيماً. كانت قسماته واضحة، وجبهته عريضة، وشفتاه دقيقتين. ما توحي به ملامحه وخده كان به شيء متفرد؛ العينان متقدتان، فاحصتان؛ ذاك النوع من العيون القادرة على اختراق القحف. ماذا عساه يشعر به في هذه

اللحظة وقد ارتفعت العقائر بمدحه ومدح الجيش الفرنسي، لاعنة البكوات واستبدادهم. لكن، هل هي فعلاً أصوات الشعب، أم فقط أصوات الأقباط والمسيحيين؟

لكن، ربما كان القائد العام يفكر في ثلة النساء الآسيويات اللواتي استقدمهن لينسى بهن الخائنة جوزيفين، واللواتي لم يطأهن، للأسف، بسبب حقارتهن والروائح المنبعثة منهن، حسبما أوضح. أم لعل أفكاره تكون الآن موجهة نحو تلك الفتاة التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة بالكاد، الصغيرة زينب، فتاة الشيخ البكري التي وقع عليها اختياره. سيعتليها بالتأكيد في هذا المساء. سيستولي عليها بالطريقة نفسها التي استولى بها على إيطاليا منذ سنتين خلتا. لن يكون الأمر متعلقاً بحب، بل بغزوة.

- شهرزاد. . .

نادى شخص لتوه باسمها.

- السلام عليك.

التفتت. كانت امرأة تقف على قدم عربة وتمسك طفلاً بيدها.

إذا كان ميشيل قد استغرق وقتاً ليتعرف عليها، فإن شهرزاد لم تتردد. قفزت إلى الأرض واحتضنت أختها.

ظلت المرأتان في أحضان بعضهما بعضاً لمدة طويلة وكانت سميرة هي أول من قال:

- أنت دائماً رائعة الجمال. . .

- وأنت دائماً جذابة جداً.

- ابني علي، قالت وهي تشير إلى الطفل بجانبها.

ثم قالت للطفل:

- أقدم إليك خالتك، شهرزاد.

رفعت شهرزاد الطفل إلى شفتيها.

- جميل. ليحفظه الله.

- صورة من أبيه، قالت سميرة.

ثم تابعت بنبرة محايدة:

- باستثناء الأنف؛ فهو أنف جده.

أشارت شهرزاد إلى زوجها:
- أنت لم تنسيْ ميشيل.
- بالطبع لا. ضحيتك في لعبة الضامة.
- وزوجي، منذ شهور.
لم تبدُ المرأة الشابة مفاجأة.
- هذا خبر سعيد. ألف مبروك.
ثم وجهت كلامها لميشيل بالخصوص:
- أختي نمرة. أنت الوحيد الذي كان لك صبور معها. أعتقد أنها قد أحسنت الاختيار. أسأل الله أن يرزقكما الرفاهية وأن يهبكما سنوات طويلة من السعادة.
ثم تقوست قليلاً.
- أنا لم أحظ بهذا الحظ. فقد توفي علي.
- كيف؟
- منذ أشهر. قتله أحمق.
وشرحت لهم في كلمات قضية الخمارة والعقاب الفوري الذي أنزله به حب الرمان. قال ميشيل:
- هذا فظيع. إنها صدمة حقيقية.
- لقد مر هذا الشخص يوماً بالقرب مني. إنه الشيطان نفسه.
أحاطت ذراع أختها بشفقة.
- أنا متأسفة يا أختي.
- هذه هي الحياة. ما الذي بإمكاننا فعله؟
سألت شهرزاد بصوت متردد:
- لماذا لا تعودين إلى الصباح؟ أليس ذلك في صالحك... وصالح الصغير؟
- أشكرك. لكن لا مجال للحديث عن ذلك.
- لقد نسي الماضي. الوالد...
- لا يا شهرزاد. إنني متأثرة بلطفك، لكن لا تصري. إنني لا أريد أن

أعيش وكأنني مخطئة أو شاعرة بالذنب. إذا عدت للصباح ستثار مشكلات أخرى عاجلاً أو آجلاً.

- على الأقل تعالي لزيارتنا. ستكون أمي في غاية السعادة برؤية حفيدها.

- لِمَ لا؟ ربما قمت بذلك ذات يوم.

- عديني.

- يوماً ما ربما. . . إن شاء الله.

مدت يدها لميشيل.

- مرة أخرى، تمنياتي بالسعادة.

- تنصرفين الآن؟ صاحت شهرزاد. انتظري قليلاً. لنا الكثير مما نقوله بعضنا لبعض.

- إلى فرصة أخرى. أصدقاء ينتظرونني.

ثم أشارت إلى أناس ضمن الحشد. امرأة ورجلان.

- أنت تذكرين زبيدة، أليس كذلك؟

لاحظت شهرزاد على الفور بأن الشخصين اللذين يرافقان الشابة يرتديان البدلة العسكرية الفرنسية، فانقبض قلبها.

أرادت أختها أن تنصرف، لكنها أمسكت بها تلقائياً.

- لحظة، أرجوك. إذا لم تكوني تريدين زيارتنا بالصباح، فاسمحي لي على الأقل بالقدوم لأراك بين الفينة والأخرى. سيسعدني ذلك كثيراً.

- لم لا. أنا أسكن قبالة الأزهر، بمنزل في زاوية شارع المعز. الطابق الثاني. ستعثرين على المدخل بسهولة. ثمة حنفية قرب الباب.

- سميرة، هيا.

كانت زبيدة تستعجل.

- إلى اللقاء إذن. . .

مسدت شعر الصغير.

- اعتن بأمك. واعمل على أن لا يمسسها سوء.

- نعود؟ سأل ميشيل.

قالت شهرزاد وقد استولت كآبة على محياها:

- يا للحزن!

- من دون شك...

أجاب بنبرة محايدة مشغولاً بالحزن الذي يستشعره عند شهرزاد أكثر مما يستشعره عند سميرة.

وفي الوقت الذي تحرك فيه الجوادان، لاحظ مع ذلك:

- إنها لا تلبس الأسود...

* * *

ظل كريم برهة طويلة بلا حراك ناظراً إلى العربة المبتعدة في اتجاه الجيزة. وعندما لم يعد يبين من العربة سوى نقطة صغيرة، قرر العودة إلى الأزبكية.

لم يكن قد فهم بعد لماذا كانت شهرزاد قد رفضت بصفة قطعية - عندما ذهب إلى الصباح - أن تستقبله. ومع ذلك، فالله يشهد كم ألح. كان يفتقدها. خصوصاً في هذه اللحظة التي يشعر فيها بأنه محبط ووحيد. لم يعد يملك شيئاً، إن كان قد سبق له أن ملك شيئاً. كانت أحلامه قد غرقت مع آخر مركب من مراكب مراد. القبطان باشا... الأميرال العظيم. هو، من الآن فصاعداً، ليس بشيء، تائه لا غير، شبح يبحث عن شبح آخر اسمه باباس أوغلو، ولا يجد له أثراً. ظن بحارة ناجون بأن اليوناني قد انطلق باحثاً عن إبراهيم بك في سوريا، واعتقد آخرون بأنه قد فر إلى سميرني.

وصل لتوه، تائهاً في أفكاره، إلى الأزبكية. التحق الجنرال الفرنسي بقصر الألفي بك الباذخ، واجتاح ساحة القصر الشعراء المنشدون والمهرجون وقارئو الكف.

في أزمنة غابرة، شهد هذا المكان أوج مجده. فقد كان حيَّ سُكنى الأمراء. كانت الخضرة تغطي القصور البيضاء ومشاعل كثيرة تنير الساحة، وكانت الأحواض تُمخَر، أثناء الفيضان، بعشرات المراكب الشراعية. ويحكى أن المصابيح المعلقة كانت تلقي بأنوار نحو الشاطئين عند مقدم الظلام، معطية الانطباع بأن السماء قد أفرغت في البركة كل نجومها. فكان جمال المنظر يُثمل الذهن مثل رائحة الخمر. بعد ذلك أفسدت أيادي الزمن والترك كل شيء. صحيح أن الحدائق قد ظلت على حالها، لكنها فقدت من ألوانها.

توقف كريم للحظة، مشدوهاً بمشعوذ كان يختفي ويظهر، بدقة متناهية، قطعة ثوب تحت أواني من الألومنيوم.

واصل طريقه وهو يفكر في أنه سيكون أمراً جيداً أن يوجد مشعوذون للقدر، أي رجال يملكون سلطة إخفاء لحظات الحياة السيئة بعملية سحر بسيطة.

كان يتأهب للتوجه نحو الوادي عندما استرعت انتباهه مجموعة صغيرة من الناس، كانت تعاليقها المريرة تتناقض كلية مع الإطراء الذي كيل، قبل دقائق، للسلطان الكبير.

- ما الذي يريده هذا الجنرال؟ همس صوت. هل يعتقد أنه يستطيع، بانتحال عاداتنا وبتحوله إلى مُدافع عن نبينا، أن ينسينا بأنه قد سيطر علينا، سيوفنا في أيدينا؟

- مُدافع عن النبي، قال أحدهم هازئاً. لهذا السبب يُحيلُ رجاله جوامعنا مقاهي! إنهم بسلوكهم هذا يتصرفون كأقبح ما يكون الكفار.

- إنهم ليسوا سوى منافقين!

- وكدليل على ذلك، فإن العيد الكبير سيحل في غضون ثلاثة أيام. وقد قرر الشيوخ بأن العيد لن يقام هذه السنة، ومبررهم في ذلك قلة المال. والواقع أن الجنرال قد تأكد من أن رفض إقامة احتفالات العيد يراد منه شكلاً من أشكال الاحتجاج على وجوده وأصحابه.

- ممتاز! لقد أجاد الشيوخ التصرف!

- لا شك في ذلك، غير أن الجنرال قد ذهب بخبثه حد أن وهبهم المبالغ المالية الضرورية لشراء المشاعل وفوانيس العيد، ليدلل، كما قال، على الصداقة التي يكنها للإسلام.

قال الرجل منهياً كلامه - وهو يتظاهر بتمزيق ثيابه:

- ليخسأ، وليلق به رب العالمين في الجحيم ! علينا أن. . .

استغرب كريم عدم سماع بقية الجملة، وحاول البحث بعينيه عن الرجل الذي لم يُتم كلامه. كان يبدو في غاية الذهول. كان محياه شديد الامتقاع، وكان مثبتاً بصَرَه في شبحين، رجل وامرأة، مقبلين نحوهم بخطوات واسعة. صاح صوت (باللغة التركية):

- هنا!

في لحظة، أصبحت المجموعة المحتجة وكأنها على حافة جرف هاو.

حاول كريم، المذهول، أن يفهم سبباً لهذا النزول المفاجئ. كان الشبحان، قد أصبحا على بعد خطوة منه. وخلفهما كانت مجموعة من المشاة مقبلة. ففهم.

كان الأمر يتعلق ببارتليمي سيرا وزوجته. كان اليوناني قد أخذ بتلابيبه.

- ألست ابن سليمان! صديق باباس أوغلو. كيف حالك!

التفت إلى زوجته. كانت شديدة البدانة. ومن الغريب أنها كانت تعتمر طاقية، هي عادة من لباس الرجال. أما جسدها فكان ملفوفاً في تنورة تصل حد جيدها، فتضغطه معطية الشعور بالاختناق، وتسترسل، مقيِّدة جسدها، إلى أسفل الركبتين. وتحت الثوب المضغوط، الذي يعطي انطباعاً للرائي بأنه سينفزر، كان ممكناً تخمين ثديين عظيمين. كانت تصل بالكاد إلى أعلى، بقليل، من وركي بارتليمي، مما كان يُشعر، أكثر فأكثر، بمظهرها الفظ. أما بالنسبة لزوجها، فلم يكن يتزيا بطريقة أقل أصالة. ريش من حرير ملون مغروس في شعره؛ كتفاه مغطيان بعباءة مبطنة بفرو، على حواشيها رسوم غريبة.

- «لولي»... أقدم لك كريم... محارب سابق في جيش مراد بك.

أجابت باللغة الإيطالية، بصوت أغن:

- صديق مراد.. هذا رائع...

لم يبد كريم ضعفاً. كان مستعداً للدفاع عن نفسه، مراقباً ببصره السيف العريض المدلى على فخذ بارتليمي.

- أتدري أن الزمن قد تغير يا كريم؟ ذهب المماليك وانتهى البكوات وطغيانهم. إلى الجحيم! الفرنسيون الآن هم السادة. والطغيان هو أنا، حب الرمان، مفهوم؟

ترك ابن سليمان اليوناني يتابع:

- أنا في قمة الحيرة، إذْ أجدني ملزماً بقوة القانون بإلقاء القبض على المتعاونين القدامى مع مراد وإبراهيم والآخرين. كل الذين خدموا الدولة القديمة.

- ذاكرتك ضعيفة. أتكون قد نسيت بأنك كنت لسنوات في خدمة المماليك؟ لا يهم! تابع مسعاك حتى نهايته، يا بارتليمي، وكف عن الدوران حول بعرك، أنت تصيبني بالدوار. تنبعث منك روائح نتنة.

بدت عيون بارتليمي وكأنها تخرج من مآقيها. أقفل كفه على مقبض السيف واستله.

تظاهر ابن سليمان بتجاهل التهديد واتخذ زوجة اليوناني هدفاً له.

- رجلك شجاع، أليس كذلك؟ عليك أن تكوني فخورة به. عندما يكون مسلحاً لا يخشى أحداً. لا يخشى بالخصوص سيئي الحظ الذين يواجهونه بأيديهم لا غير.

تابع، لكن موجهاً كلامه هذه المرة لبارتليمي:

- لطالما تساءلت عن قيمتك في معركة بالأسلحة نفسها. أعرف، للأسف، بأنني لن أعيش طويلاً حتى أعرف الجواب. اضرب إذن، يا صديقي، وأكد الحقيقة.

- بحق طاقيتي، إن هذا الرجل لأحمق، صاحت المرأة. ليمُت إذن! هيا يا حبي. جز رأسه ما دام مريضاً.

- أجل، صاح المشاة. هيا! هذا هو المصير الذي يستحقه مناصرو مراد.

وعكس كل التوقعات، ظل اليوناني غير مبال بتشجيعات رجاله، وبقي ثابتاً، سيفه في يده.

- هيا! صاحت زوجته وهي تتقافز. أقتل هذا الكلب!

- اصمتي، أيتها المكرشة! دمدم بارتليمي. أغلقي فمك. لست في حاجة إلى من ينصحني.

أودع، بحركة حادة، السلاح في غمده، وأبدى ابتسامة.

- الجريد... هل تعرفه؟

حرك كريم رأسه، مفاجأً.

- الجريد؟ طبعاً. لقد شاهدت، ككل الناس، دوريات فيه.

- هذا رائع. ما رأيك في مبارزة؟ بالسلاح نفسه. موافق؟

فكّر كريم لبرهة. كانت اللعبة المقترحة تتمثل في تصادم بين فارسين يحمل كل منهما عود نخيل - جريد - يبلغ من الطول ستة أقدام (١,٥٠ م)، منجور من طرف ومكور من الطرف الآخر. وعندما ينطلق الخصمان عدواً، يسعى كل منهما لإصابة الآخر بهذا الرمح الملفق. وكريم لا يجهل، ما دام قد حضر مبارزات من هذا النوع، أنه بفعل قوة ذراع صلب، قد تكون إصابة الجريد

بليغة. الأمر كله في دقة وصلابة الخصم. لكل ذلك، فإن اقتراح مخاطبه لم يكن يحمل في طياته أي قدر من الرحمة. وقد سبق لكريم أن رآه يشتغل عندما كان في خدمة مراد بك. لقد كان، بالتأكيد، الفارس الأروع الذي لم ير له مثيلاً. لكن هل له خيار؟

- لِمَ لا. لكنني أريد أن أعرف ما الذي سيكونه الرهان.

- الرهان؟ أتسمعين؟ كريم يطالب برهان!

انفجر هذه المرة ضاحكاً متبوعاً بباقي المجموعة. أما زوجته فكانت تضحك حتى علا صوتها على الجميع.

- الرهان هو رأسك، رأسك الصغير! إذا انهزمت: هس هس! أما إذا انتصرت... لكن لا تحلم بذلك... ماذا ترى؟

- أين؟ ومتى؟

- بعد قليل. عند غروب الشمس. على قدم الأهرام.

- لنتبارز بالجريد، يلزمني فرس. وأنا لا أملكه.

- ستحصل عليه. فرس، عشرة، عشرون. ما شئت.

- في هذه الحال، سأحضر في الموعد.

- ستحضر، لأنه لا خيار لك. إذا سعيت إلى الفرار سأعثر عليك أين ما كنت. ومتى شئتُ.

- لا يشغلنك ذلك، يا بارتليمي. فرجولتي أنا لا توجد في غمد. هي هنا - وصحب جملته بحركة فاحشة مشيراً إلى سرواله.

* * *

كانت الشمس تغوص ببطء في الرمال. وكان الأفق بنفسجياً. أما الأهرام الثلاثة فقد غشاها لون بستيلي. وفي الأسفل، كان أبو الهول يتأمل، بمحياه الأليف القاهرة والنيل وشساعة الصحراء.

تأكد كريم، للمرة الأخيرة، من صلابة العود الذي سيستعمله كرمح. وبعد أن رتب الريشات التي تزين أحد طرفيه، توجه نحو بارتليمي.

- لنقارن. قال وهو يضغط بقاعدة جريده على الرمال.

- أية فائدة منْ ذلك! ليس المهم هو الطول، وإنما مهارة الفارس.

- الطرفان هو ما يهمني.

مد بارتليمي إليه العود واثقاً من نفسه. مرر كريم أصابعه على الطرف ولاحظ على الفور بأنه أكثر حدة مما يكون عادة. إذا لم تكن النخلة من القوة بحيث تخترق اللحم، فإن عودها عندما ينجر بهذه الطريقة قد يتسبب في جراح بالغة. أعاد العود إلى اليوناني، بعد أن رأى بأن سلاحيهما متساويان.

- هل هو حاد بما يكفي، ليخترق وجهك؟

- ليس وجهي، ربما، وإنما بالتأكيد عينيك الشبيهتين بعيني فأر.

قهقه بارتليمي.

- أسمعتم؟ عيني فأر... هذا الفلاح ميت وهو لا يعلم بذلك. ثم علقت لولي:

- إذا كان يتحدث بهذه الطريقة، فلأنه لا يعرف ميزتك كفارس لا مثيل لك. الفارس الأروع في مصر كلها.

توجه بارتليمي نحو الدواب وامتطى فرساً أصيلاً رائعاً.

- أما هذا، فلي. ولك أن تختار ما تشاء مما عند أصدقائي.

كان كريم يستعد لفحص الدواب عندما استرعت مسمعه حمحمة. توقف فوراً. هل هي حمحمته؟ هل تكون صادرة عن أروع جواد عرفه؟ مد كفه نحو خطم الحيوان الذي استجاب فوراً لمداعبته محركاً باحتداد عرفه.

-كيف حصلت على هذا؟

- صادره الفرنسيون، أجاب أحد المشاة. لماذا؟ هل يهمك؟

- آخذه.

استُقبل اختياره بعاصفة من الضحكات.

- أسنهم! لا شك في أن عقل صديقنا مريض!

خاطب كريم، غير مهتم باستهزائهم، حب الرمان:

- الرهان هو رأسي، أليس كذلك؟

- تماماً، لماذا تسأل؟

- ما دمت قد وافقت على أن تكون المواجهة بسلاح متساوٍ، فإن العدالة تقتضي أن خصمك يستحق أيضاً جائزة. إذا ما فزت، فإن هذه الدابة ستكون لي.

احتج أحدهم بحدة، هو بالتأكيد المالك الجديد للفرس:

- لا سبيل إلى ذلك، فالفرس ملك لي.

- أصمت! صاح بارتليمي.

وضع كفيه على وركيه وقاس قامته بقامة كريم.

- أنت، مع ذلك، متعجرف.

- لقد تحدثت عن معركة عادلة. هل تعادل حياة إنسان بحياة فرس؟ فرس عجوز؟ آفتك ظاهرة.

اعتلت تكشيرة شفتي اليوناني.

- هيا يا صديقي. أنا لا أدري لماذا تضيع وقتي. موافق بالنسبة للدابة. وعلى أي حال فهي ما عادت تقوى على الوقوف، ولن تستطيع حتى أن تتبعك إلى الجحيم.

- لحظة! بأي شيء يكون تقييم المعركة؟ بالنقط المحصلة أم بالجراح؟

أصدر بارتليمي ضحكة عالية.

- لا، يا صديقي. سيكون النصر من نصيب من يبقى على سرجه. حتى ولو كان جسده مثخناً بألف ضربة جريد. موافق؟

انطلق الفارسان، في زوبعة من الرمال، في اتجاهين متعارضين. وعندما يبتعدان أحدهما عن الآخر كانا يتوقفان.

كان كريم يشعر بالجواد، تحته، مشدوداً كما لم يشعر به من قبل. كما لو أنه - وقد عثر من جديد على سيده - لم يكن يريد إلا أن يثب دون أن ينتظر لحظة واحدة. مال على عنقه وحك بأظافره جلده، مرات متعددة، بين عينيه. عبرت ارتعاشةُ لذةٍ كل جلد سفير.

عندما عاد إلى الاستقامة فوق سفير، شد على الزمام بقوة، كفه اليمنى معقودة على الجريد، وعدا بالفرس قدماً.

عبر الفارسان بسرعة فائقة قاعدة الهرم الأعظم. كانت الأرض تهتز تحت خطواتهما. كانا يعدوان الواحد منهما في اتجاه الآخر تماماً، وهما يقتربان أحدهما من الآخر في احتدام لا يصدق، مقلصين في كل لحظة المسافة التي تفصل بينهما.

هما الآن قريبان جداً أحدهما من الآخر. أقام بارتليمي ذراعه. وعندما صار الجريد موازياً لكتفه، وقف، مستقيماً وعلا عرف فرسه. كان ممكناً تخمين مدى انعقاد عضلاته. علا تعبير قاسٍ على محياه.

صاح:

- ليلعنك الله.

فرددت الصحراء صدى صرخته الذئبية، وعلت حتى أدركت قمة المآثر الحجرية.

ما عاد كريم يتردد. عندما قدر بأنه قد أضحى قريباً، وقف على الركابين، وأطلق رمحه بكل قوته، متخذاً صدر اليوناني هدفاً له.

لولي والمشاة حبسوا أنفاسهم. قطع الرمح الهواء. كان موجهاً لقصده بقوة. وفي آخر لحظة، حرر بارتليمي، بخفة مدهشة، إحدى ساقيه، وأفرغ السرج وتدلى في الهواء. بدا وكأنه قد هوى. لا، لم يهوِ. لقد توارى، ملتصقاً محتكاً بخاصرة فرسه اليسرى، وهو متشبث بكعبه، بأحد الركابين.

مر الرمح فوقه، متموجاً وهوَى على الرمال، بعيداً خلفه.

أصدر اليوناني قهقهة انتصار، وعاد إلى البروز، دائماً رمحه في يده.

تقاطع الفارسان بسرعتهما الفائقة في لحظة خاطفة. وبمجرد ما تجاوز بارتليمي كريم، أوقف فوراً مطيته. كانت عملية الإيقاف من القوة بحيث ارتج الفرس بكل جسده، ثم أرغمه على أن يستدير. عاد الفرس إلى احتداده، وعضلاته تعاني من هذا التوقف العنيف. غرس اليوناني كعبيه في الخاصرتين، فانطلق الفرس من جديد، لكن هذه المرة لملاحقة كريم.

رغم أن كريم استشعر حركة اليوناني، ورغم طاعة سفير الكاملة، فإن ابن سليمان لم يستطع أن ينقلب على عقبيه. لم يعد له خيار. عليه أن يوسع المسافة بينه وبين الآخر بسرعة، دائماً بسرعة أكبر، منتظراً اللحظة المناسبة لينعطف، وليعود لمواجهة خصمه، أو أن يلتف حوله. تقوس تلقائياً، معتمداً على الخطام وعلى المهماز كي يدفع فرسه إلى المخاتلة في عدوه. هل استشعر سفير الخطر؟ ضاعف السرعة من تلقاء نفسه. كان وقع حوافره يهز الكثبان، وكانت الريح تلطم منخاريه وشفتيه المبيضتين من الزبد. وفي الخلف كان يُصدي العدو المجنون للمطاردة. كان بارتليمي، متحرراً فوق فرسه، يتعقب فريسته. كان

كل كيانه يعكس رغبة جامحة في الانتصار، إلى درجة أن قوته بدت وكأنها تفوق أضعافاً مضاعفة قوة الفرس الذي يحمله.

اقترب. علت أصوات تشجيع المشاة على أصوات الحوافر. وطبعاً، كان حب الرمان مسيطراً على الميدان. قطعا الكثبان في خضم زوبعة رملية. انعطف كريم حول أبي الهول، دون أن يكف عن المخاتلة بفرسه، وانطلق نحو الغرب كي يجعل نظر بارتليمي مواجهاً للشمس فيشوش بصره. لكن نفس سفير كان قد أصبح أجشَّ وضاجاً. كان يكاد يعلو على صوت عدوه. ففهم ابن سليمان، تبعاً لذلك، بأن الزمن قد فعل فعله. كانت أكثر من سبع سنوات قد انقضت. لم يعد سفير فرس طفولته. وخلفه، لم يعد الآخر يبعد إلا بمسافة قصيرة. حاول، بمجهود أخير، أن يوسع المسافة بينه وبينه. لم يعد ثمة مجال. دوى صفير مختنق. انقبض جسده. صدم الجريد ظهره بقوة. اخترق الطرف المسنن ثيابه وانغرس بعمق في جلده قبل أن يسقط على الأرض. انتزعت اللذعة منه، رغماً عنه، صرخة ألم، أجابت عنها صرخة أخرى، هي هذه المرة صرخة نصر.

كان المشاة ولولي، المتخففون من ضغطهم، يصفقون بقوة. كان بطلهم قد سجل النقطة الأولى.

- برافو! صاحت المرأة...

- وبعد يا صديقي! هل ننطلق من جديد؟

كان بارتليمي قد عاد إلى وضعه، وكان العرق يغرق قسماته، معمقاً أكثر تعبير وجهه المجنون.

أسرع رجلان إلى جمع الجريدين. قال كريم وهو يمد يده إلى إحدى الجريدين.

- ننطلق من جديد...

كان الغسق يستولي رويداً رويداً على الصحراء ولم يعد بالإمكان تمييز انحناءات الكثبان. كان يمكن فقط رؤية انفصال الكتل السوداء عن الأهرام وعن أبي الهول الجاثم في مكانه.

ثلاث ساعات. ثلاث ساعات طوال من الملاحقة، ومن الكر والفر. ثلاث ساعات ضمخت الهواء بالعرق والرمال وروائح الجلد.

عندما يحرم الله الفرس من قوته، فإنه يعول على ذهن الفارس. هذا المثل القديم قدم الأهرام، لم يكن كريم يكف عن ترديده. والآن يسمح كل شيء بالاستنتاج بأن الخاتمة وشيكة. كانت علامات الضعف الأولى قد بدت على خصمه. أكثر من مرة، كان بارتليمي يخطئ بشكل غير قابل للتفسير هدفه الذي كان يبدو في متناوله. لكن الأدهى هو تعب فرسه. هو الذي خانه. بيد أن سفير، وضد كل التوقعات، استعاد قوته، وشرع يقاوم بطريقة رائعة. أما فرس اليوناني فكان قد أخذ يقطب، ولم يعد يستجيب لراكبه، وكان سيده يضطر إلى شد اللجام بقوة إلى أن مزق شفتيه وخضبهما بدمهما النازف.

إنه الآن يسيطر عليه.

وفي حركة يائسة، هوى اليوناني من على جواده، وهو يحاول أن يقترب من ابن سليمان. كان في متناول كريم، وهو منبطح أرضاً على بطنه، رأسه معفر في الرمال. قفز كريم إلى الأرض جريده في يده، وخطا نحوه. لم يبدِ حب الرمان حراكاً. انقبضت أصابعه. أطلق أنة ألم. كانت ذراعه اليمنى مطوية تحته في وضع صعب، وكان ساعده قد انكسر بفعل الارتطام.

ضغط كريم أمام الأنظار المرعوبة للولي وللمشاة، جريده في محيط عنق اليوناني.

صاحت زوجة بارتليمي بكل قواها:

- لا تقتله!

- ما رأيك يا صديقي... هل أقتلك؟

غرز بارتليمي أصابعه أكثر في الرمال، ولم ينبس.

- الشفقة يا سيدي، صاحت لولي.

لم تكن مخاوف لولي مبنية على أساس. كان كريم قد ألقى بجريده بعيداً. انحنى على المهزوم، وأنارت ابتسامة خفيفة محياه الذي بلون الرماد بفعل الغبار.

- كانت معركة جيدة يا بارتليمي سيرا. أنت أحمق، لكنك فارس كبير.

انقلب الرجل، بمجهود جبار، على ظهره.

- هذا يكفي! خذ الفرس واذهب. اذهب، لا تلاقت عيوننا أبداً. في المرة المقبلة لن تكون ثمة معركة-متكافئة.

تهالكت لولي على ركبتيها قرب زوجها.

- حبيبي... قالت متأوهة، محموقة.

وجد اليوناني نفسه قادراً على دفعها بفظاظة بعيداً عنه، بذراعه السليمة.

- ماذا تنتظر؟ اغرب! كرر. بسرعة!

أمهل ابن سليمان نفسه حتى سأل المشاة:

- هل من بينكم من يعرف أين يمكنني العثور على باباس أوغلو؟

- نيكوس؟ ماذا تريد من هذا الكافر؟!

فكذب:

- هو مدين لي بألفي بارة.

قال أحدهم هازئاً:

- في هذه الحال لن تصل إليه قريباً! لقد التحق بعساكر مراد بأعالي مصر، قد يكونون الآن بالقرب من الشلال الأول.

- أما انتهيت بعد؟ صاح بارتليمي. اغرب! اغرب!

الفصل السادس عشر

كان الغمام الليلكي، لهذا الصباح الباكر، يلف قصر الصباح. اعتدلت شهرزاد بهدوء، في تجويفة السرير. تأملت للحظة ميشيل الذي كان ما يزال نائماً. مسدت بلطف شعره وقالت لنفسها إنه من الأجدى ربما، مغادرة الفراش. لم يراودها النوم طوال الليل، ولن يراودها الآن.

كانت أفكار كثيرة تتصارع في ذهنها. كانت تشعر في داخلها بألم. ألم من أنها قد أصبحت ما أصبحته. هل يمكننا، ونحن بعد في الواحدة والعشرين من عمرنا، أن نشعر بهذا الفراغ الذي يعتمر كل شيء؟

عاد ذهنها للاهتمام بزوجها.

زوجها... كم أصبحت هذه الكلمة ثقيلة مع كر الأيام.

بالأمس، تضاجعا. اجتمع جسداهما في ضمة لا تختلف في شيء عن الضمات السابقات، إلا في تفصيل صغير ربما: السعي إلى تلك اللذة التي لم تستطع قط الحصول عليها. وكي تدرك تلك اللذة، انساقت مع لعبة. مع خيانة زوجية معتمدة على الذاكرة. لم تكن مداعبات أنامل ميشيل لجلدها تمكنها من شيء جديد غير أن توقظ فيها مزق أحاسيس، تلك الحمى التي تعرف مسبقاً أن الذي يذكيها لن يقدر على تهدئتها. لذلك، كانت قد حلقت إلى مكان آخر. كانت يد ميشيل قد أصبحت يد رجل آخر. كانت قد نقلت شفتي وذكر ورائحة زوجها نحو ذِكرى، محتفظة بعينيها مغلقتين، محاولة سجن متخيلها تحت جفنيها. كريم... بهذه الاستراتيجية فقط، استطاعت، إن لم يكن ملامسة القمة، فعلى الأقل الاقتراب منها، الأظافر منغرزة في لحم الرجل، وهي متشبثة

به بكل قوة – في الآن نفسه – كي تحتفظ به فيها، وبالخصوص خوفاً من أن تتخلى عنها تلك الصور التي تقودها نحو اللذة.

خلال كل تلك الليالي، كان يحدث لها أن تتساءل عما إذا لم تكن حواسها خرساء؛ عما إذا كان جسدها غير قادر على أن يستجيب لتغيرات المداعبات الغريبة عنها، أم أنه يستجيب فقط للغريزة الناتجة عن صور مختلقة. ومع ذلك فقد كانت ثمة تلك الجمرات التي تتقد فيها. كانت تشعر بها وهي تلتهمها وتجعل بشرتها تضطرب. ولماذا إذن؟ لماذا كانت ترفض بعناد أن تصبح لهباً. . . قد تكون مريضة. وخزتها فكرة ألا تكون قادرة أبداً على إدراك اللذة المطلقة بين ذراعي رجل، وراودتها فكرة أن تصرخ.

– ألست نائمة؟

– لا. بسبب الحر، من غير شك.

تأملها بقسماته الناعسة.

– أنت تكثرين من التفكير يا شهرزاد. لا دخل للحر.

وبما أنها كانت تتأهب لمغادرة الفراش، فقد رجاها:

– انتظري. ابقي قليلاً.

جلس وأسند ظهره إلى رأس السرير.

– كي لا أخفي عنك شيئاً. فأنا لم أنم إلا نوماً خفيفاً. أنا قلق يا شهرزاد على مستقبلنا، الذي هو مستقبل مصر. وأنا قلق على أخيك أكثر مما أنا قلق على أي شيء آخر.

– نبيل؟

– لقد ترددت لأيام كثيرة في مفاتحتك في الموضوع. وأخيراً قلت ربما تكونين أنت، من بيننا جميعاً، القادرة على إرجاعه إلى رشده.

– لكن لم؟ ما الذي حدث؟

– أنت تعرفين تلك الروح الوطنية المتأججة التي تحركه. إن ذلك اللهب الذي يلتهمه يدفعه إلى تبني موقف مبالغ فيه.

أبدت حركة مرحة:

– آه، لم يبق إلا هذا! أخي خلق هكذا. حتى عندما كان صغيراً كان يلهو، على ما يبدو، بلعب دور ملك مصر وكان يرسم، طوال اليوم، رايات

وألوية حرب ستعوض، كما كان يقول، هلال الأتراك. اطمئن، إنه ينبح ولا يعض.

- لا تنخدعي. إنه يعض. أمس بالكلمة، وغداً بالفعل.

- لكن، ماذ يحصل لك يا ميشيل؟ منذ متى شرعت تهتم إلى هذا الحد بأخي؟

مرر كفه في خصلاته المبعثرة:

- دم النيل. هل يعني لك هذا شيئاً؟

- لا. لا يعني لي شيئاً.

- إنه اسم مجموعة مقاومة. منظمة تريد تحرير مصر من نير الاستعمار، كل الاستعمار. وهؤلاء الناس يقودهم رجل، هو نفسه مؤسس الحركة.

- وهذا الرجل هو...

- نبيل.

حاولت أن تبدو رصينة.

- كيف عرفت ذلك؟

- بكل بساطة، هو الذي حدثني عن ذلك، منذ حوالى أسبوع. كنا نتحدث عن مواضيع مختلفة، وساقنا الحديث - كما يحصل دائماً مع نبيل - إلى السياسة. حكم على موقفي بأنه «عقيم». آخذني على عدم التفاعل مع الأحداث التي تهز البلد. وبما أنني قد حاولت أن أفسر له بأنه ليس في استطاعتنا القيام بشيء ذي بال لتغيير الوضع، وأن العالم هو هو، غضب. وربما دون قصد منه أفصح عن سره.

شوشت شهرزاد، وهي تحاول الحفاظ على هدوئها:

- لا أعتقد أن هذه المسألة ذات خطر. ليسوا سوى أطفال يلعبون لعبة الحرب.

- هل تحاولين إقناع نفسك بذلك؟ أنت تعرفين مقدار تهور أخيك. والآن، في القاهرة، كل يوم تسقط رؤوس. من أصغر القوم إلى أكبرهم. ولا أحد منا في مأمن من ذلك. أنت لا تجهلين من كان الشيخ كُريّم؟

- حاكم الإسكندرية؟

- بالأمس فقط، قُتل الشيخ ومُثّل بجثته.

- لكن كيف؟ ولماذا؟

- لا علم لي بتفاصيل الحادث. ومرة أخرى، نبيل هو من أخبرني بذلك. يبدو أن كُريّم قد تبرم من التعاون مع من خلفه في حكم الإسكندرية. ويدعى كليبر على ما اعتقد. بما أن هذا الفرنسي كان مفتقراً إلى المال، ربما استدعى تجار المدينة وطلب منهم سلفات تقدر بـ ٣٠,٠٠٠ جنيه، موزعة بين المسلمين والمسيحيين. وأمام رفض كُريّم، أو ربما ضعف إرادته في جمع المبلغ، قد يكون صبر الفرنسي قد عيل وأرسله إلى القاهرة. وعندما وصل إلى العاصمة، قرر الجنرال القائد نفسه مصيره.

تنهد ميشيل بعمق قبل أن يختم:

- هل تفهمين الآن لماذا أنا قلق إلى هذا الحد على أخيك؟ إنه لا يضع بذلك حياته فقط في خطر، وإنما حياة كل المقربين منه.

هزتها رعشة.

- أنت محق. سأحادثه. بل ربما كان من الصواب أن أحادث أبي في الأمر.

- هل ترين بالفعل أن هذا الرجل المسكين في حاجة إلى هم إضافي؟ في سنه، ومع المزاج الحاد الذي يميزه، أن تخبريه بأن ابنه يقود مجموعة إرهابيين!... لا. عليك أن لا تقولي شيئاً لأحد. حاولي فقط أن تعيدي نبيل إلى رشده.

وافقت المرأة الشابة. بعد لحظة تفكير، وهي ترسل على جسدها العاري جلابية من القطن، سألت:

- هل تريد أن تعود للنوم؟ أم تريد أن أعدّ لك قهوتك؟

كان ميشيل قد غادر الفراش بدوره.

- لا. أنزل أنا أيضاً.

كان على أهبة أن يرتدي ملابسه عندما مر شيء أمام النافذة وشغله.

- شهرزاد، تعالي، انظري. بسرعة. ألا يكون هو...

عادت المرأة الشابة على أعقابها بعد أن كانت قد تجاوزت العتبة.

- انظري، هناك قريباً من البئر.

مالت قليلاً نحو الأمام، باحثة عن النقطة التي أشار إليها زوجها.

- هذا. .. هذا غير ممكن، تمتمت. . . أتعتقد أن. . .؟
ودون أن تنتظر الجواب، سارعت نحو الخارج.
ظلت جامدة مشدوهة أمامه.
حياها الفرس بتحريك عرفه مرتين أو ثلاث مرات.
سفير. . .
فحصته، مبهورة، من كل الجوانب كي تقتنع بأن الأمر يتعلق فعلاً بفرسها.
بأي سحر عاد؟ فالجندي الفرنسي، بيرنويي، كان قال، مع ذلك، إن الدابة قد حجزت مساء إمبابة. وإذن؟
مأخوذة بفرحتها، ألصقت وجنتها بحنك الفرس وأحاطت عنقه بذراعيها.
كان ميشيل قد التحق بها متبوعاً بيوسف ونادية.
- هذا غير معقول، صاح وهو يمسد زغبه المغبر.
آتت نادية إشارة الصليب.
- يا إله السماوات والأرض. سفير. . .
- لا شك أنه قد هرب.
- والفرنسيون، ألم يسعوا إلى اللحاق به؟
- أيكون قد استغل الليل ليضللهم؟
- غريب، لاحظ يوسف. يبدو وكأن أحداً قد امتطاه لتوه.
- أيكون قد أوقع راكبه؟
آتى حركة ارتياب.
- ما السبيل لمعرفة الجواب؟ على أي حال، هو قد عاد. هذا هو المهم.
ثم نصح ابنته:
- هيا. أعيديه إلى الإسطبل ونظفيه. أعتقد أنه في أمسّ الحاجة إلى ذلك.
- أتريدين أن أساعدك؟ اقترح ميشيل.
- لا سبيل إلى ذلك. هو سفيري، وعلي أنا أن أعيده جميلاً كما كان.
بمجرد وصولها إلى الإسطبل، سارعت إلى نزع لجام الدابة، مشدوهة من ملاحظة أن جانبيها مدميتان.
- إن مَن ركبك لَمتوحش حقيقي، يا سفيري المسكين.

وضعت شيئاً من ماء في آنية، وشرعت تمسح بحذر حبات الرمل العالقة بالجروح.

- أن يتم اقتياد الفرس بهذه الطريقة... كنت أعتقد أن المماليك وحدهم قادرون على ذلك.

ثم باشرت السرج. آنذاك اكتشفت ورقة مربعة صغيرة مثبتة في فجوة من الطاقم. أخرجتها، محيرة، من مخبئها وبسطتها. كانت بها كلمات كتبت بيد متسرعة. تسارعت دقات قلبها. لم يسبق لها أن تعرفت على هذا الخط، لكن كل شيء في الرسالة يهمس باسم كاتبها.

اهتمي به... واهتمي بنفسك... سأنصرف غداً صباحاً للبحث عن اليوناني في أعالي مصر. كنت أود أن أودعك قبل الرحيل، لكن للأسف، لست في حالة تسمح لي بذلك. إن بارتليمي وأتباعه يتعقبونني. كنت مختبئاً كل هذه المدة في مدينة الأموات. في ضريح قايتباي. إنه ليس في مستوى الصباح، لكنني أجد فيه، على الأقل، الأمان. أفتقدك يا أميرة.

كانت الرسالة موقعة بـ: الفلاح.

حتى اندفاع مد البحر إلى داخل الإسطبل، ما كان ليروعها بتلك الشاكلة. كانت ساقاها تخوران بحملها، فاضطرت إلى الاتكاء على باب الإسطبل حتى لا تسقط. قرأت الرسالة للمرة الثانية، والثالثة، ثم حملت الورقة إلى شفتيها، ساعية بلهفة إلى العثور على رائحة تجعل الذكرى ملموسة.

كريم... سفير... كيف... بأية عناية ربانية؟

مجرد كلمة؛ علامات مخطوطة على عجل، وها هو ذا من جديد ذاك الاضطراب؛ ذاك الشعور الفوري يجتاح تجويف بطنها. تلك الرجة غير المرئية التي تعبر كل جسدها. ما عادت ترى الحروف، شرعت ترى، فقط، ملامح محيا يصعد إلى سطح الورقة.

ومتداخلة معها، كانت تظهر أيضاً ملامح ميشيل.

* * *

- ها أنت ذا يا روزيتي. لقد خلناك ميتاً.

- عليك أن تعلم يا عزيزي نبيل أننا، نحن الفينيسيين، نشبه القطط المقدسة؛ لقد وهبنا الله سبع أرواح.

صادق ابن شديد على قوله باسماً.

كانت الزيارة غير المنتظرة للقنصل قد فاجأت العائلة كلها. فكدأبه دائماً، حل في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه للجلوس إلى مائدة الطعام. وبعد التحايا والترحيب، أمطروه طبعاً بالأسئلة؛ سألوه عن الأحداث الأخيرة، وعن الوضع بالقاهرة، وعن حجزه الوجيز بالقلعة.

أخبرهم بأنه، وبعد أيام قليلة من إطلاق سراحه من طرف الفرنسيين، استدعي إلى الأزبكية بأمر من السلطان الكبير، الجنرال أبو نبارت شخصياً. فهذا الخيِّر لم يكن يجهل أي شيء عن الروابط القائمة بين الفينيسي ومراد بك. وأخبرهم أيضاً أنه، وبعد أن ألقى أمامه خطاباً - طويلاً بقدر ما هو ممل - عن رغباته المدعاة في إقامة سلم مع الأتراك، طلب منه أن يحيي صلته مع المملوك.

- مراد بك؟ سألت نادية. أما يزال على قيد الحياة؟

- حي، ومُصِرّ أكثر من أي وقت مضى على مواصلة القتال. ولهذا السبب أرسلوني للعثور عليه. وأقول لكم، أنتم فقط، إن الأمر لا يروقني؛ إن قطع أكثر من مائتين وخمسين فرسخاً لا يعد جولة ترفيهية.

سألت شهرزاد، التي ظلت صامتة، وبتجرد متصنع:

- إنه بأعالي مصر، أليس كذلك؟

- لكن كيف عرفت؟ سأل ميشيل مدهوشاً. فنحن، وحتى هذه اللحظة، لم نقل شيئاً، البتة عن مراد.

مطت شفتيها.

- ألم يقل السيد روزيتي بأنه يوجد على بعد أكثر من مائتي فرسخ؟ وما دام الشمال مستعمراً من طرف الفرنسيين، فإنه لا يبقى إلا الجنوب.

- أحسنتِ، قال القنصل. هذا مثال رائع عن الاستنباط.

- هذه بالأحرى حاسة سادسة، قال ميشيل المقتنع بالكاد.

تساءل نبيل:

- وما الذي يسعى القزم إليه؟ فهو على أي حال لم يكلفك بطلب زواج. أم لعله يريد الزواج ثانية؟ المعلوم أنه في مهمة صعبة مع الصغيرة زينب.

أبدى روزيتي ابتسامة صغيرة ساخرة.

- لا! يتعلق الأمر بعرض علي أن أنقله لمراد بك. فالفرنسيون مستعدون

لتسليمه أعالي مصر، من جرجا إلى أول الشلالات، شريطة أن يعترف بتبعيته لهم وأن يؤدي لهم الجزية.

حرك ميشيل رأسه بامتعاض.

- وهل تعتقد أنه سيقبل؟

رفع روزيتي يديه دلالة عدم علمه، دون أن يجيب.

- أنت دائماً متشائم يا روزيتي. علق نبيل. أنت تذكرني بأنك آخر مرة أتيت فيها إلى الصباح، كدت تعدينا برعبك. فعندما استمعنا إليك، خلنا بأن أعناقنا جميعاً ستدق. وحسب علمي، فإن أحداً من المسيحيين لم يتعرض لمكروه من طرف الشعب.

- بالفعل، فأنا أعترف بأن الأمور قد مرت أحسن بكثير مما كنت أتوقع. فاحتجازنا بالقلعة لم يدم طويلاً، لكنه كاد يكون كذلك. لكنني ألح، مع ذلك، على أن الخطر كان محدقاً. فلو لم يكن مراد وإبراهيم قد استطاعا تهدئة النفوس، فإن الله وحده يعلم أي منقلب كانت الأحداث ستنقلب.

اجتزأت نادية قطعة بسبوسة ومدتها للقنصل.

- خذ يا كارلو أفندي، فكل هذه المشاعر قد تكون أنهكتك.

شكرها الفينيسي.

- إننا نعيش في الواقع أوضاعاً متتنة.

هش يوسف في الهواء بواسطة طاردة الذباب.

- ها أنت، كما يقول ولدي، تضفي على الأمور طابعاً مأساوياً من جديد. إن الفرنسيين، على أي حال، ليسوا أسوأ من المماليك أو الأتراك. فهم على الأقل لا يزدردون بأصابعهم ولا يتجشأون وهم جالسون إلى مائدة الطعام، إذ يعرفون كيف يعطون الانطباع بأنهم مؤدبون. وفيما يخصني، فإنني لن أنسى بأن شهرزاد مدينة بحياتها لأحدهم.

- إنقاذ حياة مقابل سفك العشرات، علق نبيل بقسوة.

ثم واصل على التو:

- هل صحيح ما يقال من أن الجنرال الفرنسي قد يكون أنشأ معهداً للعلوم والفنون؟

- صحيح. وقد سماه معهد مصر. وقد اختار قصر الكاشف ليكون مقراً له.

تظاهرت شهرزاد بالاهتمام بحديثهم:

- لأي هدف؟

- إذا كان ما فسروه لي صحيحاً، فإن هدف هذا المعهد هو القيام ببحوث، وبدراسة ونشر كل الوقائع والوثائق الكفيلة بإلقاء أضواء على تاريخ مصر.

شرع نبيل يضحك.

- الإيطالي يعتبر نفسه عالماً، بل وأكثر من ذلك، يظن نفسه الإسكندر الأعظم.

- لا أرى علاقة، قال ميشيل مدهوشاً.

- كان الإغريقي، عندما نزل بالإسكندرية، قد قام هو أيضاً بشيء مماثل؛ أراد أن يجمع بها كل المعارف الإنسانية كي يركب بينها وينقلها للأجيال القادمة. غير أنه، في ذلك العصر، كانت الطبقات الحاكمة التي تعيش بالإسكندرية وأنتيوشا وأثينا وكورينث، تتحدث اللغة نفسها، وتستقي معارفها من النبع نفسه. بينما توجد هنا... هوة عميقة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. إن السعي إلى الصهر الفوري للشرق والغرب، يبدو لي أمراً غير معقول.

قال روزيتي:

- عفواً، لكني لا أتفق معك. أنا أعتقد أن الجنرال الفرنسي يراهن على المستقبل. إنه يطرح على العلماء، بهذا المعهد، الأسئلة الجوهرية التي تهم مصر، والتي على هذه الأخيرة أن تجد لها حتماً جواباً إن هي شاءت أن تصبح دولة عصرية. إن قروناً من الاحتلال المملوكي والعثماني قد أدت إلى ركود أدمغة هذا البلد وإبطاء تطوره بشكل مأساوي. ثم إن هناك الأركيولوجيا؛ فأنت ربما لا تعلم بأن ضابطاً عبقرياً، أياماً بعد قدومهم، قد عثر على صخرة مدهشة. صخرة من الغرانيت الأسود، منقوشة عليها ثلاثة مكتوبات متمايزة: الأول بحروف هيروغليفية، والثاني بحروف سوريانية، والثالث بحروف إغريقية. أن تصدق ذلك أو لا تصدقه، فإن هذا الاكتشاف ستكون له نتائج باهرة في معرفة مصر القديمة.

- وهذا ما يبرر آلاف القتلى...

- الرأفة، صاح يوسف. قريباً سأكون في السبعين من عمري، ولا يهمني بتاتاً أن أصبح محيطاً بمعرفة أحوال مصر. إن ما يهمني هو اليوم، أما غداً فمن المحتمل...

ثم استند إلى أريكته.

- حدثني عن الحاضر يا روزيتي. ما الذي سيحصل لنا؟

أنهى القنصل ابتلاع اللقمة الأخيرة من الحلوى.

- الواقع أن الفرنسيين يوطدون لأنفسهم، كما لو كانوا يفكرون في أن لا يغادروا البلاد أبداً. وقد احتفلوا مع المسلمين بالعيد الكبير. لقد حضرت بدوري هذا الاحتفال، وأعترف بأنه كان مبهراً أن ترى هذا الجنرال جالسا على الأرض وهو مقرفص، وينصت متأملاً الشيوخ المائة، المصطفين في شكل نصف دائرة، وهم يرتلون آيات من القرآن.

- لكن، يا كارلو، قال نبيل مستهزئاً، ونحن ننصت إليك، يخيل إلينا بأن بونابرت قد أصبح تقياً مسلماً، ابناً حقيقياً للنبي. لكن ألا تعتقد بأن كل هذا ليس سوى ذر للرماد في العيون؟ إنه بتصرفه هذا لا يروم سوى استجلاب رضا الشعب. هذا كل ما في الأمر.

- لا تلق بالاً. لست أبلهَ. أنا فقط أراقب ما يحصل. وأحيانا أسخر حتى من ذلك. لقد ذهلت كلية عندما احتفل الفرنسيون بعد ذلك ببضعة أيام، ببداية التقويم الجمهوري واستدعوا مساءً أعيان مصر إلى وليمة حضرها مائتا مدعو في إحدى قاعات قصر الألفي بك. كان ضرورياً أن ترى تلك المأدبة ليتم الاقتناع بالحقيقة: ألوان تركية وجمهورية في كل مكان. وعلى قمة عرمة الأسلحة كان يتداخل الهلال والقلنسوة الفرنسية. حتى لحظة تناول الطعام نفسها لم تكن سوى سلسلة من المتناقضات: عمامات ملتفة وقنزعات، قفاطين وكتفيات ضباط.

قال يوسف ساخراً:

- لم تجبني بعد يا روزيتي، . الباب العالي على وشك إعلان الحرب على فرنسا. وحسب آخر الأخبار، فإن السلطان قد ألقى القبض على المكلف بالأعمال بيير روفين. إن القطيعة بين اسطنبول والجمهورية الفرنسية على ما أعتقد، قطيعة كاملة.

وضعت نادية رأسها بين كفيها.

- من جديد دم مسفوح... آلام أخرى... متى يوضع حد لكل هذا؟

قال نبيل:

- عندما يغادر مصر كل هؤلاء الناس. عندما يكنس من أرضنا هؤلاء الكفار الذين يحتلوننا. مماليك وأتراك وفرنسيون وحتى كائنات مثلكم أنتم يا روزيتي. اليوم الذي...

- كف عن هذا، قاطعته شهرزاد. يوماً ستنتهي بأن يقطع أحدهم لسانك بسبب سبابك الذي تطلقه في كل اتجاه. وأكثر من ذلك، فأنت ظالم؛ إن السيد روزيتي كان دائماً صديقاً وفياً.

- طبعاً. أنت محقة تماماً. لكن اسألي هذا الصديق الوفي لماذا لم يخطر مراد بك بأن الغزو قادم؟

- ماذا تقول؟

ثبت نبيل عينيه في عيني القنصل:

- إحياءً لذكرى صداقة قديمة، أتذكر؟

أجاب الفينيسي، هادئاً تماماً، بابتسامة متسامحة:

- قد أُدهشك يا ابن شديد، إذا قلت لك إنني قد نقلت محادثتي في أدق تفاصيلها إلى مراد بك. هو الذي لم يصدقني، للحظة واحدة. وعلى أي حال، فحتى لو كان صدق كلامي، فإن ذلك ما كان ليغير من الأمر شيئاً.

خاطبت شهرزاد الفينيسي بعبارة مرتبكة:

- دع عنك هذا يا كارلو. إن أخي فقد عقله.

- فقد عقله، وقليل الأدب، أضاف يوسف الخارج عن طوره.

ثم وجّه سبابته نحو ابنه:

- أنسيت أن هذا الرجل يوجد ببيتنا؟ نحن في سلالتنا لا نسبُّ ضيوفنا. الضيف مقدس. تماماً كما هو الخبز مقدس. اعتذر فوراً.

- دع عنك هذا يا يوسف. فكل هذا لا قيمة له. أنا أعرف ابنك. أنا متأكد من أن كلماته لا تعكس ما يفكر فيه.

تنهد نبيل بعمق مرات. كان محياه ممتقعاً.

- أجل. صحيح. أطلب صفحك يا روزيتي.

ثم أضاف وكأنه يخاطب نفسه:
- والآن علي أن أنصرف. لدي موعد.

* * *

شرقاً وخارج الأسوار امتد سهل رملي شاسع حتى أسفل المقطم. حقل مثقل بالقباب التي تبدو مغبرة هذا المساء. هذه مدينة الموتى. هنا ترقد إلى الأبد آخر سلالة مملوكية. وعلى بوابات الأضرحة نُقشت أسماء ذات نبرة حربية: خانقاه برقوق، كركوماز، عنال، وأخيراً قايتباي الذي يعد، من دون شك، أفخم الآثار. وفوق النوافذ الكبيرة المسيجة والأقواس، انطلقت صومعة نحو السماء. إنها أجمل وأصفى كل مآذن القاهرة. وفي العمق، إلى الوراء، يقوم الضريح الذي تتكئ عليه قبة الصخر، ملفوفة في زخارف مذهبة رقيقة، لا تفسد أبداً لعبة الظل والضوء صفاءها.

مدينة الموتى خالية. رياح خفيفة تذرو بالكاد نفثات رملية ملتفة. وحدها بضع قطط تهيم ضمن الصمت الثقيل. ربما كانت إحداها، قديماً، سلطاناً أو وزيراً ذا سطوة، وقدر لها أن لا تكون اليوم سوى حارس ظلها الشخصي.

لم تستطع شهرزاد، في خضم هذا الجو المحزون، أن تتفادى ارتعاشة، متأثرة بالرغم منها. حتى سفير كان يتحرك بعصبية. ولحسن الحظ كان النهار ما يزال مخيماً، والشمس، رغم ميلها نحو الغروب، كانت ما تزال تنير المكان حتى يُحتفظ للأشباح وللجِنَّة بوقارها.

كانت تضع قدمها ببطء على الأرض، وتمشي في اتجاه ضريح قايتباي. وعندما وصلت إلى درج المدخل توقفت وفحصت بدقة مكونات المكان حولها. أين هو؟ أما يزال هنا، أم قد يكون انصرف للالتحاق بمراد بك؟ لماذا هذه الورقة؟... لقد كتبت - هي مقتنعة بذلك - على شاكلة رجاء مقنع، مثل دعوة للمجيء للقائه، وإلا فلم رأى ضرورياً أن يخبرها بكل تلك التفاصيل؟ لقد وجدت ملجأ في مدينة الموتى؛ في ضريح قايتباي. لا يمكن أن تكون قد أخطأت. لا يمكن أن تكون قد أخطأت إلى تلك الدرجة.

أرادت أن تناديه، لكنها أحجمت. ففي حالة القلق التي يعيشها، محاذراً، سيكون بالتاكيد يراقب أي حركة. تسلقت، معقودة البطن، الدرجات المؤدية إلى البهو درجة درجة.

يساراً باب غرفة القرابين، ويميناً مدخل الممر المفضي إلى الصحن، أي الساحة غير المغطاة.

دلفت، بعد أن ترددت للحظة، إلى الصحن. كان صدى خطواتها يصعد نحو القبة. أسرعت الخطو. كانت تسود بين الجدران رطوبة حادة استشعرتها وكأنها كفن.

عندما أدركت الساحة، كان قلبها يخفق بشدة. كان كفاها نديين وساقاها ترتجفان.

- كريم...

أزاحت الطيلسان الأسود الذي كان يسترها، وشرعت تتفحص الصخور.

أخطرها استدلال غير عقلاني بأنه هنا، وأنه لا يفعل إلا أن ينتظرها. أما غريزتها كامرأة، فتوشوش لها بالعكس. فلا شيء حولها يوحي بوجوده.

انصرفت وولجت قاعة الصلاة باحثة بعينيها، سدىً. توجهت نحو الإيوان. كان ثمة على يسارها باب صغير. أزاحته بلين. انبثقت أمامها كتلة معتمة محاطة بسياج من خشب.

كان الأمر يتعلق بالنعش الذي يرقد فيه سيد المكان السلطان قايتباي، الذي توفي منذ أكثر من أربعة قرون.

كادت يغشى عليها، ففرت دون أن تعيد إغلاق الباب.

كان ذبول الشمس قد أضحى واضحاً. بعد قليل سيبدو الشفق. فكرت في ميشيل.

كان قد احتج بشدة عندما تجرأت وأخبرته بأنها ستذهب لتعدو على فرسها في الصحراء. طمأنته بأنها لن تبتعد كثيراً عن نواحي الصباح، ولساعة لا غير. قائلة إنها قد حُرمت من سفير لمدة طويلة. فانتهى ميشيل بأن استسلم.

ساعة... لا أكثر.

عليها الآن أن تعود للصباح. ذلك ضروري. لقد سببت ما يكفي من الآلام، وستكون هذه هي المرة الأخيرة.

عادت على عقبيها. ما عادت تمشي. هي تكاد تكون تعدو. . كنت أود أن أودعك قبل الرحيل، لكن للأسف، لست في حالة تسمح لي بذلك.

كان صوت كريم يقرع صدغها. هي بالتأكيد مجنونة. كان عدوها يضرب عنيفاً على الأرض مزعجاً ليل السلاطين.

أخذت طريق القاهرة العتيقة، وسارعت نحو الجيزة.

خلف أحد جدران ضريح قايتباي، بدا لتوه رأس بارتليمي سيرا. كانت ذراعه معلقة بشال، وكان مصحوباً بثلاثة من رجاله.

- هذه المرأة... همس، أعرفها. لكن أين؟... أين سبق لي أن رأيتها؟ ومتى؟ ومع من؟ ماذا عساها تكون تفعل هنا، إن لم تكن متواطئة مع كريم.

- دون شك، علق أحد المشاة. كان علينا إيقافها وسؤالها. لو كنا فعلنا لكنا عرفنا.

- نعم. عليك نور. كنا نلقي عليها القبض، وكانت هي ستصيح، لكن ما الذي كان سيحصل لو هجم ابن سليمان في تلك اللحظة بالذات وعجننا بين ساقيه. ألم تفهم بعد بأن ابن سليمان هو من أريد؟ أحشاءه؟

- صحيح، لكننا لم نلق بعد القبض عليه. هل أنت متأكد من معلوماتك؟

- كما أراك، رأيته. لا مجال للشك في ذلك.

- جيد، لكننا ننتظره منذ الصباح، وكان من المفروض أن يظهر له أثر.

- اصبر يا فهمي، اصبر. سنقبض على هذا المخنث. أمامنا الليل كله.

* * *

تناهت إلى سمعها جلبة العدو الحثيث تصدي مع سيرها، فقدرت أنه من المهم أن تسرع. كان الغسق قد غير من ألوان الريف. شكراً لله، فالصباح ما عادت بعيدة.

كان كعباها ينغرزان في جانبي سفير فيضاعف من سرعته، مثيراً خلفه زوبعة صغيرة بلون أمغر. كانت متأكدة بأن متعقبها قد قام، في الآن نفسه، بالشيء نفسه. أحست بالقلق، وفي الوقت الذي كانت على أهبة الالتفات سمعت صوتاً ينادي:

- شهرزاد.

كان التأثر من الشدة بحيث كادت تفقد توازنها.

هي لم تحلم؛ كان ذاك بالفعل صوت ابن سليمان. كبحت اللجام بكل قواها، مرغمة سفير على التوقف.

وفي اللحظة نفسها تقريباً وصل كريم إلى جانبها.

قالت بصوت متردد:

- أين كنت؟ أنا قادمة الآن من مدينة الموتى.

- أجل. أعلم. سأفسر لك. لكن لا يمكننا البقاء هنا. تعالي، اتبعيني.

حوّل، بحركة حادة، اتجاه الفرس، وغادر الطريق متوجها نحو وسط الأراضي. وبعد تردد خفيف، سارت شهرزاد في أثره. مشوا لزمن طويل بين الشجيرات القليلة، إلى اللحظة التي بدا فيها كوخ صغير من الطوب، مقام إلى جانب حقل ذرة.

- هنا، قال كريم. هنا سنكون في مأمن.

قفز إلى الأرض، وساعدها على النزول من على مطيتها. كانت خيوط الظلام قد شرعت تخفي الأفق.

- يقطن هذا الكوخ، عادة، بحار إغريقي اسمه ستافروس. وهو صديق لباباس أوغلو. حالفني الحظ أن التقيت به هذا الصباح وهو يستعد للذهاب إلى الإسكندرية.

قادها إلى الداخل. كان أثاث الكوخ يتكون من قنديل خزفي ومن قش أعد ليكون سريراً وفرن خبز ومائدة قديمة عرجاء. استولى القلق على شهرزاد، وعجزت عن التخلص منه. لا شك أن زخم المشاعر هو ما يرعش قلبها.

أنار كريم القنديل. أحاط نور شاحب بشبحيهما.

- كدت أموت عندما رأيتك تصلين إلى الموقع.

- لقد بحثت عنك. أين كنت؟

- مختبئاً على بعد خطوات. لكن بارتليمي كان قد تقدمك. ما كان بإمكاني أن أقوم بشيء. كان علي أن أنتظر انصرافك.

- بارتليمي؟

- أجل. أنا أجهل كيف استطاع أن يعرف بأنني هنا، لكنه تعقبني.

شعرت ببرودة تجتاح ظهرها عندما تمثلت فكرة أنها قد مرت قريباً من الوحش.

- اعتقدت أنك لن تأتي.

- مهما تكن النتيجة....

وضع سبابته على شفتيها.

- اصمتي. لا تقولي شيئاً. أنا أعرف.

دعاها إلى الجلوس على السرير التبني.

- تعالي، هو ليس وثيراً، لكن، للأسف، هذا كل ما بإمكاني توفيره لك يا أميرة.

حركت رأسها.

- ميشيل ينتظرني في البيت. عليّ أن أعود.

- ابقي ثوانيَ. لحظة. لحظة فقط.

تهالكت بجانبه واتكئا بظهريهما على الجدار الرمادي.

- هكذا، قالت بصوت متقطع، ستذهب إلى أعالي مصر...

- لا خيار لي. القاهرة محتلة. وبارتليمي يطاردني. لم يبق لي إلا مراد، فعنده أحصل على الأقل على غذائي.

أبدى ابتسامة متكلفة.

- أترين يا أميرة... لا شأن للقبطان باشا. الفلاح في الحقيقة كان، في كل الأحوال، أحسن.

- لماذا انصرفت؟

طرحت السؤال دفعة واحدة، كما لو لم تكن قد عادت قادرة على الاحتفاظ به لمدة أطول.

أمال رأسه قليلاً.

- لأن نَفَسي كان يقتل الورود.

- لا يا كريم. أجبني. أريد أن أعرف.

- أنتِ، مع ذلك، تعرفين الجواب.

- حلمك بالمجد؟

- يتعلق الأمر بما هو أكثر من ذلك يا شهرزاد. أنت ولدت كبيرة، أما أنا فعلي أن أصبح كذلك. ثم...

أبدى تردداً.

- هل رأيت ما حصل لسميرة... هل تعتقدين جادة بأنك كنت قادرة على أن تسببي ليوسف محنة أخرى؟

أنت يا شهرزاد، من بين الجميع، الوحيدة التي لا يمكنك أن تسببي آلاماً لأبيك. أنا أعلم أنك يوم ستتزوجين، ستتزوجين رجلاً مناسباً، رجلاً من دمنا.

كان الجواب ماثلاً في هذا. ومع ذلك، فإنها لم تكن تستشعر شجاعة قبوله، فبالأحرى أن تعترف به.

- في كل الحالات، فات الأوان. . . أنت الآن السيدة شلهوب.

صادقت على قوله بوهن، وتمتمت:

- أحبك.

هل هي التي نطقت بهذه الكلمة أم الأخرى التي كانت تستولي، أحياناً، على روحها؟

شعرت بشفتي كريم تقبلانها، فبادلته القبلة كما لو كانت في حلم. شملتها لذة طافحة، أعقبتها على الفور تلك الرغبة التي طالما كبحتها.

أماطت كفاه الخمار الذي كان يغطي شعرها. لامست عنقها ثم حلمتي ثدييها المنتصبتين.

- أرغب فيك يا أميرة. . .

انسحبت وشرعت، صامتة، تنزع ثيابها دون حشمة أو خجل طبعاً. كان هو بدوره يقوم بالشيء نفسه. بعد حين سيتلاصق هذان الجسدان العاريان في الظلمة المنارة.

هذه المرة، يدا كريم هما اللتان لامستا جسدها بالفعل. ما عاد مجال للعب خيال أو لخيانة زوجية عن طريق الذاكرة. عندما تمطى فوقها، شعرت وكأنها تنزلق فوق البحر، الذاكرة والحواس غارقة. وعندما ولجها، أعربت عن رغبة غامضة في أن تنفجر باكية.

كانت الدموع تكتسح وجنتيها، بينما كان هو يمشي ويجيء فيها، موقظاً بكل حركة من حركاته، رؤىً متشابكة، أنات لذة، وابلاً من الماء والنار.

في ذروة التصاقهما، فتحت فجأة عينيها، مرعوبة، ثم ضمته بقوة، بعنف، كما لو لتقنع نفسها بأن ابن سليمان، بالفعل، هو من يضاجعها، وأن هذه الحقيقة لوحدها تكفي كي تقودها نحو اللذة.

بعد ذلك بقليل أدركت أن الأمر لن يكون كذلك.

إن التحليق نحو النجوم، رغم أنه لم يسبق له أن كان بمثل هذه القوة، توقف عند هذا الحد، ثانية، كما يحصل مع ميشيل.

أغلقت جفنيها بنوع من الهياج، وعملت بكل قواها على أن تحلق من جديد، وأن تتشبث بجناحي كريم ليحملها معه في متعته التي تشعر بها قريبة. لكن سدىً، فقد حلق هو عالياً، تاركاً إياها على الشاطئ الرملي.

وفي اللحظة التي عاد فيها إلى التمدد فوقها، علق في ذهنها إلى الأبد، اليقين بأنها لن تدرك أبداً متعة في أحضان رجل. لكنها طمأنت نفسها على الفور، قائلة بأن ذلك ليست له أهمية تذكر ما دامت ترتاح إلى تلك الدرجة في أحضان ابن سليمان. الأهم هو أن يكون إلى جانبها، وأن تلمسه وتستنشق رائحته. لكن إلى متى؟

دفعة واحدة، عاكست حلمَها صورةُ ميشيل الذي ينتظرها بالصباح.

- ماذا سيحل بنا؟

حرك رأسه ضائعاً مثلها.

- وماذا لو انصرفت؛ لو غادرت كل شيء؟

تفرسها مذهولاً.

- هذا مستحيل. ثم إلى أين ستذهبين؟

- لا أعرف. معك. أن أكون بجانبك.

- وأنا ليس لي شيء. أنا اليوم أملك أقل مما كنت أملكه عندما لم أكن سوى ابن حدائقي الصباح. لا يا شهرزاد. كوني عاقلة. لا يمكنك القيام بذلك. ثم فكري في حزن أبيك.

- بعد أن عثرت عليك، تريد أن أفقدك من جديد وأن أعيش على هذه الفكرة؟

مسد شعرها بحنان.

- لماذا الضياع؟ ستنتهي الحرب يوماً وسأعود.

- وعلي أن أنتظر...

- لا خيار لنا يا أميرة. وأنت تعرفين ذلك.

- حتى لو عدت بعد شهر، بعد ستة أشهر، ماذا عسى ذلك يغير من الأمر؟ سيكون ثمة ميشيل دائماً..

صمتت وقد انتعشت قسماتها بثورة قوية:

- لماذا؟ لماذا لم تقم بأي شيء لتحول دون حصول هذا الزواج؟ لماذا تركتني أضيع إلى هذه الدرجة؟

انسابت الدموع من جديد على وجنتيها، لكن هذه المرة، لتعكس خيبة أملها.

- كيف كان بإمكاني أن أمنعه؟ لم يكن لي شيء أقدمه. لم يكن لي شيء أعطيه. لم أكن، ولست الآن أحداً. من كنت تريدين أن يكون بجانبك؟ ابن فلاح أم رجل جدير بك؟

بذلت مجهوداً كي تهدأ. لكن سرعان ما بدا لها المستقبل شديد السواد. حصل لديها الانطباع بأنها قد أضحت سجينة حياتها بقدر أكبر مما كانت عليه من لحظات. ومن الغريب أنه كان ثمة - في خضم هذا التوتر الرهيب - شعور إيجابي. لم تكن تشعر بنفسها لا مدنسة ولا مذنبة، مما عاشته من لحظات.

وضعت رأسها على كتف كريم.

- آه لو كان بإمكان الزمن أن يتوقف...

الفصل السابع عشر

- لقد ألقوا القبض على الست نفيسة.

تفرست شهرزاد ملامح أخيها بريبة.

- ماذا تقول؟

- الحقيقة. أمس صباحاً، هاجم جنود فرنسيون مسكنها وأخذوها.

- لكن، لأي سبب؟

- يقال بأنهم قد عثروا عند أحد خدامها على علبتي نشوق وفروية و٥٠٠ قطعة من الذهب. وقد صرح خادمها، عندما سئل، بأن البيضاء هي التي أودعتها عنده ليسلمها لزوجها.

- لكن هذا مستحيل. الجميع يعلم بأن مراد يوجد على بعد مئات الفراسخ من هنا. كيف كان بإمكان هذا الخادم أن يلتحق به؟

علق نبيل بنبرة ساخرة:

- هذا لو صدقت بأنهم قد تساءلوا هذا السؤال.

- وما الذي سيصنعونه بها؟

- الخادم المجرّم اختفى في الطبيعة. بحثوا عنه الليل كله دون نتيجة. وقد حاول بعض الشيوخ، هذا الصباح، إطلاق سراح البيضاء. لكن حاكم القاهرة عارض ذلك بشدة. وقد يكونون، حسب آخر الأخبار، اقتادوها عند الجنرال القائد. وهو الذي سيقرر.

- لقد سبق لهم أن حجزوا كل ممتلكاتها، ولم يبق لها سوى مسكنها. هذا ظلم.

- خصوصاً عندما نعلم بأن هذه السيدة المسكينة قد حاولت دائماً مؤازرة الأوروبيين.

فكرت شهرزاد للحظة قبل أن تسأل:

- هناك، على أي حال، أمر غريب. لماذا اعتقلوا هذا الخادم؟

أبدى نبيل تردداً غير ملحوظ قبل أن يجيب:

- بدأ الضباط، منذ مدة قصيرة، يشكون في وجود شبكة مقاومة. وكي يفككوها استدعوا عملاء أقباطاً. هم من يمدهم بالمعلومات. ويبدو أن الخادم قد أفرط في الثقة، وهتك سره.

- أفهم . . .

اقتربت ببطء من أخيها وثبتت عينيها في بصره.

- شبكة المقاومة هذه. . .

استبق كلامها:

- لنكف عن المواربة ما دمت تعرفين كل شيء. أنا أشك في أن زوجك قد يكون أخبرك باعترافاتي.

- تماماً. وأعتقد أنه قد أحسن صنعاً. هذا خطير يا نبيل. خطير جداً. اليوم يلقون القبض على الست نفيسة، وغداً يأتي دورك. هل أنت واعٍ بذلك على الأقل؟

- لن يوقفني أحد، أبداً. وعلى أي حال فهذا أمر يهمني، وأمنعك من أن تحشري نفسك فيه.

انطلقت قسوة النبرة المستعملة مباشرة إلى قلب المرأة الشابة. قالت مع ذلك:

- لا يتعلق الأمر بك وحدك. بل بنا جميعاً. لو حصل أمر، فإن العائلة جميعها ستدفع الثمن.

- إذا كنت تخافين على حياتك الصغيرة. . .

- حياتي الصغيرة، لكن بالخصوص حياة أبوينا. فهما اللذان سيتحملان عواقب جهلك.

أراد أن يقاطعها.

- لا يا نبيل. ستنصت إليّ هذه المرة حتى النهاية. أنت أسن مني. أنت الذي لك سلطة علي. وأنا، أكثر من ذلك، لست سوى امرأة. لقد قال والدنا لمراد بك: «ابنتي تجهل كل شيء عن السياسة»، ولم يكن الصواب قد حالفه كلية. ذلك إنني إن كنت أجهل الكثير، فإن لي اليقين بأن السياسة ليست في الواقع سوى فن تدبير الكذب والبلادة. أنت تحلم بمصر حرة. سيحصل ذلك يوماً. هذا أمر حتمي. لكنني أعتقد أن هذا الوقت لم يحن بعد. ما يزال الوقت باكراً. لماذا هذا اليقين؟ لا تطرح علي هذا السؤال، فلن أحار عنه جواباً. لنقل بأن هذه غريزة أنثى، ولنقل أيضاً بأن ضواري كثيرة تطارد الطريدة نفسها. تريد طرد المماليك؟ سيعود الأتراك. الفرنسيون؟ سيحل مكانهم النمساويون أو الإنجليز. الأمر هكذا. وإذا كنت تريد، رغم كل شيء، أن تواصل، مستقبلاً، المخاطرة بوجودك وبوجود المقربين إليك، فإن هذا يعني شيئاً واحداً، هو أنك مريض يا نبيل. أنت مصاب بمرض أعرفه، لأنني عانيت وما زلت أعاني منه. واسمه الوسواس. إنه يلتهمك مثل حلم غير قابل للتحقق.

وبينما عبر محيا كريم ذهنَها، أنهت قائلة:

- وليس ثمة، للأسف، أي دواء لهذا الداء.

لو كان هناك شاهد، خلال كل الوقت الذي تحدثت فيه، يراقب نبيل، لكن لمح، لحظة بعد لحظة، مشاعر تتعاقب على قسماته؛ هي مشاعر سخرية، ثم اهتمام تدريجي، وأخيراً مشاعر تأثر. والآن وقد صمتت، فإن عينيّ الفتَى تلمعان بشعاع هو في الآن نفسه شعاع رقة وشعاع حزن بالغ.

- أحبك أيتها الأخت الصغيرة. وإنني لآسف على هذا الوقت الطويل الذي قضيناه في معرفة بعضنا بعضاً.

- تبقى الحياة، كل الحياة.

- بالطبع، لكن الحياة قصيرة.

- صحيح، لقد نسيت أنك في أيام ستصبح عجوزاً عمره ثلاث وثلاثون سنة...

- يوم ٢١ أكتوبر. أنت تذكرين. هذا أمر جيد.

- عدني. عدني... كررت ملحة.

- بالتخلي عن محاربة الأوهام؟

- أرجوك.

أخذ ذقن المرأة الشابة بين أصابعه.

- أعدك، قال مع ابتسامة سوداوية. أعدك أن أبقى حياً بعد ٢١ أكتوبر.

* * *

- دونما. آمرك بأن تُخضع هؤلاء العرب الملاعين. أحرق قرية صونبا. اضرب مثالاً رهيباً، ولا تسمح لهم البتة بالعودة للسكن من جديد ما لم يسلموك عشر رهائن ترسلهم إلي كي أحجزهم بقلعة القاهرة. أحرق كل شيء.

كان فرانسوا بيرنويي يتساءل عما إذا لم يكن أمر الجنرال العام، مع ذلك، مبالغاً فيه. صحيح أنه يأتي كرد على تحطيم نصب تذكاري في ضواحي المنصورة، لكن ألا يعد ذلك تجاوزاً؟ ألقى فرانسوا نظرة سريعة على النقط التي سجلها منذ وصوله إلى مصر:

«٢٨ يوليو.

طلبُ سلفٍ نقداً، قدره ٥٠٠,٠٠٠ ريال، يغطيه التجار المسلمون والأقباط والسوريون والأوروبيون أيضاً. وقد قُدم طلب بالتخفيض لكنه رفض.

«في اليوم نفسه، فرض ضريبة على زوجات المماليك. فمقابل ١٢٠,٠٠٠ ريال، لتحظى الست نفيسة لنفسها ولرفيقاتها بالأمان.

«٢٩ يوليو. مصادرة الخيول والجمال والأسلحة. الاستيلاء أيضاً على الأبقار والثيران.

«٣٠ يوليو. تفتيش. تم تحطيم أبواب حوانيت السوق، وسرق كل ما تم العثور عليه فيها.

«اليوم نفسه. توصل سكان رشيد ودمياط بأمر أداء ما يعادل مائة ألف فرنك بالنسبة للأوائل، ومائة وخمسين ألفاً بالنسبة لسكان دمياط قصد المساهمة في نفقة الجيش.

«٣١ يوليو. فرض ضريبة على الحرفيين. وذلك في شكل قرض مبلغ خيالي، يؤدى في أجل ستين يوماً. وأمام الاحتجاجات، تخفيض المبلغ إلى النصف مع أجل أطول للأداء.

«اليوم نفسه، نزع أبواب المدينة. فكها وكسرها.
«تتكبد السيدة نفيسة ضريبة جديدة. هي هذه المرة بمبلغ ٦٠٠,٠٠٠ ليرة. قدمت مجوهراتها.
«١٧ أغسطس. ما عاد الشعب يتحدث إلا عن هزيمة أبو قير. اتخذ قرار بإلحاق عقوبات قاسية ضد من يذيع هذه «الشائعات». ألقي القبض على رجلين. وحتى يتفاديا قطع لسانيهما، فرض عليهما مبلغ ١٠٠ ريال لكل واحد منهما.
«٢٧ أغسطس. تلقي تجار القهوة الأمر بأداء عشرة آلاف (تالر)، وكل تأخير ينتج عنه جزاء.
«فاتح سبتمبر. تم فرض ضريبة على الممتلكات في القرى والأرياف. وقد كلف بهذه المهمة الصرافون والأقباط. فقد قاموا مقام قضاة المحاكم، وسجنوا بلا هوادة كل المعاندين.
«٤ سبتمبر. كل سكان مصر سيحملون الشارة ذات الألوان الثلاثة. وكل زوارق عبور النيل ستحمل الأعلام ذات الألوان نفسها. وعلى الجنرالات وقواد الأقاليم والضباط والفرنسيين ألا يقبلوا أبداً محادثة أي فرد من البلاد إذا لم يكن حاملاً للشارة.
«٢٩ سبتمبر. كل من قام بإجراء عقب وفاة أحد أقاربه، عليه أن يؤدي ضريبة.
«الفتح وصية، ضريبة.
«ضريبة مقابل شهادة هوية الورثة.
«ضريبة يؤديها كل مدين بدين للمتوفى. وإذا أُديَ دينه، يؤدي ضريبة جديدة.
«ضريبة مقابل الحصول على وثيقة سفر.
«الإجراء نفسه بالنسبة للمولود الجديد الذي يجب الحصول له على شهادة ولادة. والشيء نفسه بالنسبة للأجور والمساكن. الخ...
«في اليوم نفسه تم قتل شخصين، وأجيلَ برأسيهما في أزقة المدينة، مع ترديد: (ها هو جزاءُ من يحمل رسائل لمراد أو يأتي بها من عنده)
«أصبحت عملية جبي الضرائب في الأقاليم عملية منوطة بالشرطة،

فأضحت شبه عملية حربية. وقصد جبي مائة فرس من الجيزة، تم تشكيل طابور من مائتين وخمسين رجلاً ونصف فصيلة من المدفعية.

«وفي الفيوم يقوم بويي بالعملية بواسطة تشكيلة عسكرية ووحدة مدفعية.

«والذين يمانعون سيتعرضون للجلد، أو يعاقبون بانتزاع نسائهم منهم وحرق منازلهم.

« ٨ أكتوبر. سيعلن (البراح) في الأسواق بأن السكان مدعوون لوضع الوثائق التي تثبت ملكيتهم لممتلكاتهم بالديوان، في أجل ثلاثين يوماً. وإذا تجاوز الأجل ضوعفت الضريبة.

«٩ أكتوبر. رخصة ممارسة تجارة.

«٢٠ أكتوبر. علقت لائحة الضرائب على العقارات والممتلكات المادية العينية على جدران المدينة. وقد عين مهندسون لتصنيف البيوتات حسب علوها. أما الفنادق والنزل والحمامات ومعاصر الزيت ومطاحن السمسم والحوانيت، فتحدد ضرائبها حسب مظهرها وموقعها ومساحتها. واعتماداً على فكرة ليوسيبلغ، وهو إداري في مالية جيش البعثة، ستحمل هذه الضريبة اسم: قانون التسجيل.

أبو نبارت أم مراد؟

* * *

كانت الدعوة إلى الجهاد تتنقل من مئذنة إلى أخرى. وكان اليوم هو الأحد ٢١ أكتوبر.

حيثما كنت، ببولاق أو ببركة الفيل، بباب اللوق أو باب الفتوح، بالأحياء البائسة للقاهرة القديمة، أو بقمة المقطم، كانت تسمع أصوات المؤذنين تنادي للجهاد. وقد وصل صدى هذه الأصوات حتى إقامة الصباح.

استولى هياج بالغ على شهرزاد. كان أخوها قد غادر المنزل منذ الصباح، ولم يبن له أثر بعد.

« أعدك أن أبقى حياً، بعد ٢١ أكتوبر.»

اجتاح امتقاع مرعب قسمات المرأة الشابة وهي متشبثة بذراع زوجها.

– بسرعة يا ميشل، علينا أن نذهب إلى القاهرة. نبيل عرضة لكل الشرور.

كان يوسف، الذي حضر هذا المشهد، يراقب ابنته، وهو مقتنع بانها قد جنت.

- الفظي هذه الكلمات من فمك واستعيدي هدوءك. فأن يشرع بعض المتنورين في الزعيق لا يعني أن نأخذ في الحديث عن شرور. لا مجال لمغادرة الصباح.

أحجمت شهرزاد عن الرد مخافة أن تخونها نبرات صوتها.

قرر ميشيل مواجهة العجوز.

- بابا. إن شهرزاد على حق. إن هذه المناداة للجهاد، ابنك هو باعثها.

- ماذا تقول؟

- يحتاج الشرح إلى وقت طويل. عليك أن تثق بي إذا قلت لك إن نبيل، في هذه اللحظة، معرض لخطر محدق.

- لكن أين هو؟ ولماذا؟

قالت شهرزاد بدورها:

- أبي، أرجوك لا تحاول أن تفهم الآن. دعنا نذهب للبحث عنه، فحياته في خطر.

صمت يوسف للحظة قبل أن يقول:

- هيا. افعلا ما تريانه ضرورياً. هيا وأتياني بولدي.

* * *

كانت كل جدران القاهرة تردد أصوات الصائحين.

كان الناس قد استجابوا لنداءات المؤذنين وتشكلوا تلقائياً في مجموعات غطت كل المدينة. كان بعضهم مسلحاً بفؤوس أو بعصي وأحياناً ببنادق. وكان آخرون يتقدمون بأيديهم فارغة. وعلى رأس كل مجموعة كان يوجد أحد عناصر دم النيل. كانت الجموع تتقدم دون اتجاهات محددة، في ارتباك تام. فقط تتقدم نحو الأمام.

كان نبيل على رأس حوالى مائة من الأشخاص الهائجين، وهو مسلح برمح، يمشي على طول القناة، غير بعيد عن باب الشاعرية. كان الصياح (الله ينصر الإسلام) يصعد من قلب المدينة، ويتدحرج من باب إلى باب مثل جلبة انجراف ثلجي.

وإذا كان العصيان قد اجتاح بالتدريج غالبية العاصمة، فإن الأحياء الداخلية والتي على أعالي النهر والقاهرة العتيقة وبولاق، قد ظلت، بشكل يدعو إلى الاستغراب، هادئة. لا شك أن سبب ذلك راجع إلى مجاورتها للثكنات.

صاح نبيل وهو يشير إلى المصطبات الحجرية للحوانيت:

- حطموها. علينا أن نصنع منها حواجز.

وشرقاً، قريباً من المدابغ القديمة، كان ثائرون آخرون يحيطون بمسكن إبراهيم أختيم، القاضي الأصغر، قاضي الجيوش. أنذره بطرس بضرورة أن يحصل من الفرنسيين على تخفيض في حقوق التسجيل، وهي الضريبة التي ساهمت، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في إثارة التمرد. حاول القاضي أن يراوغ. أثار غضب الجمع. حاول أن يربح الوقت، فأمطر منزله، بأمر من بطرس، بالحجارة والطوب، مما أدى إلى تكسير وتحطيم كل شيء. لم يكن للرجل من وقت سوى ما يكفيه للاندفاع إلى الداخل والاختباء، وهو يدعو الله أن يرسل إليه أحد أولئك الملائكة المخلصين.

أسفل هذا المكان، وبعيداً عنه، كانوا قد اجتاحوا لتوهم الحي الذي يقطنه غالبية الضباط والعلماء الفرنسيين.

كان أول منزل هوجم هو منزل أبو خشبة - الرجل ذو الساق الخشبية -، وهو اللقب الذي أطلقه الجمهور على الجنرال كفاريللي. ولحسن حظه كان غائباً. كان قد رافق، في الصباح الباكر، الجنرال القائد والقيادة العامة لإجراء تفتيش في القاهرة العتيقة وجزيرة الروضة. لكنهم وجدوا هناك مهندسين للقناطر والطرق: طيفونو ودوفال. وأمام تهديد الحشد جمعا كل الخدم لمحاولة الوقوف في وجه الهجمة. لكن سدىً، إذ سرعان ما اخترقوا هذا الجدار الصغير. وفي حمأة الصراخ والزعيق، وبعد أن طوردا من غرفة إلى أخرى، قطع الرجلان إرباً إرباً.

وأعلى من ذلك ببضع أزقة، وقع في يد الثوار أيضاً الجراحان مانجان وروسيل، في الوقت الذي كانا يحاولان الإلتحاق بمسكنهما.

كانت شمس أكتوبر، الثابتة، قد علت المآذن. الساعة الآن حوالى العاشرة.

كان ميشيل وشهرزاد، اللذان تجاوزا باب الخرق دون صعوبات تذكر، قد أحسا بأن تقدمهما يصبح بطيئاً، كلما اقتربا من القصبة.

- علينا التخلي عن الفرسين. قرر ميشيل. لم يعد بإمكاننا أن نتقدم.

- أين يمكننا أن نتركهما؟ قد يُسرقان.

- إما أن نتركهما أو نعود إلى حال سبيلنا.

فحص المكان بعينيه ثم قال، وهو يشير إلى زقاق على يسارهما:

- هنا. سنعود للبحث عنهما، علهما يكونان ما يزالان هنا.

وبمجرد أن عقلا الفرسين، انطلقا نحو القصبة، نحو الأزهر. فإذا كان ثمة من أمل في العثور على نبيل، ففي ضواحي مسجد الزهور.

كان الجنرال دوبوي، قائد القاهرة، قد ارتدى بذلته.

عندما أخطر في الصباح الباكر بالتجمعات التي شكلتها الجماهير، لم يكن قد قدر الأمر حق قدره، واكتفى بإطلاق بعض الدوريات لمواجهة المتمردين. لكن الأحداث تطورت، في غضون ساعتين، بطريقة مأساوية.

وعندما قرأ التقارير التي كانت تتوافد عليه من كل صوب، اكتشف أن المجموعات البشرية لم تكتف بأن لم تتفرق، بل إن ما اعتبر مجرد تظاهرة صعاليك، قد اتخذ شكل ثورة حقيقية.

اندفع خارج مسكنه وأمر الفرقة الثانية والثلاثين، المرابطة في الجوار، بأن تستعد للسير. هو نفسه قد توجه محروساً بسياج من الخيالة، نحو مدينة الموتى، لأن ثمة، كما قيل له، يوجد كبير المتمردين.

امتطى فرسه آمراً بارتليمي بتعقبه، وسار نحو المدينة المحزونة.

من فوق السطوح، كان نساء ورجال يرشقون، مذهولين، الجنرال وحرسه بالحجارة.

استطاع دوبوي وحرسه، وهم يطردون برماحهم ويفرقون من كان يعترض طريقهم، الوصول إلى حي الأوروبيين. كانوا يستعدون لولوج زنقة الفينيسيين عندما اعترض طريقهم جدار آدمي. وفي خضم هذا المد المائج المعتمل، استرعى انتباه الجنرال دوبوي رجل مسلح برمح. كان بارزاً بوضوح في الديكور العام. قد يكون في الثلاثين من عمره. كان ينتمي إلى هؤلاء الناس،

لكنه لا يبدو من دمهم. كان كل شيء فيه يوحي بالثورة، لكن دوبوي خال أنه قد قرأ فيه شيئاً أكثر كثافة؛ قرأ قدريةً وتصميماً انتحارياً.

ساط الجنرال بحدة فرسه، وعاد للغوص في الحقيقة. حمس فرقته بصوته، واندفع نحو المد البشري.

كان بارتليمي يقف على بعد حوالى مائتي متر خلفه، مسلحاً بطبنجة.

من أول صدام، شرع نبيل يتحرك نحو الخلف، فقام أصدقاؤه بالشيء نفسه.

يجب الاستدراك، يجب ألا يمروا.

تكاثفت الصفوف من جديد. انعقد الناس في جماعة متكتلة.

دوت طلقة نارية. كان بارتليمي قد أطلق النار على التكتل.

تقدم الجنرال نحو الأمام، فلامس حذاؤه وجنة نبيل.

من خلل ضباب خفيف، لمح ابن شديد الكتلة الغسقية للفرس والتماعة ركابَيْه.

أصابته ضربة رمح في ذراعه، لكنه لم يتراجع. عليه أن يصمد. تشبث شخص بساق ديبوي. حاول التخلص منه. يجب أن يتخلص منه. هذا الرمح الذي يرتفع والذي ينعكس عليه شعاع شمس، كان له الوقت ليراه. إنه الشاب الذي رآه قبل قليل، يستعد كي يضرب.

كان تردد نبيل وجيزاً. أصاب الرمح أسفل الإبط الأيسر لديبوي.

- نبيل، أخي، لا.

غطت صرخة شهرزاد اليائسة، للحظة وجيزة، على تأوه ديبوي وسباب الجموع.

حاول ميشيل أن يمسك زوجته، غير أن قوة المرأة الشابة كانت عنيفة.

ارتمت نحو الأمام محاولة إيجاد ممر في الجدار البشري. سار في أعقابها.

كان الخيالة قد سيطروا على الموقف من جديد. كانت سيوفهم تهشم الرؤوس التي تنفجر مثل بطيخ في أشعة الشمس. كانوا يقطعون وينحُون كي يخلصوا رئيسهم.

اضطر رفاق نبيل، إذن، إلى التقهقر. كانوا يتراجعون. تشكلت نصف دائرة ممتدة حتى شارع المعز، وكانت تتوسع تبعاً لضربات الخيالة.

ترجل أحدهم وحاول إلقاء القبض على نبيل، لكن الشاب استطاع أن يفلت منه وأن يذوب في الجموع البشرية.

أوقفوا الجنرال وحملوه. لاحظ أحدهم أنه كان ينزف بغزارة من أسفل الإبط.

على بعد قامات من هناك، كانت شهرزاد، المحبوسة وسط الجموع كما لو كانت في شبكة، ترى شبح أخيها يضمحل.

* * *

الوقت الآن تجاوز الثالثة بعد الزوال. كانت الثورة ما تزال تضخم رئتي المدينة.

حل الجنرال «بون» محل دوبوي. بعد قليل ستقوم فرق مشاة قوية، منتشرة في الأزقة الرئيسة، بإطلاق النار على المتمردين. بعض الحواجز صمدت، وكُنِس البعض الآخر.

بباب النصر، كان سولكوفسكي، المرافق المفضل للقائد العام، يعمل على صرف بعض البدويين الذين كانوا يحاولون ولوج المدينة، بعد أن سمعوا بالتمرد. انزلق من على فرسه، فقُتل بضربات عصي. لقي أحد عشر من خمسة عشر من مرافقيه المصير نفسه.

هبت رياح جنون على القاهرة. كان بعض المتمردين - وهم يشاهدون أصدقاءهم يسقطون تباعاً - يتجاوزون في اندفاعهم كل الحدود. سرقة ونهب. هوجم حي الجنوانية. لم يعد الهدف هو الفرنسيين فقط، بل بيوتات المسيحيين أيضاً. ولم يسلم حتى جيرانهم المسلمون الذين حاولوا الوقوف في وجههم. اجتيحت المساكن ونهب سوق الأثواب عن آخره.

وعندما كان المغيب يخيم على المآذن، استطاع عثمان - أحد آخر الأحياء من دم النيل - أن يلقي القبض على الشيخ السادات. في لحظة حلق رأس الشيخ وألبس بذلة جندي قُتل، فاقتيد إلى سوق النخاسين. هناك أقيم له - وسط ضحكات الجمهور المتشفية - مزاد علني. لم يتجاوز ثمن السادات ثلاثة عشر قرشاً.

في حي بركة الفيل، أخذ فرانسوا بيرنويي، بدون رغبة حقيقية، سيفاً وبندقية، وتوجه للالتحاق بالفرقة الخفيفة ٢٢، التي تواجه المتمردين.

تأمل رفاقه الذين يوقدون بطارية مدفعين.

ارتجت الجموع من أول طلقة. ومع الطلقة الثانية تشتتت مأخوذة بالرعب. لا مناص من الفرار. لكن، ووسط هذا الرعب والفوضى والتدافع، أصبحت الأزقة، الضيقة أصلاً، أكثر ضيقاً. لم تعد تستطيع استيعاب هذه الأعداد الهائلة من الفارين. سحقوا سحقاً.

سمع بيرنويي صوت الجنرال بيرتيي يأمر بالشحن. الساعة الموالية ستطيل المجزرة وستكملها.

عندما سمع أبو نبارت صوت مدفعية الإنذار، عاد إلى المدينة عن طريق باب بولاق، بعد أن حاول سدىً أن يمر من باب القاهرة العتيقة، حيث رشق بوابل من الحجارة. وكي يصبح المرور ممكناً، أطلق ديتروي، الذي كان يرافقه، النار على دماغ زعيم المتمردين. هل كان بإمكان الضابط أن يخمن بأن المقتول هو صلاح، الشاب الذي ارتأى قبل بضع سنوات، أن يطلق على حركة المقاومة التي ينتمي إليها «فرنسا».

بمجرد وصول الجنرال القائد إلى قصر الأزبكية، أمر بوضع مراكز للمدفعية حول الساحة وفي الأزقة الرئيسة. أما دومارتين ولانس، فقد كلفا باحتلال مرتفعات المقطم وبأن يضعا عليها مدافع.

كان نبيل قد استعاد قيادة المتمردين المتجمعين بحي الأوروبيين.

كان الرصاص يدوي في كل مكان. كان رفاقه ينهارون الواحد بعد الآخر. بعد حين سينفلت الوضع من أيديهم.

- إلى الأزهر، إلى الأزهر. جميعاً إلى المسجد.

انتقل الأمر عبر الصفوف. سار المتمردون كرجل واحد خلف قائدهم.

كانوا، عندما دلفوا إلى المكان المقدس، حوالى ألف رجل. غلقت الأبواب العظيمة خلفهم مصحوبة بصرير مدو. أغلقت كل المداخل. خفقت الأصوات بالتدريج.

وعندما تسلل الظلام إلى تحت القبة، كان مصحوباً بصمت جنائزي.

تهالك نبيل، منهكاً من التعب، عند قدم المنبر. في هذه اللحظة فقط انتبه إلى جرح ذراعه. كان يؤلمه. رفع رأسه. تخيل فوقه الالتماعات الأولى للنجوم. اجتاحه، فجأة، قلق لا يقاوم. تفحص ما حوله. كان المسجد مسوداً من كثرة

البشر. كان بطرس حاضراً، ملامحه مكسوة بالغبار. هما بالتاكيد آخر من تبقى من دم النيل.

كانت شهرزاد وميشيل قد عادا إلى الصباح. همس يوسف:

- انتهى أمرهم. سيصبح الأزهر قبراً لهم.

لم تنبس نادية. عيناها جافتان. ما عاد في مآقيها دموع.

سيقضي الجنرال القائد الليل كله في إصدار أوامر. وستكون هذه الأوامر في غالبيتها مستوحاة من مناسبة أخرى تكاد تماثل هذه التي يواجهها اليوم. اتخذ تقريباً التكتيك نفسه، وكرس أهم ما في العملية لتحديد مواضع مدفعية لإطلاق النار على الخصم.

وفي الصباح كانت هضاب البرقية وأسوار القلعة مكسوة بالمدافع.

عند الثانية عشرة بدأت قنْبَلة المدينة.

كانت كل المواقع المحتلة من طرف المتمردين تتعرض لسيل من النار. غير أن النقطة الرئيسة التي كانت تتلاقى القنابل فيها هي الأزهر والأحياء المجاورة.

كانت فرقعات المدفعية تختلط بصرخات الجرحى.

كانت القنابل تنهال على المنازل والأزقة، محدثة رعباً عاماً. كان السكان يحاولون الفرار، لكن إلى أين؟ كانوا يتزاحمون في خضم اندحار رهيب.

حطمت قنابل عمياء قصوراً ومساكن ونزلاً. وزعزع هرج يصم الآذان أرجاء القاهرة.

ترك المتمردون المرعوبون بالطوفان الذي ينزل فوقهم تدريجياً مخابئهم للجنود الفرنسيين.

حاول بعض الشيوخ أن يفاوضوا.

رفض السلطان الكبير أية تسوية.

أرسل كتيبة مشاة إلى المدافن حيث ما تزال توجد مقاومة. قَطَعَتْ إرباً إرباً كلَّ من لم يستطع أو لم يرد الفرار. وبذلك أصبحت كل أزقة القاهرة مسرحاً لمجزرة محزنة.

عند الثامنة مساء سلم الشيوخ أنفسهم دون شروط.

فأعطى الجنرال القائد الأمر، تبعاً لذلك، بإيقاف إطلاق النار.

وعندما خيم الظلام، كان الهدوء قد عاد إلى العاصمة، رغم أصوات بعض الطلقات المتفرقة.

ظن كثير من الناس أن تلك كانت نهاية الكابوس.

حوالى الحادية عشرة، تجولت الفرق العسكرية عبر الأزقة التي كانت ما تزال مكسوة بالجثث وبالمحتضرين.

وعند الفجر، أعطى أبو نبارت أمره الأخير: دكوا الأزهر.

أمسك نبيل بذراع بطرس وتسلقا معاً الدرج إلى قمة الصومعة.

من هناك كان المنظر مبهراً. لاحظا تفصيلاً غريباً؛ سماء مصر التي تظل دائماً صافية، تلبدت بسحب ثقيلة تتأهب للانفجار.

أشار نبيل بإصبعه إلى الدخان الذي ينبعث من كل مكان. همس بحنجرة متحشرجة:

- لقد عاثوا فساداً.

أقر بطرس كلامه برأسه دون أن ينبس.

في تلك اللحظة نفسها، كان الجنرال دومارتان يستعد لإيقاد بطارياته.

وعندما دوت أول طلقة مدفع، رفع نبيل، آلياً، عينيه إلى السماء.

- عاصفة تستعد للانفجار، لاحظ، بهدوء.

لامس بطرس ظهره بكفه. كانت قطرات مطر قد سقطت عليه.

- سيغسل المطر الدم، وربما حتى. . .

لم يُتمّ جملته. كان انفجار مرعب قد هز الصومعة. أعقبه انفجار آخر على الفور تقريباً. ثم انفجار ثالث. كان المسجد يتعرض لسيل من القذائف.

- بسرعة. علينا أن نعود.

دلف نبيل إلى الممر الذي يفضي إلى المدارج. أما بطرس فلم يسعفه الوقت كي يفعل مثله. لقد تناثرت أشلاؤه من قنبلة حطمت جسده.

قُذف نبيل، بفعل الريح المصاحبة للقنبلة، على الجدار الداخلي. صدم رأسه الصخر، فانهار، وتدحرج على السلم. توقف تدحرجه عند أول انعطافة.

كانت العاصفة قد اندلعت، في الوقت نفسه تقريباً. التماعات تبرق في السماء. وابل من المطر ينزل ويجتاح الأزقة والقصور والصحراء. وقد انضاف

إلى هذا المطر المفاجئ والقوي، القنابل التي تنهال على الأزهر والمنازل المجاورة. بعد لحظة سيكون الحي المجاور عبارة عن مشهد عام للخراب. بيوت مخربة، بنايات مشتعلة. صيحات رعب ترتفع من بين الحطام حيت تهلك عائلات بأكملها.

كانت جدران المسجد تهتز بفعل قذفات منجنيقية غير مرئية. اجتاحت الأدخنة والغبار المسجد، هازة الثريات البرونزية.

تجمع الرجال تلقائياً وشكلوا تحت القبة نواة متضامنة.

استمر القصف لأكثر من ساعة، ثم ران الصمت فجاة.

استعاد نبيل وعيه وانضم إلى زمرته.

همس أحدهم بصوت يكاد يكون غير مسموع، ربما مخافة إيقاظ البارود من جديد:

- لقد توقفوا.

تناظر الرجال مستغربين هذا الهدوء المفاجئ.

- سلموا أسلحتكم، أخرجوا أيديكم مرفوعة.

كرر الصوت، من الجهة الأخرى للباب العملاق، مدققاً هذه المرة:

- وإلا فإن النار ستطلق من جديد إلى أن يتم القضاء عليكم جميعاً.

سأل نبيل رفاقه. وقد فوجئ بأن وجدهم جميعاً مصممين التصميم نفسه. التعبير العنيد نفسه:

- حتى الموت، صرخ صوت هائج.

- حتى الموت، قال صوت آخر.

اقترب نبيل، بعد ذلك، من الباب وصاح بدوره:

- أطلقوا نيران مدافعكم، أو إن كنتم بذاك القدر من الشجاعة، أرسلوا رجال جنودكم للبحث عنا.

ربما كان الشاب يجهل أن الجنود كانوا هنا بالفعل. بعيدين بعض الشيء، لكنهم حاضرون. طوقوا المكان ومنعوا خروج أي كان. كانوا ينتظرون أوامر الجنرال القائد. لم تأت أوامر. كان أبو نبارت يفضل المدفعية. فدوت المدافع من جديد. كانت نيرانها أكثر عنفاً وأكثر دقة.

وعند مقدم النهار، كان الجزء الأكبر من الأزهر قد دمر. أعداد كبيرة من المتمردين دفنت تحت أكوام الحجارة. بعد قليل سيختفون جميعاً، قال صوت. حتى آخر واحد منهم.

ما عاد نبيل يتردد. انقذف نحو الباب وهو يصيح:

- أمان، أمان. نسلم أنفسنا.

سمعه ضابط وأشار عليه بالخروج.

رفع الرتاج، واقتيد نبيل إلى القائد العام.

تفحصه هذا، يداه معقودتان خلفه، وقال:

- أنا أستمع إليك.

بحث نبيل، مبهوراً بالرغم منه، عن كلماته:

- ألتمس عفوك. ارحم إخواني. نحن نسلم أنفسنا دون شروط. لكنني أستحلفك بالله أن توقف هذا القصف القاتل.

رجت اهتزازة خفيفة جفن الجنرال القائد ووضع إصبعه على صدر ابن شديد:

- لقد رفضتم عفوي عندما عرضته عليكم. وقد أزفت ساعة الانتقام. لقد بدأت أنت، ولي أنا أمر الإنهاء.

ثم أضاف:

- خذوه. ليحبس في القلعة وليرم بالرصاص فجراً.

ظل التمرد يحتضر لما يقارب الساعتين. ساعتان استمر القصف خلالهما دون توقف.

بعد خيبة أمل رفقاء نبيل بسبب رفض السلطان الكبير، حاولوا الخروج. خرجوا أفواجاً حاملين رماحهم، بينما قفز بعضهم - رافضين السقوط في قبضة العدو - من فوق الدرابزين ساقطين في الهواء. كان الدم يسيل في مجاري مسجد الزهور. وأخيراً، وحوالى الثامنة مساءً، تقدم أواخر المتمردين دون سلاح، نحو الجنود وألقوا بأنفسهم، وجوههم لصق الأرض.

اقتحم رماة القنابل الجامعة عابرين الأنقاض. كان لدى الجنرال «بون» أمر بنهب كل شيء.

دلف بعض الخيالة إلى داخل الجامع على صهوة جيادهم، قبل أن يتوجهوا إلى القاعات المجاورة. خلال ساعات نُهب وكسر كل شيء. هشمت شمعدانات، ومزقت كتب الطلبة. استولوا على كل ما عثروا عليه: مزهريات، صحون، وأشياء أخرى مختلفة. داسوا المصاحف، وأقعى بعض الرماة لقضاء حاجاتهم على الأرض وعلى الزرابي، وتبول آخرون على الأثاث.

كان التاريخ هو ٢٣ أكتوبر. خلفت الثورة أكثر من ثلاثة آلاف قتيل في صفوف الشعب المصري.

انتهى الشهر الرابع من السراب الشرقي لأبو نبارت وسط الرائحة الكريهة للإفرازات والبول.

الفصل الثامن عشر

بسط روزيتي الورقة وقرأ بصوت بهيم:

«عليك، أيها الجنرال بيرتيي، أن تصدر الأمر لحاكم الساحة بقطع عنق كل السجناء الذين ألقي القبض عليهم وفي أيديهم سلاح. سيؤخذون هذه الليلة إلى شاطئ النيل، بين بولاق والقاهرة العتيقة، وستلقى جثثهم في النهر»

ثم أضاف القنصل وهو لا يجرؤ على رفع بصره، لا في عيني نادية الغارقتين في الدموع، ولا في وجه زوجها المرعوب.

- هذه للأسف، هي تعليمات بونابرت. وصدقوني، أنا أشعر بالتعاسة نفسها التي تشعرون بها.

مزقت شهرزاد المنديل الذي كانت تضعه بين أصابعها، ولم تدل بأي تعليق، شأنها في ذلك شأن أمها. كان الألم مبرحاً، ولم يترك مكاناً للكلمات.

انتشل يوسف الوثيقة من يد روزيتي وأعاد قراءتها آملاً في المستحيل.

- سيقتلون ولدي دون محاكمة. سيغتالون ولدي.

فجأة رفع هامته بإهاب صارم.

- قل يا روزيتي بأن هذا غير صحيح. قل لي بأن الأتراك والمماليك هم وحدهم القادرون على إيتاء عمل بهذه القسوة.

لم يجد القنصل ما يرد به. نكس رأسه مضطرباً.

- ألا يمكننا أن نحاول القيام بشيء؟ سأل ميشيل.

- لا أعتقد. الإمكانية الوحيدة كانت هي تحويل إعدامه إلى مدة سجنية. فبمجرد إخطاركم لي بالمأساة، حاولت الحصول على إذن بلقاء الجنرال الفرنسي، لكن سدىً. حالة نبيل هي من الحالات الأشد خطورة. هذا ما قاله لي أحد

مرافقي الجنرال. وأنتم تعلمون، فضحيّته لم تكن شخصاً عادياً.

- وحياة أخي، صاحت شهرزاد فجأة. هل هي أقل قيمة من حياة جنرال؟

اضطربت شفتا روزيتي بكلمة (لا)، دون أن تنطقها.

- لقد قتل عسكرياً لا يقتل مدنياً، أتفهم ما أعني يا كارلو! لقد قام بذلك خلال معركة في الشارع وأمام جنود مدججين بالسلاح. كان عليكم أن تروا تلك المعركة. لقد كانت معركة حقيقية.

أمسك ميشيل بذراع زوجته وهو يحاول أن يهدئ من روعها.

- لا يمكننا أن نسمح بحصول هذا. عليك أن تعود للقاء الفرنسي. هذا ضروري يا روزيتي. وسآتي معك. سأتوسل إليه وأستعطفه حتى...

- لا يمكن لذلك أن يحصل.

كان يوسف قد انتصب.

- أبداً. لن يقال أبداً بأن ابنتي قد ذُلت أمام رجل مهما تكن قوته. أتسمعين. أبداً.

ثم التفت نحو القنصل:

- سآتي معك بمفردي.

كاد روزيتي يعلق بأن لا فائدة ترجى من ذلك، وأنه ليس هناك أي أمل في أن يتراجع الجنرال الفرنسي عن قراره. لكنه لم يقل شيئاً:

- طيب. لكنني أرجوك أن تحتفظ بهدوئك.

أمسك العجوز عصاه، وكان أول من تجاوز عتبة الغرفة.

* * *

كانت المآذن المستديرة للقلعة تلقي بظلالها خارج الأسوار.

من هناك، كان بالإمكان مشاهدة الفسطاط والقاهرة. وفي المكان الذي يقف فيه الآن الضابط دارمنياك، كان قد وقف، في يوم ضارب في الزمن، سيد القلعة الأول صلاح الدين العظيم.

مع انصرام القرون، تعاقب سلاطين آخرون على هذه الجدران المسننة، واجتاز عدد كبير من الشخصيات اللامعة سقيفة باب العذاب.

أجال دارمنياك ناظريه في ما كان قد شكل القصر المنيف لقلاوون،

والمساجد التي تقع في حضن الأسوار، وثبتهما للحظة على البئر التي كان يسميها الناس هنا بئر يوسف. هل تستمد اسمها من الشخصية الإنجيلية، أم أنها سميت بالاسم الشخصي لصلاح الدين؟ سواء أكان هذا أم ذاك، فإن حفرها لم يكن بلا فائدة. فبموقعها في أعلى نقطة من القلعة، وبعمقها الذي يصل إلى مائتي قدم، كانت تذر ما يكفي من الماء لتلبية حاجيات حامية من ستة آلاف رجل.

لكن هذا الصباحَ لا ينتمي إلى الأسئلة التاريخية. فجلاد المدينة قد يكون عيل صبره، إذْ هناك عدد غير قليل من الرؤوس ستقطع.

ففي الساحة المركزية، وعلى بعد أقدام من الجنرال دارمنياك، كف عبد الجواد عن شحذ سيفه المدمشق الرائع الذي يساوي ذهباً، ورفع بصره نحو السماء. عثر فيها على ما يعاكس رغبته كلية. هبت رياح جنوبية. الريح في ذاتها لم يكن فيها ما ينغص على ما سيقوم به. كان الأمر يتعلق بشيء آخر. كان حمالو الأزبال، بنقلهم لقاذورات المدينة خارج الأسوار، قد شكلوا تلالاً حقيقية من الأزبال. ومع أول هبة للريح انتشرت رائحة كريهة واجتاحت السماء سحب من الغبار. وإذا علمنا مقدار الأهمية التي يوليها عبد الجواد للنظافة، خصوصاً في مهنته، فُهم كم كان هذا النوع من التنغيص يغضبه. الوقاية قبل أي شيء آخر. لقد ورث هذه المهنة عن والده الذي كان جلاد العاصمة الأكثر إتقاناً لعمله.

ومهما كانت المعوّقات، فإن عبد الجواد لم يكن يستسلم للغضب. فقد تفْقد ذراعه دقتها من ذلك، الأمر الذي سيكون مزعجاً حقاً بالنسبة للذين سيقطع أعناقهم بعد قليل. إن المحترف لن يكون محترفاً إذا كان شديد الحساسية تجاه العوامل الخارجية.

كف إذن عن تسنين سلاحه ومرره في راحته كي يتأكد من مضائه. بعد ذلك أقعى كي يفحص التراب. بدا مقتنعاً بما رآه، فانتصب ودس سلاحه تحت قفطانه ووقف منتظراً.

فالتراب، في التقنية التي نقلها إليه أبوه، يلعب دوراً مركزياً. عليه ألا يكون رطباً ولا شديد الكثافة، ولكن أغبرَ. وهذه الطريقة في قطع الرؤوس كانت - عندما يتأملها - من الطرق اللبقة والإنسانية. بسيطة لكن فعالة:

يدخل المحكوم عليه إلى الساحة محاطاً بعسْكريينْ، ويرغم على أن يجثو على ركبتيه. يقترب منه عبد الجواد ممسكاً بقبضة من التراب في كفه اليسرى ويقذفها فجأة في عينيه. يرفع المتهم، برد فعل طبيعي، كفيه إلى وجهه وينكس هامته. وتلك هي اللحظة التي يختارها عبد الجواد ليضرب بالدمشقي الذي يظل مخبأ تحت قفطانه، فيتدحرج الرأس على الأرض بضجيج مكتوم. تجري الدماء من شبكة قنوات صغيرة، قبل أن تذهب لتضيع في رمال المقطم. بعد ذلك يُقذَف بعض التراب على القطرات التي فضلت على الأرض. وهكذا، فعندما يأتي المحكوم الموالي، لا يلاحظ أي أثر للمأساة.

كان ذلك عملاً متقناً، لا مأخذ عليه، وبالخصوص - كان عبد الجواد مقتنعاً بذلك - رحيماً. كانت هذه التقنية تجنب المحكوم الرعب الأخير الذي ينتاب أي إنسان أمام الموت.

الله كبير، ييسر لعبد الجواد تلطيف آخر لحظات البؤساء الذين كان يرسلهم للقائه. ثم وجب الاعتراف بفضل الجنرال الفرنسي الذي استجاب لنصائح أحد ضباطه وتبنى هذه الطريقة التي توفر كثيراً من المصاريف.

كان أول المتهمين قد تجاوز لتوه عتبة الباب الصغيرة.

كان عبد الجواد يراقبه وهو يتقدم مؤطَّراً بعسكريَّيْنْ. كم كان عمره؟ حوالى ثلاثين سنة لا اكثر.

* * *

احتفظ يوسف ببصره موجهاً نحو باب العذاب. كان، وهو يتكئ على عصاه، منتصب القامة. أكثر انتصاباً من روزيتي المرتخي.

كانت شهرزاد حاضرة هي الأخرى. استطاعت، في آخر لحظة، أن تقنع أباها بأن يسمح لها بمرافقته، مقابل تعهدها بعدم التدخل، وبعدم مصاحبته عند الجنرال. لكنه تعهُّد لا فائدة منه، حيث لم يستقبله أحد. فقد رُفضت كل التماساتهم، ولم يستطع روزيتي، رغم إلحاحه، أن يحصل سوى على وعد باستلام جثمان الشاب.

وها هم الآن ينتظرون. كانت الساعة تشير إلى حوالى الحادية عشرة.

* * *

ألقى عبد الجواد قبضة التراب في وجه نبيل. هل فعل ذلك بطريقة غير متقنة؟ هل أزعجه الدخان القادم من التلال إلى الحد الذي أفقده دقته؟ بالكاد طرف الفتى.

غضب الجلاد، فقد كان الأمر مزعجاً، مزعجاً للغاية.

- نكسا رأسه، أمر العسكريَّين.

استل سيفه قابضاً عليه بكلتا يديه.

لا مجال هذه المرة لارتكاب خطأ آخر، خصوصاً وأن الرعب كان قد بدا في عيني الضحية، وظهر اليأس الذي لم يكن يحتمله عبد الجواد إلا بصعوبة.

أرغم العسكريان نبيل على تنكيس رأسه. كانت مقاومته ضعيفة.

انطلقت ذراع عبد الجواد بكل قوة.

أغمض نبيل عينيه، واهتز جسده. كان يبكي مثل طفل.

* * *

حوالى الساعة السادسة مساء، أُخْطِر الضابط دارمنياك بأن كل المتهمين قد أُعدموا. وكان آنذاك في غرفته التي فضل أن ينسحب إليها حتى لا يرغم على تحمل مشاهد الرعب تلك. سار في أعقاب الرائد جوبير إلى حيث كدست حوالى خمس عشرة جثة. وعندما نظر إلى تلك الجذوع التي ما تزال تنزف دماً، لعن الأمر الذي تلقاه من الجنرال العام ونفذه.

* * *

سلم ليوسف جثمان ابنه في رداء ملطخ بالدم. طلب العجوز - منتصب القامة دائماً - من روزيتي أن يتأكد من أن الأمر يتعلق فعلاً بنبيل. أكد القنصل ذلك وحمل الجثمان إلى العربة.

عندما شرعت العربة تتحرك، ما عادت شهرزاد قادرة على التحمل، أخذت تتقيأ بقذفات متشعبة.

عندما خيم الليل، قام دارمنياك - تنفيذاً دائماً للأوامر - بإغراق الجثث في النيل. قام بذلك في سرية كاملة، محاذراً من أن يشاهد أحد ذلك، محترماً التوجيهات الرسمية للجنرال القائد.

ما كان لشعب الجهال والمتوحشين هذا أن يفهم صرامة العدالة.

* * *

في اليوم الموالي، كان بالإمكان قراءة التالي على أبواب المساجد وجدران المدينة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من أمير الجيوش الفرنساوية خطابا إلى كافة أهالي مصر الخاص والعام نعلمكم أن بعض الضالين الخليين من المعرفة وإدراك العواقب سابقاً أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على العباد، فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم... أيها العلماء والأشراف أعلِموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته مقاديره سبحانه ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. واعلموا أن لله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي وقدر في الأزل إني أجيء من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به، ولا يشك العاقل بتقدير الله وإرادته وقضائه.»(*)

«لقد أضل رجالٌ خُبْلٌ بعضاً منكم، وقد هلكوا. لقد أمرني الله بأن أكون متسامحاً رحيماً بالشعب، وقد كنت متسامحاً رحيماً بكم.»

«وأعلِموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف»

«ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة بأن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي.»

الإمضاء: بونابرت.

يومان بعد ذلك، مرق فرط الرمان في ساحة الأزبكية. كان مصحوباً

(*) النص الأصلي عن عجائب الآثار للجبرتي.

برجاله. كانت غالبيتهم تحمل حقائب غريبة. بإشارة من اليوناني، فتحت الحقائب وأفرغت من محتواها. تدحرج حوالى ثلاثين رأساً على جانب المستنقع. كانت رؤوس أفراد من قبيلة بدوية كانت قد هاجمت، خلال التمرد، جرحى فرقة رينيي.

عقب ذلك، عين بارتليمي مقدماً للجنرال بون، حاكم القاهرة الجديد.

* * *

خلال الساعات الموالية أمر أبو نبارت ببناء حزام من الجدران حول العاصمة، قادر على حماية المدينة من الجاحدين في حالة ما إذا اندلعت من جديد قلاقل من هذا النوع.

لكن هل ستكون لذلك جدوى بالفعل؟

أثناء جريان هذه الأحداث الدامية، كان الباب العالي - الذي كان يعتبر نفسه من تلك اللحظة رسمياً في حالة حرب مع فرنسا - يعد سلاحه، مصمماً العزم على استرجاع الإقليم الذي سلب منه. والبيان الذي نشره لتوه لا يترك مجالاً للشك في تصميمه:

«لنا أمر من سيدنا العظيم، السلطان سليم الثالث، بتجميع فرق عسكرية من كل أقاليم الإمبراطورية. وقريباً ستتقدم أرضاً جيوش كثيرة العدد وشديدة البأس، في الوقت نفسه الذي ستغطي فيه سطح البحار مراكب أعلى من الجبال، ومدافع تلقي اللهب والبارود، وأبطال يستهينون بالموت من أجل نصرة الله. وسيلحق بهم محاربون يعرفون - لشدة حماستهم لدينهم - كيف يواجهون الحديد والنار؛ وسيكون في متناولنا إن شاء الله أن نحطمهم حتى نحيلهم مثل الغبار الذي تذروه الرياح وتبدده».

ويوم ٢٣ ديسمبر، عقدت اسطنبول تحالفاً مع روسيا ثم مع إنجلترا التي سارعت إلى وضع أسطولها رهن إشارة السلطان، الشيء الذي أثار حمية الجنرال القائد. كيف جرؤ سليم الثالث؟ ألا تجمع روابط دموية - غير مباشرة وسرية، لكنها حقيقية - بين الكورسيكي والتركي؟ قليل من الناس يعرف ذلك. لكن محظية السيد العظيم لم تكن أي أحد آخر غير ابنة عم متباعدة النسب، وصديقة جوزيفين، والتي ولدت هي أيضاً بالمارتنيك.

* * *

خيم الشتاء. كان شتاءً لا مثيل له في قسوته. هذه السماء التي لم تكن تعرف إلا الزرقة فوجئت وتأثرت من كونها ترى هذه السحب الغريبة تنحرف نحوها.

عائلة شديد كانت تنحرف أيضاً، لكن نحو شقائها.

ما عادت نادية تعيش حياتها بعد وفاة نبيل، أو أنها ما عادت تفعل إلا قليلاً. أصبحت، في اليوم الموالي لدفن نبيل، تحمل حدادها في القلب وفي الرأس. ومع تعاقب الأسابيع، أصبح الهواء الذي يحيط بها يتزيا هو الآخر بالسواد. أما بالنسبة ليوسف، فكان يبدو وكأنه قد تمدد إلى جانب ولده إذْ وُورِيَ في الثرى، فغاصت حياته تحت التراب والورود المنثورة على النعش. كان الحزن الذي استولى على كيانه ينهشه يوماً تلو آخر. تغيرت قسماته وذبل، وسيمسي قريباً شبيهاً بأشجار قصر الصباح الذي أصابه الشتاء. كانت تستولي على أعماق أعماقه فكرةُ أنه هو سبب مقتل ابنه، غير أنه لم يكن يفصح عنها. فلو لم يكن قد أبدى تسامحاً مع المماليك والعثمانيين وأناس آخرين من كل صنف كل هذا الوقت، فلربما كان نبيل سيكون ما يزال على قيد الحياة. دون أن يقصد وعكس مرماه، أيقظ موقفُه في ولده تلك الرغبة في التمرد، تلك النزعة الوطنيه الخرقاء التي انتهت باقتياده إلى ساحة القلعة. كان هذا الشعور بالذنب يتنامى مع توالي الأسابيع، منداحاً في شرايينه، ناهشاً إياه مثل شر محدق.

احتفظوا اقتباساً من التقاليد الإسلامية ولمدة ثمانية أيام، للفقيد بمكانه الاعتيادي الذي كان يحتله خلال تناول الطعام. كان يوسف هو من فرض ذلك.

مرت أعياد الميلاد حزينة بدورها. فمن المعروف أن الذكريات تعود، في مثل هذه المناسبات، بقوة وأشد قسوة. وربما كان ذلك هو السبب في أن يوسف، غداة السنة الجديدة، قد نام ناذراً روحه للموت.

لم تنفع لا دموع نادية ولا حنان شهرزاد ولا حتى صداقة ميشيل في الحيلولة دون هبوطه نحو النسيان.

توفي بعد أسبوعين من ذلك دون أن يشكو من شيء.

قبل أن يغلق النعش، لم تجد شهرزاد في نفسها من قوة سوى بالقدر الذي

توشوش له بأنها كانت حاملاً من جديد. قالت له بأنه سيكون فخوراً بالمولود. سيكون حفيد يوسف شديد؛ وستسميه باسمه لأنها متأكدة من أنه سيكون مولوداً ذكراً، بالقدر نفسه الذي هي متأكدة من أن الأب رجل طيب، رجل من دمنا: ميشيل شلهوب.

ومع فارق أسبوع، يمكن أن يكون ابناً لابن سليمان.

عادت الحياة في القاهرة تقريباً إلى مجراها العادي.

أُعلن أخيراً عفوٌ عام، لكنه استثنى القادة والنهابين. غمر هذا الاستثناء بارتليمي سعادة لأنه سيوفر له فرصة متابعة قطع رأس هنا وآخر هناك، ومضاعفة الاعتقالات الاعتباطية والتلذذ بالتعذيب قصد الحصول على وشايات.

أما بالنسبة للجماهير، فقد سارعت، مرعوبة من شدة القمع، إلى حمل الشارة ذات الألوان الثلاثة. لكن الدور هذه المرة، كان دور القائد العام ليمنعها من ذلك. والسبب، كما قال، هو كرامتها. يجب الإشارة إلى أنه قد كان لبونابرت مزاج شرير للغاية. فحتى تلك اللحظة، كان ما يزال عدد كبير من المصريين يؤمن بأن جيش البعثة قد وفد لمحاربة المماليك بتزكية من الباب. لكن مع دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب، لم يعد ممكناً للعبة أن تستمر. كان قناع السلطان الكبير قد جرت به مياه النهر الملكي.

مع ذلك، رغم أن الأمر قد يبدو غريباً، فإنه لم يتحول عن فكرته الأولى: الإغراء بالإسلام، وبأي ثمن. وقد صعق فرانسوا بيرنويي - الذي كان هذا العناد يحيّره بشدة - عندما سمع من فم الجنرال نفسه بأنه قد اقترح على العلماء تشييد جامع بصومعة عالية، قادر على احتضان كل جيش الشرق؛ من رماة القنابل إلى الخيالة، ومن المشاة إلى رجال المدفعية وأنهم جميعاً سيعتنقون ديانة الرسول. وقد انتاب بيرنويي ارتياح كبير عندما وقفت في وجه المشروع صعوبتان غير قابلتين للتجاوز: الختان وتحريم الخمر. وهكذا فقد كاد فرانسوا يطلب من زوجته عند عودته إلى أفينيون بأن تناديه من لحظتئذ بأحمد.

اكتفى الجنرال، منزعجاً من غير شك من هذين العائقين العنيدين، ولكن مسكوناً دائماً برغبته في الانصهار في الإسلام بأن أعلن أن المومسات - وهن كثر - اللائي نشرن بين الجنود مرض الزهري سيغرقن في النيل، وذلك تطبيقاً

للشريعة الإسلامية التي تحذر على المسلمة أن تقيم علاقات مع كافر. أن لا تكون ابناً للإسلام لا يمنعك، على أي حال، من أن تدافع عن مبادئ الرسول.

كان الجيش، وهو ينتظر أياماً احسن، خصوصاً وأنه قد يهلك من الملل بعد القرار الأخير - يتسلى بما استطاع. يوم ٣٠ نوفمبر صباحاً، وأمام العيون الجاحظة للفضوليين، أقيم منطاد من ٣٦ قدماً، بالألوان الثلاثة. انطلق في الهواء، بجلال ظاهر، إلى أن أدرك علو ٢٥٠ قدماً، فأخذ اتجاه الجنوب بحوالى ٣٠٠ إلى ٤٠٠ قامة. انحرف قليلاً ثم انفتح بعد ذلك، قبل أن يسقط ببطء على حافة الساحة.

لكن كل ذلك ما كان ليشفي غليل العساكر. ذلك أنه إذا كان كليبر ما يزال يحتفظ بالإسكندرية، ومينو بإقليمه، وإذا كان دوزيكس قد توجه لمحاربة مراد بك في أعالي مصر، فإن أعداداً هائلة من الجنود ظلت في العاصمة. ولم يكن أمامهم من خيار سوى التجوال على ظهور الحمير، أو المقاهي، أو بنات الهوى، بالنسبة للمجازفين منهم.

كان هذا هو السبب، بالتأكيد، في الاستجابة لإغراء المواطن دارجفيل، والعمل على إنشاء مؤسسة قادرة على تسلية الجميع. وقع الاختيار على منزل وحديقة واسعة، غير بعيد عن ساحة الأزبكية. كان دارجفيل قد أصاب. كانت هذه الحديقة المغطاة بشجر البرتقال والليمون وبعدد لا يحصى من الأشجار المعطرة، أكبر حدائق القاهرة وأجملها. سيجمع في هذا المكان كل ما يمكنه أن يساهم في تحصيل اللذات. كما أنه قد قيل، بأن ذلك سيكون وسيلة لجذب السكان مع نسائهم، ولأنْ تمرر إليهم، لا شعورياً، عادات وأذواق وأشكال عيش الفرنسيين. لباريس تيفولي والإليزيه، غير أن القاهرة لم يكن ينقصها من ذلك شيء.

أنجزت الأشغال في زمن قياسي، وجاء يوم التدشين. حدد مقابل الدخول بـ ٩٠ قرشاً.

* * *

كانت الأضواء فاتنة. كانت تجتاح ممرات الحديقة وكل زوايا المنزل. ارتفعت نغمات موسيقى يعزفها الموسيقيان الأستاذان فيلوتو ورجيل من خلف

الأشجار، مرافقةً لتجول الأزواج المتزيين بذوق راق. كان هناك صالون مطعم وصالون لعب وآخر كمقهى، وحتى جناح أدبي. كان المرء يكاد يشعر بأنه في باريس.

لم يتخلف، هذا المساء، أحد من الغربيين الموجودين في القاهرة عن الاستجابة للدعوة. حضر كل الضباط والجنرالات، وبالخصوص - ترفيهاً عن هؤلاء الرجال المحرومين منذ ستة أشهر من كل حياة مدنية - عشرون امرأة، أوروبيات في غالبيتهن، وفرنسيات طبعاً. استرعت اثنتان منهن بالخصوص الانتباه. لم تكن الأولى سوى زوجة الجنرال فيرديي، وكانت من بين النساء القلائل اللائي رافقن هيئة البعثة. قصيرة وسمراء بشعر أسود. انبعث من هذه الإيطالية حب للحياة وإقبال عليها، كما أنها كانت ذات مزاج رائق. كان إهابها يوحي بإهاب فتىً، وقد جعلتها طريقتها في التصرف - كأنها رجل صغير- محبوبة من طرف الجنود. وبفضل عنايتها كان الضباط يقضون ساعة أو ساعتين في رفقة طيبة، إذ كانت السيدة فيرديي تتصرف كي «تجني» من ضمن الحريم بعض المخلوقات الرقيقة. كانت بعض ألسنة السوء تؤكد أنها كانت مدلهة بكليبر الوسيم. لكن ذلك لم يكن بالتأكيد سوى ترهات.

الشخصية الثانية هي مارغريت بولين بليسلي زوجة مقدم في الفرقة ٢٢ للقناصة الخيالة، التحقت به في مصر مقنعة في زي رجل. كانت بسنواتها التسع عشرة تجسد نقيض صديقتها. فبالقدر الذي كانت السيدة فيرديي سمراء، كانت بولين شقراء. وإذا كانت حدقة إحداهما داكنة وتبدو خشنة، فإن رفيقتها، بالمقابل، كانت عيناها ذات خضرة شفافة وتنضح أنوثة. كانت بشرتها ناصعة وشفتاها مستطابتين وأسنانها رائعة. في كلمة، كانت تملك كل ما يستدعي الحب.

عندما ولجت سميرة شديد صالون المطعم الكبير لزمتها لحظات كي تقتنع بأنها لا تعيش حلماً. مشاهير ورجال فاتنون بزيهم العسكري ونساء أنيقات. . .

لكزتها زبيدة فتبادلا ابتسامة طفلتين متواطئتين.

كانت المرأتان مصحوبتين طبعاً: الأولى بعضو من المعهد المصري، المواطن جان بابتيست فوريي، الذي يبلغ من العمر ثلاثين سنة بالكاد، والمسجل في شعبة الرياضيات، والذي يعتبره البعض عبقرياً؛ أما الآخر، فهو أحد مرافقي

الجنرال القائد، الضابط غبرت. كان هذا العشيق أكثر فتنة من المواطن فوريي مما يقتضي الاعتراف بأن زبيدة، في هذا التفاضل، كانت متقدمة على صديقة طفولتها.

كان الأشخاص الأربعة على أهبة الجلوس إلى إحدى الموائد عندما أشارت السيدة فيردي، بحيويتها المعهودة، إلى مرافق نابليون بالالتحاق بمجموعتها.

كانت سميرة، الخجلة السعيدة في الآن نفسه، تلتهم بعينيها هذا العالم الذي اكتشفته من شهرين، وقد اقتنعت بأنه لم يوجد إلا من أجلها. هل كان بإمكانها أن تعلم بأن الرجل الذي يجلس قبالتها على المائدة نفسها ليس سوى الضابط دارمنياك، وهو ذاته الذي سلم ليوسف شديد، من شهرين، جثمان أخيها مقطوع الرأس.

كان الغائب الأكبر عن هذا الحفل هو الجنرال دوزيكس؛ فبوجوده على رأس حوالى ألف ومائتي فارس، أي كل الخيالة الموجودين بمصر، كان التعس ما يزال يطارد مراد بك بأعالي مصر. كان صراعهما لعبة اختباء وانكشاف مستمرة، ترتفع خلالها كل يوم الخسائر الفرنسية التي لم يكن يتوقع أحد لها نهاية.

استقبلت أخيراً فرقعة الألعاب النارية مقْدم الذي كان الجميع ينتظره بفارغ الصبر: أبو نبارت، الجنرال القائد. كان يسير في أعقابه صهره الشاب بوهارني.

حيّا الحضور وتوجه طبعاً نحو مائدة الشرف التي خص بها. في هذه اللحظة، بالتأكيد، لمح، بنظرة مبتهجة، البسمة الطافحة لبولين فوريس.

وسط السعادة الكبيرة التي كانت تستشعرها سميرة ورفيقتها، عاج بونابرت وتهالك إلى جانب السيدة فيردي، بين بولين وزوجها مقدم الفرقة ٢٢ للقناصة.

افتتحت حفلة الرقص. اكتشفت سميرة وهي متشبثة بذراع جان بابتيست، فتنة الفالس. كان العالم ملك يمينها. استعادت لذة الحياة، وكانت عطور فرنسا قد أغرقت من زمان ذكرى علي ترجمان.

كان الجنرال القائد، إلى جانبها، يكدف مثل جواد أصيل ملتصقاً بالرقيقة بولين.

ومن الغريب أنه قد أبدى اهتماماً كبيراً بزوجها الشاب سائلاً إياه عن مشواره العملي وعن طموحاته. فخلص أخيراً إلى أن هذا المقدم المقدام يمتلك كل خصال خادم مخلص للوطن، وسيقوم بمهمة مهمة هي نقل بريد إلى فرنسا.

لامس فخذ الجنرال القائد فخذ بولين، بالكاد لامسه، لكن ذلك كان كافياً لتعبر ارتعاشة لذيذة عموده الفقري. ذلك أنها كانت رائعة الجمال، تلك الرقيقة.

امتدت السهرة إلى أولى تباشير الصباح.

جرت الخمرة وافرة. وعندما شرع تيفولي يفرغ، كان عازف أكرديون ما يزال يداعب آلته. كانت نغمات موسيقاه قد أضحت مسموعة أكثر بسبب هدوء الفجر، وكانت تتسلل إلى ما وراء الحديقة، عابرة شوارع صغيرة قذرة، مدركة حتى الصوامع المدهوشة المتسائلة، بالتأكيد، عن طبيعة هذه الأجواء القادمة من عالم آخر.

غادر الجنرال القائد، مرغماً، السيدة فيردي وأصدقاءها. انحنى بأناقة أمام سميرة وزبيدة. قبل الكف الحليبية للجميلة فوريس وانثنى نحو زوجها، متخذاً النبرة المناسبة لمثل هذه الخطوة:

– أيها المواطن. فرنسا في حاجة إليك. غداً ستنطلق إلى الإسكندرية حيث ستبحر على متن السفينة «الصياد». سأسلمك ثنيات سرية موجهة لفوبوا وفلينوز وحكومة التدبير، فضلاً عن توجيهات لا تطلع عليها إلا وأنت في عرض البحر. وستُمنح مبلغاً مالياً قدره ثلاثة آلاف فرنك كمصاريف للقيام بالمهمة. رحلة سعيدة أيها المقدم.

الفصل التاسع عشر

تبادل كريم وباباس أوغلو إشارات تدل على الحيرة، في الوقت الذي واصل فيه روزيتي حديثه بصرامة.

- إنني لا أفهم يا مراد بك عنادك. يجب أن تقبل اقتراح الفرنسي. إنه المخرج الوحيد الذي تبقّى لك كي تحتفظ بحكمك.

توقف المملوك عن ذرْع الخيمة، وأجاب القنصلَ بعنف:

- أحتفظ بحكمي؟ أتراني بليداً إلى هذه الدرجة؟ كنت سيد أمة بأجمعها وهم الآن يقترحون علي أن أحكم قرية. أيكونون يعتبرونني أقل من أي كلب يرمى له فتات كي لا ينبح ولا يعض؟ قل؟ أجبني يا كارلو.

أبدى القنصل تعجباً حائراً:

- أن تحكم الصعيد، من جرجا إلى الشلال الأول، يعني غالبية أرض أعالي مصر، وتسمي هذا، سعادتك، فتاتاً؟

- والمقابل؟ أتنساه؟ هم لا يريدونني فقط أن أعترف بتبعيتي للسلطات الفرنسية، ولكن، أكثر من ذلك، أن أقدم لهم ضريبة. ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد، فليجردوني من ثيابي. ألم تؤد زوجتي المسكينة ما فيه الكفاية؟ لقد قدمت ما يزيد عن ثَمَنِ الصعيدِ ضعفَه، بل عشرة أضعاف.

تدخّل ابن سليمان بحذر، بعد أن كان قد ظل صامتاً إلى تلك اللحظة:

- بعد إذنك يا مراد بك، أقول لك إنني أتفق مع وجهة نظر السيد روزيتي، فنحن لسنا في موقع قوة حتى نفاوض. إن هذا الرجل المسمى دوزيكس، يصبح أكثر خطورة، يوماً بعد يوم.

- أنت يا ابن سليمان لست سوى طفل. أعترف أنك شجاع، لكنك

تجهل كل شيء عن شؤون الحرب. لنتحدث عن هذا الجنرال. منذ شهرين وهو يطاردنا؛ منذ شهرين وهو يسوق فرقه عبر الصحراء دون أن يتمكن من القضاء علينا. أتظنون بأن جواسيسي لم يخبروني بالحالة التي يوجد عليها جيشه؟ لديهم أكثر من مائتي مريض من مختلف الهيئات، من بينهم ستون مصاباً بأمراض عيون. هم على وشك الانهيار؛ أضحت مؤونتهم على وشك النفاد. ومع ذلك تتصورون بأن عليَّ الآن أن أسلم أسلحتي؟

لم يعد باباس أوغلو قادراً على التحكم في نفسه:

– قد يكونون ربما منهكين، لكن هذا لا يمنع يا سيدي من أنهم كلما تقابلنا يكونون المنتصرين. وأنا لست بحاجة إلى التذكير بمعركتنا الأخيرة؛ معركة سمهود. كنا نتوفر آنذاك على أربع مائة رجل أتى بهم حسن بك، وألفين آخرين لينبع، دون أن ننسى السبعمائة عربي بخيولهم والثلاثة آلاف من الراجلين الذين التحقوا بنا منذ مغادرتنا للقاهرة. كان البكوات يختصمون حول من تُعَبأ بندقيته الأول. فما كانت النتيجة؟ تركنا مئات الرجال على أرض المعركة. كانت مذبحة انهزمنا خلالها من جديد. فر العرب، وحتى طه الذي كنت تعتبره صديقك المقرب تخلى عنك. هذا دون احتساب أولئك الذين كانوا ينتمون إلى رجالك والذين اختاروا هم أيضاً الفرار.

هز مراد كتفيه ونظر إلى البحّار بازدراء:

– أنت لم تفهم شيئاً. أنت لا تنظر إلى أبعد من مقدمة نعلك. أنا لا يهمني أن أخسر معركة؛ إن ما أخوضه هو حرب استنزاف. أنا لا أملك لا مدفعيتهم ولا علومهم الحربية، لكنني أملك، في المقابل، سلاحاً أخطر: الصبر والعناد. هم على وشك الانهيار. عاجلاً أم آجلاً سينثنون.

أمسك للحظة قبل أن يقدم حجة جديدة:

– لا تهملوا ما هو أهم من كل ذلك. لقد أصبحت مصر – منذ أن دمر أسطولهم – فخاً لهم. هم محبوسون فيها ولن يغادروها إلا في النعوش.

ران الصمت. بدا كارلو وكأنه على أهبة أن يعلق، ثم انتصب واقفاً:

– أنت يا سيدي صاحب قرارك. ليس لي ما أضيفه، وما بقي عليّ إلا أن أعود للقاهرة وأن أقدم تقريراً عن مهمتي.

وافق المملوك:

- ليصحبك الله. لا تنس أنك دائماً صديقي.

- اعرف يا مراد بك. لذلك أعرب نحوك عن هذا القدر من التسامح. فأنت في الواقع مجنون، لكنني قد أكون أنا أيضاً مجنوناً ما دمت أحب جنونك.

رافق كريم وباباس أوغلو القنصل إلى قرية كوم أومبو، على ضفة النيل اليمنى، وانتظرا حتى شهدا صعوده إلى الزورق الذي سيعيده إلى القاهرة.

وفي الوقت الذي كان فيه الزورق يبتعد في اتجاه الشمال، قال كريم:

- الفينيسي محق. المملوك مجنون، لكنني أنا أيضاً أحب جنونه.

أجاب باباس أوغلو بقسوة ملفتة:

- أما أنا يا صديقي، فلا. لقد بدأت هذه المغامرة تبدو لي فعلاً ثقيلة. سبعة أشهر من الحروب ومن الغبار. وما عاد لنا من مال؛ فأجور رجالي لم تؤدَّ من ثلاثة أسابيع. هل تعتقد بأنني قد خدمت مراد بك طوال هذه المدة لأصل إلى هذه الحالة؟ بالتأكيد لا.

- كنت أعتقد أن بينكما...

- لا شيء يا صغيري. لا شيء غير المال. هل نسيت أنني يوناني قبل أن أكون أي شيء آخر؟ المماليك والمصريون والأتراك... إن حروبهم لا تلزمني إلا بالقدر الذي تكون فيه جيوبي ممتلئة. والحال أنها الآن بعيدة عن أن تكون كذلك.

أطلّت من عيني كريم نظرة عابسة. صدمه اعتراف صديقه. فقد كان يعتقد، حتى هذه اللحظة، بأن هناك بواعث أخرى أنبل.

أجهد نفسه كي لا يبدو عليه شيء من خيبته، فقال ساخراً:

- المال لا يهم أيها الحاج نيكوس. أنت غني بأشياء أخرى كثيرة. وقد سمعت مراد بك؛ سننتصر.

أجاب اليوناني عابساً:

- هذا ما تعتقده أنت يا صغيري، هذا ما تعتقده...

* * *

في اللحظة نفسها، وعلى بعد مائتي فرسخ من شكوك باباس أوغلو وقلق كريم، توقفت شهرزاد عن المشي وسألت زوجها:

- هل أنا في حلم؟

حرك رأسه بالنفي.

- لا. أنا أعلم أن هذا يثير الاستغراب، لكنني سبق لي أن شهدت مظاهرات من هذا النوع.

- لكن مَنْ هنَّ؟

- أي سؤال تطرحين. ألا يبدو الأمر بديهياً؟

كانت حوالى مائة امرأة - متوجهات نحو شارع مرغوش - يتقدمن ببطء على إيقاع الطبول، وجوههن مكشوفة وشعورهن معقودة، حاملات شموعاً وقناديل ومحارق تنبعث منها رائحة المسك والصبر.

كانت غالبيتهن تنشد محركة أصابعها أمام أعين المارة الذين كان يتمتم فضلاؤهم وهم يرفعون أكفهم نحو السماء: الله أكبر.

أما الآخرون، فكانوا يكتفون بالابتسام.

كانت وجوه هؤلاء النسوة المكشوفة توحي، بالتأكيد، بإهاب هجومي، قد يكون ذلك ناتجاً عن طريقتهن في تزيينهن لوجوههن. لكن لا شيء، غير هذه التفاصيل، كان يميزهن عن باقي سكان القاهرة.

- ربما كن «عالمات» تساءلت شهرزاد بشيء من سذاجة.

انخرط ميشيل في الضحك.

- الأمر ليس كذلك.

- ماذا إذن؟

- هؤلاء، بكل بساطة، مومسات.

- مومسات يتظاهرن؟

- أترين المرأة الشابة التي تمشي في المقدمة؟ كان رجل عزيز عليها، عشيقها بالتأكيد، كاد يفقد حياته. وإذن فقد نذرت على نفسها بأن تحيي حفلاً دينياً يخصص لتلاوة القرآن إذا ما اجتاز صديقها المحنة بسلام. وقد جمعت كل زميلاتها للاحتفال بالحدث.

- هذه في الحقيقة امرأة فاضلة. فأخريات من وسط أرقى، كن سينسين كل شيء بمجرد أن تستجاب دعوتهن، لكن...

ألقت نحو ميشيل نظرة متشككة، قبل أن تتابع:

- كيف عرفت أنت كل هذه التفاصيل عن هؤلاء النسوة؟

بدا ميشيل مصدوماً.

- شهرزاد. أتلمحين إلى . . .

عجلت بطمأنته ببراءة مدعاة:

- لا، لا. لا شيء. كنت أسأل فقط.

ثم تابعت مغيّرة الموضوع:

- أتعتقد أننا سنجد سميرة في بيتها؟

- آمل في ذلك. وإلا فإننا سنكون قد قطعنا كل هذه المسافة دون جدوى.

ودون أن يتشاورا، وسعا خطواتهما وأدركا الأزهر بسرعة. كان جامع الزهور مجتاحاً ببنائين منشغلين بإصلاح الدمار الذي خلفه قصف أكتوبر.

شعرت شهرزاد، وهي تمر أمام المدخل، بقلبها ينقبض. عبرت صورة نبيل خفية ذهنها فضاعفت سرعة مشيها.

كانت الحنفية التي حددتها سميرة موجودة بالفعل في المكان المشار إليه. كان سقّاءٌ، معروف من ثيابه - لباس جلدي وصدرية وحذاء عال - ينهي ملء الخزان. وبمجرد ما لمح الزوجين، عرض عليهما أن يشربا، وهو يمد إليهما تلقائياً كوباً نحاسياً.

كان المواطن فوربي هو من فتح لهما الباب.

كان نصف عار، شعره أشعث، وكل ما يرتديه من ثياب منشفة تغطي وسطه. ترددت شهرزاد للحظة، ثم تنحنحت وطلبت رؤية أختها.

- أدخلي، صاحت سميرة. أدخلي، سآتي حالاً.

ولج الزوجان، بخطوات مترددة، الشقة التي كان يسودها تبعثر ظاهر.

تمتم الفرنسي ببضع كلمات اعتذار، ثم اختفى.

سُمع صوت ضحك مخنوق، ثم صوت خفٍّ، فظهرت سميرة.

كانت تعدل، بلا مهارة، قميص القطن الذي اندست فيه، بالتأكيد، على عجل لتوها، ثم أبدت، وهي تعدل من مظهر شعرها، ابتسامة متكلفة:

- أهلاً وسهلاً. يا للمفاجاة الجميلة.

- نحن نعتذر على هذا الإزعاج، قالت شهرزاد، كأنها قلقة.)

- أبداً. لقد أحسنتما صنعاً. ثم لأي شيء يصلح بيت إن لم يفتح في وجه العائلة؟

تقدمت، وهي تتكلم، إلى أريكة وأزاحت عنها ما تبعثر فوقها من ملابس، ودعتهما للجلوس.

- ماذا تشربان؟ قهوة؟ لدي أيضاً بعض الشراب. أم أنكما تريدان بعض القطائف؟

- لن نطيل المكوث، نحن...

- بل ستفعلان، بل ستفعلان. أنا سعيدة جداً برؤيتكما.

رغم كل المجهودات التي بذلتها، كان يُستَشعر أن كلامها يناقض تماماً الحالة التي كانت تبدو عليها.

ثم خفضت، فجأة، من نبرتها وتمتمت وهي تشير إلى الغرفة:

- هذا صديق... خطيب إن شئتما. يبدو غير مهتم، لكنني أؤكد لكما أنه طيب. هو فرنسي - قالت ذلك بنبرة افتخار -، وهو يحتل منصباً هاماً جداً. لم أستوعب جيداً بم يتعلق الأمر بدقة، لكنه منصب هام. وفوق ذلك، هو دماغ نادر. نابغة في الرياضيات.

اكتفت شهرزاد بأن حركت جفنيها.

- ماذا كان عساني أفعل، واصلت سميرة كما لو كانت تبحث عن تبريرات، يجب أن نشغل وحدتنا، كما أنه لا بد من أب لعلي.

- بالمناسبة، قالت شهرزاد مندهشة، أين الصغير؟

- عند أم خطيبي. يبقى معها عندما يأتي جان بابتيست - هو اسم صديقي- لزيارتي.

- فهمت.

أتى جان بابتيست للصالون، لابساً بذلته هذه المرة.

حيّا الزوجين، وقبّل بأناقة كف شهرزاد.

- أنا متأسف لمغادرتكم بهذه السرعة، لكنهم ينتظرونني بالمعهد.

- تنصرف الآن؟ احتجت سميرة.

- الوقت متأخر، أنت تعرفين...

قبّل جبين المرأة الشابة.

- نلتقي مساء، ربما.

قالت نعم بإعجاب تلميذة.

- ألست محقّة؟ لاحظت سميرة عندما انسحب جان بابتيست، أليس لطيفاً؟

صادقت شهرزاد على كلامها دون حماس:

- إذا كنت سعيدة، فذاك هو المهم.

تنحنح ميشيل ودخل في صلب الموضوع:

- نحن، للأسف، نحمل أنباء محزنة قد تكدر سعادتك.

- رحماك يا الله. ما الذي حدث؟

- لم يكن القدر رحيماً بعائلتنا. لقد غادرنا نبيل ويوسف.

* * *

عندما غادرت شهرزاد مسكن أختها، كان ممكناً الاعتقاد بأنها كانت الأكثر تأثراً.

احتلت مكانها على العربة في صمت مترع سوداوية ومرارة. كان طفاح من الأفكار المتناقضة يتزاحم في دماغها؛ لم تعد تعرف كيف تفكر، وأي خلاصة تخرج بها من موقف سميرة. عادت إلى ذهنها الجملة التي كان يوسف قد تلفظ بها عندما كانا في ضيعة الزهور: لقد فضلت على حبي حب رجل غير جدير بها.

آنذاك لم تكن قد فهمت. لكن دلالة هذه الكلمات، اليوم، تبدو لها أكثر وضوحاً. إن سميرة لم تختر رجلاً فقط، وإنما اختارت أيضاً طريقة في العيش. وهو اختيار كان أبوها قد أدانه.

لكن شهرزاد نفسها، أليست هي أيضاً بلا جدارة؟

كل مرة كانت تتذكر فيها مشهد كوخ الطوب، كان يحصل ذلك دون أدنى تبكيت للضمير، دون أدنى عقدة ذنب، كما لو كان ذاك الفعل قد ارتكب خارج زمن الناس وخارج أمة الخير والشر.

كانت العربة تمشي بالزوجين، في أجواء ثقيلة، إلى أن أدركت جسر الأسود.

لاحظ ميشيل الحركة المعتملة حولهما. لم ينبس بشيء، وظل يراقب مجموعات الجنود، البنادق على أكتافهم، وهم يتقدمون مثنى مثنى. كان قطيع جمال يتقدمهم. وكانت أوامر تسمع وهي تعطى هنا وهناك في جو من الفوران.

الشيء نفسه كان يحصل على الضفة الأخرى. كانت الثكنات التي تجاور قصر مراد بك تفرغ من فرقها.

اضطرا إلى التوقف كي يفسحا الطريق لفرقة عسكرية. كانت الطريق التي ستقودهم إلى الجيزة حاشدة بالناس. لكن إلى أين كانت تتوجه هذه الفرق؟ هل يكون الفرنسيون قد قرروا مغادرة القاهرة؟ وفجأة لمحا شخصاً يشير إليهما. ثم شرع هذا الرجل، العسكري، يعدو في اتجاههما.

- أنا في غاية السعادة أن أراكما من جديد.

كان قد وجّه كلامه بالخصوص إلى شهرزاد.

- أنا فرانسوا، أكد الرجل، وقد بدا وكأنه يشعر ببعض الخيبة أن لم تتعرف عليه المرأة. فرانسوا بيرنويي، أنا. . .

قاطعه ميشيل بحماس:

- بالطبع.

قفز من العربة على الأرض وحيّا الجندي تحية عسكرية. قال بحماس:

- اغفر لزوجتي. فقد كانت شديدة التعب عندما أتيت.

ثم لشهرزاد:

- تذكري، إنه الرجل الذي أعادك إلى البيت بعد هروبك من إمبابة، إنه هو. هو الذي أتانا بالطبيب الفرنسي الذي أنقذ حياتك.

التمعت عينا المرأة فجأة:

- أه، أجل. تماماً. أتذكرك الآن.

تظاهر بيرنويي بتعنيفها:

- عليك ألا تعودي إلى ذلك النوع من المغامرات، أليس كذلك؟

- اعتمد عليّ في منعها. خصوصاً وأننا ننتظر طفلاً آخر.

بدا وكأن هذا الخبر قد أثر في بيرنويي.

- تهانئي الحارة. هذا رائع.

ثم أضاف، كما لو كان يفكر بصوت مرتفع:

- كم هو مهم أن يكون لك طفل.

- أنت متزوج؟ سألت شهرزاد.

- منذ عشر سنوات تقريباً.

- يبدو أنك تفتقدها.

نكس بيرنويي بصره.

- وصغيرتي جيرالدين أيضاً.

- قاسٍ جداً أن ننفصل عمن نحب.

- الأمر أفظع من ذلك. كما لو كنا نعيش نصف حياة. لكنها الحرب.

- ما الذي يحدث؟ كل هؤلاء الناس..

- ننصرف.

- تغادرون القاهرة؟

- لا. للأسف، جزء كبير منا، ثلاثة عشر ألفاً تقريباً، سيتوجهون إلى الصحراء الكبرى. أنا أجهل إلى أين بالضبط.

ارتسمت ابتسامة مشرقة على شفتيه.

- إن لنا جنرالاً قائداً يحب الترحال.

لم تستطع المرأة الشابة أن تمنع نفسها من السؤال:

- ألا تذهبون... للحرب في أعالي مصر؟

حرك بيرنويي رأسه.

- سنتوجه، بالأحرى، إلى الاتجاه المعاكس. يتحدث بعضهم عن برزخ السويس.

سارع بختم كلامه وهو يرمق رفقاءه يبتعدون:

- آمل أن أراكما عند عودتي.

غمز بعينيه تجاه شهرزاد.

- متى سيكون ذلك؟

- ليس قبل نوفمبر المقبل.

- آمل أن أكون قد عدت آنذاك.

حياهما بحركة ودية وسارع للالتحاق بمجموعته.
- زرنا عندما تعود، صرخ ميشيل.
أجاب بيرنويي، دون أن يقلل من سرعته:
- أعتزم ذلك.
تابعه الزوجان حتى لم تعد بذلته سوى بقعة صغيرة ضمن أخريات.
تمتمت شهرزاد، عندما كان ميشيل يحرك العربة:
- لكن ما وجهتهم بالضبط؟

* * *

سوريا.
على الجنرال القائد ألا يترك لا الفائزين ولا المنهزمين يخلدون للراحة.
سوريا وبعد ذلك اسطنبول وبيزنطة، من يدري؟ ويوم يخلو المجال، ذات يوم، غداً، سيتم الذهاب إلى قمة الحلم: الهند.
الواقع أن بونابرت لم ينطلق محارباً لأنه فقط يحب الترحال، كما قال بيرنويي؛ فالتهديد قد أضحى محدقاً. كان الباب، الذي عقد تحالفاً مع روسيا ثم مع إنجلترا، يستعد للزحف على مصر.
كان من الضروري إذن التصرف بسرعة، وضرب العدو في عقر أراضيه. يجب كسر شوكته قبل أن يقف يوماً على شاطئ النهر الملكي. وبما أن السلطان الكبير ما عاد بإمكانه أن يلعب ورقة التأسلم (انتزعها منه العثمانيون والإنجليز)، فإنه قد قدم نفسه هذه المرة على أنه حامي العروبة.
لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ كيف تخضع مصر الخصيبة وشبه الجزيرة العربية المقدسة لأقوام وافدين من القوقاز؟ أين يذهب محمد إذا نزل الآن من السماء إلى الأرض؟ أيذهب إلى القسطنطينية؟ لكنها مدينة مدنسة، فيها من الكفار أكثر مما فيها من المؤمنين، سيكون إن فعل قد وضع نفسه بين الأعداء. لا، لكان فضّل ماء النيل المبارك؛ ولكان أتى لينزل بالجامع الأزهر الذي يعد المفتاح الأول للكعبة المشرفة.
أما العلماء فقد قالوا، وهم يصفقون على هذا الخطاب بحماس، بأن بونابرت، ورغم كل شيء، هذه هي المرة الأولى التي قد يكون فيها جاداً.
لكنه كان على بونابرت، قبل أن يستولي على سوريا، أن يحارب كي يحتفظ

بـ «كليوباترة»، أي الجميلة بولين فوريس التي أصبحت، منذ أن غادر زوجها في مهمة، تقاسمه فراشه وقصره.

في ذلك أيضاً، يجب أن يصارع بقوة. ذلك أن السفينة التي تقل المقدم فوريي إلى فرنسا، اعترضها الإنجليز. ولم يجد هؤلاء البلداء أحسن من إعادة هذا التعس إلى نقطة انطلاقته.

في هذه الحالات، يصبح الغدر فناً.

ما كان ثمة أسوأ من عودة المقدم، ما دامت علاقة الخائنة بالسلطان الكبير لم تكن علاقة عابرة. كان الجنرال يعتزم جدياً أن يتزوج بولين إذا ما أنجبت له الطفل الذي يحلم به، ما دامت الأخرى، جوزفين البليدة، قد كانت عاجزة عن ذلك.

في انتظار ذلك، وبسبب عدم وجود أطفال، كان الكلب الصغير الغريف لكليوباترا يعبث بهدب لباس فاخر للجنرال، وُشِّي بميلانو.

سموا الجرو سيزاريون.

الفصل العشرون

من جديد، هذه الصحراء التي لا تنتهي وهذا الحر الخانق. حتى في شهر فبراير، كان فصل الشتاء يبدو وكأنه شديد الخوف من هذا المحيط الرملي فلا يتوقف عنده إلا ليلاً.

العطش والغبار وهذا الحصن الذي وجدوه أياماً من قبل فوق السهل الرملي الشاسع بمدخل البيداء التي تقود إلى سوريا. كان ظهوره مشيداً على ربوة، بأسواره العالية وبصوامعه مسدسة الأضلاع، قد أغاظ بشدة الجنرال راينر. لم يكن منتظراً ملاقاة عائق بهذه القوة قبل غزة.

أما القرية نفسها، والواقعة عند قدم هذا الحصن الصغير، فقد كانت محاصرة، أبوابها مطينة ومنازلها مغلقة.

تم الاستيلاء عليها بعد أن قتل حوالى أربعمائة شخص. بعد ذلك انتظر راينر بحكمة مجموعات كليبر وبون ولنيس حتى يتم تجميع كل مكونات الجيش. وصل الجنرال القائد إلى عين المكان يوم ١٧.

قام خلال الأيام الثلاثة الموالية بقصف منتظم لأسوار الحصن. انفتحت كوة من خلال الحجارة. وبعد أن قاوم هذا الموقع بغير قليل من البطولة، اضطر إلى الاستسلام. وقع اتفاقاً فوراً مع قائد هذا الموقع، المسمى إبراهيم نظام. كان البند الأساسي في العقد ينص على التزام المنهزمين بأن لا يعودوا إلى رفع السلاح على السلطان الكبير.

بمجرد تحقق هذا النصر الأول، واصل الجيش تقدمه.

سيتم الوصول، غداً، إلى غزة.

شرعت فرقة كليبر في التحرك، لكن يبدو أن دليله قد خدعه فتاه في

الصحراء. أما أبو نبارت، الذي غادر في اليوم الموالي العريش رفقة بعض الضباط، فقد كان يعتقد أنه سيجد الفرقة عند ماء خان يونس، لكنه وقع في المقابل على فيلق من المماليك.

تقهقرت المجموعة، محاذرة، أربعة فراسخ إلى الخلف. يومان بعد ذلك انطلق الهجوم على غزة، واحتلت المدينة.

أحد عشر يوماً تفصلهم عن ضحيتهم القادمة: يافا.

كان بيرنويي وهو يجر أذياله على الرمال، سابحاً في عرقه يحادث نفسه بأن الجنرال القائد قد أبان، رغم كل شيء، عن خفة ما. لم يكن، على أي حال، الوحيد الذي يعتقد بذلك، فقد كان كليبر، كليبر الوسيم، قد انضم إلى رأيه.

صحيح أن هزيمة العدو حتى الآن كانت سهلة؛ لكن ثمة عدو آخر بالخطورة نفسها ألا وهو الجوع.

كانت قوافل من الجمال قد أتت ببعض الغذاء، لكن كم كان يلزم منه لإطعام ثلاثة عشر ألف رجل. وقد وصل الأمر بالجنود حد أن استولوا على جياد الضباط لأكلها. ولحسن الحظ وفر الاستيلاء على غزة بضعة قناطر من الأرز وكثيراً من البسكويت. ومن سخرية الظروف وتناقضاتها أنه إذا كان الجيش غير قادر على أن يأكل حتى يشبع، فإن العدو، الذي يملك من الزاد الكثير، كان صائماً، فقد كان الشهر شهر رمضان.

بعد أن غادر الجيش، يوم ٣ مارس، الأرض الجدباء وسار على ساحل البحر، كان قد أصبح بإمكانه أن يرى يافا.

جفف بيرنويي جبهته ووقف للحظة يتأمل هذه المدينة البيضاء. تصورها، وهي فوق العمق الفيروزي للأفق، وكأنها مدرج مشيد على كتلة من الغرانيت.

في اليوم الموالي وجهت بطاريات نحو الواجهة الجنوبية.

يوم ١٧، صباحاً، سمع بيرنويي أن بيتيي قد أنذر قائد الموقع بضرورة الاستسلام. وبما أنه لم يتلق جواباً فقد فتح النار. خمس ساعات بعد ذلك، انضم رماة القنابل إلى الهجوم. اندحر العدو فانسحب بعد تبادل قوي لإطلاق النار في المنازل وحصون المدينة. في هذه اللحظة عرفت يافا أصناف الرعب والهلع.

اغتاظ الجنود من العناد الوقح للمحاصرين، إذ رفضوا تسليم أنفسهم،

وانتشروا جماعات في الأزقة، فأصبح الرجال والنساء والأطفال والشيوخ مسلمين ومسيحين، وكل من له محيا بشري، ضحية سورتهم.

صخب المجزرة، الأبواب تكسر، المنازل ترتج من وقع نيران الأسلحة، صراخ النساء، الأب والابن يسقطان بعضهما فوق بعض، الفتاة تغتصب فوق جثة أمها، أشباح تعتمل محاولة التجرد من ثيابها المشتعلة بالنار ثم تسقط هالكة، روائح الدم الحامضة، تأوهات الجرحى، صراخ المنتصرين وهم يتنازعون ما يغنمونه من ضحية تحتضر، جنود أضحوا حمقى، يستجيبون للتوسلات بالزعيق والضرب؛ ذاك كان هو المشهد الذي سيبقى موشوماً في ذاكرة من أفلت من الموت، وذاكرة الشهود الذين قد يكونون رفضوا المشاركة في هذه المقتلة.

ألفا رجل بقرت بطونهم الرماح. وعندما أصبح جيش الشرق، عند الساعة السادسة مساءً، سيد الموقع، كان أربعة آلاف مقاتل ما يزالون صامدين في القلعة.

آنذاك قرر الجنرال القائد أن يرسل بوهارني، صهره، وكروازيي، أحد مرافقيه، لمحاولة تهدئة هذا الجنون القاتل. عندما شاهد المحاصَرون الرجلين بشاليهما الأبيضين، أخبروهما بأنهم يريدون الاستسلام شريطة أن يضمنا لهما الحفاظ على حياتهم.

وافق بوهارني وكروازيي واقتاداهم للمعسكر الفرنسي.

في اللحظة نفسها التي كان فيها الأربعة آلاف أسير يلجون المعسكر، أيديهم فوق رؤوسهم، أصدى صوت الجنرال القائد في أذن بيرنويي. إن ما سمعه قد زج به في عالم لا يشكل الكابوس فيه شيئاً أمام رعب الحقيقة.

- ماذا تريدونني أن أفعل بكل هؤلاء الرجال؟ هل لدي ما أطعمهم به؟ وهل لي سفن أرسلهم على متنها إلى مصر أو فرنسا؟ أي فعل هذا اقترفتموه؟

تمتم، كروازيي، حائراً:

- لكن، جنرال، ألم تأمرنا بأن نضع حداً للمجزرة؟

- بدون شك، لكن بالنسبة للنساء والأطفال والشيوخ، وليس بالنسبة لجنود مسلحين. كان يجب أن تتركوهم يموتون. ماذا تريدونني أن أفعل بهم؟

كان فريسة هياج قوي، فشرع يذهب ويجيء وهو يردد بحدة:

- ماذا تريدونني أن أفعل بهم؟

أجلس الأربعة آلاف أسير مختلطين أمام الخيام وقيدت أيديهم خلف ظهورهم.

- لنرسلهم إلى مصر، اقترح بوهارني.

- تلزم للقيام بذلك حراسة. ثم كيف يمكنني أن أطعم كل هذا العدد حتى يصلوا إلى مصر؟ إن القرى التي اجتزناها خالية الآن من كل شيء.

- لنرسلهم بحراً.

- ممتاز. أوجد لي سفناً. إن البحر مجتاح بشراع الأعداء.

- لنطلق سراحهم.

- عبث. سيذهب هؤلاء الرجال فوراً إلى عكا لمؤازرة فرق جزار باشا. أو يتوجهون إلى جبل نابلس مهددين صفوفنا الخلفية أو جانبنا الأيمن. وبذلك سنكون نحن من يؤدي ثمن كرمنا.

في هذه اللحظة قرر فونتور دي بارادي، المترجم المستشرق العجوز، أن يتدخل.

- جنرال، ما تزال أمامنا مدن علينا أن نستولي عليها. وعكا هي أولاها. كيف يمكنكم أن تتصوروا أن يجنح هذا الموقع إلى الاستسلام، إذا علموا أن موقع يافا قد سقط ليس في المعركة، وإنما بعد أن استسلم؟ ما الانطباع الذي تتصورون أن يخلفه هذا الحدث في الشرق كله؟

عندما أقبل الظلام لم يكن أبو نبارت قد حسم بعد.

لم يغمض لفرانسوا جفن، الليل كله. كان قلق ممض يعصف بأمعائه، خوفاً من أن يتجاوز الجنرال كل الحدود ويقرر الإقدام على الأفظع. هذا لا يمكن أن يحصل. لا يمكن لآدمي جدير بهذه الصفة أن يسمح لنفسه بارتكاب هذا الخزي. ومع ذلك...

في صباح اليوم الثالث، سمع فرانسوا جيداً الصوت وهو يصدر الأمر، فعلم أن ممانعته ستكون بلا جدوى.

- أطلقوا عليهم النار.

جحظت عينا بيرتيي.

- ماذا تقولون، جنرال.

- لقد سمعتموني.

- كلهم؟

- أحب أن أستثني ثلاثمائة أو أربعمائة مصري. سيختار كفاريللي منهم حوالى المائة كي يشتغلوا عندي كعمال، والباقون سيرسلون إلى القاهرة.

- جنرال، إن ما تطلبونه مني هنا لهو...

- أطلق عليهم النار يا بيرتيي.

- وماذا ستفعل بالوعد الذي قطعته على نفسك؟ لقد سلم هؤلاء الرجال أنفسهم لأننا وعدناهم بأن نبقي على حياتهم. من الوجهة الإنسانية، لا جدوى من هذا الدم المراق...

أشار الجنرال إلى مكان على يمينه.

- هل ترى تلك البناية؟ أتدري ما الذي تمثله؟

وقبل أن يرد بيرتيي، كان بونابرت قد واصل:

- هذا دير رهبان.

- أنا... أنا لا أرى علاقة.

- إذا كنت ترى بأن القسوة والحرب لا يلائمانك، فإن ذاك هو مكانك. أدخله إذن على الفور، وإذا أخذت برأيي، لا تغادره أبداً.

ثم أضاف:

- هيا أيها السيد النقيب الجنرال، نفذ أوامري، أتسمع؟

اقتيد الرجال الثلاثة آلاف وخمسون متعثرين إلى شاطئ البحر. قسموهم إلى مجموعات صغيرة. اقتيد جزء منهم إلى كثبان تقع إلى الجنوب الشرقي ليافا. بدأت عملية إطلاق النار. كان رد فعل هؤلاء الأشقياء مدهشاً. وقفت غالبيتهم ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً بعد أن مرروا أكفهم على أفواههم وقلوبهم، فتلك هي طريقة المسلمين في السلام، ثم استقبلوا الموت بهدوء. أما الآخرون، والذين كانوا على الشاطئ، فقد كان لهم ما يكفي من الوقت ليسارعوا إلى الماء. كانوا يسبحون مثل مجانين مبتعدين ما استطاعوا، فأدركوا مسافة كانوا من خلالها في مأمن من الرصاص.

لكن يجب إنهاء المسألة. وضع الجنود أسلحتهم على الرمال وقاموا تجاه الهاربين بحركات تدل على طلب الصلح، يستعملها العرب. وثق الهاربون

وعادوا إلى الساحل. وما كادوا يصبحون قريبين بما فيه الكفاية حتى حملت البنادق من جديد.

طفا الدم على سطح البحر، ذاك اليوم الموافق لـ٨ مارس ١٧٩٩.

خلال الأيام الثلاثة الموالية، ومن أجل توفير البارود، تم قتل من تبقى بواسطة السلاح الأبيض. عند نهاية النهار تكوّن بين الكثبان هرمٌ من الجثث النازفة دماً، وكان ضرورياً إزاحة من توفي قصد الإجهاز على الباقي.

لكن كان ما يزال هناك أمر آخر يجب قضاؤه قبل إسدال الستار.

كان عدد كبير من النساء الشابات قد اقتيد عن طريق القوة إلى المعسكر لإشباع رغبات الجنود. كانت غالبيتهن حزينات على فقد قريب، كن شبيهات بموتى أحياء. على العمى أن يكون مطلقاً كي يرغب المرء في امتلاك كائنات بهذا البؤس.

أثار وصولهن، طبعاً، خلافاً بين الجنود. كانوا يتنازعون الجمال أو الشباب، أسلحتهم بأيديهم.

عندما سمع الجنرال القائد بالنبأ أمر بأن تقتاد النساء فوراً إلى ساحة المحجر الصحي، المستشفى الميداني الذي يسيره الطبيب الرئيس ديسجونيت، وهو الطبيب نفسه الذي أنقذ، منذ بضعة أشهر، حياة شهرزاد. نفذ الأمر حرفياً.

صفت النساء صفاً واحداً.

ظهرت في الساحة فرقة قناصة.

صوبوا بنادقهم. انتشر صدى الطلقات حتى أدرك ضواحي يافا.

التجأ بيرنويي إلى خيمته متجنباً ضجيج السلاح وصراخ القتلى المفجع. كان بيروس جالساً قريباً منه، وهو مساعد الدافع العام. كان محياه معتكراً. كان جالساً على طاولة وهو يكتب: «أن يمارس جندي جامح في مدينة تم الاستيلاء عليها، النهب، وأن يقتل كل من يلاقيه، فإن قانون الحرب يجيز ذلك وتقوم الإنسانية بإسدال ستار على كل هذه الفظاعات؛ لكن أن تكون لنا البرودة البربرية الكافية كي نطعن أكثر من ثلاثة آلاف رجل سلموا أنفسهم واثقين بنا - وذلك بعد يومين أو ثلاثة على الهجوم، وبعد أن هدأ الجميع - فإن الأجيال القادمة لن تتخلف عن القصاص لهذه الجرائم، كما أن الذين أعطوا الأوامر بذلك، سيعتبرون من ضمن جلادي البشرية... لقد عُثر، بين الجثث، على

أطفال عدة تشبثوا، وهم يموتون بأجساد آبائهم. سيعلم هذا المثال أعداءنا بأن لا ثقة بفرنسا، كما أننا سننتهي، يوماً، بأداء ثمن دم هؤلاء الثلاثة آلاف ضحية...»

هل كان بيروس يتمتع بالقدرات الخفية نفسها التي كانت تتمتع بها الست نفيسة؟

فخلال اليوم الموالي للمجزرة، انتقم القدر متوارياً وراء قناع بشع للطاعون.

كان الجنود - أجسادهم مكسوة بالذبيلات المحمرة، مرتعشين، مختنقين - ينزلقون نحو الهذيان والموت.

كان أول الضحايا الجنرال غراتيان. سبعمائة أو ثمانمائة عسكري سيلتحقون به، بمعدل حوالى ثلاثين جندي كل يوم. هؤلاء الموتى سيذهبون إلى النار، حسبما يقول سكان يافا الذين استطاعوا النجاة بأعجوبة من الموت.

سجل فرانسوا، مندهشاً، بأن الجنرال القائد لم يتردد في زيارة المرضى الذين وضعوهم في دير إغريقي أرثوذكسي. كان في قمة المفاجأة وهو يراه يتنقل بين القاعات حيث كانت تسود روائح كريهة، مخاطراً حتى بمساعدة الطبيب الرئيس في حمل جندي كانت ملابسه المتمزقة قد بللت من جراء الانفتاح التلقائي لذبيلة متقيحة. أطال زيارته حتى خال ديسجونيت بأن الجنرال قد أعطى بذلك مثالاً وافياً عن احتقاره للخطر.

خلص فرانسوا إلى أن الطبيعة قد جبلت الجنرال على شفقة انتقائية، أو لربما كان يعمل بالخصوص على تلميع صورته.

كان بإمكان الطاعون أن يضرب من جديد في أية لحظة. وحماس الفاتح لا يفتر. الطريق الذي يقود إلى اسطنبول طويل، وبقي لهم حاجز أخير عليهم أن يجتازوه. مدينة قائمة على لسان أرضي تنكسر عليه الأمواج، محاط بالحواجز، ومنمق بالمدافع: عكا: سانت جان دارك.

انتزع بيرنويي من تأمله للمنظر الطبيعي. ضواحي المدينة المغطاة بشجر الزيتون وبأشجار الفواكه الموردة، تذكره بعض الشيء بالإقليم الذي تنتظره فيه زوجته وابنته جيرالدين.

انتهى حلم اليقظة. يجب الانطلاق من جديد.

سار الجيش، في الأيام الموالية، على طول جبل كارميل. عندما وصل إلى عكا، اكتشف وجود عدو جديد، اكتشف سفينتين حربيتين إنجليزيتين: «التغر» و «التيزي». كانتا مقودتين بالعميد السير سيدني سميث. وهو رجل شجاع، مندفع وبارد في وقاحته، هو نموذج إنجليزي خالص.

استقبل النبأ في القيادة العامة الفرنسية وكأنه كارثة حقيقية. ذلك أن الجنرال كان قد أصدر أمره للقبطان ستاندولي ليأتي بحراً بعشرين قطعة مدفعية، يصعب نقلها عبر الصحراء لبطئها. لم يتأخر الأسطول بالإقبال، جاهلاً المخاطر المحدقة به. كان الوقت قد فات لتحذيره.

وصل بالفعل، فحجزت ست سفن من طرف الإنجليز وأفلحت ثلاث أخريات في الفرار.

لم يكن الأمر يبشر، عملياً بخير.

يوم ١٩ مارس، بدت عكا في الأفق.

تسلق أبو نبارت جزء الجبل العائم في الماء، حيث أصبح بإمكانه أن يرى جَوْن عكا، المغلق شرقاً بالجبال ومن الشمال بالمدينة التي عليه أن يغير عليها. كانت التحصينات السميكة، في هذه اللحظة من النهار، مكسوة بلون أمغر.

هب نسيم خفيف من البحر الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات. رغم اللطختين المعتمتين، واللتين تمثلان سفينتي سميث، فإن السماء الزرقاء كانت صافية والأفق واضح. إنه يوم مناسب للحرب.

استقر الجيش على الرُّبى خارج مدى مدافع العدو، ودرجت المدفعية نحو هضبة الخزف. فمن تلك النقطة سينطلق أول هجوم؛ إذ كانت تبدو، من بين كل المواقع، الوحيدة التي بها بعض الضعف.

كان أحمد باشا حاكم المدينة واقفاً في قمة التحصينات يراقب مع ابتسامة ساخرة هذا الجيش الذي يستعد لمهاجمته. كان قلبه خالياً من كل رهبة، لم يكن يشعر بأدنى خوف. فقد سبق لهذا الرجل الذي كان من زمان عبداً لعلي بك الكبير، أن مر بتجارب مماثلة. بعد أن عين بعكا، جعل هذه المدينة تحتل المرتبة الأولى على الساحل. شق طرقاً وبنى مساجد وحنفيات وغرس بالحدائق أشجار البرتقال وشيد قناة كانت تعد إحدى روائع المنطقة. لا أحد ولا شيء يستطيع أن يسلبه عكا.

كانت الأنباء التي وصلته عن مجزرة يافا قد أيقظت فيه فضولاً حول الجنرال الفرنسي، إن لم نقل شعوراً متواطئاً، عوض أن ترهبه. فأحمد متهم منذ زمن طويل بأنه شخصية قاسية وبأنه يعرب عن سعادة سادية أمام المعاناة.

لم يكن أحد - من أعدائه أو رعاياه أو خدامه أو حريمه - في مأمنٍ من نزواته الدامية. ألم يلقب بالجزار؟ لكل ذلك، اكتفى بابتسامة رضاً عندما أخبر بأحداث يافا، سعيداً بمعرفة أن هذا الجنرال الذي يستعد لمحاربته كان ممكناً أن يكون توأمه. كما أنه، عندما أرسل إليه أبو نبارت يقترح عليه التفاوض، لم يجد أدنى رغبة في قطع رأس المبعوث وإرساله إلى قائده. هذا ما يمكن القيام به بين أناس تجري في عروقهم الدماء نفسه.

غير أن هناك تفصيلاً آخر يسلي الجزار كثيراً ويجعله يقهقه بهدوء وسط لحيته.

كان قد هيأ مفاجأة كبرى للجنرال القصير.

التفت ووضع كفه الثقيلة على كتف الرجل الموجود بجانبه.

- فيم تفكر يا صديقي؟

لم يجب الرجل على الفور. لم يكن شكله يوحي بأنه عربي أو تركي. بشرته بيضاء ملفوحة قليلاً، في الحادية والثلاثين من العمر.

- أعتقد، سعادتك، أن العالم صغير.

انحدر الجنرال القائد من على الجبل. تساءل بتبجح:

- من يحكم كومة الحجارة البائسة هذه؟

أحدث سؤاله نوعاً من الضيق بين أفراد القيادة العامة. ألقى لانس بنظرة في اتجاه راينر، فلاحظ أنه مسلوٌ بعض الشيء.

- ألا تجيبونني؟

- إنه فيليبو أيها الجنرال المواطن.

كاد السلطان الكبير يخور.

- أنطوان؟

- هو عينه أيها الجنرال المواطن.

- أنطوان لوبيكار؟

أجاب راينر ولانس بالإيجاب في الوقت نفسه.

- هذا غير معقول. . .

فيليبو موجود هنا؟ وإلى جانب الجزار؟ فيليبو زميله القديم في المدرسة الحربية؟ ذاك الشاب الغبي الذي لم يكن يطيقه، والذي كان يكيل له الضربات بقدمه، خلال الدرس، تحت الطاولة. كان اشمئزازه منه يجد تبريره في كون هذا الدمية كان يحصل دائماً على الرتبة الأولى في المباريات، في حين لم يكن يحتل هو، بونابرت، أبداً إلا الرتبة الثانية أو الثالثة. كانا قد اجتازا معاً - منذ أربع عشرة سنة خلت - امتحان التخرج، وقد كانت مرتبة فيليبو فيه أيضاً، هي الأولى.

حرك بونابرت رأسه وبدا متفكراً.

هو يعرف عن ظهر قلب حياة هذا الرجل. فبعد أن عُيّنا معاً ملازمين أولين للمدفعية، تشعب مشواراهما بعد الثورة. كان فيليبو مناصراً للملكية، فهاجر إلى كوبلونس حيث انخرط في جيش كوندي. وبعد أن ألقي عليه القبض وحبس في سجن المعبد، فر منه مصحوباً بسجين آخر هو السير سيدني سميث. وهو الإنجليزي نفسه الذي كانت تسبح سفنه أسفل حصون عكا.

- فيمَ تفكر أيها الجنرال المواطن؟

- أفكر في أن العالم صغير للغاية. . .

أقدم على الهجوم الأول يوم ٢٨.

كسر.

يومان بعد ذلك صُدت خَرْجَة للأعداء، بينما قام الجزار، محتذياً بغريمه، ورغم اعتراضات فيليبو، بشنق سجنائه.

كان مائة وخمسون مدفعاً تلفظ قنابلها على الفرنسيين.

اندهش فرانسوا - الذي كانت هذه الحملة، مع ذلك، قد حنكته - من هذا السيل المتواصل للقذفات.

لم يفتقر المحاصرون، البتة، إلى التموين؛ فقد كان السير سيدني سميث يزودهم بأكثر من كفايتهم.

سمع بيرنويي أمراً يصدر إليه كي يذهب، مع أحد رفقائه، لجمع القنابل التي قذفها العدو. توجه لهذه المهمة بكثير من الحماس، منقباً بالخصوص عن القنابل عيار ٢٤، لأنه كان قد أخطر بأن المقابل سيكون حسب العيار.

خلال أعياد الميلاد، أُحكم الحصار. ظهر الطاعون من جديد، فاتكاً بمن أخطأهم البارود. هلك فونتور دو بارادي، الحكيم الترجمان، والتحق به ستمائة رجل. تساءل فرانسوا عما إذا كان سيستطيع أن يرى أفينيون ثانية.

مرت ثمانية أيام. حاول المحاصرون القيام بخرجة جديدة. كان سيدني سميث وفيليبو والجزار يقاتلون في الصفوف الأمامية لرجالهم. دُحروا.

تراكمت الجثث أمام مواقع الفرنسيين، وغالباً ما كانت تستعمل كدروع.

كان بيرنويي، وهو يجمع القنابل، يسترق النظر إلى الجنرال القائد. لا شك في ذلك؛ الجنرال قلق للغاية، هو يكره الحصار. هذا واضح.

كما أن بيرنويي قد دهش عندما علم، في اليوم الموالي، بأن أبو نبارت قد غادر سانت جان دارك للمسارعة بإغاثة كليبر المهدد بحملة مضادة قام بها باشا دمشق. استنتج أن القائد العام، بهذا الصنيع، الاستراتيجي بالتأكيد، قد وصل النافع بالطريف.

يوم ١٨ أبريل، وبعد جولة إلى جبل طابور (والتي وجد خلالها الوقت ليأمر بسلب وتحطيم قرية جنين المتهمة بمساعدة العدو، فضلاً عن ضيعتين صغيرتين بجبل نابلس)، عاد إلى مكان الحصار حيث كانت تتلاحق الهجمات سدىً.

يوم ٢٧ أبريل توفي الجنرال الشجاع كفاريللي متأثراً بجرح أصيب به منذ ثمانية عشر يوماً.

كانت ضحكة الجزار تبدو أعرض وسط لحيته.

فيليبو، من جهته، اكتفى بأن قال لنفسه إنه، وحتى الآن، يمكن لزميله في المدرسة العسكرية أن يكون فخوراً به.

أياماً بعد ذلك، أي يوم فاتح مايو، هلك من الطاعون.

يوم ٨، انتفض بيرنويي. كانت صرخة «النصر» قد دوت في أذنيه للتو.

حاول أن يفهم. مكنت فتحة أولى، قد مكنت مائتي رجل من المرور.

لكن سرعان ما خاب الأمل؛ الله وحده يعلم كيف. فقد وجد المتسللون أنفسهم مقبوضاً عليهم من طرف الأتراك.

في ذلك اليوم تنحى فرانسوا وخربش على عجل بعض الأسطر إلى زوجته الرقيقة. ختم رسالته بهذه الكلمات:

«صديقتي العزيزة. أعتقد أن آمالنا قد تحققت؛ فعكا صامدة. ربما أتحدث ها هنا ضد مصلحة الوطن، لكن رغبتي في أن أراك من جديد تجعلني أضحي بكل شيء. وداعاً»

استولى الإحباط على الجنود. كانت تسمع، هنا وهناك، عبارات تهديد. بل كان يُسمع أحياناً سباب تجاه الجنرال القائد.

استُدعي كليبر على عجل ليفتش التحصينات، فتلفظ بهذه الجملة القاسية: «جنرال. لو لم أكن أعلم، أنا نفسي، أن بونابرت هو الذي يسير هنا لكنت اعتقدت بأن كل هذه الأعمال يدبرها أطفال.»، مما فاقم حنق الجنود. كانت رغبة العودة إلى مصر تتأكد للعيان. فهل يمتثل الجنرال القائد للبديهية التي يدافع عنها مورا نفسه: «يجب أن تكون أعمى كي لا ترى بأنه لا يمكنك أبداً الاستيلاء على عكا.»

لكنهم كانوا قليلي المعرفة بالسلطان الكبير.

عقب:

- الأمور ذهبت أبعد من أن لا نقوم بمجهود جديد. إذا ما انتصرت، كما أومن بذلك، فإنني سأعثر في المدينة على كنوز الباشا وأسلحة كافية لتسليح مائة ألف رجل. سأستنهض وسأسلح كل سوريا التي طالما عانت من بطش هذا الجزار. سأجتاح دمشق وحلب، وسأدعم جيشي بكل الناقمين. سأعلن للشعب إنهاء عبودية وحكومات الطغاة الباشوات. سأصل إلى القسطنطينية في فلول من الجنود وسأضع حداً للإمبراطورية التركية. سأشيد بالشرق إمبراطورية جديدة عظيمة تتحدث عنها الأجيال القادمة. وربما عدت إلى باريس عن طريق أندرنوبل أو فيينا، بعد اجتثاث الأسرة الحاكمة في النمسا.

صمت للحظة ثم ختم كلامه قائلاً بشراسة:

- حتى ولو لم يبق لي سوى أربعة رجال وعريف، فإنني سأتقدمهم وسنلج عكا.

لم ينبس كليبر، الذي استمع إلى الخطاب، ببنت شفة. اكتفى برفع كتفيه. هو يعلم، أكثر من أي أحد آخر، بأن الطريقة التي اتخذها الجنرال، منذورة للفشل. كما أنه يعلم بأن الخسائر كانت فادحة لأنهم استهانوا بقوة العدو. لاقى حوالى أربعة آلاف رجل حتفهم منذ انطلاق هذه الحملة. كل هذا جعله

يتشبث أكثر بفكرته: «بونابرت ليس سوى جنرال بألف رجل في اليوم». أما هو، كليبر، فكان يقدر قيمة الدم، وبمعنى آخر، كان حريصاً على حياة جنوده.

كانت بلادة هذا العناد تشعره بالغثيان.

يوم ٢٠ مايو، كانت الأحلام الخرافية للجنرال القائد - وهو ما ارتاح إليه الجميع - تتبخر.

رفع الحصار.

ستتم العودة إلى مصر. لقد غاض السراب في الزبد الذي يلطم مقدمات سفن الإنجليزي الموجودة على حافة أسوار عكا.

وعندما اكتشف الجزار، صباحاً، أن السهل فارغ، انطلق في قهقهة عالية.

كان الانسحاب في مستوى المأساة. إنها متوالية متصلة من البؤس ومن الحزن. تمركزت سوقة عسكرية عظمى بالعريش، كي تكون موقعاً متقدماً يحمي مصر. انطلقوا.

حيفا.

كانت المدينة ما تزال في حالة يرثى لها. كانت الطرقات مغمورة بالجرحى وبالمصابين بالطاعون، ميتين أو يموتون. حُمل الجرحى على الأذرع أو على نقالات؛ وتُرك من اشتبه في أنهم مصابون بالطاعون. وصل الأمر ببعضهم، على قارعة الطريق، أن شرعوا يمزقون جروحهم أو يحدثون أخرى كي يقنعوهم بأنهم ليسوا مصابين بالطاعون؛ لكن لا أحد صدقهم. كانوا يكتفون بأن يقولوا: «لقد قضي الأمر» ويمرون.

بعد هذه الوقفة الحزينة، تابع الجيش رحلته على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وبعد أن عبر سيزاري وميناء سابورا ونهر الأوغو، وصل إلى يافا يوم ٢٤ مايو.

كان كليبر يقود خلفية الجيش، عبوساً؛ فالأمر الأخير الذي تلقاه لم يزد حنقه إلا استفحالاً:

- حطموا المنازل. اجتاحوا فلسطين.

بمعنى آخر، سلك استراتيجية الأرض المحروقة.

كان الجنود يتقدمون، إذن، حاملين المشاعل، مستعدين لإضرام النار في القرى وفي الضيعات والمحاصيل.

كما أنه كان ثمة جنود، خصوصاً جنود نصف اللواء التاسع والستين، على حافة الثورة، يسبون علناً قائدهم العام. أما هذا الأخير، عنيداً كالعادة، فقد أمر بمعاقبة بعض المحتجين، وقد وصلت بعض العقوبات حد الحكم بالموت. يرى كليبر هذه القسوة جزءاً من طبيعة الكورسيكي. لقد أعرب من جديد عن غياب كلي للإنسانية.

كان ثمة ما هو أكثر إثارة للحزن. من الأربعين ألف رجل الذين ركبوا البحر بالإسكندرية، منذ أقل من سنة، لم يبق سوى النصف.

ولحسن الحظ، كانت هناك آثار لبعض النصر في معركة جبل طابور، كما كان هناك، قصد تهدئة النفوس، هذه الدبابة المزينة باثنين وخمسين لواء، انتزعت من العدو.

الفصل الحادي والعشرون

١٧ يونيو ١٧٩٩

كان الحفل في أوجه بتيفولي حيث اجتمع أكثر من مائتي مدعو، غالبيتهم من الضباط والوجهاء.

لم تستطع سميرة شديد، الجالسة بأدب في أحد المقاعد الموشاة، أن ترفع بصرها عن زبيدة. فرغم الصداقة القوية التي تكنها لها، لم تستطع منع نفسها من أن تشعر تجاهها ببعض الغيرة. كانت صديقة طفولتها تتألق؛ لم يسبق لها قط أن رأتها بمثل هذا الإشراق. يجب الاعتراف بأنها قد حققت أكثر مما أملت فيه.

يمكننا أن نعتبر عادياً أن تصبح عشيقة جنرال، كما يمكننا اعتبار الزواج منه أمراً مستحقاً، لكن أن تقود صاحبها إلى أن يسلم، فذاك منتهى العجب، خصوصاً وأن الأمر لا يتعلق بأي جنرال، وإنما بجاك مينو، قائد منطقة رشيد، والذي له حظوة لدى السلطان الكبير. كما أن هناك تفصيلاً مؤثراً آخر؛ فيوم زفافهما - الذي يعود إلى منتصف مارس - كان الجنرال قد غيّر اسمه باسم عبد الله، وأصر على ألا ينادى إلا بهذا الاسم. والحق أن زبيدة كانت محظوظة جداً، رغم أن مينو هذا كان أصلعَ وبديناً، وحسب بعض الأقوال متخلفاً. وقد كان بإمكان أبيها، صاحب الحمام البلدي المتواضع، أن يكون فخوراً بها.

نظرت سميرة إلى عشيقها شزرا. إنه لسلوك غريب منها، لكنها بدأت تراه منذ وقت قريب أقل جمالاً، وما عادت كلماته المنتقاة تسليها. كان كلامه باستمرار عن الرياضيات قد أضحى متعباً. أخذت بغضب كأس الخمرة

الموضوعة في الصينية النحاسية واحتستها في جرعة واحدة. فبأي شيء يمكن للمعادلات وللحسابات أن تغري امراة؟

أمسك جان بابتيست، بحب، كف سميرة، وكأنه قد خمن الحالة النفسية التي توجد عليها.

- حبيبتي، ألست على ما يرام؟ أتريدين أن نعود إلى البيت؟

كانت سميرة على وشك أن تجيب بالإيجاب، عندما استرعى، فجأة، قادم جديد انتباهها.

- هذا الرجل، هل تعرفه؟

- بالطبع. العميد البحري غانطوم.

أضاء شعاع فضولي بؤبؤ المرأة الشابة.

عميد بحري... يساوي جنرالاً.

- أفلت إذن من الموت بعد تدمير أسطولكم؟

لم يكن لسؤالها هدف معين، لأن انتباهها كان منصباً على هذا الشخص. كان طويلاً، وجهه ضخم ينضح شدة، كبير الفم لحِم الشفتين. وكان شاربه الأسود يضاعف من صرامة قسماته العسكرية.

كان جان بابتيست منخرطاً في شرح تقني لمعركة أبي قير، فقاطعته مستغلة سماع كلمة وقالت:

- ألسنة اللهب... كان ذلك رهيباً من غير شك.

- تماماً. احترقت «الشرق» مثل شعلة. وقد كاد أونوري أن يهلك مع السفينة.

- أونوري؟

- اسمه الشخصي.

تشبثت المرأة، فجأة، بذراع عشيقها بلهفة.

- آه. أرجوك، استدعه لمائدتنا. أحب أن يحكي لنا هو نفسه عن معاركه، فهي تبدو لي مدهشة... أرجوك.

بدا متردداً.

التصقت به متمسحة.

- أرجوك. قم بذلك من أجلي. أنت تعرف كم أحب حكايات المعارك.

- لكنه قد يرفض ذلك. هو شخصية مهمة وليست لي علاقة وثيقة به حتى أسمح لنفسي ب...

- جان بابتيست... حبيبي.

نفذ طلبها دون رغبة.

* * *

ازدرد فرانسوا آخر لقمة من (الكبيبة).

- لا أذكر أنني قد أكلت أجود من هذا منذ زمن طويل. إنه لذيذ.

- بعد ما قاسيتموه في سوريا قد يبدو لكم كل شيء رائعاً. لاحظت شهرزاد مع ابتسامة خافتة.

تجهم بيرنويي. كان الجيش قد عاد منذ ثلاثة أيام، وهو ما يزال يحتفظ على حافتي شفتيه بطعم الدم والبارود. وكانت صور عودتهم إلى القاهرة ما تزال تراود ذهنه.

كان الجنرال القائد قد أرسل قبله فرق فرسانٍ، بوصفهم مبشرين، ممتطين جيادهم وهم يذيعون في الناس نبأ انتصاراته. بدا أن هذه الدعاية قد أحدثت الأثر المرجو، لأن جزءاً من الساكنة استجاب فتقدم هذه الفرق. استقبَل الشيخ البكري - غير الراضي عن إهدائه للجنرال، أشهراً من قبل، ابنته البالغة من العمر ست عشرة سنة - بونابرت وأهداه باسم المدينة فرساً رائعاً، عليه غطاء سرج موشى بالذهب وبالجواهر والفيروز. كانت الدابة مقودة من طرف شاب مملوك، هو الآخر هدية. بعد التحايا والترحاب دخل الجنرال القائد، ممتطياً جواده الجديد، دخول المنتصرين عبر الباب الجنوبي؛ باب النصر. وخلفه كان يمشي كليبر مقطباً.

هش فرانسوا في الهواء.

- أحب أن لا أعود أبداً لتذكر هذه الأشهر الأخيرة.

- أصبت، قالت نادية. لكن هناك أموراً لا تمحى أبداً من الذاكرة، للأسف...

قالت ذلك بنبرة محايدة، تخفي حزناً عميقاً. هي أيضاً كانت تحاول خلال هذه الأشهر الأخيرة أن تنسى. لم يجد بيرنويي، الذي يعرف كل ما بها، ما يقوله. نكس عينيه فاسحاً المجال لوشوشة الحنفية.

اقترحت نادية وهي تتخلص فجأة من أفكارها:

- أعد لك قهوة؟

- إذا لم يكن في ذلك إزعاج.

ثم دقق مع ابتسامة متواطئة:

- مضبوطة. أعترف أنني كنت أجد قهوتك، في البداية - وبدا وكأنه يبحث عن الكلمة - ثقيلة. أما الآن فأستطيبها.

تظاهرت شهزراد بأنها تريد الوقوف، لكن أمها صدتها بإشارة.

- تذكري يا بنيتي أنك لم تستطيعي يوماً إعداد قهوة جيدة. ثم إن عليك أن تريحيه.

قالت ذلك وهي تشير إلى بطن ابنتها المكور.

- عليك أن تحافظي على هذا.

مررت شهرزاد، بحنان، راحتها على استدارة بطنها.

- هذا... لا مجال لأن يتحرك قبل سبتمبر.

ثم تابعت بنبرة أكثر مرحاً:

- على أي حال، وكي نعود للقهوة، أمي على صواب. أنا لا أفهم السر في ذلك، لكن الوجه يخونني دائماً.

ثم سألت بيرنويي:

- أنت تعرف القصد من الوجه، أليس كذلك؟

- بالطبع. تلك الطبقة التي تتشكل على سطح القهوة، والتي لا يغتفر غيابها.

- تماماً. فقهوة بلا وجه ليست سوى حساء مبتذل.

ثم أضافت مع ابتسامة خضوع:

- أنا خبيرة في الحساء.

وعندما توجهت نادية نحو المطبخ، سأل ميشيل:

- أنتم لن تذهبوا من جديد، أعتقد؟

رفع بيرنويي عينيه نحو السماء.

- أرجو من الله أن لا. لقد أنهكت حملة سوريا الرجال. سيكون أمراً لا إنسانيا أن تفرض عليهم معركة جديدة.

- على أي حال، قالت شهرزاد، غزة والعريش ويافا، كل ذلك كان بلا فائدة. فقط بضعة آلاف من الموتى، لا غير.

- للأسف. نكبة حقيقية. وفوق ذلك، فإن هناك أنباءً تروج بأن الإنجليز والجيش التركي لن يتأخروا في مهاجمتنا.

أكد ميشيل ذلك برفة جفن.

- وقد انضاف إلى كل هذا تلك الحكاية الغريبة لذاك الملهَم. هل أنتم على علم بها؟

أجاب ميشيل بالنفي.

- عندما كنا بعكا، قدّم شخص نفسه للناس مؤكداً أن الله كلّفه بالمهمة المقدسة المتمثلة في إبادة الفرنسيين. كان يقول بأنه لا يتأثر بالرصاص، وبأنه قادر على دفع كل هزيمة عن أنصاره. تصوروا أنه قد نجح، خلال الأشهر الأخيرة، في استنهاض كل الجهة الغربية للدلتا، وبالخصوص منطقة دمنصور.

صححت شهرزاد:

- دمنهور.

- تماماً. كان يدّعي أيضاً بأنه قادر على تحويل كل الأشياء التي يلمسها إلى ذهب، وعلى إبطال مفعول الرصاص والقنابل التي تطلق عليه، بل إنه قادر على إيقاف القنابل في الهواء. هذا جنون.

انتظر ميشيل حتى قدمت نادية القهوة ليجيب:

- الشرق يا فرانسوا، أرض ملغزة. في الأشجار والكائنات والوادي؛ في كل شيء حي، في كل شيء يتحرك، ثمة وجود الله. هذا النوع من الأشخاص كان موجوداً في الماضي، وسيأتي آخرون.

- تصوروا أن هذا الرجل، كل مساء، وقت الصلاة، وأمام مشايعيه المجتمعين، كان يغطس أصابعه في آنية حليب ويمررها على شفتيه، مفسراً أن هذا الطعام يكفيه. المهدي. هل تعرفون ما القصد به؟

ارتسمت ابتسامة على شفتي محادثه.

- المهدي... يتعلق الأمر، في التراث الإسلامي، بكائن خارق سيعيد، في نهاية الأزمنة، للأرض النظام والعدالة اللذين خلت منهما، وسيؤدي مقدمه إلى سيادة الخلود والرخاء الكامل. هذا هو المهدي.

- هو مخلِّصٌ إذن؟

- بمعنى ما.

قالت شهرزاد بنوع من الحماس:

- عموماً هذه حكاية مثيرة، كيف كانت نهاية رسول الله هذا؟

نفخ فرانسوا بلطف في الفنجان واحتسى جرعة.

- هذا هو الغريب. إن ما لا يصدق في هذه الشعوذة أو الخرافة، هو أن هذا الرجل العفريت قد استطاع أن يقوم بهجمة مفاجئة على مدينة دمنهور. كان فيلق نوتيّ متكون من حوالى مائة رجل يقوم هناك بالحراسة. قتلوا عن آخرهم. أتسمع؟ لم ينجُ منهم أحد.

قال ميشيل مدهوشاً:

- أنت تمزح!

- أكرر لك. لم يتبقَّ منهم أحد. وهذا ليس كل شيء، فخلال الأيام الموالية التحق آلاف البدويين بهذا الشخص الغريب، وأرغموا جيوشنا التي أتت للنجدة، على الرجوع من حيث أتت. وأخبركم أيضاً بأن غالبية الرجال الذين كانوا يشكلون جيش المهدي لم يكونوا مسلحين سوى بالعصي.

سألت نادية مستغربة:

- هل أنت متأكد من معلوماتك؟ تبدو لي هذه الحكاية مبالغاً فيها بعض الشيء.

- ومع ذلك فإن مصادري جديرة بالثقة.

- ثم؟ قالت شهرزاد التي بلغ بها التشويق كل مبلغ.

- بطبيعة الحال، كان القمع في مستوى العدوان...

كان قد تلفظ بهذه الكلمات الأخيرة باضطراب.

- بمعنى؟ سأل ميشيل.

رشف بيرنوبي من القهوة، وقد بدت عليه علامة تردد.

- اجتثت مدينة دمنهور بواسطة قوات الجنرال لانوس. مسحت كلية من على الخريطة. كانت رغبة الجنود في الانتقام لرفاقهم الذين قتلوا أياماً من قبل، في المكان نفسه، قد دفعت بهم إلى قتل كل من كان انضم إلى دعوة الملاك. وبما أن غالبية السكان كانت قد انضمت إليه...

- تريد أن تقول...

- أجل... رجال ونساء وأطفال، كلهم اغتيلوا بضربات السيوف وأوقدت النيران في المنازل. أصبحت دمنهور مدينة أموات.

- والمهدي؟ ألحت شهرزاد.

- منذ حوالى أسبوعين، أصابه لانوس.

- مات؟

- الواقع أن لا أحد يعرف. لم يتم حتى الآن العثور على جثمانه.

أُعقب كلام بيرنويي بصمت متفكر.

انتصبت نادية واقفة، دموع خفية تسيل على خديها. لم يكن ما يبكيها هو هذه القصة الغريبة، وإنما يوسف ونبيل.

* * *

كان فخذ سميرة شديد، من دقائق، ملتصقاً بفخذ العميد البحري غانطوم. استمر هذا الأخير الذي لا يظهر عليه شيء، في وصف معركة أبي قير لجان بابتيست فوريي، الذي كان يبدو منزعجاً.

- لقد قسمت القنبلة التعس بويس إلى شطرين. كان يصعب مشاهدة ذلك. وعلى العموم، فأنا متأكد من أن فلتوم، لو كان قد تصرف باكراً لكان التصادم قد عرف مصيراً آخر. لكن المجال العسكري مُشكَّل للأسف من نوعين من الناس: الذين يعرفون كيف يتصرفون ارتجالاً، والذين يكتفون بانتظار الأوامر.

- بالنظر والاستماع إليك، أيها الأميرال، ندرك جيداً بأنك تنتمي إلى النوع الأول.

صاحبت الفتاة إطراءها هذا باحتكاك جديد لفخذها بفخذ الأميرال.

لم يتردد الضابط هذه المرة. دس كفه بما يلزم من حيطة تحت الطاولة ووضعه على وسط جارته.

- أنتِ غاية في اللطف. وبدوري أقول، إن سمحت لي برد الإطراء، إن الارتجال يعد جبلة فيك.

أصدرت سميرة ضحكة عالية، في الوقت نفسه الذي ألحقت فيه كفها بكفه.

قال جان بابتيست فجأة:

- ما رأيك في أن ننصرف؟ سيجتمع المعهد غداً باكراً، عليَّ للأسف. . .

- آه، لا. احتجت المرأة الشابة. ليس الآن. نحن في أحسن حال.

- لكن، حبيبتي، أنت التي كنت تودين الإنصراف قبل قليل.

- هذا صحيح، لكن ذلك كان قبل أن نتعرف على الأميرال. فهو بطريقته في وصف المعارك أبعد عني كل رغبة في النوم. ثم نظرت مباشرة في عيني غانطوم.

- في هذه الحالة، وإذا لم يكن في ذلك إزعاج، فإنني ألتمس منك، أميرال، أن تتفضل بمصاحبة هذه السيدة إلى مسكنها. أما أنا، فعلي فعلاً أن أنصرف.

- يمكنك أن تعتمد عليَّ يا فوريي العزيز، سأعيد إليك صديقتنا هذه سالمة.

شكره جان بابتيست بحركة من رأسه.

فكر وهو يجتاز عتبة تيفولي، أن النساء مخلوقات أكثر تعقيداً وأقل صرامة من كل مسائل الجبر مجتمعة.

* * *

على بعد مائة وخمسين فرسخاً من هناك، وبكنية، كانت قمم النخيل تهتز بالكاد. كانت عجلة ضخمة لساقية، على حافة النيل، تدور ببطء في الغسق، مسحوبة بثور. كان تغريد طيور الكروان والشنقب المختبئة بين أعشاب الأسل يُسمع خافتاً. وفي البعد كانت تبدو منظمةً حقولُ البر ناضجة للحصاد، ومحاصيل الذرة التي تنتظر شهر يوليو.

وعند انعطافة كثيب، كان أسطول مراد بك ينتظر هو الآخر.

فإذا كانت المعلومات التي وصلته أمس صحيحة، فإنه سيستولي، بعد لحظات، على فريسة ثمينة.

فالجنرال دوزيكس - حسب جاسوسه -، وفي غياب أي دعم، كان قد هيأ تشكيل أرتال متحركة تنحدر في النهر، مدعومة بأسطول نهري يحمل تموين الجيش. والحال أن الأرتال، حسب الأخبار، قد تخلفت عن الأسطول الذي كان يسير دون حماية.

أمسك مراد بك بالمنظار ووضعه على عينيه. وعلى الفور أخذت ابتسامته العدوانية، التي لم تفارقه حتى تلك اللحظة، تتسع.

التفت ليتأكد من أن مماليكه الذين كان قد انضم إليهم ثمانمائة محارب من الحجاز، كانوا قد أخذوا مواقعهم.

أشار إلى كريم الذي كان يقود مركب المقدمة، بأن يكون على أهبة الاستعداد. أما باباس أوغلو، الذي كان على بعدٍ قريبٍ منهم، فكانت مدافعه قد حشيت سلفاً.

عندما أُطلقت نيران العدو على المواطن موراندي، المكلف بالسفينة «إيطاليا»، علم هذا الأخير أن لا حظ له في الإفلات.

لكنه صارع، مع ذلك بهياج اليائس. استمرت المعركة لساعتين تقريباً.

كانت المراكب تسقط تباعاً.

أخيراً، وبعد أن تأكد موراندي بأن الهزيمة حتمية، أوقد النار في البارود وقفز إلى النهر متبوعاً برجاله. انفجرت «إيطاليا» في فرقعة رهيبة، قاذفة نحو السماء بكل ما كانت تحمله من مواد غذائية وأدوية.

وعندما انسحب مراد، كانت أكثر من خمسمائة جثة للبحارة والجنود تطفو على سطح النهر المحمر من الدم. ومن لم يغرق منهم تم اغتياله.

كان النصر تاماً.

أشار المملوك بيده إلى السماء.

- الله أكبر. إن كلام الله حق. أترى يا نيكوس، فمن زمن قريب كنت تشك في كل شيء. أنظر...

وأشار إلى الجثث التي كانت تسبح على سطح النيل....

- أنظر إلى ما فعلته بشكوكك وبالتصورات الساذجة لكارلو. لقد قطعت رأسهم.

صادق اليوناني على رأيه، لكن بدون حماس حقيقي.

أما كريم فقد كان على العكس منه، مبتهجاً.

- ليس هذا كل ما في الأمر، تابع مراد. فلديّ خبر أزفه إليكما. في غضون أسابيع سنغادر الواحات وسننزل إلى مصر السفلى.

كان باباس أوغلو ينظر إليه مدهوشاً.

- القاهرة؟

- أنا مجازف يا نيكوس، لكنني بعيد عن أن أكون مجنوناً. لا. سألتف حول العاصمة وسأعبر الدلتا نحو الإسكندرية.

- وما الغاية من ذلك؟ سأل كريم مأخوذاً كلية بتصميم الرجل.

- الإسكندرية. كل المعلومات التي في حوزتي تؤكد بأن الجيش التركي سيصلها بين يوم وآخر. فهو يعد نفسه بالروضة، كما أن البحرية الإنجليزية قد شرعت تقنبل الساحل. إن الإنزال وشيك، وعندما يتم، لن يبقى لي سوى أن أجري اتصالات مع القوات العثمانية. وسأدخل القاهرة دخول المخَلِّصين.

صمت، وهو يستطلع الوجوه ليقرأ فيها الأثر الذي خلفه مشروعه.

كان كريم وباقي المجموعة مأخوذين تماماً. وحده باباس أوغلو كان ما يزال مشككاً.

- ماذا دهاك؟ صاح المملوك غاضباً. كما لو أنك قد رأيت الموت.

- لا يا سيدي، تمتم اليوناني مازحاً. أنا أعلم أنني أخيب ظنك، لكنني أعتقد أن خطتك لن يكتب لها النجاح؛ إذْ أي طريق سلكته، سيعترض دوزيكس سبيلك.

- الله يشهد، صاح مراد، فلو لم أكن أحبك لكنت قطعت لسانك من زمان. أنت تنذرنا بالشؤم.

ركل الأرض بقدميه.

- في غضون شهر سأكون بالإسكندرية. في غضون شهر ستأكل من يدي.

كان ذلك يوم ١٨ يونيو.

* * *

لم تستطع سميرة، عندما ولجها أونوري غانطوم، أن تحبس صرخة ألم. هذا رغم أنها كانت قد هيأت نفسها لتعيش مغامرتها الجديدة، وقد استشعرت، قبل الإيلاج، أن الفعل سيكون عنيفاً. فمنذ أن فك العسكري أزراره، كانت قد انتبهت على الفور إلى أن عضوه هو الأعظم من بين أعضاء كل الرجال الذين عرفتهم حتى تلك اللحظة. أكثر من ذلك، فإن الوضع الذي اختار أن

يباشرها منه، هناك، في ذاك المكان الحميمي من ردفيها، كان يعد امتحاناً عسيراً.

عضت على شفتها بقوة وهو يمشي ويجيء فيها.

من لهفته لم يكد يجردها من ثيابها. هو نفسه كان ما يزال منتعلاً جزمته.

لم يسبق لأحد أن ضاجعها - وهل هذه مضاجعة؟ - بطريقة بهذه القسوة، ومن هذا المكان الحميمي من جسدها.

شعرت بكف غانطوم تُعلي تنورتها. وكلما كانت تدفع نحو الأمام بقوة أكثر، كانت تستشعر تموجات ملتهبة تلفح بشرتها.

انتزعت منها ضربة أقوى صرخة جديدة. هذا غير ممكن. هذا الرجل سيمزقها. اجتاحها فجأة شعور بالرعب من أنها لن تستطيع بعد اليوم أن يضاجعها رجل. حاولت، مرعوبة، أن تبعد جسدها عن هذا الجسد الجاثي خلفها، لكن سدىً؛ فقد كانت كفاه قابضتين بقوة على وركيها. قامت بمحاولة جديدة، لكنه كبحها. وربما كانت في هذه اللحظة بالذات، من خلال ترددها بين الرفض والانقياد، قد اكتشفت، مستغربة، لذة جديدة تنشأ في عمق ذاتها.

أحست فجأة وكأن الظل قد التصق بها، وأن جدران الغرفة تتموج على إيقاع المضاجعة، وأنه كان يحدث فيها انصهار غريب ومتناقض حيث يصبح الألم حاملَ لذة.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

كان الليل مخيماً. وكانت السماء فوق الصباح ملأى بالنجوم.

وضعت شهرزاد، الجالسة بالشرفة، بتلقائية، كفها على بطنها. ١٣ يوليو. في غضون شهرين ستلد إن شاء الله.

انتابتها رعشة، وهي في نهاية الطريق. تمنت لو حصل الأمر هذا المساء أو غداً. كانت هذه اللهفة ناتجة عن الخوف من أن تحصل مأساة جديدة، وعن الرغبة في أن ترى أخيراً هذه الحياة اللامرئية التي تعتمل بداخلها تتجسد.

انتشلها صوت أمها من تفكيرها.

- بم تحلمين يا ابنتي؟

- بحفيدك. إنه يحتل جسدي وعقلي.

- حفيد؟ من أين لك هذا اليقين بأنه ذكر؟ الله وحده مطلع على سر المواليد.

ابتسمت شهرزاد بسوداوية. أرادت أن تجيب نادية بأنها تعرف أيضاً، وأنها متأكدة من أن يوسف سيعود من خلال الطفل الذي تحمله. لكنها فكرت بأن قولها ذاك قد يحيي آلام أمها، فاكتفت بجواب موارب.

- لا يقين لدي، لنقل بأن الأمر يتعلق بإحساس.

- أنت الآن أكثر جمالاً، لاحظ ميشيل. وإذا كان طفلاً فإنه سيكون بهذا الجمال.

- أنت تعرف المثل الذي يقول: «القرد في عين أمه غزال». لا يمكنك أن تكون موضوعياً، فأنت عاشق.

أطلق ميشيل تنهيدة استسلام.

- كما تشائين. سواء أكان طفلاً أم طفلة، عسى ألا يجعل الله مزاجه بعناد أمه نفسه.

- في هذه الحال، كان عليك أن تلده مع عائشة السودانية، لكن فات الأوان.

قطبت نادية حاجبيها.

- لكن يا ابنتي، راقبي كلماتك. إنه...

قطعت كلامها وقد استرعى انتباهها أمر غير منتظر.

- أنظرا، قالت وهي تشير إلى نقطة تشع وسط الظلام. مثل نجم هوى.

استدار ميشيل وشهرزاد في الآن نفسه. لم يريا في البداية شيئاً، ثم رأيا بعد ذلك، في البعد، أمراً غريباً. ماذا عساه يكون؟

- لو كان اليوم هو عيد الميلاد لقلنا إنها الزهرة. قالت شهرزاد مازحة.

- أمر غريب بالفعل، خصوصاً وأن الوميض ليس قاراً. يظهر ويختفي بإيقاع متواتر.

- هل هي إشارة؟ قالت نادية.

- ربما...

- في هذه الساعة من الليل؟

قالت المرأة:

- ليحفظنا الله. أنا لا أحب هذا.

رمقت شهرزاد أمها مشفقة عليها. فمنذ زمن، أصبح كل ما هو غير متوقع مرادفاً عندها للحيرة والقلق.

* * *

وعلى أي حال، كان هذا الوميض علة فرح وسعادة بالنسبة لشخص آخر يسكن على بعد فرسخ من هنا. كان زهرته.

فالست نفيسة، الواقفة على سطح منزلها، كانت ترقب بحب الشعاع وهي تطلق تنهيدات سعادة.

كانت الخادمة إلى جانبها تجمع كفيها بتضرع.

- ستي. أنا الآن موقنة بذلك. أنا متأكدة؛ لقد ولد زوجك في ليلة القدر.

- بالتأكيد يا زنوبة، بالتأكيد. والآن أوقدي المشعل.

* * *

كان مراد بك يقف على قمة الهرم الأكبر، مبتهجاً، وهو يحمل بكف مصباحاً زيتياً، وبالأخرى شالاً يمرره أمام اللهب، ضارباً برجله.

- هل تعتقد، سعادتك، أنها قد رأتك؟ سأل كريم بصوت خفيض.

- أي سؤال؟ هي لم ترني وحسب، هي تجيبني أيضاً. أنظر، إنها هي، قمر حياتي، عسل قلبي، كتكوتتي.

ضاع صوت المملوك في تحليق غنائي حقيقي، مانحاً أذني ابن سليمان كل كلمات العشق التي توجد على الأرض، وأخرى ما تزال مجهولة حتى الآن.

كانت البيضاء تجيبه بالفعل. كان ضوء يشع وسط الظلام في ضواحي الجيزة.

كان مراد لا يكف عن إدهاشه. قال بأنه سيتوجه للقاهرة، مخاتلاً بمهارة الفرق الفرنسية. ومن واحة إلى أخرى، من انعطافة إلى انعطافة، أدرك الرجل هدفه. لقد قام بذلك. لقد كان هذا الرجل شديد الجراءة.

ومع ذلك، فقد كان الاستنفار شديداً، يومان قبل ذلك. فقد أغار عليهم هذا العفريت المسمى دوزيكس في ضواحي بركة النطرون، فقتل حوالى ستين مملوكاً في المعركة. أوغلو نفسه أصيب برصاصة، وأفلت من الموت بأعجوبة.

كان الحوار العاشق لمراد، ما يزال متواصلاً. نظر كريم خفية في اتجاه البك، وعرف كل ما يعكسه هذا المشهد من طابع خيالي: في قلب الليل؛ رجل معمم ملتف في عباءته السوداء، في يده مصباح، وهو يرسل إشارات ضوئية إلى خليلته من فوق أعلى الأهرام.

افترت شفتاه، رغماً عنه، بابتسامة عطف، أحيت، في الآن نفسه، ذكرياته الشخصية.

لم ير أميرته منذ أشهر.

ماذا حل بها؟ فمنذ المساء الذي ضاجعها خلاله، يحصل له أحياناً أن يستشعر عطرها ونعومة بشرتها.

لماذا الضياع؟ ستنتهي الحرب يوماً وسأعود.

تعاقبت الأيام والأسابيع. وكلما مر الزمن زاد شكه في عودته. عندما كان

يفكر في وجوده، كان يحصل أن يقول لنفسه بأنه ربما أخطأ بالذهاب. لكنه سرعان ما يعود لنفسه موبخاً. ألم يكن مستقبل شهرزاد مرتبطاً بقوة بنجاحه الشخصي؟ فلو قدر، ربما، أن تصبح شهرزاد، يوماً، امرأة حرة، ألا يجدر به آنذاك أن يكون في مستوى أن يقدم لها ما هو جوهري؟

وكي يذكي في نفسه الشجاعة، كان يكتفي بالنظر إلى مثال مراد؛ فبمجرد تحديده للهدف، لا يعود مجال للتردد. هذا رغم أن هذا الرجل الذي حكم مصر من زمن قريب يرى، هذا المساء، أن لا أمل في الاقتراب من قصره وزوجته.

* * *

لم تستطع شهرزاد أن تزيح عينيها عن ذاك اللهب الذي يلتمع بعيداً. أمدتها هبة ريح بالروائح المطمئنة لليل وبالحضور الرقيق للرمال، ثم خطرت لها فجأة وفي الآن نفسه فكرةٌ مجنونة. هل من الممكن أن تتقاسم الكائنات البشرية مع الدواب الغريزة نفسها؛ غريزة استشعارٍ عن بعد لوجود عائلي؟

لا... هذا غير ممكن.

* * *

كان رماة القنابل من الفرقتين ١٨ و ٢٢، يرفسون وهم يرغون ويزبدون بثكنة ساكير. ساروا بعد ذلك في أعقاب فيلق جمال انتشلت هي الأخرى من نومها، مع ثلاثة من الدلائل يرافقونهم. وفي الخلف كانت تمشي ثلاث قطع من المدفعية.

كان في المقدمة السلطان الكبير على متن الفرس الأبيض الرائع، هدية الشيخ البكري الأخيرة. كانت تعلو قسماته إثارة ظاهرة.

صرخ في اتجاه صهره:

- أي صلف، يأتي للتحرش بنا على بعد بضعة أميال من القاهرة.

- لا تهتم أيها الجنرال المواطن، سنأسره.

* * *

عندما بزغ الفجر، كان مراد بك ما يزال على قمة الهرم. لم ينم ليله، كما أن بصره لم يحد عن المنزل الذي تنام فيه حبيبته. رغم أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، فإنها لونت الأفق بلون وردي شاحب. بعد قليل سيعم لون

الصحراء المغم، وسينصبغ أبو الهول بلونه الأكمد الداكن. كان ابن سليمان هو أول من لمح سحب الغبار التي كانت أتت من طريق الجيزة.

أخذ منظار المملوك ونظر في الأفق. كان أول ما رآه القطعتين المدفعيتين. ثم رآى فيلق الجمال والفارس الذي يمشي في المقدمة على صهوة فرس أبيض.

- سيدي، الفرنسيون.

أخذ مراد على الفور المنظار من يد كريم.

- بهذه السرعة...

تابع للحظة حركة الجيش.

- يا للشرف. هل تعرفت على من يقودهم؟

- آه، لا، سعادتك.

- أبو نبارت شخصياً.

أراد كريم أن ينظر من جديد، لكن مراد كان قد انثنى.

- هيا.

* * *

جهر الجنرال القائد بالسباب، غاضباً من نفسه ومن هذا القدر الذي كان يصر على حرمانه من فريسته.

مرة أخرى ينساب المملوك من بين أيديهم وهم منه على وشك القبض عليه. كانوا مع ذلك قد استطاعوا أن يأخذوا منه بعض الجمال وأن يقتلوا حوالى اثني عشر من رجاله، لكن الرأس الأكبر استطاع أن يلقي بهم في هذا المحيط من رمال الصحراء.

نفض بذلته بحركة عصبية، وهو يتمتم بجمل غير تامة.

- طيب، قال في الأخير، نعود إلى القاهرة.

كان بوهارني على وشك تنفيذ الأمر عندما أعلن أحدهم عن وصول مبعوث.

انقبضت عضلات وجه مرافق الجنرال. أية كارثة تترصدهم من جديد؟

أسرع المبعوث نحو الجنرال القائد وسلمه مطوياً نصف مدعوك.

كانت الرسالة مؤرخة بيوم أمس، وموقعة من طرف الجنرال مارمون.

عندما انتهى أبو نبارت من قراءتها، اكتفى بالتحديق في الأفق متفكراً.

- تغيير الاتجاه: سنتوجه إلى الرحمانية.

وبما أن يوجين قد أبدى اندهاشاً، ، فقد سلمه رسالة مارمون ليقرأها.

الإسكندرية، في ٢٤ من شهر الحصاد.

المواطن الجنرال؛

أعلمكم أن مرصد أعلى فنار الإسكندرية قد رصد أسطولاً يتقدم من الشمال نحو اليابسة. هو مكون من مائة وثلاثة عشر مركباً شراعياً، من بينها ثلاثة عشرة سفينة من نوع ٧٤، وتسع فرقاطات وسبعة عشر زورق مدفعية وأربع وسبعون سفينة شحن. وباستثناء «التغر» و «الثيزي» اللتين ترفرف عليهما أعلام إنجليزية، فإن باقي السفن تحمل الألوان العثمانية.

كل شيء يسمح بأن نفترض بأن الأسطول يتوجه نحو مرسى أبي قير، وأن الحصن والمعقل اللذين يراقبان المدخل، سيكونان أول أهدافه.

وحسب الملازم الأول ثرومان، مشيد المعقل، فإن هذا الأخير ليس بإمكانه أن يصمد طويلاً أمام الهجوم. أما الحصن، مع رجال الثكنة الأربعمائة، فإنه قد يصمد لخمسة أو ستة أيام.

لذلك، فإنه من المستعجل...

توقف بوهارني عن القراءة، فقد خمن الموالي. منذ أسابيع كثيرة، كان هذا الإنزال التركي منتظراً. وقد كان من المدهش أنه قد أخذ كل هذا الوقت ليتحقق.

خمسة أو ستة أيام، أنذر مارمون... وكان ما يزال أمامهم أكثر من خمسين فرسخاً يقطعونها. مشي مكره تحت شمس يوليو العنيدة. الصحراء من جديد، وفي النهاية خصم جديد يجب مواجهته.

عندما كان يوجين متوجهاً للقاهرة، تقاطع نظره مع النظرة الساخرة لأبي الهول. إنه يعرف الآن ما الذي أقلقه دائماً في هذا الشبح الصخري.

* * *

أخطر الجواسيس مراد بك، خلال الساعات الموالية، بأن الجيوش الفرنسية قد تخلت عن الملاحقة.

ما عاد ثمة من مجال للتردد، يجب التقدم نحو الإسكندرية.

- ماذا يا نيكوس. أما تزال متشائماً؟

عدل اليوناني من وضع الضمادة على فخذه.

- أنت، سعادتك، في حفظ الرحمان. كل ما أرجوه هو أن يحفظكم دائماً. وفيما يخصني، فإنه لا يمكنني للأسف - وهو يشير إلى ساقه - أن أواصل معكم.

- لا يهم. ستنتظرنا إذن في مخيم سكرة حيث ستعجل الأخبار التي ستتوارد عليك، بالتأكيد، بشفائك.

أما نحن. . .

وضع ذراعه بحميمية على كتف كريم.

- نحن لنا موعد مع الأسطول التركي، ومع النصر.

بعد لحظات انطلق الألف فارس من فرسان البك في اتجاه الشمال الشرقي، نحو الصحراء.

* * *

عندما فتحت نادية شديد الباب، خيّل إليها أن الأرض تميد تحت قدميها. تمتمت:

- كريم. هذا أنت؟

- نعم سيدتي، أنا كريم.

- ابن. . . سليمان؟

ألقت بنفسها عليه، بتلقائية، وضغطته إليها بقوة.

- الله أكبر. كيف أمكن لهذا أن يحصل؟

شرع يشرح لها، إلا أن صراخها من الفرحة وارى كلامه.

- شهرزاد، عائشة، ميشيل.

سحبته من ذراعه إلى المدخل، وسدت المصراع صارّاً، ثم قادته عبر الممر المتعرج إلى الساحة الداخلية.

كانت الخادمة السودانية هي أول من التحق بهما.

- يا إلهي. هذا ابن سليمان.

وضعت قبلتين مسموعتين على خديه وشرعت تفحصه من كل الجهات.

- ما شاء الله، قالت وهي تتفحصه بإعجاب. ما شاء الله، لقد أصبحت رجلاً.

اتخذ كريم إهاباً قدرياً.

- لم يكن لي خيار، يا ست عائشة.
ثم سأل بتلقائية:
- كيف حال يوسف أفندي؟ ونبيل؟ أنا. . .
ظلت جملته معلقة، لأن شهرزاد كانت قد برزت على عتبة الساحة.
أراد أن يقول شيئاً، لكن نفَسه خانه. فمنذ اللحظة التي قرر فيها أن يعرّج على الصباح لم يتخيل للحظة، للحظة واحدة أنه سيرى المرأة الشابة على هذه الحال. ذاك الشكل المدور، تلك البطن التي من المفروض أنها مشدودة عن آخرها تحت تنورة الثوب الحريري الصقيل الأسود. . . هل ثمة مجال للشك في حالتها؟ وجد نفسه فجأة بليداً ومخبولاً. ودَّ لو مات خجلاً، على الفور، ولـمَا أغمض أحَدٌ عينيه حتى يحمل معه هذه النظرة إلى الأبد.
- السلام عليك يا ابن سليمان. كيف حالك؟
وجد في نفسه القوة ليجيب:
- وعليك السلام، يا ابنة شديد.
- ستبقى للعشاء، أليس كذلك؟ اقترحت نادية.
- لا يا ست، لا أستطيع.
- لا مجال. سنبقيك مهما يكن.
كرر رفضه بجدية أكثر:
- لا تؤاخذوني. أمامي طريق طويل علي أن أقطعه. ثم إنهم ينتظرونني.
لكن المرأة عقبت مع ذلك:
- لن تبقى للعشاء، لكنه لن يقال بأنك قد غادرت الصباح يداك فارغتان.
ودون أن تترك له فرصة للمعارضة، سحبت عائشة من يدها وانطلقتا نحو المطبخ.
لم تعترض شهرزاد، في الواقع. لم تجرؤ. فالجو الذي كان يحيط بهما كان يبدو وكأنه قد تحول إلى بلور، قد تؤدي أي حركة رعناء إلى كسره.
تحركت، أخيراً، وذهبت للجلوس على كرسي صخري في ظل الإيوان.
- لا تؤاخذني - وأشارت إلى بطنها - أصبح يثقلني.
- أجل. . . أنا. . . كنت أجهل. . . منذ متى أ. . .
- أوانه سبتمبر، إن شاء الله.

ران صمت من جديد. خطا خطوة واتكأ على الجدار. تسلقت عظاية قلقة الجدار نحو السقف.

- كيف حال أبيك؟ ونبيل؟

مررت أصابعها في شعرها الأسود وردت بصوت خفيض قلبها منقبض:

- أنت إذن لا تعلم. لقد غادرانا.

- غادرا؟

- لقد توفيا يا كريم. منذ حوالى سبعة أشهر تقريباً...

- أعذريني، لكن كيف؟ ما الذي حصل لهما؟

- حكم الفرنسيون بالإعدام على نبيل، ولم يستطع الوالد تحمل حزنه.

انزلق إلى الأرض وقرفص محدودب الظهر.

ثم قال مجهداً نفسه في التحكم في اضطراب صوته:

- افتقدتك أنت أيضاً يا أميرة. لذلك جازفت بالمجيء.

- أما تزال مع مراد بك؟

- أجل، وعلي أن ألتحق به. فنحن في طريقنا إلى الإسكندرية.

- كيف حصل ذلك؟ يقال بأنه محكوم عليكم بالبقاء في أعالي مصر.

- هذا صحيح. لكن كل يوم يحمل معه أحداثاً جديدة. الأتراك يوشكون على الوصول إلى الإسكندرية، ومراد يريد أن يلتحق بهم عندما يحين الوقت.

- الباب يستعد إذن لاجتياح مصر؟

- مدعومين بالإنجليز - ثم آتى حركة لامبالاة - على أي حال، هذا ما يقولونه..

- ونبيل المسكين، الذي كان يأمل في تحرير هذه الأرض. أية سخرية هذه. وكأننا - نحن المصريين - ببؤسنا، نملك تحت أقدامنا كنوزاً فريدة حتى تتنازعنا كل هذه الأمم.

رفعت هامتها ونظرت في وجهه مباشرة.

- اعمل على أن تكون - عندما تصبح قبطان باشا - تحت إمرة شخص يحب هذا البلد بالفعل، وليس له من هدف آخر سوى أن يعيده إلى أصحابه.

- هل تعتقدين أن شخصاً مثل هذا يمكن أن يوجد؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

- لا. لكن من يدري؟

ساد الصمت. وكما لو بالرغم منه، سأل:

- زوجك ميشيل... أليس هنا؟

- لن يتأخر. منذ أيام ونحن نفتقر إلى كل شيء. لا بد أن تعرف بأنني آكل أكل ثلاثة أشخاص.

- سيكون طفلاً جميلاً...

- ذكر. أنا متأكدة.

اجتاح، فجأة، امتقاعٌ محيا كريم. بدا وكأنها قد انتبهت إلى ذلك، كما انتبهت لما يجول في خاطره.

- إنه طفل ميشيل، قالت وهي تضغط على الكلمات.

- كيف أمكنك أن تكوني متأكدة؟ نحن..

- لا يا كريم، المرأة تعرف ذلك.

ثم كررت:

- إنه ابن ميشيل.

سرت فيه، فجأة، رغبة لا تقاوم. كانت من القوة بحيث شعر وكأنه يترنح. فمنذ أن شرع يحادثها، لم يفعل هذا النداء إلا أن نما فيه كما ينمو الصبي الذي تحمله. لم يكن الأمر متعلقاً برغبة شهوانية أو ما يشابهها. الأمر أكثر قوة.

خطا نحوها.

- أريد... قال برقة.

قطبت حاجبيها غير فاهمة.

- اطمئني... لا شيء غير لائق. أنا أريد فقط...

ما فائدة التفسير؟ مرر، إذن، كفاً لم يستطع السيطرة على اضطرابها، على بطن شهرزاد، برقة كبيرة. وضع أصابعه مبسوطة على المكان الأكثر بروزاً، وأغمض عينيه. ظل على تلك الحال للحظات طويلة، جامداً، دون أن تبدي هي أي رد فعل. بدا وكأنه يروم تبادل التأثير مع هذه الحياة اللامرئية؛ أن يأخذ وأن يعطي، أن يتيه في نوع من المطلق.

عندما فتح عينيه، كان تعبير ملامحه قد تغير. كان يبدو أكثر هدوءاً وأكثر سعادة.

اعتدل وبدأت كلمات تنزلق من على شفتيه، ما خال يوماً أنه قادر على التلفظ بها:

- أحبك يا أميرة. أحبك. هذا الطفل الذي تحملينه كان ممكناً أن يكون طفلي. لقد فقدته حتى قبل أن أحلم به. لا أدري ما إذا كانت المغفرة موجودة، لكنها حتى لو وجدت، هل يمكننا أن نغفر للقدر إحالته السعادة الحقيقية أمراً مستحيلاً؟

أصبح بلور الهواء مخرماً.

ما عادت قادرة على الحركة وعلى التنفس. كانت عيناها قد ذابتا في عيني كريم، وذاب صوتها في صوته.

خاطرت بمد كفها في اتجاهه. تناولها وتشابكت أصابعهما كما تتشابك أغصان كرمة معبورة بوهج الشمس.

كان صوت ميشيل هو الذي كسر البلور.

انفصلا بصعوبة لا يعرف مقدارها إلا المحبّون. عقدت شهرزاد كفيها على أعلى بطنها، وشرعت تنظر إلى مدخل الساحة ببرود يكاد يكون كهنوتياً.

كان أول رد فعل ميشيل شلهوب هو المفاجأة.

عندما عرف اسم المجهول، انقبضت أساريره.

حاول ما أمكن أن يتحكم في الدم الذي يغلي في عروقه.

تمتم كريم:

- كنت منصرفاً. فقط كنت أشرح للسيدة أن طريقاً طويلاً ينتظرني.

حرك ميشيل رأسه وهو ينقل بصره بين زوجته وكريم. كان وكأنه يحاول أن يقرأ على محييهما علامة، دليلاً ملموساً على الشر. كان الأمر غير أخلاقي، هو يعرف ذلك. لكن الأمر كان أقوى منه.

أوقف وصول نادية مع السودانية سعيه في الوقت المناسب.

كانت تحمل طرداً مملوءاً طعاماً.

مدته لكريم.

- خذ. لن يقال بأن ابن المنزل قد انصرف على الطوى، ويداه فارغتان.

نكست بصرها وأضافت:

- ما كان ليوسف أن يقبل بذلك.

الفصل الثالث والعشرون

عندما نزل السلطان الكبير، خلال الليلة الفاصلة ما بين ٢٣ و ٢٤ يوليو، بأبي قير، أخبر بأن الحصن والمعقل اللذين كانا يراقبان مدخل شبه الجزيرة قد سقطا في يد العدو.

يوم ١١ يوليو هاجمت جيوش مصطفى باشا المعقل والستمائة رجل الذين كانوا يوجدون بالثكنة، فذبحوهم عن آخرهم. أما بالنسبة للحصن الذي كان خاضعاً لنفوذ القبطان فيناشي، فقد سقط يومين بعد ذلك.

ومع ذلك فقد كان ثمة نبأ سعيد في خضم هذا البوار: لم يحاول الأتراك الاقتحام، منذ ١٩ يوليو، رغم أن عددهم كان يصل إلى عشرين ألفاً. اكتفوا ببناء مقدمة جسر، متخلين عن استثمار النصر الذي حققوه خلال الساعات الأولى. لكن هناك، على أي حال، تفسيراً لهذا الإحجام: لم يكن الجيش العثماني متكوّناً سوى من مشاة، لذلك قرر مصطفى بك، آخذاً حذره، انتظار وصول خيالته ودوابه، مع فرقة من المشاة كانت معسكرة بالدردنيل. كما أنه كان يعول على رجال مراد بك الذي تقول الأخبار بأنه قد غادر واحة الخارجة، وهو في الطريق إلى أبي قير.

لكن مراد بك لم يصل بعدُ، إلى حدود هذا الصباح من يوم ٢٥ يوليو. إن مراد لن يأتي أبداً؛ فصعوده المذهل انتهى بأن وضع له حدٌّ من طرف جيوش الجنرال فريانت، على بعد فراسخ من الجيزة.

وعلى العكس من ذلك، فقد حضر بونابرت في الموعد. كان قد استطاع بسرعة فائقة تجميع كل جيش الشرق. استقدم دوزيكس من أعالي مصر، ورداينر من بُلْبَيْس، وكلير من دمياط، وفرقة لانيس ورامبون. ولم يترك بالقاهرة سوى جنود المخزن والجنود العُرج.

كان مورا يسير في المقدمة المكونة من الخيالة ومن فرقة كستينغ ومن أربع قطع مدفعية، فكان المجموع هو ألفين وثلاثمائة رجل. وكان لانيس يقود جهة اليمين مع ألفين وسبعمائة رجل وخمسة مدافع. أما الجنرال دافو، الذي كان قد وصل لتوه، فقد تموقع في الخلف حتى يحول دون انفصال الجيوش عن الإسكندرية.

على مسافة قريبة، كان ممكناً تمييزُ بعض الضباط البريطانيين، وهم يتحركون بين صفوف الجيوش التركية.

أما العميد البحري، فقد كان على ظهر السفينة «تيزي» يراقب تحرك الجيوش بمنظار وملامحه متوترة. كان يبدو قلقاً. ألم يرتكب خطأ بتنصيبه لنفسه، طواعية، مستشاراً حربياً للباشا، وهو المفتقر إلى أية مهارة في مجال المعارك البرية.

ليكن ما يكون.

أخذ مصطفى باشا موقعه على يمين المعقل، فوق ارتفاع أرضي (سيطلق عليه لاحقاً اسم جبل الوزير)، محاطاً بحراسه الشخصيين وبثلاثة صفوف من البيارق.

وأبعد قليلاً، خلفه، كانت تقف مجموعة من الضباط. كان من بينهم رجل بقامة متوسطة، صلب الجسد، تميز محياه جبهة براقة وحاجبان مقوسان كثيفان. بؤبؤاه كستنائيان حيويان، ظاهر الاعتمال، أنفه معقوف قليلاً نحو الأسفل، يغطي شفته العليا شارب دقيق، بشرته أنصع من بشرة باقي الجنود الذين يحيطون به، لأن دماء ألبانية تجري في عروقه، عمره يقارب الثلاثين، ويسمّى محمد علي، رتبته: بكباشي.

كان تعبير كثيف يسكن عينيه. في أي شيء كان يفكر خلال هذه الثواني الأخيرة التي تسبق معركة يشعر بأنها لن تُبقي ولن تذر؟ ربما كان يفكر في عمه طوسون الذي احتضنه بعد وفاة والده، أو ربما في صديق عمه شوربجي براوستا الذي رباه، بعد وفاة طوسون، والذي ما يزال يعتبره حتى الآن ابناً حقيقياً له. أم لعله يكون يفكر في رقة القرية التي فتح فيها عينيه؟ قرية كفايا، ذاك المرسى الذي يقع على بحر إيجه، على خاصرة شاطئ مقدونيا. وربما قد يكون تفكيره منصباً أيضاً على زوجته التي تنتظره، هناك، إلى جانب طفليهما.

كان بإمكان محمد علي أن يرى، من مكانه ذاك، كل المشهد. . .

رغم أنه لم يسبق له أن شاهد ذلك الشخص الذي يذرع، على صهوة فرسه الأبيض، الصفوف الأمامية للعدو، فإنه يعرفه. لقد وصفوه له. لا يمكن أن يكون إلا هو. الجنرال بونابرت.

شعر تجاهه بتقدير وهو يشاهد ذهابه وإيابه العصبي. فهما معاً يملكان قواسم مشتركة، إذ ولدا في السنة نفسها. ومحمد متأكد أن للفرنسي طموحات شخص آخر، فاتح من زمن آخر، وهو الإسكندر الأكبر.

والإسكندر قد ولد مثله، هو محمد علي، بمقدونيا.

بونابرت، الإسكندر. . .

رغم أن محمد علي لم يكن، حتى تلك اللحظة، سوى بكباشي ضائع ضمن الجيوش الألبانية، واعتماداً على ذلك الحدس الذي يسكن عادة بعض الأشخاص الذين فضلهم الله على غيرهم - فإنه كان على يقين من أن اسمه سيلتحق يوماً بالاسمين الآخرين. هو متأكد من ذلك، مثلما هو متأكد من جريان الشمس الحثيث.

دوت البطاريات الفرنسية.

أجابتها المدافع التركية.

هاجمت وحدات المشاة بعضها بعضاً.

كان الجيشان يكران ويفران في شكل أمواج.

مشاة مصطفى باشا شجعان، غير أن المهارة تخونهم.

جاء دور الخيالة الفرنسية لدحرهم.

جمع مورا بأمر من الجنرال القائد خيالته وخطب فيهم محمِّساً.

تصادم عنيف.

تراجع رجال مصطفى باشا بسرعة نحو البحر.

كان مورا يعارك بحماس منقطع النظير، سعيداً للغاية بكونه قادراً، أخيراً، على تصريف طاقته، هو الذي كان قاعداً على مضض، منذ بداية هذه الحملة.

قذف التصادم الجديد، هذه المرة، بالأتراك إلى البحر. سيطر عليهم الرعب. لم يبق أمامهم سوى الارتماء في البحر، محاولين الالتحاق، سباحة،

بالسفن. فشلت غالبيهم في ذلك، وطفت، بعد حين، آلاف الجثث على سطح الماء، حيث اختلط الزبد بالدم.

انقذف الجنرال لاتوس بدوره مهاجماً وسط الجبهة، وتوغل فيها. تبلبلت صفوف المشاة، وعَدَوا بدورهم نحو الشاطئ.

ساعة قتال واحدة، وقد قتل ثمانية آلاف تركي، وغنم الفرنسيون ثمانية عشر مدفعاً وثلاثين صندوقاً وخمسين بيرقاً بالألوان العثمانية.

كان محمد ما يزال إلى جانب مصطفى باشا. كان يعلم منذ اللحظة الأولى أن النصر لن يكون حليفهم.

لكن ما الذي ينتظره الفرنسي كي يهاجم جبل الوزير وينهي الأمر؟

كان بونابرت، أسفل، يراقبه بمنظاره.

رغم انتصار لانوس، فإنه كان يقدر أنه من المستحيل مهاجمة جبهة المعقل. كان الموقع شديد الصلابة.

تقدمت الجيوش على يمينه ويساره في شكل نصف دائرة، نحو البحر، مدعومة بمدفعية، ويغطي تنقلها سبعة عشر مدفعاً ميدانياً.

وبفضل مهارته المعتادة في تعرية ساحة المعركة، لاحظ أن شاطئ أبي قير يشكل، شرقاً، ما يشبه مهمازاً. شاطئ خالٍ، وبوضع قطعة مدفعية هناك، سيكون بالإمكان أخذ كل يسار جيش العدو من الخلف.

أمر على الفور الكولونيل كريتان ليتموقع هناك.

نزلت أول قذيفة لتنفجر على بعد خطوات من محمد.

وعلى الفور أمطر الموقع التركي بالنار.

انبطح محمد على الأرض، متحاشياً بالكاد انفجار قذيفة. عندما عاد إلى الوقوف، كاد يكون وحيداً.

بأمر من الباشا كان المشاة قد انثنوا مبتعدين عن متناول المدافع.

أسرع محمد نحو قائده. حاول أن يفهمه في خضم تلك المعركة الرهيبة، بأن هذا التراجع خطأ، وأنه من الواجب الاحتفاظ بهذا الجبل أيّاً ما تكن النتيجة. لكن، من بإمكانه، وسط هذه البلبلة، أن يفكر في أخذ نصائح بكباشي مأخذ جد؟

فتح تراجع الأتراك كوة من فرسخ، جهة اليسار. سارع إليها مورا مثل

العاصفة، هو الذي كان يعتبر هذا اليوم يوم عيد بالنسبة إليه. تبعه لانيس وغاص في العمق مباشرة نحو مخيم الباشا.

وفي لحظة، كانت كل أنحاء شبه الجزيرة قد أضحت منذورة لمجزرة.

قاوم محمد بقوة اليائس. لم يكن عاد إلى جانبه سوى حوالى مائة من الألبان.

شهر فارسٌ عدو، عبر ستارة من دخان، سيفه وهاجم مصطفى باشا. لم يتردد هذا الأخير، المجروح، في المواجهة. امتشق سيفه وسار نحوه مهاجماً، قاصداً الوجه.

بأعجوبة، لم يصب مورا، إلا في أسفل ذقنه، فرفع سيفه، وسقط منه فقطع إصبعين من أصابع خصمه. ترنح الباشا أرضاً، فحوصر وأسر على الفور.

كان محمد علي، الذي حضر المشهد، عاجزاً. كان يعلم أن نهاية المعركة لن تكون سوى مجزرة. كان الأعداء ينتشرون في كل مكان ينقل إليه بصره.

قاوم، مع ذلك، بشجاعة، إلى اللحظة التي وجد فيها نفسه ظهره إلى البحر.

جرحته ضربة سيف في ذراعه وأخرى في ثنية فخذه.

ارتمى في البحر.

لا مجال لأن يتوقف مصيره هذا اليوم في أبي قير. سبح في خضم طلقات نارية وقذائف. كان يصطدم بجثث، فيزيحها. لم تعد زوارق الإنقاذ بعيدة. استطاع - لاهثاً، قلبه على حافة شفتيه - أن يتسلق أحدها، فحمله إلى الأسطول.

كان - وهو متكئ على دربزين السفينة المغادرة - يخمن أكثر مما يرى، الجيش الفرنسي يتقاسم المائة بيرق وقطع مدفعية الميدان وكل الخيام والأربعمائة فرس المتروكة على الشاطئ.

كان قلبه يتمزق من رؤية ستمائة إلى سبعمائة من رفاقه طافين على الماء. والغريب أنه - عوض أن يشعر بمرارة - غمره شعور بتقدير الخصم. كان الفرنسي هو الأقوى.

الإسكندر، بونابرت، وفي يوم من الأيام، هو أيضاً: محمد علي.

تنفس بعمق، فدلف الهواء إلى رئتيه. هو يحب سلفاً هذه الروائح التي تنبعث من أرض مصر، والتي تجتاحه كلية.

هو يحب نخيلها المتمايل مع الريح، وصفوف كثبانها وصوامع الإسكندرية التي تذكره بكفايا بقوة.

سيعود ذات يوم، هذا مؤكد.

* * *

خلال ذلك، كان شخص آخر يستعد للانصراف.

كان الليل قد خيم على أبي قير.

كان الجنرال القائد قاعداً على طبل يقرأ، على ضوء المشاعل، للمرة الثالثة حزمة الجرائد التي أمده بها العميد البحري سيدني سميث، قبل أن يعود إلى سفينته.

كانت جرائدُ إنجليزية، مع أعداد أبريل ومايو ويونيو من «الجريدة الفرنسية لفرانكفورت».

كانت المقالات بالنسبة إليه - وقد ظل لما يقارب الستة أشهر على غير علم بأخبار أوروبا - مؤسية. كان ما اكتشفه بها يثبطه بقوة.

كيف أمكن لذلك أن يحصل؟ في الوقت الذي كان هو - بونابرت - تُسبَل عليه أردية المجد بمصر. كانت حكومة التدبير تنتقل من هزيمة إلى أخرى.

حتى كليبر، الذي كان قد عاد من عكا أكمد المحيا، صرخ أمام الجميع: «جنرال، اسمح لي بأن أقبلك، فأنت عظيم مثل الدنيا».

وهنا، بين هذه السطور، ما الذي يطلع عليه؟ ضاعت إيطاليا. الجيوش الروسية والنمساوية هزمت جوردان على الدانوب وشيرر على الأديج ومور على الأدا. ما عاد ثمة وجود للجمهورية السيزالبية. كان ستون ألفاً من القوقاز، يقودهم سوفوروف، قد وصلوا إلى مشارف الألب، وكانت «فيندي» تشهد تمرداً.

- متكلمون طيبون شجعان. هم آخذون يضيعون فرنسا، وقد آن الأوان لأنقذها.

كان فرانسوا بيرنويي يستمع للجنرال القائد وهو يفكر بصوت مرتفع. كان

يثب، وهو يذهب ويجيء، كفاه معقودتان خلف ظهره. كل شيء يدل على أن الرجل مقبل على اتخاذ قرار خطير. وفجأة دلف إلى الخيمة واستدعى كاتبه الخاص بوريان، والعميد البحري غانطوم، الذي كان ما يزال يعيش تلك الذكريات الساخنة مع سميرة شديد.

– ها أنت ترى يا بوريان، حدسي لم يخب. كل شيء ينتهي. ضاعت إيطاليا.

اقترب بيرنويي وأصاخ السمع.

– بؤساء. كل نتائج انتصاراتنا ضاعت. ماذا عسى هؤلاء الأشخاص العاجزون أن يفعلوه وهم يديرون شؤون البلاد؟ علينا ألا ننتظر حتى لا يصبح الدمار عاماً. ستكون الحال آنذاك غير قابلة للإصلاح.

لكن ما الذي تريد أن تقوله؟ فكر بيرنويي.

– إن حضوري هناك واستنهاضي للهمم سيعيدان للجيش الثقة التي افتقدها. علي أن أنقذ الوطن من جنون الغرباء وجنون أبنائه. علي أن أعود.

أيها الجنرال، هل فقدان إيطاليا هو ما يؤلمك، وتمرد فيندي هو ما يغضبك إلى هذا الحد؟ أم محاولة الاستيلاء، أخيراً على هذه السلطة التي طالما تُقت إليها؟ والحق أنه ما عاد لك شيء تقوم به في مصر، منذ أن خبا خيالك أمام متارس عكا.

– سأطرد تلك الطغمة من المحامين الذين يستهزئون بنا، والعاجزين عن قيادة الجمهورية. سأترأس الحكومة. سأعود.

ماذا يا جنرال؟ تغادر مصر؟ مثل هارب تافه؟ هل تنسى ضرورة الثقة التي توحي بها إلى جنودك كي يتبعوك- كما سبق لهم أن فعلوا – إلى ما وراء البحار نحو هدف مجهول؟ نحو أصقاع كانت غالبيتهم تجهل اسمها؟ هل نسيت وعدك بأنك في نهاية الحملة ستسلمنا ما به نؤدي ثمن ستة فدادين من الأرض؟ هل نسيت أن أجورنا، إلى يومنا هذا، متأخرة لسبعة أشهر؟

– إن حالة أوروبا تحتم علي أن أتخذ قرارات هامة، علي أن أعود.

ماذا يا جنرال؟ وهذا الجيش الذي خطط، غير ما مرة، لخلع البيارق والعَدْو إلى السفن، والذي أحجم عن ذلك خشية مجابهتك، هل تتخلى عنه؟

– غانطوم. أسلمك زمام قدري. ستعيدني إلى فرنسا.

هل ستكون قادراً على التخلي عن جيش ضعيف، منهك؟ وأنت الذي يعرف أكثر من أيٍّ كان أنه كلما أتيح لنا نصر، كنا نضعف بالقدر نفسه. لقد نخرتنا انتصاراتنا. لقد كلفتنا انتصاراتك غالياً. تذكر الكلمات الساخرة التي وجهها إليك كليبر: «لو كنت مكان عدوك لمنحتك نصراً كل يوم.» في غضون أشهر سيمحى وجود الهيئة البعثية. ستمتصه رمال النيل كما تمتص شتاء الخريف.

- وفوق ذلك يا غانطوم، فإن حظي سيحمينا، وسنصل رغم السفن الإنجليزية.

جنرال. هذا قرار. ولا شيء سيغفر لك مغادرة شاطئ النيل وتكليف شخص آخر بمهمة إتمام بعثة مغامرة، كنت أنت صاحبها.

- ستستأجر السفينتين «مويرون» و «كارير»... سأبعث لك الأعلام والبيارق التركية التي استولينا عليها بسوريا وأبي قير. سأنصرف.

هل تفكر على الأقل في إخبار الجيش؟

- يجب أن لا يعلم أحد بانصرافي. لا أحد سوى الذين سيرافقونني.

أنت، يا بطل إيطاليا وإمبابة، واليوم أبي قير، لا تجرؤ على مجابهة من ستتخلى عنهم.

- سأتذكرهم. سأتذكر شجعاني المخلصين إلي.

سيسعدون بذلك، أيها الجنرال، كما سعدوا بفعل كفاريللي المسكين، الذي مات من أجل لا شيء، أمام عكا. وما دمت تهرب، فأنت تعترف، في الآن نفسه، بالطابع الطوباوي الصرف لبعثة مصر، وبالاستحالة التامة لقيادتها إلى نهاية جيدة. أقول لك، أيها الجنرال، إن ذلك يشكل عملاً شائناً، خيانة دنيئة، وجبناً فاضحاً. إن ذلك الحماس الوطني الجامح، الذي يبدو، في الظاهر، أنه يحرككم، لا يخفي في الحقيقة سوى مرض الطموح. إبحار سعيد أيها الجنرال. لكنني أرثي بقوة لحال الذي ستسلمه المشعل.

* * *

نفخت شهرزاد على الشموع الاثنتين والعشرين وانتصبت، بادياً عليها بعض التأثر.

إن يوم ٢٧ يوليو لهذا العام، لا يشبه في شيء سابقيه. كانت مثل أمها ما

تزال تعيش الحداد، فلم ترغب لا في بذخ ولا في ضيوف. كان كل الحاضرين هم أبوَي ميشيل، أميرة وجورج شلهوب اللذين عادا، على حين غرة، من المنيا. كانا قد قررا لأسباب لم يفهمها أحد، أن يغادرا مصر إلى إيطاليا، وقد رأيا - غير مُحِقَّيْنِ بالتأكيد - أن لم يعد لهما شيء يبقيهما في هذا البلد؛ لا ابنهما ميشيل ولا حفيدهما المنتظر، وأنهما سيعودان يوماً ما، لاحقاً، عندما تكون الأوضاع أكثر هدوءاً.

الغريبة الوحيدة عن العائلة كانت هي الست نفيسة.

البيضاء بدورها كانت تجتاز محناً صعبة.

لم تكن لديها أخبار عن زوجها منذ «حوارها» الغريب معه ليلة ١٣. لقد اختفى مراد في مكان ما من واحات مصر العليا. غير أن البيضاء استطاعت مع ذلك أن تستمر في التحمل بشجاعة وبإخلاص مثاليين.

صفقت بحرارة، ووضعت قبلة على جبهة شهرزاد.

- عقبى لإطفاء شمعات سنواتك الألف، يا عزيزتي. أتمنى لك أن يمحي كل يوم من أيام السنة القادمة أحزان تلك التي مضت.

- يسمع الله منك يا ست نفيسة. أعتقد أننا جميعاً في حاجة لأن تتحقق أمنياتك. كلنا.

ضغطت عمداً على هذه الكلمة الأخيرة وهي تنظر إلى أمها. فخلف تعبير وجهها الهادئ، والذي كانت تعمد إلى إظهاره للجميع، كان ممكناً التكهن بأن هذا اليوم، بالنسبة إليها، ليس سوى أمسية حزينة تلتحق بمكانها ضمن الأخريات.

اقتربت شهرزاد من أمها واحتضنتها برقة. ما كان الكلام ليجدي في شيء. فهما معاً تعرفان ما الذي ينقص عيد الميلاد هذا كي يكون بشاكلة أخرى. كان قصر الصباح قد فتحت أبوابه منذ يناير أمام الصحراء، فدلفت البيداء داخلها. ورغم أن ماء ورد الياسمين والغاردنيا كان يُعصر، فإنه لم يكن ينبعث منه سوى روائح خرساء.

* * *

تناولت سميرة كف غانطوم وقبلتها بتقدير ظاهر. كانت تعتقد أنها تعيش حلماً على قدر من جنون. كان رأسها يدور، فسألت من جديد ملحة:

- هل أنت متأكد من قرارك؟ أتريدني فعلاً أن أصحبك؟

- نعم يا حياتي. أنا مصر على ذلك. وعلى أي حال، وحسب ما أستشعره، فإن هذا البلد لن يعرف ظروفاً أحسن من هذه، وليس لكما، أنت والطفل، أي مستقبل فيها.

- متى سيكون ذلك؟

- في غضون أسبوعين او ثلاثة، على ما أعتقد. هذا متعلق بالسفن التركية والإنجليزية؛ فما دامت راسية بميناء أبي قير، سيكون الإبحار مستحيلاً. إن الخطر محدق، ويجب تحين الفرصة المناسبة.

فرنسا... نهاية العالم.

هي، ابنة شديد، في أحضان عميد بحري في عاصمة أوروبا. زبيدة، هذه المرة، هي التي لا تصدق عينيها. ومع ذلك، فثمة تفصيل يقلقها ويشوش عليها سعادتها. فأونوري لم يحدثها البتة عن الزواج. أي مستقبل إذن يتصوره لعلاقتهما؟ ما سيكون وضعها هناك، بباريس؟ من ستكون؟ عشيقة، خليلة؟ فهو متزوج وأب لطفلين. وإذن...

كانت الكلمات تحرق شفتيها، فكفت عن التفكير في ذلك. فلو صدر عنها كلام غير لائق، لو أفرطت في الضغط، قد تقسو عليه، وقد تفقد، في لحظة، ما كان يبدو لها على أنه فرصة عمرها. هذا فضلاً عن أن هذا الطلب كان يحمل في طياته أمراً فريداً؛ فإن كان أونوري صادقاً، فإن حتى الجنرال القائد لن يصحب معه الصغيرة بولين. وأكثر من ذلك، فإنه لا علم لها بهذا الانصراف العظيم.

- طيب ياحبيبي، سأصحبك ما دامت تلك إرادتك.

* * *

«لقد استدعتني الحكومة للالتحاق بها. ويجب على الجنرال كليبر أن يتحمل القيادة العامة لجيش الشرق.

الإمضاء: بونابرت.»

مختصر وواضح.

دعك جان بابتيست كليبر، بحركة عصبية، رسالة الجنرال القائد. كان

يشع في نظرته، الوديعة في العادة، لهيب مستعر، عوض أن يكدر جمال قسماته، أحالها أكثر جمالاً.

تقدم بضع خطوات نحو النافذة، وشرع يتأمل المرسى القديم ومدخل الضريح. مرت صور مخاتلة أمام ناظريه. فتات متناثر من هذا الموزاييك المصري؛ هذه الحملة التي ما عادت، في لحظة، سوى سُخْفٍ لا حد له.

دار حول نفسه، فجأة، وركز عينيه في عيني الطبيب الرئيس ديسجونيت.

- هكذا الأمر إذن... دون أن أستطيع الدفاع عن نفسي، ها أنذا مع مصر وجهاً لوجه... جاء الصاع متأخراً... لقد فقد السكان عادة الأداء، ورجلنا ينصرف في حمأة هذه الظروف موقداً النار في التبن، مثل ملازم يملأ مقاهي الثكنة جلبة بديونه وطيشه. هذا مثال جيد... يا ديسجونيت.

كان يتحدث بصوت منخفض، لكن الهياج الكامن في كلامه كان يوحي بشراسة تبدو أكثر قوة مما لو كان قد احتقن وجهه. إنه هياج جامد وفوار.

التفت نحو مينو، الذي أصبح أشهر من عبد الله مينو، وسأل:

- هكذا، كنت تعرف...

- أمس فقط. طلب مني موعداً بالرحمانية، عند الحنفية، في المكان نفسه الذي كانت توجد فيه القيادة العامة يوم معركة أبي قير. كان أول سؤال طرحته عليه هو:

«إلى أين ستذهب يا جنرال؟»

- أجابك؟

- «إلى فرنسا»

- ثم؟

- عقبت: «هل تعرف؟ هل تعرف أنك ضروري بالنسبة إلينا هنا؟» أجاب دون تلكؤ: «سأكون ضرورياً هناك أكثر».

أصبح كليبر أكثر احتداداً، فأخذ وثيقة أخرى كانت موضوعة على المكتب ولوح بها أمام أنظار مينو.

- هذا أمر عسكري موجه إلى ديوان القاهرة. هل قرأته؟

حرك الرجل رأسه.

- «بما أنني قد أُخطرت بأن أسطولي جاهز، وبأن جيشاً رائعاً»، اعتلت

شفتي كليبر ابتسامة استهزاء، وكرر لنفسه: جيش رائع... «على متنه؛ وبما أنني مقتنع كما قلت لكم ذلك دائماً، بأنني ما لم أضرب ضربة تهشم، في الآن نفسه، كل رؤوس أعدائي، فإنني لن أنعم بالسكينة والهدوء في مصر، أجمل بقاع الدنيا - قررت أن أكون على رأس أسطولي، تاركاً القيادة في غيابي للجنرال كليبر، الرجلِ ذي الكفاءة المتميزة، والذي أمرته بأن تكون صداقته للعلماء وللشيوخ مثيلة صداقتي لهم...»

- الرجل ذو الكفاءة المتميزة.

أصدر ضحكة صغيرة.

- الذي لم يستطع حتى مواجهته... بضع كلمات مخطوطة على عجل...

خاطر ديسجونيت بالسؤال، خجِلاً:

- ماذا تنوي، أيها الجنرال القائد، قوله للرجال؟

بمجرد تلفظه للسؤال، جن جنون كليبر الذي كان كامناً فيه. ضرب بقبضته على المكتب. بدا الألزاسي الذي كان، أصلاً طويل القامة، أكثر طولاً.

- ما سأقوله لهم..

هذه المرة انفجر صراحة:

- «يا أصدقائي، هذا المخنث قد ترك لنا هنا ملابسه الداخلية ملطخة بالبراز، وسنعود لأوروبا كي نقذفها له على وجهه. هذا ما سأقوله.»

الفصل الرابع والعشرون

مصر ٨ مارس ١٨٠٠

- يا إلهي كم هو أكُول. هو صورة طبق الأصل من أمه.

ردت شهرزاد على كلام أمها ببسمة شاردة، دون أن تفارق عيناها الكائن الصغير الذي يمتص ثديها. صبي ذكر - كما خمنت - ولد منذ خمسة أشهر. منذ خمسة أشهر وهي تتنفسه، تعيشه.

على عكس ما كان منتظراً، وضعت شهرزاد دون مصاعب تذكر، فولدت يوسف. لكن مع ذلك كان الخوف قد استبد بها إلى آخر لحظة. مع اقتراب تشنجات الوضع، أصبحت الآلام أكثر حدة، وشرعت رؤى من ساحة معركة إمبابة ومن النيل المشتعل، تميل فوقها مثل عفاريت مسنة.

يوسف. . . لقد انغلقت الدائرة.

فصلت الطفل عن ثديها، محتفظة به مضغوطاً إلى قلبها.

- أتريدين أن أحمله قليلاً؟ اقترحت نادية.

لم تتردد شهرزاد إلا قليلاً، فوافقت.

- سأنيمه. لا تقلقي. قالت الأم.

تبادلت المرأتان نظرة خاصة، هي نوع من الحوار الأخرس الذي يبدو أنهما وحدهما يعرفان شفرته.

- سأذهب لأهيئ قهوة، قالت شهرزاد وهي تتناول شالاً وتضعه بسرعة على كتفيها.

وبمجرد تجاوزها للعتبة، تناهت إلى سمعها أولى كلمات تهويدة إنامة

الصبيان، قديمة قدم مصر. هي التهويدة نفسها، بالتأكيد، التي داعبت خيالها هي قبل إحدى وعشرين سنة.

عندما وصلت إلى أسفل السلم، توقفت وأصاخت السمع. عندما سمعت صوت مقعد يُجَر على الأرض، علمت أن ميشيل يوجد بالمطبخ. ما كانت تشعر بأنها قادرة على مواجهته. ستكون في الخارج أحسن حالاً.

ارتعشت من الهواء، الذي كان، مع ذلك، منعشاً. انكمشت بعض الشيء حول نفسها ووسعت من خطوها وهي تحكم أهداب شالها على صدرها.

لكن ما الذي يحصل لها؟ من أين أصابتها هذه الرغبة في الفرار؟ هل يمكن لوضع صبي أن يتلف العقل؟ ففي اللحظة التي خرج فيها يوسف من رحمها، أعقب شعورٌ بالفراغ الشعورَ الأول بالسعادة؛ كان كيانها قد أصبح سهلاً قاحلاً. وقد انضاف إلى ذلك تنكرها لذاتها مدعوماً برفضها لجسدها. كانت شرعت تنظر إلى نفسها، منذ سبتمبر، على أنها عجوز، لا فائدة منها، وشرعت تكره المرايا. وماذا لو كانت بإفراغها لمائها قد فقدت جزءاً من كيانها ومن علة وجودها؟

لو كانت أيضاً تستطيع مع ميشيل تفريغ رغباتها العميقة. فقط هذا الحب البارد، المتعقل، الذي يحمل في طياته التأكيد العنيد لعقدة ذنبها؛ عقدتها هي. ذلك أن زوجها، إن كانت تريد أن تبقى منطقية مع نفسها، لم يكن يتحمل أي مسؤولية في أن لا يكون إلا كما هو، وفي أن لا يستطيع تقديم ما يفتقر إليه هو نفسه.

في خضم اعتمال أفكارها المتضاربة، عبرت ذهنها ذكرى سميرة، مضيفة مرارة إلى مرارة.

أتى عسكري فرنسي إلى الصباح، في حوالى متم شهر أغسطس، حاملاً رسالة. تتضمن باختصار نبأ مغادرة المرأة الشابة إلى فرنسا. التقت بعميد بحري وسيتزوجان.

وصلت شهرزاد بعد مرور الصدمة الأولى إلى خلاصة مفادها أن سميرة هي أسعدهما، وهي التي قال عنها ميشيل بأنها تملك عقل صخر. لكن ألا تعيش حياتها؟ ألم تغرف من لذائذ الحياة، غير عابئة بأن تكون الفاكهة حامضة

أم لا؟ كانت تحلّق، متشبثة بصلابة بقناعاتها، في الوقت الذي لم تكن، هي شهرزاد، منذ زواجها، تفعل إلا أن تلامس الوقت، بلا زيادة ولا نقصان. كانت تلامسه كما لامست بشرة كريم، لساعة من الزمن.

وماذا لو انصرفت، لو غادرت كل شيء؟

آه لو كانت لها الشجاعة الكاملة. . . .

كم مرة رأت في منامها أنها تضاجع ابن سليمان. صور ملتهبة ليست لها أية علاقة بهذه الحياة الجنسية المتحفظة اللقيطة التي كانت تعيشها مع ميشيل. كان جسداهما يلتقيان في أوضاع فاحشة، بنوع من العنف، من الغريب أنه خال من الرقة. وعندما تفيق في الصباح وتجد أسفل بطنها عائماً، غارقاً، كانت تنكمش على نفسها ساجنة عارها.

غير أنها تعلم أن الحقيقة تختلف كلية عن الأحلام؛ فلم يكن قد تم شيء من هذا في كوخ الطوب، غير مضاجعة لم تشف غليلها. وإذن. . . أين تكمن الحقيقة؟

انتزعت ساخرة غصناً ميتاً وضغطته بين أصابعها حتى كادت تكسر سلامها. انتشلتها حركة دواب من أفكارها. التفتت جهة مدخل القصر فتعرفت فوراً على طاقم البيضاء. رجل في حوالى الستين من عمره جالس إلى جانبها، لم يسبق لها أن رأته من قبل.

- يا أهلاً، قالت وهي تؤتي حركات ترحيب عريضة.

ترجلت زوجة مراد وهي تمد ذراعيها في اتجاه شهرزاد.

- أنت دائماً فاتنة يا قمري.

- أنت طيبة للغاية يا ستي؛ فأنا لم أكن يوماً أشد قبحاً من اليوم.

اعتملت قسمات نفيسة مستنكرة. التفتت إلى الذي كان يرافقها، وأشهدته:

- اسمع يا بوشامب، هذا هو الجحود عينه. إنه الشباب. آه على الشباب. أنظر - أمسكت بشهرزاد من كتفها وأرغمتها على الاستدارة -، أنظر. هل سبق لك أن رأيت أجمل من هذه المخلوقة؟ هيه، أجبني.

تابعت، لكن بنبرة مختلفة:

- أقدّم لك العزيزة ابنة شديد، رحمه الله.

ثم لشهرزاد:

- السيد بوشامب. فلكي كبير. هو أيضاً أحد أعضاء ذلك التجمع النبيل للعلماء والفنانين. معهد مصر. لقد سمعت به، أليس كذلك؟

سلم الرجل النحيف الطويل عليها.

- هو بالخصوص أحد أفراد الفريق الجديد الذي يحيط بالجنرال كليبر، الذي يبدو لي - وأسارع بقول ذلك - أكثر إنسانية من مواطنه بونابرت، الذي أدعو إلى الله أن يبقيه بعيداً عنا...

قطعت كلامها فجأة، وسألت:

- ميشيل موجود بالبيت؟

- بالطبع. هل ثمة شيء؟

- لا شيء غير أخبار سارة. سارة جداً.

ودون أن تنتظر، تقدمت نحو البيت.

* * *

عندما أنهى بوشامب حديثه، انسرحت أسارير ميشيل. نادية، بدورها، رفعت عينيها نحو السماء وشفتاها تتمتمان بكلمات بدت وكأنها إشارات شكر.

- لكم الشكر يا سيدي - قال زوج شهرزاد بامتنان - على تفهمكم.

آتى الفرنسي ابتسامة متصنعة وأشار إلى الست نفيسة.

- آه. لعلمك، فإن دوري محدود في هذه النهاية السعيدة. السيدة هي التي قامت بكل شيء. أما أنا فلم أكن سوى وسيط بسيط.

- لكن فعالٌ للغاية، يا سيدي، عقبت البيضاء، وكنت بالخصوص نزيهاً.

مالت شهرزاد على خد نفيسة ورسمت عليه قبلة مسموعة.

- لقد كنت كالعادة غاية في اللطف.

كانت نادية - الجالسة عن بعد قريب - تتابع المشهد بتأثر. همست بخجل:

- الأمر مؤكد إذن... سيعفوننا من الضريبة...

- انسي هذه الكلمة، قالت نفيسة. ألقي بها إلى الصحراء. لن تؤدي قرشاً واحداً.

قال ميشيل بجدية أكبر:

- الآن وقد انتهى كل شيء، اعترفوا أن هذه الضريبة التي تبلغ خمسة في المائة، والتي كانت تفرضها علينا السلطات الفرنسية، كانت في أقل تقدير ظالمة. كنا بالتأكيد سنؤديها، لكن...

خاطبت شهرزاد بدورها بوشامب:

- زوجي محق. غير أنني أعترف بأنني لم أفهم شيئاً من هذا الإجراء الجديد. ألن تفرض ضريبة على الصباح بعد شهرين من قدومك؟ إنني أتذكر كل الصعوبات التي تكبدها والدي كي يثبت للجباة الأقباط أن هذه الأرض هي أرضنا بالفعل، وليست في ملكية بك من البكوات. كان من الضروري الحصول على آثار في السجلات، مما كبدنا أموالاً طائلة. وكان علينا أيضاً أن نؤدي ضريبة بعد التثبت. بعد ذلك، أتى خبير ليقدر قيمة العقار فأرغمونا على أداء اثنين في المائة من قيمتها. وإذن... لماذا كانوا يريدون أن يفرضوا علينا ضريبة جديدة؟

مسد الفلكي شاربه، منزعجاً.

- ذلك أنه... كيف أقول لكم؟

بدا وكأنه يبحث عن سند لدى نفيسة، التي سارعت إلى التأكيد:

- إنهم أصدقاء. أصدقاء حقيقيون. لا علاقة لهم بأولئك الذين تحاربونهم. وفضلاً عن ذلك، فهم مسيحيون مثلكم. يمكنكم أن تحدثوهم عن كل شيء.

تشجع بوشامب وشرع يتكلم:

- اعلموا إذن بأن الأحوال ليست على ما يرام. لقد خلّف الجنرال بونابرت وراءه وضعية دراماتيكية. فرغم ملايين الجنيهات الثمانمائة المحصلة خلال السنة الفارطة، فإن الصناديق فارغة. في ذمتنا أكثر من أربعة ملايين كأجور لم تُدفع بعد، ونحن في حاجة إلى ستة أخرى إضافية كي نستدرك العجز. لقد حطمت الحروب غالبية السفن التي تستعمل في نقل الزروع عبر النيل. وفائض مصر العليا غير قابل، في غالبيته، لأن ينقل إلى الشمال. وفضلاً عن ذلك، فإن الفيضان الأخير قد تجاوز المستوى العادي، مما يعني أراضيَ أقل للفلاحة خلال الموسم المقبل. وقد كف الممّونون الأوروبيون والمصريون عن بيعنا - بثمن أقل

من التكلفة - المعدات الأساسية للجيش. كما أنه لم يعد للخيل سوى كميات قليلة من الشعير والتبن، فهي إذن معرضة للاختفاء. ليس للمدفعية بارود، وليس للجنود أحذية بديلة. وأكثر من ذلك، فإن المحاجر الصحية توجد في وضعية تدعو إلى الرثاء بسبب انعدام الإمكانات.

- أشياء كثيرة يا سيدي. قالت نادية بصوت بارد.

فحصها بوشامب مفاجأ بعض الشيء:

- ماذا تقصدين سيدتي؟

- أنت الآن بين عائلة شاهدت موت أب وابن. ابن في الثلاثين من عمره، أعيد إلينا مقطوع الرأس. وعجوز يموت غماً. وإذن، أعذرني يا سيدي، فإن بقاء جنودكم دون أجور ودون أحذية، ليس بشيء ذي بال. . .

ما كادت تنهي كلامها حتى انفجرت باكية. سارعت شهرزاد نحوها.

- ماما. . هذا أصبح من الماضي. . تعالي. . . تعالي معي.

اعتذرت للآخرين وقادت أمها إلى الداخل.

بدا بوشامب مضطرباً من الحادث. بعد لحظة سُمِعَ يقول:

- سامحوني. كنت أجهل كل شيء عن هذه المأساة الفظيعة.

- ما كان بإمكانك أن تعرف. إن لائحة قتلى هذه الحرب طويلة. . . لا. اطمئن. لا دخل لك في هذا.

- هذا لا يمنع. . . إنه أمر مرعب.

- في غضون ثلاثة أشهر، أو بعد ذلك، كل هذا سيصبح من الذكريات، بالنسبة إليك كما بالنسبة إلينا.

قال بوشامب بصوت ضعيف:

- أتمنى ذلك يا سيدة نفيسة، أتمنى ذلك. . .

- آسف، لكنني لا أفهمك، قال ميشيل حائراً. لماذا تقولين بأنه في غضون ثلاثة أشهر سينتهي كل شيء؟ فالجيش الفرنسي حسب علمي ما يزال يحتل مصر، ومنذ زمن قريب صُدَّ إنزال ثانٍ للعثمانيين بنجاح فائق. . . وإذن؟

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتي البيضاء.

- هل أنت مستعد للاستماع؟ سيكون السيد بوشامب سعيداً بأن يفسر لك كل شيء. أليس كذلك يا سيد بوشامب؟

اعتدل الفرنسي في أريكته، وشرع يتكلم بصوت رصين:

- قد تكون على علم، مثل كل الناس بالقاهرة، بأن العريش، المركز الأكثر تقدماً للجيش الفرنسي، قد سقط في أيدي الأتراك.

- لا علم لي البتة. . . متى حصل ذلك؟

- منذ حوالى ثلاثة أشهر. يوم ٢٣ ديسمبر. لقد كان يوماً حزيناً، سيبقى موشوماً في ذاكرة كل من شهده. فخلال ساعات، اجتاح جيش عثماني يقوده رجب باشا، الحصن وقتل غالبية المدافعين عنه. إن ما يجهله الكثيرون هو أن الثكنة، عوض أن تقاوم، سلمت السلاح.

- دون أن يحاولوا القيام بأي شيء؟

- يومان. وبعد ذلك. . . كان العصيان. ففي الوقت الذي كان يعمل فيه الضابط على تحميس الجنود كي يصمدوا، استسلم هؤلاء بعد أن فتحوا الحصن.

- هذا غريب. . . خصوصاً من طرف جيش أثبت حتى الآن فعاليته.

- لا. هذا منطقي. فالحقيقة أن هذا العصيان كان كامناً منذ زمن طويل. وهو ليس سوى نتيجة سلسلة طويلة من حالات الكبت والتعب والتضحيات. العريش لم يكن سوى تعبير عن انهيار معنويات الجيش.

- بهذا نصل إلى النقطة المركزية في حديثنا.

كان الفرنسي على وشك مواصلة حديثة، عندما عادت شهرزاد.

- هل تحسنت حالتها؟ سأل ميشيل.

- لقد أشربتها قليلاً من ماء الورد، وهي تستريح الآن في غرفتها. أعتقد أن حالتها ستتحسن.

أبدت اعتذارها لبوشامب:

- أرجوك يا سيدي أن لا تؤاخذها. فهذه الأشهر الأخيرة كانت شديدة القساوة.

- ماذا تقولين يا سيدتي. علي أنا أن أعتذر. لقد كنت - كما قلت لزوجك - أجهل كل شيء عن هذه المأساة.

- لنكف عن الخوض في هذا الموضوع، عقب ميشيل. لنلتفت نحو

المستقبل، ما دام قد شرع يلوح حاملاً بشرى. . . أكمل من فضلك. كنا قد توقفنا عند استسلام العريش.

- دفعت هذه النكبة بالجنرال كليبر إلى اتخاذ جملة من التدابير، لقيت دعم كل مساعديه. جيش عثماني آخر يستعد للإغارة علينا. المسألة مسألة أسابيع. ومهما يكن ما نقوم به، فإننا لن نستطيع تجميع أكثر من سبعة آلاف رجل لمواجهته. لقد ألحق التهاب العيون والطاعون أضراراً فادحة بين الجنود. لقد وصل مستوى تدهور معنوياتهم إلى حده الأدنى. وقد انضاف إلى تمرد العريش تمرد آخر أفظع، هو تمرد الإسكندرية. هذا فضلاً عن غياب أية أخبار عن فرنسا، وليس هناك أي أمل في دعم من قبلها.

تنهد بوشامب قبل أن يعلن بنوع من التفخيم:

- الخلاصة أن الجنرال كليبر قد قرر مغادرة مصر.

- ماذا تقول؟ سألت شهرزاد متعجبة. ستنصرفون جميعاً؟

- تماماً. لقد وقّع الجنرال يوم ٢٣ يناير اتفاقاً يلتزم فيه بمغادرة البلد في أجل ثلاثة أشهر. سيُعاد جيش الشرق، أو على الأصح، ما تبقى منه، إلى فرنسا.

- كيف ستقومون بذلك، قال ميشيل مدهوشاً، فما بقي لكم من سفن لا يكفي لنقل الجميع.

- لقد تم الاتفاق على أن نعود إلى فرنسا على متن سفن يوفرها العثمانيون، مع السلاح والأمتعة.

كانت مفاجأة الدقائق الأولى التي انتابت ميشيل قد تركت مكانها لاندهاش عميق.

- وما موقع الإنجليز في كل هذا؟. . هل هم موافقون؟

- رغم أن العميد سيدني سميث لم يوقع اتفاق العريش، فقد ضمنه باسم إنجلترا. ولا أحد يشك في التزامه.

الفرنسيون ينسحبون من مصر.

ما كان لا لميشيلْ ولا لشهرزاد أن يصدقا هذا النبأ، لو لم يكونا قد استمعا إليه من فم أحد المساعدين المقربين من الجنرال القائد الجديد.

- هذا هو السبب الذي جعلني أقول لكم - أضافت الست نفيسة - إن علينا أن نهتم بالمستقبل. لقد انتهت الأيام القبيحة.

- ربما، عقبت شهرزاد بمرارة. لكن بمجرد أن ينسحب الفرنسيون سيحل الأتراك محلهم، أو ربما الإنجليز أنفسهم. . . إن مصر المسكينة لا تفعل غير أن تعثر على أسيادها القدامى، هذا كل ما في الأمر. إن كل ما في ذلك من عبث هو هذا العدد الهائل من الموتى الذين قضوا من أجل لا شيء. لقد تم إرواء رمال الصحراء بالدماء، كي نجد أنفسنا عند نقطة الانطلاقة.

- هذا صحيح للأسف، أكد السيد بوشامب.

- وهل بدأتم انسحابكم؟ سأل ميشيل. فإذا كنتم قد وقّعتم في الثالث والعشرين من يناير، فإنه ما عاد أمامكم زمن طويل. بالكاد شهران.

- اطمئن، فكليبر رجل كلمة. في اليوم الموالي للاتفاق أعطى الأوامر الضرورية. لقد أعدنا للأتراك شرق الدلتا والمواقع المقتطعة من مصر العليا، إضافة إلى ساحات القطا والصالحية وبلبيس ودمياط. وسيكون لقلعة القاهرة وحصون الشاطئ الأيمن للنيل المآل نفسه.

سيكون دور العاصمة هو الأخير.

كانت شهرزاد تستوعب كل كلمة يتلفظ بها بوشامب.

- ومراد بك. . . سألت بلهفة، هل هو على علم بهذا؟ هل لديكم معلومات عنه؟

تقدمت ابتسامة ماكرة جواب البيضاء:

- زوجي الحبيب عصي على أن يلقى عليه القبض. أليس كذلك يا سيد بوشامب؟

- إذا سمحت لي بهذا التعبير، أقول بأن سعادته مهيب. فمنذ شهرين قام بمحاولة جديدة للنزول نحو وسط مصر. . يا إلهي كم عذب ذاك المسكين دوزيكس الذي يكن له، مع ذلك، كل التقدير. فليس ميسوراً، كل يوم، مواجهة خصم من طينة مراد بك.

رفعت نفيسة ذقنها قليلاً، محمرة من فخرها بما تسمع:

- زوجي لا مثيل له. . . هو رجل. رجل حقيقي.

- على أي حال، أكد بوشامب، من المرجح جداً أن يكون مضطراً إلى

محاربة الجنرال. فمن المحتمل أن يغادر دوزيكس خلال الأيام القادمة في اتجاه فرنسا.

- سيفتقدان بعضهما، عقبت نفيسة. هذا مؤكد.

- هكذا ينتهي الكابوس، تمتمت شهرزاد. وفكرت: نهاية الحرب... عودة ابن سليمان.

* * *

١٠ مارس

مرر الجنرال كليبر يده في لبدة الأسد.

- هكذا يكون العريف الصغير قد أفلح في انقلابه. أطاح بحكومة التدبير وحل مجلس الخمس مائة. وها هو ذا قد ترقى، منذ ١٨ برومَر، إلى قنصل أول. الآن أصبحت عجلته في مغادرة مصر مفهومة بشكل أحسن.

لم تخف رنة الاستهزاء المستعملة على عبد الله مينو، الذي قطب حاجبيه مستنكراً.

- أنت لا تبدو سعيداً بالنبأ، أيها المواطن الجنرال. ألا ترى بأن هذا أمر جيد؟

- أتصرُّ على أن أجيبك؟ أعتقد أن فرنسا ما كانت لتقهر أكثر مما ستقهر من طرف بائس مشعوذ مثله. إن هذا الرجل ليس أكثر من لاعب، ولعبته هي التاريخ. وبذلك، فهو يلعب بحيوات الناس وبالثروات العامة والخاصة، وبسعادة وتقدم الوطن.

قمع مينو ارتعاشة.

- أيها المواطن، والدستور الجديد...

- إنه ليس أكثر من قناع يرى الطاغية أنه من الملائم التستر وراءه مؤقتاً، وسيرمي به من النافذة - قبل أن يصبح بلا جدوى - إذا لم يتم الرمي به هو نفسه منها.

شعر زوج زبيدة بالاختناق، فتمتم:

- ال.. الجمهورية... أنت لا ترى إذن بأنها ممكنة الوجود و...

- الجمهورية غير موجودة سلفاً، إذْ يترأسها بونابرت... خصوصاً بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة.

توقف عن الكلام ثم لخص بجفاف:

- على أي حال، لا جدوى، يا جنرال، من مناقشة هذا الموضوع. أنا أعلم أنك غير موافق على قراراتي الأخيرة، أليس كذلك؟

اكتفى مينو بالإطراق.

- لماذا العجلة، في الحقيقة؟ أجل. إن إهمال مصر يبدو لي أمراً غير مفهوم. كان بإمكاننا أن نجعل من مصر مستعمرة رائعة.

- مستعمرة... عد يا صديقي إلى الواقع. إن إنشاء مستعمرة دون حكومة قارة ودون بحرية ودون مالية، مع حرب برية مستعرة، لَهو الهذيان بعينه، لهو الرغبة في الاستيلاء على مكان دون أن نكون قادرين على التحكم في الحملة، ودون تموين حربي.

- رغم أنني قد أصدمك، فإنني أرى أن اتفاق العريش كان خطأً سياسياً.

اسودت الدنيا في عيني كليبر.

- اعلم، إذن، أنني بهذا الاتفاق استطعت إيجاد مخرج معقول للموقف الأكثر شذوذاً. سقطت العريش، وجيش مكون من أربعين ألف رجل على رأسهم الوزير الأعظم ناصف باشا يتقدم نحو القاهرة. أنا اليوم، ورغم أن لنا قنصلاً هناك، متأكد من أن لا أمل لنا في غوث من فرنسا، ولن نستطيع أبداً، أو على الأقل خلال هذه الحرب، أن ننشئ مستعمرات بمصر.

توقف للحظة ثم تابع بحدة:

- اللهم إلا أن تنتج شجيرات القطن والنخيل جنوداً وحديداً..

كانت وجنتا عبد الله مينو قد احمرتا. حاول أن يقول شيئاً، لكن الآخر قاطعه:

- في كل الأحوال، سنوقف هذا النقاش عند هذا الحد. فأنت تيمم وجهك - واعتناقك للإسلام دليل على ذلك - شطر الشرق، أما أنا فنحو الغرب؛ فنحن لن نتفق أبداً.

تحمل مينو النظرة النارية لرئيسه. كان يبدو متنازَعاً بين الرغبة في الرد والإحجام.

حسمت بالنيابة عنه طرقات قوية على الباب.

- أدخل أمر الألزاسي.

انفتح المصراع، فظهر رجل يلهث.

- أيها الجنرال، ضابط إنجليزي يطلب مقابلتك. هو قادم من قبرص، وهو يقول بأنه يحمل رسالة من القيادة البحرية الإنجليزية.

أشار كليبر بإدخال الزائر، فدلف إلى الغرفة، في الوقت نفسه تقريباً، رجل في حوالى الأربعين من عمره، وجهه محمر ومرقط بنقط شقراء. كانت كل مسامه تنضح بذاك السمت الصلب والمنذهل الذي يعد سمة في رجال من أعداء الشمس.

- جون كيث. سكرتير سعادة سيدني سميث.

أثناء حديثه مد لكليبر مطوياً وقام الأخر بفرده على عجل.

على متن سفينة صاحبة جلالة إنجلترا، الملكة شارلوط.

مينوك، يوم ١٨ يناير ١٨٠٠.

سيدي.

لقد تلقيت أوامر إيجابية من صاحبة الجلالة بأن لا أبرم أية اتفاقية استسلام مع الجيش الفرنسي الذي تقودونه بمصر وسوريا، إلا في حالة أن يلقي هذا الجيش بالسلاح وأن يسلم الجنود أنفسهم بصفتهم أسرى حرب، تاركين كل البواخر وكل ذخيرة الميناء والإسكندرية للقوات المتحالفة.

وفيما إذا كان قد تم سلفاً إبرام اتفاق آخر، فإنه لن يُسمَح لأية فرقة عسكرية أن تعود إلى فرنسا. وأرى ضرورياً أن أخبركم بأن السفن التي سيكون على متنها جنود فرنسيون، وهي تتنقل من ميناء إلى ميناء آخر، داخل مصر، سترغم من طرف السفن التي تحت إمرتي على العودة من حيث أتت.

وفي الحالة المعاكسة، فإنها ستحتجز وسيعتبر من على متنها أسرى حرب.

في الوقت الراهن، على الانسحاب أن يقف عند هذا الحد الذي وصل إليه.

إمضاء: اللورد سميث. أميرال.

- خيانة.

كانت الكف التي تقبض على الرسالة ترتعش من الغيظ. ولو لم يكن قد تحكم في نفسه، لكان قذف بالوثيقة في وجه المبعوث الإنجليزي.

- هذا ليس سوى رد فعل على اتفاق العريش، لا أقل ولا أكثر.

- هذه فضيحة، تمتم مينو.
خاطب كليبر سكرتير سميث، بجفاف:
- تفضل أنت بالانسحاب.
وبمجرد انصراف الإنجليزي، أطلق كليبر العنان لسورته:
- الأوغاد. جردنا القلعة وحصون الشاطئ الأيمن من السلاح. انسحب دوزيكس من أعالي مصر، وهو يستعد للالتحاق بفرنسا. اخترق العثمانيون خطوطنا. مقدمة جيش الوزير وصلت إلى مطرية، أي إلى مشارف القاهرة. لقد خففنا من الحراسة، وعلينا أن نبدأ من جديد. هؤلاء البريطانيون الأعزاء... وحده طعامهم يعادل غدرهم... إذن، وما دام الأمر كذلك، فإنني سأريهم ما معنى الحنث بكلام أعطوه لكليبر.

أدى عبد الله مينو - مأخوذاً، من غير شك، بالكلمات الحماسية لرئيسه - التحية العسكرية:

- اعلم يا جنرال أنني مستعد للموت في سبيل الجمهورية.
حرك كليبر كتفيه.
- قبل أن تموت، يا عزيزي، عليك بالعودة إلى القاهرة حيث عينت منذ ثلاثة أشهر.. لكن يبدو لي أنك منهك من كتابتك لمذكرات الاقتصاد السياسي. عليك أن تواصل، من فضلك. وبالخصوص لا تغير شيئاً.

تقلص جسد مينو. كان الرجلان متقابلين صامتين، فانسحب زوج زبيدة.

بعد انسحاب مينو، نادى كليبر على داماس، مرافقه. وبعد أن شرح له الوضعية، باختصار، لخص قائلاً:

- علينا أن نستعد للقتال. لذلك، فأنا في حاجة إلى كل فرقي. فتهديد لساقة جيشي قد تكون له عواقب مأساوية. كما أن عليك أن تكلف المواطن بوشامب، بأن يعيد كل شيء إلى نصابه مع زوجة مراد بك. فمن الضروري أن تقنع المملوك بأن يتحالف معنا أو أن يبقى محايداً.
- مقابل ماذا يا جنرال؟
- لدي فكرة صغيرة. أما نحن يا داماس، فإننا سنقذف بأرجلنا مؤخرة الوزير الأعظم.

الفصل الخامس والعشرون

٢٠ مارس ١٨٠٠

في الساعة الثانية صباحاً، خرجت مجموعتا فريان ورينيي؛ أي حوالى أحد عشر ألفاً من الرجال، لتتنقلا على طول السهول الخصبة الواقعة على ضفة النيل، على يمينهما الصحراء وعلى يسارهما النهر، وأمامهما الآثار العتيقة لهيليوبوليس.

كان كل الجنود - منفعلين، وشاعرين بإهانة عميقة من جراء خيانة الإنجليز - متكتلين حول قائدهم، وقد تبدد التشبيط الذي قاد إلى الاضطرابات؛ فجيش الشرق هو ما يهم الآن.

كان كليبر - في أبهى حلة وأجمل وأشد شموخاً من أي وقت مضى - يتنقل بين الصفوف ويصرخ بأعلى صوته:

- أيها الأصدقاء، ما عاد لديكم في مصر سوى الأرض التي تمشون عليها. إذا تراجعتم خطوة واحدة ستفقدون حياتكم. عددنا عشرون ألفاً، وعددهم يفوق ستين ألفاً. أنتم الآن على علم بالأسباب التي تحول دون انخراطنا في الحرب. غير أن الرد على وقاحات مثل هذه لا يكون إلا بتحقيق النصر.

في الرابعة شرعت الفرق تتقدم نحو معسكر الأتراك المنصوب في سهل هيليوبوليس. قُذفت طلقتا مدفعية على مقدمته. ومع هذه الطلقات الأولى، اهتزت الخطوط الفرنسية من أدناها إلى أقصاها، مثل صفوف جمهور غفير يشاهد انطلاقة فرجة طالما انتظرها بشوق.

ومع تقدم الجيش، شوهد فرسان أتراك ومماليك ينفصلون عن مجموع الفرق، وينطلقون نحو الجنوب. أمر كليبر الخيالة بمهاجمتهم، غير أن المهمة فشلت، فتابعوا تقدمهم، وما عاد أحد يفكر في مصيرهم.

جرت المعركة الموالية عبر مرحلتين: أزيل معسكر المطرية؛ وأبادت فرق المدفعية من مجموعة راينر المشاة الذين كانوا يخرجون من معقلهم وسيوفهم في أيديهم.

بعد هذا الإخفاق، طالب يوسف باشا بالحوار. أرسل إليه كليبر - الميال دائماً إلى الصلح - مرافقه بودو، مصحوباً بمترجم. لكنهما ما كادا يجتازان الخط التركي حتى كادا يصفيان. قيد بودو وربط إلى ذيل حصان، وعذب.

وغير بعيد عن المكان، خلف ستار من شجر النخيل، كان قد تجمع مراد بك وفرسانه الستمائة، مؤطرين بابن سليمان وباباس أوغلو.. ومن الغريب أنه لم يكن يبدو على محيا المملوك أي أثر للقلق. أبدى فقط بعض الفضول، وكأنه لم يكن هناك إلا من أجل الفرجة.

انطلق الصراع من جديد، عنيفاً قاسياً. وعندما كانت الشمس تنزلق خلف الكثبان، كان ألف بيرق تركي ملقىً على السهل. وعلى مدى البصر، لم يكن يظهر سوى كتل من الجياد النافقة وأعداد من الهاربين، يعدون في كل الاتجاهات نحو الأفق.

ظل مراد بك ورجاله دائماً على حالهم.

عندما خيم الليل، سارع كليبر بالكتابة إلى القيادة العامة: لقد منحنا سهل هيليوبوليس شهرة جديدة بالنصر الذي أحرزناه لتونا على الوزير الأعظم. لقد أخذنا منه عشرين قطعة مدفعية، وكل تجهيزاته.

هو ينام هذه الليلة في بلبيس، وسنطرده غداً، بعون الله، إلى ما وراء الصحراء.

وصل، في الآن نفسه، إلى قلب أسوار القاهرة، الفرسانُ الذين انسحبوا، من ساعات، من السهل. كان على رأسهم نصيف باشا ابن الوزير الأعظم.

عندما شاهدوا الصوامع الثلاثمائة، أطلقوا صرخة نصر ودلفوا تحت باب النصر.

* * *

- لقد عادوا.

وجدت شهرزاد صعوبة في تصديق زوجها. الأتراك في القاهرة؟ هُزم الفرنسيون؟

- قد تكون أخطأت يا ميشيل، هذا غير ممكن.

لقد رأيتهم يا شهرزاد. نصيف باشا والألفي بك. وكان هناك أيضاً الجداوي وإبراهيم... كانوا هناك بالتأكيد. أمامي. إنهم آخذون في الاستيلاء على المدينة.

- قد تكون هذه نهاية الحرب، تمتمت نادية بأمل.

- لا أدري يا أماه... الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أن الأتراك موجودون الآن بالقاهرة. لقد استغلوا غياب الفرنسيين الذين ما عادوا يحتلون سوى القلعة ومقر قيادتهم العامة بالأزبكية.

أخذت شهرزاد، بتلقائية، الصغير يوسف وضغطته بين ذراعيها.

- ليحفظنا الله، قالت بصوت خافت.

نظر زوجها نحوها محاذراً.

- ماذا دهاك؟ ما الذي يخيفك؟

حركت المرأة الشابة رأسها. أخذ شعور غير مبرر بالرعب في اجتياحها.

* * *

- الموت، الموت للفرنسيين.

كانت الجماهير، يحمسها ابن الوزير، تستخرج من الأرض الأسلحة التي لم يتم العثور عليها أثناء التفتيش خلال التمرد الأول.

استخرجوا المتاريس التي كانت قد نصبت هي نفسها منذ سبعة عشر شهراً خلت. وإذا كان كل شيء قد بدأ ببعض المظاهرات بخان الخليلي، فإن المتظاهرين، الآن، يجتاحون الطرقات جماعات جماعات.

انتظم المتظاهرون، بسرعة مذهلة، عبر الأحياء. كانوا كلهم، مدنيين ومماليك وانكشاريين، مجتمعين حول الهدف نفسه: «الموت لحب الرمان. الموت لبارتليمي. النصر للسلطان.»

كان الألف رجل بقيادة فيرديي على قمة المقطم، خلف أسوار القلعة، صامدين بشجاعة أمام الهجمة، صادّين كل الهجومات.

ومع بزوغ الفجر، كان نصيف باشا مضطراً إلى الاعتراف بعجزه. لن تسقط القلعة. هنا أخذت الحركة التمردية مساراً آخر.

هل كان ابن الوزير هو من أصدر الأمر؟ هل هو أحد أتباعه؟ أم أن من فعل ذلك هو متعصب مريض.

فحوالى الساعة التاسعة، أعقبت صيحة «الموت للفرنسيين» صيحة «الموت للمسيحيين، لنجاهد ضدهم».

اجتاحت الجماهير - السعيدة بإفراغ حقدها على هدف محدد، أيّاً كان هذا الهدف - حارة النصارى حيث يسكن التجار الأجانب. كان ثمة حوالى خمسين من الرجال والأطفال والنساء. كسرت أبواب الحارة ودوت صيحات الهجوم. كانت السيوف والخناجر تشق الطرق.

اغتيل الرجال في البداية، واقتيد النساء والأطفال للمزاد. أما البيوتات التي كانوا يشتبهون في إيوائها لمسيحيين، فكانت تتعرض للسلب والإتلاف.

في اليوم الموالي، وبعد لحظات من الهدوء، عادت المجزرة بأفظع وجه. كان الفرنسيون والمصريون والسوريون واليونانيون؛ أي كل المسيحيين بدون استثناء، يقاسون من هذا الغضب الجديد للشعب. كانت الدماء تسيل مذرارة نحو حنفيات الخرنفش، بحي ما بين القصرين وبالرميلة والموسكي، فأصبح لون الأمكنة أحمر قرمزياً، يبرز بشكل أوضح امتقاع الرؤوس المتدحرجة مع المياه.

كان العثمانيون قد بعثوا إلى المطرية من يبحث عن ثلاثة مدافع. نبشوا أيضاً بيوتات بعض الأمراء واستخرجوا عدداً كبيراً من قطع المدفعية، كانت مدفونة تحتها.

وغير بعيد عن الأزبكية، كان الأقباط قد تجمعوا بتحريض من أحدهم، يدعى يعقوب سعيد. وقد استطاعوا، وإن بصعوبة، الوقوف في وجه المهاجمين. لكنهم كانوا الوحيدين.

خلال الليل حط على المدينة سيل من القنابل المطلقة من القلعة. كانت تستهدف بالخصوص حي الجمالية حيث كان يتجمع العدد الأكبر من الجيش التركي ومن الثائرين. أحدثت هذه القَنبَلة رعباً شديداً في قلوب من ما تزال ذاكرتهم تحتفظ بالساعات السود للتمرد الأول. كانت أعداد من السكان،

مدفوعة بالخوف، تغادر بالمئات المدينة، حاملين أغراضهم على البغال والحمير والجمال. بعد حين ستتحول القاهرة إلى خان كبير للقوافل، حيث يكد كل شخص في العثور على ممر عبر الأزقة المختنقة كلية. كانت هناك مشاهد قلق وهلوسة لا توصف.

تواصلت سيادة الجنون خلال اليوم الموالي.

أُنشأ مصنع للبارود في بيت أحد الإنكشاريين، الواقع بحي الخرنفش. استدعي حدادون وسباكون للمساهمة في صنع مدافع وقنابل ولإصلاح المدافع التي ما انفكوا يخرجونها من تحت أرض قصور البكوات. كان قدوم كل قطعة جديدة يستقبل بالصياح: «الموت للكفار».

اقتيد الشيخ البكري، الذي سبق له أن أهدى ابنته للجنرال أبو نبارت، مع أبنائه وحريمه إلى حارة الجمالية، حيث تعرض لكل أشكال الإهانات. وفي آخر لحظة، أنقذه من التصفية أحد المساعدين الأقربين لنصيف باشا، الذي تدخل لصالحه.

وبعد الظهر، ما كانت عادت الأزبكية سوى ألسنة من لهب وخرائب.

كانت الضوضاء قد وصلت إلى الصباح مع مطلع فجر اليوم الثالث.

صعد ميشيل، بعد أن أخبرته عائشة، إلى السطح ليرى بوضوح ما الذي يحصل. أدرك، من نظرة واحدة، خطورة الوضعية. كانت جموع تحمل مذاريها ورماحها، وهي تتقدم بسرعة نحو الإقامة مثيرة سحباً من الغبار.

لن يجرؤوا، خاطب نفسه بقوة. لكنه كان في أعماقه يستشعر الأسوأ.

عاد إلى النزول بسرعة. كانت نادية وشهرزاد وعائشة ينتظرنه أسفل السلم.

- ماذا هناك؟

- أعتقد أن الأمر خطير للغاية. يبدون هائجين. يبدو أن علينا، من باب الحذر، إقفال كل المنافذ.

- هذا مستحيل، صاحت نادية. هم مصريون مثلنا. إنهم لن يهاجموا أناساً من جنسهم نفسه.

- نحن، يا أمي، من جنسهم ربما، لكن ليس من دينهم. إن الغربيين والمسيحيين مترادفان بالنسبة للجنون الذي يحرك هؤلاء المتعصبين. صدقوني. إن

علينا أن نتحصن. أغلقي نوافذ المطبخ يا عائشة، وسأتولى أنا إغلاق نوافذ القاعة.

افترت شفتا السودانية البدينة. بدت وكأنها تريد أن تقول شيئاً ما. ربما أرادت أن تبدي أسفها على تصرفات إخوانها المسلمين. لكنها صمتت وأسرعت نحو المطبخ.

كانت الجلبة في الطريق تعلو. أصبح بالإمكان ، أكثر فأكثر، تمييز عبارات التحريض والدعوة إلى الجهاد.

- اذهبي يا شهرزاد لتختبئي أنت وأمك مع الصغير في الطابق الأول. ستكونون أكثر أمناً في غرفة النوم.

- وأنت؟ ماذا ست. . .

- نفذي ما آمرك به.

كان صوت ميشيل من الحدة، بحيث نفذت المرأة ما أمرها به دون أن تقول شيئاً.

دلف إلى القاعة. كان ثمة صندوق موضوع بمحاذاة الجدار. فتحه بسرعة، فوجد فيه بندقيتين؛ هما بندقيتا يوسف شديد. راودته فكرة امتنان لعمه، فأخذ السلاحين والذخيرة القليلة التي كانت معهما، وسارع نحو المدخل ليتأكد مما إذا كان الباب مقفلاً، ثم انطلق نحو الطابق العلوي. عندما أدرك نهاية السلم، وجد هناك شهرزاد وعائشة. أطلقت المرأة الشابة، عندما رأت السلاحين، صيحة رعب:

- ميشيل. أنت لن. . .

- لقد أمرتكم بأن تظلوا في الغرفة. . .

- أنت لا تنوي، على أي حال، أن تطلق النار عليهم.

- اهدئي. لا نية لي في أن أقتل أياً كان.

ثم أضاف بجفاف:

- إلا إذا أرغموني على ذلك.

- أرجوك، يا أسطى ميشيل، قالت السودانية، دعني أحدثهم، فأنا مسلمة مثلهم وسأفسر لهم.

- لن ينصتوا إليك. سيقتلونك. والآن، أرجوكم للمرة الأخيرة، أن

تذهبوا إلى الغرفة. أغلقوا عليكم الباب بالمفتاح ولا تغادروها إلا إن أشرت عليكم بذلك.

- لن أفعل.

نظر ميشيل إلى زوجته مندهشاً.

- لن أفعل، كررت بتصميم.

أشارت إلى البندقيتين:

- لن يمكنك أن تستعمل إلا واحدة. سأصحبك.

- هل جننت؟ مكانك قرب الصغير. هيا، اذهبي.

- لن تكون لي أي جدوى في تلك الغرفة. أنا أعرف ذلك. فلو حصل شيء، هل تظن أن باباً، مهما يكن قوياً، قادر على الوقوف في وجه هؤلاء المرضى؟

أشارت إلى الحديقة.

- عددهم في الخارج، على الأقل خمسون شخصاً. لن تستطيع المقاومة وحدك.

- لكنك لن تعرفي حتى كيف تطلقين النار. أنت لم تحملي في يدك يوماً سلاحاً.

بذل مجهوداً كي يبدو صارماً.

- كوني عاقلة يا شهرزاد، أطيعي، أرجوك. فكري في طفلنا.

تقدمت المرأة خطوة إلى الأمام وانتشلت إحدى البندقيتين من يد زوجها.

- بالفعل، فأنا أفكر فيه.

التفتت نحو عائشة التي كانت ترتعش مثل ورقة، ووجهها مغطوس في كفيها.

- التحقي بالسيدة. أغلقا الباب خلفكما ولا تفتحاه بأي حال من الأحوال.

تركت ميشيل واقفاً، وانطلقت نحو السطح.

* * *

كانت موجة الثائرين قد انتشرت داخل القصر، محطمة كل ما تلقاه في طريقها. بعد لحظة تردد، تجمعوا وشكلوا دائرة حول الدار.

- مرتشون! خونة!

- كفار!

- اخرجوا إذن، يا أذناب الفرنسيين!

كانت الأشباح تتحرك بسرعة تحت المشربيات، زاعقة.

كان ميشيل وهو قابع خلف السور الذي يحيط بالسطح، قد أزاح صمام أمان البندقية وقام بالشيء نفسه بالنسبة لبندقية شهرزاد.

- هل أنت متأكدة من أنك قد فهمت كيف تستعملينها.

أجابت بالإيجاب، وهي تزم شفتيها.

كان فمها جافاً. ورغم ما بذلته من جهد، كانت تلهث.

- ستعرفين؟

- أجل، أجل. لا تقلق.

- عليك أن تعرفي أمراً يا شهرزاد. نحن لا نعرف أي مآل سنؤول إليه.

- ماذا تعني؟

- أترين البئر، هناك، خلف الإسطبل؟

- أجل.

- على بعد عشر خطوات، يميناً، قبالة مشرق الشمس، كان أبوك قد جعلني أحفر حفرة في الأرض، وضعنا فيها جرتين تحويان قطعاً ذهبية ونقدية. كان يوسف قد قرر أن ينذرها للأيام القبيحة. فإذا ما حصل أمر. . .

- أصمت أرجوك. لن يحصل شيء.

- آمل ذلك. لكنه كان من المفيد أن تعرفي. من أجلك ومن أجل الصغير.

أوقف ميشيل بندقيته لصق الجدار.

- ماذا تفعل؟

- سأحاول أن أفتح معهم حواراً.

تشبثت بذراعه بقوة كي تمنعه من ذلك.

- لا تفعل. أنت ترى أن بعضهم مسلح. قد يقوم أحمق ب. . .

لم تنه جملتها، لأن صوتاً كان قد ارتفع أعلى من الجلبة. انتصب الزوجان ناسيين الواجب من الاحتياط.

كانت عائشة على عتبة الباب. لقد ضربت عرض الحائط بمنع سيدها، وخرجت ساعية إلى تهدئة الجمع.

- إخواني، ليشملكم الله بعفوه. هذه الأسرة أسرتي. الرحمة، إنهم أبناء مصر مثلكم.

- كيف تجرئين على هذا القول؟ إنهم نصارى! كفار! صاح قائد العصابة.

أطل ميشيل محاذراً من فوق الحاجز.

- الباب! قال مرعوباً. لقد تركت الباب مفتوحاً...

قامت عائشة بمحاولة جديدة:

- يا ابن آدم! إنني أرجوك. إنهم أناس خيرون، والسيدة قد وضعت طفلاً لتوها. أمان! أمان!

- أصمتي يا كلبة! وأحسن لك أن تتنحي، وإلا كنت أول من يدفع الثمن.

فقدت التعسة كل أمل في إقناعهم وهي ترى تصلب محادثها. وفي الوقت الذي انثنت فيه كي تلتحق بالمنزل، قفز عليها شخصان.

استُل خنجر.

صاحت شهرزاد:

- لا. يا إلهي، لا.

شقت الشفرة أسفل جيد الخادمة. لم يُترك لها الوقت حتى لتعرف ما الذي يحصل لها. انهار جسدها بتثاقل على مصراع الباب الذي أصدر صريراً.

- انسحبوا! انسحبوا أو أطلق النار.

كان ميشيل قد ضغط البندقية إلى كتفه. استهدف قاتل عائشة.

- ارجعوا إلى الخلف.

سارعت شهرزاد نحو السلم.

- إلى أين؟

- سأغلق الباب. إذا دخلوا قتلونا جميعاً.

- شهرزاد!

كانت قد اختفت.

بذل مجهوداً خرافياً حتى لا ينطلق في أثرها. في الأسفل، كان الرجل قد

تسلق أولى الدرجات نحو العتبة. ضغط ميشيل على الزناد مطلقاً النار. أعقب الانفجار اندهاش دام مدةً ترنح قاتل عائشة وانهياره، وقد أصيب وسط جبهته.

عندما وصلت شهرزاد إلى المدخل، كان أول ما رأته شخصين بوجهين عدوانيين يتحركان في النور المعاكس.

لم تتردد. ضغطت البندقية، كما أمرها زوجها، إلى كتفها، فانطلقت الرصاصة إلى صدر الرجل الأول. عدا الآخر مذعوراً إلى الخلف، مما أنقذ المرأة.

لم تستطع إعادة تعبئة السلاح.

استغلت فراغ المكان وعدت بسرعة نحو الباب فأغلقته واتكأت بظهرها على المصراع، عامدة إلى إدارة المفتاح دون أن تنظر إليه. جعلها صوت المزلاج وهو يلج مكانه تصدر تنهيدة ارتياح.

معجزة... إن يوسف، هناك، فوق، هو الذي يحمينا...

ثم صعدت إلى السطح.

- لا تعودي إلى مثل هذا! صاح ميشيل وهو يراها تظهر من جديد. أقعت شهرزاد إلى جانبه، فصدمت بالتعبير الذي كان ينضح من ملامحه. كانت قسماته عائمة في العرق، وكان غبار البارود يسم جبهته بالرمادي. كانت طلعته، الهادئة في العادة، قد أصبحت طلعة شخص آخر: قاسية وصارمة؛ طلعة محارب، لكنه محارب بائس، ففهمت أن الموت كان أقرب إليها من حبل وريدها.

- ما عاد لنا رصاص، قال بصوت أجش. ثلاث... هي كل ما تبقى.

فتحت راحتها. كانت أقل ثراءً منه.

- واحدة... الأخيرة.

وفي الأسفل، كان الضجيج يعتمل.

كانت ضربات قوية تنبعث من كل مكان. كانوا يكسرون المشربيات بضربات معاول.

- سيخربون كل شيء.

- حافظي على هدوئك. لو اكتفوا بذلك لأشعلت الألفي شمعة بمار جرجس. أهم شيء هو أن يظلوا في الخارج.

- انظر! دخان! ماذا يصنعون؟
- لا تتحركي.
- أطل ميشيل من فوق الجدار.
- يحرقون الإسطبل، المجانين!
- يا إلهي! يجب إيقافهم عند حدهم!
- سيصبح الصباح رماداً.
- لا نستطيع فعل أي شيء، أكرر لك. لو توقفوا عند ذلك الحد لقدمنا شكرنا لله. للأسف... أخشى ما أخشاه أن يتغير اتجاه الريح...

أنهى لفظه الأخير مصحوباً بحشرجة.

تقهقر إلى الخلف.

ظنت شهرزاد، في البداية، أن الحركة كانت إرادية، أو أنه كان يريد أن يحتمي. ثم رأت الدائرة المفتوحة، بين العينين تماماً. كانت في البداية موردة، ثم أصبحت حمراء داكنة مثل قلب وردة ممزقة.

ما عاد ميشيل يتحرك، وهو ممدد على الأرض. كانت عيناه المفتوحتان تنظران إلى السماء مدهوشتين.

بدأت بمد يدها في الهواء، دون أن تعرف لماذا.

في الأسفل، كان الصارخون قد ضاعفوا من زعيقهم.

ما عادت تسمعهم. ما عادت تشعر لا بوزن جسدها ولا بالهواء حولها. حصل لديها يقين خاطف بأنها، هي أيضاً، قد كفت عن الوجود.

افتر ثغرها. أرادت أن تقول «ميشيل». تهالكت أخيراً إلى جانبه وزحفت مثل حيوان إلى أن أدركت صدره. وضعت وجنتها لصق وجنته، وحصل لديها انطباع فوري بأنها تتهاوى في لجة مظلمة.

كان قد مات. مات ميشيل.

كان الدخان المدفوع بالرياح قد شكل جداراً كثيفاً حط على الزوجين.

لم تنفصل عنه. هل كانت تتنفس على الأقل؟

كانت ستظل، بالتأكيد، على ذلك الحال لوقت أطول، لأطول وقت يسمح به الهائجون والنار. لكن كانت ثمة تلك الجلبة الصادرة عن الأبواب التي تهشم. بدا كل المنزل مزلزلاً من ذلك.

صراخ نادية هو الذي وضع حداً للانزلاق الانتحاري الذي كانت قد تركت نفسها تنساق معه.

- طفلي!

انشدت أصابعها من جديد على بندقية ميشيل وسارعت نحو الطوابق السفلية.

كان باب المدخل قد انفتح سامحاً للرهط بالدخول، فتفرقوا في المنزل.

كان ثلاثة رجال، أمام غرفة نادية، يحاولون، بضربات كتف، أن يفتحوا الباب. عندما وصلت شهرزاد خلفهم، صوت المصراع، فاستلت السيوف محدثة هسيساً مرعباً.

برز شبح الأم بزاوية من الغرفة، مرعوبة. لكن الطفل لم يكن يُرى.

تقدم الثلاثة إلى الأمام.

أطلقت شهرزاد النار عليهم، فأصابت فخذ أحدهم.

عبأت وأطلقت النار من جديد. لم تصب منهم أحداً.

قفزت نحوهم، بما يشبه الهستيريا، مستعملة بندقيتها كعصاً، ضاربة في كل الاتجاهات. كانت تشعر بأنها قادرة على القضاء على جيش بأكمله، على ألف رجل، على العالم، على أن لا يقترب أحد من طفلها.

كانت مجموعة أخرى - مجلوبة بدوي طلق النار - قد أقبلت لتقدم المساعدة. أمسكت أيادٍ قوية شهرزاد. رغم كل عنفها وشراستها، تمت السيطرة عليها بسرعة وطرحوها بعنف أرضاً.

كانت نادية، هناك، تبدو مجمدة، عاجزة عن أن تصدر أي صوت.

في ضباب خفيف، خيل إليها أنها قد سمعت صفيراً. كما لو أن صوت ناقوس قد عبر الجو فجأة. ترنح رأس أمها وسقط على كتفها قبل أن يتدحرج على الأرض بصوت مكتوم.

شعرت شهرزاد بالغثيان. كان يبدو مؤكداً أنها ستجن، وإلى الأبد.

لم تعد تجرؤ على أن تنظر.

الدور الآن دور ابنها.

كانت تسمع في مكان ناءٍ صراخ السباب واللعنات، وصيحات الانتصار.

حاولت كفٌ لزجة رفع تنورتها. وكانت أخرى تجس مضطربة ثديها.

احتفظت بجفنيها مغلقين، محاولة، بما تبقى لديها من قوة، أن تسيج نفسها وأن تتخلص من كل إحساس. هذا الجسد الذي يجسونه لا يمت لها، بأي شكل من الأشكال، بأدنى صلة. هذا الجسد الذي يحاولون اغتصابه لا يمكن البتة أن يكون جسدها. إنه جسد شخص آخر. كان عليها أن تستطيع الوصول إلى هذه الازدواجية؛ أن تلغي نفسها.

وفي اللحظة التي كانوا يفرجون فخذيها، سُمع بكاء طفل.

تجمد الرجل المائل فوقها.

حصل للآخرين المحيطين بها الشيء نفسه.

صوت خطوات في الحجرة. البكاء أيضاً. أخذ أحدهم الطفل.

رفعه فوق جسد شهرزاد.

- هذا طفلك؟

أفرجت عينيها. وبفضل مجهود خرافي، قالت نعم.

كان الكائن الصغير يعتمل بين يدي الرجل. كانت ذراعاه الصغيرتان تنفتحان وتنسدان في حركة متكررة.

كان الصمت قد ران في البيت، بشكل معجز. لا زعيق ولا سباب... لا شيء غير صمت كثيف.

شعرت شهرزاد أن الرجل يقترب منها.

- خذي. قال وهو يضع الطفل فوق بطن أمه. المولود الجديد هو روح الله....

لم تفهم في البداية. لكن هل حاولت أن تفهم؟ هل كان باستطاعتها أن تفهم؟

عندما انتبهت للدفء الذي كان يلامس بطنها العاري، جلست بصعوبة وأخذت الجسد الصغير بين ذراعيها، بروية، باحتياط كبير مخافة، ربما، أن تصيبه بأذىً.

* * *

كانت السماء قد أصبحت سوداء من الدخان. لم تكن الصباح عادت سوى ركام من الخرائب المتفحمة.

لم تستطع شهرزاد ويوسف بين ذراعيها، أن تزيح عينيها عن الجدران المغشاة بالرماد.

كان الرجال، قبل ساعة، أرغموها على الخروج، ثم أوقدوا النيران في المنزل. كانت تلك هي حركة القسوة الأخيرة التي اقترفوها، والتي لا جدوى من ورائها. كان ذلك، ربما، هو مقابل سلامتها وسلامة طفلها. هذا على الأقل هو ما استنتجته هي.

الصباح... كنز يوسف قد أصبح عدماً، بمشيئة حفنة من البؤساء.

ميشيل... نادية... عائشة.

هل ما حصل حقيقي؟ أليست ضحية لحظة من لحظات السراب التي تتأجج في الصحراء، مسدلة على الخيال آلاف الأردية من الأوهام؟

جثت على الأرض. ذكرها اتصالها بالأرض بزمن بعيد، عندما كانت تسعد، وهي بعد صغيرة، بالتمدد على الرمال، لتترك جسدها يحترق بدفئها. كانت مستعدة لأداء أي مبلغ مقابل أن يظهر أمامها أحد أولئك المشعوذين الذين يأتون عادة إلى شاطئ بركة الأزبكية. إذن لكانت رجَته بأن يسخر سحره كله حتى يفرض على الزمان أن يعود القهقرى. لكن ليس ثمة مشعوذون. وحتى لو كان هناك مشعوذ، فإنها لا تملك شيئاً تقدمه إليه. فهي ما عادت تملك شيئاً، لا شيء غير طفلها.

والآن... إلى أين المسير؟ ماذا سيحل بها؟

سترين... إن هذا مكان ساحر.

اجتاحتها ارتعاشة. كان صوت أبيها قد انداح لتوه في ذاكرتها.

وفي الآن نفسه، انضم إلى صوت أبيها صوت عازف الناي...

يوماً، يا عروسة، عندما تتعبين أنت أيضاً من الناس، تذكري مزرعة الزهور. إنها قطعة من عدن.

الفصل السادس والعشرون

فاتح مايو ١٨٠٠

هب هواء دافئ على مخيم مراد بك، غير بعيد عن ضيعة طرة، جنوب القاهرة.

جلس كليبر بالخيمة الوسطى، أمامه فنجان الشاي المعد بحبيبات الصنوبر، والذي قدمه إليه مراد بك. لاحظ مبتسماً:

- هل يمكنني، سعادتك، أن أقدم في شخصك إطراءً؟ فحتى الآن لم تكن لي عنك صورة جيدة. كنت قد كونت عنك فكرة أعترف الآن بأن لا علاقة لها البتة بالشخص الذي يجلس أمامي.

لمع في عيني المملوك شعاع مجاملة.

- أعلم يا جنرال، أنني عندما وُصفْت، لم تكن لدي حظوة القعود إلى جانب كليبر العظيم.

ابتسم الألزاسي. ما عاد لديه شك. إن زوج نفيسة كان بالفعل في مستوى سمعته: دبلوماسي رقيق، ماكر، صارم ولبق في الآن نفسه. ليس غريباً أن لا يستطيع دوزيكس وفرقته العسكرية، بعد عامين من المطاردة، القضاء عليه بصفة نهائية.

وعلى أي حال، فقد عاد دوزيكس، الآن، إلى فرنسا. كما أن كليبر قد استطاع، من جهته، أن يضع حداً لهذا الصراع الذي طال أمده. كانت أحداث القاهرة الأخيرة ما تزال ماثلة في ذاكرته. عندما كان عاد، يوم ٢٧ مارس، إلى العاصمة، كان قد وجد المدينة غارقة في الدم والنار. استلزم لإحكام القبضة على العاصمة من جديد وقوع معركة شرسة. كان ذلك التمرد الرهيب الذي تمت السيطرة عليه بالكاد، دليلاً على أن الوضعية مؤقتة. كان ما يزال أمامه

القضاء على المقاومة التي كانت بعدُ قائمة عند باب بولاق. بعد ذلك فقط، سيحكم قبضته على كل القاهرة. كانت الدلتا قد انتزعت من الأتراك، وكذلك الشأن بالنسبة لأعالي مصر. كان الخطر العثماني قد أزيح بصفة نهائية، وكان العقد الذي أبرمه مع مراد بك يمكّنه، من الآن فصاعداً، من وسائل تأكيد إعادة فتحه لمصر.

كان كريم، خلفهم، يراقب خلسة روزيتي. كان يرى أن هذا الاجتماع ذو طابع سريالي، وقد أكدت ملاحظة الفينيسي فكرته:

- أعتقد أنه لو كان قد قيل لي بأنني سأوجد بين الجنرال كليبر ومراد بك، خارج ساحة المعركة، لما كنت صدّقت. وعلى أي حال، فأنتما تريان السعادة التي أشعر بها بسبب الاتفاق الذي توصلتما إليه. وأعتقد أن الجميع سيجني منه ربحاً.

صادق مراد على رأيه:

- أعتقد أن الحياد الذي سلكته أثناء معركة هيليوبوليس يعد الدليل على حسن نيتي، أليس كذلك؟

- تماماً. عقب كليبر. وأغتنم الفرصة لأقول لك إن لك زوجة رائعة. لقد فهمت جيداً خطوتي، ونقلتها إليك بأمانة. أرجوك أن تنقل إليها احتراماتي.

- لن أتأخر في ذلك، ما دام قد أصبح بإمكاني الآن أن أعود إلى القاهرة.

- لنختصر من فضلكم.

التفت مراد نحو كريم.

- اقرأ من فضلك.

أخرج ابن سليمان على الفور وثيقة من جراب جلدي، وشرع يقرأ:

- الفصل الأول: يعترف الجنرال القائد للجيش الفرنسي، باسم الحكومة، بمراد بك بصفته أميراً حاكماً لأعالي مصر؛ وبذلك، فإنه يمكّنه من الأراضي الممتدة على شاطئ النيل انطلاقاً من محافظة جرجا، بما في ذلك مقاطعة براس- بورات، وإلى سينا، على أن يؤدي لفرنسا الواجب على حاكم مصر.

أشار إليه مراد بأن ذلك يكفي، وتابع هو بدوره:

- تنص الفصول الموالية على أن مقدار الإتاوة سيكون من مال وقمح؛ وعلى تواريخ الأداء؛ وعلى احتلال ميناء القصيْر من طرف القوات الفرنسية

بمساعدة فرقة من جيوش المماليك التابعة لي، في حال تعرض رجالي، أو تعرّضي أنا لاعتداء. وبالمقابل، فإنني ألتزم بتقديم فرق من القوات المساعدة قد تصل إلى نصف قواتي، لحماية الأراضي التي تحتلها قواتكم. ولا أنسى الشروط. . . . التكتيكية.

- التي هي مهمة كلها، من وجهة نظري.

كان روزيتي هو من أكمل القراءة بدلاً من المملوك:

- يمكنكم أن تكونوا متأكدين بأن، سعادته، سينفذ كل هذه النقط حرفياً. وكما أردتم أنتم، فإنه سيذيع اتفاقية السلام بين الجميع. ومن هنا سيكون له الحق في أن تتفضلوا من جانبكم بالعفو على كل المصريين الذين سينفصلون عن العثمانيين لينضموا إما إلى صفوفكم أو إلى صفوفه.

- تماماً. فأنا ليست لي سوى كلمة واحدة، وهي مقدسة.

أعطى كليبر إشارة بالموافقة.

- إذا أبديت في تطبيق اتفاقيتنا الحماس نفسه الذي أبديته عندما كنا متصارعين، فأنا متأكد من أن النجاح سيكون حليفنا. ومن جهتي، فإنني ألتزم بالدفاع عن مصالحكم إذا ما حصل حل محتمل للقضية المصرية.

أغمض مراد بك عينيه بتباه.

- اسمح لي، الآن - قال وهو ينتصب واقفاً - اسمح لي بأن أقدم لكم هدية، تذكار لقائنا.

رافق ضيفه إلى خارج الخيمة. كان مملوك ينتظر عند المدخل. كان ممسكاً بفرس مسرج بشكل رائع.

- إنه لك، جنرال كليبر. وليَقُدكَ الله، على صهوته، إلى أعلى درجات المجد والثروة. . . هذا ليس كل شيء.

صفق مراد كفيه.

اقترب عبد آخر وعرض أمام الألزاسي خنجراً رائعاً من الفضة، على جلد يخمور.

- ليشطر هذا الخنجر أعداءك نصفين، وليرهبهم ويعميهم.

تفحص كليبر السلاح بإهاب خبير، واعترف بأنه يملك كل خاصيات قطعة فنية.

- لك امتناني يا مراد بك. عندما كان يحصل أن يحدثني دوزيكس عنك، وعندما كان يطري على جرأتك، كنت أتساءل عما إذا لم يكن يبالغ بعض الشيء، وعما إذا لم يكن - بسبب محاربته لك - قد أمْثَلَكَ. . . وأعلم اليوم أنه لم يكن مخطئاً. كما أعلم أن الكرم يقترن بخصالك كمحارب. سأتذكر هذا.

وضع المملوك كفيه بالتتابع، على قلبه ثم على شفتيه وتنحى باحترام.

كانت تلك هي اللحظة التي اختارها روزيتي ليقترب من البك.

- أعتقد أنني أنا أيضاً، للأسف، سأودعك.

حرك مراد بك رأسه قلقاً.

- أنت مخطئ بمغادرة مصر. ففي ظل حكمي ستُغطى ذهباً.

- أنا لا أشك في ذلك يا سيدي. لكنني افتقدت فينيسيا (البندقية). وأعترف بأن السياسة قد استنزفت طاقتي. لقد خبت الجذوة.

- أعلم أنك هنا في بلدك. وإذا حصل لك أن عدت يوماً، فما عليك إلا أن تطرق الباب. سيكون منزلي مفتوحاً أمامك على الدوام.

تبادل الرجلان عناقاً صامتاً، ثم قال مراد:

- لا تنس أن تأخذ معك يا جنرال، الملتحق الجديد بقواتك. سيكون مؤسفاً أن تحرم من عضو بمثل خصاله.

سأل كريم:

- هل صديقنا جاهز؟

- هل هو جاهز؟ إنه لا ينتظر، منذ ثلاثة أيام، سوى هذه اللحظة.

جمع كفيه حول فيه ونادى:

- نيكوس. حان الوقت. سينصرف الجنرال كليبر.

حتى لو كان اليوناني قد سقط من السماء لما كان حضر بتلك السرعة.

وضع صرّة على الأرض وتقدم خطوة إلى الآمام، فأدى تحية عسكرية متقنة.

- هكذا إذن، علق كليبر، أنت مستعد للانضمام إلى صفوف الجيش الفرنسي.

- تماماً جنرال.

- لقد أطرى الأصدقاء هنا على خصالك. وإذا صدقوا، فأنت تملك منها الكثير.

أجاب نيكوس بثقة رائعة في النفس:

- تماماً، جنرال. الأمر كذلك.

- أنا سعيد بذلك. وبمجرد عودتنا إلى القاهرة سأسلمك بدلة كتيبة قناصة الشرق. لكن تعيينك مؤقت، إذ أعتزم، في الأسابيع المقبلة، أن أنشئ فيلقاً يونانياً منتقىً من الفرق الموجودة الآن. وحسب ما فهمت، فأنت أيضاً من أصول يونانية.

- تماماً جنرال. ولا يستطيع تسيير يوناني إلا يوناني. فأنا على علم كامل بهذا الجنس.

- ستعرف إذن كيف تستخلص منهم أحسن ما يمكنهم القيام به؟

- لتحقيق ذلك، ليس ثمة سوى حل واحد، جنرال. ركلات على مؤخراتهم، إذا سمحت لي بهذا التعبير. العصا قبل أي شيء آخر.

- فهمت. وبما أنك ستكون مسؤولاً عن الفيلق فستكون محتاجاً، أنت أيضاً، إلى ذلك.

- هذا شرف لي، جنرال.

- في هذه الحال... هيا بنا أيها القائد.

كان كريم يتابع المشهد مكتئباً. فبعد سنوات من الصداقة مع اليوناني، سينفصل، في هذه اللحظة، مصيراهما. كان بإمكانه، هو أيضاً، بالتأكيد أن يحذو حذو نيكوس، لكن أي دور يمكنه أن يشغله في الجيش الفرنسي غير دور جندي بسيط ضائع ضمن الحشود؟ ثم لماذا ينصرف، ما دام يشعر بأن لا شيء ينقصه في خدمة مراد بك.

ثم هل هناك من شيء بقيت له قيمة بعد هذا الخبر الرهيب الذي أتى به روزيتي؟

مات ميشيل شلهوب... ونادية وعائشة، وما عاد للصباح من وجود.

هذا أمر مرعب. كيف أمكن لمأساة مثل هذه أن تحصل؟ هل هو قضاء نزل بالعائلة شديد؟

شهرزاد... تصور حزنها... وجرحها.

لو كان بإمكانه أن يكون قريباً منها لساعدها على اجتياز حزنها. فكر في ذلك، لكنه وجد الأمر مستحيلاً.

لم يكن ذلك بمستطاعه؛ فمع مغادرة نيكوس، أصبح مسؤولاً عن قيادة الأسطول.

* * *

٨ يونيو ١٨٠٠

كان أحمد عازف الناي الذي لا عمر له، يتأمل، متكئاً على شجرة سنط، شهرزاد بحنو من ينظر إلى ابنته. ما كان يكنه إليها يفوق التقدير؛ فهو، خلال حياته كلها، لم ير من امرأة ما رآه من شجاعة شهرزاد. منذ أن حطت رحالها بمزرعة الزهور، مما يقارب ثلاثة أشهر، مع طفلها، لم تسمح لنفسها بلحظة راحة. وإذا كانت خلال أيامها الأولى قد أبدت بعض الانعزال وبعض الوهن، واكتفت بالسهر على متطلبات طفلها وبالمشي لساعات في الريف، لا تبادل الناس سوى بعض الكلمات، فإن ذلك لم يستمر إلا قليلاً. استيقظت يوماً وكأنها ما عادت هي المرأة نفسها. توجهت إلى ضيعة النزلة وأعلنت عن رغبتها في إحياء مزرعة الزهور، مما جعل الأهالي يخصونها باحتفاء جدير بملكة. عادت من الضيعة رفقة بدويَّيْن، فاهتمت معهم، في البداية، بحالة البيت؛ وضعوا الحواجز وعوضوا الخشب المنخور وأغلقوا الفجوات.

بعد ذلك جاء دور الصالون الرئيس. فركته ولمعته وأضاءت المصابيح النحاسية ثم نظفت قناة المدخنة والموقد والسطح، فتفرغت، بعد ذلك، مع بنّاء، للأشغال الكبرى.

بالطبع كانت أمور أخرى ما تزال بحاجة إلى اهتمام، كحالة سقف البيت. لكن ليس ثمة من شك في أن مزرعة الزهور، مع الدعم اللامشروط لسكان النزلة، ومع تصميم شهرزاد، لن يتأخر جزء منها، يوماً، في العودة إلى سالف بهائه. فالسكان، وبمجرد علمهم بالمأساة التي حلت بآل شديد، ما انفكوا أن تآزروا حولها بتلقائية وشرعوا يتنافسون في من يكون السباق إلى الاستجابة لطلباتها. وحتى لو كانت شهرزاد – المفتقرة إلى كل الإمكانيات المادية – قد أدت للرجال أجوراً عن عملهم، فإنهم ما كانوا ليشتغلوا بتلك الهمة. كانت ذكرى الجد ما تزال حاضرة في الأفئدة.

كان كل نشاطها، خلال الأسبوعين الأخيرن، منصباً كلية على الأرض وعلى الفدانين المهملين اللذين أقسمت أن تعيد إليهما الحياة قبل حلول وقت

الفيضان. حاول القرويون الذين أسرت إليهم بفكرتها، في البداية، أن يثنوها عن عزمها، قائلين بأنه ما عاد هناك ما يكفي من الوقت. فأيّاً ما تكن عزيمتهم، فإن الوقت لن يكفيهم ليستصلحوها وليجتثوا الأشواك والأعشاب والأحجار، وخصوصاً رمال الصحراء التي أصبحت، مع الزمن، تغطي عملياً كل الأرض. هم لم يكونوا في مواجهة أرض مستريحة، وإنما أرض متيبسة متشققة بفعل سنوات من الشموس الحارقة.

- سنستطيع القيام بذلك، قالت بحماس. سنستطيع إن كنتم تريدون ذلك بالقوة نفسها التي أستشعرها أنا.

فحذوا حذوها مأخوذين بحماستها وبيقينها. واليوم، وعلى بعد ثلاثة أسابيع من الفيضان، فإنها ليست بعيدة عن الفوز برهانها.

أية امرأة رائعة هي! إنها بالفعل لجديرة بأن تكون حفيدة مجدي شديد.

- في أي شيء تفكر يا أحمد؟

رفع بصره نحوها. كانت قسماتها مغبرة وكفاها مسودتين من الوحل. لكنها كانت جميلة كعادتها.

- في ماذا أفكر؟ الذين في سني ما عادوا يفكرون.

ثم تابع:

- لا. أنا أكذب. كنت أفكر في شجاعتك.

ثم أشار إلى الأرض التي تحيط بهما.

- أتدرين بأنك آخذة في تحقيق مرامك؟

- لماذا؟ هل كنت تشك في ذلك؟

- الشك جبلة فيّ. إنه يحف بلياليّ. أجل... كنت أشك.

تهالكت بدورها إلى جانبه واتكأت على شجرة السنط.

- مع ذلك، كان بإمكانك وأنت تراقبني منذ ثلاثة أشهر، أن تعرفني. عندما أتخذ قراراً، لا يمكن لشيء أن يقف في وجهي.

- هذا هو زهو الشباب يعرب عن نفسه من خلالك.. ففي سنك، ينتصر الإيمان بالشيء دائماً على الصعوبات.

- بعد بضعة أسابيع سأكون في الثالثة والعشرين من عمري... ما عدت شابة.

أطلق ضحكة عالية.

- ثلاثة وعشرون عاماً... ماذا علي إذن أن أقول أنا؟ لقد انحدرت ثلاثة أرباعي نحو الموت، وما عدت أرى سوى نصف الأشياء... ثلاثة وعشرون عاماً...

- كنت أمزح...

التفتت نحوه قليلاً واستطلعته.

- قل لي يا أحمد... أنت لم تحك لي قصتك.

وضع كفه على عينه المنطفئة.

- أعن هذه القصة تتحدثين؟

أشارت بأن نعم.

- ماذا ستفيدك معرفة آلامي. ألا ترين أن القدر قد خصك منها بما يكفيك؟

- الأمر لا يتعلق بقدري وإنما بقدرك... هيا احك.

مرر كفه على نابه.

- حصل ذلك منذ زمن طويل. لنقل منذ حوالى خمس عشرة سنة. وعلى أي حال، ما قيمة التواريخ؟ آنذاك كانت بيوتات المماليك تتشاحن فيما بينها. إبراهيم ومراد والمناصرون القدامى لعلي بك الكبير. وعندما كان ينتصر أحدهم، كان يطرد الآخر من القاهرة. كان يلتجئ عادة إلى أعالي مصر أو إلى فلسطين ليهيّئ هجومه. كان ذاك زمن الاضطرابات الكبرى. كنت أعيش آنذاك بإسنا، وهي قرية صغيرة جنوب الأقصر. كنت أملك حقلاً قصرته كلية على زراعة القطن.

- مع زوجة؟ وأطفال؟

- لا... لم تراودني البتة فكرة اتخاذ امرأة. المرأة كائن غريب. جميل لكنه غريب... لكن، لنتوقف عن الحديث في هذا، فقد أقول لك كلاماً يزعجك، وقد تنتشلين العين التي بقيت لي.

ضحك ضحكته الغريبة وواصل:

- حصل ذلك ذات يوم من ديسمبر لسنة ١٧٨٤. أترين. قلت ما أهمية التواريخ، ومع ذلك فإن ذاكرتي ما تزال محتفظة ببعضها. كانت هذه السنة

تجسد، مثل سابقاتها، محل الأرض وغلاءها. كان صعود ماء النيل غير كاف، فكثرت الحوادث والمصادرات، وأصبحت تجاوزات البكوات متواصلة. كان رجالهم ينتشرون في المدن والقرى لجبي الضرائب ولارتكاب كل أنواع الظلم التي كانوا يسمونها بأسماء غريبة. كانوا يستنزفون القرويين الذين كنت أحدهم. كان أكثرهم عوزاً يلتجئ إلى بيع أشيائه الشخصية وما يملكه من ماشية ليلبي رغباتهم.

تنهد بعمق، قبل أن يتابع مع ابتسامة باهتة:

- حضر إلى مسكني رجلان، والشمس تخرج، بالكاد، من الوادي. كانا مصحوبين برجال شرطتهما، مدججين بالسلاح. كانت تلك هي المرة الثالثة، في ستة أشهر، التي يأتون فيها لجبي ضرائب. حتى تلك اللحظة، كنت أؤدي دائماً. وهذا اليوم رفضت. وعلى أي حال فما كان بقي لي شيء ذو بال. بلغت الجرأة بي حد أن صفقتُ الباب في وجوههم. خلال النصف ساعة الموالي، أوقدوا النيران في مسكني. لم يعد لي سوى خيارين: أن أموت محترقاً أو أن أطعن. كنت دائماً أخاف النار. وبمجرد خروجي، رأى الرجل أن لا يقتلني. فقد قدر - الله وحده يعلم كيف - بأنني لم أؤد إلا نصف ديني، فحرمني من نصف بصري.

صمت وأصابعه معقودة حول الناي.

- ها أنت تعرفين الآن كل شيء عن قصتي.

- وبعد ذلك... ماذا فعلت؟ فررت من إسنا؟

- ما الذي كان بإمكاني غير ذلك؟ أجل. انصرفت.

صمت من جديد قبل أن يقول:

- إذا سمحت، سأحكي لك الباقي يوماً آخر.

- بالطبع، وسامحني إن كنت قد أيقظت فيك هذه الذكريات. لم أكن أدري...

وضع سبابته على شفتي شهرزاد.

- ششش... أنت لم توقظي أي شيء، ما دام شقائي لم يعد ملكي. لقد رددته على الأشرار. هو مستقر الآن في ضمائرهم. أنا متأكد أنه لا يترك لهم لحظة راحة واحدة. هذا مكتوب هنا - فتح كفه اليسرى التي أصبحت من

تجاعيدها مثل رَقٍّ قديم، ووضع فيها سبابته اليمنى - كل شيء مكتوب. الخير والشر، الحياة والموت.

فتحت المرأة الشابة بدورها راحتها وتأملتها بحزن.

- خراب الصباح، قتل أمي ويوسف وأخي.. أيكون كل شيء مكتوب هنا؟

- هذا يا شهرزاد هو ما يشكل الشر والموت. أنا أشرت أيضاً إلى الخير والحياة.

أطبقت أصابعها وقد أضحت عيناها غارقتين في الدموع.

- الحياة؟... سألت بصوت مختنق.

أشار أحمد إلى المزرعة.

- يوسف الذي ينام الآن يشكل جزءاً من الجواب.. ألا تعتقدين بذلك؟

* * *

١٤ يونيو ١٨٠٠

خطا كليبر بضع خطوات في حديقة القيادة العامة وقال للرجل الذي يرافقه:

- أنا راضٍ عنك، يا بورتان. عملية إصلاح القصر متقدمة. لقد احترمت الآجال.

رفع المهندس الذي كان يرافقه، قليلاً، العصا التي كان يتكئ عليها.

- أنا سعيد بأن أعجبك هذا، يا جنرال. كانت قنابل التمرد الأخير قد قوضت الأروقة والواجهة الشمالية. ليست الآجال هي ما سبب لي في مشاكل جلَّى، وإنما احترام الإطار الأصلي.

- لقد أحسنت التخلص. إنه لأمر رائع.

تابع الرجلان تقدمهما بين أشجار الرمان والغاردينيا الموردة.

كانت نهاية الزوال قد أزفت، غير أن الشمس كانت ما تزال تدفئ بركة الأزبكية، مما يفسر، بالتأكيد، كون الجنرال لا يلبس سوى قميص مع سترة طويلة.

تابع حالماً:

- على أي حال، فإنني عندما أفكر فيما أنجزته هنا، أقول لنفسي بأن ما سيدوم هو العمل العلمي. ألا تتفق معي؟

- بدون شك، جنرال. فبفضلك، ستكون مادة ثمينة ملك يمين الأجيال القادمة. وآخذ كمثل فقط وصف مصر؛ هذا الأثر الأدبي الذي ابتدع بفضلك. تصميماته الطوبوغرافية ومناظره ورسوماته الهندسية ستعرّف أوروبا بهذه الآثار الفريدة. وأعتقد، بالفعل، أن العمل عندما سينتهي، سيشكل إرث بعثتنا الأعظم.

- ليسمع الله منك. هذا سيعوض ربما، للأسف،... كل هؤلاء الموتى.

استبق بورتان أفكار رئيسه:

- أعتقد أنك ما تزال مؤمناً بضرورة الانسحاب من مصر؟

- أكثر من أي وقت مضى. وكما لم أكف عن القول لمينو، فإن اتفاق العريش لم يكن يشكل خطأً سياسياً، وأن الانتصارات الجديدة التي حققها الجيش يجب ألا تُثْمِلنا. سأواصل المفاوضات، لكن هذه المرة مباشرة مع الباب العالي دون وساطة الإنجليز. وأنا متأكد من أنني سأستطيع يوماً أن أعيد الأمور إلى نصابها، بعد أن قوضها المقامر بشكل أخرق.

ثم غير الموضوع فجأة:

- هذه الشرفة، يجب التفكير في رفعها. لقد وجدتها دائماً مسيئة إلى التناغم العام. ما رأيك يا بورتان؟

وجه المهندس مقدمة عصاه نحو المكان المقصود.

- تتحدث عن هذه؟

لم ينتظر التأكيد، وتوجه رأساً نحو الشرفة.

في الوقت الذي وصل فيه إلى الأعمدة التي تقوم عليها الشرفة، مرَّ شبح عند منعطف الساقية التي كان كليبر يمشي إلى جانبها، واقترب منه.

أبدى الشخص النحيل الذي كان يبلغ من العمر حوالى الثلاثين حركات مسْكَنة أمامه.

- ما فيش. قال منزعجاً، وهو يشير على الدخيل بالانسحاب.

لم يستجب الرجل، فكرر:

- ما فيش.
وكي يُظهر كليبر تصميمه، دفعه.
كل شيء مر بسرعة.
أمسك الآخر بيد الألزاسي واستل، بكفه الأخرى، خنجراً كان يخفيه، بالتأكيد، في تجويفة كمه.
وجه للبطن أربع طعنات.
- بورتان. صاح كليبر. تعال.
التفت المهندس الذي لم يكن قد شاهد شيئاً حتى تلك اللحظة، في الوقت الذي كان فيه الألزاسي يتمرغ على الأرض.
رفع عصاه وهجم، ضارباً بكل قوة، محاولاً إزاحة القاتل. لم يبد هذا الأخير - متحكماً في نفسه على ما يبدو - أي تراجع. بل بالعكس أراد أن يجعل من بورتان ضحيته الجديدة. بسرعة البرق، طعن المهندس، مرة، مرتين. انداح الشقي بدوره، قريباً من جثمان رئيسه.
تأمل الرجل، للحظة، برضاً، فعله الشنيع قبل أن يطلق ساقيه للريح في الممرات الخالية لحديقة الألفي بك.
كان كليبر، الممدد أرضاً، يؤتي حركات ألم. لم يكتب لدمه الذي كان ينزف بغزارة من بطنه أن يشكل بركة، إذ شربته أرض مصر على التو.
كانت آخر رؤية أترعت ذهنه هي رؤية الشمس. ومن الغريب أنه قد بدا له وكأنه يرى في الخلفية الابتسامة الحزينة لأبي الهول.
أسلم الروح مع تنهيدة أخيرة. كانت خيبته من الموت بهذه الشاكلة ستكون أكبر، بالتأكيد، لو علم أنه في الآن نفسه تقريباً، لكن على بعد آلاف الأميال من الأزبكية، وفي مكان ما من ساحة معركة مارينغو، كان صديقه أنطوان دوزيكس يموت، هو أيضاً، مصاباً برصاصة نمساوية.

* * *

١٧ يونيو

كان المدفع، منذ موت البطل، يطلق طلقة كل نصف ساعة.
وهذا الصباح، سمعت سلسلة من الطلقات المنبعثة من القلعة ومن مختلف الحصون معلنة بداية الحفل المأتمي.

كان الجثمان - محمولاً على عربة عسكرية مغشاة بثوب مخملي أسود مزين بنقط فضية، ومحاطاً بحزمة أسلحة الجنرال وخوذته وسيفه - يعبر شوارع القاهرة في اتجاه الحي الأوروبي.

ألقى فوريي، عشيق سميرة الأسبق، كلمة النعي، وقام الجيش باستعراضٍ ووضعت أكاليل من الغار وأوراق السرو على النعش.

كان فرانسوا بيرنويي حاضراً بين الجموع.

كان حاله يوحي بشعور بالمرارة وبالتعب البالغ. كان يتفحص الشخصيات الحاضرة. لم يتغيب أي ضابط. وإذا كان داماس يبدو شديد الحزن على وفاة الجنرال، فإن راينر وعبد الله مينو كانا يبدوان قلقين أكثر مما يبدوان متأثرين. ربما كانا يفكران معاً في أنهما سيحتلان موقع الألزاسي. وبالفعل، فلا شيء كان قد رتب لاختيار القائد الجديد. وبما أن باريس لم يكن بإمكانها، لبعدها، أن تحدد الخلف، فإن كل شيء كان سيحدد بين الجنرالات الكبار الحاضرين في القاهرة. وكان الأمر سيحصر تحديداً بين أقدمهم.

أن يكون مينو أو راينر. . . فإن ذلك لا يحظى باهتمام بيرنويي، في هذه اللحظة، إذ كان تفكيره منصباً على كون كليبر قد توفي على أرض أجنبية كان يعمل بكل قواه على مغادرتها، حتى ليُخيل وكأنه كان يعلم مسبقاً بأن كل ساعة يقضيها على أرض مصر تقربه من حتفه.

* * *

انتهت مراسم الدفن.

توجه الجمهور إلى أكمة حصن المعهد ليشهد عملية عقاب القاتل، إذ كان القبض قد ألقي عليه خلال الساعات التي أعقبت اقترافه لجريمته.

لم يكن الأمر يتعلق بمصري، وإنما بحلبي. كان اسمه سليمان الحلبي.

كان بارتليمي شخصياً هو من تولى عملية الاستنطاق.

اكتفى المجرم، لتبرير فعله، بالإشارة إلى الجهاد، أي إلى الحرب المقدسة. أظهر التحقيق بأنه لم يكن متواطئاً مع أحد، باستثناء أربعة من علماء الأزهر أسر إليهم بنيته، والذين حاولوا ثنيه عن عزمه دون أن يبلغوا عنه، على أي حال.

يومان قبل ذلك، كانت لجنة يترأسها الجنرال راينر قد أعلنت حكمها: ستضرب أعناق ثلاثة من العلماء.

كان البدء بهم.

بعد أن قطعت أعناق الثلاثة، اقترب بارتليمي من الحلبي.

بدأ بإحراق الكف التي كانت أداة الموت.

لم يبد سليمان مقاومة. بينما كانت النار تلتهم جلده، كان صوته يعلو بآيات من القرآن.

بعد ذلك جاء دور التسفيد. أدار فرانسوا بيرنويي رأسه في اللحظة التي نفذ فيها الرجل على قطعة خشب طويلة.

لا صياح ولا أي شيء. كان الحلبي يبدو غير شاعر بألم.

قاوم ساعة، ساعتين، أربع.

انتهى الحضور - الذي أبدى انبهاراً بمقاومة المعذب - بالملل من المنظر، فتفرق.

بقي بيرنويي وحيداً.

التفت حوله. كانت الساحة قد أصبحت فارغة، والرجل لم يسلم الروح بعد. لكن آلامه كانت بالتأكيد مرعبة.

آنذاك تقدم فرانسوا وتناول مطْرته ومرر فمها بين شفتي الحلبي، وساعده على أن يشرب.

فعله هذا، وهو يعلم ذلك، سيؤدي إلى الموت الفوري.

مع نهاية اليوم، كان الجراح لاري قد حصل على الإذن بأن يضم الجثة إلى مجموعته.

وفي المساء، تولى عبد الله مينو القيادة العامة في انتظار قرار باريس.

عندما علم بيرنويي ورفقاؤه في السلاح بالخبر، حلقت آخر أوهامهم نحو جثمان كليبر.

إن من تولى قيادة جيش الشرق ليس جنرالاً وإنما رمزاً لانعدام الكفاءة.

الآن أصبح الأمر مؤكداً: ستعيش بعثة مصر، لغد... لشهر... لستة أشهر.

الجزء الثالث

الفصل السابع والعشرون

الإسكندرية ١٢ سبتمبر ١٨٠١

كان فرانسوا مارتان نويل بيرنويي متكئاً بمرفقيه على درابزين سفينة الشحن التي أرخت قلوسها لتوها.

كانت صومعة الضريح وبركة أبو قير تتلاشيان شيئاً فشيئاً في الغمام الخفيف الذي يخيم هذا الصباح الباكر. كانت الفرق العسكرية العثمانية، على اليمين، على أقدام أسوار الإسكندرية، تتسلل إلى داخل المدينة. وكانت أصوات الطبول التي تصاحب حركتهم، تصدى على البحر. كانت البيارق البرونزية اللون التي طُبع عليها بالهلال العثماني، ترفرف في كل اتجاه فوق الرؤوس. انتهى كل شيء...

كانت سفن أخرى تحيط بسفينة بيرنويي. كان على متنها ثلاثة عشر ألفاً وستمائة عسكري وستمائة وثمانون مدنياً. هذا كل ما تبقى من الأربعين ألف رجل الذين شكلوا جيش الشرق العظيم.

كان من بينهم: كارلو روزيتي.

كانت خمسة عشر شهراً قد ولت منذ الوفاة العبثية لجان بابتيست كليبر. خمسة عشر شهراً مطبوعة بالخور التام لعبد الله مينو؛ فقد قاد الشخص المفضل لدى أبو نبارت - بعناده في القيام بأمور مغلوطة، وبأخطائه في تقييم الأمور العسكرية - السراب الشرقي إلى نهايته.

قبل ستة أشهر، وفي الوقت الذي كان فيه الأسطول الإنجليزي العثماني المكون من أكثر من مائة وخمس وتسعين قطعة، قد عسكر أمام الشواطئ المصرية، لم يجد مينو حلاً أفضل من أن يصرح بأنه: «ليس هناك ما نخشاه.

هذا آخر ما بوسع الإنجليز أن يفعلوه. والحق أن الله هو من يقود الجيوش، ويقلد النصر لمن يشاء. إن السيف البتار لملاكه يتقدم دائماً الفرنسيين ويقضي على أعدائهم».

وقد صرح صارخاً في وجه رينيي، المذلول أمامه في تحية عسكرية: «كل هذا ليس سوى توهيم، والهجوم الرئيس سيكون عند شرق الدلتا.»

أصر رينيي على خطورة الوضعية، لكن مينو عاند بتلك الصرامة العمياء التي هي خاصة مميزة للبلداء.

بعد ثمانية أيام، أي يوم ٨ مارس مساءً، نزل عشرون ألف إنجليزي، على رأسهم السير رالف أبيركرومبي على الأرض المصرية.

وعندما علم مينو بالمعركة التي أعقبت الإنزال، عاند ووقع: «ليست هذه سوى مناوشات صغيرة...»

يوم ١٧ مارس، استسلم حصن أبي قير.

استقرت المناوشات الصغيرة على شبه الجزيرة وتعززت.

لم يصل مينو إلى عين المكان إلا يوم ٢٠ مارس.

ويوم ٢١ فجراً، اندلعت المعركة في الميناء.

عند العاشرة صباحاً انتهت بانهزام الفرنسيين. كانت الخسائر فادحة؛ ما يقارب ألفي رجل. أبيدت الخيالة التي أرسلها الجنرالُ القائدُ منعدمُ الضمير إلى المذبحة.

ويوم ٢٥ مارس، كان الدور دور الأتراك ليغيروا على مصر.

يوم ٨ أبريل، سقطت رشيد.

ويوم ١٨ أبريل، دوى الخبر المفاجئ مثل طلقة مدفع: مراد بك، مراد بك الشامخ، مراد المقدام قد توفي.

عندما علم بإنزال الأتراك، كان قد تحرك بإخلاص مع مماليكه، ليعزز الجيش الفرنسي، كما وعد بذلك كليبر. لكن الطاعون كان قد ضرب أعالي مصر. وما عجز دوزيكس وثمانية وثلاثون شهراً من الحرب عن القيام به، استطاع المرض تحقيقه.

توفي مراد حوالى منتصف الزوال. وبما أن الظروف لم تسمح بدفنه بالمدفن الذي كان قد أعده، فقد وُورِي في الثرى بالسواقي، قريباً من طهطا.

كسر مماليكه أسلحته على قبره، مقدرين أن لا أحد منهم جدير باستعمالها.

مع بداية مايو، زحف الإنجليز والعثمانيون إلى الرحمانية.

يوم ١٠ مايو، انقسم الجيش الفرنسي إلى قسمين.

وفي منتصف يونيو، تموقع العدو على مشارف القاهرة، وحاصر المدينة.

أما مينو المنعزل بالإسكندرية، فقد كان، من جهته، يقوم بكثير من الحركات ويكذف ويصيح لمن يريد أن يستمع إليه: «لقد استولى جيش من ثلاثين ألف فرنسي على أيرلندا. ويوجد جيش بحري فرنسي وإسباني الآن في البحر الأبيض المتوسط» ويكثر من تقديم النصائح التي لا يطبقها البتة: «أنهكوا الإنجليز والأتراك؛ لا تسمحوا لهم بلحظة راحة واحدة.»

ويوم ٢٢ يونيو كان الاستسلام.

كانت الظروف مشابهة لظروف اتفاقية العريش (التي كثيراً ما انتقدها مينو) باستثناء بنود الآجال والشروط المالية التي كانت أكثر من سابقاتها.

خلال الأيام الموالية أطلق سراح المسلمين ورفعت الأعلام العثمانية خفاقة على جدران العاصمة.

بينما كانت الإسكندرية تتلاشى في الأفق، لم يستطع بيرنويي أن يتخلص من فكرة مشوبة بالتأثر تجاه جثمان كليبر الذي أخرج من قبره، والذي يوجد في مستودع السفينة. هل كان الجنرال البائس يشاهد من مرقده ذاك الطفل البالغ من العمر تسعة أشهر والذي ينام في أحضان زبيدة؟ هل يعلم أن مينو لم يجد - بإيهام يعلم الله وحده كنهه - أي أمر آخر أشد وقاحة من أن يطلق عليه اسم قاتل كليبر: سليمان.

لكن ربما وجد أبو نبارت في هذا التفصيل، عندما يعلم به، مادة للضحك. بل ذلك أمر مؤكد.

سأقودكم إلى بلد تتجاوزون فيه، بانتصاراتكم المستقبلية، ما تفتنون به المعجبين بكم، وستقدمون للوطن خدمات له الحق في أن ينتظرها من جيش لا يقهر. إنني أعد كل جندي بأنه سيمنح، عند العودة من البعثة، ما يمكنه من شراء ستة فدادين من الأرض.

حصل ذلك يوم ٩ مايو ١٧٩٨ بطولون. حرك بيرنويي كتفيه... آتى

حركة استسلام كما لو ليقذف إلى البحر بأجرته غير المؤداة منذ ثمانية أشهر.

ولحسن حظه، فإن زوجته تنتظره عند نهاية هذه الرحلة. أفينيون. نشيد الزيز والشمس التي تشبه، في الواقع، شمس مصر.

* * *

كان محمد علي واقفاً بالميناء يتأمل الموكب الذي يتلاشى في البحر.

نفض، بحركة، غباراً غير مرئي عن بذلته «السرشميد»، ثم استقام واستنشق ملء رئتيه الهواء البحري. ارتسمت ابتسامة خفيفة على محياه المحاط، من زمن قصير، بلحية كثيفة صهباء من شقرتها. ها هو ذا يعود. كان يعلم دائماً أنه سيعود.

مشى خطوات غير مبال بالاعتمال حوله. كان ذهنه بالتأكيد مشغولاً، محتلاً فقط بتحليل الوضعية الجديدة الناتجة عن انسحاب الفرنسيين. من الآن فصاعداً ستبقى حاضرةً قواتٌ ثلاث: الإنجليز بقيادة الجنرال هاتشينسون، والأتراك تحت قيادة الوزير الأعظم وخسرو باشا، ودائماً، وكالعادة، المماليك. لم يعد مراد بك على قيد الحياة، بالطبع، لكن منزله كان ما يزال موجوداً. ولم يكن ثمة من شك في أن قائداً جديداً سيحتله، إن لم يكن ذلك قد حصل بالفعل.

لكن في قلب المثلث، كان محمد علي حاضراً.

ولولا أصوله الألبانية ما كان له اليوم أن يكون على رأس هذه الفرقة الهامة في القوات العسكرية العثمانية، حيث يرأس أربعة آلاف رجل من دمه نفسه. وهم جنود أصْلابٌ وضعوا رهن إشارته بأجسادهم وأرواحهم.

عندما سيغادر الإنجليز مصر - وسيفعلون عاجلاً أم آجلاً - سيكون واجباً الاعتماد على هذه المجموعة الألبانية. وإذا ما حصل ونسيه الوزير الأعظم وخسرو باشا، فإنه سيكون حاضراً ليعيد إلى ذاكرتهما طراوتها.

* * *

٨ أكتوبر ١٨٠١

- لقد انسحبوا هذه المرة بالفعل. وشوشت الست نفيسة.

كانت تبدو، في ملاءتها السوداء، وكأن عمرها قد زاد عشر سنوات.

- لقد رحلوا. وأعتقد اليوم أنهم ما قدموا إلى مصر إلا كي يموت مراد بك، رحمه الله.

حبست بكاءها ورفعت ذقنها بأنفة.

- لا يهم... إن ذكرى زوجي ستحيا على مر السنين. مثل الأهرام، مثل عظمة الفراعنة.

- ستحيا بالتأكيد. وسيكون بإمكان أحفادك أن يفخروا بها.

أشارت إلى الطفل الذي كان نائماً في زاوية من الغرفة.

- يوسف الصغير بدوره سيعرف. سأحكي له عن بسالة مراد بك.

آتت نفيسة حركة حنان.

- ليحفظه الله. إن لديك ملاكاً وليس طفلاً، إنه لرائع.

- مرت سنة وشهر. ذلك صحيح، وأنا فخورة به.

التفتت نحو البيضاء:

- ماذا ستفعلين الآن ؟ أفترض أن الباشا الجديد سيعيد إليك أملاكك مع القصر؟

- سيكون ذلك، بعد ما قام به مراد، أقل ما يمكن القيام به. وحسب المعلومات التي في حوزتي فإن الأمور قد تكون في طريقها إلى الحل.

قشرت حبة فستق بتلقائية وتابعت:

- أما بالنسبة للفرنسيين... فإنني أعترف بأنهم قد أبانوا عن كرمهم. قبل أيام من رحيلهم استدعوني إلى مقر القيادة العامة حيث أخبروني بأن معاشاً من مائة ألف بارة قد حدد لي من أجل الخدمات المقدمة للجمهورية.

لم تبد شهرزاد مفاجأة من الخبر.

- لقد خصص مراد سنته الأخيرة للدفاع عن الجنرال كليبر وخلفه. لقد ظل وفياً لعهده إلى آخر رمق. وأنا أجد هذه الإشارة، في الحقيقة، طبيعية.

- من غير شك... من غير شك... لكننا قد تحدثنا عني بما فيه الكفاية. وإذا كنت قد سمحت لنفسي بإزعاج وحدتك، فلأن مستقبلك يقلقني. هل قررت فعلاً أن تظلي هنا؟

- أجل، يا ست، تماماً. وعلى أي حال فأنا لا أرى أن بإمكاني القيام بشيء آخر.

اعتملت البيضاء.

- كيف؟ أنت؟ تتساءلين وأنت بهذا الجمال وهذا الشباب؟ لقد فقدت صوابك يا بنيتي.

تظاهرت شهرزاد بالاحتجاج، لكن:

- قبل كل شيء، أريد أن أعرف إن كانت لديك الإمكانيات.. هل أنت في مأمن، من الناحية المادية؟

- بفضل الله وبفضل حيطة والدي، لديّ ما أسد به حاجتي وحاجة يوسف. عليك ألا تقلقي من هذه الناحية.

- طيب. هذا تفصيل يريحني، لأنني لا أسمح لنفسي بأن تبقي في حاجة إلى شيء أبداً. لننظر الآن في مشكل آخر: ما الذي تنوين القيام به في حياتك؟

فوجئت شهرزاد بالسؤال بعض الشيء، ثم أجابت:

- أن أربي طفلي وأن أعيد بناء الصباح.

- تعيدين بناء الصباح؟ بأية إمكانيات؟ هل يكفي إرث أبيك للقيام بذلك؟

- أبداً. وأكثر من ذلك فقد استعمل جزء هام منه في مزرعة الزهور.

- وإذن؟

- لا أدري كيف. لكنني سأفلح في ذلك.

أنار شعاع حليم عيني المرأة.

- أنت طفلة بالفعل... تقولين إنك ستفلحين. أتعتقدين أن المال ينبت على سعف النخيل؟ أنا، بالطبع، عندما أرى ما قمت به في مزرعة جدك أندهش. هذا أمر خارق. لكن أن تعيدي بناء الصباح، فهذا أمر آخر. سيكون الأمر في حاجة إلى الملايين. من أين ستحصلينها؟

- لقد قلت لك يا ست نفيسة، أنا لا أعرف شيئاً. وعلى أي حال فأنا لست مستعجلة. أمامي كل الوقت.

اعتلى ملامح نفيسة الآن تعبير استنكاري واضح.

- سامحيني، لكنك تتجاوزين التعقل. هذه المهمة تفوق إمكانياتك. لكن الله يعلم مقدار إيماني بالعزيمة. لا يا حبيبتي. عليك أن تزيحي هذا المشروع من ذهنك. وعليك أن تنطلقي في اتجاه آخر مخالف تماماً.

طلبت منها شهرزاد أن تفسر كلامها.

- ألن تؤاخذيني إن كلمتك بكل صدق؟

حركت رأسها.

- وعد؟

- وعد.

تنهدت البيضاء بعمق، وشرعت تتكلم بتصميم:

- قريباً سيمر ثمانية عشر شهراً على وفاة زوجك البائس، ليرحمه الله. ألا ترين أن عليك أن تفكري في مستقبلك؟ وفي مستقبل طفلك؟ إن امرأة مثلك لا يمكنها أن تعيش ناسكة. فتلك خطيئة. الرجال، كما ترين، هم أشخاص لا يحتملون؛ هم طغاة صغار يلعبون، من أكبرهم إلى أصغرهم، دور الوزير أو السلطان. والله يعلم كم ينغصون علينا حياتنا. لكن، وللأسف، فإن العيش بدونهم أفظع... أتفهمين؟

لم تجب شهرزاد على الفور. فبالموازاة مع حديث المرأة، كان ستار ينسدل على عينيها.

- أفهم. قالت أخيراً. لكن قلبي ثقيل مترع بالذكريات. من يدري، لاحقاً... يوماً.

ثم ختمت بصوت خفيض:

- عندما أعيد بناء الصباح.

اهتزت البيضاء، وقد عيل صبرها، في أريكتها، ثم عادت إلى القعود.

- في ماذا سيفيدك الصباح إن كنت ستعيشين فيه وحيدة؟ وكيفما كان الحال، فأنا ببساطة لا أصدقك.

اندهشت شهرزاد.

- أجل. أنا لا أصدقك. فواحدة أخرى غيري قد تصدق حكايتك على الفور. أما أنا فلا. لا. أنت تخفين علي أمراً.

- أنا... أنا لا أفهم. ما الذي تريدين قوله؟

- أية لعبة تلعبين يا ابنة شديد؟ أنا أعرفك منذ زمن طويل، ولست بليدة. هل تظنين أنني سأمنحك صفة القديسة؟ هيا. ضعي حداً لادعائك هذا. أنا أنتظر الرواية الأخرى. أنا أستمع.

وكي تسم كلماتها بقوة أكبر، رفعت رأسها ولسان حالها يقول: «انتبهي. زيني كلماتك.»

تأملتها شهرزاد، مبلبلة. لم تكن البتة تنتظر أن يصدر عنها رد فعل مثل هذا. لم تكن تنتظر منها - عليها أن تعترف بذلك - حدساً مثل هذا.

- هذا صحيح، قالت وهي تنكس بصرها بعض الشيء. إنني لم أعترف لك إلا بنصف الحقيقة.

لم تعلق البيضاء. كانت تبدو وكأنها تنتظر الموالي.

- فقط، لا أعرف كيف، أو بماذا أبدأ... أنا...

- لكن الأمر، مع ذلك، بسيط يا بنيتي. حدثيني عن الآخر.

رفعت شهرزاد بصرها إلى السماء، مستسلمة.

- عملياً، أنا الآن اعرف لماذا كان يقال بأن السيد الحقيقي في منزل مراد كان هو زوجته...

ثم قالت بقدرية:

- طيب. سأحدثك عن الآخر.

عندما أنهت شهرزاد حكايتها، كانت وجنتاها قد أصبحتا موردتين. كما لو أن كل كلمة تعترف بها كانت تجلب لها الحمى. كانت هذه أول مرة تسر فيها بسرها لأحد. أحست من ذلك، في الآن نفسه، بارتياح وبخجل.

صمتت، ثم اتكأت برأسها إلى الخلف، متحاشية التقاء بصرها ببصر محادثتها.

وقفت نفيسة وذرعت الغرفة، ثم عادت إلى القعود.

كان أول ما قالته:

- مجنونة... إن ابنة شديد لا تربط مصيرها بابن بستاني. أتعتقدين أن هذا ما كان أبوك يتمناه لك؟ وفوق ذلك مسلم؟

صدمت هذه الملاحظة الأخيرة شهرزاد.

- أنت التي تقولين هذا، وأنت...

- لا... لا تقارني ما لا يقارن. أنا يا شهرزاد كنت أَمَة. وهو ما لا ينطبق عليك. وعلى أي حال، فإن المشكل لا يكمن هنا. الحق أنك تستحقين

أحسن من هذا الرجل. أنت تنزعين نحو نسيان أنك من طبقة أخرى، من عالم مختلف.

أجابت شهرزاد هذه المرة بقوة:

- طبقة؟ دين؟ عالم آخر؟ فيم سيفيدني هذا إن كنت سأعيش نصف حياة؟ هل السعادة كامنة في أن يكون الشخصان منحدرين من الوسط نفسه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يوجد هذا العدد الهائل من الزيجات الشقية؟

- جيد. دعيني إذن أطرح عليك سؤالاً: لماذا ليس ابن سليمان الآن إلى جانبك؟

- هو، بالتأكيد، يجهل ما حصل لي.

- هذا مستحيل. زوجي الفقيد كان على علم بذلك، وبالنتيجة...

- كيف؟

- فكري يا بنيتي. أنسيت أن مراد وروزيتي كانا على اتصال دائم؟ لم يكن يحصل شيء بمصر دون أن يأخذ به علماً. إذن أجيبيني. لقد مر عام. أين كريم؟

كان اضطراب شهرزاد واضحاً، فأجابت دون أن تكون مقتنعة كلية بما تقول:

- إذا لم يكن بجانبي، فله أسباب بالتأكيد تدعوه إلى ذلك.

- أترينه جديراً بالحب الذي تكنينه له؟

- نعم، عقبت شهرزاد بعناد.

تفحصت البيضاء شهرزاد بدقة، ثم تابعت متفكرة:

- الحرب انتهت، ومراد توفي. وإذا كانت المعلومات التي بحوزتي صحيحة، فإن الذي يملك كل الحظوظ لخلافته هو عثمان البرديسي.

- هذه أول مرة أسمع فيها هذا الاسم.

- هو أحد الذين كانوا يحظون بحمايته. كان يعمل في الظل، لكن زوجي كان يكن له تقديراً كبيراً.

- لماذا تحكين لي كلَّ هذا؟

- لأن غريزة المرأة في تهمس لي بأن كريمك هذا سيبقى إلى جانب

البرديسي، وأنه مصمم على الزواج من المراكب أكثر من تصميمه على الزواج من النساء.

كادت سورة أن تستولي على شهرزاد، لكنها اكتفت بالتعليق بالعناد نفسه:

- لا أعتقد. سيعود.

كان الشفق قد شرع يغشي الأرياف، فارتفع لحن الناي دافئاً مطمئناً.

بعد لحظة مالت البيضاء نحو الأمام، وأخذت ذقن شهرزاد بين أصابعها.

- أنظر إليك وأفكر في أمك. ابنتي مهرة، كانت تقول باستمرار. متهورة مثلب الريح، عنيدة كالصخر. لن أعمل على إقناعك. لكن دعيني أقول لك: حب تحيينه قد يشقيك، لكن حباً متعطشاً قد يسكنك الوسواس. أتذكر أنني منذ زمان، منذ زمان طويل، كنت صبية. كان في قريتنا صبي شركسي، كان هو الأجمل والأروع من بين كل الرجال الذين عرفتهم. كنت أحلم به ليلاً، وفي النهار أتنفس وجوده. عندما كان يمر بجانبي ويلامسني، كنت أشعر أنني أموت كل لحظة. وفي إحدى الليالي سلمت نفسي إليه. خلال تلك الليلة فهمت إلى أي حد يمكن للشعور، بعد القدرة على الوصول إلى الشيء، أن يكون خاطئاً. عندما أعاد ارتداء ملابسه، لم أعد أشعر نحوه سوى بالقرف وبالغثيان، وفراغ... فراغ هو بشساعة السماء.

وتنهدت قبل أن تنهي:

- إن كل ما آمله يا بنيتي هو أن لا تشعري أبداً بمثل قسوة هذه الخيبة. وإلا فإن ما ستعانين منه لن يكون هو آلام الحب، وإنما الآلام من ذاتك.

صمتت. كان صوت عربة قد أصدى قريباً من الباب.

انتفضت شهرزاد مندهشة.

- لا تقلقي، قالت نفيسة. إنه صديق أتى ليأخذني. وما دمنا نتحدث عن الرجال - ارتسمت ابتسامة مرحة على محياها - فإنك سترين أحدهم. أريد أن أقول، رجلاً حقيقياً.

كانت العربة قد توقفت. نزل منها أحدهم وشرع يمشي في اتجاههما.

كانت حركته تحوي صفة ما من صفات الكواسر؛ قوة مصحوبة بكتفين عريضتين. في الأربعين من عمره تقريباً. كان شديد الطول. كانت قسماته، بل جسده ككل يعطي الانطباع بجسد منحوت. كان لباسه أسود، مع مشمل

على كتفيه. لكن ما كان يحير فيه أكثر من أي شيء آخر، هو عيناه؛ كانتا بزرقة السماء، متلبدتين أسفل حاجبين كثيفين.

سارعت نفيسة بتقديمهما لبعضهما:

- ريكاردو ماندرينو. . . شهرزاد، ابنة شديد.

- سعيد بمعرفتك يا سيدتي. لقد أطرت السيدة نفيسة على جمالك، لكنني أعترف بأن إطراءها كان أقل من الحقيقة.

اكتفت شهرزاد بحركة من رأسها. وعلى الفور، من نبرة صوته المبحوح، والغليظ، ومن ثقته الزائدة بنفسه، علمت بأنها لن تحب هذا الشخص.

- ماندرينو فينيسي مثل صديقنا كارلو روزيتي. وهو الذي قدمه إلي قبل أن يرحل.

- آه. أنت أيضاً دبلوماسي؟ سألت شهرزاد، فضولاً أكثر منه اهتماماً.

- دبلوماسي، إذا كانت الدبلوماسية هي فن الحصول على ما نشتهيه دون أن نسعى إليه. لكنني أيضاً تاجر، جاسوس في الوقت الحاضر. كما أنني مغامر كل الوقت.

- نسيت أنك من طبقة راقية، وأنك فاتن. قالت الست نفيسة.

تظاهرت شهرزاد بتقدير ما تسمع.

- هل ترغب في أن تشرب شيئاً يا سيد ماندرينو؟

- للأسف ليس هناك وقت. علي أن أكون بالقاهرة قبل الليل.

عملت البيضاء على أن تظهر بمظهر استطلاع كاذب:

- موعد غرامي جديد، يا كارلو؟

- للأسف، لا. لكنه بالأهمية نفسها. هل سمعتما بأحد يدعى محمد علي؟

أكدت المرأتان جهلهما.

- إذن، احتفظا باسمه. فهذا الرجل سيكون له شأن في الأشهر القادمة. . .

انحنى على البيضاء وتابع:

- أنا رهن إشارتك يا سيدتي.

وقفت زوجة مراد بك، متبوعة بشهرزاد.

- السلام عليك يا ابنتي. ولا تنسي نقاشنا. قد أكون خرفة عجوزاً، لكنه ما يزال لدي من الإدراك ما أستطيع أن أرى به الوجه الخفي للحقيقة. وعد؟ ستفكرين؟

- أجل يا ست نفيسة، وعد.

الاقتناع القليل الذي عكسته نبرة الجواب، جعل المرأة تتنهد.

- آه يا ريكاردو، قالت متنهدة وهي تحرك رأسها. لو كان الشباب فقط قد خبَر.

- إن كنت تتحديثن عن شباب صديقتك، اطمئني. لقد خبر.

أكد على ملاحظته بتثبيت ناظريه في ناظري شهرزاد، بكثافة قل نظيرها.

تحملت المرأة الشابة النظرة.

- كنت أجهل أنك تملك إضافة إلى خصالك المتعددة، القدرة على قراءة أفكار الآخرين.

- هي قدرة ضرورية يا سيدتي. لكن لا تقلقي، فأنا لا أستغلها إلا في النادر.

مال على الست نفيسة، مع ابتسامة مشرقة، وأخذها من ذراعها، وقادها نحو العربة.

عملياً، فكرت شهرزاد وهي تنظر إليهما يبتعدان، إنها لن تحب هذا الشخص. أي كلام!

* * *

رمق كريم بنظرة ماكرة عثمان البرديسي الذي خلف مراد بك. كان بديناً، مدوراً، قصيراً، برأس عارٍ. كان ينبعث من هذا البك الجديد مظهر متصنع يُغيظ ابن سليمان.

- المستقبل لنا، قال عثمان بصوت رقيق يتناقض من مظهره. الآن، وقد ذهب الفرنسيون إلى حال سبيلهم، أصبح المجال فارغاً. وأقسم لك إننا في غضون بضعة أشهر، نحن المماليك، رجال بيت مراد، سنصبح من جديد أسياد مصر. سنقضي على ابراهيم ما دام يرفض الوحدة، وسنطرد الأتراك والإنجليز كما طردنا جيوش أبو نبارت

صادق الجمع الملتئم تحت الخيمة المركزية بقوة على كلامه، كرجل واحد. وانبعثت من هنا وهناك تأكيدات تبرز تصميمهم.

استمع كريم باحترام لخطاب عثمان حتى النهاية، فخلص إلى استنتاج مفاده أنه أمام مصاب بداء العظمة، مفتقر إلى أي منطق. طرد الترك والإنجليز والقضاء على بيت إبراهيم؛ لم يسبق له قط أن استمع إلى مثل هذه الترهات. عليه أن يفكر، وأن يجد سبيلاً لجمع حاجياته والإفلات مما يبدو أنه ليس سوى مأزق.

* * *

١٠ أكتوبر ١٨٠١

تمدد خسرو باشا على الأرائك الموضوعة في مؤخرة زورقه. كان البحر هادئاً. وكانت شمس مشعة ترشق بأشعتها الشاطئ البعيد بحوالى نصف فرسخ.

تناول ليّ النرجيلة التي أعدها له أحد عبيده، فصعدت على الفور غرغرة موقعة.

كان محمد علي، الجالس غير بعيد عن القبطان الباشا، مثبتاً بصره على المركبين اللذين يسيران في أعقابهم. كان نظره، المترع بحيوية غير عادية، يراقب المشهد في شموليته.

بعد لحظة التفت نحو خسرو.

- ما تزال سعادتك مصمماً؟

- هذا سؤال غريب، يا سيرشمي. بالطبع. هل تشك في فعالية خطتي؟

- بالعكس. أجدها رائعة، متكاملة. سيكون وقع المفاجأة كاملاً.

كان، وهو يجيب، يعيد في ذهنه رسم المشروع الجهنمي للباشا. قام بذلك مبدياً ارتياحاً كاملاً. لماذا ينكر؟ فهذه العملية تمشي في ركاب مطامحه الشخصية. لكن خسرو يجهل ذلك، طبعاً.

كان المشروع المزمع تنفيذه بسيطاً: إذا كان لا بد من القضاء على هذا الفساد الذي يجسدهُ وجود المماليك، فإنه لا مناص من تنفيذ قرارٍ: اجتثاث جذور الشر من أصولها؛ القضاء على رؤسائهم ما أمكن.

من أسبوع قرأ خسرو على كل البكوات الذين كانوا يوجدون بمصر السفلى، أمراً سلطانياً يعلن العفو العام، مؤذناً بأن ترجع إليهم جميع أملاكهم. ومن أجل الاحتفال بذلك، كان الباشا قد اقترح على البكوات الالتحاق به على متن مركبه الراسي بميناء أبي قير. فسارعوا بالموافقة، طبعاً، دون تردد، فرحين.

وهم الآن هنا، حوالى عشرة، لابسين للمناسبة أفخر ثيابهم. كان مركباهما يتبعان زورق القبطان باشا الذي كان يشق الطريق نحو السفينة التي سيقام الحفل على متنها.

كانت تبحر حولهم حوالى عشرة من زوارق الإنقاذ، على متنها مشاة خسرو مدججين بالسلاح.

- الآن؟ سأل محمد علي بهدوء.

- الآن. أجاب الباشا.

انتصب علي دون أن يبدو عليه أدنى أثر لتوتر، وأمر رجل الحاجز.

- حان الوقت. تنح عن الآخرين. اقصد ميمنة المركب، لكن دون أن يلتفت إليك أحد.

إذا اتخذت الأمور مسارها الطبيعي، فإن قائد المشاة الموجود بزورق المقدمة لن يتأخر في الاستجابة.

وهو ما حصل.

بإشارة منه بدأ الأسطول بالإحاطة بمركبي البكوات. وبعد ذلك بدقائق، بدأ الهجوم.

في الآن نفسه، بالقاهرة، كان الوزير الأعظم، مستعملاً الخدعة نفسها، يلقي القبض ويحبس في القلعة غالبية قادة المماليك الذين كانوا يوجدون بالعاصمة.

اجتاح شعاع ارتياح عيني محمد علي.

كانت هذه العمليات التي قام بها رؤساؤه تخدم مصالحه أكثر مما كان يتصور.

انحنى باحترام أمام القبطان الباشا وأشار إلى جثث البكوات العائمة على الموج:

- انظر... يا سيدي. إن التمرد واحتقار القانون هو الذي يختفي مع هذه الجثث. أنا متأكد بأن الوزير الأعظم، بعد هذه العملية، لن يمكنه إلا أن يعينكم حاكماً لمصر.

- أعتقد ذلك، بالفعل. أكد خسرو باعتداد. وستكون، يومها، إلى جانبي.

دون أدنى تفكير في الدم الذي كان يلامس مؤخرة زورقه، بصق، وشرع يشد الأنفاس من لي النرجيلة.

الفصل الثامن والعشرون

٥ مارس ١٨٠٣

همس أحمد مازحاً، وهو يمسد، شارداً، ردف قردته:

- إنني يا سيدة لا أفهم شيئاً من مشاريعك الجديدة.

لم تجب شهرزاد فوراً وهي غارقة في تأمل ما يشبه جريدة بأوراق صفراء.

- أنت لا تفهم، يا أحمد المسكين، لأنك رجل أمي. إن فكرتي رائعة، وهي بالخصوص أصيلة.

- أن تزرعي قطناً، تمتم العجوز. أنا لا أرى في ذلك أصالة. إن مصر تزرعه منذ ألف عام على أقل تقدير. قد أكون غير قارئ، غير أن أمور الطبيعة لا تحتاج لأن نكون علماء. لقد كنت فلاحاً، أتكونين قد نسيت؟ الأرض أعرفها، ولذلك أقول لك بأن ما تعتزمينه شديد الصعوبة. زراعة القطن متقلبة وتحتاج إلى عناية خاصة. هذا دون أن ندخل في الحسبان أن البراعم، بمجرد أن تتورد، يصبح المحصول تحت رحمة الأمطار والرياح القوية. وفضلاً عن ذلك...

- غوسيبيوم هيرباسيوم.

- بحق رب العالمين... أي لهجة تتكلمين؟

انفجرت شهرزاد ضاحكة.

تناولت طفلها وضغطته إلى صدرها.

- اسمع يا روحي. عمو أحمد يسألني عما إذا كنت أتحدث لهجة.

أرسل يوسف الصغير، البالغ من العمر السنتين والنصف، نظرة ساخرة نحو العجوز، في الوقت الذي تابعت فيه أمه:

- وغوسيبيوم هيارستوم. . . هل هو لهجة أيضاً؟

انحنى أحمد على قردته ووشوش في أذنها:

- أتسمعين يا فلفلة؟ لقد فقدت سيدتنا عقلها. . .

- والباربادونس.

أغمض جفنيه وتظاهر بالنعاس.

- طيب. أتوقف. قالت شهرزاد مستسلمة، وطوت الجريدة.

- إن ما نطقت به لتوي هو أسماء لاتينية لثلاثة أنواع مختلفة من القطن. وأكثرهم ندرة، بالتأكيد، هو النوع الأخير: الغوسيبيوم باربادونس. وتشرح هذه المقالات بأن الثوب المصنوع من شعيراته يفوق كل الأنواع الأخرى في صلابته كما في بياضه. وفي مصر القديمة، لم يكن الرهبان يتزيون إلا منه.

- بماذا تهمهمين يا سيدة؟ لماذا لا تتحدثين بطريقة عادية؟ إن هذا النوع الذي تتحدثين عنه أعرفه. لقد زرعته. أليافه تزيد قليلاً عن طول إبهام. هو أكثر ندرة من الذي يبلغ طوله نصف إبهام، لكنه موجود.

- إبهام؟

ضربت شهرزاد، بنفاد صبر، على الجريدة.

- يقولون هنا بأن الليفة قد تصل إلى أكثر من طول إبهامين. أتسمع؟ إبهامان.

- هراء. لا يوجد لا في اللاتينية ولا في العربية ألياف تتجاوز طول الإبهامين. . . هل شوهدت يوماً أعجوبة مثل هذه؟ أم أن ذلك مقصور على الأساطير؟

- ومع ذلك، ألحت المرأة الشابة بقوة، يقولون بأن القدماء كانوا يعرفون كيف ينتجونه.

- ألح على أن هذا مستحيل. لا يمكن لأي برعم أن يحوي أليافاً بهذا الطول. وحتى لو قبلنا بإمكانية أن يوجد شيء من هذا القبيل، فإنه لن تكون له أية قيمة. سيكون أكثر هشاشة من الزجاج. وبمادة مثل هذه، لا يمكننا أن نصنع سوى لباس أزواج فراشات.

- بإمكانك أن ترى ما تشاء. وسيأتي يوم أثبت لك فيه بأنني على صواب.

حرك العجوز رأسه وأشار بإصبعه إلى يوسف.

- هو ربما، وليس أنت
أبدت شهرزاد حركة استسلام.
- موافقة. لنترك الموضوع جانباً. والنوع الآخر، ذو طول الإبهام، هل ستساعدني على إنتاجه؟ أنا متأكدة من أن القطن هو مستقبل مصر. المحاصيل الحالية تكفي بالكاد. ويمكن ربح أموال طائلة. ثروات. وعلى أي حال، فإنه لا خيار لي.
عبر ظلٌ بؤبؤيها، فأضحت على الفور مهمومة.
- أنت تعرف وضعيتي يا أحمد. إن المال الذي بحوزتي ينقص يوماً بعد آخر. وليست الحوامض التي نبيعها هي ما سيخرجنا من أزمتنا. إن عليَّ أن أتحول إلى تجارة أخرى.
- أنت إذن لم تحتفظي بشيء مما فسرته لك. إن بذرة القطن تحتاج إلى عناية فائقة؛ فهي شديدة التأثر بالعوامل المناخية. هذا فضلاً عن أن تكوين التربة يلعب دوراً أساسياً. يجب أن تكون الأرض كثيرة الرمال ودسمة وتحتفظ، فوق ذلك، بالرطوبة.
- إن أرض مزرعة الزهور رائعة.
- الأرض أجود في الجنوب. لكن لنقبل بذلك. غير أن هناك عائقاً آخر، وهو عائق كبير. يجب أن يكون الحقل في مأمن من فيضان الوادي. والحال أن ذلك غير ممكنٍ هنا. إن ما يمكن أن يكون عاملاً مساعداً بالنسبة لزراعة أخرى قد يكون وبالاً على القطن.
- هذا مجرد تفصيل.
- تفصيل؟ لكن مكوث الماء لزمن طويل يقتل المزروع.
- سنبني سداً.
أغلق أحمد أذنيه وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة.
- سد... طبعاً. إنه عمل صبياني.
احتدت فجأة.
- ماذا تريد؟ نهاية مزرعة الزهور؟ أتكون قد نسيت ما قلته لي عندما لم يكن طولي يتجاوز طول يوسف إلا بقليل: «مزرعة الزهور قطعة من عدن.» أتريد اليوم لهذه الأرض أن تعود إلى حجارتها؟ قل. إن كل ما أنا بحاجة إليه

هو نصائحك. نعم أم لا؟ هل أنت مستعد لمساعدتي؟

* * *

٩ مارس ١٨٠٣، في مكان ما من أعالي مصر.

لم يسبق للقمر أن كان بمثل هذا النور. كان مخيم عثمان بك منارا وكأنه في منتصف اليوم. حتى النار كانت تبدو باهتة أمام النور الحليبي الذي كان يجتاح المكان.

لكن، ليس هذا التألق هو ما كان يبهر كريم، المربع على الأرض، إلى جانب عثمان بك. إن ما كان يبهره هو ضيفهم، محمد علي. حتى لو كانت بنيته قوية وصارمة، فإنها لا تكفي لتفسير تلك القوة، ذاك الشعور بالقوة، تلك الجاذبية التي كانت تنضح من شخصيته. وحتى لو اقتُصر، في الحكم عليه، على الخطاب الذي تلفظ به لتوه، لكان كافياً. في زمن قصير، رسم صورة للوضعية المصرية بإيجاز يشي بكفاءة قل نظيرها في التكهن بالمستقبل.

- أعذرني، يا سيرشمي، قال عثمان. قد يكون ذهني ثقيلاً بعض الشيء، ولكنني لا أدرك إلى هذه اللحظة الأسباب التي تدعوك إلى أن تقترح علي هذا التحالف. ألست من العثمانيين؟ ألست تركياً أنت أيضاً، وأحد أكثر المقربين من خسرو باشا الذي يعد - هل أذكرك بذلك؟ - منذ يوم ٨ فبراير حاكم مصر الجديد بتعيين من الباب العالي؟ والحال، ما الذي يحصل منذ وصولكم؟ تعلنون علينا الحرب من جديد. وبما أن مجزرة البكوات بأبي قير لم تكف، فأنتم تعلنون علينا الحرب تلو الحرب. لا يمر علينا يوم دون أن يقذفنا جنودكم. ونحن، المماليك، بالنسبة إليكم، لسنا أحسن حالاً من النمرود. وها أنت الآن، يا سيرشمي، تأتي إلي ماداً كفك... أعترف بأن في هذا الأمر ما يريب.

حرك البك رأسه ليعرب بقوة عن حيرته.

- لا. إنني لا أفهم بالفعل خطوتك هذه.

أدار محمد علي سبحته مرات متعددة حول سبابته، قبل أن يجيب بصوت قوي:

- ومع ذلك، فالأمر واضح. لقد قلت أنت نفسك بأن خسرو والباب العالي لا يتمنيان سوى شيء واحد: اختفاؤكم. لكنك نسيت أن تشير إلى أمر

آخر، وهو أن القضاء على العثمانيين يشكل رغبتكم الدفينة أيضاً. أنتم تريدون مصر لأنفسكم، دون أن تقتسموها مع أحد، دون أن تقدموا أي تنازل. إن ما حاولت أن أفسره لك، هو أنه دون دعم خارجي، وأدقق: دعم ضخم، لن تستطيعوا أبداً تحقيق هدفكم. كيف تستطيعون تحقيق ذلك، وأنتم لا تكفون عن التطاحن فيما بينكم؟ إن بيوتاتكم لا يجمعها سوى قاسم مشترك واحد هو الشقاق. وما استمرت هذه الوضعية قائمة فإن أحداً منكم لن ينال إلا مزق سلطة، وفوق ذلك، لن تكون إلا مؤقتة. إنني أكرر إذن: أنتم في حاجة إلى مساعدة. مساعدة سياسية واستراتيجية وعسكرية. وإلا فإنكم لن تفلحوا أبداً. وهذه المساعدة، السيرشمي محمد علي هو الذي يقترحها عليكم. ما الذي تبغونه أكثر من هذا؟

- أتتحدث عن الأربعة آلاف ألباني الذين تقودونهم؟

- هيئة نخبة، ملتفة حول محمد علي مثل أصابع كفيه.

انتبه كريم، بغبطة، إلى أن هذه هي المرة الثانية التي يتحدث فيها الجنرال عن نفسه بضمير الغائب. وهو تفصيل بلا قيمة في ذاته، غير أنه يعزز لديه الرأي الذي كونه عن شخصيته. وحده شخص طموح، عارف بقيمته، يمكنه أن يختار هذا الشكل الملكي في التعبير.

علق عثمان بك:

- أنا على علم بسمعة رجالكم. وأعرف أيضاً مقدار التأثير الذي لكم عليهم. لكن هذا لا يحول دون أن تبقى بواعثكم غامضة. لماذا أنت مستعد لأن تنقلب على إخوانك؟ فحسب علمي، تجري في عروقك دماء تركية وليست دماء قوقازية. لماذا؟

حرك محمد علي رأسه قليلاً، في الوقت الذي ارتسمت فيه ابتسامة غامضة على شفتيه.

- قد تفاجئك إجابتي: لأنني أومن بمصر. أنا أعتقد أن هذا البلد يمتلك منابع خيرات خارقة للعادة. وأعتقد أن هذه الأرض بإمكانها أن تصبح مركز العالم.

توقف للحظة، وهو يدير من جديد سبحته حول سبابته، ثم واصل:

- لكن لي قناعة أخرى أيضاً: إن مصر لا يمكنها أن تكون محظية أمراء

كثر. هي ليست في حاجة إلا إلى سيد واحد. عاشق من القوة والصلابة بحيث لا تقدم نفسها إلا إليه. إليه لا غير. وكما هو الشأن بالنسبة لكل أنثى، فإنها ستقدم له كل ما تملك، وأكثر. تأمل الماضي يا عثمان بك. فكر في الفراعنة. أنظر إلى الأعاجيب التي استخرجوها من وادي النيل. أليس ذلك دليلاً على صدقي؟

مال البرديسي بعض الشيء نحو اللهب. لم يكن لأحد أن رأى التعبير المرتسم على محياه أن يشك في أن حذق الاستعارة قد فاته؛ لكنه كان، مع ذلك، مرجوجاً.

- وهذا العاشق الذي تلمح إليه، سيكون هو أنا أم أحد إخوانك؟

- ما العمل؟ أنا مضطر إلى ملاحظة أن مصر منذ أن أصبحت إقليماً عثمانياً فقدت كل شيء: إشعاعها، مجدها، تأثيرها السياسي. في حين أنكم، أنتم المماليك، عندما كنتم الأسياد، كانت الأشياء مختلفة. ألم تعرف هذه الأرض تألقها الأعظم تحت قيادتكم؟ أتكون قد نسيت اسم الناصر؟ هذا الباني العظيم، هذا العاشق للآداب؟ أليس بفضله كبرت القاهرة وتوحدت في مدينة واحدة وعمرتها القصور الفخمة والمساجد الأجمل في كل الدنيا؟

توقف للحظة، ثم نظر مباشرة في عيني مخاطبه.

- هذه هي الأسباب التي تجعلني أدعو إلى عثمان، رغم الروابط الدموية. عندما يصبح القلب كذاباً، علينا أن نفسح المجال للعقل.

كان السيرشمي - كريم متأكد من ذلك - هذه المرة قد أصاب الهدف. بدا وكأن لديه رغبة في أن يصفق أمام كل هذه المهارة وهذه الدبلوماسية.

أمسك المملوك بسعفة نخيل وشرع يهدهدها أمامه. كان يبدو متفكراً، ثم:

- تبقى مع ذلك نقطة أساسية، علينا أن نحددها. لقد علمتني هذه الحياة الدنيا بأن لا شيء بالمجان. ما الذي ترجوه في المقابل؟

- عثمان بك. إن محمد علي ليس بائع زرابي مبتذلاً. آمل أن لا تكون منتظراً مني أن أتصرف بالطريقة نفسها لأولئك الذين أدينهم. هيا من فضلك. أنا أعلم مع من أتعامل. أنا أعلم أن أريحيتك، عندما يحين وقتها، ستعرب عن نفسها بكل قوة. أترك لك وحدك التقدير.

عندما وصل الحوار إلى هذه الدرجة، قرر كريم أن يطلق العنان لحماسه.

- سيرشمي. إنني لم أسمع في حياتي كلمات بمثل هذه الحكمة، بهذا العدل. إعلم أنني أنخرط في ذلك بكل روحي.

تفحص عثمان مصاحبه بفضول، وكأنه قد أُخذ بفصاحته المفاجئة.

وما دام الأمر قد أصبح كذلك، فإنه لن يتأخر هو الآخر.

- أخي على حق. سارع بالقول. لقد نطقت بكلام يساوي ذهباً. والآن، هلا تفضلت بأن تشرح لي كيف تتصور مستقبل الأمور.

- ها يومان قد مرا على مغادرة الإنجليز لمصر. لم تعد مصر محصنة سوى بحامية تركية. لنحارب جنباً إلى جنب. وبفضل جهودنا المتضافرة، أضمن لك أنك، في غضون ثلاثة أشهر على أكبر تقدير، ستدخل إلى القاهرة دخول المنتصرين. وسنرغم خسرو باشا على الذهاب الى المنفى..

ثم أضاف بصوت أقل قوة:

- أو على الموت.

بدا المملوك هذه المرة قابلاً بصفة نهائية.

- أعتقد، يا سيرشمي، أن مستقبلاً جديداً ينفتح أمامنا.

- أمامك، يا عثمان بك.

انتصب محمد علي واقفاً. كان يبدو مرتاحاً.

- حان الوقت كي أذهب.

استغرب البرديسي.

- في هذا الوقت المتأخر؟

- للأسف، عليَّ أن أنصرف. في هذه الأزمنة التي نعيشها، كل ساعة تساوي سنة.

أجاب المملوك بحركة استسلام.

خطا محمد علي خطوة في اتجاه الحرس الذين كانوا ينتظرونه على باب الخيمة، لكنه تراجع.

- عثمان بك. أنت لم تقدم لي مرافقك.

رغم أن البرديسي وجد السؤال غريباً، إلا أنه أجاب:

- اسمه كريم. كريم ابن سليمان. هو قائد أسطولي النهري.

- برافو. إن البحارة الجيدين قليلون.

علق كريم دون أدنى تردد:
- والرجال العظام أيضاً، يا سيرشمي.

* * *

يوم فاتح يونيو - تماماً كما تنبأ السيرشمي بذلك - سقطت القاهرة مثل ثمرة ناضجة في أيديهم. ألقي القبض على خسرو باشا - الذي طرد من العاصمة - في دمياط وأعيد إلى القاهرة حيث حبس في القلعة في انتظار إرساله إلى اسطنبول.

لم ينم محمد علي ليلته تلك. قضى الجزء الأول من أمسيته في حديث مع بعض رفقائه في السلاح الألبان. لا شيء تسرب عن محادثتهم؛ فباستثناء الأشخاص الستة الحاضرين، وكلهم ضباط برتب عالية، لا أحد اطلع على المخططات الحقيقية التي رسمها الجنرال.

وحوالى منتصف الليل، شوهد، رفقة مترجم، يمتطي فرسه وينطلق. بعد مدة من السير عبر الأزقة، توقف أمام الأزهر. وجد رجلاً معمماً، بمصباح نحاسي في يده، واقفاً عند الحوش. أشار عليهما بأن يتبعاه.

في الداخل، كانت تنتظره أعلى السلطات في القاهرة؛ شيوخ وعلماء وقضاة؛ كلهم مصريون. هذه المرة أيضاً لم يتسرب شيء عن فحوى الاجتماع الذي استمر حتى مطلع الفجر. المترجم وحده كان بإمكانه أن يسرب ما استمع إليه، لكن كان يجب أن يعذب حتى الموت ليقوم بذلك.

* * *

١٠ يوليو ١٨٠٣

كان الجرف الهاوي للمقطم يذكر بجدار خرافي قائم في قلب الليل.

كان كريم يواصل تسلق الدرجات التي تقوده إلى المغارة المحفورة في الجرف، وهو يتساءل حول غرابة اختيار هذا المكان من أجل اللقاء. واصل تسلقه حتى أدرك قمة السلم. كانت كتلة القلعة السوداء، على اليسار، تلمع تحت السماء المزينة بالنجوم.

مر بسرعة على طول الصدع الذي أحدثه مقلع الحجارة القديم. كان واسعاً وواطئاً ومثيراً للقلق. واصل التقدم إلى أن رأى ممراً متعرجاً يغوص في العتمة.

استرجع أنفاسه، قلقاً بالرغم منه، وتابع مشيه. ما عاد بإمكانه الآن أن يرى شيئاً تقريباً. وصل إلى مدخل المغارة عن طريق الجس. تردد وهو يتفحص أشباح الحجارة الضخمة.

- ابن سليمان؟

كان رجل قد مرَّ من بين الحجارةً، بإهاب متعب، ملابسه بيضاء كلها، ذقنه معتمر بلحية شعيراتها متفرقة ومنتصبة. كان يعتمر قلنسوة.

- ابن سليمان؟

أجاب تلقائياً بأن نعم.

- اسمك؟

- كريم.

دون أن يضيف الرجل شيئاً أوقد فتيل قنديل زيتي صغير من طين، ودعاه إلى السير في أثره.

كلما كان كريم يتقدم، وتصبح الطريق أكثر ضيقاً، كان قلقه يتزايد. وفضلاً عن ذلك، كان ثمة ذلك الجو الرطب وذلك الإحساس بالانسحاق. لكن إلى أين يقودونه؟

أخيراً بدا ما يشبه نهاية الرواق، مع موجات أشعة ضوء متحركة. خطوات أخرى. بدت في الأسفل قاعة شاسعة بها رجال؛ حوالى الأربعين، متجمعين في شكل دائرة. كانت بعض المشاعل المعلقة تلقي بظلال مشوهة على الصخور وعلى الجدران.

- هنا. قال الدليل ذو القلنسوة.

أراد كريم أن يسأله لكنه كرر:

- انتظر.

نقل اهتمامه، خائباً، إلى المشهد. تلك الحلقة؛ وهؤلاء الرجال من يكونون؟ أراد كريم أن يتعرف، ضمنهم، على الرجل الذي استدعاه، لكن سدىً. فجأة صفعته تلك الرائحة الفريدة التي كانت تحلق في الهواء؛ ممتعة، دافئة، لذيذة مثل مضاجعة مومس ومبهجة مثل النبيذ. الحشيش. لا شك.

لكن ما الذي يعنيه كل هذا؟

بعد لحظة من التكيف مع الإنارة الخافتة، استطاع أن يكتشف في زاوية

معتمة شخصين جالسين مربعين. لاحظ، مندهشاً، أن أحدهما يضغط بين فخذيه طبلة، ويمسك الآخر ربابة. هما موسيقيان. . .

أصبح أشد اضطراباً. تساءل عما إذا لم يكن أجدى بالنسبة إليه أن يعود على عقبيه. هل يكون قد استدرج إلى كمين؟ الأتراك أم البرديسي؟

ارتفع، فجأة، صوت نشيد، واضعاً حداً لتساؤلاته.

كان عازف الربابة قد انتصب واقفاً. انخرط في ترتيل آيات من القرآن، في الوقت الذي اندمج فيه رفيقه في هدهدة مؤلمة.

في هذه اللحظة خرج - لا يدري من أين - ستة أشباح، حفاة، بكسوة طويلة من نسيج المسح، مشدودة من الوسط بحزام من قنب. كانت قبعات لبدية صهباء تغطي شعرهم. كانت سحناتهم شاحبة وعيونهم قلقة ثابتة. يقودهم الرجل ذو الثياب البيضاء الذي دل كريم على المكان، فأخذوا مكانهم وسط الدائرة.

كان نشيد عازف الربابة قد انداح، تلقائياً، إلى نوع من الشكوى المؤلمة.

مرت لحظات. حصل تحول ملحوظ على المظهر الجسدي لهؤلاء الأشخاص. كانت وجوههم قد أشرقت، وشرعت عيونهم تلمع بلهب كثيف. كان الرجل ذو الملابس البيضاء يبدو وكأنه يتفتح مثل وردة، في حركة أنيقة مدهشة، ذراعاه منفرجتان في شكل صليب. شرع يدور حول نفسه برقة، ببطء. عندما أنهى دورته الأولى ضرب الأرض بكعبه ليسجل بداية دورة أخرى، ثم انطلق في دورة جديدة.

شرعت الأشباح الستة، التي ظلت حتى تلك اللحظة جامدة، تتحرك بدورها. دوامة آدمية. كان ممكناً ملاحظةُ أن هؤلاء الرجال، مع كل تموج جديد، يسعون إلى التخلص من أجسادهم والوصول إلى نسيان أنفسهم والتجرد من حواسهم. كانت كسواتهم، من الحزام وحتى القدمين، تتسع وتصعد أكثر فأكثر نحو الأعلى، كلما سارعوا بالدوران. وكانت رؤوسهم تميل على أكتافهم في شكل شبيه بانصياع أنثوي.

صعدت من الحلقة المأخوذة بالذكر كثافة واضحة، مع تلك الحركات التي تحتد ممزقة ظلال المغارة المرتجة. كانوا يرقصون أعينهم كأنها مغلقة، لكنهم لم يكونوا يتصادمون.

من لحظة لأخرى، كان العجوز يضرب بكفيه ليشير على الموسيقيين بتسريع الإيقاع. كان الدوران، بِحَثٍّ منه، يصبح أكثر نشاطاً، فتغيرت السحن وتمايلت الرؤوس وابيضت العيون وانفرجت الشفاه بابتسامات عصية على الوصف.

الدراويش.

الذكر...

فهم كريم لتوه. ما عاد يشك في أنه في حضرة تلك التظاهرة التي طالما سمع عنها، والتي تعود جذورها إلى قرون خلت.

فبعد وفاة الرسول، كما ورد في الموروث، قدر خليفته أبو بكر أنه من الضروري التجميع الكتابي لكل الكلام الإلهي الذي بقي حتى تلك اللحظة معتمداً على الرواية الشفوية. هي مهمة أساسية ما دامت لم تكن قد كتبت كلمة واحدة خلال السنوات الثلاث والعشرين التي أملى خلالها الملاك جبريل على محمد الآيات المقدسة.

كان أبو بكر إذن قد قرر جمع كل صحابة النبي وأمرهم بأن يكتبوا، على الفور، ما يحفظونه؛ فكان الكتاب؛ القرآن.

وليلة هذا القرار، رأى أبو بكر في منامه الملاكَ جبريل وهو يطمئنه بأن الله راضٍ عما فعله. فقفز من سريره مأخوذاً بفرحة عظمى، وشرع يدور حول نفسه.

من لحظتئذ أخذت حلقات الذكر - أيام الجمعة أو خلال المناسبات الكبرى - تخلد هذه المبادرة العظيمة التي أنجزها خليفة الرسول.

- أنا سعيد بأن أراك ثانية.

التفت كريم.

كان السيرشمي محمد علي خلفه تماماً.

أنارت ابتسامة غامضة أساريره. طلب من ابن سليمان، وهو يشير إلى الحفل الذي ما يزال مستمراً، أن ينتظر.

كانت السرعة، هناك في رقص الدراويش، قد أضحت مذهلة. كانوا ينمحون في تألقهم ويتداحون بثبات نحو الانخطاف، متخلصين من أجسادهم، تتحلل أذهانهم مثل ربطة خيوط. هل كانوا، ربما، بهذه الطريقة -

وهم يتخلصون من ذواتهم - يدنون من الله؟ سيظلون يدورون بهذه الطريقة حتى قلب الليل، ما دامت لديهم ذرة من طاقة... إلى أن يصل الإنهاك ذروته.

- تعال... همس محمد علي عندما وصلت الحركة ذروتها. اتبعني.

بعد لحظة، أدركا الهواء الطلق.

أسفل، وعلى مدى البصر، كان ممكناً رؤية ضواحي القاهرة النعسانة، كما كانت تظهر سهام الصوامع وشبكات الطرق المعتمة.

وقف محمد علي. أخرج من جيبه منشقة وشرع يمررها، بتلقائية، في بطن راحته.

- أنا سعيد بمجيئك. قال بهدوء.

- هل كنت تشك في ذلك، يا سيرشمي؟

لم يجب.

سارع بطرح السؤال الذي يكوي شفتيه:

- الأماكن السرية بالقاهرة كثيرة. لماذا هنا؟

- لسببين. الأول يتعلق بمسألة... بدا متردداً في العبارة - لنقل اللباقة. كان كبير الدراويش مصراً على حضوري هنا بهذا المكان. والثاني سبب أمني. أمني أنا، أمننا. لم يكن ممكناً أن تكون للقائنا صبغة رسمية.

وافق كريم دون أن يسعى إلى تعميق البحث في المسألة.

ران صمت، ثم:

- أنت تتساءل بالتأكيد عن سبب هذا اللقاء.

- بالتأكيد، يا سيرشمي، خصوصاً و...

- نعم؟

- لقد افترضت - بغير تواضع بالتأكيد - أن بإمكاني أن أكون ذا جدوى بالنسبة إليك.

- لقد افترضت صواباً يا ابن سليمان. وهو ما يطمئنني، لأنك بذلك تثبت ذكاءك. لنترك التصنع إذن للبلداء، ولنمر رأساً إلى الهدف.

تنهد ثم قال بصوت حاد:

- الباب العالي القلق من إزاحة خسرو باشا، سيرسل لنا والياً جديداً

كبديل. سيصل في غضون أيام إلى الإسكندرية. لقد سمعت باسمه. يدعى طرابلسي.

- السيد الأعظم لم يُضِع وقتاً كما يبدو.

- ما كان بإمكانه أن يضيعه. مصر أرض غالية ولا يمكنه أن يغفلها. السلطات التركية لم تحدد، حتى اللحظة، الأسباب الحقيقية لسقوط خسرو. هم أرجعوها إلى استغناء المماليك عنهم وإلى رفضهم وصاية جديدة للعثمانيين عليهم. إنهم يجهلون كل شيء عن دوري وعن دور الألبان الذين أقودهم. ويجب أن يبقوا على هذه الحال أطول مدة أراها أنا ضرورية.

- وهذا الحاكم الجديد؟ هذا الطرابلسي؟

- حسب المعلومات التي في حوزتي، فإن الجيوش التي ترافقه لن تصمد أمام قوات عثمان. وإذا دُعِّمت قواته برجالي، فإنه سيوقف على الفور خطوة هذا الدخيل.

صادق كريم على كلامه وهو يتساءل عن دخله هو في كل هذا.

- إن نجاح المشروع الذي وضعته مشروط باتفاقيتي مع المماليك، ورهين بطاعة القوات التي أرأسها. وإذا ما أصاب الوهن أحد هذين العاملين فإنه لا فلاح لمخططي. رجالي أعرفهم وأتحكم فيهم. لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لصديقك عثمان. هو الذي يبسط نفوذه اليوم على البلاد، وعليه أن لا يقدم على خطوات غير محسوبة، مأخوذاً بثمالة شهرته الجديدة.

مرر علبة تبغه بين أصابعه.

سيكون أمراً غير محمود أن يحاول البرديسي التمادي في الأمر، بعد التخلص من هذا المبعوث الطامع. فبعض الرجال يمكنهم أن يصبحوا بسرعة عبيد أطماعهم، أليس كذلك؟ وعوض أن يظلوا منارات، توضع عصابات على أعينهم فيصيبهم العمى.

- أنت، باختصار، تخشى من أن ينقلب عليك.

- التوقع غير الخشية. لنقل بأن ذلك سيكون مقلقاً للغاية؛ بالنسبة إليه كما بالنسبة إلي.

شدد عمداً على الكلمات الأخيرة، وأنهى حديثه بالقول:

- إذا ما أعرب عثمان بك عن هذا النوع من الحماقات، أريد أن أكون أول من يعلم.

أصبح الآن كل شيء واضحاً.

- هنا، إذن، يكون علي أن أتدخل.

- لا يعتزم محمد علي أن يجبرك على اتخاذ هذا القرار، لكن رداً إيجابياً سيسعده.

قمع ابن سليمان ابتسامة. ها هو ذا محمد علي يعود ثانية إلى طريقته الخاصة في الحديث.

- أفهم يا سيرشمي، وأنا أقدر هذا. كما أنني سأكون شديد الصراحة؛ فأنا، كما قال لك عثمان بك، بحار. وعندما كنت صغيراً كان لدي حلم لم يفارقني البتة: أن أصبح يوماً قبطان باشا. أجل، أنا أعرف ذلك؛ هذا أمر أخرق، خصوصاً...

قاطعه محمد علي:

- لا وجود لحلم أخرق. وحدهم الخُرق لا يسعون إلى تحقيق أحلامهم.

- ربما. على أي حال، وحتى هذه اللحظة، فأنا لم أقد سوى مراكب صغيرة وزوارق بمدافع متواضعة. أنا لا أعرف ما الذي يجلبني إليك. لقد رافقت رجالاً ادعوا ميلهم لمصر؛ مراد والألفي بك والجنرال الفرنسي كليبر الذي كان من الممكن أن أخدمه، والآن البرديسي. لكن لا أحد منهم راقني بالفعل. وهذا ليس كل شيء؛ فمنذ زمن طويل قال لي أحدهم، وهو عزيز جداً على قلبي: «ليجعل الله، في اليوم الذي ستصبح فيه قبطان باشا، أن تشتغل تحت إمرة أحد يحب بالفعل هذا البلد، ولا تكون له أية رغبة أخرى غير أن يضعه تحت تصرف أصحابه.» هذه الكلمات ظلت حاضرة دائماً في ذاكرتي.

توقف للحظة حتى يجعل كلماته الموالية أكثر قوة، ثم أنهى حديثه بالقول:

- وهذا المساء، أمر ما ينبئني بأن هذا الشخص هو أنت.

* * *

كان هناك واقفاً في العتمة. لمست شهرزاد وجنته لتتأكد من أن الأمر لا

يتعلق برؤيا، ومن أن استيقاظها وسط الليل لم يتلف ذهنها. كان هو بالفعل، كريم، ابن سليمان.

- أدخل، قالت وقلبها على حافة شفتيها.

دخل وجلس على أول مقعد.

اقتربت منه مندهشة وخائفة، في الآن نفسه.

- أراك وألمسك، ولا أستطيع مع ذلك أن أصدق.

- ومع ذلك، فها أنذا بشحمي ولحمي. أنا، الفلاح.

أراد لنبرته أن تكون هادئة، طبيعية. وربما بالغ في ذلك.

- هذا رائع، قال وهو يتفحص المشهد حوله. فهذه المزرعة، إذا لم تخني الذاكرة، كانت مهملة.

- كانت كذلك...

- ورممتِ كل شيء؟

قالت نعم.

- بمفردك؟

- لا نستطيع بناء شيء بمفردنا، يا ابن سليمان. لا. قدمت لي، بفضل الله، مساعدات.

رفع رأسه إعجاباً، ثم أصبحت قسماته حادة.

- لقد علمت بما حل بالصباح... كان ذلك مرعباً، بالتأكيد.

جلست على بساط صوفي، بجوار قدميه.

- أجل... لكن ذلك من الماضي. والزمن طبيب بارع.

ران صمت لم يكسره سوى صرير صراصير الليل.

- وأنت يا ابن سليمان؟ كيف هي أحوالك؟ علمت من الست نفيسة أنك في خدمة خلف مراد. أحدهم يدعى...

همس بالاسم:

- البرديسي. أجل. لكنني لن أبقى معه لزمن طويل.

- آه.

- هو حمار عنيد لا يملك، للأسف، لا ذكاء ولا عبقرية مراد بك.

- أفهم...

فجأة اجتاحها الشعور المرعب بأنها تعيش المشهد نفسه الذي عاشته منذ ثلاث سنوات. كانا هناك معاً، على رصيف بولاق، قبل أن تخبره بزواجها من ميشيل. تذكرت بائع الخروب والزوارق على النيل.

سألت فجأة:

- ما الذي يحدث؟

انتفض مثل لص أخذ على حين غرة.

- ماذا. . . ماذا تقصدين؟

- أنا أعرف الهواء الذي تستنشقه، أعرف رفرفة جفونك، أعرف كل شيء فيك. لماذا تبحث عن قناع؟

من خلال النظرة التي كانت تسلطها عليه، أدرك بالفعل أنه ما عاد بإمكانه أن يراوغ.

- جيد، قال بصوت ضعيف. أنت على حق. لا تفيد المواربة في شيء. خصوصاً معك، خصوصاً بالنسبة إلينا معاً.

تنهد بعصبية.

- أنا هنا أطلب منك تخليصي من حكايتنا. . .

نظرت إليه دون أن تجيب.

- إذا كنت ما تزالين، حتى هذه اللحظة، تأمَلِينَ في، فعليك أن تكفي عن ذلك.

ظلت صامتة.

- أتأملين في؟

من خلال العجلة الكامنة في نبرة السؤال، كان ثمة أمل خبيء في إجابة سلبية.

- كنت أود أن أطمئنك يا ابن سليمان، لكنني، للأسف، لا أستطيع. نعم كنت آمل في ذلك. بكل روحي، بكل كياني. ولم أكن أفعل، دائماً، إلا ذلك.

- حتى بعد وفاة ميشيل. . .

- بالخصوص بعد وفاته. أكثر فأكثر.

شرع يتأمل كفيه، كما ليتماسك، كما ليعمل على التخلص.

- لماذا؟

أجاب دون أن يرفع رأسه:

- أريد أن أكون حراً، أكثر من أي وقت مضى. وكي أتصرف، علي أن أكون وحيداً دون ارتباطات. وقد سنحت لي فرصة علي أن أغتنمها قبل أن تضيع.

- امرأة؟

- كيف أمكنك أن. . .

كررت:

- امرأة؟

- لا يا أميرة. فقط الحياة.

- وفي هذه الحياة، أليس ثمة مكان لحبي؟

صمت قليلاً قبل أن يجيب بالسلب.

- ستنصرف ثانية إذن؟

- أنا مضطر إلى ذلك.

- إلى الأبد. . .

- أجل يا أميرة.

- أصمت.

كانت قد صاحت كي تتحرر، بالتأكيد، وبالخصوص كي لا تصل حد أن تصفعه، أن تمزقه.

- كف عن مناداتي بالأميرة. هذا اللقب ما عاد ملكك. لقد دستَه، دعستَه. إنه ينتمي، بصفة نهائية، إلى الماضي. آتى حركة أرادها أن تكون هادئة.

- لا تؤاخذيني، فلا خيار لي.

- لا خيار لك. . .

تقدمت خطوة نحوه شفتاها مزمومتان.

- لا خيار لك؟ أنت فلاح بالفعل، يا ابن سليمان. أنت لم تكن، دائماً، إلا كذلك.

- انظري إلى هذه المزرعة... أنت ابنة الأرض، ويلزمك رجل أرض أيضاً. أنا...

- أنت ابن النيل، أليس كذلك؟ أميرال مستقبلي كبير...

تنهدت بعمق قبل أن تواصل:

- انصرف إذن، ما دامت تلك رغبتك. عد إلى النهر. لن أمنعك، لكن، وقبل ذلك...

أمسكته بقوة من ذراعه وقادته إلى الخارج. جثت على الأرض وأمسكت حفنة تراب، ثم عادت إلى الوقوف وهي تمدها إليه.

- ها هي ذي تلك الأرض... صحيح، أنا نابعة منها. وصحيح أيضاً أنني أعشق رائحتها ودفأها وصلابتها وضعفها. ربما كنت تجد هذا صبيانياً ما دمت لا تهتم إلا بشساعة المحيط. دعني أقول لك فقط: عندما تكون على متن سفنك، لا تنس أبداً أن البحر، من جهته، متحرك لا يمكن القبض عليه، مثل الريح؛ متحول وخطير مثل الناس. إنه شبيه بالأطماع وبالأمجاد، يا ابن سليمان. وقد تهلك فيه...

صمتت أخيراً، شفتاها مرتعشتان، وعلى جبهتها يلمع بعض العرق في ضوء القمر الشاحب.

نظر في وجهها للحظة، ثم انقلب على عقبيه ببطء، وانطلق وسط الأشجار.

لم يكن قد رآها وهي تعود إلى الجثو على ركبتيها من جديد، قبضتها مضغوطة، وقد بللت دموعها حفنة التراب.

الفصل التاسع والعشرون

متم يوليو ١٨٠٥

من شاهد مزرعة الزهَور يستطيع أن يؤكد أن السماء قد أثلجت.

كان منظر شجيرات القطن المنفصلة بعضها عن بعض بحوالى ثلاثة أقدام رائعاً. كانت السبائخ على سيقان شجيرات القطن الواهنة تغطي غالبية الفدادين الثلاثة المزروعة من سنتين خلتا، يوم فاتح أبريل.

غير أن المحاولة الأولى كانت قد باءت بفشل ذريع. كانت شهرزاد وفلاحون من النزلة، قد قضوا في حرث الأرض ساعات طويلة. كانوا قد قاموا بعمل خارق، إذ لم يكونوا يتوفرون على محراث، معتمدين في عملهم على جرافة يدوية لا غير. كانوا قد كسروا التلال، قطعة بعد قطعة، وسووا الأرض بإرادة وعزيمة لا تلينان، مع تشجيع مستمر من شهرزاد.

بعد ذلك كان عليهم أن يحفروا ثقوباً اعتمدوها مهاداً للبذور؛ ثم بللوها كي يلينوها فتسرع في النمو.

كانوا قد أنهوا كل شيء في أبريل.

ومع متم يونيو فاضت مياه النهر الملكي. منذ تلك اللحظة، كانت شهرزاد قد كفت، عملياً، عن أن تحيا. كانوا يشاهدونها مع الفجر جاثية على ركبتيها على حافة النهر، تراقب وتقيس داعية جهراً أن يكون صعود الماء بالقدر الكافي. ومع الشفق، كانت تعود إلى حاجز الري على الجانب الأيسر للحقل. كانت تداعب خشبه كما لو كانت تداعب بشرة عشيق أو بشرة طفلها.

كانت مياه النيل، مع منتصف شهر يوليو، ما تزال تعلو. عشرة أيام بعد ذلك، وصلت المياه إلى مستوىً لم يسبق لها أن أدركته من قبل. كانت أعلى

بكثير من الخمسة والعشرين ذراعاً التي وصلتها أيام بونابرت.

كانت شهرزاد المرعوبة، تعلم بأن هذا الحاجز البائس لن يستطيع أبداً أن يقاوم. إن هذا النهر، الحامل للحياة وللأمل، هذا الشريط الذي يستقي منبعه من الجنة، سيحطم حلمها.

عندما شرعت المياه تصل إلى خطوط الحرث حيث ترقد البذور، كانت كل الآمال قد تحطمت. لم تستطع بعد ذلك أن تنسى هذا التاريخ المشؤوم. كانت الصدفة قد أرادت لهذا اليوم أن يصادف عيد ميلادها السابع والعشرين.

أعقبَ الخيبةَ الرهيبةَ شعورٌ بالهياج. كانت، بالتأكيد، قد اقتبست قوة معاودة الكَرة من يوسف. كان ممكناً أن تنذر نفسها، على الفور، للموت، لكن بالنسبة لطفلها، لا.

خلال شهر أبريل الموالي تم الحرث من جديد، وكان الغرس.

كان الفيضان الجديد مستجيباً للآمال. خصصت الأيام الموالية لتنحية الأعشاب الضارة، بيدها، حول وبين شجيرات القطن التي كانت قد شرعت تظهر باحتشام فوق خطوط الحرث.

هل ثمة سبيل لوصف تقلبات واعتمالات شهرزاد واللحظات التي كان يعيل صبرها فيها، خلال الاثنى عشر شهراً الموالية؟... كانت تنام عند قدم أغراسها؛ كانت تستنشقها وتحدثها. كان كل نمو بسيط يرفق بصيحة فوز تصل حتى ضيعة حامو بالنزلة. وربما أبعد.

كان يمكن تصور أن الطفل نفسه كان يتخيل بأن الناس يعيشون من أجل حقل وبين بذرتين. هل كان بإمكانه أن يعلم بأن الحال كان كذلك بالنسبة لأمه؟

وفي الصباح الذي أدركت فيه السيقان أكثر من ثلاثة أقدام، علمت أنها قد فازت، فحان وقت القطاف الأول.

قام الفلاحون، تحت إمرة أحمد، ومدججين بآلات التشذيب، بعملية التقليم. كان عليهم أن يقلموا الشجيرات حتى لا يبقى سوى الجذع.

فاقت نتيجة هذا الجني الأول كل الآمال. وهي النتيجة نفسها للحصاد الثاني الذي تم لتوه.

كانت شهرزاد - عندما تمطى المغيب فوق المزرعة - تراقب منذ الفجر آخر

عملية الدراس. غداً سيجمع القطن في حزم تضغط بالأقدام فلا يبقى سوى حمله إلى المدينة.

مسحت جبهتها بظاهر كفها وانسحبت مولية وجهها شطر آخر خيوط الشمس.

كان أحمد يعزف بنايه وهو يتأمل هذه المرأة الشابة.

يا إلهي كم تغيرت خلال هذه السنوات الخمس الأخيرة. كانت قد أدركت لتوها الثامنة والعشرين، إلا أن كيانها كان ينضح بإهاب امرأة كاملة. كان جمالها، الرائع دائماً، قد اتخذ بعداً آخر. كان نحات غير مرئي قد أعاد تشكيل قسماتها حتى أضحت قريبة من المثالية. أصبح جسمها رياضياً نوعاً ما، وتميز نصفها الأسفل من حنية وركيها إلى أخمص قدميها بتناغم نادر. هذا الحفل يقلقني، يا أحمد.

قطع عزفه، مفاجأ بعض الشيء.

- عن أي حفل تتحدثين؟

رفعت عينيها إلى السماء مغتاظة.

- أنت ما عدت تذكر شيئاً. أخبرتك بأن الست نفيسة ستقيم حفل استقبال بمناسبة إنهائها أشغال ترميم قصر زوجها، المرحوم مراد. لا رغبة لي في الذهاب. وفضلاً عن ذلك، يقلقني أن ينام الصغير خارج سريره. لن يغمض له جفن.

- كل المبررات جيدة بالنسبة لمن يبحث عن الهروب. ليس لي، على الأرجح، نصائح أقدمها إليك. لكن مع ذلك...

- نعم، نعم، أعرف.

ثم قلدت ساخرة نبرة حديث أحمد:

- «عليك أن تشاهدي الدنيا. عليك أن تخرجي يا عروسة. امرأة بشبابك لا يمكنها أن تحيا وحيدة...»

- ماذا أفعل؟ تلك، على أي حال، هي الحقيقة. زوجة مراد صديقتك، صديقتك الوحيدة. هي التي تتنقل دائماً، وهي التي تبدي قلقاً عليك. لكن الرحلة إلى القاهرة تستغرق يومين.

- بالفعل. وذلك كثير.

ثم قالت بعناد:
- كما أنه ليس عندي ما ألبسه.
وضع أحمد نايه على الأرض وتوجه نحوها.
- ما الذي تريدينه يا عروسة؟
أشار إلى الحقل، إلى المزرعة.
- لقد حققت معجزة. أنت في طريقك لأن تصبحي غنية. لكن فيمَ سيفيدك ثراؤك إذا...
قاطعته:
- أنت تعرف ذلك جيداً، في إعادة بناء الصباح.
- إن شاء الله. ثم؟
ثبت عينيه في عيني المرأة، ثم قال من جديد:
- الله بنى العالم، وكان بإمكانه أن يكتفي بذلك. غير أنه أراد أن يكون به بشر. ألم تتساءلي يوماً لماذا؟ سأقول لك: حتى لا يشعر بالوحدة. أتظنين أنك أسمى منه؟ هذه حماقة يا شهرزاد. إن الحزن والأسى - عكس ما تتصورين - يتوافقان مع الوحدة. لكن عندما تتضح الأمور وتعود الحياة إلى مجراها العادي، تصبح الحياة المنعزلة جحيماً.
- طفلي...
- ابنك، ليحفظه الله، سيكبر. أما أنت يا عروسة، فستشيخين. لقد عشت طوال هذه الشهور على شاكلة الوردة المنغلقة. صدقيني، لقد حان وقت عودتك إلى الدنيا. وهي تحتفظ لك، من يدري، بلحظات سعيدة أكيدة.
اجتاح شهرزاد إحساس ما، فعقبت بصوت مخنوق:
- الدنيا... أنسيت ما فعلته بي هذه الدنيا؟ فرنسي أنقذ حياتي وآخر قتل أخي. مسلمة، هي عائشة، ضحت بنفسها من أجل عائلتي، وكان إخوانها جلادي. إن كل ما تقدمه الدنيا بكف تأخذه بأخرى. وأنت الآن تدفعني كي أعود إليها من جديد؟
- قد أجرحك يا ابنة شديد. ليس موت أخيك ولا موت زوجك أو أمك هو ما حبسك في الظلام خلال هاتين السنتين. إن السبب أمر آخر. هو كريم. ألا ترين أن سنتين كافيتان ليصبح الزمن زمن نسيان؟

أنارت ابتسامة غير متوقعة شفتي المرأة الشابة.

- النسيان؟ يبدو أنك لم تحب يوماً يا ابن آدم. لا وجود للنسيان في الحب. نطوي الصفحة فقط. مهما تكن الكلمات المكتوبة والمشطوبة وقبح أو جمال بعض المقاطع، فإننا لا ننسى أبداً. لقد طويت الصفحة. آه، طبعاً. ذلك لم يكن سهلاً. ألف ليلة من الأرق، وكثير من الهياج. لكنني طويتها.

أشارت إلى شجيرات القطن.

- إن كل هذا هو ما أذهب عني الغيظ. كما أن جملة تلفظ بها ابن سليمان عندما لم نكن سوى طفلين، عادت إلى ذهني. ذاك المساء، وبما أنني كنت قد ألححت على أن يظل بالصباح، كان قد عقب: «هل سعادتي هي ما تريدينه يا شهرزاد أم سعادتك؟» كان جوابي هو: «لا أدري، لكنني لا أرى فارقاً بينهما». كنت بليدة. والآن أعرف. إذا كانت سعادة ابن سليمان تكمن في أن يعيش من دوني، فيجب أن يكون الأمر كذلك. ورهبتي الوحيدة هي أن يفشل. أنا سيبقى لي دائماً طفلي وأرضي. أما هو، ما الذي سيبقى له؟ سيكون قد ضحى بنا من أجل لا شيء. لا شيء غير حفنة من الرمل.

حك أحمد رأسه بهدوء.

- صحيح يا سيدة. لقد نطقت ذهباً. لكن لماذا ترفضين العودة للحياة؟

مررت أصابعها على طول شعرها الطويل الأسود، بينما بدت في عينيها بعض السوداوية.

- الألم يا أحمد... أنا فقدت مثلك نصف بصري، ولا أريد أن أحب من جديد غير أرضي ويوسف.

تأملها الرجل بحنان.

- هنا مكمن خطئك يا ابنة شديد. أنت لم تفقدي شيئاً من بصرك، بل على العكس من ذلك، لم يسبق له أن كان بمثل هذه الحدة والصفاء، والجمال. أنت لست ممن يُعمَون.

* * *

كانت الست نفيسة قد هيأت الأمور بروعة. تلألأ الصالون بألف نور، مذكراً بأبهة مراد. كانت الثريات البرونزية الثلاث والثلاثون تشيع نورها الدافئ على دانتيلا المقرنصات والأفاريز. وكان الموزاييك الذي تضرر من المواجهات

المختلفة للسنوات الأخيرة قد رمم، كما رممت بلاطات المرمر البيضاء وأفاريز الأرجوان والذهب.

كان الطعام فاخراً؛ خرفان وطيور السماني والحملان المشوية. لم يتم إغفال أي شيء. كان كل ذلك احتفالاً بالقصر ومتعة للعين.

وشوش بيرناردينو دروفيتي، قنصل فرنسا الجديد بالقاهرة، بتواطؤ في أذن شهرزاد:

- لم تبق إلا التحلية...

وافقت برأسها، وهي تحمد الله على أن أُجْلِسَت إلى جانب هذا الرجل اللبق اللطيف، وجُنِّبَت الجلوس إلى جانب مملوك أو أي موظف عثماني سام. كان ممكناً لوضعيتها التي تبدو غير عادية، بوصفها امرأة غير مصحوبة، أن تثير تعليقاً غير لائق. ومع الحالة النفسية التي توجد عليها، الله وحده يعلم ما كان سيكون رد فعلها.

- أنت إذن كنت ضمن البعثة؟

كان الرجل الذي يجلس إلى يسار شهرزاد هو من خاطب القنصل.. عمره يقل قليلاً عن الأربعين. أنيق، شعره كثيف، وسيم في المجمل، غير أنه صموت. منذ بداية العشاء، لم يكن قد تلفظ سوى كلمتين أو ثلاث.

- أجل. قنصلاً متواضعاً. بعد تلك الحملة المشؤومة، عدت إلى فرنسا مقتنعاً بأنني لن أرى ثانية هذا البلد. غير أن الصدفة والسياسة أرادتا شيئاً آخر. كان ذلك منبع سعادة بالنسبة إلي، على أي حال. فأنا أحب هذه الأرض، وحتى لو لم أكن قد عينت قنصلاً، فإنني كنت سأعود إليها عاجلاً أم آجلا. إن مصر لساحرة، ألا تتفق معي؟

صمت الرجل قليلاً قبل أن يرد. كان جوابه ذا نبرة غريبة:

- لا ينقصها سوى حكومة حرة وشعب سعيد. ليس ثمة بلاد جيدة دون استقلال. وأروع السماوات تصبح دميمة إن قيدناها على الأرض. إنني لا أجد جديراً بهذه السهول الرائعة سوى المجدِ الوطني.

تساءلت شهرزاد، مفاجَأةً من هذه الملاحظة الأخيرة:

- عفواً سيدي، لكن ما الذي تقصده عندما تتحدث عن مجد وطنك؟

- أنا أشاهد بقايا حضارة جديدة استقدمتها عبقرية فرنسا إلى ضفاف

النيل؛ فأفكر، في الآن نفسه، في أن رماح خيالتنا وبنادق جنودنا، قد أرسلت مرتين نور شمس بهذه الروعة.

هل هي التي لا تفهم أم أن لغة هذا الرجل هي عسيرة على ذهنها؟ رأت أن من الأفضل لها أن تكف عن الخوض في هذا الحوار، واكتفت بالموافقة.

- فيما يتعلق باستقلال مصر، علق دروفيتي، قد تفاجأ بالتحولات التي ستطرأ. فمحمد علي، الحاكم الجديد الذي عيّنه الباب، لا يحكم هنا كتابع بسيط. و...

غطى صوت زجاج ينكسر على كلمات القنصل.

وقف مدعو - غير بعيد عنهم، على المائدة التي تجلس إليها الست نفيسة - محمر الوجه. كان يلبس عباءة وردية، مطبوع عليها قشعم ذهبي، هو شعار بيت الألفي بك. كان يصيح في وجه الرجل الذي يواجهه:

- هذا غير معقول. ولو لم تكن في بيت المحترمة زوجة مراد بك لكنت خنقتك بكفي هذين.

ثم تقدم بخطوات واسعة نحو الباب.

- لحظة.

كان من سلطت الغارة عليه قد وقف بدوره. إنه ريكاردو ماندرينو.

عندما أدرك المملوك، قال بصوت قوي مبحوح بعض الشيء:

- حسن بك. ألم تنس شيئاً؟

قطب الآخر حاجبيه.

- أنا أعلم أن اللباقة بالنسبة إليكم، أنتم معشر الشركسيين، كلمة غير معروفة. لكنك ستثبت عكس ذلك بالتأكيد.

مد ذراعه جهة البيضاء.

- في البلد الذي قدمتُ منه لا نغادر دون أن نحيي مضيفنا. الأمر كذلك في الشرق أيضاً، إلا بالنسبة للخنازير بعد أن تعلف. أتكون خنزيراً يا حسن بك؟

كانت سحنة المملوك قد أضحت بيضاء.

وقفت الست نفيسة وأتت حركة تهدئة.

- دع عنك هذا يا ريكاردو. ليس لذلك أهمية.

تظاهر الفينيسي بأنه لم يسمع شيئاً.

- هيا يا حسن بك... نحن ننتظر.

ارتسم تعبير تحد على ملامح المملوك.

- حسن بك لا يتلقى الأوامر من أحد، وخصوصاً من كافر.

كانت حركة ماندرينو من التلقائية بحيث لم يبد عليها أي تصنع. تناول المملوك من هدب لباسه وسحبه نحوه.

- عندما تنضاف الفظاظة إلى الوقاحة، يكون من اللازم أداء الثمن.

أرغم المملوك، بقوة شديدة، على أن يخر على ركبتيه، وسحبه كأية حزمة إلى أن أصبح على قدمي الست نفيسة.

قالت نفيسة برهبة:

- أرجوك... سيدي...

كان البك، وهو منهار أرضاً، يبدو مثل قذاة تبن، خاضعاً كلية لخصمه.

- صبر مضيفتنا ينفد يا حسن بك، كما أن تحليتي تنتظر أيضاً.

كان كل ما قام به المملوك، هو أن اعتمل متحركاً، ساعياً إلى الخلاص. لكن ذلك لم يكن سهلاً. ارتطمت جزمة ماندرينو، بحركة قوية، بوجنة المملوك ساحقة وجهه.

- إِعتذر.

كان الضيوف يتابعون المشهد موزعين بين الرعب والرضا. لم يجرؤ أحد على التلفظ بكلمة، بَلْهَ أن يتدخل.

ضاعف الفينيسي ضغطه. كاد كعبه يهشم جمجمة ضحيته.

رفع البك، أخيراً، كفاً مرتعشة، إشارة استسلام. أمسكه من عنقه، دائماً بالسهولة البالغة نفسها، وأوقفه على ساقيه.

- حذار.

كانت نفيسة هي التي صرخت.

انبعثت جلبة كراسي تسقط، مع صراخ امرأة.

كان المملوك قد استل من تحت ملابسه خنجراً، وهو يستعد للطعن. لم يفسح له مجال. أصابته ضربة قبضة يد ملء وجهه، مبلبلة تركيزه. ترنح فوراً، عيناه محتقنتان، ثم انهار.

التفتماندرينو، ثابتاً دائماً، نحو البيضاء وأفرد ذراعيه بحركة اعتذار.

- أنا متأسف يا سيدتي. لكن أمام بعض السلوكات...

أشار إلى الجسد المضجع أرضاً؟

- من الأحسن أن يخلصنا حرسك منه. إن شخصاً عديم اللباقة مثله، يمكن أن يعيد الكرة، وهو ما سيكون له أوخم العواقب على عشائك هذا.

اتكأت الست نفيسة، التي كادت تخور، على مائدة، عاجزة عن أن تتلفظ بكلمة.

كان ريكاردو من جديد هو من أخذ المبادرة. صفق بكفيه مصدراً أمراً بعربية ممتازة، فحضر ثلاثة خدم. بعد لحظة تردد، حملوا المملوك فاقداً وعيه، وأخرجوه.

في هذه اللحظة فقط، عادت البيضاء إلى هدوئها. نادت على الموسيقيين الذين كانوا قد تحولوا إلى تماثيل، وحثتهم على معاودة العزف.

- هيا، هيا.

نفذوا مضطربين، في الآن نفسه الذي أرسلت فيه المرأة نحو ضيفها نظرة استنكار.

- أدخلت الخوف إلى قلبي. كنت أعلم أنك عنيف يا ريكاردو، لكن ليس إلى هذه الدرجة.

- أكون كذلك دائماً عندما يكون الأمر متعلقاً بالدفاع عن شرف امرأة، وخصوصاً عندما يكون اسم هذه المرأة هو الست نفيسة.

احمرت البيضاء من الإطراء ونكست بصرها مثل طفلة.

وضعت كفها على قلبها وانحنت بجزئها العلوي احتراماً، ثم عادت إلى مكانها أمام الأنظار الحائرة للحاضرين.

- على أي حال، علق دروفيتي، ثمة من لا يريدون الانصياع للواقع.

قطبت شهرزاد حاجبيها.

كانت قد تابعت المشهد، مثل الجميع، مرتعبة. كانت على وشك أن تسأل القنصل عندما تقافز الرجل الوسيم الصموت، جارُها على المائدة.

- هل من الممكن أن تودع النواميس كل هذه الفروق بين البشر؟ ماذا؟ هذه الجماعة من قطاع الطرق الألبان، هؤلاء المماليك، هؤلاء المسلمون

البلداء، هؤلاء الفلاحون المقموعون بقسوة، كلهم يقطنون الأمكنة نفسها التي يحيا فيها شعب بهذا الحذق وبهذا الهدوء والحكمة؛ شعب وجد هيرودوت وديودور متعة في وصف تقاليده وعاداته.

تحدث بصيغة مبالغة، مرتعش الصوت. وعندما استعاد أنفاسه انحنى بالتتابع أمام المرأة الشابة والقنصل.

- اسمحا لي بالانصراف. سأغادر غداً باكراً إلى الإسكندرية.

ثم دقق موجهاً كلامه إلى دروفيتي:

- يمكنني الاعتماد عليك، أليس كذلك؟ ستنقش اسمي، كما وعدتني على الهرم الأعظم.

- بالتأكيد، سأقوم بذلك.

حياهما من جديد ثم انسحب، في عينيه اعتكار لم يلحظ فيهما من قبل.

- لكن من يكون هذا الشخص الغريب؟ سارعت شهرزاد بالسؤال.

- اسمه شاتوبريان. فرانسوا روني شاتوبريان. هو غريب الأطوار بعض الشيء، أتفق معك. سياسي عادي، لكنه كاتب على شيء من موهبة. لا شك أنه سيجني كتاباً من رحلته إلى الشرق، وأعتقد أن هذا هو السبب في إلحاحه على أن أنقش اسمه على قدم الهرم الأكبر. بذلك سيكون بإمكانه أن يحكي بأنه قد وقف عنده بالفعل. غير أن أحداً لن يعرف بالحقيقة غيري وغيرك.

- فهمت. . . والآن، هل يمكنك أن تقول لي لماذا كاد هذان الرجلان يقتلان بعضهما بعضاً؟

- أحدهما هو الساعد الأيمن للألفي بك، والآخر. . .

- ريكاردو ماندرينو، صديق الست نفيسة، أعرف ذلك.

- أنت إذن تعرفينه؟

- رأيته ذات يوم. تابع من فضلك.

- كان الألفي أحد أولئك المماليك الذين التحقوا، مثل البرديسي، بمحمد علي لإسقاط خسرو باشا، حاكم القاهرة الأخير المعين من طرف الباب.

بدا على المرأة أنها لا تفهم شيئاً.

- أعذرني، لكن أمور السياسة غائبة عني منذ زمن طويل. فرغم أن الست نفيسة قد حاولت أن تبقيني على صلة بها، فإنني لم أكن أنصت إليها بانتباه.

أنار شعاعُ سلوى حدقتي دروفيتي.

- لا تعرفين حتى محمد علي من يكون؟

حركت رأسها آسفة.

- عشت بالفعل منعزلة. اِعلمي إذن أن محمد علي قد أصبح، منذ زمن قصير، والي مصر.

ثم سارع بالتدقيق، مع غير قليل من الفخر:

- وهو صديق أيضاً.

بدت على شهرزاد أمارات تقزز.

- دمية أخرى عينتها اسطنبول...

- لا يا سيدتي. محمد علي ليس بدمية. حتى لو لم يكن في العالم سوى شخص واحد ليس دمية لأحد، فسيكون هو محمد علي.

وضع الخادم هرماً من الحلويات، على المائدة. تناولت شهرزاد كنافة مغطوسة في العسل وهمست:

- يبدو أنك تخص هذا الشخص بتقدير فائق.

التفت دروفيتي نحو المرأة الشابة بحيث أصبح مواجهاً لها.

- لو اقتربت منه لكنت أنت أيضاً قد أعربت تجاهه عن الأحاسيس نفسها. إنه كائن مختلف، شجاع، وعملي وذو عزيمة.

تناول بدوره حلوى وتابع:

- في البداية، استغل البكوات كي يقضي على الباشوات الأربعة المعينين من طرف الباب. بعد ذلك، وبفضل الوحدة العسكرية التي يرأسها، انقلب على حلفاء الأمس وطردهم من القاهرة ومن غالبية المدن المهمة. وكي ينهي مهمته، استنفر جنوده الألبان ونصب نفسه، مستعيناً بالمصريين، نائباً للسلطان. هذا عظيم، أليس كذلك؟

- تريد أن تقول بأن هذا عمل مكيافيلي. إذا كنت قد فهمت، فهو قد وضع سلماً جعل لكل درجة منه متواطئاً ظرفياً، يصبح هو عدو الغد.

المثال تبسيطي، لكنه يعكس الحقيقة بشكل جيد.

- يبقى، مع ذلك، عنصر لا أفهمه. أفهم أن يكون قد أزاح الأتراك

بفضل المماليك، كما أفهم ان يكون قد أزاح هؤلاء بفضل جنوده الألبان، لكن ما دور المصريين في كل هذه البلبلة؟

- هذا بالضبط، هو ما يشكل تميز عبقريته. فبفضل القادة المدنيين بالقاهرة، استطاع بلوغ غايته. إن ما أراد نابوليون أن يقوم به وفشل، استطاع محمد علي أن ينجزه. إنه لحدث نادر، خارق للعادة ولا سابق له. فالعلماء والأعيان هم الذين أعلنوه نائباً للسلطان، وتدخلوا لصالحه لدى اسطنبول. تأملي مقدار عظمة هذا الحدث.

- أخشى أن أخيب أملك يا سيد دروفيتي. إن الأمر ليس بتلك العظمة التي تتصور.

- إن مساهمة المصريين في تولية محمد علي تسمح لنا بأن نلمح، للمرة الأولى في تاريخ أمتكم، خاصية جديدة، بواكر مسحة وطنية؛ هذه المرة، ليس ممثلاً عادياً للباب هو من سيقود مصير مصر، وإنما شخصية تتخلص كل يوم أكثر من جذورها العثمانية. إنه سيد لا وصاية لأحد عليه. وأجرؤ حتى على القول: إنه مصري. فخلال خمسة أعوام استطاع أن يلعب، بالتناوب، دور الأسد والثعلب، ولم يعتل عرشاً هشاً يقال عنه: «اعتلاؤه رائع، لكن البقاء عليه معجزة».

- هو إذن، وباختصار، مغامر...

حرك بيرناردينو رأسه بقوة.

- لا يا سيدتي، رجل دولة.

- مقامر، مثل نابليون.

- مقامر، أتفق معك. لكن مع فارق كونه دائماً منتبهاً لما يراهن به، ولا يسمح أبداً بأن يفقده.

رفع دروفيتي ذقنه مرات.

- ستذكرين يوماً كلماتي.

- إن ما يحيرني في حكايتك هو أن الباب يسامح شخصاً يفصل نفسه عن سلطته.

- آه. علينا أن لا نحلم. إن الأتراك لا يسامحون. بل إنهم شارعون الآن في القيام بكل المساعي، بتواطؤ مع الإنجليز، لمحاولة إعادة تنصيب - وهو ما

يعد قمة التناقض - المماليك في حكومة البلد. فهم، إذ يخشون فقدان كل شيء، يفضلون محالفة أعدائهم التاريخيين على محالفة محمد علي. أريد أن أقول من خلال هذا إنهم واعون تمام الوعي بالخطر الذي يشكله عليهم.

- لقد شرعت تحيرني، سيدي القنصل.

اتكأت برأسها إلى الخلف كأنها متفكرة.

- حكومة مستقلة... في مصر مستقلة... من الصعوبة بمكان تصور هذا.

- ومع ذلك، فإن هذا ما يوشك أن يحدث.

عادت شهرزاد إلى الاعتدال وسألت:

- هلا حدثتني عن السيد ماندرينو؟

- إنه شخصية مدهشة. فحسب المعلومات التي في حوزتي، هو سليل إحدى الأسر الأشد قدماً بفينيسيا، والتي يمتد نبلها، على خلاف باقي الأسر، إلى القرن الحادي عشر. كان آل ماندرينو ينتمون إلى نبلاء الأرض الصلبة - وهي الصفة التي كانت قد أطلقت على الأثرياء الاقطاعيين. كانت هذه الأسرة قد أصبحت شديدة الشهرة، فقدمت وحدها لفينيسيا ثلاثة من «الدوتشه»، وهو أمر عظيم بالفعل.

- يبدو أن لهذا السيد، لاحظت شهرزاد بسخرية، قيمة كبرى.

أعرب القنصل عن تشكك.

- علينا أن لا نبالغ. فمنذ أن أخضع بونابرت جمهورية فينيسيا وأحرق الكتاب الذهبي، أتساءل عن الدور الذي يمكن لرجال مثل ماندرينو أن يستمروا في لعبه.

- مغامر آخر، علقت شهرزاد بنبرة مستفزة. يبدو أنك على علم جيد به.

- لقد قابلته مرتين أو ثلاثاً بقصر القلعة. إن له علاقة وثيقة بنائب السلطان الجديد.

-هذا يفسر كل شيء. ما دام ماندرينو صديقاً لمحمد علي، فإنه ما كان ليُجلَس إلى مائدة المملوك نفسها.

- من دون شك. كان يكفي أن يتلفظ أحدهما بكلمة غير لائقة كي توقد النار في البارود.

- على أي حال، وإن كنت تريد معرفة رأيي، فإنني أرى فيه متوحشاً حقيقياً. أرأيت الطريقة التي عامل بها حسن بك؟

بدا دروفيتي مصدوماً.

- ماذا يا سيدتي. إن رجلاً بهذا الاسم، ما كان ليسمح لأحد بأن يسبه بتلك الطريقة. إنه...

قاطعته شهرزاد بجفاف:

- بهذه الطريقة تندلع الحروب. وبالنسبة إلي، فإنني لا أبدي أي إعجاب تجاه أولئك الذين يفضلون القوة على الحجة.

كانت على وشك إنهاء حديثها، إذ شعرت بنظرة أحدهم مسلطة عليها. التفتت بتلقائية. وجدت ماندرينو مسلطاً عينيه عليها.

انتصب دروفيتي واقفاً، وقد انتبه في الآن نفس لوجوده، وقف بسرعة مبالغ فيها، مما أغاظ شهرزاد.

- صديقي العزيز. أية سعادة. كيف أحوالك؟

- متعب من مجاورة التفاهة البشرية.

- نعم. لقد كنت شاهداً على الحدث. حسن بك هذا، أوضع الناس.

عقب ماندرينو دون أن يحيد ببصره عن المرأة الشابة:

- أصبح ذلك من الماضي... علينا تعلم نسيان الوضاعات، أليس كذلك؟

تناول كف شهرزاد وحملها إلى شفتيه.

تابع بلطف:

- أنا سعيد برؤيتك ثانية، يا ابنة شديد. لو كنت جلست إلى جوارك، لَكانت أمسيتي قد أشرقت بجمالك عوض أن تكدر بالضجر والغلظة.

- هذا لطف منك يا سيدي، لكن ما الذي تعرفه عن ذلك؟

كان التعقيب جافاً، قريباً من العدوانية.

عض دروفيتي على شفته، وبقي ماندرينو متحكماً في نفسه. تفحص المرأة للحظة.

- لم أكن أعرفْ عن ذلك شيئاً، هذا صحيح.

توقف للحظة.

- والآن أعرف. أنت أو حسن بك، ما كان لذلك أن يختلف في شيء.
احمرت وجنتا شهرزاد وكادت تختنق.
وقبل أن يصدر عنها أي رد فعل، حيا الفينيسي دروفيتي، وانحنى بالكاد أمامها وهو يهمس:
- احتراماتي سيدتي.

* * *

- أي دنيء. أي وغد.
كانت شهرزاد تذرع غرفة نوم الست نفيسة مثل لبوة غاضبة.
همست البيضاء، الممددة على السرير، بتعب:
- ما الذي تفعلينه بنفسك يا بنيتي؟ الأمر لا يستحق.
- لا يستحق؟
كان صياحها من القوة بحيث حملت الست نفيسة كفيها إلى أذنيها مقطبة.
- ايه يا ابنة شديد. اهدئي.
- هل فهمت فقط ما تجرأ على قوله لي: «أنت أو حسن بك، ما كان لذلك أن يختلف في شيء.» هذا أمر لا يصدق. أنا أتساءل كيف لم أصفعه، ذاك البليد.
تهالكت على السرير وضربت بقبضتها، أمام أنظار نفيسة المستنكرة، على إحدى الأرائك.
- ويقولون بأنه ينحدر من أسرة نبيلة. إن ذلك لمضحك.
- ومع ذلك، فالأمر صحيح. آل ماندرينو هم...
- أفظاظ. لا غير.
رفعت البيضاء ذراعيها وأسقطتهما يائسة.
- الرحمة يا ابنتي، أريد أن أنام.
وافقت شهرزاد باسمة:
- سأتركك.
وضعت قبلة على جبين صديقتها وتوجهت نحو الباب بغير رغبة.
- علّ هذا لا يحول دون أن تكون أحلامك سعيدة، قالت نفيسة بهدوء.

الفصل الثلاثون

٢٨ ديسمبر ١٨٠٦

غاص محمد علي - بالقاعة الكبرى لقصر القلعة - في أرائك اليحمور، وشرع يمرر بعصبية حبات سبحته العاجية.

لم يستطع كريم، الموجود معه، أن يمنع نفسه من الابتسام. كان الوالي يصبح على هذا الحال، كلما واجهته مشكلة. الفارق الوحيد في هذا الطقس، اليوم، هو الشيء المستعمل. اليوم السبحة وأمس علبة التبغ.

- جلالتك تبدو مهموماً، في حين ما انفك الحظ يكون في جانبك. فها أنتذا قد سميت باشا من طرف الباب، وفي شهر نوفمبر توفي البرديسي، ومنذ أيام قليلة التحق به الألفي بك. إن اختفاء الزعيمين المملوكين في أيام قليلة، كان من شأنه أن يسعدك.

- إن حداثة سنك، يا صديقي العزيز، تحد من رؤيتك. صحيح أن الرجلين قد ماتا، ليرحمهما الله، لكن ما يزال أمامنا الشيء الكثير لننجزه. أنا الآن أتحكم في مصر، لكن الكواسر تسعى من كل جهة كي تنتزعها مني. هناك أولاً خليفتا البرديسي والألفي؛ فالمماليك لن يتخلوا عن المواجهة ما داموا قادرين على ذلك. ثم هناك الإنجليز الذين لا يحلمون سوى بشيء واحد، هو إزاحة الفرنسيين. وهناك في الأخير الباب العالي التي أمثل بالنسبة إليه العشب الضار الذي يجب اجتثاثه. هكذا، وكما قد تلاحظ، فإن عرش محمد علي معرض لكل الأعطال. وقد أنتهي ربما في قعر سجن.

- أنت مثل البحر يا سيدي، والبحر لا يسجن.

تجاهل نائب السلطان التعليق.

- تهديد الإنجليز يشغلني؛ فعميلهم، الكولونيل ميسي الذي أُمر مع ذلك بأن يبقى محايداً، يستعد لمواجهتي. وقد شرع يزرع بين المماليك من سيساعده على الاحتلال الإنجليزي المستقبلي الذي يسيل إليه لعابه. وبما أنه قد لاحظ بأن مجهوداته تذهب سدىً، فإنه سيستهدفني شخصياً. كما أنه يعمل، في الآن نفسه، على إقناع رؤسائه بالتصرف وباحتلال الإسكندرية.

توقف وشرع يدير السبحة حول سبابته.

استغل كريم الفرصة وسأل:

- والفرنسيون؟ ما دورهم على الرقعة؟

- إذا صدق ما صرح به دروفيتي، فإن الحرب الفرنسية الإنجليزية تدفع بنابليون - في هذه اللحظة - إلى أن يخطب ود اسطنبول. لذلك أستبعد أن تحاول فرنسا القيام بأي شيء في مصر. لا. إن التهديد قادم من لندن.

- أنت ترى إذن أن إنزالاً إنجليزياً وشيك الحدوث؟

- أنا متأكد من ذلك.

- لماذا لا ننقل، في هذه الحال، جزءاً من قواتنا إلى الدلتا؟

- لأن هناك ما هو أشد استعجالاً. أريد، قبل أي شيء، أن أقضي قضاءً مبرماً على هؤلاء المماليك الأفاعي. فقد حذوا حذو مراد بك وتمركزوا في أعالي مصر. ويجب أن نبدأ حربنا من هناك.

- وإذا ما تحققت تنبؤاتك خلال ذلك؟ إذا ما هاجم الإنجليز؟

- لكل شيء أوانه. لنتخلص الآن من الدودة، وبعد ذلك نلقي بالفاكهة.

- متى تعتزم البدء في الحملة؟

- بعد أن أستجمع القوات الضرورية. وعليك أنت يا ابن سليمان أن تسارع بذلك.

جحظت عينا كريم متسائلاً:

- أنا... جلالتك؟

- أنت يا ابن سليمان.

- أنا...

- منذ هذا اليوم، يمنحك محمد علي لقب قياية، مع صفة بك.

تركت المفاجأة، الآن، مكانها للتأثر. استطاع أن يقول مضطرب الصوت:

- أنا ممتن لك يا سيدي. وإليك إخلاصي. سأقوم بكل شيء كي أكون في مستوى هذا التشريف.

انثنى جفنا نائب السلطان وقال بهدوء:

- لقد علمتني التجربة بأن الامتنان والإخلاص كلمتان تعرف قيمتهما أثناء المحن. وخلال الأشهر القادمة سيكون أمامك كل الوقت كي تثبت أن ما أقدمتُ عليه صحيح.

- خلال الأشهر القادمة يا سيدي، وحتى الموت.

شن محمد علي، خلال الأسابيع الموالية، سلسلة من الهجمات على المماليك في ضواحي أسيوط، دون أن يستطيع، مع ذلك، تحقيق انتصارات حاسمة. كان من تبقى من بيوتات الألفي وإبراهيم والبرديسي يتشبثون، معتمدين على طاقة فاقد الأمل.

يوم ١٩ مارس، وعندما كان نائب السلطان يوجد بضواحي قرية جاوة الكبير، وصله بريد من دروفيتي يخبره بأن وحدة عسكرية إنجليزية يقودها جنرال يسمى ماكينزي فريزر، قد استولت على الإسكندرية وتستعد للإغارة على مدينة رشيد. وفي نهاية الرسالة، يرجو قنصل فرنسا محمد علي بأن يعود إلى القاهرة كلما أمكنه ذلك.

لم يُقلِق بريد دروفيتي، عكس ما كان منتظراً ، العاهل بشكل كبير. ستصمد رشيد - هو متأكد من ذلك - خلال الوقت الذي يكفيه للتفاوض مع المماليك على السلم أو الهدنة.

ويوم ٣١ مارس، تحول اقتناعه إلى حقيقة. تعرضت الوحدة الإنجليزية التي هاجمت المدينة للإبادة، بعد أن تكبدت خسائر فادحة.

وصله الخبر يوم ٥ أبريل، في اللحظة التي كان خلالها الجنرال فريزر يقرر إرسال حملة جديدة إلى رشيد وموقع الحميد الذي يجاور هذه المدينة.

فقرر نائب السلطان، إذن، أن يتصرف.

عاد يوم ٩ أبريل إلى القاهرة. ويوم ١٠ أخذ طريق رشيد على رأس أربعة آلاف من المشاة وألف وخمسمائة من الخيالة.

ويوم ٢١، فجراً، أغار على الجيش الإنجليزي. عند منتصف النهار كان نصره صارخاً. سحق الإنجليز الذين فقدوا ستة وثلاثين ضابطاً وسبعمائة

وثمانين جندياً، من بينهم أربعمائة أسير.

لم يعد أمامه سوى أن يسترجع الإسكندرية. وقد سعد للغاية إذْ لم يضطر إلى المحاربة. كان الحاكم الإنجليزي، عندما علم بنكبة رشيد، قد أمر جنراله بإخلاء الميناء.

يوم ٢٠ سبتمبر، دخل محمد علي دخول الأبطال إلى تلك المدينة التي طالما اشتهى أن يمتلكها.

ويوم ٢٥، أبحر الأسطول الإنجليزي أمام أنظار الوالي الراضية، وعيني فريقه كريم.

- الآن يا ابن سليمان، أصبح العالم ملك يميني.

- الحمد لله.

- بالإسكندرية، أصبحت أملك مفتاح البحر.

- دون سفن يا سيدي، لا تكون لهذا المفتاح أهمية.

ظهر الغيظ في كلام الباشا.

- من جديد، تجعل حداثة سنك نظرك حسيراً. أنا أعلم أنني، وقد أصبحت سيد هذه المدينة، أضحيت عنصراً لا غنى عنه بالنسبة للمصالح الاقتصادية والسياسية للقوات الأوروبية العظمى. لقد أصبح لي الآن وزن في اللعبة الدولية. وفضلاً عن ذلك، فإن الانتصارات المتوالية التي حققتها ضد أمة غربية عظمى ستؤدي إلى تعاظم حظوتي لدى الشعب.

صمت ثم قال، مفتوناً:

- يمكن لمصر أن تصبح رافعةَ سياسة حربية؛ سياسة فتوحات وتوسع. ستصبح معي - بعد أن كانت قبلي ضعيفة ومشتتة - غداً قوة ووحدة. سأمكنها من جيش قوي وحديث.

توقف للحظة ثم ضغط أكثر قليلاً على الكلمات الأخيرة:

- ومن بحرية، يا ابن سليمان.

* * *

مايو ١٨٠٨

كانت شهرزاد على حافة الهستيريا.

ألح المعتمد العسكري:

- هذه، يا سيدتي، أوامر نائب السلطان. إن على الستة آلاف ملّاكِ أراضي الذين أُحصوا - وأنت من بينهم بالطبع - أن يتخلوا عن ملكياتهم للدولة مقابل ريع سنوي. إن المزرعة وقصر الصباح. . .

- لا، قاطعته شهرزاد، إنني أرفض.

- ومع ذلك. . .

- إن هذا الشخص لأسوأ من الفرنسيين ومن المماليك والأتراك مجتمعين. وحده قاطع طريق كبير يستطيع أن يتصرف بهذه الشاكلة.

كانت قسمات المرأة تنضح بالعنف، مما جعل الرجل يقرر بأنه من الأسلم له أن يتراجع قليلاً إلى الوراء.

- إن كلمات من هذا النوع، يا سيدتي، عندما تتلفظ بها امرأة من طبقتك، لا تكون. . .

- ماذا؟ ما قصدك؟ قل؟ بحجة أنني لا أنحدر من وسط متواضع، يكون علي ان أُترَكَ للنهب دون أن أبدي أدنى رد فعل. هذا ما تريد أن تقوله لي.

ضربت بقوة على المائدة الموجودة أمامها.

- عد إلى الباشا واعلمه بأنني لا ألعب مع السوقة. الصباح والمزرعة ممتلكاتي، كما كانت بالنسبة لأبي ولجدي قبله. لا شيء، أتسمع؟ لا شيء ولا أحد، وإن كان القوي محمد علي نفسه، يستطيع أن يسلبها مني. هل هذا واضح؟

حرك المعتمد العسكري رأسه آسفاً.

- لقد أُعلنت كل الأملاك الشخصية - منذ ٣ يناير - أملاكاً وطنية، وإذا رفضت التنفيذ فإنك ستجردين منها بالقوة. الشرطة. . .

- لتأتي. هاتوا عساكركم والمدافع والخيالة. لن نرحل، لا أنا ولا طفلي.

- كما تشائين أيتها السيدة شديد. أنا لم أتحدث إلا بمصلحتك، فقد كنت أعرف أباك الفقيد، رحمه الله. واعلمي أن كل هذا يمزق قلبي، لكنني لست، للأسف، سوى موظف لا سلطة له.

ثم تأبط محفظته الجلدية مستعداً للرحيل.

- أمامك ثمانية أيام. عندما ينتهي هذا الأجل، ستحتل الميليشيا المكان ولن يبقى أمامك سوى الالتجاء إلى القضاء. ومن جانبي، علي أن أترك لك

هذه الوثيقة. الريع الذي خصص إليك مكتوب فيها بوضوح. وإليك يعود أن تقبلي أو أن ترفضي.

- أرفض.

عندما أمسكت بالوثيقة، مزقتها وألقت بها على الأرض.

- يمكنك الآن أن تعود إلى القاهرة وأن تخبر من يهمه الأمر.

تقوس المعتمد وخرج شارداً.

ما كاد يختفي حتى أقبل الصغير يوسف متبوعاً بأحمد.

- ماما، ما الذي يحدث؟ كنا نسمع الصراخ حتى من الجهة الأخرى للحديقة.

عبثت، بحنان، بخصلات الطفل، مجهدة نفسها في طمأنته:

- لا شيء يا ولدي. فقط سوء تفاهم.

أشار الطفل إلى الباب.

- الرجل الذي مر بجانبنا هو الذي أساء إليك؟

ضغط قبضته.

- إذا كان الأمر كذلك...

- لا... لم يكن ذلك بشيء، قلت لك. لا أحد أساء إلي، ثم من يجرؤ على ذلك وأنت بجانبي؟

تهالكت على الأريكة المغشاة بثوب من حرير، ومالت برأسها إلى الخلف في تلك الوضعية المتفكرة المألوفة لديها دائماً.

وثب يوسف والتحق بها ضاغطاً جسده إليها.

سحب أحمد ساقيه مقترباً منهما، ثم جلس عند قدميهما. أشار بمرح مصطنع إلى الباب بعكازته.

- أنا أيضاً سمعت سوء التفاهم ذاك. له وجه وغد حقيقي.

استمرت شهرزاد في صمتها.

- ما الذي يحدث يا سيدة؟

- لقد أجبت من قبل: لا شيء.

نظرت في عينيه ولسان حالها يقول: «ليس أمام يوسف».

ران صمت من جديد.

- ألا تريد أن تقدم لي خدمة؟ قال أحمد فجأة للطفل الصغير.
- هذا متعلق بنوع الخدمة.
- الرجل الذي خرج قبل قليل، أريد أن تراقبه وأن تخبرنا إذا ما عاد. أتريد؟
- هل سيعود؟
- ممكن. أليس كذلك يا سيدة؟
ترددت شهرزاد قليلاً قبل أن تؤكد قوله.
- ولماذا لا تذهب أنت؟
- أريد أن أحادث أمك. اطمئن، حديث موجز.
رفع الطفل بصره إلى أمه كما ليستطلع رأيها.
- قم بما طلبه منك أحمد يا ولدي. سيكون حديثاً موجزاً.
- ماذا هناك؟ سأل العجوز بمجرد أن بقيا وحيدين. لنتحدث عن سوء التفاهم هذا.
وضعته في الصورة بإيجاز.
- هذا خطير للغاية... أكثر بكثير مما تصورتُه. خصوصاً وأنك على وشك إنهاء ترميم الصباح. كل هذا ذهب سدىً، يا للخسارة.
- لا شيء في الدنيا يحول دون إنهاء الأشغال. سأذهب حتى النهاية.
- تعقلي يا عروسة. لن تستطيعي القيام بشيء ضد الميليشيا. هل تريدين أن تنتهي في السجن؟
عقبت شهرزاد مهتاجة:
- ما العمل إذن أمام طاغية مثل هذا؟ إنني لأندهش عندما أفكر في قنصل فرنسا الذي قضى أمسية بكاملها في مدح خصاله.
- ظننت أنهم سيقدمون لك، مع ذلك، تعويضاً.
- أتمزح؟ مليون وسبعمائة وخمسون قرشاً.
- بالفعل. صدقة.
هز أحمد حاجبيه حيرة وتابع:
- هناك أمر لا أفهمه: عندما ستؤمم الأرض، من سيحرثها؟ ومن سيحدد أنواع المزروعات؟

- نائب السلطان شخصياً، يا أحمد العزيز. إذا كنت قد أجدت الفهم عن المعتمد، فإن محمد علي هو من سيحدد الأرض التي ستفلح ونوع الفلاحة. هو من سيسند لكل عائلة من الفلاحين حجم القطعة الأرضية التي سيفلحونها وطبيعة البذور أو الأغراس. وسيسهر مديرون أو مراقبون على تنفيذ القرارات.

- خلاصة القول أن رجلنا هذا سيكون هو فلاح مصر الأكبر، وستكون مصر كلها مزرعته.

- تماماً.

شرع أحمد يقضم إبهامه بعصبية.

- وما الذي تعتزمين فعله؟

- ماذا تظن؟ سأواجه.

- ليكن الله في عونك. لكنك لست في مستواهم، وأكرر لك أن الميليشيا عندما ستأتي، لن يكون أمامك سوى التسليم.

أصبح مظهر شهرزاد قاسياً.

- لا مجال.

حاول أن يعيدها إلى رشدها.

- راقبي كلامك يا عروسة.

انتصبت واقفة، دفعة واحدة، شفتاها مرتعشتان تكاد تبكي.

- عليَّ إذن، من وجهة نظرك، أن أسلمهم قصر الصباح وأن أتخلى لهم عن مزرعة الزهور، أي كل ما تبقى لي من والدي، كل ما قاتل من أجله.

أشارت بأصابعها نحو السماء.

- إذا كان يسمعني هناك، فهو يعلم أنني على صواب. علي أن أواجه، ذلك ضروري.

أرادت أن تواصل، لكن إحساسها بالخيبة كان شديد القوة. أقعت، وجهها مدفون في الأريكة، وانخرطت في البكاء.

* * *

كان عدو الفرس يحدث جلبة كبرى وسط الليل. قالت شهرزاد لنفسها بأن الجلبة قد تكون تسمع من الموسكي وحتى في خان الخليلي. لا يهم إن أيقظت

كل القاهرة وبولاق، وأن تصل الجلبة حتى أبواب دمشق. فهي، مهما يحصل، ستذهب حتى النهاية.

قطعت، دون أن تقلل من السرعة، الأزبكية والحي الأوروبي، وتابعت سيرها حتى أدركت باب الخلق. انحنت تلقائياً وهي تعبر سقيفة التجويفة، فأخذت اتجاه المدابغ القديمة.

عندما تجاوزت الممر الذي يشرف على القناة، توجهت نحو حي الرميلة. ستصل إلى القلعة في غضون ربع ساعة على أكبر تقدير.

فكرت من جديد في الحديث الذي أجرته مع دروفيتي صباح هذا اليوم. كانت أملت للحظة، في أن بإمكانه أن يتدخل لدى نائب السلطان. لكنه لم يفعل شيئاً، للأسف. كان القنصل، طيباً كعادته وجاداً بالتأكيد، قد فسر لها بأنه مهما تكن إرادته قوية، ورغم الصداقة التي تجمعه بالباشا، فإن تأثيره ليس من القوة بحيث يجرؤ على القيام بهذه الخطوة. وحتى لو حاول، فإن محاولته ستؤول بالتأكيد إلى الفشل.

وبالمقابل، فإن لقاءها به لم يكن سلبياً بصفة مطلقة؛ فكلمة، كلمة لا قيمة لها تلفظ بها القنصل ولّدت، فجأة، في ذهن شهرزاد فكرة. هي فكرة حمقاء، لكن قد يكون لها حظ ربما في الإفضاء إلى شيء. لذلك، وبحيلة أنثوية، كانت قد انتزعت من القنصل معلومات ضرورية لتطبيق خطتها.

عندما رأت الأسوار انقبض قلبها وعادت صور الأمس إلى ذهنها، بالرغم منها، بوضوح ملفت. رأت نفسها من جديد إلى جانب يوسف وروزيتي ينتظرون أمام باب العذاب أن يسلم إليهم جثمان نبيل. مرت عشر سنوات... وها هي اليوم لا تستعد لمواجهة الموت، ولكن كي تستمر في احتفاظها بالكنز الوحيد الذي فضل لها بعد ابنها: الأرض. أرض يوسف ومجدي شديد.

لا أحب أن يذبل قصر الصباح وأن يفقد رونقه بعد موتي - الذي لن يتأخر. حافظي بقوة على هذا القصر. حافظي عليه مهما يكن. المجد مؤقت، ويمكنه أن ينتهي مع أول غروب. أما الأرض فتبقى دائماً.

صوت أبيها، عوض أن يحزنها قوى من عزيمتها. كان تصميمها عندما وصلت إلى باب العذاب أقوى منه عندما انطلقت قبل يومين من مزرعة الزهور.

عقلت لجام فرسها إلى غصن شجرة أكاسيا وتقدمت، شديدة الحذر، على طول السور الجنوبي. إنّ ما هي مقبلة عليه لعمل مجنون. شجعت نفسها بالقول إن هذه ليست هي المرة الأولى التي تغامر فيها. فعندما ذهبت ليلاً إلى ساحة معركة إمبابة، ألم يكن ذلك عملاً مجنوناً؟

كان حارسان بلباس غريب يقفان أمام المدخل الرئيس. يتعلق الأمر بالتأكيد بالألبان الذين تحدث عنهم قنصل فرنسا. لا يمكنها أبداً أن تتجاوز هذا الباب دون أن يلتفت إليها أحد.

غيرت طريقها وتوجهت نحو السور الشمالي. توجد، بعد نصف فرسخ، فتحة ثانية معتمة، محروسة هي الأخرى. غيرت اتجاهها، دون أن تفقد عزيمتها، حتى تتحاشى الجنود، ثم سارت قدماً أمامها. عندما وصلت قرب مسجد الحسن، عثرت على دهليز صغير بدا لها خالياً. رجت الإثارة قلبها وسارعت نحو الأمام، لكنها سرعان ما تسمرت في مكانها؛ كان حارس قد بدا لتوه في العتمة. كان لها بالكاد الوقت للتراجع والاختفاء وراء صخرة.

كان عليها، مع ذلك، أن تلج القلعة. ولا بد أن تكون هناك وسيلة.

استغرقت للحظة في تفكيرها والهواء المنعش يداعب بلطف الخمار الذي يحجب وجهها. فجأة ألف بصرها العتمة واكتشفت تجويفاً صغيراً في الجدار على بعد ستة أقدام من الباب تقريباً. تلك كانت فرصتها.

لاحظت، وهي تراقب الحارس، بأنه كان يذهب ويجيء، منجزاً بانتظام حوالى عشر خطوات من اليسار إلى اليمين. وخلال لحظة وجيزة، كان يدير ظهره إلى المدخل. لو استطاعت الوصول إلى التجويف ل. . .

انتصبت قليلاً، عازمة، وتقدمت ببطء بين الصخور، وشرعت تقترب يحميها الظلام.

رغم الجو المنعش، شعرت بعرق ينز على جبهتها ووجنتيها.

هي الآن غير بعيدة عن التجويف، غير أن المسافة تبدو لها بلا نهاية، مثل سهل عليها أن تقطعه، أن تكتشفه.

ترصدت، وهي تسترجع أنفاسها، اللحظة التي سيتوجه الحارس خلالها نحو اليمين. وعندما قدرت اللحظة مناسبة، اندفعت نحو الأمام.

وصلت أخيراً، فاتكأت على الجدار، عاملة على الالتصاق به ما أمكن.

كانت أنفاسها متلاحقة، وكانت ركبتاها من الارتعاش بحيث شكّت في إمكانية المواصلة. وكي تشعر بقوة جديدة، شرعت تفكر في الصباح والمزرعة وفي ابنها. وتصورت اليمليشيا تحط رحالها.

كان الحارس يتابع ذهابه وإيابه الرتيب بشكل غير منتظم. كان الخطر المحدق آتياً، بالضبط، من عدم الانتظام هذا. عشر خطوات إلى اليمين، ثمان إلى اليسار، وأحياناً أقل أو أكثر. حاولت التخلص من الخوف الذي يعصر أحشاءها بقولها لنفسها إنه، على أي حال، حتى لو ضبطها فإنه لن يقتلها على الفور.

عملت جاهدة على التحكم في الارتعاش الذي كان يهز كيانها. ترصدت اللحظة المناسبة. قام الحارس باستدارة. أدار لها ظهره. انطلقت وعبرت التجويف. كان الظلام، من الجهة الأخرى، أكثر حلكة. بدا لها برج على اليسار فسارعت نحوه وكمنت فيه، مرعوبة وشاعرة بارتياح، في نفس الآن. انتظرت حتى يهدأ خفقان قلبها.

كانت المرحلة الأولى قد قطعت وبقيت الأصعب.

لا يمكن لهذا البرج - حسب المعلومات التي قدمها دروفيتي دون قصد - أن يكون إلا برج المقطم. نظرياً، إذا ما توجهت نحو اليسار، ستعثر على بئر يوسف، وفي الأسفل القصر الذي من المفروض أن يكون ينام فيه الرجل المسؤول عن كل هذه المآسي.

* * *

عندما دلفت إلى غرفة نوم نائب السلطان، أطلق العبد الذي ينام على قدم السرير صراخاً كان من القوة بحيث يمكن التساؤل عمن منهما كان الأكثر رعباً؛ هو أم شهرزاد.

كانت الغرفة غارقة كلية في الظلام. وحده شعاع النجوم الباهت الذي يتسرب عبر النوافذ كان يسمح بشكل عائم بتخمين الأطياف والأشياء.

عندما تبددت لحظة الرعب الأولى، قفز العبد على شهرزاد. أفلتت منه بالكاد وشرعت تتنقل اعتباطاً عبر الغرفة موقعة صينية نحاسية فصدر عن ارتطام المعدن بالأرض المبلطة ضجيج قوي.

في خضم هذه البلبلة، فتح مصراع الباب وبرز جندي بمصباح في يده.

في الآن نفسه تقريباً، خرج صوت شبيه بزمجرة، ظهر أثره في التجمد التام للمرأة الشابة.

كان محمد علي قد انتصب واقفاً، أشعث الشعر، في يده خنجر مصقول.

دوى أمر.

وضع الجندي المصباح على الأرض ووجه البندقية نحوها.

- لا. لا تطلق النار.

كانت شهرزاد قد خرت على ركبتيها.

- أرجوك، لا.

هل نبرة صوتها المؤنثة هي التي أنقذتها من الموت؟

صدر أمر جديد فأنزل الجندي البندقية.

- مصطفى. أشعل النور.

نفذ العبد الأمر، وأوقد الشمعدانات.

- تقدمي.

انتصبت، وقد سقط الخمار من على وجهها.

كبت نائب السلطان ارتعاشة.

- من أنت؟

- شهرزاد، ابنة يوسف شديد.

رغم أن بصرها كان منكساً، أمكنها أن تشعر بوضوح بعيني نائب السلطان تخترقانها، تعريانها.

- من أرسلك؟

- لا أحد، يا صاحب الجلالة. لقد أتيت من تلقاء نفسي.

هي الآن تراه للمرة الأولى. فوجئت بملاحظة أن مظهره هادئ خالٍ تقريباً من أي تحفز عدواني. لكن، ربما كان طابع لباسه هو ما شوش هذا الانطباع. وبالفعل، فبذلك القميص القطني الذي ينحدر إلى أسفل ركبتيه، كان مثل كل البشر. كان مظهره مشابهاً لأي مواطن انتزع من فراشه على حين غرة.

- لماذا أردت...

قطع كلامه، مأخوذاً بفواق مفاجئ غير منتظر، ثم تابع بصعوبة:

- .. قتلي؟

- قتلك يا سيدي؟ والله ما فكرت قط في ذلك. كنت أريد فقط أن أحادثك، وعلى أي حال...

أفرجت كفيها أمامه.

- هل سبق لك أن رأيت قاتلاً دون سلاح؟

منع فواق جديد العاهل من أن يعقب على الفور. تنفس بصعوبة، وأمر العبد:

- فتش الغرفة.

فتح شفتيه كي يعطي للجندي الأمر نفسه، لكن الكلمة اختنقت من جديد في حنجرته. ألقى بخنجره، ناقماً، على السرير.

- يعاودك الفواق باستمرار، يا جلالة الملك؟

صمت قليلاً، مندهشاً من جرأة السؤال، قبل أن يجيب:

- هل أنت مجنونة؟ بأي حق...

مقاطعة جديدة، اهتزاز جديد لصدره. كان الأمر مثيراً للضحك.

- اعذرني، سعادتك، قالت شهرزاد وهي تمسك الضحكة التي تعتمل فيها، لكنني أعرف علاجاً فعالاً جداً ضد...

- صاحب الجلالة، قاطعها العبد، لا أثر لسلاح.

- لقد قلت لك الحقيقة. أريد فقط أن أحادثك. السيد دروفيتي...

رفع حاجبيه.

- كيف تعرفين هذا الاسم؟

- قنصل فرنسا صديق لي.

- ليس، على أي حال، هو من...

اختنق.

- طبعاً لا سعادتك. لكنني بالأمس فقط عرضت عليه قضيتي آملة في أن يتدخل لي عندكم. وما أخذت قرار الاتصال بكم إلا بعد أن رفض.

- هنا؟ في غرفتي وفي عز الليل؟

- بصراحة، أليس المكان مثالياً؟ وفي كل الأحوال لم يكن لي خيار.

كاد يختنق. لكن من الصعب القول ما إذا كان ذلك بسبب الفواق أم بسبب هذه الجرأة الخارقة لمحادثته، أم بسببهما معاً.

وإذا كان ممكناً الحكم من خلال قسمات محمد علي المختنقة، فإنه كان قريباً من السُّداد.

تهالك على حافة السرير، مجتاحاً بتشنجات متلاحقة.

غامرت شهرزاد بالقول بخجل:

- ممكن يا سيدي، يمكن لهذا أن يسبب في الموت. أؤكد لك أنني أعرف وسيلة لوضع حد له.

رفع عينيه الساخرتين نحو المرأة.

- لأنك... أيضاً... طبيبة؟

- ضع ثقتك في.

تردد. كان يبدو وكأن أفكاراً متناقضة تعتمل في ذهنه.

- دعني أفعل.

دارت حوله، تريد أن تقف خلف ظهره. التفت على الفور، ملامحه مهددة.

- سيدي، احتجت شهرزاد، أكرر لك أنني لست قاتلة.

تجاهل كلامها وأمر الجندي بأن يضع فوهة بندقيته لصق كليتي المرأة.

- الآن، قال وهو ما يزال فريسة للفواق، يمكنك أن تقومي... بما يحلو لك.

ثم استدار.

- عندما أطلب منك أن تحبس نفسك، احبسه. لكن فقط عندما أطلب منك ذلك.

مررت ذراعيها، وهي تتكلم، أسفل إبطي نائب السلطان، وصعدت بكفيها على طول صدره إلى أن أصبح لهما المجال الكافي ليصلا خلف قذاله. عندما أدركت ذلك الوضع، وأمام الأنظار المشدوهة للعبد وللجندي، ضغطت على الأوداج براحتيها، في الآن نفسه الذي تراجعت فيه إلى الخلف ساحبة معها الباشا، مرغمة إياه على أن يقف تلقائياً. عندما أنهت العملية، تركته وعادت إلى الوقوف أمامه.

- ها الأمر قد انتهى، قالت راضية.

ثم سارعت إلى القول بمكر:

- إذا جرؤت على القول، أنصحك بأن تخفف وزنك بعض الشيء... وجدت صعوبة في...

- اصمتي.

اضطربت من الصرخة.

كان محمد علي، الذراعان مرتخيتان، يبدو مبلبلاً. مع مرور الوقت كانت ملامحه تتحول ويصبح جاداً، مع ظهور شعاع جاحد في عينيه.

- مدهش، قال أخيراً بصوت مسموع بالكاد.

فرقع صوت من احتكاك إبهامه ووسطاه، آمراً الرجلين بالانسحاب، فنفذا فوراً.

- أنا أستمع إليك، لكن باختصار.

رفعت شهرزاد حاجبيها.

- ألا تدعو النساء أبداً إلى القعود يا سيدي؟

- بالتأكيد لا. خصوصاً بالنسبة للواتي يعد وجودهن على قيد الحياة كرماً في حد ذاته. انتهى الحديث. ما الذي تريدين قوله والذي يبرر منك سلوكاً مثل هذا؟

قبل أن تتحدث، أزاحت الخمار الذي كان يغطي شعرها، وبحركة هادئة من رأسها أسقطت خصلاته السوداء على كتفيها.

تقدمت خطوة إلى الأمام. أن تكون أرادت ذلك أم لا، فإنها بتصرفها بتلك الشاكلة، كانت توجد تحت أنوار الشمعدانات الثلاثة مما أنار وجهها كلية. وربما استطاع محمد علي، في هذه اللحظة فقط، أن ينتبه بالفعل إلى جمالها الخارق. لكنه، مع ذلك، بقي هادئاً.

- أتيت من أجل أرضي، قالت بهدوء.

بدا غير فاهم.

- هل سبق لك أن أصدرت أمرك بمصادرة كل الأراضي الزراعية بمصر؟

أكد ذلك.

- إنني أملك مزرعة، كما أملك إقامة من أكثر من سبعة فدادين، كانتا قبلي في ملكية والدي، وقبله...

قاطعها نائب السلطان:

- جرؤت على التسلل إلى غرفتي، في قلب الليل، لتحكي لي هذه الترهات؟

- ترهات؟ أملاك والدي تسميها ترهات؟ سنوات من التضحية، حياة كاملة من البناء والعرق والصراع.

كان على وشك التعقيب، غير أنها كانت الأسرع.

- آه. أنت اقترحت طبعاً تعويضنا. أنا أيضاً يمكنني أن أقوم بالمثل. قصرك مقابل حفنة أرز.

- وقحة.

- لا. بل جادة وبائسة، يا صاحب الجلالة. ليس لك الحق في أن تحرمني من ثروتي الوحيدة؛ من الشيء الوحيد الذي أتشبث به. لا. لا يمكنك.

- هذا تجاوز لكل الحدود. لا يمكنني، ليس لي الحق؟

وقف دفعة واحدة، وقد كسا الغضب عينيه.

- بإمكان محمد علي أن يقوم بأي شيء. أتسمعين؟ كل شيء.

وضعت كفيها على وركيها ونظرت إليه بتحد.

- كل شيء؟

- كل شيء.

فهمست:

- والفواق؟

حرك شفتيه يريد التعليق، لكنه بقي فاغراً فاه، ثم انطلق في قهقهة مدوية طويلة. تهالك على الأريكة مائلاً برأسه إلى الخلف. انطلقت شهرزاد بدورها، بعد لحظة تردد، في ضحكة مماثلة. بعد قليل ستتمازج ضحكتاهما المجنونتان لتصديا حتى في الممر حيث سيعتقد جندي الحراسة بأن الباشا قد فقد صوابه.

- يشهد الله، قال محمد علي وهو يعود لتمالك أنفاسه، بأنني لم أضحك بهذا الشكل منذ زمن طويل.

أشار إلى المقعد الذي يوجد أمامه.

- مقابل هذه السعادة وحدها... يمكنك أن تجلسي. قلت... ما اسمك؟

- شهرزاد، ابنة شديد.

- اسم غريب بالنسبة لمصرية.

- أعلم. فكرة لوالدي، لكن ذلك يطول تفسيره.

ألقى عليها بنظرة.

- كما أن ذلك ليس هو هدف زيارتك.

نكست جفنيها في حركة تواضع.

- تعرفين بالفعل القنصل الفرنسي؟ أم أنك إنما كنت تقولين أي شيء؟

- لي يا سيدي كثير من النقائص، لكن الكذب ليس من بينها. أجل، لقد تعرفت على السيد دروفيتي خلال أمسية أحيتها الست نفيسة.

- أنت تخالطين أيضاً نساء المماليك؟

- هي صديقة قديمة، منذ كنت طفلة.

- أفهم...

- وهكذا، فأنت تعارضين القانون.

- جلالتك...

- متى ستعرفين، يا ابنة شديد، أن نائباً للسلطان لا يُعارَض؟

- اغفر لي يا سيدي، فأنا متهورة.

- بأي حق، مقابل ماذا تريدين الإفلات من القاعدة القائمة؟ القانون هو القانون، وستة آلاف من ملاك الأراضي سيعرفون المصير نفسه، وتريدين أنت أن تكوني الاستثناء.

- أليس الاستثناء هو ما يجعل، من بين آلاف الرجال، واحداً يسمو عليهم؟ أنت نفسك يا صاحب الجلالة... كان ممكناً أن تكون بكباشياً بين العديدين، ومع ذلك...

- الأمر لا يتعلق بي.

- سهل أن تقول هذا.

- احذري يا ابنة شديد، فأنت تتجاوزين حدودك.

- حسناً. هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً.

- ها أنت الآن لبقة.

- لماذا هذا القانون؟ لقد قال السيد دروفيتي وهو يتحدث عنك: «هذه

المرة، ليس ممثلاً عادياً للباب هو من سيتولى مصير مصر، وإنما شخصية تتميز كل يوم أكثر عن الأصول العثمانية. هو سيد ليس خاضعاً لوصاية أحد، ويمكنني أن أجرؤ حتى على القول بأنه: مصري».

- تحليل رائع.

- وأول ما تقوم به بوصفك مصرياً، هو أن تقمع الفلاحين؟

- كان يدير بهدوء السبحة في كفه، ثم أطبق فجأة أصابعه عليها.

- محمد علي ليست له أية نية في أن يكشف بغباوة دوافع سياسته، في عز الليل ولامرأة مهما تكن جميلة سمحت لنفسها، فوق كل ذلك، بأن تجتاح غرفته. كل ما يمكنني أن أقوله لك ألخصه في هذه الكلمات: إن رفاهية مصر ستعود إلى مصر.

- ممتاز. دعني إذن أساهم فيها بطريقتي.

- لكن، ما الذي تقولينه؟

- أرضي...

آتى حركة تعب.

- أنت تتعبينني.

ثم وقف.

- أعتقد أنني قد أعطيت الدليل على صبر كبير وعلى أريحية فائقة. والآن، إن سمحت، أريد أن أعود إلى النوم.

تظاهر بالتوجه نحو السرير، لكنه عاد في اتجاه شهرزاد.

- أنظري! قال بنبرة غير منتظرة منه. إن كان يروقك، فإن سريري كبير يسع شخصين.

كان قد أرفق جملته بحركة فاحشة. مد كفه نحو صدر المرأة الشابة.

كان بإمكانها أن تتنحى، لكنها لم تتحرك، مثبتة بصرها في بصره.

لمس ثدييها، ونزل بكفه نحو فخذيها. ظلت جامدة. كانت عيناها غارقتين دائماً في عينيه. من الممكن أن يكون قد قرأ فيهما احتقاراً أو رسالة أكثر إذلالاً، مما جعله يزمجر دافعاً بها إلى الخلف.

- أخرجي من هنا. لقد طالت هذه المسرحية أكثر مما يجب. أريد أن أنام.

تمدد على سريره وسحب الغطاء حتى ذقنه، قائلاً من جديد:

- بكلمة مني، قد يسحبك حراسي كأي شيء بلا قيمة. لا تجبريني على القيام بذلك.

نكست رأسها. كانت الدموع تجري على خديها. يصرخ فيها عقلها بأن تخرج، ويبقيها قلبها، ثقيلة، منغرسة في الأرض.

- أنا أجهل ما إذا كانت لديك ابنة أو أبناء. أما إذا كان الأمر كذلك، فادع الله أن لا يحرمهم أحد مما قد تتركه لهم. و...

ثم سارعت نحو الباب وقد اجتاحها الغضب.

- عودي إلى هنا.

كان قد قذف اللحاف، وجلس على حافة السرير.

- أنت متشبثة بتلك الأرض إلى هذا الحد؟

- أكثر من أي شيء آخر.

- جيد. حتى أثبت لك بأنني لست بالقسوة التي تتصورين، أقترح عليك مراهنة.

- مراهنة؟

- سأذكر لك ثلاث لعبات. وسيكون من حسن حظك أن تكون إحداها مألوفة لديك. سيكون ذلك دليلاً على أن الحظ بجانبك. أما إذا حصل العكس، فسيكون ذلك علامة إلهية.

نخرت مثل طفلة، واقتربت ببطء من السرير.

- اللعبة الأولى: الشطرنج.

حركت رأسها سلباً.

- البليار.

قالت لا، من جديد.

- لعبة الضامة.

تمتمت بخجل.

- لي... بعض المبادئ.

- هذا ليس جواباً. هل تجيدين لعبها أم لا؟

عضت على شفتيها بقوة، مخافة انكشاف لهفتها.

- أجل، قالت بصعوبة... أعرف قواعدها.

- سيكون الرهان إذن، في لعبة الضامة، هو الأرض. وسيكون الفائز هو الذي يتفوق على خصمه بجولتين متتاليتين. اتفقنا؟

تمتمت بصوت مرتبك:

- هل لي من خيار يا صاحب الجلالة؟

الفصل الحادي والثلاثون

كان الفجر قد بزغ منذ مدة. وكانت خيوط الشمس تحط على مرمر الغرفة المصقول.

دفع محمد علي وعيناه محاطتان بالزرقة، بلطفٍ رقعةَ الضامة، متخلياً مشبعاً.

- طيب. أنت الفائزة.

رغم أنها كانت تود أن تصرخ فرحاً، فإنها قد اكتفت بموافقة هادئة.

- ليس لنائب السلطان سوى كلمة واحدة. ستحتفظين بأرضك.

وقف وفتح الباب، ثم أمر:

- شاي.

التفت نحوها.

- تريدين شاياً أنت أيضاً، أعتقد؟

- إذا لم يكن في ذلك إزعاج. أنا جوعانة جداً أيضاً.

- من المفروض أن فوزك قد أشبعك.

خاطب الجندي:

- قوموا بالواجب.

أعاد إغلاق الباب والتحق بأريكته.

- قولي. . .، قال وهو يتفحص المرأة، ألم تؤكدي منذ ساعات أن الكذب لا يوجد بين نقائصك؟

- بكل تأكيد يا سيدي.

أشار إلى رقعة الضامة.

- قبل الجولات المائة والثلاث عشرة التي تقابلنا خلالها، لم تكوني تملكين بالفعل - وقلد شهرزاد بصوت كاريكاتوري - «سوى بعض المبادئ حول هذه اللعبة».

- حتى أكون صادقة، كنت أتقن لعبها جيداً. لكن آخر جولة لعبتها تعود إلى أكثر من عشر سنوات.

- أفهم. . . نصف حقيقة أو نصف كذبة.

اجتاح قلق مفاجئ المرأة الشابة.

- اتفاقنا نهائي يا سيدي، أليس كذلك؟

- قلت لك ذلك. ليس لمحمد علي سوى كلمة واحدة.

ثم قالت بخجل:

- هل صحيح ما قاله لي دروفيتي عنك؟ هل تحب مصر بالفعل؟ وهل ترغب في استقلالها؟

- أجل يا ابنة شديد. أكثر مما أرغب في أي شيء آخر.

- أعذرني، لكن لماذا مصادرة هذه الأراضي؟

- أنا بحاجة إلى تمويل كي أحقق التحولات الجذرية التي أتصورها. أنا في حاجة إلى إمكانيات كي أعيد إنعاش هذا البلد وكي أرفع من شأنه وأقويه. بكلمة من أجل تحديثه. ما الذي يمثله ستة آلاف شخص أمام ثلاثة ملايين؟ ذرة رمل. وفضلاً عن كل ذلك، كان من تقاليد مصر دائماً أن تكون الدولة هي مالكة الأراضي، مالكة الموارد.

- ربما، لكن الريع كان يعود إلى المزارعين.

- بعد تدبير بعض التحملات سيظهر لك المستقبل بأن قراري مرادف للرفاهية العامة. لكن لنعد إلى موضوعك، أي نوع من الزراعة تزاولين؟

- القطن، جلالتك.

عبر شعاعٌ اهتمام عينيه.

- القطن ليس سيئاً، وإن لم تكن في الأمر أصالة.

انخرطت - كما لو لم تكن تنتظر سوى ذلك - في متتالية من الشروح المتحمسة. حدثته عن الغوسبيون باربادونس الشهير، وعن تلك الليفة الطويلة النادرة التي تعمل جاهدة على إنباتها، وعن نظرياتها حول شجرة القطن وعن

المستقبل الذي تشكله. وقد قادها عرضها إلى أن حدثته عن أبويها وعن أخيها وعن المأساة التي عاشتها. وحدثته، أخيراً، عن الصباح التي تعيد بناءه.

عندما أنهت حديثها، كان شعور جديد قد لبس قسمات محمد علي؛ إذْ بدا عليه تقدير واحترام.

- أنت شخصية عجيبة يا شهرزاد - كانت تلك هي المرة الأولى التي ناداها فيها باسمها -. على أي حال، فإن ليلة الأرق هذه، لم تكن بالسلبية التي كنت أظن. ما عمرك؟ آه، هذا ليس نوع الأسئلة التي تطرح على النساء، لكنني أريد أن أعرف.

- سيكون عمري ٣١ سنة يوم ٢٧ يوليو.

- ٢٧؟ صدفة عجيبة. هو التاريخ نفسه لميلاد ابنتي الكبرى. ليلى.

- ابنتك... صحيح، لقد تحدثت كثيراً عن نفسي، جلالتك. لكنني لا أعرف شيئاً عنك.

- أترين ذلك ضرورياً؟

- أحب ذلك كثيراً.

- قد تفاجئين إذا قلت لك إنني لا أملك لا أصولك ولا تربيتك. كل ألقابي الفخرية تحد في كوني قد ولدت في سنة ميلاد بونابرت وفي بلد الإسكندر الأعظم، مقدونيا.

شجعته أن يستمر.

- أنا سليل وسط متواضع. كان والدي، إبراهيم، رئيساً للحرس المكلف بحماية طرق ضواحي كفايا. تعهدني عمي بعد أن أصبحت يتيماً في وقت مبكر. للأسف، ولأسباب لا أعرفها، أعدم التعس من طرف الباب. بعد أن أصبحت بلا عائلة، رباني أحد أصدقاء العائلة، هو شوربجي قرية براوستا. زوجني عمي، وأنا بعد شاب صغير، في الثامنة عشرة من عمري، من إحدى قريباته التي كانت لها بعض الأملاك. رزقت منها ثلاثة ذكور رائعين هم إبراهيم وطوسون وإسماعيل، وطفلتين: ليلى وزهرة. مباشرة بعد ذلك، قررت أن أعيش من تجارة النشوق الذي كان يشكل العنصر الأساسي في النشاط الاقتصادي للمنطقة. وقد شجع خطواتي الأولى تاجر فرنسي يدعى «ليون». ها أنت الآن تعرفين عني كل شيء.

- آه، لا يا سيدي، تابع أرجوك.
- أنت شديدة الفضول.
- ليس بإمكاني دائماً أن أفهم كيف أصبح طفل من كفايا نائب سلطان.
- باختصار، عندما كان الباب العالي قد قرر طرد نابوليون من مصر، وكان أبي بالتبني، الشوربجي، قد تلقى أمراً بتقديم وحدة عسكرية من ثلاثمائة رجل. سلم قيادة الفرقة لابنه، وسماني ملازماً. وبعد هزيمة أبي قير، كلفني أبي الشوربجي الذي انهارت معنوياته، بقيادة الفرقة العسكرية وغادر الجيش. ويبدو أن سلوكي أثناء مواجهة الفرنسيين كان قد لفت انتباهه، ما دام الباشا القائد قد أعطاني رتبة سيرشمي بعد ذلك بعام. أما الباقي فينتمي إلى التاريخ.

مررت المرأة الشابة أصابعها في خصلاتها الطويلة، متفكرة.

- مكتوب، تمتمت. كل هذا مكتوب.
- حتى لقاؤنا هذه الليلة؟
- أنا متأكدة من ذلك.

غيرت فجأة من نبرتها.

- بالمناسبة، جلالتك. هل أبالغ إذا ما طلبت منكم أن تؤكدوا كتابة كرمكم الذي أعربتم عنه؟
- ماذا تقصدين؟
- لا شيء يثبت أن الصباح ومزرعة الزهور ستظلان في ملكيتي.

رفع حاجبيه.

- احذري يا شهرزاد. تذكري المثل المصري: "إذا كان حبيبك عسلاً، فلا تلعقيه كله".
- وثيقة فقط، يا سيدي. كلمات بخط يدك.
- هنا، الآن؟
- أليس ذلك في غاية السهولة؟
- مستحيل.
- صاحب الجلالة...
- مستحيل، أقول لك.
- لكن لماذا؟ ما الذي يمنعك من ذلك؟

توقفت وتوجهت نحو الباب.

- إذا كان الورق هو ما ينقص...

- ابنة شديد.

أدركت من نبرة صوته أنه من باب الحذر أن لا تتمادى. عادت بهدوء إلى مكانها.

- عندما يقول محمد علي بأن الأمر مستحيل، فهو كذلك.

تمتمت بصوت خافت:

- حتى بالأمس كنت تقول بأنك قادر على كل شيء...

فارق مقعده وخطا بضع خطوات نحو النافذة، لائذاً بالصمت.

مرت لحظات قبل أن يرتفع صوته من جديد:

- أنا لا أعرف، باح بخجل مكبوت. لا أعرف لا الكتابة ولا القراءة. لم يسعفني الوقت.

تمتمت شهرزاد:

- كنت... كنت أجهل...

لم يستمر ذهولها سوى لحظات.

- لا أهمية لذلك، سأعلمك.

- أنت؟

- أنا أحسن من كل مدرّسي مصر.

- أنت تمزحين.

- بالعكس، وفوق ذلك سأعلمك مجاناً.

شبكِ ذراعيه مبتسماً.

- لِمَ لا؟ لكن بشرط. في غضون ثلاثة أيام سأقيم حفلاً بالقصر. سيدرك ولدي طَوسون العشرين. وأصر على أن تكوني من بين المدعوين. وما دمت تعرفين قنصل مصر، فسيكون هو مرافقك.

- جلالتك... أنا لا أخرج من البيت إلا لماماً.

- إذن لا دروس.

- اتفقنا. سأحضر. لكن قل لي...

أشارت إلى الباب مغتاظة:

- الشاي... هل تستقدمونه من الهند؟

* * *

كان بالإمكان تصور أن قاعة القصر الكبرى قد عادت إلى زمن السلطان قايتباي. زُينت الجدران الصخرية العظيمة بالرسومات الذهبية واللازوردية والأرابيسك والجدائل المزخرفة. وكانت إطارات الباب قد جُددت هي الأخرى، فبرزت تحت أنوار الثريات والشمعدانات الكبيرة تخريماتها المنحوتة بحذق. ألقيت على بلاطات المرمر بسط من حرير ومخمل، بل حتى قماش مذهب. وفوق كل ذلك نثرت أعداد كبيرة من الأرائك جلس على بعضها المدعوون الذين يقارب عددهم المائة.

كان في وسط القاعة نافورة من بلاط وموزاييك مختلفة ألوانه، تصدر طراوة منعشة ومسكنة.

انبهرت شهرزاد التي وصلت لتوها، كفها عالقة بذراع القنصل، ببذخ المنظر.

توقفت على العتبة ولاحظت بنبرة ساذجة:

- يا إلهي كم هو جميل.

أقر دروفيتي ملاحظتها ثم اقتادها إلى المكان المخصص لهما.

كانت وهي تقعد، تتفحص القاعة، باحثة عن نائب السلطان.

- مضيفنا، على ما يبدو، لم يحضر بعد.

- البروتوكول يا صديقتي العزيزة. فحتى في الشرق تحضر، في بعض المناسبات، العادات والتقاليد المعمول بها في الغرب.

- من يكون هؤلاء الناس؟

- موظفون أتراك سامون، كما تقتضي الدبلوماسية، وعدد كبير من القناصل. على أي حال، المجموعة المعتادة.

كانت شهرزاد على وشك أن تجيب عندما شعرت وكأن قنبلة قد ألقيت أمام ساقيها. استعد ماندرينو، ريكاردو ماندرينو شخصياً للجلوس أمامها.

تقاطعت نظرتاهما، فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة. مد إليها كفه، ففعلت مثله. ثم حيّا دروفيتي وهو يأخذ مكانه فوق القماش المذهب.

- أنا سعيد يا صديقي بأن أراك ثانية. يبدو أنك في كامل قوتك.

رد الفرنسي الإطراء بإطراء:

- أما أنت يا سيدتي العزيزة فتبدين أكثر إشراقاً مما كنته خلال الأمسية التي التقينا فيها.

ردت شهرزاد بخفوت، ثم حولت ناظريها نحو الضيوف. اغتنم دروفيتي الفرصة ليقترب من ماندرينو وينخرط معه في أحاديث سياسية.

بعد حوالى عشر دقائق أتى محمد علي. كان في كامل أناقته، معتمراً طربوشاً قرمزي اللون. تقدم محفوفاً بثلاث شخصيات، من بينهم ابنه طوسون.

عندما كان نائب السلطان يعبر القاعة في اتجاه المقام الرئيس. وقف الحضور مثل شخص واحد. عندما أدرك مستوى المكان الذي كانت توجد فيه شهرزاد، قام باستدارة وسار نحوها.

- سيدتي. إنني سعيد بأن تكوني ضمن ضيوفي في هذا الحفل.

انحنت شهرزاد باحترام - وسط الصمت الكامل - وتمتمت:

- ما كنت، يا صاحب الجلالة، لأتخلف مقابل أي شيء في الدنيا، عن مثل هذا الشرف.

- إبني طوسون، قال نائب السلطان.

ثم إلى الشاب:

- ابنة شديد. صديقة غالية.

حياها طوسون.

تابع محمد علي، في الوقت الذي كانت شهرزاد ما تزال منكسة رأسها احتراماً:

- ملازمي، قياية كريم ابن سليمان.

كان أول ما تبادر إلى ذهنها أن الأمر يتعلق بتشابه في الأسماء.

رفعت رأسها. كان هو.

تمتمت ببعض الكلمات المضطربة، محاوِلة إخفاء دهشتها. ومن خلال نبرته وهو يرد؛ من ارتعاشة صوته الخفيفة، استنتجت أنه مضطرب هو الآخر.

كانوا قد واصلوا سيرهم نحو عمق القاعة.

لم تجلس، وإنما تهالكت على الأريكة.

- ألست على ما يرام؟ سأل دروفيتي وهو يلاحظ امتقاعها.
- لا، لا. . . ضيق عابر. ليس الأمر بشيء.
- أنت متأكدة؟. . . ألا تريدين أن. . .
- لا. . . أؤكد لك. سيتحسن الحال. . .

كان ماندرينو خلال حديثهما قد غادر مكانه. تبادل بضع كلمات مع خادم ثم عاد.

وهناك، كان محمد علي قد أخذ مكانه مسترخياً، على يمينه كريم وعلى يساره طوسون.

قياية بك. . . ملازم نائب السلطان.

كان هذا إذن هو سبب مقاطعته.

عندما مرت لحظة المفاجأة، ما عادت قادرة على منع نفسها من مراقبته وهو يحادث ابن العاهل. إذا كان يبدو مرتاحاً في بذلته، فإن حركاته كانت مضطربة وقسماته مشدودة. هل كان هو أيضاً يجد صعوبة في أن يعود إلى هدوئه بعد هذا اللقاء المفاجئ؟

كانت، على أي حال، سعيدة بأن تراه ثانية. لم تكن تشعر لا بمرارة ولا بغم. كانت قد انتابها فقط شعور بالحنين. كانت قد تذكرت الكلمات التي باحت بها لأحمد، والمتعلقة بسعادة ابن سليمان؛ كان الفلاح يبدو على الطريق الصحيح.

كانت الجوقة المصطفة في ركن من القاعة قد شرعت تعزف، مصحوبة بالأصداء الحميمية للضحكات والثرثرة.

وقف الخادم إلى جانب ماندرينو، أمام شهرزاد، حاملاً كأساً صغيرة مرصعة.

- هذا سينعشك. أوضح الفينيسي. ماء زهر البرتقال مع سكر. صدقيني، إنه صحي.

شكرته شهرزاد، مفاجأة من هذا العطف غير المنتظر، ثم أخذت الكأس وشرعت تحتسي بجرعات صغيرة.

- كنت قبل أن آتي إلى مصر - علق دروفيتي - أجهل فوائد هذا المشروب؛ إنه ليس لذيذاً في شرابه فقط، وإنما هو مهدئ أيضاً ومنعش بشكل

مبهر. وقد علمت أنه من الممكن حتى أن نضع قطرات منه في القهوة.
أكدت شهرزاد كلماته.

- هكذا إذن، لقد غادرت مزرعة الزهور لتعيدي بناء الصباح.

- نعم. منذ مدة قصيرة.

- الصباح؟ سأل ماندرينو. هذه كلمة تعني الفجر، على ما أعتقد؟

- تماماً قالت شهرزاد.

أضاف دروفيتي:

- إنه قصر رائع تملكه صديقتنا الفاتنة بالجيزة. لكنه هدم للأسف أيام تمرد القاهرة الأخير أيام كليبر.

- من طرف رجالكم؟

- بالطبع لا. عصابة من الكفرة المتعصبين. وعلى أي حال...

قاطعته المرأة بلطف:

- اعذرني، لكنني أرى بأن هذا لا يهم كثيراً السيد ماندرينو. وكي لا أخفي عليكم شيئاً، أقول إن الحديث عن تلك المرحلة يزعجني بعض الشيء. لنغير الموضوع لو تفضلتم.

- قدم القنصل اعتذاراته وانخرط في نقاشات سياسية جديدة مع الفينيسي.

وجهت شهرزاد تفكيرها نحو ابن سليمان.

- تبدين شاردة يا سيدتي.

اعتبرت صوت ماندرينو اعتداءً على حميميتها.

- ما العمل عندما يكون الواقع بهذه الرداءة؟

ورغم أن محادثها قد أحس بالعدوانية التي نضح بها تعقيبها، فقد تجاهلها وأشار بهدوء إلى الصحون التي وضعت أمامهم...

- الوجبة الباردة لم تهيأ من أجل حل المشاكل.

لم تكن شهرزاد، التائهة في أفكارها، قد انتبهت إلى أن الطعام قد قدم. تأملت صحنها دون رغبة.

- الواقع أنني لست جائعة. ابدأوا أرجوكم.

علقماندرينو:

- هذا لطف منك. لكنني لا أملك رباطة جأش صديقنا القنصل. لقد بدأت سلفاً.

كان هذا الشخص يغيظها إلى أبعد الحدود. أي نوع من الرجال هو؟

- غريب - قالت بفظاظة - لقد تعرفت على صديقك كارلو روزيتي، وأعترف لك بأنه ليس هناك شيء يجمع بينكما.

- بالتأكيد، فهو لم يكن من أصل نبيل؛ كان مجرد قنصل متواضع.

كان ماندرينو يستعد لحمل قطعة من لحم الحمل إلى شفتيه، فعلق حركته.

- ها هو ذا أمر يدهشني. يبدو أنك تعرفينني معرفة جيدة.

- لا. أنا أخمن فقط من تكون.

- لقد نسيت أن للنساء غريزة قوية، وغريزتك أنت أقوى من غريزة باقي النساء بالتأكيد. وما دامت علاقتنا متميزة بالصراحة، فإنني أعترف لك بدوري بأنني قد عرفت مصرية أخرى، وهي بدورها لا تملك أي قاسم مشترك معك. لكن ربما كان ذلك بسبب كونها ذات أصل نبيل.

عندما أنهى تعليقه، ازدرد شريحة اللحم بشهية.

ضغطت شهرزاد أسنانها، وغرزت بعنف شوكتها في جناح حمامة، ثم شرعت تقطع الطائر وكأنها تقطع عنق ماندرينو.

- بأي نوع من الزروع تهتمين؟

بذلت مجهوداً جباراً كي تجيب.

- القطن، قالت.

- الهيرباسيوم أو الهيارستوم؟

عقبت، مندهشة من معرفته.

- الهيارستوم.

- كم فداناً؟

- أكثر من فدانين بقليل.

- ليس سيئاً. هل جربت التهجين؟

- قمت بتجارب، لكنها لم تفض إلى شيء.

- هذا النوع من العمليات، في الواقع، معقد للغاية. كما أن الأمر

يتوقف على نوعية الأرض. وإذا لم تخني ذاكرتي، فإن مصر السفلى تعد نموذجية بالنسبة لشجرة القطن. بيد أن التي توجد فيها مزرعتك، تبدو لي أقل خصوبة.

- صحيح. لكن النتائج التي حققتها مقنعة على أي حال. كيف أصبحت لك كل هذه المعرفة بالقطن؟

- لأنه أحد محاور أنشطتي. أنا أصدره. بدأت بأمريكا اللاتينية التي تعد، كما تعلمين بالتأكيد، أكبر منتج للقطن الآن، ثم انقلبت إلى مصر.

- هل سبق لك أن سمعت بالباربادونس؟

- بالطبع.

وضعت شهرزاد شوكتها متأثرة.

- هل سبق لك أن رأيته؟ أن لمسته؟

- بكل تأكيد. وإذا لم أخطئ، فهو ناتج عن عملية التهجين التي حدثتك عنها لتوي. ما أنا متأكد منه هو أن أصله من الأنتيل. على أي حال، هناك اكتشفته لأول مرة.

سألت مبهورة.

- لأي شيء يشبه؟

- هو شجيرة أوراقها كبيرة، مصفرة، مع لطخة حمراء عند قاعدة كل بتلة. وكل فص منها يضم من ست إلى عشر بذرات غير ملتحمة فيما بينها.

- كنت متأكدة. قلت ذلك لأحمد وللفلاحين الآخرين. لكنهم لم يصدقوني البتة.

قطب ماندرينو حاجبيه.

- أحمد؟

أمسكت للحظة مضطربة.

- لا، لا شيء. يحتاج الأمر إلى وقت طويل كي أشرح لك.

أحست فجأة بالرعب عندما لاحظت بأنها قد انغمست، دون قصد منها، في حوار مع هذا الشخص الذي كانت قبل قليل لا تطيقه. آخذت نفسها على ذلك، ولاذت فوراً بالصمت.

أما هو فقد تابع:

- نحن في شهر مايو، ومن المنتظر أن تقومي بحصادك الأول في غضون شهرين.

أجابت ببرود:

- لماذا؟ هل ستكون أنت المشتري؟

- كل شيء متعلق بالجودة. فكما قلت لك، أنا أهتم بالقطن المزروع جنوب الدلتا.

قالت مندهشة:

- هل تشك في جودة...

- لا، أبداً. فقط أريد أن أرى.

- المشترون كثر.

- هم تقريباً بعدد أشجار القطن. أنا أعرف ذلك. أما جديتهم، فذاك موضوع آخر. وكيفما كان الحال فإنني أريد زيارة مزرعتك.

تأملته المرأة بعدم رضى.

- أنا لم أدعك إلى ذلك.

- أليس من الضروري، ونحن في البداية، أن نتحاشى التفاصيل؟

- إن أسعاري لن تروقك على أي حال.

تدخل دروفيتي - الذي ظل صامتاً إلى تلك اللحظة - في المحادثة:

- أظن... أفترض أنكم على علم بالقانون الجديد المتعلق بالممتلكات الفلاحية.

- بالتأكيد.

- في هذه الحال...

قال الفينيسي مستبقاً:

- أطمئنك. إن هذا القانون لا يشمل السيدة شديد. فمن المحتمل أن تكون الوحيدة في مصر التي تحتفظ بأرضها.

أبدى القنصل تشككاً:

- اسمح لي بأن أشك في ذلك، يا صديقي العزيز.

نظر ماندرينو بطرف عينيه إلى شهرزاد.

- قولي له، من فضلك، بأنني لم أخطئ.

تفحصته صامتة.

- أنت قوي جداً يا سيد ماندرينو، أو أنك على علم بكل شيء.

- لا يا سيدتي. أنا أيضاً أمتلك غريزة أنثوية.

* * *

كانت ساعةً متأخرة من الليل عندما قرر نائب السلطان أن يغادر ضيوفه. اكتفى كريم عندما كانوا يمرون أمام شهرزاد بأن بادلها نظرة متواطئة.

بمجرد أن اختفوا، التفتت شهرزاد نحو القنصل.

- لا أريد أن أفسد عليك أمسيتك، لكنني أريد أن أعود إلى الصباح.

- أنا رهن إشارتك. اسمحي لي فقط بأن آمرهم بالإتيان بعربتي.

وقف وتوجه نحو المدخل.

أحست شهرزاد، وقد أصبحت وحيدة مع ماندرينو، ببعض الضيق. وكي تستعيد تماسكها، شرعت تمضغ حبة عنب.

- تتضايقين مني، أليس كذلك؟

تفحصته محيرة.

- لماذا تقول هذا؟

- أستغرب أن يأتي السؤال منك. فأنت قد أعطيت الانطباع، حتى اللحظة، بأنك لا تهتمين بشيء.

ثم حركت رأسها.

- صحيح يا ماندرينو. أنا لا أحبك. وبما أنك تسعى لأن تعرف، فإنني أقول لك إنني أجدك سمجاً متحذلقاً وفظاً.

شرع يضحك بهدوء.

- ها هو ذا أمر يستحق أن يكون واضحاً، ورغم أنني كنت سأقدر رأياً آخر مختلفاً، فإن ما قلته ليس سيئاً. أنا أفضل الكراهية على عدم الاهتمام. فامتياز الكراهية هو أنها تترك الباب موارباً أمام الحوار.

- على أي حال، أنت أيضاً لا تقدرني البتة.

تأملها بسمت غامض.

- اعترفي بأن جواباً إيجابياً من طرفي سيطمئنك.

- ماذا تقصد؟

تحاشى الإجابة، ومال نحوها غامراً إياها بنظرته الزرقاء.

- الواقع أن ما يقلقك فيَّ هو أنت. هذه النسخة منك التي ترينها في والتي ترعبك. أنت متكبرة وعنيدة ونافذة الصبر وهشة وساذجة ومتصلبة ومتعجرفة ومعتزة بنفسك. وفوق كل هذا فأنت تملكين الخصلة التي لا تملكها سوى النساء الحقيقيات: أنت في الآن نفسه أميرة ومجالسة أمراء.

مع هذا النعت الأخير انهالت كف شهرزاد في اتجاه خد ماندرينو. لكنها لم تدرك هدفها، فقد قبض الفينيسي على كفها بقوة.

أضاف ثابتاً:

- باختصار، وباستثناء الوصف الأخير، فأنا مرآتك وأنت مرآتي. القفاز واليد. لذلك - وسواء شئت ذلك أم أبيت، مانعت فيه أو استجبت له - فنحن محكوم علينا بالتقارب.

أرخى قبضته.

- أنت أحمق، قالت ببطء. أنت أحمق كلية..

الفصل الثاني والثلاثون

كان كريم - لأكثر من نصف ساعة - كامناً في عتمة الممر الذي يحد الحي المخصص للنساء. لكن ما الذي تفعله أمينة، الخادمة؟ الوقت يمر، واجتماع القواد العسكريين سينعقد في الثانية عشرة. ما عاد أمامه وقت طويل.

أخيراً انفتح باب خشب الأرز السميك مصحوباً بصرير مسموع، وبرز شبح في الإطار مسارعاً إلى لقائه.

- ماذا وراءك؟ سارع بالسؤال.

وشوشت أمينة:

- هي موافقة. ستلتحق بك الأميرة فور انتهائها من درس الإنجليزية الذي تعطيه إياها الآنسة ليدر.

- مؤكد؟

- طبعاً، يا قياية بيه.

أطلق كريم تنهيدة ارتياح. كان يعيش على جمر ملتهب منذ أن مهد لعلاقة عفيفة، منذ ثلاثة أسابيع، مع ليلى. لا بد أن نقول إن الابنة البكر لنائب السلطان لم تكن فريسة سهلة. كانت حذرة بطبعها، وخجولة إلى حد المرض، بحيث كانت تقضي وقتها في أن تعيد النظر، غداً، في الإيجابيات القليلة التي تفضلت بها بالأمس. والسبب في سلوكها هذا يرجع بالتأكيد إلى الآنسة ليدر، التي تبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة، وهي ابنة لأحد المبشرين الإنجليز. فهي شخصية جافة، وقد تكون أغرقت ليلى المسكينة في تلك الصرامة التي هي خاصية إنجليزية.

لا يهم. إن قيمة الرهان تستحق أن يلوذ بالصبر.

* * *

في صباح ٢٧ يوليو، سطعت الشمس فوق قصر الصباح وشهرزاد ما تزال غارقة في نومها. منذ زمن طويل، منذ سنوات بالتأكيد، لم تنم إلى هذا الوقت المتأخر. هل يكون علمها بأنها اليوم ستجتاز قمة سنواتها الإحدى والثلاثين هو ما جعلها من دون وعي منها، تؤجل لحظة استيقاظها؟ أم أن ذلك راجع إلى علمها بأنها ستعيش هذه اللحظة وحيدة؟ حتى أحمد المقدام، أحمد المخلص، لم يعد هنا ليضحكها أو ليقول لها بعض الكلمات الدافئة الحنونة. لقد مات مع نهاية مايو بصمت ودون شكوى. وحينئذ أغمضت هي عينيه شاعرة بإحساس بالفراغ دفعها إلى العودة القهقرى في الزمن لبضع سنوات، ما بين وفاة نبيل وحريق الصباح.

ولت نظرتها جهة المشربيات التي ثبتت بالأمس. كان النور يتسرب من بين المعيّنات والمربعات، لطيفاً ومهدئاً. عندما كانت تفكر فيما أنجزته، كانت تشعر بأنها قد قامت بما يستحق الافتخار. كانت مزرعة الزهور تعيش كما لو كانت في أبهى لحظات مجدي شديد. انبعث قصر الصباح من بين الرماد أكثر إشراقاً وجمالاً مما مضى. والأرض التي لم تستغل منذ زمن آبائها، ها هي اليوم مغطاة بشجيرات القطن. وكل شيء ينبئ الآن بأن الغلة ستكون وافرة.

كانت في طريقها إلى الثراء دون أن تشعر بذلك. ومع قصر الصباح توطد هذا الثراء. ثم إن يوسف معها أيضاً، وربما كان هو ثراءها الحقيقي.

لأي شيء سيصلح قصر الصباح إن كنت ستعيشين فيه مع الوحدة والصمت؟

ما كانت عادت جملة نفيسة - منذ مدة - تفارق ذهنها.

ألم تخطئ عندما انعزلت؟ كان لها عاشق بالطبع، هو دروفيتي. كان الرجل الجذاب قد استطاع - بأناقة فائقة - أن يخفي نواياه، لكنه لم يكن ينتظر منها سوى إشارة، سوى كلمة، لن تتلفظ بها أبداً. فإذا كان لا بد من الزواج، فإنها هذه المرة لن تتزوج من جديد، نكاية أو تحدياً.

أزاحت الغطاء. كان الحر قد شرع يشتد. يبدو أن هذا الصيف سيكون أحرَّ من سابقيه.

لبست قميصاً من نسيج الكتان وخرجت.

استقبلتها - بمجرد دخولها إلى المطبخ - زنوبة، الخادمة التي شغلتها فور عودتها إلى الصباح.

- صباح الخير، يا سيدة شديد. آمل أن تكوني قد نمت جيداً.

- كثيراً، تمتمت.

اختصرت جملتها كي تأخذ طفلها في أحضانها.

- عشق حياتي، عيوني.

وضعت قبلة مسموعة على عنقه، ثم وضعته أرضاً.

سارع الطفل بالسؤال:

- أنت لم تنسي ما وعدتني به؟

ضايقته شهرزاد بقطب حاجبيها مستنكرة.

- توقفي عن هذا، لقد وعدتني.

- أنا أمزح يا حبيبي. أنا موافقة، لكن ليس الآن. أهيّيء قبل ذلك قهوتي، ثم أتفقد زراعتي. بعد ذلك سأكون رهن إشارتك.

- هل يمكنني، في انتظار ذلك، أن أذهب لأراه؟

- أجل. لكن لا تضايقه.

أشرقت ابتسامة في عيني الصغير، وسارع بالخروج من المطبخ.

حركت زنوبة رأسها وهي تتمتم:

- آه، الأطفال. أية سعادة وأي مجهود متواصل. أتعتزمين بالفعل تعليمه ركوب الخيل؟

- لِمَ لا؟ لذلك أهديته شمس. عندما كنت في سنه، كنت قد تعلمت الركوب.

تناولت فنجان القهوة الذي قدّمته الخادمة إليها.

- هل يمكنك أن تقرئي لي الفنجان اليوم؟

أجابت الخادمة بصوت ضعيف:

- إن المستقبل لا يتحول، يا سيدة شديد، بين عشية وضحاها. يمكن أن يكون ذلك على رأس كل أسبوع. لقد قرأت لك الفنجان بالأمس.

- ليس لذلك أهمية. وإن كنت لا أقاسمك وجهة نظرك؛ فالقدر قد يتغير كل ساعة. اعترفي، عوض ذلك، أنك ما عدت قادرة على رؤية شيء.

- الرحمة، يا الله.

- دعي الله جانباً، فله ما يكفي من الهموم.

- أتريدين أن أهيّىء لك فلافل للغداء؟

منعتها عودة طفلها المستعجلة من الإجابة.

- ماما. تعالي بسرعة. تعالي وانظري.

قالت معنفة:

- اسمع. لقد قلت لك فيما بعد... ما يزال النهار طويلاً.

- لا. أنت لا تفهمين. هناك أناس كثيرون في الحديقة، هم آخذون في...

- أناس؟

أمسكت بيد يوسف وسارعت خارج البيت.

كان بضعة أشخاص - أمام عينيها الجاحظتين - بأيديهم سلال، آخذين في نثر آلاف الورود على الممر الرئيس. كانت المجموعة التي انطلقت من مدخل الصباح، تتقدم ببطء حتى وصلت إلى المنزل، وبتقدمهم، كانوا يتركون خلفهم بساطاً متعدد الألوان؛ مشهداً أخاذاً من التويجات الفواحة بالعطور.

همس الطفل:

- هذه فكرة غريبة. هل أنت صاحبتها؟

أجابت شهرزاد بالسلب وهي تتأمل هؤلاء الزارعين غريبي الأطوار، وهذا الكم الهائل من الورود التي كانت تغطي التراب؛ والتي تراها لأول مرة في حياتها.

تقدمت نحو الرجل الذي كان يبدو أنه هو المشرف على العملية.

- من أنتم؟ ومن أذن لكم بالإتيان إلى هنا؟

أجاب الرجل بأدب جم، بلكنة إيطالية واضحة:

- سنيورة، لقد تلقيت الأوامر بأن أغطي كل ممرات منزلكم بالورود.

-أمر؟ ممن؟

أخرج ورقة مطوية من جيب سترته.

- سيجيب هذا، على ما أعتقد، عن أسئلتك.
أخذت الرسالة وقرأت:
محكوم علينا، لا مناص، بالتقارب. عيد ميلاد سعيد.
الإمضاء: ريكاردو ماندرينو.
أمر خارق.
- ما هذه الورود؟من أين استقدمت؟
- إنها ورود السحلبية، يا سنيورة.
كيف حصل هذا؟ إن هذا النوع غير معروف بتاتاً في مصر.
تابع الرجل:
- كل ما يمكنني أن أقوله لك هو أن سفينة تجارية أتت بها إلى الإسكندرية؛ وقد كلفت، أنا لدوفيشو بتيستي، بحملها إلى هنا. والأمر المؤكد هو أنها قد أتت من بعيد.
ما عاد ثمة من شك: لقد كان ماندرينو مجنوناً تماماً.

* * *

رفع محمد علي عينيه إلى السماء.
- أنا لا أصدقك يا ماندرينو. أنت لم تقم بذلك. ستة آلاف سحلبية؟ لا أحد في العالم يستطيع أن يجمع كل هذا الكم، فبالأحرى أن ينقله.
- ومع ذلك، فهذا ما قمت به يا سيدي.
- قد يدفع هذا بنائب السلطان إلى الحسد. وبعد ذلك؟
- ماذا تقصدون؟
- هل هناك أخبار جديدة؟ حصل ذلك منذ أسبوعين، أليس كذلك؟
أكد الفينيسي.
- على أي حال، لو كنت مكانك لجرحني رد فعلها. ستة آلاف سحلبية...
بدا متفكراً.
قل لي يا ريكاردو، بيننا... هل أنت عاشق بالفعل؟
- سيدي... ما الحب؟
- هيا، هيا. كف عن اللعب بالكلمات وأجبني.

- أقول لك إذن إن كل النساء اللواتي عرفتهن قبلها، كل ما قمت به معهن لم يكن سوى نزوة.

لاحظ نائب السلطان:

- احذر. إن ابنة شديد ليست مثل الأخريات. وكي لا أخفي عليك شيئاً، أقول لك بأنني أنا أيضاً قد حاولت، لكن دون نتيجة للأسف.

- غريب. لقد ظننت للحظة بأنكما...

- أتمزح يا صديقي؟ وليست الرغبة هي ما كان يعوزني؛ لقد كانت في تمنُّعها أصعب من قلعة. لا. أكرر لك أنها ليست امرأة مثل الأخريات.

- ربما، لكنها ستكون امرأتي.

أغاظ تأكيدُه محادثَه.

- ستكون امرأتك. ألست مغروراً بعض الشيء يا صديقي؟ فقد يبدو من خلال الاستماع إليك أنها تتحرق شوقاً إليك.

أنارت ابتسامة عيني الفينيسي الزرقاوين. اعتدل بثبات في أريكته وسأل:

- ماذا لو تحدثنا عن مشروعك يا سيدي؟ هل تفكر فعلاً في إشراف الفرنسيين على تحديث مصر؟

- الأوروبيون بصفة عامة، والفرنسيون على وجه الخصوص. إن الخطأ الأكبر الذي ارتكبه من سبقوني هو أنهم قد حكموا هذا البلد بالرفض الممنهج لكل ما يأتي من الغرب. وهذا أمر بليد لا تواضع فيه ولا تبصُّر. أما فيما يخصني أنا، فإنني مقتنع بأنه ليس بإمكاننا - بغير معرفة الغرب وسنده الثقافي - أن نقوم بأي شيء ذي أهمية، أو أننا سنحتاج إلى قرن آخر إضافي. فحتى الآن لم نستقدم سوى ما هو سلبي، وما يهمني أنا هو الوجه الآخر للعملة. هل أنا مخطئ؟

- بالعكس. غير أن مشروعك يتضمن مجازفة. فقد يفضي إلى احتلال سلمي لمصر.

- أنت تخشى - إن تركت الباب موارباً - أن يبقى المجال مفتوحاً أمام الدسائس والمؤامرات. لا تخش شيئاً، فمحمد علي يعرف وجهته جيداً. الغرب سيخدمني ويحتفظ، في الآن نفسه، بمكانته.

- أنا لا أشك في قدرتك على التحكم في الوضعية. ما رأيك في أن ننهي الحديث في هذا الموضوع وأن تقول لي ما الذي تنتظره مني؟

- أن تتوجه إلى فرنسا.

قطب ماندرينو وجهه.

- أجل. أنا أعلم أن طلبي لن يروقك، لكنك مع ذلك، الوحيد من بين من يحيطون بي القادر على تحقيق أهداف هذه المهمة. إن معرفتك الجيدة باللغة الفرنسية إضافة إلى أصدقائك الكثيرين في الأوساط السياسية؛ كل ذلك يجعل منك المبعوث المثالي.

- ليست صفة المبعوث سوى تورية، أليس كذلك؟ يبدو أن كلمة جاسوس هي المناسبة.

- أليس كل مبعوث جاسوساً لا يعرف أنه جاسوس؟ أتدري يا ماندرينو، فمنذ فشل البعثة الفرنسية، وأمام التفوق الإنجليزي بالبحر الأبيض المتوسط، فكرت بالطبع في أن أولي وجهي شطر البريطانيين. فكي أحصل على الاستقلال عليَّ أن أحصل على دعم قوة عظمى. لهذا السبب، ورغم معارضة الباب التي هي في حاجة إلى الحبوب، بعثُ كما تعلم، وما زلت أبيع القمح المصري لإنجلترا.

- بثمن يزيد ثمانين في المائة على ثمن السوق، يا صاحب الجلالة.

- وماذا في الأمر؟ لقد انتفع الإنجليز منذ إغلاق الدردنيل وانضمام روسيا إلى الحصار القاري الذي أعلنه نابليون. كما أن هذه العائدات تسمح لي بتجنيد مرتزقة وبإكثار عدد أفراد جيشي وبتعزيز قوتي.

- أتدري أنك، بالعشرين مليوناً في السنة، تعد الباشا الأغنى في الإمبراطورية العثمانية؟

- ربما، لكن ليس هذا هو موضوعنا. كنت أفسر لك كيف أن إنجلترا - رغم توددي ورغم مجهودات التقارب التي بذلتها - تحذر أن تعترف حتى ولو بطريقة غير مباشرة بسيادتي. كل مبادراتي استقبلت بلا مبالاة. وخير دليل على ذلك، الرسالة الأخيرة لوزير الحرب الكولونيل مسيت.

تلا محمد علي من ذاكرته:

«ما دامت حالة السلم سارية بين صاحبة الجلالة والباب العالي، فإنه لا

يمكن لمعاليها أن تأذن لكم بعقد التزامات، مهما تكن درجة حسن النية فيها. . .»

أترى؟ الأمر واضح. فلو كنت حظيت بمساندة الإنجليز أو حمايتهم لكنت تصديت للباب وأعلنت سيادتي على مصر. وعلي الآن أن أعود إلى رشدي وأن أبحث عن سند آخر.

- سند فرنسا.

- لقد تحدثت في ذلك مع دروفيتي. لو كان الأمر بيده لكنت وقعت الآن. علي أن أعرف أي دور يريد هذا البلد أن يلعبه. نابليون يوجد الآن في قمة مجده، وقد اتخذ من سقوط سليم الثالث مبرراً للتضحية بالإمبراطورية العثمانية مقابل التقارب الفرنسي الروسي. وأخشى أن توقظ الاتفاقية الجديدة المبرمة بين الإمبراطور الفرنسي وألكسندر الأول الرغبة لدى هذا الفاتح الموهوب في أن يحاول غزو مصر من جديد أو حتى اسطنبول.

- ما الذي يجعلك تفكر في هذا الاحتمال؟

- لقد وصلتني معلومات عرفت من خلالها بأن بعثة مشتركة بين باريس وبطرسبورغ قد تُرسل عبر الأراضي التركية في اتجاه آسيا الوسطى والهند. وقد يكون نابليون كلف أحدهم يدعى الكولونيل بوتان بالتعرف على شكل الوصايات على العرش في البلاد البربرية، وأن يعززها بتلك التي تخص مصر وسوريا. أنا أعاني الأمرّين مع هؤلاء المماليك الملاعين، ومع الإنجليز، ولست في حاجة إلى تهديد آخر إضافي. أنت لك في باريس مواقع مهمة، وأنا متأكد من أنك قد تحصل منهم على معلومات مهمة جداً تساعدني على أن تكون رؤيتي للأمور أوضح.

صادق الفينيسي على كلامه بصمت.

- متى تريدني أن أذهب؟

- سيكون أحسن لو ذهبت في أقرب وقت ممكن.

بدا ماندرينو مشوشاً.

- ما الذي يجعلك مهموماً بهذا الشكل؟ السفر نفسه أم مغادرتك إلى القاهرة؟

كان سوء التفاهم صارخاً.

- أنا موافق جلالتك. سأذهب إلى باريس.

- هذا هو المؤمل فيك يا ريكاردو. وسيأتي وقت يرد فيه محمد علي الجميل. إن ما أنا في حاجة إليه هو الوقت، أتفهم؟

ثم مع ابتسامة متواطئة:

- مثلك تقريباً يا ريكاردو، رغم أن هدفينا مختلفان. بالمناسبة... ما دامت السحلبيات لم تحدث الأثر المرجو، ما الذي تعتزم القيام به؟

أجاب ماندرينو على الفور:

- أشتري القطن، يا سيدي.

* * *

لماذا هذا الاندهاش يا ابنة شديد؟ لقد سبق لي أن قلت لك إني سآتي لفحص مزروعاتك.

ترددت شهرزاد بين أن تصفق الباب في وجهه أو أن تُسمِعه كلمات قاسية. لكنها اندهشت من أن سمعت نفسها تقول:

- أدخل. لكن لا تظن أن بالإمكان أن يتم بيننا شغل.

دعته إلى الجلوس في القاعة المعاد بناؤها حديثاً.

- هذا رائع. أهنئك.

تجاهلت شهرزاد الإطراء لتسأل:

- هل تريد أن تشرب شيئاً؟

- مع هذا الحر سأرحب بشراب، إذا كان لديك طبعاً.

توجهت المرأة إلى باب القاعة وصفقت بكفيها.

- زنوبة.

حضرت الخادمة كما لو بفعل السحر.

- كأس بنفسج، قالت قبل أن تعود على عقبيها.

- وأنت، ألا تأخذين شيئاً، سأل ماندرينو متعجباً.

أجابت بالنفي وسارعت إلى القول:

- هل يحصل لك هذا باستمرار؟

- ماذا؟

- أن تغطي النساء بورود السحلبية.

تنهد ممحوقاً.

- بالطبع لا. هل تتصورين مقدار الصعوبة؟ لقد واجهت متاعب كثيرة. ما دمت قد أثرت الموضوع، طمئنيني: هل تحمَّلت السفر؟

- لا تخش شيئاً. كأنها جُنِيَتْ بالأمس.

أبدى تنهيدة ارتياح.

- ومع ذلك، فثمة أمر غامض أريد تجليته: كيف عرفتَ أن ذاك النهار يصادف عيد ميلادي؟

- الصدفة.

- ماذا يا سيد ماندرينو. لقد عودتني على ردود أنسب.

- ألم تولدي في اليوم نفيه الذي وُلِدَتْ فيه ابنة نائب السلطان؟

- أفهم. هو إذن من أخبرك.

- أسارع بأن أؤكد لك أنه لم يكن ثمة أبداً احتراز من جانب صاحب الجلالة. كنا نتحدث عن مصادفات الحياة، فذكر لي ذلك كمثال.

تفحصته لتتأكد مما إذا كان يقول صدقاً، لكنها اضطرت إلى خفض بصرها أمام حدة نظرته.

أشار إلى القاعة:

- غريب. لدي انطباع بأنك لم تسكني البتة هذا المنزل. كل شيء ينضح بالجدة. وأنت، كما أخبرني بذلك دروفيتي، تعيشين هنا منذ ولادتك.

- محمد علي، دروفيتي... ألا ترى بأنك تتحدث عني كثيراً مع هذين السيدين؟

- ما حيلتنا؟ إن المواضيع الجديرة بالاهتمام أصبحت، في يومنا هذا، نادرة للغاية.

كان قد عاد إلى تهكّمه المعتاد.

أجابت محتدة:

- اسمع يا ماندرينو. أنا لا أعرف غايتك.

قاطعها حضور زنوبة. وضعت الخادمة المشروب أمام ماندرينو وانسحبت، دون أن تغفل إلقاء نظرة فاحصة على الشخص.

تابعت شهرزاد:

- كيفما كان الحال، فأنا أشكرك على الورود. لكن لا تعتقد أن هديتك، مهما كانت ثمينة، ستغير من طبيعة شعوري نحوك.

أخذ جرعة من المشروب وأغمض عينيه مستلذاً.

- رائع...

أخذ جرعة جديدة وقال فجأة:

- أقدم لك اعتذاراتي.

آتت حركة حيرة.

- أجل... عن الكلمة الشقية التي تلفظت بها خلال لقائنا الأول: جليسة الأمراء. أرجو أن تسامحيني.

- كان ذلك صعباً. لكنني نسيت. إنني أنسى دائماً ما يبدو لي بلا معنى.

أبدى حركة استسلام، في الوقت الذي عبر مآقيه شعاع حالم.

- جليسة أمراء... قد أفاجئك، لكنني أبدي بعض الضعف تجاه هذا النعت. كنت دائماً أتساءل عما الذي يسيء فيه إلى المرأة.

- جاء دوري لأدهشك يا سيد ماندرينو. إنني لم أعتبره يوماً سبة. وأقول لك حتى بأنني أجد فيه بعض الشبقية.

ثم قست لهجتها وهي تقول:

- وبالتالي، فلا أحد - سوى الرجل الذي أحبه - يملك حظوة وصفي به.

وافق، عيناه مرسلتان إلى البعيد، وسأل فجأة:

- أتعرفين فينيسيا (البندقية)؟

أجابت بالنفي.

- ستحبينها، أنا متأكد من ذلك. إنها مدينة مدهشة.

عقبت، دون أن تتخلى عن قسوتها:

- وما الذي يمنعك من العودة إليها؟

- آه، اطمئني. أنا أعتزم القيام بذلك فور أن تسمح لي انشغالاتي بذلك.

كرر متفكراً:

- بالتأكيد ستحبينها.

- لماذا غادرتها ما دمت تكن لها كل هذا التقدير؟

- لأنه لا شيء، باستثناء ارتباطي بها، يشدني إليها.
توقف للحظة.
- حكاية امرأة...
- آه.
- تضاجعهن فيتصورن أنك تطلب أيديهن.
- آه، صحيح. ما أبلد هؤلاء المخلوقات.
- آه، أنت متفقة أيضاً؟
- سيد ماندرينو. إن لي أموراً أخرى أريد القيام بها غير أن أستمر في الاستماع إليك تستهزئ بالنساء.
شرب دفعة واحدة ما تبقى من المشروب.
- صحيح. أنا هنا من أجل غلّتك. هيا بنا.
وقفت غير راضية، وتقدمته.
كان بإمكانها وهما متوجهان نحو الحقول، أن تستشعر نظرته مسلطة عليها؛ نظرة ملحاحة لا حشمة فيها.
عندما وصلا أمام شجيرات القطن، تحول دفعة واحدة. شرع يفحص الشجيرات بدقة، مُصدراً هنا وهناك عبارات تقدير، وأحياناً انتقادات اعتبرتها شهرزاد، في مجملها، بناءة. استرعى انتباهها، بالخصوص، عندما تحدّث عن آلة ضغط القطن في حزم الأمريكية الصنع. الآن، الفلاحون هم الذين يقومون بالعملية معتمدين على أرجلهم. ستؤدي الآلة إلى ربح وقت ثمين، دون الحديث عن الاقتصاد في اليد العاملة.
- يجب أن أستورد نموذجاً منها، علقت شهرزاد. لكن ما السبيل إلى ذلك؟
أجاب ماندرينو متهرباً:
- لا أعرف. ثمة الآن ما هو أكثر استعجالاً: ما ثمن الغلّة؟
- سبق لي أن أجبتك يا سيد ماندرينو. لن تقدر على أثماني.
- لنقل مائتي قرش. القنطار بمائة وعشرين جنيهاً.
تحكمت في ارتعاشة. كان الثمن المقترح يفوق المتوسط بخمسة وعشرين قرشاً؛ مما يشكل ربحاً معتبراً. غير أنها أجابت هادئة:

- ليس سيئاً . . .
- إذا لم تخني الذاكرة، فلك غلّة أخرى. غلّة مزرعة الفيوم.
- ستشتريها هي الأخرى؟
- لماذا الاقتصار على جزء ما دام بالإمكان ابتياع الكل؟
ميزت من جديد، في النبرة التي يستعملها، ذلك الغموض الذي يبدو أنه جبلة فيه.
- أنبهك إلى تفصيل؛ إن قطن مزرعة الزهور يفوق هذا في جودته بمراحل.
- خمسة وعشرون قرشاً إضافية؟
كان الثمن، من جديد، يفوق توقعها. إنه يعطي الدليل - بوصف اهتمامه الأول هو المتاجرة في القطن، ومن المفروض أنه لا يجهل أي شيء عن الأثمان المعمول بها - على فقر مدهش في المعرفة التجارية.
قالت مشككة:
- أعرف رأيك حول سذاجة النساء، لكن يبدو أن البعض يكون أقل سذاجة من البعض الآخر: إنني لا أعرف يا سيد ماندرينو، ما النفع الذي تجنيه.
رفع حاجبيه.
- أنت تدهشينني. أنت أعلم الناس أنه منذ أن أصبح نائب السلطان هو مالك كل الأراضي الفلاحية، فإن كل المحاصيل تعود إليه، أصلاً، وهي مخصصة إلى التصدير. إنه يتحكم كلية في السوق. ولا يمكن لمشتر أن يتزود إلا من الدولة.
- وما الصعوبة في ذلك؟
- تكمن في أمرين: الأول هو الآجال، وهو ما ستجيبينني عنه بأنه سيكون يسيراً علي تجاوزه لعلاقتي مع الوالي. وهنا، بالضبط، يكمن الأمر الثاني: فلأسباب شخصية تتعلق برغبتي في الاحتفاظ باستقلاليتي، أحرص كل الحرص على أن لا تقوم بيني وبين محمد علي علاقات مالية. فقد علمتني التجربة أنه من الأفضل - عندما نتعامل مع الكبار - أن تكون يدنا هي العليا.
نكس عينيه وتابع:

– لا تعتقدي للحظة بأنني بليد. إن الأثمان التي أقترحها عليك تتجاوز المعدل المعمول به. وفي كل الأحوال فإن المسألة كلها مسألة عرض وطلب. أنا بحاجة إلى قطنك، هذا كل ما في الأمر.

رفعت رأسها. كانت لديها رغبة كبيرة في أن ترفض اقتراحه، لا لشيء إلا لتغيظه. هذا الرجل يتعبها. فوثوقيته وإجاباته الجاهزة عن كل شيء واليقين الذي يطبعه وهذا الشعور بالتفوق الذي ينضح منه؛ كل ذلك يغيظها. ثم فكرت في الفائدة التي ستجنيها. صحيح أن الوضعية التي أحدثها محمد علي جعلت الأمور بالنسبة إليها في آن واحد أكثر إغراءً وأشد تعقيداً. وبذلك، فإن الحصول على تجار ليس بالأمر الهين. فذلك يتطلب صبراً ووقتاً. قالت أخيراً.

– جيد يا سيد ماندرينو. أنا أقبل عرضك.

أجاب على الفور:

– ممتاز. ما عاد أمامنا سوى أن نحتفل بهذا الاتفاق.

دار حول نفسه وأعلن بكل بساطة:

– أصحبك إلى باريس. ما رأيك؟

دون أن يتركها تجيب، دقق:

– لقد كلفني نائب السلطان بمهمة سرية في باريس. ستسعدني موافقتك على مرافقتي.

هي تحلم. هو لا يتوجه إليها – هي شهرزاد – بالحديث. أو أنه يهذي.

استطاعت بصعوبة، مصعوقة، أن تسأل:

– فرنسا... معك؟

– إذا كنت لا تعرفين أجمل مدينة في الدنيا – ثم عدل كلامه – بعد فينيسيا، فهذه هي المناسبة المنشودة.

هذا أمر لا يصدق. هو يفكر جدياً فيما يقول. بل أفظع: هو يؤمن به.

– قل لي يا ماندرينو. هل أنت متأكد من أنك في كامل قواك العقلية؟ التقينا ثلاث مرات، وأنت تعرف طبيعة المشاعر التي أكنها لك، وتجد مناسباً أن تقترح عليّ مرافقتك؟

حركت رأسها مرات عدّة وكأنها مستاءة من لاتجانس محادثها.

– أنا لا أرى عبثية في اقتراحي. أما إن كنت تشعرين – وسيكون أمراً

غريباً - في كلماتي بما قد يعد خارجاً عن الاحترام، فأنت مخطئة. إنني أدعوك مكرمة معززة. أنا أعدك إن كنت تثقين بوعدي. إنني لا أرجو أي شيء آخر غير رفقتك. لا شيء. حتى البسمة لا تبتسمي إن لم تكن لك الرغبة في ذلك. والصمت يمكنك أن تلزميه إن كان الكلام يزعجك؛ وأن لا تحادثيني إلا عندما ترين ذلك مناسباً. لا شيء آخر. وفي المقابل، فإنني أمنحك فرصة اكتشاف مدينة متفردة؛ عالم مشرق يتجاوز كل ما يخطر لك على البال. هل من العبث أن تجيبي بنعم؟

كانت شهرزاد تبدو وكأن إعصاراً يعصف بدماغها. فقد كان الاقتراح مفاجئاً وأخرق، إلى درجة أنها عوض أن ترفضه على الفور كما يقضي المنطق بذلك، ها هي ذي مترددة، متذبذبة، فكرها مجتاح بأفكار متناقضة لا حصر لها. وفي خضم هذا الاعتمال، كان يطفو أيضاً وجه سميرة؛ تلك الأخت التي ما عادت تعرف عنها شيئاً من زمن طويل، وهي الناجية الوحيدة، وآخر صلة قربى لها.

بلعت ريقها وغمغمت:

- هذا... هذا مستحيل... ثم طفلي.

- لا يهم، نأخذه معنا.

حاولت التماسك. ثم أكد هو:

- عشرة أيام... لا أكثر.

- هذا مستحيل...

- قولي نعم.

باريس... رحلتها الأولى... سميرة... إمكانية تخلصها من الأشباح التي تحيط بها منذ عودتها إلى الصباح، منذ زمن طويل.

- شهرزاد...

كان يمتزج في تلفظه باسمها القوة واللطف. رفعت رأسها نحوه بانقياد طفلة.

كرر:

- عشرة أيام.

الفصل الثالث والثلاثون

سلّطت نفيسة عينين غاضبتين على شهرزاد.

- أنت مجنونة يا بنيتي. أن ترفضي رحلة رائعة مثل هذه... لو لم أمسك نفسي لبكيت.

- كيف أمكنك أن تعتبريني مخطئة؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الرجل. إنني لا أحتمله. إنه نموذج الرجل الذي أمقته. إنه مدع، هو...

وضعت البيضاء راحة كفها على شفتي شهرزاد وهي تهمس:

- لا تتكلمي كطفلة. أن لا تبدي تعاطفاً خاصاً مع ماندرينو، فذاك أمر يمكن قبوله، أما هذا العنف، فيبدو لي بلا معنى، حتى لا أقول بأنه مشبوه.

- آه، لا. أنت لا تعتقدين أنني...

- أنا لا أعتقد شيئاً. أنا ألاحظ. أنا أعرف ماندرينو منذ زمن طويل، وأجد حكمك عليه شديد القسوة. الرجل يسعى لأن يصبح معروفاً، وأنا أجده شديد الجاذبية. وأنبهك إلى أنني لست الوحيدة في ذلك. ففتوحاته في هذا المجال لا حصر لها.

- لهذا السبب، ربما، يبدي كل هذا الاحترام تجاه النساء.

ثم قلدت صوت ماندرينو مستهزئة:

- «تضاجعهن فيعتقدن أنك تطلب أيديهن». وعلى أي حال، فإن الموضوع، بالنسبة إلي، يا ست نفيسة، منتهٍ. لنتحدث في أمر آخر لو سمحت.

رفعت البيضاء كفيها متذمرة.

- كما تشائين. لكن لا تندهشي إذا ما عاد من باريس ولم يُعِركِ أدنى اهتمام.

- ليسمع الله منك. ذاك كل ما أرجوه.

* * *

لمس كريم، عبر تنورة الحرير، ثدي الأميرة ليلى الصغير. شرعت الفتاة تتفوه بشكل ساذج:

- أنت شيطان حقيقي يا ابن سليمان. أنسيت وعدك؟ إذا لم تكف عن فعلك عدت فوراً إلى بيتي.

- ما العيب فيما أفعله يا حمامتي؟ ألم تلقنك الآنسة ليدر بأن لا وجود للخطيئة في الحب؟

عندما أراد معاودة فعله، انتصبت وتنحت جانباً.

وقف بدوره هادئاً، وتقدم نحوها إلى أن أصبح ظهرها لصق الجدار.

قالت لاهثة:

- لا ينبغي... أرجوك.

لم يعبأ بمعارضتها. أمسك وركيها وسحبها بلطف نحوه. ألصق وجنته بوجنتها ووشوش في أذنها:

- بشرتك دافئة.

سعى إلى شفتيها.

- لا يا كريم، لا ينبغي. الآنسة ليدر...

منعها فم كريم الذي التصق بفمها من أن تتابع. حاولت بحركة مرعوبة أن تتخلص منه، لكنه كان يمسك بها بقوة، لضَقَه.

- لماذا تماطلينني؟ أنا أحبك، ألا تعرفين ذلك؟

رفع تنورتها وداعب فخذيها، ممرراً أنامله على حنيتها، ممسداً بشرتها، وضاغطاً عليها من لحظة لأخرى. ومع تتابع الملامسات كان يخمن بأن جسد الأميرة يرتخي، ويصبح بلا حراك تقريباً، موقناً بأن الاستسلام قريب.

التصقت شفتاه من جديد بشفتي ليلى. لم تبد هذه المرة أية مقاومة، بل خال حتى أنها هي التي دفعت بشفتيها نحوه. امتزج لساناهما في حركة محمومة. صدرتْ محاولةٌ خاطفة منها للتراجع، لكنه أمسك بها.

هي الآن تحتك به، مصدرة أصواتاً بلهاء، شبه طفولية، استقبلها هو على أنها تشجيع منها. ودون تردد رفع تنورتها حتى وسطها، وأمسكت أصابعه بسروالها الداخلي القطني الشفيف، وعمل بلهفة على إنزاله أسفل فخذيها.

- لا... لا... هذا مخجل. لا ينبغي...

عملت بحركة غير متقنة على دفعه عنها غير أن أصابع كريم ظلت ممسكة بقوة. وفي صوت شبيه بصوت تمزيق ورقة، مُزق الثوب معريا شيء الفتاة.

لم يتردد. مرر كفه بين فخذيها، منتزعاً منها صرخة جديدة سرعان ما اختزلت إلى حشرجة عندما أدركت الكف هدفها.

لحظة بعد ذلك، وعندما افتض بكارتها، التفت حوله وهي تصدر أصواتاً وجملاً بلا نهاية، ميز من بينها كلمات فجة بشكل لا يصدق، كما ميز - وهو أمر غريب - اسم الآنسة ليدر.

* * *

جلس محمد علي تحت الظُلة التي أنشأها في الزاوية الأكثر جمالاً من حدائقه ودعا أبناءه الثلاثة، طوسون وإبراهيم وإسماعيل، إلى الجلوس. كان الشباب الثلاثة يختلفون بعضهم عن بعض؛ فطوسون، المحب للعلوم، كان يتمتع بصرامة ذهنية مذهلة، كما كان أجملهم وجهاً وأكثرهم نبلاً. أما إسماعيل، البكر، ذو القامة المتوسطة، فكان يبدو أكبر من سنواته الإحدى والعشرين؛ دقيق الأنف ورمادي العينين ذا وجه طويل موسوم ببقع شقراء، شعره أشقر فاقع. وكان يبدو ميالاً إلى كل الملذات الحسية. أما أصغرهم، إبراهيم، فقد كان، بكل بساطة، شديد الدمامة.

كانت الشمس التي شرعت تميل نحو المغيب، تطبع السماء والأشجار والظلال المتناسقة للقصر بألوان قزحية هادئة.

- هذه أحب لحظة إليّ، علق نائب السلطان وهو يتأمل المشهد. ففي هذه اللحظة تتخلى الأشياء الأقل جمالاً عن فظاظتها، وتتلطف الألوان الأشد سخونة. لكن الغريب أن حدة ما حطت بكلكلها.

عندما لمح البستاني ماراً نادى عليه:

- أبو الورد.

أقبل الرجل على الفور وركع أمامه مقبّلاً يده.

- آمل أن تحسن رعاية شجرات الخوخ التي استقدمتها من أوروبا. وبالخصوص تلك التي أعطتني أول فاكهة. ستكون أنت المسؤول لو أصابها سوء.

- لا يا سيدي، ففي الأسبوع الفائت فقط غطينا الشجرة بسياج حتى نحميها من الطيور. فزميلي وأنا نراقبها كما لو كانت طفلاً لنا.

- عندما ينضج الخوخ، لا تتخلفوا عن قطفه في حينه، وألا تتأخروا بتقديمه إلي.

- ما ترغبون فيه سيكون يا سيدي.

أصدر نائب السلطان حركة من كفه آمراً البستاني بالانصراف، وتابع قائلاً لأبنائه:

- نحن قليلو الاهتمام برعاية الطبيعة. تصوروا أن دروفيتي، خلال الشهر الماضي، أثار انتباهي إلى دهلية شديدة الجمال، فطلبت أن تنقل من مكانها وأن يعاد غرسها هنا تحت الظلة، في ظل الجميزة. وددت يومئذ لو قطع لساني؛ فبعد أسبوع، كانت الدهلية قد شرعت تذبل، فمالت على ساقها.

- أتذكر يا أبي، قال إبراهيم مع ابتسامة. كنت أمرت، في قمة غضبك، بأن يجلد أبو الورد اثنتي عشرة جلدة. يجب الاعتراف بأن الشقي لم يكن هو المسؤول. وأكثر من ذلك، كان قد نبهك إلى مخاطر نقل النبتة.

- لكن ما لم تشر إليه هو أن هذا الشقي قد تلقى، كتعويض، بضعة آلاف بارة. وهذا ليس بالأمر الهين.

- على كل حال، تدخل إسماعيل، كل المحيطين بك يجمعون على الاعتراف بفضلك وحلمك.

فعدل طوسون:

- وهو حلم مبالغ فيه، إن سمحت لي بالقول، قد يؤدي إلى فقد الإحساس إذ يجعلك تنسى الأخطاء التي ترتكب في حقك.

- إن وضعك يا ولدي سيؤدي بك يوماً إلى الحكم. وقد أصبح هذا اليوم، على أي حال، أقرب مما تتصور. أريدك أيضاً أن لا تنسى الآتي: أحسنُ أن نتحمل ألماً منْ عدالة بسطناها من أن نشعر بسعادة ناتجة عن ظلم اقترفناه. إن رجلاً بلا كرم وبلا رحمة لا يعد رجلاً. ولماذا، في نظرك، أخذت لتوي

إحدى أهم القرارات الإدارية التي أصدرتها هذه الأشهر الأخيرة؟

- تشير إلى القرار الذي يحرم السيد من حق معاقبة عبيده وأتباعه حتى الموت.

- من الآن فصاعداً يجب أن يكون القرار مؤكداً بأمر موقّع من طرفي. وهو ما سيشكل حَكَماً بين المتهم والقاضي، ووجود فترة زمنية صحية بين الخطأ والعقاب. لكن هذا ليس سوى مثل؛ فثمة خصال أخرى يجب أن يتحلى بها من يحكم: من بينها الاستقامة. وكدليل على ذلك، فإنني لم أقدم البتة على تسليم اللاجئين الكثيرين إلى مصر إلى الباب العالي.

صمت للحظة ثم تابع:

- التسامح أيضاً. لأنني متشبث بالإسلام، وهو ما لا يمنع من فرض احترام الديانات التي تجاورنا. فهي كلها، دون تمييز، على قدم المساواة فيما بينها. ويكفي أن تنظروا إلى عدد المسيحيين الذين قلدتهم ألقاباً وكلفتهم بمهام، كي تعرفوا مقدار جديتي في كلامي.

لاحظ إبراهيم مع ابتسامة خفيفة:

- هذا هو السبب، من غير شك، في أنك هذه السنة، ورغم ضعف انخفاض منسوب مياه الفيضان، لم تأمر فقط بإقامة صلاة الاستسقاء في كل المساجد، بل ألزمت بذلك أيضاً القيمين على باقي الديانات.

- تماماً. وكي لا أخفي عنك شيئاً، فإنني قد فكرت مع نفسي في أنه سيكون مؤسفاً أن لا يجد الله من بين كل هذه الديانات، ديانة صحيحة.

ضحك إبراهيم وطوسون بصوت عالٍ.

تابع العاهل بجدية:

- إن العماء الديني لَيُؤدي إلى كل المتاهات. وما حصل في الحجاز يعد الدليل على ذلك.

كف عن ذلك وسأل أبناءه:

- أتعرفون ما الوهابية؟

ولكونهم يجهلونها تابع:

- إذا كنت أتحدث عنها، فلأنها ستلعب قريباً دوراً أساسياً في مستقبلنا، مستقبلي ومستقبلكم ومستقبل مصر. وهنا أيضاً أطلب منكم أن تنتبهوا جيداً.

لقد أسست العقيدة الوهابية من طرف رجل دين عربي يدعى عبد الوهاب. ولد من حوالى مائة سنة بنجد، تلك المنطقة الجبلية بشبه الجزيرة العربية. لقد أصبح هذا الشخص قائد حركة يمكننا أن ننعتها بـ«الطهرانية»، تطمح إلى أن ترد للنزعة الإسلامية طهارتها الأولى، مع رفض التأويلات الدينية. تبنتها أسرة آل سعود التي كانت تقود أولى القبائل في المنطقة، فوطدت لها بقوة السلاح، في كل البلد. وبعد أن قمعها العثمانيون، عادت من حوالى ثمانية أعوام لتبعث، وقادت إلى احتلال مكة والمدينة من طرف أتباعها.

كان طوسون هو أول من سأل:

- وفيم يهمنا هذا يا أبي؟

- منذ أن استقروا بهاتين المدينتين، كف المؤمنون عن الدعاء للسلطان في المساجد، وما عادوا يعترفون بسلطته المعنوية والدينية. فقد أُلغي هذا الطقس. وأفظع من ذلك، زرع أحد أفراد أسرة آل سعود، على رأس الوهابيين، الرعب بأرض الرافدين وبسوريا، وبلغ به الأمر - من أشهر بالكاد - حد أن هاجم ضواحي دمشق، مسبباً في رعب حقيقي بين السكان.

سأل إسماعيل:

- أعذرني، لكنني لا أرى حتى الآن علاقة لذلك بنا.

- أنت أشد لهفة من شبل جائع. ستفهم لو تركتني أفسر حتى النهاية... إن مصر - بموقعها الجغرافي على البحر الأحمر، قريباً من ينبع وجدة - هي أكثر الأقاليم المهيأة لإعادة فتح الحجاز وبسط سلطة الباب العالي على المدينتين المقدستين من جديد. إن اسطنبول لم تمنحني، عبثاً، باشوية جدة بعد باشوية مصر. فالسلطان يطلب مني بإلحاح أن أخوض مواجهة ضد تمرد أصحاب هذه البدعة.

تناظر الشابان متأثرين قلقين.

- ما الذي تعتزم القيام به؟ سأل إبراهيم.

- لطالما ترددت في الدفع بمصر، التي ما تزال هشة، في عملية بهذه القسوة، والتي من المحتمل أن تطول.

- هل وافقت؟

- ليس رسمياً، لكن موافقتي لن تتأخر.

- هل ستحارب خدمة للسلطان؟ لكن ما الذي ستجنيه من ذلك؟

استبق طوسون أباه وأجاب أخاه الأكبر:

- الأمر واضح. يصبح العثمانيون مدينين لنا، فنتقدم خطوة أخرى على طريق الاستقلال.

أبدى محمد علي إعجابه بوضوح رؤية ابنه. لقد كان تفضيله له على أخويه في محله.

- برافو يا طوسون. لقد أجدت النظر. لكنني أضيف إلى تحليلك اعتبارات أخرى: الرغبة في التخلص من هؤلاء الألبان الذين يعتبرون عبئاً وخطراً على القاهرة؛ ثم طموحي في تأكيد قوتي في قلب البلاد الإسلامية نفسه؛ وأخيراً، فإن هذه الحرب تفسح أمامي مجال التوسع نحو سوريا، على طريق ضفة البحر الأحمر الأخرى.

- وهي حرب - لاحظ إبراهيم - محفوفة مع ذلك بمخاطر عظمى، قد تفضي في النهاية إلى ضياع ملكك. هذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار أن إرسال جيش إلى ينبع وجدة وتأمين نقل الغذاء والعتاد، يقتضيان بحرية، والحال أن لا بحرية لنا.

- ستعرف لاحقاً بأن الصبر هو أبو الفضائل. لا تخش شيئاً. اعلم فقط أنه في اليوم الذي سيقرر محمد علي أن يحارب، فإن ذلك لن يكون سوى انطلاق نحو المجد.

وقف، وفعل أبناؤه مثله، ثم توجه نحو القصر. تقاطع في طريقه مع البستاني.

- اعتن بخوختي يا أبا الورد، وإلا فالويل لك.

* * *

كان كريم يتشرب كلمات عاهله. كان محمد علي، أمام أعضاء ديوانه المجتمعين، قد كشف لتوه، في كلمات، مشروعه؛ وهو المشروع نفسه الذي عرضه منذ أسبوع أمام أبنائه.

في قاعة من القصر، حضر حاكم القاهرة الألباني الأصل بوغوسيان بك، والذي لم يعد مرتبطاً بالباب العالي على عكس ما كان الحال في الماضي، وإنما فقط بأوامر الوالي؛ وكذا ست شخصيات سامية أخرى. ورغم أن هذه

الشخصيات كانت تشغل مناصب مختلفة، فإن قاسماً مشتركاً كان يجمع بينها. ولم يكن بينهم أحد ليس لمحمد علي عليه فضل. لم يكن ذلك بفعل الصدفة؛ فمنذ اليوم الذي تولى العاهل الحكم، كان قد انتهج مبدأ إحلال أفراد عائلته في المناصب المركزية (كلما أمكنه ذلك)، أو أشخاصاً من بين الضباط والموظفين، يكونون مدينين له بكل شيء. كان يكره بالفطرة العاجزين، وكان المدينون له، في الغالب، أشخاصاً ذوي كفاءات مكتسبة ليخدموه في مناصب عليا.

ومن بين أبنائه الثلاثة لم يحضر سوى طوسون.

- هذه فكرة ذكية يا سيدي، علق حاكم القاهرة. لكنني، إن كنت قد أجدت الفهم، فقد أصبح إنشاء قوة بحرية أمراً لا غنى عنه.

- كما أن ذلك يبدو لي شرطاً أساسياً لتحقيق الأمن والقوة اللذين أرنو إليهما. فما دمت لا أملك سفناً، فإن قبضة الأتراك ستبقى مشدودة علي. فمع أول سفينة تظهر أمام الإسكندرية أصبح تحت رحمتهم. ومن جهة أخرى، فإن امتلاكي لأسطول سيمكنني من ضمان حماية المواصلات بين مصر وباقي مناطق الإمبراطورية، وسيسمح لي بتأكيد هذا الاستقلال الذي يبقى، بعد كل شيء، هدفي النهائي.

كان قد حان وقت بوغوسيان للحديث:

- علي يا سيدي، مع ذلك، أن أثير انتباهك إلى بعض المشاكل؛ فمصر لا تملك أي شيء من البحرية سوى البحر، لامتلاك بحرية: لا تقاليد بحرية ولا بناة سفن ولا مواد ولا ورش ولا بحارة معتادون على الإبحار في أعالي البحار.

توقف ثم توجه بحديثه، بأدب، إلى ابن سليمان:

- أنت الوحيد، من بيننا، الذي يملك شيئاً من تجربة في هذا المجال، أليس كذلك؟

أقر كريم كلامه، وأضاف:

- بل وحتى الميناء الطبيعي للإسكندرية، رغم شساعته، لا يعد ملائما، لعدم وجود ممر عميق بما يكفي ليسمح بدخول السفن المثقلة بالمدفعية.

- إنكم بذكركم لكل هذه العوائق - قال محمد علي بهدوء - إنما تعززون قراري. ما دام يبدو أن كل شيء يعاكس أن يكون لمصر بحريتها، فإن علينا أن نعمل على تمكينها منها في أقرب الآجال. في مرحلة أولى، سنطلب الحصول

على سفننا من الورشات البحرية الأوروبية. وكريم بك سيتكلف بهذه المهمة.

شعر ابن سليمان، وهو يستمع إلى اسمه، بقلبه يخفق فرحاً. لم يكف طوال الاجتماع، عن أن يأمل في أن يسند إليه دور ينسجم مع طموحاته التي رسمها لنفسه. لقد أسعده أمر نائب السلطان.

تابع هذا الأخير:

– وبالموازاة مع ذلك، فإننا سنعمل على تفعيل مشروعنا الذي سيسمح لنا في النهاية بأن نبني، نحن، سفننا. ها أنتم ترون يا أصدقائي؛ إن على الإنسان أن لا يحيا إلا بالتحدي.

* * *

كانت شهرزاد قد شرعت تفقد صبرها، وهي جالسة بالصالون المجاور للقاعة التي ينعقد فيها الاجتماع. فإذا كانت الدروس التي التزمت بتقديمها للعاهل تشكل متعة حقيقية بالنسبة إليها، فإنها كانت تُفسد باستمرار بسلسلة من المواعيد المخلوفة ومن التأخيرات، إذا لم تلغ بصفة نهائية. لكن هل كان بإمكانها أن تحتج؟ أليست لالتزامات السلطان أولوية لا تناقش؟

استمر ذهنها في التيه. فكرت في البداية في ابنها يوسف، ثم بعد ذلك، وبالرغم منها، في ماندرينو. كان قد قال إنه سيتغيب لعشرة أيام إضافة إلى زمن الرحلة، وها نحن نلج الآن الأسبوع الخامس. إنه لشخصية غريبة. فكرت من جديد في البيضاء. إنها لا تنتبه إلى أنها قد أصبحت تدافع دفاعاً مستمراً عن الفينيسي. ما الذي تحبه فيه؟ ألم يكن أجدى لها أن تقف في صف صديقتها عوض أن تدافع عن غريب؟

انتشلها وقع خطوات من تفكيرها. أصوات حديث من بينها صوت محمد علي المعروف من بين أصوات الجميع. أخيراً انتهى الاجتماع. فتحت باب الصالون ودلفت إلى الممر.

– ابنة شديد، أنا سعيد برؤيتك.

دعاها نائب السلطان، وهو يتقدم وسط مجموعة من الرجال، لأن تقترب.

– معلمتي، قال وهو يشير نحوها.

ثم تابع مع ابتسامة متواطئة:

– التعلم مع مدرِّسة مثلها، ممتع.

كان كريم، المختفي خلف حاكم القاهرة، قد رآها قبل أن تراه. راودته رغبة تحاشيها وهو متضايق، لكنه سرعان ما غضب من نفسه على هذا الشعور، فبرز من خلف من كان يحول دون أن تراه المرأة الشابة.

- بالتأكيد تعرفان بعضكما بعضاً، قال محمد علي الذي لم يَفُتْه شيء من نظراتهما المتبادلة.

- أجل يا سيدي، عقب كريم بسرعة. لقد شرفتني بأن قدمتني للسيدة شديد خلال حفل عيد ميلاد طوسون بك.

- بالفعل. لقد سبق لنا أن التقينا. أنا سعيد بأن أراك من جديد يا قياية بك.

أعلن نائب السلطان:

- لقد أخذنا لتونا قراراً غاية في الأهمية؛ لقد قررنا إنشاء أول بحرية مصرية. وصديقنا هذا هو المكلف بإنجاز هذه المهمة.

- أنا متأكد من أنه سيكون في مستواها. أليس كذلك؟

أقر كريم كلامه. كان يبدو وكأنه يستعد للدفاع عن نفسه.

أضافت، ضاغطة على الكلمات:

- أنا سعيدة حقاً من أجلك يا سليمان بك.

كانت قد ضغطت على كلمة «حقاً» دون أن تثير الانتباه، لكن بما يكفي من قوة كي يتلقى هو الرسالة.

انطلقت أساريره على الفور وأنار نظرتَه شعاعٌ حيوي.

- شكراً يا ابنة شديد.

تناظرا للحظة، فعلما أنه ما عاد ثمة مكان بينهما إلا للود.

- الدرس، أعلن نائب السلطان فجأة.

ثم أشار إلى مدخل مكتبه.

- اسبقيني، سألتحق بك بعد لحظات.

* * *

ألف... باء... تاء... ثاء... جيم... حاء... خاء... دال... ذال...

توقف العاهل عن التهجي وأطلق تنهيدة تعب.

- كفاية. ما عدت أستطيع. لقد هدّتني يا ابنة شديد.

- هذا غير معقول يا سيدي. لم نبتدئ إلا منذ نصف ساعة. وتقول بأنك تريد أن تحقق تقدماً؟

- بلى... بلى... فقط أنا اليوم مفتقر إلى التركيز. هموم كثيرة، وانشغالات...

- أليس هذا مجرد ذريعة كي لا تواصل؟

- آه من فراغ بال النساء. أود أن لو كنت مكاني. أنا أواجه المماليك الذين يواصلون إنهاكي؛ وجنودي الألبان الخمسة عشر ألفاً الذين لا يقدمون خدمات إلي إلا من أجل مصلحتهم وإشباعاً لجشعهم، إذ يستنزفون ما يعادل أجرة ألف جندي؛ وأواجه الباب العالي الذي يريد القضاء علي؛ والإنجليز الذين يحتقرونني والفرنسيون الذين يريدون العودة: اعترفي بأن هناك من الهموم ما يمكن أن يفقد المرء صوابه.

نظرت نحوه بعطف مفاجئ.

- صحيح يا صاحب الجلالة. أعذرني. إنني أنسى أحياناً بأنني أمام العظيم محمد علي باشا.

- وأنبهك إلى أنني - رغم كوني تلميذاً غير نجيب - فإنني لا أفرط في شيء كي يلج الشعب عالم التعليم. هل علي أن أذكرك بما أنجزته في هذا المجال خلال السنتين الأخيرتين؟

تابع بحماس:

- ضاعفتُ المدارس القرآنية التي كانت قليلة قبلي. وأنشأت مراكز جديدة للتعليم: الابتدائي والتحضيري والمتخصص؛ تشكل كلها حلقة دراسية كاملة مكيفة مع حاجيات المؤسسات المدنية والعسكرية التي لست بحاجة إلى التذكير بأنني أنا الذي أنشأتها من عدم. إن عدد المؤسسات التعليمية الابتدائية، حتى لا أذكر غيرها، يصل اليوم إلى الخمسين. وأكثر من ثلاثة آلاف تلميذ يتابعون دروسهم التحضيرية.

صمت وقد أشرقت عيناه.

- وإذا وهبني العلي القدير طول العمر، فإنني سأذهب أبعد. أفكر أن أنشئ، لاحقاً، مدارس طب وجراحة وصيدلة وبيطرة وفلاحة ومدرسة للإدارة

العمومية ومدرسة بوليتكنيك ومدارس عسكرية. أترين يا ابنة شديد. إن تلميذك غير نجيب لكنه لا يغفل، مع ذلك، التعليم.

رفعت شهرزاد ذراعيها دلالة استسلام.

- كيف يمكن مواجهة رجل تكون له دائماً الكلمة الأخيرة؟

تقدم خطوة نحوها وشملها بنظرة مترعة حنيناً.

- فقط لو لم تكوني قلعة...

بدت غير فاهمة.

- فقط لو كنت قبلت تسليم نفسك إلي. لكنت اليوم ملكة.

- وتتابع مخالطة جميع النساء اللواتي يشكلن حريمك، وتنجب معهن أطفالاً في كل حين؟

- لا، لن يحصل ذلك إن كنت بجانبي. أقسم لك.

رمته بنظرة حانية.

- هل تفكر جيداً فيما تقول يا سيدي؟ أنت الذي تحب المرأة إلى هذه الدرجة؟ أنت الذي لك إليها شهية تعادل شهيتك إلى المجد؟ جدياً؟

- لو كنت ملكة مصر لأغمضت عينيك عن بعض الأمور، أليس كذلك؟ ما الذي تساويه حماقة مرتكبة، من وقت لآخر، أمام هذا الشرف؟

ثم قال بعنف وهو يتمدد على أريكة:

- بالطبع، أنت محبوبة بما فيه الكفاية، حتى لا تهتمي بشخصي المتواضع. دروفيتي وماندرينو، وحتى ملازمي الذي يفترسك بعينيه.

أرادت أن تحتج.

- لا جدوى. فمحمد علي يرى كل شيء ويعرف كل شيء ويسمع كل شيء. لا يهم. فعندما أمعن النظر أقول لنفسي بأنني أفضل وضعيتي على وضعيتهم. فهم جميعاً سينتهون إلى مصير دهليتي نفسه.

- ألا تغالي بعض الشيء، جلالتك؟

- المغالاة صفة ملازمة للرجال الغيورين. أنا غيور.

غادرت مكانها وأتت لتجلس إلى قدميه.

- لا داعي لذلك، جلالتك، ما دمت أحبك.

اهتز.

- أجل، تابعت. أليست الصداقة شكلاً من أشكال الحب؟ وهي أحياناً تدوم أكثر منه.

رفض قولها بحركة من يده.

- الصداقة... الصداقة ليست سوى ابن زنىً للحب.

- ربما... لكنه ابن زنىً تجري في عروقه دماء ملكية.

عادت قسمات محمد علي التي كانت قد اكتأبت إلى انفراجها.

مرر كفه بلطف على خد شهرزاد.

- ليحفظك الله. أنا أحبك أيضاً.

* * *

في طريق عودتها إلى الصباح، شعرت بروحها مرتاحة بشكل يدعو إلى الاستغراب. بدا هذا اللقاء الجديد بكريم - عوض أن يحيي أشجاناً قديمة - وكأنه قد حررها. لا ارتعاشة، عندما التقيا، ولا خفقان قلب. وقد ولّد لديها ذلك الحوار الموجز اليقين بأن الصفحة قد طويت بصفة نهائية.

وبالموازاة مع ذلك، زايلها ذلك الشعور الذي ليست له، هذه المرة، أية علاقة بابن سليمان. شعور قريب من أن يكون جرحَ حبٍّ، مسّاً بكبريائها الأنثوية. فعندما كانت تتأهب لمغادرة السلطان أخبرها - ببراءة مدعاة لم تغب عنها - بأنه سيتناول عشاءه هذا المساء رفقة ريكاردو ماندرينو. وعندما لاحظ استغرابها أخبرها بأن الفينيسي قد عاد منذ أكثر من عشرة أيام. هكذا إذن يكون اعتمال الحب قد اعترف بهزيمته، وانطفأ لهيب صاحب المغامرات النسائية كما ينطفئ أي مشعل مبتذل مع أول هبة نسيم؟ خلصت من ذلك إلى أن الرجال ما هم عملياً سوى كائنات صغيرة شديدة الهشاشة.

الفصل الرابع والثلاثون

كان يوسف ينام في وضع جنيني، مرتاحاً. وكانت الحقول خالية، ومن سحلبيات ماندرينو لم تبق سوى ذكرى عائمة من عطر قديم.

مر أسبوعان آخران وما ظهر للفينيسي من أثر. أليس هذا ما كانت ترجوه؟ لكن لم هذا الغضب من غياب معلومات عنه؟ التفسير الوحيد الذي استطاعت أن تجده هو أنها في أعماقها لم يسؤها على الإطلاق أن تستمر اللعبة، مستشعرة تلك اللذة الخفية - التي هي خصيصة لكل النساء - المتمثلة في الشعور بأن الآخرين يغازلونها دون أن تعرب هي عن أي تعاطف معهم. إنها ازدواجية غريبة من الكائن البشري.

كانت السماء، منتصف هذا اليوم، رمادية. وكانت تتخللها، وهو أمر نادر، سحب ممطرة. قالت لنفسها، إن السماء إن أمطرت، وسيكون ذلك أمراً معجزاً، فسيكون ذلك مفيداً للأرض. لكن لا يجب التعويل كثيراً على ذلك. فالمطر والخريف والربيع أشياء غريبة على هذا البلد، حيث لا مكان إلا لشتاء خفيف وصيف صارخ.

أصدى وقع خطوات فرس في الساحة. نظرت آلياً في اتجاه المدخل. كانت الجلبة تقترب. دلفت عربة خيل تعقبها عربة أخرى فوقها حمل مغطّىً، ومرت بين النخلتين العملاقتين. عندما اقتربت توقفت ونزل رجل من على عربة الخيل، على كتفيه مشمل أسود. تبادل بضع كلمات مع الرجلين اللذين يجلسان في مقدمة العربة التي فوقها الشيء المغطى، وتقدم نحو المنزل.

إنه ريكاردو ماندرينو.

تخلصت شهرزاد من يوسف النائم، محاذرة من إيقاظه. لكن حركتها كانت

على ما يبدو قوية، إذ شرع يرف جفنيه محتجاً.
- لماذا تحركت؟
- عد إلى نومك. سأعود.
نظر الطفل إلى حيث تنظر أمه.
- من هذا؟
تجاهلت شهرزاد السؤال وتقدمت إلى غاية الحاجز.
- السلام عليك يا ابنة شديد.
كان قد تحدث تلقائياً بصوته القوي الجهوري، ولم يتنبه إلا لاحقاً إلى حركة المرأة التي تدعوه إلى أن يخفض صوته. في اللحظة نفسها تقريباً لمح الطفل يطل برأسه الأشعث من السرير.
- تحياتي يا شديد الصغير.
صحح يوسف:
- أنا شلهوب. يوسف شلهوب.
- آسف. تحياتي يا يوسف شلهوب.
تمتمت شهرزاد:
- وعليك السلام يا سيد ماندرينو. ما الذي دعاك إلى إسعادنا بزيارتك؟
- هل سمعت بالفعل كلمة سعادة؟
تقمص نبرة متعاظمة:
- نخطىء إذْ لا نعمد إلى مفارقة الأشخاص الذين نحبهم. والحق أنه لا شيء يساوي قيمة غياب طويل رائع. فحتى الأشخاص الذين يمقتونك في الأوقات العادية، يحصل لهم أن يشعروا نحوك بحب جارف.
- هل جعل السفر منك فيلسوفاً؟
أشار الطفل بإصبعه نحو العربة.
- ما هذا؟
- مفاجأة.
قطبت شهرزاد حاجبيها.
- سحلبيات من جديد؟
تظاهر بعدم السماع.

- هل أستطيع؟ سأل وهو يضع قدمه على الدرجة الأولى.
عندما وصل إلى قمة السلم، لامس يوسف المشمل الأسود.
- لأي شيء يصلح هذا؟
- للاحتماء من البرد. أعجبك؟
آتى الطفل حركة عدم اكتراث.
- ما كنت أعتقد أنك حساس تجاه البرد، علقت شهرزاد.
- أنا كذلك، للأسف. ولا أمل في العلاج. وإذا كنت تريدين معرفة كل شيء، فإنني أعاني من صداع مرعب.
- كم خداعة هي المظاهر.
دعته إلى الجلوس وجلست هي أيضاً، متابعة:
- عندما نرى رجلاً مثلك؛ فارعاً وقوياً ولافتاً، لا نتصور إلا بصعوبة أن يكون مرتعشاً وهشاً.
توقفت للحظة ثم قالت ساخرة:
- أنت في حقيقة أمرك ذو طبيعة هشة.
- لا يسوؤني أن تلاحظي ذلك. ومن يدري؟ ربما حظيت، بعد اليوم، بعناية أكبر.
تجاهلت التعليق وقالت:
- ماذا عن رحلة باريس؟
- متعبة ورائعة.
كيف حال السلطان الكبير؟ أبو نبارت العظيم؟
- أكثر فأكثر تكرشاً وتورماً. لا يبالي بالكائنات التي تحوم حوله راغبة في ملء رئتها بالهواء الذي يستنشقه. ما يزال يتابع لعب دور الغول، ساجناً القساوسة، وموزعاً الألقاب في كل اتجاه. يحاول ابتلاع أوروبا، لاهياً عند مروره، بالبولونيات الصغيرات. وقد اتخذ زوجة نمساوية آملاً في أن تلد له ولداً يكون جديراً بعبقريته. خلاصة القول أن شمس مصر لم تعدل من حالته.
- واضح أنك لا تحبه.
- أنا لم أعرب قط عن تعاطف مع الأشخاص الذين يعلنون جهراً بأن

السياسة الجيدة هي التي تجعل الشعوب تؤمن بأنها حرة. ثم كيف يمكنني أن أنسى بأنه قد ساهم في سقوط مدينتي؟

- إعلَم بأنني أنا أيضاً لا أحبه. وكي أكون صريحة، فإنني أكرهه. فلولا حماقته لما كانت عائلتي. . .

صمتت مائلة برأسها إلى الخلف، ثم قالت باهتمام مفاجئ:

- قل لي. هل قابلت أناساً من المقربين إلى بونابرت؟ هل يعني لك اسم غانطوم شيئاً؟ إنه أميرال.

بدا مفاجأً.

- بالتأكيد، وقد قابلته خلال حفل أقيم خلال اليوم الموالي لوصولي إلى باريس.

تهيَّجَت قسمات المرأة دفعة واحدة.

- هل كانت برفقته امرأة؟ زوجة؟

- أجل. امرأة غير ذات شأن في المجمل.

- أجنبية، أليس كذلك؟

- كلا، فرنسية.

عاندت شهرزاد:

- مستحيل. قد تكون مخطئاً.

- أؤكد لك. فرنسية، شقراء وشديدة البدانة، يتجاوز عمرها الخمسين بقليل.

كانت خيبة الأمل والقلق قد غيرا ملامح المرأة.

سأل الطفل الذي ظل صامتاً حتى تلك اللحظة:

- أمي، هل سنركب الفرس اليوم؟

أجابت بسرعة أن نعم.

- هذا العميد، غانطوم، هل سبق لك أن عرفته؟ سأل ماندرينو.

- أختي وليس أنا. لقد ذهبت معه إلى فرنسا. كانت أكدت لي بأنهما سيتزوجان.

هز ماندرينو حاجبيه موشوشاً.

- أنا آسف. . . ربما أكون مخطئاً.

- لا. أنت بالتأكيد على صواب. سميرة ليست شقراء، وتبلغ من العمر الآن إحدى وأربعين سنة.

- وزوجة غانطوم تسمى إيزابيل.

اجتاحت موجة حزن ملامح المرأة الشابة.

- ماذا يكون قد حصل لها؟ وعلي، ابنها؟

- لو كنت علمت لكنت قد حصلت، ربما، على معلومات أوفر. كان عليك أن تحدثيني عن ذلك. لماذا لم تقولي شيئاً؟

سأل الطفل الذي بدأ النقاش يفقده صبره:

- هل يمكنني أن أذهب لأرى المفاجأة؟

بدا الفينيسي قلقاً.

- ذلك أنني...

- صحيح، قالت شهرزاد. لقد نسيت. بم يتعلق الأمر؟

تردد ماندرينو، ثم:

- هيا بنا.

* * *

عندما وصل أمام العربة أصدر أوامره. سارع أحد الرجلين إلى الخلف وأزاح الغطاء، مبرزاً ما بدا وكأنه آلة.

قفز يوسف على الفور إلى العربة وشرع يتفحص الآلة مندهشاً.

- هذا رائع. تبدو مثل عنكبوت ضخمة.

سألت شهرزاد مضطربة:

- هلا فسرت لي؟

- آلة ضغطك.

- ضغطي؟

- نسيت؟ ألم أشر - خلال لقائنا الأخير - إلى تلك الآلة الأمريكية التي تقوم بضغط القطن في حزم؟

- أنا أ... أنت لم...

- بلى. لماذا أتردد؟ آلة تستطيع القيام، في ساعة، بما يقوم به ثلاثة فلاحين في يوم كامل، أليس هذا مدهشاً؟

صعدت شهرزاد بدورها إلى العربة وشرعت تفحص الآلة بدقة.
- هذا مدهش. ثمنها غالٍ بالتأكيد. ألم تتسرع بعض الشيء؟ ما ثمنها؟
- لا شيء. ولا قرش واحد. هذه مساهمتي في تعاونيتنا.
تفحصته مقطوعة النفس.
- أجل. تابع جاداً. لقد فكرت في أن نوحد، أنت وأنا، مجهوداتنا. أنت تنتجين وأنا أبيع. وفي النهاية نتقاسم الأرباح مناصفة. وبفضل هذه الآلة سيتضاعف هامش ربحنا. ما رأيك؟
كان رد فعل شهرزاد فورياً:
- اسمع يا سيد ماندرينو. قد أكون شخصية متسرعة، لكنني أحب، عندما يكون الأمر متعلقاً بالعمل، أن أتمهل. فللوهلة الأولى لا أرى جيداً أين تكمن مصلحتي في أن أشترك معك. فبعد كل شيء، أنا التي أنتج القطن والمشترون كثيرون. غير أنني أطلب، مع ذلك، مهلة للتفكير.
- هذا طبيعي... وموقفك يطمئنني، لأنه ليس أخطر من شريك يلتزم عن غير تبصر.
- هذا لا يمنع أنني أريد، مع ذلك، أن أعرف ثمن الآلة.
- لنقل إنها تعادل أربعة أو خمسة أعوام من الإنتاج. وبالمناسبة، أحب أن أذكر لك تفصيلاً سيكون له دور في اتخاذك لقرارك. لقد أفلحت أيضاً في الظفر بأن تكون هذه الآلة سبقاً خاصّاً بي في مصر. لمدة قصيرة بالتأكيد، لكنها كافية لتدرّ أرباحاً. أنا لا أدري ما إذا كان بإمكانك أن تتصوري مقدار الأرباح التي يمكن أن نجنيها منها.
- نجنيه؟
- ألم أحدثك عن تعاونية؟ في الوقت الراهن، نائب السلطان هو الذي يملك عموم الأملاك القروية. والمساحات المزروعة تتزايد كل سنة بنسب معتبرة. والقطن يشكل جزءاً من هذا التزايد. لذلك، فإن آلة بهذه الفعالية لا يمكنها إلا أن تغريه. يكفي أن يقدمها إليه أحد وأن يتكلف ببيعها له. والحال أنني قد فسرت لك - قبل ذهابي إلى باريس - موقفي من العاهل. وفي المقابل فإنك...
- يمكنني أن أفاوض بدلاً عنك.

- بالشروط نفسها طبعاً؛ خمسين خمسين.

شبكت شهرزاد ذراعيها.

- أنت شخص غريب الأطوار يا سيد ماندرينو. وأجرؤ حتى على القول بأنك مدهش.

سأل الطفل الذي بدأ يمَل

- ماما. وجولتنا على الفرس؟

رمته أمه بنظرة غاضبة.

- هذا وقت الغداء. اذهب قبل ذلك عند زبيدة واطلب منها أن تقدم إليك طعامك.

- لكنني لست جائعاً. وشمس لم يغادر الإسطبل منذ أربعة أيام.

- شمس أكل علفه. أكرر لك. اذهب إلى زنوبة، وإذا اتبعت الكلام، فسأقرر بعد ذلك.

- هل يجيد ركوب الخيل؟ سأل ماندرينو مندهشاً. ما عمره؟

- إحدى عشرة سنة، قالت شهرزاد متنهدة. منذ أن علمته أصبح كل حياته.

جثا الفينيسي أمام الطفل ووشوش متواطئاً:

- قم بما أمرتك به أمك. بعد ذلك، سنذهب ثلاثتنا في جولة. متفقون؟

- صحيح؟ سترافقنا؟

- وعد. لكن شريطة أن تأكل كل ما ستقدمه إليك زنوبة.

قفز الطفل دون تردد من على العربة وتوجه إلى المنزل.

- ألا ترى يا سيد ماندرينو، قالت شهرزاد معنفة، أنك تعطي لنفسك حرية أكثر من اللازم. وإذا لم تكن لي رغبة في هذه الجولة؟

- سأكون سعيداً، في هذه الحال، أن أصحب يوسف.

وتفادياً لاحتجاجات جديدة، قال:

- كنت تقولين بأنني شخص غريب الأطوار.

آتت حركة لامبالاة.

- ما الفائدة؟ ليس لذلك أهمية.

- أنا أصر.

اتكأت بظهرها على آلة الضغط وقالت:

- كلما عرفتك أكثر، انتبهت إلى أن كل ما يشغلك في هذه الحياة هو المال. أنت تملك بروداً حسابياً أجده بالأحرى... مسكناً.

أصدر ضحكة قصيرة وشملها بعينيه الزرقاوين.

- أنا أفهم جيداً يا سيدتي العزيزة ما الذي تلمحين إليه.

- آه.

- أنا لست من نوع الرجال الذي يتردد؛ إنني أتوجه رأساً إلى الهدف، مما قد يصدمك من جديد. أنت امرأة، وبوصفك كذلك، فأنت لا تجهلين شيئاً عن طبيعة الشعور الذي أكنه إليك. وبما أني لم أذكر الكلمة الواضحة التي تكشف عن هذا الشعور، فإنني أكتفي بالقول بأن ما أشعر به نحوك يسمى عادة الحب. أجل إنه الحب. لن أحدثك لا عن كثافته ولا عن قوته. إنني لن أذهب بعيداً في الحديث - كما يفعل غالبية الرجال - عن الجرح الذي يسببه شعور مثل هذا عندما لا يكون متبادلاً - على الأقل حتى هذه اللحظة. إنني أريدك يا ابنة شديد، إنني أشتهيك كما لم يسبق لي أن اشتهيت امرأة قبلك. كل أولئك اللواتي سبقنك لم يكنّ سوى جداول، وأنت النهر. أنت تجرين في عروقي، إنني أحملك في داخلي منذ اليوم الذي التقت فيه نظراتنا.

صمت، متقطع الأنفاس بعض الشيء، ثم تخلص من الانفعال الذي قد شرع يجتاحه بالتدريج.

- غير أن هذه الرغبة، مهما تكن قوية، فإنها لا تؤثر على وضوح رؤيتي. أنت تجدينني بارداً وصاحب حسابات. الواقع أن ما يقلقك ويدهشك هو أنني أعاملك، عندما يتعلق الأمر بالعمل، على قدم المساواة. قد يكون هذا خطأ، لكنني أرفض أن أتعامل معك على أنك - بذريعة كونك امرأة - كائن مسكين بلا حماية؛ على أنك إحدى تلك الإناث اللواتي يجب أن نقوم أمامهن بكل شيء كي نقيم الدليل على حبنا. إن ذلك سيقلل من قيمتك. أنا أرى قيمتك أعلى من ذلك بكثير. هذا كل شيء. انتهيت.

صمت وشرع يتفحصها باحثاً عن صدى كلماته.

وبما أنها ظلت صامتة، فقد اقترب منها وأخذ ذقنها بين أصابعه ساحباً وجهها نحوه.

ببطء وبهدوء، مال على شفتيها. كانت تشعر بأنفاسه. عندما وضع شفتيه على شفتيها ظلت دائماً بلا حراك، مندهشة من أنها قد أضحت امرأة أخرى، عاجزة عن أية محاولة. أحاط ذراعا ماندرينو بخصرها. وجدت نفسها عاجزة دائماً عن القيام بشيء وهي ملتصقة بهذا الطيف الذي أحالته غُلْمَتُه أكثر كثافة. كم من الوقت انقضى عليها دون أن تشعر بالدفء المطَمْئن لجسد رجل؟ كان بإمكانها أن تقسم إن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها الأمر بهذا العنف. وضع شفتيه من جديد على شفتيها المفتوحتين بالرغم منها، مستسلمة خاضعة كلية للفينيسي. كانت مسامها تلتهب. ماندرينو كان يضرم فيها النار. ولعل هذه الصورة الأخيرة هي ما أرعبها، إذ دفعته عنها بقوة، واضعة كفها على عينيها كما لتتقي شمساً تضايقها.

- كف عن هذا...

هذا الصوت الأجش، هل هو صوتها؟

تناهى إلى سمعها وقع الخطى المستعجلة ليوسف القادم.

* * *

كان يملك كل صفات الفارس المحنك. ورغم أن كتفيه كانا عريضين إلى درجه الخشونة، فإن طريقته في الركوب كانت تتصف بأناقة طبيعية.

قضوا أكثر من ثلاث ساعات يعدون على جيادهم فوق الكثبان، مغمورين بالضحكات الشفافة ليوسف وبتلك المدوية لماندرينو. ساد بين الرجل والطفل تفاهم غريزي بسرعة فائقة. إنهما يتعارفان منذ الأزل، وفرقت بينهما صدف الحياة. كانوا يستعدون للعودة عندما سأل الطفل وهم يمرون بمحاذاة الهرم الأكبر:

- هل سبق لك أن صعدت إلى القمة؟

أجاب ماندرينو بالإيجاب.

- ستقوم بذلك ثانية معي ذات يوم؟

- حالاً.

كان الفينيسي قد قفز إلى الأرض.

- تذهبين معنا؟ سأل ماندرينو شهرزاد.

- عمره لا يتجاوز الحادية عشرة، وسيكسر عنقاكما.

أجاب ماندرينو ثابتاً:

- إذا كان القزم الكورسيكي قد استطاع القيام بذلك فإنني لا أرى سبباً لأن لا نحذو حذوه. تعالي، سيعجبك أروع منظر في الدنيا.

كان المنظر من الأعلى رائعاً بالفعل. من اليمين، ثمة الصحراء ملونة بالوردي، ومن الجهة الأخرى شريط النيل يحضن الأرياف المخضرة. من هذا المكان يتم الإشراف على تخوم الحياة والموت. وعندما كان الغسق يتمطى على انحناءات الكثبان، كانت ألوان الأفق تتزين برقة لا نظير لها تواري التيبس والهواء الشفاف.

كانت شهرزاد قد نسيت مخاوفها كلية وشرعت تتملى المشهد بتأثر بالغ. كان ماندرينو إلى جانبها يغطي بحدب كتفي يوسف. غير أنها، عوض أن تفاجأ من فعله، وجدته طبيعياً.

عجبت من أنها قد سألت:

- ستقاسمنا عشاءنا يا سيد ماندرينو أليس كذلك؟

كان يوسف هو من أجاب بتلك التلقائية التي هي خاصية الأطفال:

- أوه، نعم يا ريكاردو. ستأتي، قل؟

* * *

كان الطفل قد نام من لحظة.

وكانت شهرزاد جالسة بالشرفة، إلى جانبها الفينيسي، بيده كأس نبيذ، وجزمته مضغوطة إلى الحاجز.

- أشكرك، تمتمت شهرزاد. من أجل يوسف ومن أجل هذا اليوم.

هز رأسه.

- أنا الذي سعدت هذا اليوم. عندما لا يكون لنا أطفال، يكون الحوار أسهل.

- أنت - وبدت مترددة في تلفظ الكلمة - متزوج؟

- كنت متزوجاً. زواج خالٍ من المشاعر؛ يتعلق الأمر بتلك الزيجات المعروفة في العائلات التي تسمى «كبيرة» والمفروض فقط بسبب التقاليد ومصالح الآباء. لم أكن آنذاك قد تجاوزت الرابعة والعشرين. وبعد عامين، وأمام خيبة كل أقاربي، انفصلت عن زوجتي. كان ذلك بالتأكيد بسبب مزاجي

أو بسبب رفضي لأن أعيش ضمن الرداءة، ثم - وهو ما سيجعلك تبتسمين - بسبب خشيتي من الموت.

وأمام ملامحها المتسائلة، تابع:

- أي نعم... ربما تعلق الأمر بمسألة تأثري بالبرد. والموت بارد.

- لا أرى علاقة لذلك بطلاقك.

- هو شعور خاص جداً.

وضع كأس النبيذ على المائدة وتابع:

- أترين هذه الكأس؟ أنت عطشانة وتقررين مد يدك لتناولها. لكن من يدريك أنك ستتمين الفعل؟ لن تعثري على أي كتاب يدلك على ذلك في أي مكان، لا في النجوم ولا في الهاويات. ليس لديك أي يقين، وبالمثل، فإن رغباتنا تظل معلقة، منذورة لأن تتحقق أو لأن تطمس. منذئذ، ومستنداً إلى هذه الفكرة، ما عدت أتصور وجود من يكتفي بقضاء حياته دون أن يحقق رغباته أو مكتفياً بتحقيق جزء منها لا غير. من ثمة طلقت، ومن ثمة قوتي ورعبي. أتفهمين؟

- كل حركاتك، وكل تصرفاتك، أريد أن أقول تصرفاتك العادية، يمليها هذا الخوف من الموت؟

- مع بعض الاستثناءات القليلة.

- أستنتج من ذلك إذن أنك لا تبني على المستقبل شيئاً. تُصرِّف كل شيء في المضارع، مهما تكن النتائج.

- لا أدري. الجواب ما يزال مستعصياً علي. ما أنا متأكد منه هو أنني في بحثي المستمر لا ألتمس سوى الهدوء، سوى انسجام العقل والقلب، سوى المزج المستحيل بين الماء والنار.

افترت شفتا شهرزاد ببسمة خفيفة.

- أنت لست رجلاً بسيطاً يا سيد ماندرينو. هذا أقل ما يمكن قوله.

استمر صامتاً ذهنه شارد.

كانت نفيسة على حق عندما قالت بأن الرجل يسعى لأن يكون معروفاً. ففي العمق، وخلف هذه «القلعة» تثوي حساسية بالغة. لكن هل يفسر هذا ذلك الاستسلام الذي أبدته فوق العربة؟ فكرت في ذلك كثيراً، وما تزال لا

تفهم كيف استطاعت أن تنقاد بتلك الطريقة، بل وكيف اجتاحها ذلك الشعور اللاعقلاني وهو بالكاد يلمسها. ألم تكن تمقته بالأمس فقط؟ كيف أمكنها أن تجد نفسها في كل هذا التناقض؟

– من المحتمل أنه سيكون عليّ أن أتوجه من جديد إلى باريس في غضون أيام.

جعلها صوته تنتفض.

– من أجل نائب السلطان؟

أكد:

– هو يعيش مسكوناً بكابوس الإنجليز وانقسام الإمبراطورية العثمانية الذي سيؤدي، إن حصل، إلى تفكك مصر وضياع حكمه في النهاية.

– ستغيب طويلاً؟

– زمن الرحلة، مع أسبوعين أو ربما أقل. الأمر مشروط بما سأقوم به.

طوى ساقيه.

– الوقت متأخر، أتركك كي تنامي.

توقفت بدورها وسألت بصوت مرتبك بعض الشيء:

– هل يمكنني أن ألتمس منك طلباً، بما أنك ذاهب إلى باريس؟

– استبقَها:

– أختك. أعلم. سأقوم بما أستطيع كي أعرف ما الذي آلت إليه.

مد إليها كفه.

بلبلها لمس أصابعه. بدت تبذل مجهوداً كي تقول:

– ليصحبك الله في رحلتك.

تأملها للمرة الأخيرة قبل أن يقول مع نصف ابتسامة:

– رغم أنني قد أغيظك، فإنني أقول يا شهرزاد بأنني مقتنع أكثر فأكثر بأنك مجالسة أمراء رائعة.

وقبل أن تبدي أي رد فعل، كان قد اختفى في العتمة.

الفصل الخامس والثلاثون

وقف محمد علي أمام شجرة الخوخ وأشهد ابن سليمان:

- أليست هذه الفاكهة رائعة الجمال؟ تذوق رائحة المسك هذه. تلمس هذا الجلد الأرق والأنعم من بشرة عذراء شابة.

ارتعش كريم من كون هذه الصفة ما عاد ممكناً إطلاقها على ابنة نائب السلطان. ماذا سيفعل ليعرب للعاهل عن نواياه؟ هل يملك الشجاعة الكافية للقيام بذلك؟

استدار الباشا ووجه سبابته نحو لحية البستاني:

- احذر يا أبا الورد. هي تنضج الآن، وبعد زمن قصير سيكون بإمكانك أن تقطفها.

- الله يشهد يا سيدي أن عينيّ تسكنان هذه الشجرة ولا تغادرنها. وفي غضون أسبوع على أكبر تقدير سيكون بإمكانك أن تستلذ فاكهتها.

- أنا أعول على ذلك.

- أتدري أنه يحصل لي أحياناً أن أحلم بها ليلاً، فأنتفض وأنا أفرز لعاباً مثل طفل أمام طبق حلوى.

- هذا طبيعي يا سيدي. أنت رجل ذواقة. كما أنني أفهم افتتانك بهذه الفواكه غير الموجودة في مصر، ما دمت قد استقدمتها من مدة وجيزة.

- بالتأكيد. فندرتها هي ما يجعلها مشتهاة؟ أليس هذا هو الحال بالنسبة لكل أشياء الحياة؟

كاد كريم أن يجيب: «مثل ابنتك».

تابعا طريقهما بين الأشجار المعطرة قبل أن يجلسا تحت الظلة؛ المكان الأثير للعاهل.

- هيا، قال محمد علي. أنا أنصت إليك. كيف كانت رحلتك إلى أوروبا؟ هل بدأ مشروع بحريتنا يتشكل؟

- بالتأكيد يا صاحب الجلالة. فاستجابة لنصائح مهندسين بحريين فرنسيين وإيطاليين، قدمت طلباً بأربع فرقاطات وتسع حراقات وأربع قلعيات وست سفن شراعية. وبقيت سفن النقل التي سيقدمون لي مشاريعها.

- أشرت في رسائلك إلى ورشات متعددة.

- مارسيليا وليفورن وجنيس وتريست. وكما أمرت بذلك، فقد كان دَليلاَيَ هما المركيز ليفرون والجنرال بويي.

- متى ستُسلم إلينا هذه السفن.

- في غضون عام على أبعد تقدير.

بدا أن الخبر لم يَرُقْ العاهلَ.

- ها هو ذا أمر لا يسر. كنت آمل في أجل أقل، لكن لا يهم. سنستغل هذا الوقت لتدعيم الجيش ولمضاعفة عدد الجنود والعتاد. وإذا مرت الأمور على خير وجه، فإننا سنكون في خريف ١٨١١، جاهزين لشن حرب على الوهابيين وتحرير الحجاز بعون الله.

- إن شاء الله. وستقيم الدليل بذلك للعالم وللباب العالي بالخصوص على قوتك.

- هل فكرت في البحارة؟ فأسطول بلا بحارة سيكون في انعدام قيمته مثل بئر بلا ماء.

- سنكون مضطرين في مرحلة أولى إلى تشغيل يونانيين، وبالتدريج سيلتحق بنا مصريون وأتراك. لكنه لا مناص من أن يكونوا مؤطرين بمدربين أوروبيين.

- أوروبيون، ليكونوا فرنسيين. لا أريد أن أرى أي إنجليزي على ظهر سفني. لا أحد. إن هذا النوع البشري خداع. هم شعب منافق.

- هذا ما أعتزمه جلالتك. وبموازاة ذلك، فإن ورش السويس ستكون جاهزة قريباً لتجهيز السفن. وهناك أيضاً سيكون اليونانيون هم من يسيّر المشروع.

- أنا راضٍ عنك يا ابن سليمان. ها أنت ترى أنه، مع الوقت وبعض الصبر، يمكن للأحلام الأكثر جنوناً أن تتحقق.

قال كريم مع تنهيدة عميقة:

- هناك حلم آخر يسكنني، يا صاحب الجلالة. يتعلق الأمر...

لا، لن يستطيع أبداً. الأمر أخرق.

شجعه العاهل بحركة.

- يتعلق الأمر بابنتك. الأميرة ليلى.

استدار رأس محمد علي.

- ما شأنها؟

أن يصمت، أن يبتلع كلماته، أن يهرب.

- لا... لا شيء يا سيدي. أعتذر.

- آه، لا. لقد قلت الكثير، أو ربما لم تقل ما فيه الكفاية.

أفهمه صوته القوي السلطوي بأنه لا مجال أمامه للتراجع.

- الأميرة وأنا، نحب بعضنا بعضاً.

لم يطرأ أي تغيير على ملامح محمد علي. قال بهدوء:

- مستحيل.

أسقط في يد كريم.

- مستحيل، قال نائب السلطان من جديد بثبات. لقد وعدت صديقي محرم بك حاكم الإسكندرية بابنتي.

- محرم بك.

- ما كان بإمكانك أن تعلم. وهي أيضاً؛ فأنا لم أتخذ قراري إلا بالأمس.

عدت وزغة صغيرة، خفية، بين حذاءي كريم واختفت بين الأوراق. لو كان بإمكانه فقط أن يتبع هذه الزاحفة وأن يختفي في أثرها...

سأل نائب السلطان:

- ماذا تقصد بـ: «نحب بعضنا البعض»؟ آمل أن لا يكون شرف الأميرة قد مس.

كانت نبرته مشككة ومغشاة بتحذير.

شعر كريم بالعرق ينز على جبهته. استجمع ما بقي لديه من قوة:

- جلالتك، كيف أمكنكم أن تفترضوا بأن يكون قد ساد بين الأميرة ليلى وبيني شيء آخر غير شعور نبيل وطاهر.

- في هذه الحال، انتهى الموضوع. وإذا كانت ابنتي أيضاً تبدي نحوك شعوراً ما، فإنها سرعان ما ستنسى. عمرها لا يتجاوز الثالثة والعشرين. أما أنت فأمامك من المهام الجسام ما لا يترك لك وقتاً لراحة البال. ستنسى أنت أيضاً.

كانت الجملة الأخيرة تشبه إلى حد بعيد فذلكة.

- طبعاً يا جلالة الملك.

- ثم - ودون أن أقصد الإساءة إليك - على ابنة محمد علي أن تقترن بشخص جدير بها. محرم بك سليل أسرة كبيرة، وغني، إذ شغل أبوه مناصب هامة في بلاط السلطان. أتفهم ما أقصده؟

أجهد كريم نفسه كي يخفي غضبه.

- بالتأكيد. أعذرني إن أعمتني مشاعري. لقد كنت غبياً.

كان بوغوسيان بك، الساعد الأيمن للعاهل، قادماً في اتجاههما.

أشار عليه محمد علي بالإقبال، ثم سلط عينيه في عيني ملازمه.

- لا تعاود الاقتراب من الأميرة، أليس كذلك يا كريم؟

الأمر واضح هذه المرة.

- أعدك يا سيدي.

كان بوغوسيان قد وصل إلى الظلة، محيياً الرجلين.

- طلبتني جلالتك؟

أجاب محمد علي بالإيجاب وأشار إلى كريم بأن بإمكانه أن ينصرف.

كان يبدو من طريقة توجهه نحو القصر وكأنه يفر من حريق.

* * *

- آمل أن تعلمي، من الآن فصاعداً، بأن عليك أن تضعي ثقتك فيّ. ألم أقل لك إن ريكاردو ماندرينو شخصية متفردة؟

- الكلمة أضعف من أن تعبر.

جعلت المرأة تضحك.

- هكذا تكونين قد بدأت في الوقوع تحت تأثير سحره.

- أعترف أن في هذا الرجل أمراً ما مدوخاً فاتت علي ملاحظته في اللقاءات الأولى. وأعترف أيضاً بأن اللقاء به قد أصبح يشكل سعادة بالنسبة إلي. غير أنني، علني لا أخيب أملك، لا أتصور الذهاب أبعد من ذلك. ستبقى علاقتنا علاقة صداقة وعمل.

- تعتزمين إذن الموافقة على عرضه بأن تصبحا شريكين.

- هل أنا مخطئة؟

- لا أستطيع معارضتك. بل بالعكس، أجد الفكرة رائعة، لكن...

توقفت شاردة.

- إن حادثة العربة لم تكن سوى لحظة...

استبقت شهرزاد:

- ضعف.

- ضعف...

التمعت عينا نفيسة بشعاع ساخر.

- أعذريني يا عزيزتي؛ إن امرأة عندما ينعقد أسفل بطنها من احتكاكها برجل، فإن ذلك لا يعد ضعفاً.

- لا تجعليني أندم على اعترافي لك.

- لماذا تخجلين من ذلك؟ ليس من العار في شيء أن نتحدث عن هذا النوع من الأحاسيس. الله يعلم كم كان ضعفي يصبح... عظيماً عندما كان الفقيد مراد يضع كفه علي.

كان صوتها قد أضحى مترعاً حنيناً وهي تقول:

- إنني مستعدة لتقديم أي شيء كي أصبح ضعيفة من جديد.

- ضعيفة أمام... ريكاردو؟

- ولم لا؟ سأقول لك حتى: آه لو كان عمري ينقص عشرين سنة...

- أنت تريدين فقط إطراء يا ست نفيسة. إن لك لَلَون وردة. ولو كنت أنا ماندرينو...

قطع الحضور غير المتوقع لزنوبة كلامها..

- ماذا وراءك؟

مدت لها الخادمة شيئاً.

رفعت شهرزاد عينيها إلى السقف وعقدت يديها في وضعية انزعاج.

- أظن أن الأمر يتعلق ثانية بذلك التاجر اليهودي؟

- نعم سيدتي، الرجل نفسه.

أخذت العلبة من يد الخادمة.

- عاشق جديد؟ سألت نفيسة بتخابث.

قامت شهرزاد، دون أن تجيب، بإزاحة غشاء العلبة الوردي المخملي، المصحوب بورقة مطوية.

أطلت البيضاء بفضول.

- ما هذا؟

أزاحت، صامتة دائماً، الغطاء بروية، فبدت الزمردة التي لم يسبق أن رأت مثيلة لها. كان لونها الأخضر شديد الصفاء، شديد الالتماع إلى درجة أنه قد يصيب بالدوار.

- بسم الله الرحمان الرحيم...

تركت شهرزاد البيضاء في انذهالها وقرأت الكلمة:

إن كل يوم من وجودنا لَهُوَ لون؛ ولون اليوم هو لون الأمل. أفكر فيك.

الإمضاء: ريكاردو.

مدت الورقة إلى نفيسة وذهبت لتجثو أمام دولاب مرصع بالصدف والعاج. وبعد أن أخذت منه صندوقاً صغيراً، عادت إلى مكانها بجانب نفيسة.

- ذلك ليس كل شيء، أنظري.

كانت به ست قطع. تمتمت شهرزاد:

- ياقوتة وجوهرة ولازورد وزبرجدة وفيروزة وماسة.

- سبعة؟

- سبعة. واحدة عن كل يوم غياب.

- آه، تنهدت البيضاء. لو فقط كان عمري ينقص عشرين سنة...

* * *

ديسمبر ١٨١٠

صحب الأميرال غانطوم كلماته بحركة استسلام.

- الحياة هي الحياة يا سيد ماندرينو. ليس بإمكان الجميع أن يتزوج بفتاة

من مستعمرة وأن يتحول إلى الإسلام كما فعل العزيز مونو.
- سميرة شديد مسيحية.
- صحيح. لكنني كنت متزوجاً، ولا أستطيع أن أتخذ امرأتين..
- متى انفصلتما؟
- منذ أربع سنوات، وربما أكثر. وجدت صعوبة بالغة في التخلص منها. إن هؤلاء الفتيات لعلقات حقيقيات. هددتني بأمور أفظعها أن تتصل بزوجتي وتخبرها بكل شيء عن علاقتنا. أترى أي فضيحة؟ إنه لأمر مؤسف. هذا رغم أنها مع طفلها لم يعوزهما شيء طوال مدة علاقتنا. أليس هذا أمراً عبثياً؟

رأى ماندرينو أن من الأفضل له أن لا يجيب؛ فما كان الأميرال، بالتأكيد، ليقبل وجهة نظره.

- لا تؤاخذني على تطفلي، لكن عند انفصالكما، هل كان لديها من المال ما يكفيها لتدبير أمرها؟
- ماذا عساني أعلم من ذلك؟ كل هذا قد أصبح بالنسبة إلي تاريخاً قديماً. ما عدت أتذكر شيئاً.

أبدى ضحكة داعرة.

- باستثناء أسفل ظهرها. من هذا الجانب، كانت رائعة بالفعل.
- ليست لك أية فكرة عن الوجهة التي قد تكون قصدتها؟
- سبق أن أجبتك يا سيد ماندرينو؛ عندما كانت صديقتها زبيدة، زوجة العزيز مينو، ما تزال بباريس، كانتا تلتقيان باستمرار. بعد ذلك عُيِّن الجنرال حاكماً على فينيسيا، فالتحق بعمله صحبة زوجته، حيث يقال بأن زبيدة قد توفيت. وهناك أيضاً السيدة ميشو التي كانت تزورها أحياناً. لا أعرف أي شخص آخر غيرهما. وكي لا أخفي عليك شيئاً، فإن هذا الأمر ما عاد يهمني في شيء، فأنا في هذه اللحظة لدي هموم أخرى.

عمل الفينيسي ما باستطاعته كي يحافظ على برودة دمه.

- السيدة ميشو؟ بـ ١٤. شارع لا هوشيت؟
- ١٤ أو ١٢. أكرر لك أن هذه القضية تعود إلى أربع سنوات خلت.

انتصب غانطوم بقوة من على الأريكة.

- والآن، لو سمحت، هناك مواعيد أخرى تنتظرني.

توجه إلى الباب فواربه مشيراً إلى زائره بأن الزيارة قد انتهت.

* * *

كان غانطوم قد أخطأ؛ المرأة المعنية لم تكن تسكن لا في ١٢ ولا في ١٤، وإنما في ١٦ من شارع لا هوشيت. عندما فتحت لماندرينو الباب، وبالطريقة التي استقبلته بها، متوددة وممازحة، علم، على الفور أي نوع من النساء هي. في حوالى الستين من عمرها، على شيء من بدانة، وجنتاها مرقطتان ببعض الصهبة. وكانت تملك ذلك الإهاب غير المحدد الذي تُكسِبه، عادة، رفقةُ الرجال الطويلة.

- هكذا إذن تكون قد عرفت سميرة؟

- نعم؛ قال ماندرينو كاذباً.

كان قد قرر، دون أن يعلم لماذا، ومنذ عبارات المجاملة الأولى التي تبادلاها، أن يخاتل. ربما كان ذلك بفعل الغريزة.

قالت بخفوت:

- غريب. وأنا التي تباهيت دائماً بقدرتي على تذكر أي شخص رأيته، ولو لمرة واحدة.

- مع ذلك...

- متى حصل هذا؟

قرر أنه من باب الحذر البقاء في العموميات.

- كانت قد انفصلت عن غانطوم من أشهر عديدة.

- آه. ذلك الشخص.

قطبت.

- أي كائن مقيت. عندما أتذكر بأنه قد طردها هي وطفليها وتركها دون مال.

- طفلان؟ لم يكن لها حسب علمي سوى طفل واحد.

- إذن لم تقل لك سميرة كل شيء. كانت قد أنجبت من غانطوم طفلة؛ طفلة جميلة.

حركت رأسها من اليمين إلى اليسار بحزن.

- هناك رجال، أقسم لك... أية طفلة رائعة كانت. غاية في الجمال...

وفي خضم تبادلهما عبارات الأسف، رمته بنظرة داعرة:

- الجمال الشرقي...

زايد، دون تردد، على كلامها:

- الجمال، وخصوصاً الطريقة. أعترف لك أنني ما عرفت بعد ذلك لحظات مثل التي عرفتها معها.

قهقهت مدام ميشو. كانت قد استعادت، دفعة واحدة، تهكمها.

- أفهمك تماماً. كان زبائني يفضلونها بمراحل على باقي الفتيات.

- ها أنت إذن ترين كم يهمني أن أعثر عليها من جديد.

- لكنني للأسف ما عدت على علم بأخبارها. وقد انقطعتُ، أنا نفسي، منذ حوالى السنتين، عن أنشطتي.

آتت حركة تعب.

- السن والتعب... ورجل أيضاً. لقد طويت الصفحة. وأعتقد أنها الأسباب نفسها التي كانت وراء انصراف سميرة. حينها كنت اعتقدت أنها قد التقت برجل وقررت أن تلتزم معه.

- هل لك أية فكرة عن هوية هذا الرجل؟

- ليست لي أية فكرة. أما لولوت فأعتقد أنها قد تكون على علم.

رفع ماندرينو حاجبيه، ففسرت:

- لولوت. هي أيضاً كانت من ضمن فتياتي. نوع آخر من الفتيات؛ كانت من وجهة نظري نحيفة أكثر من اللازم. وهو ما لم يمنعها على أي حال من تحقيق بعض النجاح.

- كانت صديقة لسميرة؟

- كانتا على علاقة. قد تزودك بمعلومات.

- هل هناك وسيلة للاتصال بها؟

- ربما، لكنني لا أضمن لك شيئاً.

أخذت المرأة ورقة صغيرة خربشت عليها اسماً وعنواناً.

- إذا ما استطعت العثور على صديقتنا، قبّلها عني بحنان.

* * *

كانت المسماة لولوت تقطن بالفعل في العنوان المحدد. أجابت عن الأسئلة الأولى لماندرينو بصرامة عدوانية. وقد لزم الفينيسي أن يستعمل كل جاذبيته وكل قوة إقناعه كي يروضها. وبما أنه قد أضاف إلى ذلك بعض القطع النقدية الرنانة والراجحة، فقد استطاع إخراجها من تكتمها.

أجل، ما يزال يحصل لها أن تقابل سميرة، لكن ذلك قليلاً ما يحدث. فحسب آخر الأخبار، هي لم تكف يوماً عن بيع جسدها؛ مع الفارق الوحيد الكامن في أن مدام ميشو قد عوضت برجل. وهو إما ماليفورني أو مالطي، لا يمكنها أن تحدد. غير أن المرة الوحيدة التي التقتها فيها كفتها كي تكون فكرة. لم يكن للرجل شكل عاشق «بل بالأحرى قواد صغير»، قالت لولوت. ثم دققت: «قزم بقبضتين ضخمتين».

استنتج ماندرينو من ذلك، ببساطة، أن أخت شهرزاد قد وقعت بين يدي قواد يضربها.

عندما أنهت كلامها أخرج من جيبه مغلفاً مده إليها.

- عندما تلتقين بسميرة، قدميه إليها وأخبريها أنه من أختها شهرزاد. أنت لست غبية، فبداخله مبلغ هام من المال. وأعتقد أن بإمكانها من خلاله أن تستعيد حريتها. أنا لا أعرف أي نوع من النساء أنت، كما لا أدري إن كان بإمكاني أن أثق بك. الأمر إذن متروك إليك، وأتصور من جهة أخرى أن الحياة لم تكن كريمة معك أنت أيضاً. ثم إنني سأكون ممتناً لك لو قبلت هذا.

وربطاً للقول بالعمل، وضع صرة صغيرة على المائدة، منهياً حديثه.

- عربون صداقة، علاقة قلبية.

لم تبدِ لولوت أي تعليق، لكنها، وهي تصحبه إلى الباب، مدت إليه كفها متمتمة:

- لست طبعاً غير فتاة، لكن ليس لي سوى كلمة واحدة، وأنا أعطيك إياها.

الفصل السادس والثلاثون

يناير ١٨١١

كان صوت محمد علي يصل إلى جهة القصر الأخرى. ضرب بقبضته على المائدة في قمة غضبه.

- أنتم كلكم عجزة. إذا لم نكن في مستوى ضمان أمن أشخاص وممتلكات هذا البلد، فإن هذه الأمة ستتقهقر إلى الحالة التي وجدتها عليها: الهمجية.

لم يجرؤ على التعقيب لا لاظوغلي وزير الداخلية الجديد، ولا كريم ولا بوغوسيان بك؛ فبالأحرى المدراء السبعة المكلفون بحكم أقاليم مصر العليا والسفلى. فكلهم يعلمون أن الوالي عندما يكون في هذه الحال من الغضب، يحسن بهم أن يختفوا عن بصره أو أن يلزموا الخرس المطلق.

أنتم تعرفون طبيعة سياستي: بسط الأمن على كل وادي النيل. وإذا لم نستطع تحقيق ذلك، فرَّ الأوروبيون من أرضنا؛ وبدونهم لن يستطيع مخططي التجديدي أن يرى النور. يمكن أن أقبل استمرار المماليك في تسميم حياتي، وفي يوم قريب سأتخلص منهم بصفة نهائية. أما إن كان علي، فضلاً عن ذلك، أن أتحمل ثورات البدو، فإنني أعتبر ذلك فوق طاقتي.

خاطر أحد المديرين بالقول بصوت مرتبك:

- ومع ذلك، يا صاحب الجلالة، لا نخسر شيئاً بأن نحاول. هؤلاء الناس هم أخطر من الهوام، إضافة إلى كونهم لا يرسون في مكان؛ فهم دائمو الترحال.

- المحاولة لا تهمني. ما يهمني هو أن نفلح في ذلك. ما عاد بالإمكان قبول أن يسلبوا وأن يقتلوا سكاناً آمنين.

وجه محمد علي كلامه إلى أحد الموظفين الجدد المسمى أرتين بك، وهو أرميني مثل بوغوسيان:

- أرتين بك. انطلاقاً من هذا المساء أكلفك بأن تبعث بالعدد الذي تراه مناسباً من الفرق العسكرية لملاحقة القبائل المتمردة. لتتعقبوهم ولتنهكوهم. وأمامك شهر لتخضعهم. أما بالنسبة لمن يسلم نفسه منهم، فسنشكل منهم خيالةً مساعِدة.

تبادل الأعيان نظرات حائرة.

- كما سمعتم. لا يكفي القضاء على الأعداء، بل يجب أيضاً أن نعرف كيف نسخرهم لمصلحتنا. إن الجبال والصحارى تعد حواجز بالنسبة لجيش نظامي؛ وبالمقابل، فإن البدو يعدون أسياد هذه العوالم. وبمجرد ترويضهم سيقدمون لنا عوناً ثميناً. هل هذا واضح؟

أقرت كل الرؤوس رأيه.

بعد لحظة بدا وكأن غضب محمد علي قد خف.

- الواقع أن مشكلة هذه الغارات لَهِيَ أعمق مما تتصورون. إنها مشكلة عقلية؛ فإذا كان العرب يهاجمون الطرقات ويعتدون على الحاميات المصرية المتمركزة في المدن، فلأنهم لم يستطيعوا التخلص من عقلية النهب والاستقلال الفردي التي سكنتهم عبر الأزمنة. مأساة العالم العربي تكمن في أنه قد حكم دائماً من قبل طغاة عديمي الكفاءة؛ غير قادرين على وضع خطة تكون الأطراف فيها منسجمة ومتآزرة بقوة؛ غير محتكمين إلى قانون موحد أو نظام؛ غير منفعلين بقوة إلا محمَّسين بالعقيدة الدينية. هل ترون هذا معقولاً؟

تعمد الصمت للحظة حتى يسم كلماته اللاحقة بما هي جديرة به من قوة:

- التفتوا إلى الماضي. ماذا تلاحظون؟ حضارة؛ إمبراطورية ما كادت تتشكل حتى انحلت. السبب؟ غياب التنظيم والوحدة الحقيقية بين الزعماء والقبائل والنِّحل. ويؤكد لكم محمد علي بأن العرب، ما داموا في المرحلة القبلية، لن يعرفوا إلا البؤس والموت والتمزق.

صمت. كان يبدو من ملامحه أنه إنما كان يفكر بصوت مرتفع، ومع نفسه.

- لهذا السبب، لا يمكن لحركات مثل الوهابية التي تدعي الطهرانية المتبلدة إلا أن تضعف الإسلام. إن الحرب التي أستعد لشنها عليهم ليست لها أسباب سياسية فقط؛ إنها أيضاً حرب ضد الذهنية السرية والروتينية للمسلمين القدامى الجاهلين. إنني لأدعو الله أن لا تعرف مصر أبداً مغالاتهم. إن على مصر أن تصبح همزة وصل بين الشرق والغرب.

مسد بانفعال لحيته التي بدأ يخالطها الشيب قبل الأوان، وقال:

- لقد أعطيت أوامري بوضع حد للإهانات التي تعرض لها المسيحيون واليهود. سيكون بإمكانهم أن يلبسوا الألوان التي يختارونها. لا أريد أبداً أن أسمع كلاماً عن مظاهرات كيدية تجاههم. وفضلاً عن ذلك، فإنني أسمح ببناء أديرة وبأن تقرع أجراس الكنائس بحرية، حسب ما تقتضيه الطقوس.

عند هذه النقطة، لاحظ لاظوغلي:

- هذه القرارات تشرفكم، لكن ألا تخشون رد فعل عنيف من العلماء؟ أنتم لا تجهلون مقدار تأثيرهم؛ فعلى كل القرارات العليا للقائد الأعلى للدولة أن تخضع لرأيهم. وتذكروا محاولات الجنرال الفرنسي التي باءت بالفشل.

- لا تخش شيئاً يا صديقي، فأنا أسد، لكنني أحسن التخفي أيضاً في جلد ثعلب. وإذا كنت قد استطعت حتى هذه اللحظة أن أخاتل الإنجليز والفرنسيين والباب العالي، فإنني سأعرف أيضاً كيف أتصرف مع علماء الدين هؤلاء دون أن أصطدم معهم. كما أن عليك يا بوغوسيان بك أن تلاحظ بأن ثمة فرقاً جوهرياً بين محمد علي وبونابرت: أنا مسلم وهو لم يكن كذلك. وما دمت ابناً للإسلام، فإنني لست بحاجة كي أقدم لأبناء ديني حججاً على احترامي لدينهم. ولنمر الآن إلى موضوع آخر له الأهمية نفسها بالنسبة إلي.

خطا خطوات نحو خارطة لمصر مبسوطة على جدار، ووضع سبابته على نقطة محددة منها.

- إقليم الفيوم... يجب أن تغرس به ثلاثون ألف شجرة زيتون. ستمكننا من استخلاص الزيت الضروري لصناعة الصابون؛ إذ من العبث أن نستمر في استيراده. وأطلب أيضاً أن نقدم على تجريب دودة القز كي لا نبقى مشروطين

بسوريا في هذا المجال. وخير ما نفعله في هذا الجانب هو أن نستقدم مجموعة من السوريين وأن نمنحهم الوقت اللازم لينقلوا معرفتهم في هذا المجال إلى البدويين المصريين.

نقل سبابته إلى نقطة أخرى.

- أما إقليم الشرقية... منطقة رأس الوادي هذه، تلك الأراضي الممتدة التي كانت دائماً غير مأهولة، وبالتالي غير مستثمرة؛ فستقيمون فيها حوالى ألفاً من الساقيات التي تضمن الري. وبموازاة ذلك، سنبني قرىً؛ مساكن قادرة على إيواء ألفي فلاح على الأقل، وسنغرس بها مليون شجرة. ولْتُسْتَقْدَم إليها قطعان ماشية أيضاً. ثيران للحرث. يجب استقدام ما بين خمسة وستة آلاف ثور. أحب أن تصبح الصحراء ينبوع حياة وازدهار.

تدخل مدير الإقليم المعني محموقاً:

- سيدي، مشروعكم سيؤدي إلى إنتاج عظيم، غير أن تكلفته تحتاج إلى ثروة.

- لأي شيء تصلح الخزائن الملآى إن باتت بطن مصر فارغة؟ منذ أن توليت الحكم أصبح مردود خزينة مصر أعلى بمراحل مما كانت عليه قبلي. ليس على الدولة قرش دين واحد. لا تنتظروا مني أن أتصرف كما كان المماليك والأتراك يتصرفون: العيش في بذخ ورمي الفتات للكلاب. لقد حددت هدفي في البناء والتشييد والتجديد، وسأذهب في ذلك حتى النهاية.

أصدر تنهيدة قصيرة وواصل:

- بما أننا نتحدث عن الفلاحة، أستغل الفرصة للإشارة إلى نقطة أخرى؛ فمنذ بضعة أشهر تناهت إلي أصداء غير مفرحة: يحكم البعض بقسوة على وضعي يدي على الأراضي الفلاحية. هم يؤاخذونني على نظام دَوْلاتي ليس له - أعترف بذلك - مثيل في التاريخ. إن من ينتقدونني يجهلون طبيعة هذا البلد. إن مصر بلد فلاحي صرف، وهي فلاحة مشروطة بالنيل. وحدها إدارة جيدة يمكنها أن تضمن تشييد السدود ووضع القنوات الضرورية إن كنا نبغي إدخال أنماط فلاحية جديدة والحصول على مردود هام من التربة وتوسيع الأراضي الصالحة للزراعة على حساب الصحراء. والحال أن الشعب الآن،

وبسبب الجهل الذي تعمدوا تركه فريسة له، غير قادر تماماً على أن يفهم وجهة نظري هذه. قبلي، كان الجزء الأكبر من الأراضي في ملك الأتراك، وكانوا يجنون منها كل النفع دون أن يعيدوا توزيعه، بأي شكل من الأشكال، على البلد. ومحمد علي يطلب اليوم من الشعب تنازلاً سيدبر خيراته لمنفعته هو؛ غير أن هناك فرقاً جوهرياً: إن مصلحة الشعب هي مصلحة محمد علي.

* * *

لم تستطع الأميرة ليلى التحكم في دموعها رغم المجهودات التي بذلها كريم في سبيل ذلك.

- اهدئي يا روحي. أنت تسيئين إلى نفسك، اهدئي.

- فات الأوان. لقد حصل الأسوأ، علي العار والخيبة.

- أكرر لك أن محرم بك لن ينتبه إلى شيء. صدقيني.

- كيف تتصور أن يكون محرم بهذا العمى حتى لا ينتبه إلى أن من توجد بين ذراعيه ليست عذراء وإنما فتاة مدنسة.

- سنعثر على حل يا حبيبتي، أقسم لك. المهم هو أن تحتفظي بهدوئك.

جلست دافنة وجهها في الأريكة منخرطة في البكاء.

- اسمعيني. ليس لزوجك أي سبب كي يشك في أي شيء. إنه لا يأمل إلا في أن لا تخونيه، أما باقي - وتردد في النطق بالكلمة - التفاصيل، فيكفي أن نبحث عن شيء اصطناعي. تربطني علاقة جيدة مع خادمتك تسمح لي بأن أطلب عونها. ستعرف كيف تنصحني، أنا متأكد من ذلك.

رفعت الأميرة رأسها قليلاً وقالت بصوت متقطع بالنحيب:

- سأعترف لأبي بكل شيء. سأخبره بالحقيقة.

آتى كريم حركة تقهقر مرعوباً:

- أنت مجنونة.

- سيتفهم، سيفضل زواجي منك على العار.

- أنت إذن تريدين موتي.

لماذا؟ بمجرد أن يهدأ غضب والدي. . .

- سيقطعني إرباً إرباً. هذا ما سيقوم به. وفي أحسن الأحوال سينفيني أو

يسجنني مدى الحياة. آنذاك سيتحول مشواري وأحلامي إلى رماد. لا ينبغي القيام بذلك يا روحي. أستحلفك يا ليلى. وإذا كنت تحبينني، بأي شكل من الأشكال، عليك ألا تبوحي بسرنا بأي حال من الأحوال.

نظرت إليه بمرارة.

- السر لك والخزي لي.

وعاودت بكاءها.

* * *

أنهت شهرزاد تزيينها لعينيها بقلم الكحل بعناية، وتفقدت تسريحة شعرها الجديدة التي هيأتها لها زنوبة: شعر ملقىً إلى الخلف، مقسوم في ضفائر صغيرة تتداخل فيها خيوط حرير سوداء دقيقة تنتهي بهلالين ذهبيين صغيرين.

شكرت الخادمة.

- ها أنت أخيراً على صواب. هكذا أجمل.

- تريدين أن تقولي إنه رائع. أنت لم تكوني يوماً بهذا الإشراق.

تجاهلت شهرزاد الإطراء وتراجعت خطوة لتنظر إلى نفسها في المرآة. كانت ترتدي قميصاً فضفاضاً من ثوب موصلي أبيض مطرز بحرير فضي، يصل إلى أعلى ركبتيها، منسدلاً على سروال فضفاض هو الآخر، أبيض بدوره. وكان وسطها مشدوداً بشال من الكاشمير، منتعلة خفاً جلدياً.

بدت غير راضية عن نفسها، فمطت شفتيها متذمرة.

- لماذا، نحن النساء، علينا أن نتحمل كل هذه المعاناة كل مرة يكون علينا أن نختار فيها لباساً؟ كنت أجد هذه الكسوة رائعة عندما اشتريتها، وها أنا أجد نفسي فيها اليوم دميمة.

- سيدتي. قالت زنوبة. كيف تجرؤين على هذا التجديف. أنت جميلة مثل بدر في تمامه.

أسقطت شهرزاد ذراعيها باستسلام.

- على أي حال، العربة تنتظرني ولا خيار لي. لقد غيرت ملابسي ثلاث مرات ولن تتحمل قواي أن أقوم بذلك مرة أخرى. هذا حظ ماندرينو.

- على السيد ماندرينو أن يشكر الله على أن هيأ له رفقة وردة مثلك.

دون أن تجيب، أخذت من يد الخادمة خماراً كبيراً من حرير مصقول أسود، ادثرت فيه كلية تقريباً.

* * *

كان ريكاردوماندرينو يسكن عوامة بجزيرة الروضة. عندما وضعت شهرزاد قدميها على الأرض أمام الجسر العائم، كانت الشمس التي غربت ما تزال تلقي بأشعتها الليلكية على نبات الأسل.

تقدم الفينيسي الذي كان ينتظر أمام مدخل الجسر الضيق نحو المرأة مفرجاً ذراعيه.

- أهلاً بك يا ابنة شديد.

وقبل أن تجيب احتضنها وقبّل وجنتيها بحرارة.

- تعالي، ستكتشفين مغارتي.

بمجرد وصولها إلى المدخل، لاحظت أن الوصف الذي استعمله ماندرينو ينسحب جيداً على الديكور. ففي فوضى منظمة، كانت ثمة مصابيح برونزية وفضية تجاور مطرات سفر وشمعدانات منارة وسيف في غمده وجرار ضخمة من طين؛ وأبعد من ذلك في زاوية من الغرفة، ثمة نرجيلتان بشكلين مختلفين، تلقيان بظليهما على مائدة صنعت من حبل دقيق مفتول، عليها سبحات كثيرة من عاج. ورأت على الجدار معلقاً بساطُ بخاري من حرير يجاور صورة رجل منغولي. عشرات الكتب باللغة الإيطالية في مجملها، مرتبة على مدارج عالية إلى جانب العديد من التماثيل الفرعونية. وتتويجاً لكل ذلك، كان ثمة، في وسط هذه القاعة الرحيبة المستطيلة الطويلة والعالية، إسطرلاب فارسي بديع. جلست شهرزاد على أريكة مغشاة بالديباج.

- هذا مدهش. لم أكن أتصور أنك تعيش في هذا الجو.

أشارت إلى القطع الفرعونية.

- لم أكن أعلم أنك نهّاب قبور أيضاً.

- أبداً. هذه هدايا دروفيتي؛ فهو وهنري سالت، قنصل إنجلترا، يعتبران جامِعَيْ تحف عنيدين. كلما سمحت لهما الفرصة ينقبان هنا وهناك، وعندما يعودان يهديانى بعض القطع، الأقل قيمة بالتأكيد.

- مع كل احتراماتي لدروفيتي، فإنه من بين هؤلاء الناس الذين ما

انفكوا، منذ بعثة بونابرت، يسلبون مصر كنوزاً لا ثمن لها. وعلى أي حال، فقد حدثته في ذلك، بل وصل بي الأمر حد وصفه بالنهاب، الأمر الذي أخشى أن لا يكون قد راقه.

نظر ماندرينو إلى المرأة حائراً.

- كنت أجهل من قبل هذا الملمح «الوطني» فيك. وكي أكون صريحاً، فقد اعتبرتك دائماً بعيدة عن مشاكل البلد.

- لأنني لا أبدو متحمسة؟ أن نحب برصانة لا ينقص شيئاً من الحب. صحح خطأك. إنني أحب مصر بعمق دون أن أكون جاهلة بشيء من تشوهات الشعب.

- ما دمت أثرت الموضوع، ودون أن تكون لدي أدنى نية في الإساءة إليك، فإنني أجد هذا الشعب سلبياً، كسولاً، لا تبصُّر لديه.

- هل سبق لك أن عرفت شعباً قمع عبر العصور، وعمل محتلوه المتعاقبون على إبقائه في الظلام، ومُنع حتى من أن يأكل حد الشبع، واحتفظ، مع ذلك، بقلبه على كفه، وبالخصوص بالسخرية والضحك اللذين يميزانه؟ السخرية مهمة للغاية. إنني أفضل بلداً يجد في خضم بؤسه القدرة على الرقص، على أمة غنية ومتحضرة، لكنها حزينة. وعلى أي حال، فإن أحداً لن يفهم شيئاً عن الشعب المصري إذا لم يكن مقتنعاً بأن هذا الشعب يحيا وهو مؤمن بأن الخلود ملك يديه.

- أتكونين قدرية؟

- لنقل بأنني، عكس البعض، لا أجيد مواجهة وضعيات أَقَدِّر بأنني لا أتحكم فيها. قد يكون ذلك خطأ فيّ، فقد يكون ربما من الضروري أن نعرف أحياناً كيف نموت من أجل أفكارنا. أخي نبيل كان يعرف ذلك.

حرك ماندرينو رأسه قبل أن يسأل:

- هل تحبين الشمبانيا؟

- سأفاجئك. أنا لم أذقها في حياتي.

- هكذا إذن سأجعلك تكتشفين شيئاً جديداً. لقد أحضرت منها بضع قنينات من فرنسا.

ثم صاح:

- رشيد.
حضر على الفور رجل أسود عملاق. أصدر إليه ماندرينو بعض الأوامر. بعد لحظات عاد الرجل ووضع أمام شهرزاد صينية فضية عليها قنينة وكأسان من البلور.

بمجرد انصراف الخادم، أمسك الفينيسي بالسيف الذي لمحته شهرزاد منذ لحظة، وأمام أنظارها المدهوشة، تناول القنينة بيده اليسرى، وبضربة واحدة حادة مائلة، قطع عنق الزجاجة، ففاحت الغرفة برائحة منعشة، بينما سارع ماندرينو إلى ملء الكأسين.

- خذي، قال مع ابتسامة عريضة. آمل أن تروقك.
- إغفر لي جهلي. هل تفتح قنينات الشامبانيا دائماً بهذه الطريقة؟
- لا، اطمئني. لكنني أفضل هذه الطريقة. مسلية أليس كذلك؟
- مدهشة. المهم هو أن لا نوجد على حد السيف.

حملت الكأس إلى فمها ورشفت جرعة. أبدى ماندرينو اهتماماً.
- ما رأيك؟
تذوقت المشروب للحظة قبل أن تجيب:
- غريب.
- هذا كل ما لديك لتقوليه.
عنفت وهي ترى خيبته:
- أنت دائماً نافد الصبر يا ماندرينو. دع لي الوقت الكافي للتقدير.
أخذت جرعة ثانية، ثم سألت فجأة متوترة:
- هل رأيتها؟
فهم على الفور بأنها تقصد سميرة.
- لا. لكن لدي أخبار.
اجتاحتها حالة شبيهة بالحمى.
- ماذا تفعل؟ هل تزوجت من غانطوم؟
نكس ماندرينو عينيه. لم يكفّ طوال رحلة العودة عن التساؤل عما إذا كان عليه أن يخبرها بالحقيقة. وكان قد خلص إلى أنه لن يخبرها.

تنحنح وشرع يخبرها بكل ما علمه عن المرأة، متحاشياً الإشارة إلى صنيعه هو؛ أي المقدار المالي المقدم إلى لولوت.

- على أي حال، وفي آخر التحليل - قالت مع ابتسامة حزينة - لا يمكن القول بأن حملة نابليون كانت فألاً حسناً بالنسبة لعائلة شديد. إن غانطوم هذا لا يساوي قدر قلامة أظفر أكثر مما يساويه إمبراطوره. سميرة المسكينة...

وأمام خيبتها، قرر أن يعدل عن قراره وأن يخبرها بفعله الكريم الذي أخفاه عنها.

- عندما ستتوصل أختك بهذا المبلغ سيكون بإمكانها أن تفلت من بين مخالب ذلك الخسيس.

كان رد فعل شهرزاد تماماً كما خمنه.

- أشكرك على ما فعلت يا سيد ماندرينو. لكن هذا المال في ذمتي، وسآتيك به غداً.

كان على وشك المعارضة.

- لا. لا مجال هذه المرة كي أوافقك. لقد أضحى كرمك مقلقاً. السحلبيات والمجوهرات وهذه الحماقة الأخيرة. عندما يكون الأمر متعلقاً بي، قد يقبل، لكن بالنسبة لسميرة، أختي، فإنني سأعيد إليك مالك يا ريكاردو وإلا فإنك لن تراني بعد اليوم.

لم يجد، من مفاجأته من مناداتها له باسمه، شيئاً يعقب به غير:

- كما تشائين.

* * *

بمجرد اجتيازها عتبة قاعة الأكل، وقفت مشدوهة. كان التناقض مع القاعة الأولى جذرياً؛ فإذا كانت الأولى توحي بسوق جيدة التنظيم، فإن هذه كانت باذخة للغاية. كان الاختلاف ظاهراً أيضاً في الأثاث وفي البسط وفي الأدوات التي تزين المكان. كان كل ما تراه مستقدماً من إيطاليا أو من فينيسيا. فببضع خطوات تم اجتياز محيط بكامله. كان الديكور قد أسر انتباهها إلى درجة أنها لم تنتبه إلا لاحقاً إلى البيانو العاجي وعازفه الذي وضع أصابعه على الأزرار، إضافة إلى شخصين آخرين: عازف الفيولانسيل وعازف الكمان.

كانوا ثلاثتهم يعتمرون شعراً اصطناعياً أبيض وصدريتين بأزرار ماسية. كانت هذه اللوحة، في قلب القاهرة، وعلى النيل، تبدو كلوحة سوريالية.

اقتيدت، مفتونة، إلى المائدة التي وضع عليها غطاء بجمال نادر. وبإشارة من ماندرينو انبعثت موسيقى خافتة حالمة. موسيقى كلاسيكية على ما يبدو.

- هذا المكان بلسم لي ضد الحنين، صرح الفينيسي، وهو يأخذ مكانه قبالة شهرزاد. فبالماء الذي يحيط بنا، يحصل لدي الانطباع بأنني لست شديد البعد عن بلدي.

- وهؤلاء الرجال؟ يبدون وكأنهم قد خرجوا لتوهم من منحوتة. أين عثرت عليهم؟

- أحدهم من فلورنسا والآخران توسكانيان، تعرفت عليهم بالإسكندرية. هم جميعاً تجار بالتقسيط. أما الموسيقى فهوايتهم.

أبدت المرأة حركة خيبة.

- وأنا التي كنت أتصورهم قادمين رأساً من إيطاليا، فقط لإحياء هذه الأمسية.

- آسف يا ابنة شديد. لو كنت أعلم...

- الخطأ خطؤك على أي حال. لم أعد أتصور منك إلا سلوكيات خارقة.

أصدر ماندرينو ضحكة عالية.

- هذا ثناء لكنه خطير؛ فما دام محكوماً علي بمفاجأتك، ماذا سيحصل عندما يخونني خيالي؟

أفضل أن لا أفكر في ذلك.

- لا قلق لدي من هذا الجانب. ستجد السبيل إلى ذلك دائماً.

صمتت عندما كان الخادم يقدم الأطباق.

- منذ أن تعرفت عليك انتبهت إلى أمر كان غائباً عني حتى تلك اللحظة؛ انتبهت إلى أن هناك ثلاثة أنواع من الناس: بعضهم يملك ملكة الخيال لكن لا إمكانيات لديهم لتحقيق أحلامهم، والآخرون عكسهم. أما أنت فلك حظوة الانتماء إلى النوع الثالث. أهنئك على ذلك.

أبدى الفينيسي تقديره لكلامها بحركة من رأسه قبل أن يقول بهدوء:

- لا امتياز لي. فعندما كنت ما زلت طفلاً، كنت أرى دائماً بأنه يحسن أن نعيش أحلامنا على أن نحلم بأن نعيشها.
- غير أن هناك أحلاماً غير قابلة للتحقق، أليس كذلك؟
- أقول لك، محاذراً من أن أبدو مغروراً: لا يوجد حلم غير قابل للتحقق. لقد حصلت دائماً على ما أشتهيه.
- من بين ذلك النساء...
كانت قد قالت ذلك مازحة.
- المثال ليس مناسباً. الأمر أسهل بالنسبة لشخص مثلي.
تفحصته محاولة الكشف لديه عن الاستفزاز الذي قد يكون مصاحباً لقوله، لكنها لم تجد سوى ملامح جادة، هادئة. الظاهر أنه كان مقتنعاً بما قاله.
أعقب النبيذُ الشامبانيا. نبيذ سائغ معطر.
- نبيذ من فرنسا، دقق الفينيسي وهو يملأ كأس المرأة. رائع.
رفع كأسه.
- أنا سعيد بقبولك المجيء هذا المساء. حقق الله كل آمالك.

* * *

كانا قد عادا إلى الجلوس في القاعة الأولى حيث أحرق ماندرينو بعض قطع المسك. سرى الليل مع مناقشاتهما، وكان الموسيقيون والخادم قد انصرفوا. لم يكن ثمة سواهما، وفي الخارج النيل والليل المزين بالنجوم.
كان رأس شهرزاد - التي ما تزال تحت سحر العشاء الذي كان السمو ينضح من كل شيء فيه - قد شرع يغمغم من الكحول، وطفقت تحس بأنه يطفو منفصلاً عن جسدها.
رفضت أن يملأ ماندرينو كأسها من جديد.
- لن أستطيع الاهتداء إلى سريري.
ثم وهي تعمل على الانسحاب بفتور:
- على أي حال، فالوقت متأخر. علي أن أعود. هل يمكنني أن أعود في عربتك؟
- الآن؟
- ألا تكون تريد بقائي حتى الفجر؟

شرع يقترب منها خفية، حيث لم تنتبه هي إلى ذلك.
- لم لا؟ إن بزوغ الفجر على النيل منظر معجز في روعته.
هو الآن شديد القرب منها، يقرب كفه من شعرها.
- أعتقد أنك ربما تكونين أجمل بشعرك غير معقود.
التفتت فألفته قريباً جداً منها. تماسكت.
- مثل مجالسات الأمراء؟ الجسد والأظافر مصبوغة بالحناء؟ لقد صرت أعرف ذوقك.
أخذ كفها بين كفيه.
- من يدري؟ ربما كان ذوقك هو ذوقي، لكنك لا تعرفين ذلك بعد.
ألقت نظرة على أصابع ماندرينو.
- أخبرني عن سعيك الحقيقي. تريد أن تشبع رغبتك في مطاردة النساء؟ أم تكون قد استنتجت من ضعفي يومئذ على العربة أن بإمكانك أن تأخذ كل حريتك؟
تجنب الإجابة وسأل بدوره:
- وأنت يا شهرزاد، ما الذي تسعين إليه؟ أن تقاومي حقيقة قائمة؟ أين هي قدريتك؟ المكتوب... لماذا تريدين تجاهل ما هو كائن؟
افترت شفتاها ببسمة خفيفة.
- أجد في كلامك هذا تلك الثقة التي لا تصدق.
- لقد أحببتِ في الماضي، ولا تحاولي إعطاء الانطباع بأن البئر قد جفّت.
- وإذا أكدت لك ذلك.
- لن أصدقك. أنت لا تقدرين إلا على الحب. ولن تستطيعي العيش إلا بهذا الشعور. الحب ماء القلب، بدونه يجف ويذبل كما يذبل قصر الصباح إذا ما حصل للنيل يوماً أن يختفي.
- مع الفارق أن الفيضان يعود كل سنة، أما الحب فلا.
- من كان ذلك الرجل؟
ارتعشت من عنف السؤال.
- فيم ستفيدك معرفته؟
- لفكّ عُقَدِ بعض الخيوط.

هل هو الكحول؟ التعب؟ ليس باستطاعتها أن تحدد. صعد ببطء، في فكرها، حتى قدم إليها كريم والطابع الحرماني لقصتهما. وبمجرد انقشاع ذلك الإحساس، ألقت برأسها إلى الخلف شاردة.

- أترى كيف يمكن لصبر وانتظار امرأة عاشقة أن يكونا بلا نهاية؟ كان سيكفيك أنت ذلك كي تستسلم، أليس كذلك؟

لم يجب على الفور. ترك كفها وصب لنفسه بعض النبيذ. كررت سؤالها. وفجأة:

- رفضتِ باريس، هل تقبلين فينيسيا؟

تفحصته مدهوشة، جاحظة عينيها.

- أجل، قال بإصرار. هل تمنحيني سعادة مرافقتي إلى الأمكنة التي قضيت فيها طفولتي؟

ظلت صامتة. قال وكأنه يرتل:

- حتى البسمة لا تبتسمي إن لم تكن لك الرغبة في ذلك. والصمت يمكنك أن تلزميه إن كان الكلام يزعجك؛ وأن لا تحادثيني إلا عندما ترين ذلك مناسباً. لا شيء آخر.

الفصل السابع والثلاثون

كانت «الإمارة» تستعرض أمام عيني شهرزاد المشدوهتين. . . حلم من حجر وماء.

قال ماندرينو الجالس في مؤخرة الجندل الذي يمخر البحيرة:

- المدينة الأكثر أنوثة في العالم. إنها عذراء. الآن يمكنني أن أقول لك بأنه لم يكن لي، غيرها، من مُسَامِرٍ.

كانت الشمس، في نزولها الحثيث نحو البحر، تترك خلفها آثاراً بستيلية تعم القباب والقرميد الأسمر. هذه هي فينيسيا المولودة من لا شيء؛ من طمي البحر وزبده. فينيسيا الرقيقة المؤثرة.

عبر الجندل قناة دي سان ماركو، ممكّناً في لحظة خاطفة، من رؤية الساحة التي تحمل الاسم نفسه.

- قصر الدوق، علق ماندرينو. كان هذا هو مركز قوتنا. هنا كان يحكم «الدوتشه» سادة جمهوريتنا.

- والتي قدمت أسرتكم لها وحدها ثلاثة.

تفحصها الفينيسي مشدوهاً.

- كيف عرفت؟

- أعرف أموراً أخرى أيضاً. ألم يكن أجدادك من ضمن من كان يطلق عليهم نبلاء الأرض الصلبة؟

- تابعي. . .

- هذا يكفي اليوم. لا أريد أن يفوتني شيء من هذا المنظر.

تركت الرجل في حيرته وقصرت اهتمامها على روعة المنظر. كانا قد

تجاوزا لتوهما أول انعطافة في قناة غراندي، وبعد قليل ستظهر غاليريا دي أكاديميا.

- انظري، قال ماندرينو. ها هو ذا أثر لصديقنا بونابرت. كانت هذه البناية ديراً فحوَّلها، منذ أكثر من أربع سنوات، إلى معهد لإعداد الرسامين والنحاتين. ها أنت ترين بأنه لم يكن بالسلبية التي نظن.

ثم أضاف:

- ليس لنا نيل، لكن لا تنقصنا الجسور. أربعمائة جسر تحديداً، لمائة وسبع وسبعين قناة. ألا تغارين؟

- بلى، للأسف. كيف لا يمكننا أن نشعر بالغيرة أمام جمال مثل هذا؟

- ومع ذلك، فما عادت فينيسيا كما كانت. الجنويون والأتراك والفرنسيون ركعوها. هي اليوم قطعة معادة إلى الملكة الإيطالية. لكنها قد تكون غداً، ربما، تحت الوصاية النمساوية. عندما أفكر في أن إمبراطوريتنا كانت تمتد من عكا إلى تسالونيكي، وأننا كنا نملك دوقية اليونان وكريت وقبرص وموري...

- هناك تشابه في العمق بين مصير فينيسيا ومصير مصر. إنْ هما إلا فريسة تتنازعهما القوى العظمى.

ابتسم ماندرينو.

- صورة مصغرة من مصر.

كانت الشمس قد توارت خلف الأفق، وكان الهواء سائغاً. لم تعد واجهات المنازل البنفسجية تنعكس بوضوح على ماء قناة غراندي. بعد ممر صغير ضيق خال، ظهرت حديقة وافرة الزهور.

كم هي بعيدة القاهرة، بجفاف صحرائها التي كانت مهداً لكينونة شهرزاد. المدهش أنها ما عادت تعرب عن أي شك، عن أي تبكيت للضمير مما كان يعذبها بقوة قبل مغادرة الاسكندرية. لكن هل كان لها وقت للتفكير؟ كانت الأحاسيس تتناوب على خلدها، مانعة إياها من الرجوع إلى حالتها الأولى. في البداية، كانت ثمة السفينة أسبيريا التي بسطت أشرعتها المدورة فور مغادرتها للميناء؛ ثم البحر الذي لم تره منذ طفولتها؛ وتلك العاصفة التي هبت يوماً دون سابق إنذار، قاذفة بوابلها على السفينة، والتي فوجئت بأن استشعرتها

كلحظة سعادة؛ وذاك الليل الرائع بسمائه البحرية التي ذكرتها بتلك التي تغشي، خلال بعض الأماسي، حديقة الصباح؛ وأخيراً أبواب الأدرياتيك التي توجد في نهايتها مدينة ماندرينو.

لم يكن في سلوك الفينيسي خلال كل مدة الرحلة، كما وعد، ما يشين. لا حركة ولا كلمة غير لائقة. لا شيء مما قد يغيظ شهرزاد ويجعلها تندم على الموافقة على ما كانت تعتبره، رغم كل شيء، حماقة.

انتزعتها جلبة قوية من أفكارها. كان الجندل قد رسا بجوار جسر عائم صغير.

- لقد وصلنا، أعلن ماندرينو.

كانت هناك مجموعة من المنازل متداخلة فيما بينها، مصطفة على طول القناة التي كانت أولى الفوانيس قد شرعت تنيرها.

- أيّها منزلك؟

أشار الفينيسي بإصبعه إلى بناية مضغوطة بين بنايتين أقل قيمة. كان ما أثار انتباه شهرزاد، على الفور، هو الواجهة القوطية المغشاة كلية، تقريباً، بالمرمر والمزينة بالأعمدة والشرفات المنقوشة بحذق.

ساعدها ماندرينو على النزول فوق الجسر. وبعد تبادله بضع كلمات مع صاحب الجندل، دعاها إلى السير في أثره.

كان شعار نسبٍ يبدو بارزاً على ساكف الباب، لوزي الشكل، مع - على عمق لازوردي - فرس متحفز مذهب العرف.

- هذا شعار العائلة، والفرس يجسد رمز ثورة الثروة.

- واللون اللازوردي؟

- ربما لن تصدقيني. إن له علاقة مباشرة بالشرق. فمن ثمة كان يستقدم، قديماً، اللون الأزرق المسمى «لازورد». وبما أنه كان الأندر والأبهظ ثمناً، فقد كان من الطبيعي أن يكون اللون المهيمن في الشعارات.

كان خادم بلباس خاص قد فتح الباب. سلّم على القادمين بحرارة واختفى فاسحاً أمامهما الطريق.

عندما همت شهرزاد بالدخول، استرعى انتباهها تفصيل غريب؛ ففوقها،

في منتصف الواجهة، كان مثبتاً تمثال من صخر يمثل ملاكاً، في كفه كرة فوقها انتصب صليب.

- هل هذا تمثال لك؟ قالت شهرزاد.

أجاب تقطيب جبين ماندرينو عن سؤالها.

- تلك قصة قديمة، ولا أدري ما إذا كان علي أن أحكيها لك. قد لا يغمض لك جفن من سماعها.

أصرّت.

- طيب. لقد حذرتك. منذ زمن طويل، منذ أكثر من قرنين بالتأكيد، كان يعيش هنا أحد أجدادي اسمه جوزيبه ماندرينو، وكان محامياً. كان يملك قرداً مدجّناً، كان مدار اندهاش وحب الجميع. وذات يوم كان جوزيبه قد استدعى للعشاء «فرا ماتيو دا باسيكيو» القس المهيب المعروف بورعه. وبمجرد وصول القس، وأمام اندهاش المدعوين، كان القرد قد اختبأ. وعندما تم العثور عليه رفض أن يغادر مخبأه مكشراً عن أنيابه، في قمة الغضب. استشعر القس سبب هذا الغضب المفاجئ. صُحبَ إلى مخبأ القرد فأمره، باسم الرب، أن يقول من هو. فاعترف القرد لحظتها بأنه جنّي وأنه كان هنا ليمسك روح الشقي غيوسيبي.

حبست شهرزاد صرخة صغيرة.

- أنت تمزح.

- أحكي لك القصة كما حكاها لي آبائي. هل أتابع.

سارعت بأن أجابت نعم.

- أجاب الجنّي عن أسئلة القس، مفسراً بأنه لم يستطع بعد إنجاز مهمته لأن جوزيبه كان قد اعتاد كل مساء على أداء صلاته. ولو كان نسي للحظة أن يقوم بذلك لكان قد أنجز مهمته الإبليسية. آنذاك قام الراهب بحركة صليب كبيرة وأمر الجني بالاختفاء، فاندفع هذا الأخير في جلبة عظيمة وسط أدخنة كبريتية على الجدار واختفى من ثقب أحدثه فيه.

أشار ماندرينو إلى التمثال.

- بالضبط من هنا. وعندما عاد فرا ماتيو إلى قاعة الأكل، فتل هدب غطاء مائدة فسال منه دم؛ فصاح في وجه جوزيبه المسكين: «هذا دم الفقراء

الذين استغللتهم. أعد إليهم ما أخذته منهم إن شئت لروحك أن تأخذ شكلاً آخر.»

ومن نافل القول أن جدّي قد تغير منذ تلك اللحظة تغيراً كلياً.

- لكن. . . لماذا الملاك؟

- وضع التمثال هناك لإخفاء الثقب الذي فتحه الجني في الجدار، والذي لم يفلح أي بناء في إغلاقه باللبِن والجير.

وعندما لاحظ حيرة شهرزاد تساءل:

- أما تزالين مقررة اجتياز عتبة البيت؟

- إذا ضمنت لي أنه ما عاد بالداخل قرد.

أطلق ماندرينو ضحكة عالية، بينما أضافت هي:

- أنا أفهم الآن كرمك الذي يقترب من الجنون. إن ما يحركك ببساطة هو الخوف من الجني ومن المعاناة من مصير جوزيبه نفسه.

آتت حركة صليب ودلفت إلى البيت.

* * *

كان الفينيسي محقاً إذْ حذرها من مخاطر الأرق. لم تكف منذ ساعتين عن التقلب في السرير الرحب ذي القبة، ساعية إلى النوم. هي الآن مستلقية على ظهرها شاخصة ببصرها إلى السقف الذي لم يكن بإمكانها يوماً أن تتصور له مثيلاً: مصبوغ عن آخره مزين برسومات من جص رائعة تمثل، حسب ماندرينو، زفاف جدين قديمين أقيم من قرن مضى.

لكن ليست قصة القرد الجني فقط هي ما كان يحول دون نومها؛ كانت ما تزال شديدة التأثر بكل ما اكتشفته داخل القصر؛ نعم، لقد كان الأمر متعلقاً بقصر بالفعل.

بعد عشاء في قاعة طعام بدت وكأنها قد خرجت لتوها من حكاية عجائبية، كان ماندرينو قد صحبها في جولة مبهرة: عشرات الغرف أرضها من موزاييك وحجارة نادرة وقطع من عرق اللؤلؤ؛ ومدفآت من مرمر فوقها تماثيل رائعة؛ وأبواب مرصعة.

رأت على التوالي بئراً من برونز ومثبات عجيبة؛ وسلماً مذهباً ذا درابزين مجاوَراً بصور فائقة الرقة؛ وقاعة رقص مدوحخة محاطة بالأفاريز؛ وأروقة بنوافذها

ذات الأبعاد الفنية؛ ثم المكتبة الباهرة المزينة بسلسلة من مناظر فينيسيا تصل حساسيتها حد تغير ألوانها وأجوائها بحسب تغير مختلف لحظات النهار؛ وقاعة «قلوب الذهب» التي تستمد اسمها، حسبما يقول ماندرينو، من وجود قلبين بازين مذهبين معلقين على أحد الجدران. مئات اللوحات الفنية لفنانين تسمع أسماءهم لأول مرة: تيتيان وتنطوري وبييطرو ليبيري. بعد ذلك تسلقا سلم العظماء في ظل تمثالين يجسدان، كما قيل، آلهتين رومانيتين.

وفي الأخير، ثمة الطابق الشرفي بخارطتيه الخارقتين المذهبتين واللتين تمثلان المناطق المعروفة من العالم. كانت قاعة الصور الشخصية تجاور قاعة «الأبواب الأربعة» المفروشة ببسط ثمينة وبأثواب نادرة. قاعات أخرى كثيرة، وثروات أخرى متعددة. غير أن ما كان يضفي سحراً على المكان، أكثر من باقي المكونات، هو تلك الإنارة التي تصدرها مئات من ثريات الـ«مورانو»، والتي تركز وتحلل الظلال حسب توجه الهواء، والتنفس، مستجيبة حتى لخفقة قلب.

غير أن المسؤول الحقيقي عن أرقها يبقى هو مالك هذا المكان السحري: ريكاردو ماندرينو. فكلما اقتربت منه، شعرت بتهاوي الحواجز التي أقامتها حولها بأناة طوال السنوات التي مضت. جاذبية شيطانية (وهي صفة مناسبة للحظة) كانت تنبعث من هذا الشخص. كان أمراً خارقاً، أنه استطاع في هذا الزمن الوجيز أن يحطم كل دفاعاتها وأن يحوّل شعور الرفض إلى شعور انجذاب. والأغرب من كل ذلك، أن هذا التحول في المشاعر قد تم بالرغم منها تقريباً. إن ما أصبحت تعرب عنه تجاه الفينيسي لا يمكن تسميته بالحب، لكنه شديد الشبه به.

كان النهار قد بزغ منذ مدة عندما انتزعتها دقات ملحاحة على الباب من نومها.

قالت:

– انتظر.

سحبت عليها الملاءة الحريرية.

ظهر ماندرينو حاملاً صينية.

– فطور فينيسي. فكرت للحظة في الشمبانيا، لكنني فكرت في أنك قد تدمنين عليها.

- كحول في الصباح؟

استنشقت باستمتاع رائحة القهوة الدافئة، وهو يضع الصينية على جانب من السرير.

- هل تكون بمثل جودة قهوة مصر؟

- أحسن بالتأكيد. وإذا أردت رأيي فإن ما تسمونه أنتم في مصر قهوة ليس سوى خليط فيه من الأكل أكثر مما فيه من الشراب.

- انتقد يا صديقي. انتقد حتى لا يبقى لك وقت لتجيلني في مدينتك.

- آسف، لكنني أنا الذي أفرض القانون هنا. أنت بعيدة آلاف الأميال عن أرضك؛ أنت تحت رحمتي.

- أتدري بماذا كنت أجبت أبي عندما كنت ما أزال طفلة، وكنا نمزح فقال بأنه سيبيعني؟ قلت له: «لم تولد بعد أمٌّ من يستطيع دفع الثمن». وهو الشيء نفسه بالنسبة لمن يتصور أن بإمكانه أن يضع شهرزاد تحت رحمته.

- كلامك يمكنه أن ينطبق على الأموات، لكنه لن يكون كذلك بالنسبة إلي. هل علي أن أذكرك بقصة جوزيه وقرده؟

- أرجو بهذه المناسبة أن لا تكون قد نسيت أداء صلاتك.

ابتسم وهو يستعد للقعود على حافة السرير، لكنها أوقفته بصرامة:

- ستبقى هنا؟

- سؤال غريب.

- يبدو أنه من الصعب عليَّ أن أشرب قهوتي ممددة.

تفحصها ولاحظ عري كتفيها ففهم أنها قد نامت عارية.

- ليكن. أليس لديك لباس منزلي؟

أشارت إلى أريكة في جانب من الغرفة.

- توجه نحوه هادئاً، فأخذه ومده إليها.

- خذي.

- والآن...

دعته بحركة إلى النظر للجهة المقابلة.

- ألا ترين بأنك تبالغين؟ ما منع على يدي سيمنع أيضاً على بصري؟

ألقت عليه نظرة حادة.

-ماندرينو. هل نسيت وعدك؟
حاولت مفاجأته وانتزاع اللباس من يده، فلمست أصابعه دون قصد. كانت كما لو لمست لهباً غير مرئي. وربما كان اللهب أقل إحراقاً. عندما أزاحت كفها تجمدت شاعرة بأنها على غير ما يرام.

- هذه اللعبة مثيرة للسخرية، قالت بصرامة غير مؤكدة. هيا كف عن التصرف وكأنك طفل.

استمر يتأملها دون أن يجيب. رمى اللباس بلا مبالاة إلى الجهة الأخرى من الغرفة.

هددت:

- لن ينتهي كل هذا بخير.

وفي عدم انتباهها دفعت بالصينية التي ارتطمت بالأرض مصحوبة بجلبة انكسار خزف صيني.

أمسكت كفُّ ماندرينو بقذالها، مانعاً إياها من الفرار.

- لن تنفعك المقاومة في شيء يا ابنة شديد. لقد قلت لك ذلك؛ أنت هنا تحت رحمتي.

عندما حاولت التخلص منه، تمطى جسده الضخم فوقها ضاغطاً بصدره على ثدييها اللذين لا يفصلهما عنه سوى ثوب الملاءة الدقيق. ضغطت كفاه على معصميها وأرغمها بحركة قوية على إفراج ذراعيها في شكل صليب. أرادت أن تصرخ، غير أن صرختها ظلت حبيسة أعماق حنجرتها، مختنقة من الخوف ومن ذلك الاجتياح الذي شرع يستولي عليها.

في خضم صراعهما، تقاطعت، في لحظة خاطفة، نظرتاهما، فخالت أنها قد قرأت في عينيه ما دوخها. كانت الملاءة قد انزلقت وما عادت تستر سوى جزء من جسدها، فدهش ماندرينو مما رأى. ما رآه أجج رغبته: سمرة بشرتها ولون الشفتين القرمزي والثديان العاجيان المزينان بأوردة لازوردية. قرر أن يصبح سيداً لكل ذلك.

- لماذا المقاومة؟

كان صوته قد اندلق مثل حمم بركان، مولداً في أعماقها ذلك الإحساس الذي انتابها أشهراً من قبل فوق العربة.

أضاف بهدوء:

- ألا تعرفين بأن الحريق يكون أقوى عندما تؤججه الرياح؟

كم هي سطوته مطمئنة ومرعبة.

ربما كان ذلك الخليط من الإعجاب ومن الشبق، من النهم ومن الهذيان، هو ما صرخ فيه بأنها، بين ذراعيه، منذورة للاستجابة.

ارتخت بشكل مفاجئ وأفرجت فخذيها بهدوء كي تمكنه من أخذ مكانه بينهما.

أما ماندرينو، من جهته، فقد بدا مثل أسد يعبث بفريسته، وربما شعوراً منه بفوزه، تنحى قليلاً وشرع يتأملها، لكن هذه المرة بإهاب جديد مترع رغبة.

سمعته يقول، وقلبها يعدو في صدرها، بصوت بالكاد مسموع:

- من سيتحدث عن حبي ويدافع عنه؟

خلع ملابسه بروّية.

* * *

كانت رقة لسان ماندرينو تلعق حميميتها، كفاه القويتان تضغطان وركيها دافعتان بهما إلى التموج ضد شفتيه اللجِيمَتين حتى تكون هي، شهرزاد، في هذا الوضع، التي تفرض إيقاعها الخاص.

كانت تهتز مثل سفينة على موج، حرة وجفناها مغلقان، متخلصة بالتدريج من كل فكرة أخرى غير البحث عن قمة اللذة، تلك اللحظة السامية التي ظلت أسيرة حتى هذه اللحظة، مصادَرةً من طرف من ضاجعاها قبل ماندرينو.

لم يصدر منه لا تسرع ولا حركة في غير موضعها. فقط تبادل في منتهى التكافؤ وتناغم حسي كل لمسة فيه تعِد بأخرى أكثر إثارة. عندما يلمس ما بين فخذيها يعتمل كل جزء من جسدها، وعندما يدغدغ بأسنانه حلمتيها الصلبتين، فكما لو لمس ما بين فخذيها، وعندما يضرب وركيها بقوة، كان يتلقى الأثر ساقاها وبطنها وجيدها. كانت تنفعل لكل حركة منه، سواء أكانت حكيمة أم رعناء. وعندما أرغمها على الجثو على الأغطية، ممسكاً بقذالها حتى يسحبها نحو عضوه، شعرت من هذا الوضع، الذي لم يسبق لها أن ضوجعت به من قبل، بلذة مدوخة، مقتنعة بأن ضمن الخضوع قد تندلع الشهوة.

كفاه الآن تعلوان كليتيها وتدركان بطنها. تقوست قليلاً فاتحة ما بين

فخذيها أكثر، مرتدة بفمها نحو شفتيه كي تهبه كليةً فرجَها المبلل، أنفاسهما متقطعة. بعد حين ستدرك قمة اللذة مصحوبة بانفعال شديد، مع طفاح مياه النهر الملكي في عز يوليو.

* * *

- سأبقى محتفظاً بك على قيد الحياة لبضعة أيام أخرى. ثلاثة أيام بالتحديد. حتى يوم الأحد.

بدت شهرزاد وكأنها لم تسمع كلامه. كانت ما تزال ممتلئة به، حواسها مشبعة، مهدأة. ظلت شاخصة ببصرها إلى السقف. كم من الوقت ظلا على هذه الحال؟ كل ما تعرفه هو أن الفجر قد شرع ينير الأعمدة والكنائس.

مسد جبهتها بلطف.

- تبدين شاردة.

كيف، وبأية طريقة يمكنها أن تعترف له بما تشعر به؟ هل تعترف له بأنها قد أدركت لذتها لأول مرة؟ قد يبتسم، ربما، من ذلك، لكن ما يحول دون اعترافها ليس بالتأكيد هو رد فعل مثل هذا، بل بالأحرى، الخوف من أنها إن اعترفت له بالإخفاقات السابقة، لن تفعل إلا أن تزيد من ثقته بنفسه الزائدة أصلا. وهذا ما لم تكن تريده. إن سطوته عليها كان أمراً مؤكداً.

عادت إلى نفسها وسألت مراوغة:

- لماذا الأحد؟

- لدي بعض المشاريع ستفاجئك على ما أعتقد.

تساءلت بملامحها.

- لا تقلقي. أمور عادية. أريد فقط أن توافقي على ارتداء كسوة خاصة بالمناسبة.

قطبت حاجبيها.

- يبدو التماسك غريباً. عن أي كسوة تتحدث؟

- ستعرفين في الوقت المناسب. لكن هل تعديني بارتدائها؟

- ولم لا؟ لكن شريطة أن تناسبني، طبعاً.

عقّب دون أن يتخلى عن طريقته الغامضة في الحديث:

- ستروقك، أنا متأكد من ذلك.

تمدد على جانبه، فانكمشت بتلقائية إلى جانبه مثل كلبة صيد، وسمحت له بأن يحتضنها دون أن تبدي أي اعتراض.

كانت قد أضحت، فجأة، أنثى حمل بلا حماية.

* * *

بعد ثلاثة أيام، يوم الأحد المعلوم، قادها خلال غالبية ساعات المساء، عبر متاهة الأزقة. مئات الطرقات تتعرج عبر المدينة لتضيق حول قصر «الدوتشه». يورانو وطورسيلو وسانتا ماريا أسونتا والكادورو؛ كلها أسماء ساحات وقصور ومعالم تصدي مثل ألحان. شعرت بنفسها خارجة عن أطوارها عندما وصلا إلى «بيازا سان ماركو»، فانتظم نبضها على إيقاع ساعة البرونز المعلقة في قمة المنارة البنفسجية. حدثها عن تاريخ مدينته وعن حياة بعض الشخصيات التي كانت قريبة من عائلته. علمت أصول بعض الحدائق والمذابح المنارة على زوايا الجسور وأيكة الأشجار التي علت على سور وردي اللون. كان يتوقف عند أبسط التفاصيل، حتى قرعة الحزن التي كانت تُقرع عبر دقات منتظمة بـ«شييزا دورو» مستحثة الفرسان على تسريع خطوات مطاياهم.

لكن، وبعد كل شيء، فإن هذا اليوم مطبوع، بالنسبة إليهما معاً، بسيادة جو حسي بينهما. كان قد أصبح كل شيء بالنسبة لشهرزاد - احتكاك أكفهما، رفرفة جفن، كلمة، رائحة عطر - ذريعة لاندلاع الشهوة. حتى لو كان أمسك بها في زاوية طريق، أو في مكان معتم من وقال، لكانت استجابت راضية، على شاكلة مجالسات الأمراء اللواتي طالما احتقرتهن. كانت تقول لنفسها، أحياناً، بأنها قد فقدت عقلها.

لم تكن هناك حدود لتلك الرغبة في اللذة التي ولدها فيها. كان يبدو وكأن ماندرينو قد أزاح شاهدة قبر وحرر روحاً عطشانة من ألف سنة من التيبس.

بالكاد سمعت ماندرينو يعلن بأن وقت العودة إلى البيت قد أزف.

اقتادها بسرعة فاجأتها إلى غرفتها. كانت الكسوة هناك، موضوعة على السرير. كانت بمثابة لطخة لازوردية تطبع الغرفة، مطرزة بالذهب وبجواهر غاية في الرقة.

- ها هي، قال مع ابتسامة واسعة. أعتقد أنها ستناسبك.

تلمست الثوب مبهورة، مع كل الاحترام الواجب لتحفة مثل هذه، واعية أيضاً بأن أناملها لا تلامس ثوباً وإنما عملاً فنياً. قربتها من صدرها. لكن لماذا تسر إليها غريزتها الأنثوية بأن هذه الكسوة قد ارتداها أحد قبلها؟

– مرة واحدة، قال دون أن ينتظر السؤال، وارتداها أحد أعز الناس إلى قلبي.

– لماذا تريدني، في هذه الحال، أن ألبسها أنا أيضاً؟ أنا لا أفهم.

– ستعرفين ذلك، ضعي ثقتك في. وعلى أي حال، ألم تعديني؟

– قل لي على الأقل ما الذي يقتضي ارتداء لباس بهذا البذخ؟ مناسبة؟

– بالأحرى، حفل. حفل جدير بلباس مثل هذا. سيحضره كل أصدقائي بفينيسيا.

تفحصته مشككة، وقد أضحت فجأة مترددة.

– أرجوك. ألح ماندرينو. مكّنيني من هذه المتعة.

– أين سيجري هذا... الحفل؟

– إذا قلت لك قصر «كامبو سانتي جيوفاني إي باولو» هل سيعني لك ذلك شيئاً؟

– هذا كل ما في الأمر؟

– حتى الساعة.

وافقت وإن كانت لم تقتنع كلية بتفسيره. إلا أن هذه الكسوة كانت رفيعة للغاية...

– هل يمكنك أن تكوني جاهزة في غضون ساعتين؟

رمته بنظرة مترعة سوء فهم.

– على حسب...

ومن الغريب أنه قد تظاهر بعدم استقبال الرسالة.

– سأستغل هذا الوقت للقيام ببعض الشؤون التي تنتظر، وسآتي لآخذك.

عاكسها رد فعله، فظلت تتفحصه حتى أغلق الباب خلفه. منذ الصباح بدا مختلفاً. كان نوع من التوتر جاثماً على ملامحه، طبع حركاته وحتى نبرة صوته ببعض التذبذب. كان هذا السلوك من شخص طافح دائماً بالثقة، يثير بعض المفاجأة. ما الذي يحصل إذن حتى يؤثر فيه إلى هذه الدرجة؟

تهالكت على السرير، ضامة اللباس إلى صدرها، وهي تجهد نفسها في التخلص من هذا القلق الذي شرع يجتاحها.

* * *

كان الكامبو سانتي جيوفاني إي باولو غاصاً بالناس. كانوا متحلقين، نساءً ورجالاً من كل الأعمار، حول التمثال المتخيل للقائد المرتزق كوليوني، والنافورة.

كانوا جميعهم يشكلون جمعاً فاتناً من الألوان والأضواء؛ لابسين أفخم ملابسهم تلتمع حليهم مع كل حركة يد ومع أي تحرك للجسد. خاطبت شهرزاد نفسها، عندما وصلا، بأن ريكاردو ماندرينو كان على حق هذه المرة أيضاً. جعلها هذا الجمع تتذكر على الفور إحدى اللوحات التي لمحتها وهي تعبر إحدى الصالات بقصر ماندرينو. الألوان نفسها والأجواء المتلبدة والمبتهجة نفسها، الصارمة والمنبسطة.

بمجرد ظهورهما في الكامبو، التفتت إليهما كل الأنظار دون استثناء. وسرعان ما أصبحت شهرزاد نقطة جذب الجميع. لكن يجب القول بأنها بلباسها اللازوردي المذهب، وبشعرها الأسود المنسدل على كتفيها العاريين، وبعينيها الكبيرتين المكحلتين، كانت تذكر بتلك الآلهات الوثنية التي توجد تماثيل لها في البيوتات الغنية لهذه المدينة.

ضغطت، خجلة، بقوة على ذراع ماندرينو.

في اللحظة التي أدركا فيها قدم تمثال القائد المرتزق، علت التصفيقات مصحوبة بصيحات التحايا، حتى بدا لكأن المكان يهتز من وقع حركات وأصوات الحبور.

- من يكون هؤلاء الناس؟ وشوشت شهرزاد منبهرة.

- أصدقاء يعربون لنا عن تعاطفهم.

انضافت إلى صيحات وإشارات التحايا نغمات آلة المندولينة. كان ثلاثة موسيقيين بملابس غريبة قد شرعوا يعزفون وهم يتقدمون نحوهما، في الوقت الذي تقدمهم رابع بخطوات راقصة.

- أترين؟ قال ماندوينو. نحن أيضاً لنا موسيقانا.

عندما لاحظ انذهالها ربت على ذراعها بحنو.

- لماذا كل هذا الفزع يا ابنة شديد؟ أكرر لك بأن هؤلاء أصدقاء.
كان أشخاص قد سارعوا ليتحلقوا حولهما محيين بحركة أو مادين أكفهم للسلام بحرارة. ومن الريو دي مديكانتي الذي يمر بجانب الكامبو، كانت تصعد أصوات أصحاب الجنادل العابرة.
- ستكون أنت محمد علي وأنا ملكة مصر، ولا شيء آخر غير ذلك.
- لنتخيل هذا المساء أنك ملكة فينيسيا وأنا عاشقك المتيم.
قادها، دون أن تنتبه، إلى أسفل سلم بناية من حجارة وردية. في الأعلى كانت تنفتح باب مدهشة من مرمر. وفجأة، أصبحا لوحدهما. هي وماندرينو. وشوش:
- كنيسة سانتي جيوفاني دي باولو.
صمت للحظة، ثم:
- قلت لك إننا سنكون هنا من أجل حفل. لقد كذبت في الواقع. الأمر يتعلق بقران.
- قران؟
- أجل يا شهرزاد.
صمت من جديد.
- قراننا.
ثم كرر بصوت مرعد في خفوته.
- قراننا نحن. زواج شهرزاد المصرية من ريكاردو الفينيسي.
ما الذي يحصل فجأة؟ هل هي الآن، مرة ثانية، ضحية جنونها؟ هل جعله تجديده للقائه بمدينته يفقد صوابه إلى هذا الحد؟ أم أن كل هذا ليس سوى لعبة؟ غير أنها، حتى في اللحظات التي كان يضاجعها فيها، لم تكن رأت فيه تعبيراً مثل هذا. لم يسبق قط لنظره أن كان بمثل هذا الاشتعال. كان يبدو وكأن شمس مصر وهجير بيدائها قد اجتاحاه دفعة واحدة.
قالت بصعوبة:
- أنت تمزح يا ريكاردو.
- أنا جاحد. لقد أعطيت دون أن آخذ، وأخذت دون أن أعطي. لقد أضعت أياماً بدون جدوى. لكن كل شيء ينتهي اليوم على قدم هذه الكنيسة.

اقبلي بي وسأجعل منك أسعد امرأة على الأرض. بقولك نعم ستمحين كل النساء، لأن لا أحد غيرك سيحظى بعد ذلك بالعناية وبالتبجيل.

كان صوت المندولين قد انقطع ووقف الموسيقيون مسمرين. لم يكن عاد من صوت يسمع غير الارتطامات الفاترة لماء القناة.

بللت الدموع عيني شهرزاد. وعبر نظرتها المغممة، كانت ترى ماندرينو رؤية غير واضحة، مشوشة. كان جاداً. الأمر لا يتعلق بلعبة. قد تكون ربما ضحية جنونها، لكنه جنون من النوع الذي يُخضِع العقول الأكثر رصانة.

وجدت في نفسها القوة لتوشوش:

- أنا... أنا لا أدري ما إذا كنت أحبك.

- ستحبينني، ستحبينني لأنك قد أحببتني سلفاً، من قبل، منذ الأزل، قبل حتى أن نلتقي. هذه أمور تتجاوزك، لكنني أنا قد عرفتها دائماً.

أحست أن فينيسيا حولها تخر خفية بكل كاتدرائياتها وساحاتها وقصورها.

عبرت مجموعة نجوم ذهنها؛ أبوها ونادية وميشيل وكريم؛ حشد من الأشباح والذكريات يعبر في جلبة صاخبة، بسرعة وبقوة، إلى درجة أنها قد أفلتت منها رغم المجهود الجبار الذي بذلته لتحتفظ بها.

- أتريدين الاقتران بي يا شهرزاد؟

انعقد بطنها.

- أجل... تمتمت. أجل يا ريكاردو، أريد.

الفصل الثامن والثلاثون

١ مارس ١٨١١

كانت شهرزاد تراقب، عبر المشربيات، مقدم الشفق الذي كان يكسي ضواحي الصباح باللون الوردي.

كانت قد عادت منذ ما يقارب الشهر من فينيسيا، وما تزال عاجزة عن إقناع نفسها بحقيقة وضعيتها الجديدة: الست ماندرينو. كان اسمها الجديد يصدي بطريقة غريبة في أذنيها، بسبب نبرته الغربية من دون شك. كان كل شيء قد مر بسرعة فائقة. تذكرت الشعور الذي انتابها عندما كشف لها بأن الكسوة الرائعة لم تكن سوى الكسوة التي ارتدتها أمه يوم زفافها. كانت ذكرى إمارتهم القديمة قد أضحت مثل حلم بعيد. أيَّ قدرة يملكها هذا الرجل حتى استطاع في زمن وجيز أن يغير مجرى وجودها ووجود يوسف أيضاً؟ عندما لمحت الابتسامة المشعة للطفل لـمَّا أخبر بأن ريكاردو يعيش بالصباح، فكرت تلقائياً في فرا ماتيو وقرده الشيطان. وماذا لو كان الفينيسي يملك قوة سحرية؟

ابتسمت، وهي تعيد في ذهنها ذكريات الأسابيع الفارطة. كل شيء تبدد: مقاومتها وتصميمها على ألا تستسلم أبداً والحواجز التي كانت قد أنشأتها حولها. لكن هل تحبه؟ فبقدر ما كانت مشاعرها نحو ميشيل وكريم واضحة ومحددة، بقدر ما كانت مشاعرها نحوه منفلتة. فجسدها قد تحدث لأول مرة؛ عندما أدركت الرابعة والثلاثين من عمرها اكتشفت اللذة في حضن رجل. لأول مرة اجتاحت شهوتها عقلها إلى درجة الطغيان عليه أحياناً. الطريقة التي ينظر بها إليها ونبرة صوته وعدد كبير من التفاصيل التي تبدو تافهة؛ كل ذلك

يوقظ باستمرار رغبتها فيه؛ كان كل ذلك يسكنها. كلما ضاجعها أعربت عن رغبة فيه، وبمجرد أن يلمسها تنقلب من ملكة إلى أمة. كانت ثمة أيضاً لعبة الكلام التي استدرجها إليها رويداً رويداً، حيث أصبحت الكلمات مدوخة ومنسلخة عن كل حشمة. لكن هذه المشاعر الجديدة، بالتحديد، هي التي تثير شكوكها، إلى درجة أنه كان يحصل لها أحياناً أن تتساءل عما إذا لم يكن كل ما تشعر به إنما أقيم على سيل من اللذائذ الحسية. المستقبل وحده هو الذي سيأتي بالجواب الفصل.

كان الظلام قد شرع يجتاح الأفق، فانتبهت فجأة إلى أن زوجها كان ينتظرها في العربة ليذهبا إلى القلعة قصد حضور الحفل الذي يقيمه محمد علي على شرف انطلاق ابنه طوسون نحو الحجاز.

نفخت، محموقة، على الشمعدانات وألقت بمعطفها الصوفي على كتفيها، ثم انطلقت مسرعة نحو الخارج.

* * *

كان عدد المدعوين في قاعة الاستقبال الباذخة أقل بكثير مما كان منتظراً؛ والحال ان تعيين طوسون على رأس الجيش الذي سيتوجه لمحاربة الوهابيين، كان حدثاً في غاية الأهمية. كان اللافت هو حضور كل قادة المماليك وملازميهم. كانوا حوالى الخمسين، وربما أكثر، يُخْدمون بالاحترام نفسه الذي يخدم به باقي الضيوف.

قاسم دروفيتي ماندرينو دهشته:

- هذا غريب. منذ متى كان نائب السلطان يفتح أبواب منزله للعقارب؟

- غريب بالفعل. غير أنك تعرف الباشا كما أعرفه. إنه لا يقدم على شيء إلا بعد التفكير فيه بروية. وعلينا ألا ننسى بأنه لم يستطع، رغم كل الجهود التي بذلها، أن يضع حداً للطغيان المملوكي. ومهما يكن هؤلاء الأشخاص قد أصبحوا ضعافاً، فإنهم ما يزالون يشكلون خطراً على السلطة.

- هذا سبب إضافي كي لا يقبلهم ضمن المقربين إليه. أيكون يفكر في ضمّهم إلى قضيته؟ لن تكون على أي حال المرة الأولى؛ تذكر وحدته مع البرديسي.

قالت شهرزاد بصوت خافت:

- أنتم تعرفون المثل القائل: «إذا لم تستطع قطع يد عدوك، قبّلها.» لنثق بالعاهل؛ فهو بالتأكيد يعرف ما الذي يقوم به.

كان قنصل فرنسا على أهبة التعقيب إذْ قُوطع بحضور مضيفهم. كان يلبس أحسن ثيابه، وهو يجتاز العتبة محاطاً بأبنائه الثلاثة. كان طوسون مشرقاً، وإسماعيل مترفعاً، أما إبراهيم، فكان أكثر دمامة من أي وقت مضى. وكان يسير في أثره مساعدوه الأقربون الذين بدا من بينهم وزير الداخلية لاظوغلي والأرمينيان بوغسيان وأرتين، وكان كريم آخرهم.

عبرت المجموعة القاعة تحت الأنظار الجسورة للمماليك. في أول وهلة، ركزت شهرزاد عينيها على كريم. لم تستطع تجنب انقباض خفيف في قلبها عندما رفع هو أيضاً بصره نحوها.

أزاحت بصرها، حشمة أو انزعاجاً، بسرعة، متذمرة من أن هذا الشعور العفن ما يزال ينتابها.

عندما وصل العاهل قرب المرأة وزوجها حياهما وجدد لهما تهانئه، ثم خاطب مرافقيه:

- لا يمكننا تحاشي ما قدره الله. أترون هذين الزوجين؟ كان كل شيء يفرقهما، ثم جمعهما كل شيء. هذا هو الحال بالنسبة لكل الأمور؛ إن الخير ينتصر دائماً على كل العوائق.

لم يعلق أحد، لكنهم شكوا جميعاً في أن العاهل يلمح إلى الحرب القريبة.

أشار إلى طوسون قائلاً:

- أمامكم من يمثل آمالنا وقوة مصر. تعالوا، التحقوا بنا. أريد أن أشعر هذا المساء بأن كل الذين أحبهم يوجدون بجانبي. تعالوا.

دعا الثلاثة الذين انتابهم بعض الحرج للسير في أثره نحو الديوان الشرفي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يخصهم فيها العاهل بحظوة مثل هذه. وجدت شهرزاد نفسها جالسة بين محمد علي وماندرينو. وأبعد من ذلك قليلاً، كان يجلس قنصل فرنسا، على يساره ابن سليمان.

بمجرد جلوسهم، مال كريم قليلاً إلى الأمام، وبعد أن أبدى حركة اعتذار عاجلة للفينيسي، خاطب شهرزاد:

- أنا سعيد برؤيتك ثانية يا ابنة شديد. لقد علمت بزواجك. تقبلي تهانئي القلبية، وأنت أيضاً يا سيدي. أتمنى لكما السعادة.

عقب ماندرينو، مشَوَّشاً بعض الشيء:

- شكراً لك. لكن من يشرفني بالتهنئة؟

- كريم، قالت شهرزاد مضطربة قليلاً. إبن سليمان، ملازم صاحب الجلالة. كنا نعرف بعضنا منذ الصبا.

إن كان قد أحدث الخبر بعض الأثر لدى ماندرينو، فإنه لم يسمح له بأن يبدو للعيان.

- بالفعل، قال بهدوء، لقد حدثتني زوجتي عنك.

أعقب كلامه بعضُ البرود، في الوقت الذي كان فيه الخدم قد شرعوا يتحركون حول المدعوين. شرعت الأطباق الفضية تتعاقب أمام الأشعة المترنحة للشمعدانات، تاركة في أثرها رائحة هال مألوفة.

سأل دروفيتي كريم:

- أين وصلت التشكيلة البحرية؟

- لقد أنجزت كاملة. نحن نملك اليوم أربع فرقطات رائعة على متنها ستون مدفعاً: إيزونيا وسوريا وليون وغيريير، وتسع حراقات وأربع قلعيات وست صيادات، إضافة إلى حوالى أربعين سفينة شحن. لقد أنجزت الورشات البحرية لمارسيليا وبوردو عملاً رائعاً. وعلى العكس من ذلك، فإنه لا يمكنني أن أقول الشيء نفسه عن الإيطاليين. هم...

- الإيطاليون، قاطعه محمد علي، مشعوذون. هذه آخر مرة أطلب منهم خدمة. لحسن الحظ أظهر الجنرال بويي والمركيز ليفرون أنهما جديران بالثقة التي وضعتها فيهما وفي فرنسا. لذلك، فإنني أعتزم يا سيد دروفيتي أن تكون علاقة مصر في المستقبل وثيقة ببلدكم. وستفاجأون بأهمية مشاريعي.

- اسمح لي يا سيدي، قالت شهرزاد بصوت خافت، بأن أقدم إليكم تهانئي لاستطاعتكم في هذا الوقت الوجيز أن تؤسسوا أول أسطول مصري. هذا انعطاف حقيقي في قدراتكم.

بعد لحظة صمت، توجهت إلى كريم:

- لم يبق إلا أن تأمل في أن يشرفك صاحب الجلالة يوماً بسفينة بألوانك.

نكس بصره.

- إن شاء الله. إذا كانت تلك هي رغبة صاحب الجلالة.

قال دروفيتي:

- حدثني يا قياية بك عن هذه السفن الفرنسية.

في الوقت الذي انطلق فيه ابن سليمان في سلسلة من الشروحات المفصلة، اغتنمت شهرزاد الفرصة لتتفحصه خفية. لم يتغير كثيراً عن المرة الأخيرة التي شاهدته فيها، غير أن حدقتيه بدتا وكأنهما قد فقدتا شيئاً من بريقهما، كما أن بعض نبرات الضعف كانت تبدو في صوته. كان قد أتم لتوه سنواته الثماني والثلاثين، غير أنه كان يبدو وكأن السن قد بدأ يؤثر، قبل الأوان، على هيئته.

لن تستطيعي شيئاً ضد قوة الأسد.

كان ذلك منذ زمن طويل.

انعقدت كرة صغيرة في بطنها، واجتاح قلبها سيل من الذكريات عجزت عن التحكم فيه. أدركت أن ذلك لم يكن سوى شعور ناتج عن تذكرها وعن الدعة المنبعثة من الماضي. لا حزن ولا مرارة. فقط حنين يشابه بعض الشيء صفحة غير منتهية.

لم تنتبه، ضائعة في أفكارها، إلا بعْدَ حين إلى أن ماندرينو لم يكف عن مراقبتها.

- أجدك هذا المساء رائعة الجمال، قال بلطف. أنت جميلة جداً، لكن قلقة بعض الشيء...

- مع كل هؤلاء المماليك، قالت دون اقتناع حقيقي، أشعر وكأنني وسط جيش، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد... وسط جيش.

أجاب إجابة شكلية وبشكل آلي. أمسك بكف شهرزاد وحملها إلى شفتيه.

- ريكاردو. أمام كل هؤلاء الناس؟ ونائب السلطان؟

- لا يهمني الناس. ونائب السلطان غائب كلية.

التفتت شهرزاد نحو محمد علي لتلاحظ بأن ماندرينو كان بالفعل محقاً؛ كان

العاهل قد أمسك سبحته وشرع يمرر الحبات تباعاً، شارداً بالفعل عن كل شيء.

وحوالى منتصف الليل احتد تشنجه. اجتاحه فواق مفاجئ سعى إلى التخلص منه خفية ما أمكن.

- جلالتك، اقترحت المرأة بصوت خافت، هل تريد أن. . .

- لا يا ست ماندرينو. هذا. . . سيمر سريعاً.

- عليك ربما أن تشرب بعض الماء و. . .

اعتملت حدقتا محمد علي خلف الجفنين.

- اصمتي. أكرر لك أن هذا سيمر.

أطاعت. لم يسبق له يوماً أن سمح لنفسه بكل هذه الحرية أمام العموم. ما الذي يحصل له إذن؟

بعد لحظة بدأت التشنجات تخف حتى اختفت تماماً.

- حصل ذلك بسبب شجرة خوخي، قال جاداً.

- شجرة خوخك، جلالتك؟

- أمرت بستانيي بالسهر بالخصوص على نوعين من بين الأشجار التي استقدمتها من أوروبا كنت أحبهما للغاية. وعندما تذوقت الثمرة وهي بعد نيئة، وجدتها لذيذة جداً. منذ حوالى الشهر، وكنتم أنتم آنذاك بفينيسيا، هبّت رياح قوية على القاهرة، فلم تبق على الأشجار سوى ثمرة خوخ واحدة وحيدة، نضجت قبل الأوان. وأنتم تتخيلون الباقي. . .

- آه. . . أعترف لك يا سيدي بأن لا.

- شغلت بقضية الحجاز فأهملت زيارة الحديقة. تداول المدير مع مرؤوسيه في القضية، فقرروا بالإجماع أن الثمرة، إن لم تقطف في أقرب وقت، ستفسد.

علق ماندرينو، وهو يشاركهما الحديث، مع ابتسامة:

- إذا سمحت لي، سيدي، بملاحظة، فإن ما تقولونه لهو عين الصواب.

- لم أنهِ كلامي بعد يا ريكاردو. قطفوا الثمرة، إذن، ووضعوها في علبة صغيرة، فأرسلوها إلى القصر.

تنهد.

- أنتم لا تعرفون ما فعله خدامي. كنت مع حريمي عندما أتوا بالطعام.

قدمت لي ثمرة الخوخ من طرف خصي غبي لم يخبروه بالقيمة التي أوليها لهذه الثمرة. لم يجد هذا الغلام أحسن من أن يقدم لي الثمرة في سلة، مع باقي الفواكه، دون أن يعلمني. أتفهمون الآن؟

حرك الزوجان رأسيهما، محيرين.

أصبح صوت محمد علي أكثر احتداداً:

- أكلتها. أكلتها دون أن أنتبه، بين إصبع موز وبرتقالة؛ أكلتها وكأنها حبة عنب مبتذلة، دون أن أشك للحظة بأنني ألتهم كنزي.

أطبقت شهرزاد كفها على فمها، وانطلقت في ضحكة مجنونة، أمام العينين الغاضبتين لنائب السلطان.

عنفها الفينيسي:

- عار عليك. كيف تجرؤين على الضحك من مشاكل صاحب الجلالة؟

رغم نبرته الحادة، كان ممكناً الشعور بأنه هو بدوره على وشك الانخراط في الضحك.

حرك محمد علي رأسه مبدياً جدية غير أكيدة.

- أعتذر يا ماندرينو، لكن زوجتك لا تعرف شيئاً عن حذق بعض الأمور. لكننا، للأسف، نحبها مع ذلك.

تساءلت شهرزاد عيناها نديتان:

- هذا الحادث هو ما جعلك بهذه العصبية هذا المساء؟

تظاهر بأنه لم يسمع كلامها. تغممت ملامحه من جديد. أبقى وجهه تحت النور الباهت لألسنة الضوء.

كان آخر السفرجية قد انسحبوا، وكان المدعوون ينهون ارتشاف قهوتهم، أحاديثهم آيلة للانتهاء.

لم تجرؤ شهرزاد، وهي ترمق العاهل بطرف عينيها، على أن تضيف أي شيء. اجتاحه تشنج جديد فجأة. قرر أخيراً أن يخرج عن صمته. بعد أن تبادل بعض الكلمات مع لاظوغلي وقف والتمس الصمت:

- أصدقائي. حانت ساعة افتراقنا. أريد قبل ذلك أن أشكركم على حضوركم وأن أعرب لكم عن امتناني، كما أود بالخصوص أن أجدد لكم، في حضوركم، الثقة التي أضعها في المستقبل؛ مستقبل مصر، في شخص ولدي

طوسون الذي يستعد في هذه اللحظة لحمل ألويتنا إلى العربية. هذه الحملة هي الأولى من نوعها في تاريخ هذه الأمة؛ هي الحملة الأولى التي ينطلق فيها هذا البلد إلى خارج حدوده. كما أنها تعد الخطوة الأولى نحو تشكيل دولة شاسعة الأطراف، ولم لا، في يوم قادم، نحو تشكيل إمبراطورية. أجل، قلت امبراطورية وأنا لا أجهل شيئاً من وزن هذه الكلمة وعواقبها.

وضع كفه على كتفي طوسون.

- ولدي. رؤيتي وأملي تتحققان بك. تذكر دائماً أن تكون، عندما تحارب، قوياً لا ظالماً، جريئاً لا قاسياً. وليجعلك كل نصر تحققه أكثر شهامة وأكثر اقتناعاً بأن ذراعك لن تخور أبداً، وأن لا تعود إلينا، في نهاية رحلتك، إلا أكثر كرماً وأوفر شجاعة. وليصحبك رب العالمين.

تناول طوسون، صامتاً، كف أبيه وقبلها وسط التصفيقات الحماسية. كان كل من في القاعة واقفاً، وعلى رأسهم المماليك.

- أنظر إلى تلك الأفاعي، وشوش دروفيتي في أذن ماندرينو. أنا متأكد من أنهم يدعون الآن أن يُشوى طوسون في رمال العربية.

بعد لحظة أعطى محمد علي إشارة الانطلاق كما يقتضي موقف مثل هذا، ثم توجه نحو المخرج مصحوباً بأبنائه ووزرائه.

عندما مر قرب شهرزاد، قال بسرعة:

- اتبعيني، بسرعة.

لم تعرف، حائرة، ما تفعله. كرر أمره، وهذه المرة لماندرينو وللقنصل أيضاً.

عندما أصبحوا خارج القصر، انتبهوا إلى أن المماليك كانوا آخر الخارجين. هل كان ذلك بفعل الصدفة؟ أم بفعل البروتوكول؟

برز من العتمة، فجأة، صلاح كوش، قائد الحرس الألباني. جرت بينه وبين محمد علي محادثة موجزة، ثم انسحب الضابط.

- تعالوا، قال العاهل. سنكون أحسن في بيتي.

كان فواقه قد عاوده أكثر قوة.

* * *

كان الموت ينتظر المماليك الستة والخمسين غير بعيد عن باب الرميلة.

في ذلك المكان، كانت انعطافات القلعة تشكل حواجز تعقل إليها الجياد فلا تستطيع حراكاً. دوت - في جلبة أحالها سكون الليل أكثر رعباً - أولى طلقات جنود كامنين. وسط اعتمال الخيل وصهيلها ، كان ممكناً أن نرى بصعوبة أشباح الشركسيين تحاول في يأس الهروب إلى العتمة أو تسلق الصخور، في محاولة أخيرة للفرار أو للرد.

وحتى يصبح المماليك أكثر خفة، تجردوا من معاطفهم الثقيلة ملقين بها على الأرض مشكلة بقعة سميكة سرعان ما أصابتها أولى لطخات الدم.

سقط شاهين بك، أكثر البكوات إجلالاً، أمام باب قصر صلاح الدين. انقض عليه بسرعة فائقة حوالى عشرة من الألبان فسحبوا جثمانه إلى الخارج، وعرضوه على المارة.

فضّل حسن بك، أخ الألفي الشهير، عبد مراد القديم، أن يتحدى الموت فانطلق بفرسه في عدو جهنمي قافزاً على كل حاجز.

كانت مشاهد مماثلة تدور، في الآن نفسه، في كل بلاد مصر، إذ كان حكام مختلف الأقاليم قد تلقوا أوامر بالقضاء على كل مملوك يوجد على أرضهم.

بعد ثلاث ساعات، كانت هذه الهيئة التي وسمت القرون صخباً وضجيجاً، قد اندثرت إلى الأبد.

بعد أن صمدوا في وجه كل جيوش الدنيا، وبعد كل تلك المعارك الشهيرة، قدر على عبيد البحر الأسود هؤلاء أن يعرفوا ها هنا نهاية مظلمة، دون مجد، ودون حتى أمل في الانتقام.

* * *

تنفس محمد علي، الممدد وسط الظلام في غرفته، بعمق. كان فواقه قد فارقه لتوه.

كان قد صرف الجميع، ممتقعاً معتملاً، كي يختلي بنفسه. هو وحده يعرف بأن تأثره، في أقوى لحظات إطلاق الرصاص، كان عميقاً وحزنه شديداً، إلى درجة أنه أحس بقلبه يخور.

ومع ذلك، فقد كان أخذ قرار القضاء عليهم بعد أن أمعن التفكير. كيف

كان بإمكانه أن يسمح، وهو يستعد للهجوم، بوجود قوة بالقرب منه لا أمل لها سوى انهزامه؟

استطاع خلال هذا الفاتح من مارس ١٨١١، وفي بضع ساعات، أن يفلح فيما فشل فيه الأتراك وبونابرت. ومن الغريب أنه لم يشعر من ذلك بأي سعادة؛ بأي إحساس بمجد.

دعا الله أن يستطيع النوم. كان آخر ما فكر فيه أبناؤه؛ طوسون وجبال الحجاز.

* * *

لم ينطلق طوسون، وقد أخرته الاستعدادات العسكرية، إلا بعد خمسة أشهر. ثمانية آلاف رجل؛ ستة آلاف من المشاة الألبان وألفا خيال، عبروا يوم ثالث سبتمبر على متن سفن أول أسطول مصري. كان ابن سليمان يوجد على إحدى سفن هذا الأسطول برتبة مساعد. سعادته التي من المفروض أن تكون كاملة، خدشت بعض الشيء. وبالفعل، فرئيسه لم يكن سوى غريمه في الحب، محرم بك الذي أصبح منذ ثلاثة أسابيع الزوج السعيد للأميرة ليلى. ما أسعد كريم هو أن ليلة الزفاف لم تكن لها تلك العواقب الوخيمة المتصورة؛ فبفعل النصيحة الفعالة للخادمة التي أحسن جزاءَها، استطاعت الأميرة أن تنقذ شرفها وأن تقدم لمحرم بك عذرية اصطناعية. لم يسبق قط لقطرات من عصير الرمان الموضوع خلسة على غطاء سرير، أن لعبت دوراً بتلك الأهمية في مصير الأشخاص.

بعد أيام من الإبحار، لمحت القوات المصرية مرسى ينبع التي استسلمت دون مقاومة تذكر. وبعد ثمان وأربعين ساعة ولج طوسون مدينة زوبة التي فتح له شريف مكة أبوابها مستسلماً. بعد هذه الإرهاصات التي أوحت بحملة سهلة، حصلت المأساة؛ هوجمت الجيوش المصرية بشعاب بدر على بعد أميال من المدينة، فتلقت هزيمة نكراء. ثلاثة آلاف رجل فقط أفلتوا من المجزرة، فاضطر طوسون إلى العودة إلى ينبع مع بقايا قواته في انتظار تعزيزات ومؤونة.

في تلك المرحلة عرفت شهرزاد بأنها حامل من ماندرينو. وبعد تسعة أشهر، يوم ٢٧ يوليو، اليوم الذي أنهت فيه سنواتها التسع والثلاثين، ولدت

صبية أطلقت عليها اسمين: نادية؛ إحياء لذكرى أم شهرزاد، وجيوفانا حتى لا تنسى أبداً أصولها الفينيسية.

بعد سنة، مع بداية شهر أكتوبر، انطلق طوسون في حملته من جديد بعد أن تلقى تعزيزات عسكرية أرسلت من القاهرة. تجاوز الحواجز هذه المرة بسهولة، فاحتل المدينة وطرد الحامية العسكرية بعد حصار دام أسبوعين. وبالوتيرة نفسها استولى، بعد ثلاثة أشهر من ذلك، على مكة والطائف وجدة، فأصبح كل الحجاز بمدينتيه المقدستين، من جديد، تحت حكم الباب العالي، بفضل السلاح المصري. استقبل النبأ في القاهرة بسيل من طلقات المدفعية. كانت السعادة من القوة بحيث تزوج محمد علي امرأة ثانية، وهي شركسية شابة أرملة، كانت زوجة لبك قديم من طرابلس.

ورغم سعادة نائب السلطان بانتصارات ابنه، فإنه لم يكن ينظر إلى الحرب الدائرة باطمئنان. فهو لم يكن يجهل بأنه رغم خضوع الحجاز، فإن هيمنة الوهابيين كانت ما تزال قوية في غالبية شبه الجزيرة. وربما كان ذلك هو السبب في توجهه بنفسه إلى عين المكان كي يدرس الوضعية عن قرب، وليجد الوسائل الكفيلة بالتدمير النهائي لهذه القوة البدعية.

قبل أن يغادر القاهرة سلم زمام حكومته إلى رجل ثقة، وحكومةِ مصر العليا إلى ولده إبراهيم.

وصل في سبتمبر ١٨١٣ إلى جدة التي كانت قد أصبحت قاعدة تموين الجيش المصري. ومنها انتقل رفقة ابن سليمان، الذي أضحى صاحب أمجاد من معاركه المختلفة، إلى مكة التي دخلها دخولاً رسمياً يوم ٦ أكتوبر.

انضم عدد كبير من قادة البدو إليه. ومع توالي المعارك، أكسبه سلوكه تعاطف السكان وتعززت قضيته. ومن بين الإجراءات التي كان قد اتخذها إلغاؤه لعدد من الضرائب، وأغاث الفقراء والمعوزين، فذاعت سمعته كرجل عادل وباذل من أجل الفقراء.

في الآن نفسه قدم لابنه اسماعيل مفتاحي مكة والمدينة، وكلفه بمهمة تسليمهما إلى السلطان باسطنبول. استقبل الشاب بترحاب، وازداد مجد محمد علي رفعة.

توفي سَعُود، سيد الوهابيين الأقوى، سبعة أشهر بعد ذلك، فخلفه ولده

عبد الله، وهو رجل متذبذب غير قادر، في هذه الظروف الصعبة، على تحمل المسؤولية التي آلت إليه.

قاتل محمد علي يوم ٧ يناير ١٨١٥، بمنطقة بازل جيشاً وهابياً من ثلاثين ألف رجل متموقعين على خاصرة الجبال التي تفضي إلى سهول قولاق.

وإذا كان المصريون يملكون جيشاً قوياً، فإن المدفعية لا يمكنها أن تكون فعالة إلا في السهول؛ والحال أن الوهابيين ظلوا متشبثين بالجبال. تحايل نائب السلطان على قلة عدد جيوشه، مقارنة بالوهابيين، فتظاهر بالهرب بعد هجمة، جالباً البدعيين إلى مطاردته، مرغماً إياهم بذلك على مغادرة معاقلهم. آنذاك أمر خيالته بالاستدارة. وخلال المعركة الرهيبة التي أعقبت ذلك، كان محمد علي يحارب وسط جنوده بشجاعة وهمة نادرتين. ومع مقدم الظلام كان الانتصار باهراً، فشكل ذلك اليوم المصادف لـ ٢٠ يناير ١٨١٥ هزيمة نكراء للمنشقين وأصاب حظوتهم في شبه الجزيرة في الصميم؛ وسجل، بالمقابل، في حوليات تاريخ مصر بوصفه يوماً من أيامهم العظيمة.

شرعت المدن تسقط بعد ذلك تباعاً: طربة وبيشة، وفي الجنوب وشرق جبال اليمن؛ فسارع عدد من القبائل إلى الخضوع، فعين عليهم هازمُهم زعماءَ جدداً، مشكلاً منهم مجموعة قوية في كل المنطقة.

في فصل الربيع، قَبِل عبد الله ابن المرحوم سعود المجروح أخيراً أن يستسلم دون شروط، مستجيباً لطلبات الباب، معلناً عن تخليه عن أية رغبة في التدخل في شؤون الحجاز.

يوم ١٩ يونيو ١٨١٥، دخل محمد علي - وسط توقيع الدفوف وصيحات الحبور والزغاريد - إلى القاهرة مزهواً. التحق به طوسون بعد بضعة أشهر، مستقبلاً هو الآخر بالحفاوة نفسها.

* * *

عندما تكتشف الآلهة بأنها قد شملت بني آدم بكثير من الشمس، يحصل لها باستمرار أن تندم على كرمها فتفكر على الفور في نشر الشقاء.

هذا ما كان حصل ذاك المساء من يوليو.

وُضع نعش عند مدخل إقامة الحريم حيث كان يستريح محمد علي. كان

غطاء النعش مزاحاً. كان بداخله جثمان طوسون المقدام، مناراً بشعاع قمر باهت. لقد توفي قبل يومين بسبب الطاعون، وهو بمقر قيادته العامة بدمنهور. لكن لا أحد أخبر محمد علي بذلك حتى الآن. لم يوجد أحد من بين المقربين إليه التمس من نفسه الشجاعة الكافية كي يخبره بالمأساة. لا وزير ولا خادم أو جندي... لا أحد استطاع مواجهة حزن السيد الأعظم.

لذلك عملوا، بغير قليل من الجبن، على إدخال النعش ووضعه أمام إقامة النساء التي يعلمون أن العاهل موجود بداخلها.

فتح محمد علي الباب لتوه. توقف للحظة. سال العرق على قسماته مدراراً، وجرى الدم هادراً في عروقه. هذا الشاب البالغ من العمر سبعاً وعشرين سنة، والذي يبدو نائماً، لا يمكن أن يكون ابنه. أبداً. ضوء القمر هو الذي يخدع عينيه؛ ظلام الليل هو الذي يبتدع كابوساً.

شعر بقدميه تخوران. أطلق صرخة شبيهة بصرخة بهيمة. امتدت ذراعاه نحو الجثمان، فرفعه وضغطه إلى صدره، ومكث على تلك الحال حتى مطلع الفجر.

الفصل التاسع والثلاثون

٢٧ يوليو ١٨٢٧

ازدادت شهرزاد التصاقاً بجسد ماندرينو. تمنت في هذه اللحظة أن لو لم يعد جسداهما سوى جسد واحد ملتحم وغير قابل للانفصال. لم يسبق لحب غير مؤكد مثل هذا أن أصبح بهذه القوة وبهذا الألم. مع توالي السنوات أصبح الرجل الذي تزوجته منذ ست عشرة سنة جزءاً منها؛ الدم الذي يسري في عروقها. لم تعد تتنفس إلا من خلاله. لم تعد شكوكُ البداية والأسئلة التي كانت قد طرحتها حول حقيقة مشاعرها موجودةً. مع النضج أدركت أن الوجد بالنسبة للقلب هو مثل رياح الخمسين بالنسبة للصحراء. الحقيقة لا تثوي في ذلك الاضطراب المعتمل للكثبان وفي الرمال المذروَّة المشوَّشَة والمبَلبِلة للمشهد؛ كريم هو العاصفة، وماندرينو هو الحاجز.

- أحبك، قالت.

- أظن ذلك، عقب.

احتجت:

- أنت لم تنطق يوماً بالكلمة. خلال ست عشرة سنة. البتة، ولو لمرة واحدة.

- ما الذي يغيره ذلك من الأمر، يا مجالستي؟ فلو توفيت يوماً ستذكرين على الأقل بأنني الرجل الوحيد الذي لم ينطق قط بهذه الكلمة؛ وستكون في ذلك أصالتي، وستكون الكلمة في فم من سيعقبني شبيهة بإهانة.

- تتوفى؟ يعقبك؟ أنت عاقل يا ماندرينو، لكنه يحصل لك أحياناً أن تكون

مجنوناً. وعلى أي حال، فالعمر ماثل كي يذكرنا بأن الوقت قد فات. خمسون عاماً، من سيقبل بي؟

اعتدل قليلاً على جانبه، وطفق يتأملها صامتاً. صحيح أن فعل الزمن كان ظاهراً على قسماتها، لكن بالإمكان القول بأنه لم يزدها إلا جمالاً؛ إن الزمن مثل رسام تقريباً؛ يضع توقيعه على اللوحة دون أن يبدي رأياً فيها.

مرر كفه بلطف حول وجهها، مبهوراً من إعرابه، بعد كل هذه السنوات، عن المشاعر نفسها.

– على أي حال، ستحتفظ مصر كلها، هذا المساء، بأصداء عيد ميلادك وعيد ميلاد جيوفانا.

– ما الذي تخيلته هذه المرة أيضاً؟

– سترين بنفسك.

عَبَر ظلٌ حدقتي شهرزاد.

– لماذا يكون عيد الميلاد مصحوباً دائماً بشجن؟... كل الكائنات التي أحببناها والتي قضت؛ أبواي، أخي، وسميرة... الله وحده يعلم ما الذي حل بها. والست نفيسة الرائعة؛ لا أستطيع أبداً أن أقتنع بأنها قد غادرتنا هي أيضاً.

– هي قد تكون سعيدة، ما دامت قد التحقت بحبيبها مراد في الخلد. لكن، لنكف عن الحديث عن الأمور الحزينة. لقد قررت أن أشعر كل مصر، هذا المساء، بالغيرة، بمن في ذلك محمد علي نفسه. هذا المساء سيكون قصر الصباح هو مركز الدنيا.

– محمد علي اليوم هو مركز الدنيا. بعد الجزيرة العربية، السودان... وهو اليوم باشا كريت، وابنه إبراهيم باشا موري. إن الإمبراطورية التي تصورها ما انفكت تتسع.

– أجل. من الخليج الفارسي إلى صحراء ليبيا، ومن السودان إلى البحر الأبيض المتوسط؛ خمسة ملايين كيلومتر مربع؛ أكثر عشر مرات من فرنسا، ونصف أوروبا؛ إمبراطورية بونابرتية أو فرعونية... لكنه قد فقد ابنين في سبيل ذلك؛ طوسون من الطاعون وإسماعيل محروقاً حيّاً. أتساءل عما إذا لم يكن قد أدى الثمن باهظاً في سبيل هذه الإمبراطورية.

- وإبراهيم يواجه خطر فقْدَ حياته باليونان. أنا أعلم أن الشؤون السياسية لا تشكل نقطة قوتي، لكن لماذا غامر العاهل بحرب المور هذه؟ ألم تصبح مصر، بإلحاق السودان شاسعة بما فيه الكفاية؟

- السبب بسيط؛ فبعد أن اجتيحت، منذ خمس سنوات، بالتمرد اليوناني، اعتبر الباب العالي نفسه عاجزاً عن قمعه، لذلك طلب عون مصر.

- هكذا إذن يلتجئ السلطان إلى محمد علي كل مرة يجد نفسه فيها مضايقاً؛ ويكون مضايقاً كلما كان عليه أن يقمع رعايا ثائرين.

- إذا كان محمد علي قد قبل، فلأنه يأمل في أن يجني بعض النفع من ذلك، وأن يكون قد حصل من السلطان على وعد بأن تكون القوات التركية بموري مع البحرية، تحت القيادة الموحدة للضباط المصريين، فإن ذلك يعد نصراً في ذاته. فهو، الذي يعتبر مجرد تابع، أضحى من وزن العاهل؛ ومصر، الإقليم العثماني البسيط، تتحول إلى قوة وتلعب دور دولة كبرى. ولا تنسي بأنه ما يزال يسعى إلى تحقيق حلمه: استقلال هذا البلد.

- إن كل هذا لَيُخيفني. أنت تعرف مقدار الحب الذي أكنّه لصاحب الجلالة. وأعتقد أنه - بعدك وبعد ابنينا - الشخص الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. تأمل بونابرت؛ إنه لا يمكن الانتقال من حرب إلى أخرى دون أن نؤدي الثمن آجلاً أم عاجلاً.

- محمد علي لا يشبه الكورسيكي في شيء. إنه لم يدفع بكل هذه القوة إلى المعركة كي يجتث اليونانيين، الذينْ يكن لهم كثيراً من التقدير، أو ليخلي موري من سكانها كي ينشئ بها دولة إسلامية. إنه يعلم أن ذكاء اليونان يفوق ذكاء الأتراك؛ وإذا ما استسلمت موري، فإنه ينوي معاملتها باحترام بالغ. ستكون بالنسبة إليه أداة أساسية لتحضُّر العرب. وبالموازاة مع تجذر التعليم والتذوق الأدبي بعمق في مصر، سيتخلى عن هذه الصرامة الضرورية، فارضاً الصمت على الانفعالات المتمردة لرعاياه الجدد. بكلمة، لن تعود العصا فزاعة لجنس جاهل وبربري. ومن جهة أخرى، فإن البحارة اليونانيين لن يُنْسَوا؛ فمحمد علي يكنّ لهم التقدير نفسه الذي يكنّه لموري نفسها. أنا متأكد أنه سيعلن عن عفو شامل عنهم، على أن يأتوا، مع أسرهم، كي يستقروا على أرض مصر. أتفهمين الآن؟

مطت شهرزاد شفتيها، دلالة عدم رضا.

- كل ما أعرفه هو أن هذه القضية ستبعدك عني. أليس له ما يكفي من المساعدين حتى لا يلتجئ إلا إليك؟ ما الذي ستفعله من جديد في باريس؟

- أنا أحس الآن، يا حبي، بأنني مصري أكثر مني فينيسي. وبقبولي التوجه إلى باريس، أعتبر أنني أقدم خدمة لوطني، وآمل في أن أنجح في تفادي الأسوأ. إن السياسة التوسعية لمحمد علي تقلق القوى العظمى الممثلة في الإنجليز والروس والفرنسيين. لقد استولت القوات المصرية، بقيادة إبراهيم، على بترا وعلى كل البلوبونيزا، وأثينا قد تسقط أيضاً. إن مصر التي تصبح قوية جداً تُقلق أوروبا، وإنجلترا بالخصوص. إن القضية لَتكاد تنقلب إلى مأساة.

- ما الذي يطلبونه منه؟

- ببساطة أن ينسحب من موري.

- وإذا رفض؟

حرك ماندرينو رأسه.

- هو يوجد الآن في وضعية معقدة بشكل رهيب. هو يقدّر أنه لا يستطيع أن يعمل لصالح القوات الغربية دون ضمانة أوروبية في حال انتقام محتمل لاسطنبول. هو يخشى من انعكاسات كما يخشى من فقد حظوته في الإمبراطورية، إذا ما تخلى عن المقاومة دون أن يكون مرغماً على ذلك. لهذا طلب من إنجلترا وفرنسا وعداً مكتوباً بمساعدة بحرية وبمساهمة فعلية لتدعيم بحريته الخاصة، وضمانة بمؤازرته في مشروعه الاستقلالي.

- بماذا أجابوه؟

- الإنجليز، للأسف، وكالعادة، يراوغون ويتآمرون خلف ظهره. لا تبدو إنجلترا مستعدة لشراء تحرير اليونان باستقلال مصر.

- والفرنسيون؟

- ليس لحكومة شارل العاشر، للأسف، ما تقدمه إليه.

اعتدلت منفعلة.

- هذا غير ممكن. لنا روابط دموية مع فرنسا؛ يكفي أن ننظر إلى عدد الفرنسيين الذين يشتغلون في خدمة نائب السلطان.

حرك ماندرينو رأسه مع ابتسامة ساخرة.

- خصوصاً السيد جوميل.

بدا في عينيها اهتمام.

- شخص مبارك. هذا العزيز مع قطنه الغوسيبيون باربادونس، أنا مدينة إليه بهذا القطن الذي كنت أحلم به.

قفزت من السرير وتوجهت إلى النافذة.

كانت الحقول على مدى البصر مكسوة بالبياض، فأصدى صوت أحمد، عازف الناي، في ذهنها.

لا يمكن لأي برعم أن يحوي أليافاً بهذا الطول. وحتى لو قبلنا بإمكانية أن يوجد شيء من هذا القبيل، فإنه لن تكون له أية قيمة. سيكون أكثر هشاشة من الزجاج. وبمادة مثل هذه، لا يمكننا أن نصنع سوى لباس أزواج فراشات.

تمنت لو استطاع الرجل، مع قردته، أن يريا من هناك، من الأعلى، هذا المنظر.

- شجرة القطن ذات الليفة الطويلة... يا للروعة...

استدارت وسألت قلقة من جديد:

- لم تجبني. لماذا ستذهب من جديد إلى فرنسا؟

- ما أزال أجهل طبيعة مهمتي. كل ما أعرفه هو أنها تستهدف محاولة جديدة لإقامة صلح بين أوروبا ومحمد علي.

استولى تعبير مشكك على ملامح المرأة.

- لا أريدك أن تذهب.

- ما الذي تخشينه؟ إذا ما وقع لي مكروه، فإنك لن تكوني وحيدة. يوسف رجل الآن. وعلى أي حال، إذا ما مت..

- أصمت.

احتضنها، متأثراً بقوة رد فعلها، بحنان وشرع يهدهدها كما لو كان يهدهد طفلاً صغيراً.

* * *

كان ماندرينو - كعادته في الإفراط - قد هيأ كل شيء حتى يكون عيد

الميلاد المزدوج هذا، عيداً مشهوداً؛ موسيقيون عرب وعالمات وعازفو ماندولينة وألعاب سحرية.

لم تكن شهرزاد قد بالغت عندما تحدثت عن الحضور الفرنسي؛ فقد كان بالفعل لافتاً.

في المقدمة طبعاً المهندس الفلاحي جوميل، يأتي بعده المركيز دي ليفرون الذي لعب دور الوسيط في بناء الأسطول البحري المصري بأوروبا، ثم المهندس لينان دي بليفوند الذي كان يرأس الأشغال العمومية ومكلفاً بمشروع شق قناة السويس. كان ممكناً أيضاً مشاهدة منشئي تلك المدارس التي ما انفكت تنتشر في مصر: الدكتور كلوت، الطبيب المعتمد لدى نائب السلطان الذي أنشأ مدرسة الطب، والدكتور هامونت، عن مدرسة البيطرة، والمهندس لامبيرت عن مدرسة البوليتكنيك، والكولونيل فارين، المرافق القديم للمارشال غوفيون سانت سير عن مدرسة الخيالة، وأيبمي عن مدرسة الكيمياء. وكان ثمة أيضاً الماجور شيدوفو الذي كان طبيباً رئيسياً لجيش العربية، والكوماندان هرغلي رئيس حسابات وزارة الحربية.

كان الغائب الوحيد هو الكولونيل سيف، الأب الحقيقي للجيش المصري. فقد سهر على تكوين الرجال منذ ثمانية أعوام وعلمهم بأناة. وهو اليوم رئيس القيادة العامة لإبراهيم بموري.

كان محمد علي قد أخذ مكانه لتوه تحت إحدى الخيام العملاقة المنصوبة بالحديقة. كانت شهرزاد التي استقبلته سعيدة بأنه لا يبدو متأثراً بالأحداث الجسام التي تدور في هذه المرحلة. أو على الأقل هذا ما كان يبدو ظاهرياً.

- سيدي، أنا سعيدة جداً بأنك قد استطعت المجيء هذا المساء. إن حضورك يشرفنا جميعاً.

اتخذ الباشا إهاباً منشرحاً.

- ومع ذلك فإنني لست هنا، يا ست ماندرينو، من أجلك أنت، وإنما من أجل ابنتك جيوفانا. أين هي؟

- سآتيكم بها. لكن لا تقل لي إنك لا تفكر إلا فيها. أليست لك أية شفقة على امرأة تحتفل بإنهائها سنواتها الخمسين؟

- آسف، لا أعرب تجاهك عن شيء. أنظر إليك فأقول إنك قد تكونين

وقعت عقداً مع الشيطان. على أي شيء أشفق؟ العمر لم يؤثر عليك في شيء. انتبهت إلى ذلك من قبل، لكن منذ أن قاسمك صديقنا جوميل سر شجرة القطن المعلومة، نقص من عمرك عشرون عاماً على الأقل. إذن... أين جيوفانا؟

- طيب، سيدي. أنا أعلم الآن أنك ستكون غائباً في لحظات حزني.

- إلا في حالة أن تنهزمي يوماً في لعبة الضامة. آنذاك سيسعدني فعلاً أن أواسيك.

تأملته للحظة، باسمة، قبل أن تعقب:

- موافقة جلالتك، لكن، بإذنك، وقبل أن أذهب للبحث عن جيوفانا أحب أن أقدم إليك شخصاً.

التفتت ومدت ذراعها نحو رجل شاب كان يتنحى جانباً. كان طويلاً، أسود الشعر، عيناه لوزيتان مظللتان بأهداب طويلة، مع فم رائع الشكل؛ كان نسخة من شهرزاد.

- يوسف ولدي، قالت.

سلم الشاب على نائب السلطان باحترام.

- إذا كان جماله الخارجي انعكاساً لروحه فإن لك يا ست ماندرينو ابناً رائعاً.

ثم خاطب الشاب مباشرة:

- أي مهنة تنوي ممارستها؟

- مهندس أشغال عمومية، سيدي.

- ها هو ذا اختيار ممتاز. فلمصر اختصاص كبير في هذا المجال. التفت إلى مجاوره، لينان بليفاند، وقال بتخابث:

- فعلينا يوماً أن نحتل مكان الفرنسيين، أليس كذلك؟

- لا هم لي حيال الخلف. إن هذا الفتى للامع.

- تعرفان إذن بعضكما بعضاً؟

- إنه أحد تلامذتي، يا سيدي. ويمكنني حتى أن أقول بأنه نائبي؛ فهو يساعدني الآن في جمع الوثائق المعقدة المتعلقة بجغرافية وبمسار القنوات القديمة وبجيولوجيا وهيدروغرافيا قناة السويس.

التفت نائب السلطان نحو يوسف:

- ما وجهة نظرك في الموضوع؟ ما رأيك في مشروع القناة التي ستصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط؟

- إنه المستقبل، جلالتك. ستلعب هذه القناة دوراً مركزياً في الموقع الذي تحتله مصر في العالم. وقد كان بونابرت فكر فيه من قبل.

فكر محمد علي بصوت مرتفع:

- كان ذلك الرجل عبقرياً. خمس عشرة سنة من المجد...

ثم واصل:

- صحيح. كان مهووساً بفكرة شق قناة السويس.

- تماماً، جلالتك. أجاب يوسف. ونحن على علم بأنه قد أرسل بعثة ليتفقد المكان، حتى قيل إنه كاد يفقد حياته هناك.

- مثلاً؟

- استقل عبَّارة تصلح خلال الجزر كما كان يعبر العبرانيون قديماً، ليصل إلى الينابيع المسماة عيون موسى. لكن البحر امتد، أثناء رجوعه، فكاد يهلك مع حرسه كما هلك فرعون في الإنجيل. وكاد ذلك الجنرال ذو الساق الخشبية... - بدا يبحث عن الإسم - كفاريللي، أعتقد، أن يختفي تحت أنظار زملائه. أما بالنسبة لبونابرت فقد كاد بدوره يغرق، وهو مدين بسلامته لدليل من حرسه حمله على كتفيه.

- برافو. قال نائب السلطان مفتوناً. أنت على علم بموضوعك. واصل إذن مع صديقنا بلفوند دراسة المشروع؛ فلربما استطعنا تنفيذه بحول الله.

رفع عينيه تجاه شهرزاد مضيفاً:

- إن لك لولداً رائعاً. أحسني العناية به.

تخللت نبرة حزينة كلماته الأخيرة؛ فقد عاودته، من غير شك، ذكرى طوسون وإبراهيم.

تناولت المرأة كف يوسف.

- أنا أعتني به يا سيدي وهو يعتني بي. و...

كفت عن الكلام وهي تشير إلى عتبة الخيمة.

- ها هي ذي مفضلتك، جلالتك.

كانت جيوفانا قد ظهرت على العتبة مصحوبة بماندرينو. إذا كان يوسف نسخة من أمه فإن المراهِقة من جهتها، كانت نسخة من الفينيسي. وإذا كانت أقل رقة في مظهرها، فإن عينيها، الصافيتي الزرقة - عيني ماندرينو - هما اللتان تشكلان بؤرة جمالها. اقتربت من العاهل وأرادت أن تحييه، لكن محمد علي لم يتركها لتنهي حركتها، فأمسك بها وضغطها إليه مغرقاً إياها في سيل من القبل.

- جوهرة حقيقية. آه فقط لو كان عمرك أكبر قليلاً.

- ملكة مصر أخرى؟ قالت شهرزاد هازئة.

- ولم لا؟

عقبت المراهقة بحيوية:

- لا، أبداً.

تساءل نائب السلطان مندهشاً:

- لماذا؟ ألا يشكل لقب ملكة مصر أمراً ثميناً بالنسبة إليك؟

- بلى، لكنك متزوج من امرأتين. أنا لا أحب أن يكون لي شريك.

انطلق محمد علي في ضحكة عالية.

- ليحفظك رب العالمين. أنا أفهم جيداً عمن ورثت مزاجك.

* * *

في زاوية من الحديقة، بعيداً عن المدعوين، كان كريم يتأمل الليل وضواحي القصر، كما لو كان يود أن يلتهم هذا المشهد. كانت أزرار بدلته، بوصفه أميرالاً ذا شأن، تبرق تحت أشعة النجوم. كان ممكناً التخمين، على اليمين، شبح الإسطبل. توجه نحوه بآلية تقريباً، وتوقف عند بابه. ما عاد شيء يشبه ما كان يعرفه، لكن كان بالإمكان دائماً استشعار أنفاس الخيل بالداخل.

- ابن الفلاح، قال صوت خلفه. أتنتظر سفير؟

اهتز. كانت شهرزاد تقف في العتمة.

- عندما أفكر في أنك قد أفلحت أخيراً في تحقيق حلمك... ها أنت، رغم كل شيء، قد أصبحت أميرالاً. كنت محقاً إذ آمنت بذلك. مبروك يا ابن سليمان.

أجاب مع ابتسامة متكلفة:

- أشكرك، لكن كل ذلك أصبح الآن ضارباً في الزمن.

- بالنسبة إليك ربما، أما بالنسبة إلي فقد بقي كل شيء ماثلاً. ما أزال أرى منظرك عندما منعك أبوك من الذهاب إلى الوادي. كنت في غاية الضيق، أتذكر؟

- لا شيء في الدنيا يمكنه أن يمنعك من أن تحيا سعادتك الكبرى. أتذكر... في الحقيقة، لو لم تكوني قد قلت ذلك يومئذ لما كانت لي الشجاعة الكافية، أعتقد، للذهاب حتى النهاية.

اغتم محياه.

- إننا نعيش لحظات عصيبة.

- لقد فسر لي ريكاردو. يوجد عاهلنا في وضعية لا يحسد عليها.

تابع:

- سأذهب إلى البحر الأيوني.

- متى؟

- بمجرد الانتهاء من تسليح البحرية. نحن نستعد لمهاجمة جزيرة هِدرا حيث توجد قاعدة المتمردين اليونانيين.

- ليحفظك الله، قالت بتأثر.

ران صمت. حملت هبة نسيم روائح الغاردينيا والفل.

- هل أنت سعيدة؟

أجابت على الفور:

- كما لم أكن يوماً من قبل.

هل كان ينتظر جواباً آخر أم فقط نبرة أقل تأكيداً؟

غشيت عيني كريم دموع محبوسة.

تقدمت خطوة نحوه، وبحركة تلقائية شرعت تلامس خديه.

- لا تحزن يا ابن الفلاح. الحياة...

- الحياة ليست أبداً ما نظنه. لقد تعقبت حُلماً يا شهرزاد؛ حلماً يعود إلى آلاف السنين: الطموح. لقد التهمني طوال الرحلة مستنزفاً الجوهري، كي لا يترك لي إلا الزائف. هل كان الأمر يستحق؟

صاحت معنفة:

- كيف أمكنك أن تشك في ذلك؟ لا حق لك. لا شيء آخر يهم غير أن يعيش المرء قناعاته. لا تتنكر لنفسك يا ابن سليمان. ذاك أمر سيئ.

- لو كنتِ فقط أصبحت ملكة.

نكس رأسه وهو يوشوش:

- لما غادر مركب الميناء أبداً...

ظلت للحظة جامدة تتأمله. كان الحزن المستولي عليه شديد الكثافة. أخذت وجهه، بدافع الشفقة، بين كفيها وقربته من وجهها.

احتضنته وضغطته إليها. لم يبد هو أية مقاومة؛ لم يبد حتى اندهاشة وهي تجني عبراته بمقدم سبابتها وتحملها إلى شفتيها.

ها هما يعيشان، بعد سبع وثلاثين سنة، المشهد نفسه؛ التبلبل نفسه. مع الفارق الوحيد الكامن في أن مشاعر وبواعث كل منهما ما عادت هي نفسها.

كان صوت ماندرينو هو الذي انتزعهما من هذا الصعود في الزمن. كان ينظر إليهما بإهاب جامد. ومع ذلك فإن شهرزاد انفصلت عن ابن سليمان دون تسرع وبرصانة.

- نائب السلطان يستعد للانصراف، قال ماندرينو من جديد ببرودة أكبر.

قالت نعم برأسها دون أن تفارق كريم ببصرها، ثم قالت:

- ليحفظك الله... عد إلينا بسرعة.

- أجل يا أميرة... لا تخشي شيئاً، سأعود.

* * *

كانت الأضواء قد انطفأت واستعاد صمت الليل سيادته. أنهى ماندرينو كأس نبيذه وقد ضغط حذاؤه على حاجز الشرفة.

- أرجوك يا كارلو. لا يمكنك أن تتصور بأن بيني وبين كريم يمكن أن...

- ما أتصوره خاص بي.

- لكنه كان تعساً. تعساً لا غير. وما رأيته مني لم يكن سوى حركة مواساة. لا غير. أنت تعرف كل شيء عن كريم وعني. هل سبق لي أن أخفيت عليك الحقيقة؟

- منذ متى كان بإمكان أمنية أن تذهب خطأ؟

- خطأ؟

كان صوتها قد ارتفع فجأة بصرخة؛ صرخة هي خليط من الغيظ ومن الأسف.

- كيف أمكنك أن تتحدث عن خطأ؟

قال هازئاً:

- لنقل. . . عودة لهب.

- بعد عشرين سنة؟ أنت مجنون يا ماندرينو. كنت دائماً مجنوناً لكن جنونك هذه المرة فاق كل الحدود. أكرر لك: ليس ثمة شيء؛ لا شيء في موقفي أو في مشاعري غير الشفقة؛ هي الشفقة نفسها التي قد أبديها نحو طفلينا. يجب أن تصدقني.

لم يعقب على كلامها على الفور. رفع ساقيه وأنزلهما بهدوء على الأرض.

- الموضوع منته.

- لا.

- جيد. سيكون عليك إذن أنت أن تنصتي إلي. في حكايتنا، أحدنا هو الذي ذهب في اتجاه الآخر الذي كان ينتظر جامداً. بصبر أتيت. يوماً إثر يوم، وأسبوعاً إثر أسبوع؛ حطمت دفاعاتك مستعملاً حيلاً حربية. كنت أعيش، قلبي مترع بحبك، مسكوناً باليوم الذي ستستسلمين فيه وتنقلب الأدوار.

استغرق ذلك وقتاً طويلاً؛ وقد بقيت من هذه الحرب العاطفية بعض الآثار؛ بعض الندوب.

فتحت شفتيها، لكنه واصل:

- سأفاجئك. لقد أعطيت خلال هذه السنوات الست عشرة الانطباع بأنني شديد الصلابة؛ الانطباع بأن لا شيء تقريباً يمكنه أن يؤثر في. غير أنني أعترف لك هذا المساء بأن الخوف كان يستولي علي، مائة مرة، ألف مرة. وعندما كنت أغادرك، مبدياً ثقة، كنت كل مرة أقل ثقة بكل شيء. ويوم أن حدثتني في الذهبية عن كريم كنت تظاهرت بأن الماضي لا يهمني. خطأ. نتأثر دائماً بالماضي العاطفي لمن نحبهم. هو شبيه بتهديد مستمر. وها أنذا أصاب هذا المساء بشيء من هذا الماضي. ولأول مرة، عوض أن أحتفظ بعاصفتي

داخلي أظهرها. لقد أعطيت لنفسي الحق في ذلك. أتفهمين؟
إن كانت قد فهمت؟

كانت، وهو يتحدث، قد انتبهت إلى بديهية: لقد أعطاها أكثر مما أعطاها أي رجل آخر. هل استطاعت أن ترد إليه ولو جزءاً يسيراً؟ انتبهت إلى أنها، حتى في يومها هذا، وخلال سنوات قادمة، قد أخذت الكثير، متعطشة، ساعية فقط إلى تعويض ما فاتها من متأخرات جنسية وحسية. ويبقى أمامها وقت طويل كي تعيد الثروة اللانهائية التي زرعها فيها.

* * *

مرت الأسابيع الثلاثة الموالية في جو ثقيل، ازداد استفحالاً عندما أتى ليخبرها بأنه سيتوجه إلى باريس.

- استفحلت الوضعية من جديد. لم يبق سوى حظ يسير لإنقاذ السلام.

- ما الذي بإمكانك القيام به أكثر مما قام به دروفيتي؟ هو نفسه فشل.

- يريد محمد علي أن يقدم اقتراحاً أخيراً لتفادي المواجهة؛ ويريدني أن أنقله إلى وزير العلاقات الخارجية الفرنسية، البارون داماس.

- وما فحواه؟

- سيحتفظ ببحريته غير مستجيب لاسطنبول، لكن شريطة أن تسارع فرنسا أو إنجلترا بوضع أسطول قبالة الاسكندرية لمنع انطلاق الأسطول المصري. هي حيلة تبرئ ذمته أمام السلطان وتمكنه من إنقاذ ماء الوجه.

- دون حصول على شيء؟

- امتياز أرضي محتمل؛ سوريا.

- وإذا رفض الحلفاء؟

- يوجد سلفاً أسطول مختلط مكون من سفن فرنسية وإنجليزية وروسية بالبحر الأبيض المتوسط، مستعد لمواجهة الأسطول التركي المصري إذا ما أصر هذا الأخير على الانطلاق نحو اليونان.

صمتت متوترة. شعرت فجأة بأن ذهابه هذا يفوق احتمالها. ارتمت عليه عاقدة ذراعيها حول عنقه، في غاية الاضطراب.

* * *

٢٠ أكتوبر ١٨٢٧

– أنت تسممين حياتي، يا ست ماندرينو. عنف محمد علي.

– هو غائب، سيدي، مما يقارب ثلاثة أشهر. وآخر بريد منه يوضح بأن عودته قد تكون منتصف أكتوبر. والآن تخبرني بأنك قد أرسلته إلى نفران، مع موري المشتعلة وهذه المواجهة البحرية التي يتم الاستعداد لها.

– من أجل تفاديها، تحديداً، كلفت ماندرينو بهذه المهمة. لم يكن لي خيار آخر. وأعتقد أنني قد توصلت إلى اتفاق مع الإنجليز؛ فمقابل عدم تدخلي ستدعم القوى الغربية مشروعي التوسعي والاستقلالي. هو اتفاق شفوي بالتأكيد، لكن الشخصية التي تحدثت إليها لم تكن لها سلطة توقيع التزام مكتوب. وبالمقابل، وجهت رسالة إلى السلطان كي أنبهه إلى الانعكاسات التي قد تنتج عن صراع بيننا وبين القوى العظمى، وأوضح له الهوة التي يمكن أن تنفتح تحت أقدامنا.

– لماذا إذن أرسلت ريكاردو إلى هناك؟

– كي أخطر ابني إبراهيم والأميرالين محرم بك وكريم بضرورة إبقاء الأسطول بنفران وعدم إخراجه منها.

– وهل سيصل ريكاردو في الوقت المناسب؟

– علينا أن نأمل في ذلك، وإلا فإنها ستكون نهاية العالم...

في اللحظة التي كان فيها محمد علي يتلفظ أمنيته، كان الجحيم قد اندلع من ساعة خلت بخليج نفران.

فمن جهة، هناك الأسطول المصري التركي، المكون من ثلاث سفن وأربع فرقطات ببطارية مزدوجة، وثلاث عشرة فرقاطة عادية، وثلاثين سفينة شراعية وسبع وعشرين قلعية وخمس سكونات وست حراقات.

ومن الجهة الأخرى، أسطول الحلفاء تحت قيادة الأميرال كودرنغطون، والذي يضم ثلاث سفن إنجليزية وثلاثاً فرنسية وأربعاً روسية وأكثر من عشر فرقاطات من جنسيات مختلفة.

في الصباح نفسه، وتحت ذريعة أن إبراهيم وجيوشه كانوا يقطعون أشجاراً مثمرة ويرتكبون أعمال عنف في المنطقة، كان الأميرال كودرنغطون قد توجه

إلى الخليج متبوعاً بالأسطول الفرنسي، وفي الخط الخلفي الأسطول الروسي.

انفصل مركب عن الفرقاطة المصرية «لا غيريير»، واقترب من «آسيا»، سفينة المقدمة الإنجليزية؛ فبواسطة من ماندرينو طلب محرم بك وابن سليمان من الأميرال كودرنغطون أن لا يدخل إلى مياه الخليج. أجاب هذا الأخير بجفاف: «أنا لست هنا كي أتلقى أوامر.»

استعمل ماندرينو كل إمكانياته الدبلوماسية، فتم التوصل إلى التزام لا يتحارب الطرفان بموجبه إلا دفاعاً عن النفس.

كانت الحرب، إلى هذه اللحظة، تبدو وكأن بالإمكان تفاديها.

لكن القدر كان قد قرر أمراً آخر.

فحوالى منتصف النهار، لمح قائد «دارطموث» على متن حراقة تركية استعدادات لا تدع مجالاً للشك، من وجهة نظره، في نوايا قائد هذه السفينة.

فتحت الـ«دارطموث» النار.

شطرت أول قذيفة ابن سليمان.

* * *

٢٨ أكتوبر ١٨٢٧

كانت شهرزاد تنظر إلى محمد علي كما لو كانت تنظر إلى عفريت أو إلى مخلوق مرعب.

- كانت مجزرة، قال نائب السلطان. مجزرة. صدقيني، لم أكن أريد هذه الحرب. إنهم الأتراك... الأتراك والإنجليز هم الذين بدأوا كل شيء... لقد خرقوا الاتفاق... إنهم...

- أصمت.

تجمد العاهل.

- أنا أعرف ما تشعرين به. لقد عرفت هذا الإحساس؛ فقد مت مرتين؛ مرة مع طوسون وأخرى مع إسماعيل.

لم تكن تستمع إليه؛ فما كان ذهنها سوى بركان يغلي أو أرض خراب. وحدها كانت تصدي تلك الكلمات التي نطقها، من لحظات، نائب السلطان: توفي كريم. وماندرينو...

رفعت رأسها. كان وجهها قد أصبح من الدمامة بحيث كاد محمد علي يتراجع من رؤيته إلى الوراء.

- هذا غير ممكن... لا يمكن لهذا أن يحصل...

أراد، محاولة منه لتهدئتها، أن يمسد شعرها، إلا أنها سرعان ما تراجعت إلى الخلف وكأنها قد قذفت ببارود.

كررت:

- هذا غير ممكن...

- لكن الحقيقة هي تلك، يا شهرزاد. ابني تعرّف بنفسه على جثمان ابن سليمان. لقد أقسم لي.

- لكنه لم ير ماندرينو، لا هو ولا غيره.

- كان على متن «إزونيا»، وقد غرقت الفرقاطة بمن وما فيها...

- هذا لا يعني شيئاً. لم تمر سوى سبعة أيام. ممكن أن يكون ماندرينو قد قفز إلى الماء وسبح حتى الشاطئ.

- لكان، في هذه الحال، قد تم العثور عليه. و«ليون» ما تزال في عين المكان مع محرم بك، وجنود مصريون يحتلون الحصن، لكانوا أخطروني. لا، يجب للأسف أن نقبل بالحقيقة.

وقفت، حدقتاها متسعتان.

- استمع إلي جيداً. ما دمت لم ألمس جثة زوجي، وما دمت لم آت به إلى اليابسة، فإنني أرفض هذه الحقيقة. إنه حي ويوجد بمكان ما. لا بد أن الأمر كذلك.

كانت قد تكلمت بصوت مرتج، لكن بتصميم خارق للعادة.

قطب نائب السلطان جبهته، وبنوع من الإحباط احتضن المرأة بين ذراعيه، واحتفظ بها ملتصقة به إلى أن تخلصت من دموعها، حياتها على شفتيها.

سمعته بعد لحظة يقول بلطف:

- أيَّ هذين الرجلين تبكين يا ابنة شديد؟

- أنت تعرف أنه بالنسبة لكريم...

وقبل أن تتابع تنهدت:

- كان أحدهما يمثل الماضي والثاني الحاضر والمستقبل. أحدهما كان يمثل الشك والظلام والثاني الوضوح والشمس. إنني أبكي المستقبل والشمس، يا صاحب الجلالة.

* * *

٢٨ نوفمبر ١٨٢٧

كانت شهرزاد جالسة بالشرفة وعيناها نحو النخلتين العتيقتين اللتين تسمان مدخل الصباح.

اقترب يوسف منها وأمسك بكفها.

- لقد مر شهر، ماما... لقد أحرقت جفنيك من فرط ما تأملت الأفق.

- لم أر جثمانه يا ولدي. لم يأتني به أحد. إن قلبه يخفق بين أضلعي، ودمه يسري في عروقي. إنه حي وسأذهب إلى موري. سأزيح كل قطعة منها وسأقلب البحر. إنه حي.

- موري شاسعة...

- حبي أشسع. عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لريكاردو. كل الكلمات التي فاتني أن أقولها له.

حبست رغبة في النحيب.

- التاريخ لم يفعل سوى أن بدأ يا ولدي. إنه حي.

جيلبرت سينويه



رواية

ترجمة: محمد بنعبود

منشورات الجمل